مجلة العلوم الإنسانية والتربوية
دورية علمية محكمة

- تصدر عن -

جامعة طبرق - ليبيا
Tobruk University– libya

رئيس التحرير
د. فوزي عمر الحداد
Fawzi.hadad@tu.edu.ly

العدد السابع - مارس 2023 م
السنة الثالثة

دلالات

مجلة دورية علمية محكمة متخصصة

تصدر عن جامعة طبرق- ليبيا

موقع الجامعة : www.tu.edu.ly

موقع المجلة : d.journal.tu.edu.ly

صفحة المجلة على الفيس بوك : www.facebook.com/delalatt

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية بنغازي: 52/ 2021

رقم الإيداع الدولي : 6956 – 2788 ISSN :

تستند المجلة إلى ميثاق أخلاقي يحكم عملية النشر في أعدادها، وإلى لائحة داخلية تنظم عملية التحكيم من خلال لجنة علمية استشارية متميزة من ليبيا وخارجها. المجلة غير مسؤولة عن الأفكار والآراء الواردة في البحوث المنشورة في أعدادها.

تُنشر المجلة الكترونيًا على المنصات الآتية :

AskZad | دار المنظومة DAR ALMANDUMAH

هيئة التحرير

د. حسن علـــي حسن	المشرف العـام
د. فـوزي عمر الحـداد	رئيس التحرير
د. علاء جابر الضراط	مدير التحريـر
د. أحمد محمد الميداني	منسق التحرير

لجنة المراجعة والتدقيق اللغوي

د. علي ماضي العبودي	كلية التربية جامعة طبرق
د. فيصل عبدالله حيدر	كلية التربية المرج/ جامعة بنغازي
د. فتحي حسن خطاب	كلية الآداب جامعة سبها

الاخراج الفني

أنور الشريف الأمين

اللجنة الاستشارية العلمية

1. أ د أحمد الهـــادي رشـــراش	كلية اللغات – جامعة طرابلس
2. أ د. أحمـد عمـــران بن سليم	كلية الآداب – جامعة بنغازي
3. أ د. أحمـــد عيســـى فـــــرج	كلية السياحة والآثار – جامعة عمر المختار
4. أ.د إسماعيل فتحي حسين الباجور	كلية الآداب – جامعة الموصل
5. ا.د انـور فتح الله عبدالقـــادر	كلية الآداب – جامعة درنة
6. أ د. خليفـــة صالـــح حـواس	عميد كلية القانون – جامعة سرت
7. أ د. سعديـة حسـين البرغثـي	كلية التربية – جامعة بنغازي
8. أ.د سميرة محمد العياطـــــي	كلية الآداب – جامعة طرابلس
5. أ د. عبدالرحيم محمـــد البدري	كلية الآداب – جامعة بنغازي
6. أ د. عبدالله سالـــم مليطـــان	عميد كلية الآداب – جامعة طرابلس
7. أ د عبدالقـــــادر لشـقـــــر	جامعة سيدي محمد بن عبدالله المغرب
8. أ د. عيـــاد أبوبكـــر هاشـــم	عميد كلية الفنون الجميلة والإعلام سابقًا- طرابلس
9. أ د. فتحي رمضان الماقـــوري	الأكاديمية الليبية للدراسات العليا- طرابلس
10. أ د. محمـــد أحمـــــد الوليد	كلية الآداب جامعة بنغازي
11. أ د مفتاح اغنيـــة محمـــــد	كلية القانون جامعة بني وليد
12. أ د. فريـــدة الأمـين المصـري	كلية اللغات – جامعة طرابلس
13. أ د. مسعـود حسـين التائـب	كلية الآداب – جامعة الزاوية
14. أ د. مهنـد سامي العلوانـــي	كلية التربية – جامعة الزاوية
15. أ د. وليـد شعـــيب آدم	كلية الآداب – جامعة طبرق
16. د. أحـــمـــد مـــزهـــار	المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين-فاس مكناس – المغرب
17. د الشريف امراجـع حامـــد	كلية الآداب – جامعة عمر المختار
18. د. حافـظ الصديق منصـور	كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة طبرق
19. د. خـديجـة زيـــــــدي	كلية الآداب – جامعة سيدي محمد بن عبدالله / المغرب
20. د. جمعة ارحومـــة الجالـــي	كلية الآداب – جامعة طبرق
21. د. رضاء عبدالحليم جاب الله	كلية الآداب – جامعة طبرق
22. د. زهـرة عبدالعزيـــز الثابت	كلية الآداب والعلوم الإنسانية القيروان/ تونس
23. د. سالمـة صالـــح العمامـي	كلية الآداب – جامعة طبرق
24. د. سالم عبدالرسول المهـــدي	كلية الآداب – جامعة طبرق
25. د. سليمـــة عمـــر التائـــب	كلية الآداب – جامعة مصراتة
26. د شعبان محمود الهـــواري	كلية القانون – جامعة خليج السدرة
27. د. شوكـــت نبيـــل المصـري	أكاديمية الفنون- القاهرة / مصر
28. د. صفـــاء امحمـــد فنيخرة	كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية – الجامعة الأسمرية
29. د. عـــادل إبراهيم المحـــروق	كلية الآداب – جامعة غريان
30. د عادل عبد العزيز غـــــيث	كلية الآداب والعلوم المرج جامعة بنغازي
31. د. عاصـــم زاهـــي العطروز	الجامعة الإسلامية- مينسوتا- أمريكا
32. د. علـــي عبدالأمير عبـــاس	رئيس تحرير مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم الإنسانية/ الأردن

33. د. فرحـــة مفتـــاح عبـدالله	عميد كلية الآداب - جامعة سرت
34. د. كريمـــة المبروك الرقيعـــي	كلية الآداب والعلوم – جامعة درنة
35. د. محمد شحاتـــة واصـــــل	كلية التربية جامعة طبرق
36. د. محمـــد مفتـــاح فضيـــل	كلية الآداب – جامعة عمر المختار
37. د. هاشـــم منصـــور مفتاح	كلية الآداب – جامعة درنة
38. د. هدى عطيـــة عبدالغفـــار	كلية الآداب - جامعة عين شمس القاهرة / مصر
39. د. هنيء محليـــة الصحـــــة	كلية الآداب- جامعة مالانج الحكومية/ إندونيسيا
40. د. يحيـــى عمـــر القويضـــي	كلية التربية - جامعة مصراتة
41. د. وريـــدة علـــي المنقـــوش	كلية التربية – جامعة مصراتة

مجلة دلالات للعلوم الإنسانية والتربوية

في سياق الحرص على مواكبة التطور في مجال النشر العلمي ورغبة في توفير نافذة رصينة للنشر الأكاديمي، تسعى نحو العالمية، نعلن إطلاق المجلة العلمية المُحكمة: دلالات (DELALAT) المخصصة لنشر الأبحاث الأكاديمية في مجال العلوم الإنسانية والتربوية، وفقًا للضوابط والمعايير المعتمدة عربياً ودولياً.

تهدف المجلة إلى:

- السعي نحو إدراج المجلة ضمن قواعد البيانات العالمية للمجلات ذات معامل التأثير/ Impact Factor، وذلك عبر ضوابط التحكيم والنشر الدقيقة التي تتبعها المجلة.
- توفير نافذة نشر رصينة للباحثين الأكاديميين، وإتاحة الفرصة أمامهم لنشر بحوثهم حسب جودة محتواها العلمي، مع مراعاة الالتزام بقواعد التفكير العلمي منهجاً ولغةً في عرض الأفكار وتقديمها أو تحليلها.
- تغطية التظاهرات الثقافية ذات العلاقة باختصاص المجلة ، مثل الندوات والمؤتمرات ومعارض الكتاب وعرض لأهم المؤلفات الصادرة حديثاً في كل فروع العلوم الانسانية.

رؤيتنا:

مجلّة علميَّة عربية ليبية المنطلق، تسعى للتميز لتكون خيار الباحثين الأول لنشر بحوثهم ودراساتهم في مجالات اهتمام المجلة.

رسالتنا:

نسعى لنقدم محتوى يجعل المجلة مرجعاً علمياً أصيلاً للباحثين وفق المعايير العالمية من حيث الأصالة، والمنهجية، والتميز العلمي.

أهدافنا:

- المشاركة في بناء مجتمع المعرفة من خلال نشر الأبحاث العلمية المحكمة من متخصصين ذوي مستوى رفيع.
- تقديم بحوث مميزة وإنتاج المعرفة التي تخدم المجتمع، ودعم الإبداع الفكري والتوظيف الأمثل للتقنية والشراكة المحلية والعالمية الفاعلة.
- استقطاب الباحثين المتميزين، في عضوية هيئة التحكيم الاستشارية سعياً لتجويد البحوث المقدمة للنشر في المجلة، ولإنشاء بيوت خبرة علمية ذات كفاءة عالية وتميز رفيع.
- تلبية حاجات الباحثين على المستويات المحلية والعربية في مجال بحوث العلوم الإنسانية والتربوية.
- إنشاء محتوى الكتروني فارق للنشر العلمي المتخصص لخدمة الباحثين والدارسين ومؤسسات المجتمع كافة.

شروط النشر في مجلة دلالات

- تنشر المجلة البحوث باللغتين: العربيةّ, والإنجليزية.
- يقبل للنشر في المجلة البحوث, والنصوص المحققة والمترجمة وعروض الكتب الحديثة الصادرة في مجال اختصاص المجلة.
- يشترط في البحث المقدّم للمجلة أن يكون أصيلاً وغير منشور أو مقدّم للنشر لدى جهة أخرى. ويوقع الباحث بذلك تعهداً خطياً مرفقاً بالبحث، حسب النموذج الموجود المرفق بهذه الشروط، ويمكن سحب النموذج من موقع المجلة الالكتروني.
- أن يكون البحث المقدم خاضعاً لأسس البحث العلمي, مدققاً لغوياً وخالياً من الأخطاء اللغوية والإملائية والطباعية، مستوفياً شروط البحث العلمي المتعارف عليها.
- أن يكون البحث المقدّم للمجلة مطبوعًا بوساطة برنامج (Word) وهوامش (2.5سم) وحجم الورقة (A4)ولا يتجاوز البحث (25) صفحة، بما في ذلك الملخصين العربي والإنجليزي وقائمة المراجع والمصادر، ولا يقل عن (15) صفحة، ونوع الخط لبحوث اللغة العربيّة هو(simplified arabic) بنط (14) في المتن وبنط (16) في العناوين, وبنط (12) في الهوامش, ويكون نوع الخط في بحوث اللغة الإنجليزيّة Times New Roman، بنط (14)، والهوامش بنط (12).
- يكتب عنوان البحث واسم الباحث ودرجته العلمية والمؤسسة التي ينتمي إليها وعنوان بريده الالكتروني وهاتفه الشخصي على صفحة مستقلة قبل صفحات البحث، ثم تتبع بصفحات البحث.
- يراعى في كتابة البحث عدم إيراد اسم الباحث في متن البحث أو في مراجعه صراحة، أو بأية طريقة تكشف هويته.
- يرفق البحث بملخصين (عربي وإنجليزي) لا تزيد كلمات كل منهما عن 150 كلمة، يليهما كلمات مفتاحية (key words) لا تزيد عن خمس كلمات غير موجودة في عنوان البحث تعبر عن مجالات البحث لتستخدم في التكشيف.
- تدرج الهوامش أسفل الصفحات، وتكون أرقامها متسلسلة حتى نهاية البحث. مع مراعاة ذكر المعلومات كاملة عند ذكر المرجع لأول مرة، وإذا ذكر مرة أخرى فيكتفى باسم الكتاب والصفحة، ويتم وضع قائمة بالمصادر والمراجع في نهاية البحث وترتيبها أبجدياً، ويراعى في كتابة أسماء المؤلفين ذكر الاسم أولا ثم الكنية، أو بالطريقة المكتوب بها على غلاف الكتاب.
- في حالة قبول البحث للنشر تؤول كل حقوق النشر للمجلة، ولا يجوز للباحث

نــشر بحثــه أو تقديمــه بأيــة طريقــة لأي جهــة نــشر أخــرى دون إذن كتابــي مــن رئيــس التحريــر.

- لا يمكن للمجلة قبول أي بحث بدون مراعاة ضوابط النشر السابقة.
- البحــوث المنشــورة في المجلــة تعــبر عــن آراء مؤلفيهــا، ولا تعكــس بالــضرورة آراء هيئــة التحريــر أو جهــة الإصــدار.
- ترسل الأبحاث كاملة مستوفية للشروط المعلنة على البريد الالكتروني للمجلة:

Delalat@tu.edu.ly

ت	المحتويات	الصفحة
1	فقه تدبير الاختلاف سبيل إلى الائتلاف أ د. أحمد عزيوي	13
2	قاعدة الشك في التماثل كتحقق التفاضل (دراسة فقهية تطبيقية) عبدالمجيد المبروك علي خالد.	54
3	التوجيه الأصولي للإمام الصنعاني في مسألة فسخ عقد امرأة المُعسِر د. فرج المبروك آدم محمد	69
4	حديث " لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الآخِرَةِ " دراسة حديثية عقدية د. حسين حميد عباس	88
5	أثر الأعذار والجوائح على عقد الإيجار في المذهب المالكي أ.عمر المختار البشكار المغيربي	115
6	الكسب المشروع في الفقه الإسلامي مفهومه - مقاصده -طرق استثماره محمد أحمد عمران عثمان	126
7	أُصُولُ النَّظَرِ الائْتِمَانِي وفَلْسَفتُه الأَخْلاَقِيَّة عِندَ طَهَ عبد الرَّحْمَـن في أُفُق التَّأسيس لِنَسقٍ مَعرفِي مُتكامِلٍ بين عِلمِ الأَخلاقِ وعلوم الوحي د.يوسـف المتوكّـل	144
8	معالم تجديد الدرس الأصولي عند مالكية الغرب الإسلامي الدكتور محمد والزين	171
9	المتلقي عند ابن قتيبة الدينوري في مقدمة كتابه عيون الأخبار د. الخير عامر رحب عبد الكريم أ. آمنة عبد السلام ربوه	197
10	علاقة البنية الإيقاعية بالصورة في شعر علي الرقيعي قصيدة (في بلادي) أنموذجًا أ. حليمة محمد مختار عبد القادر	216
11	دور الصُّورة في تحقيق الوحـــدة الفنيَّة بين نقائض جرير والفرزدق أ ـ زهرة خليفـــة عبـدالسلام خليفـــة	226
12	ممارسة الخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الأطفال الموهوبين د. حسين الشارف عبدالله محمد د. وائل صلاح ابريك الدمنهوري .	242
13	امتلاك مهارات تقرير المصير وعلاقتها بالتفكير المستقبلي لدى معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم. د. ريم عبدالله الكناني د. صالح عليان درادكة	273
14	مســاهمة الهيئــة التدريســية بجامعــة طــبرق تجــاه تطويــر التعليــم الجامعــي في ضــوء اســتخدام مصــادر المعلومــات الإلكترونيــة والإعــلام الإلكترونــي. د. خالد سعيد اسبيته احميـــدة. أ. خالد شحاته رزق الله مفتاح.	294

ت	المحتويات	الصفحة
15	طرق البحث النوعي في نظرية الترجمة للباحث : دومينيك جلين فير د. الحسين سليم أحمد محسن	322
16	مؤشرات مستوي المعيشة في ليبيا خلال العصور الاسلامية (خلال القرنين الرابع والخامس الهجري) قراءه في كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين د. حسين حسن مصطفى امقاوي	343
17	السياسة الخارجية الصينية تجاه أفريقيا (القرن الأفريقي نموذجاً) د. محمد إدريس عبدالعزيز إدريس	353
18	النشاط التجاري الروماني عبر الصحراء الليبية (27 ق.م284- م) إعداد: د. محمد عمران محمد الأربد	368
19	التحليل المكاني للحوادث المرورية في مدينة طبرق للفترة من (2000 - 2021م) "دراسة في جغرافية المدن" د. سعيد حامد محمد الداهية	384
20	حوض النوبة الجوفي ومعايير تقسيم مياهه بين دول الحوض دراسة جغرافية مستقبلية محمد أحمد الكف	405
21	حالات الطلاق في مدينة طبرق وضواحيها للفترة من 2009 - 2019م "تحليل جغرافي" د. عبدالعزيز عبدالكريم بوحليقة	427
22	المسؤولية التقصيرية للفريق الطبي - دراسة مقارنة في القانون المصري والليبي والفرنسي د. نصر جاب الله التهامي	445
23	نظرية الظروف الطارئة وأثرها على إعادة التوازن المالي لعقد الأشغال العامة في ليبيا زياد عوض عبدالله حمد	464
24	كفالة حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية في الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان العالمية والإقليمية (دراسة مقارنة) د. جبريل عوض موسى جبريل	485

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد وعلى آله المنتجَبِينَ وصحبه المتطهرين .

وبعد:

على بركة الله نصدر العدد السابع من دلالات مجلة العلوم الإنسانية والتربوية، إصدار علمي محكم لنشر الأبحاث العلمية الرصينة والدراسات الأصيلة، المنضوية تحت العلوم التربوية وما يتداخل معها من العلوم الإنسانية كافة.

وتستمر شُعلة مجلة " دلالات" منارةً للباحثين في دراسات العلوم الإنسانية والتربوية تهديهم السبيل، نحو بوابة النشر المتميز، طيلة سبعة أعداد تم نشرها الكترونياً وورقياً، في مواعيد ثابتة بواقع ثلاثة أعداد في العام (مارس- يوليو- نوفمبر) وذلك منذ صدور العدد الأول في مارس 2021 ، حتى اليوم موعد صدور هذا العدد.

وتبذل هيئة التحرير برعاية السيد المحترم أ د حسن علي خيرالله رئيس جامعة طبرق والمشرف العام على المجلة، جهوداً كبيرة في استقبال وانتقاء البحوث الجادة الأصيلة من خلال لجنة استشارية علمية على أعلى مستوى، وذلك سعياً لتتبوأ مجلة دلالات مكانتها التي تليق بها في عالم النشر العلمي المحكم، وذلك لما تسهم به في عملية إنتاج المعرفة وتيسير تداولها بين المهتمين من الباحثين والمختصين.

خصوصاً في هذا الوقت، الذي أدركت فيه مؤسسات التعليم العالي، من جامعاتٍ ومراكز للبحث العلمي أهمية المجلات العلمية المحكمة بوصفها مؤشراً مهماً من مؤشرات قياس مستوى الإنتاجية العلمية والمعرفية، من الناحيتين النوعية والكمية. فمن خلال هذا النوع من المجلات تسجل الجامعات ومراكز البحث العلمي حضورها وتفوقها، مثلما يسجل الأكاديميون والباحثون إنجازاتهم العلمية.

يأتي هذا الإصدار ليكون بداية مباركة للسنة الثالثة من عمر هذه المجلة، متزامناً مع شهر رمضان المبارك، في نسخة الكترونية تتبعها النسخة الورقية، ففي هذا العدد ننشر لباحثين جادين من مختلف أرجاء الوطن، من جامعة طبرق إلى عدد من جامعاتنا الوطنية وصولاً لباحثين من مختلف أنحاء العالم العربي، تحقيقًا لأهدافنا المعلنة في جعل المجلة منبرًا علميًا ليس فقط على المستوى المحلي وإنما على المستويين العربي والدولي.

وفقنا الله وإياكم لما فيه الخير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

د. فوزي عمر الحداد

رئيس التحرير

فقه تدبير الاختلاف سبيل إلى الائتلاف

إعداد:
أ د. أحمد عزيوي
أستاذ التعليم العالي مؤهل بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
فاس/ مكناس المغرب

الاستلام : 13/ 2/ 2023 القبول : 5/ 3/ 2023

المستخلص:
تهدف هذه الدراسة إلى بيان طبيعة الاختلاف الواقع بين مكونات الأمة الإسلامية والذي أدى بها إلى العداوة والبغضاء والتنازع والاقتتال فيما بينها، ففشلت وكادت تذهب ريحها، وبيان كون فقه تدبير هذا الخلاف سبيلا إلى تحقيق الائتلاف بين المختلفين فيجمع شمل الأمة وترص صفوفها وتوحد كلمتها. فتناولت أهمية العلم بالاختلاف بنوعيه المحمود الذي يؤول إلى الاتفاق، والمذموم الذي يؤدي إلى العداوة والشقاق، والعلم بفقه تدبير هذا الأخير وقواعد تدبيره وآلياته وآدابه، ومن يدبره وشروطه، وأصناف المختلفين بسبب ديني أو دنيوي وصفاتهم وطبائعهم، والمنهج المتبع في ائتلافهم.
كما تناولت مفهوم الائتلاف بين المسلمين وأهميته وإمكانيته ومراحله مراعية في ذلك فقه الأولويات وسنة التدرج لتيسير حصول الائتلاف المقصود المحدود ثم المنشود.

الكلمات المفاتيح:
الاختلاف المحمود – الاختلاف المذموم – الائتلاف المحدود – الائتلاف المنشود

Abstract:

This study aims at showing the nature of disagreement that now exists between the components of the Muslim Nation, and which has led to enmity, hatred, conflicts and even fight between them that the Nation nearly failed and lost its impact. The study also aims at depicting that the grasp of how to arrange this disagreement following the Islamic jurisprudence is the solution to realise harmony among the parts in disagreement, thus uniting the nation and its components. The study, then, highlights the importance of being conscious of both kinds of disagreement; the praiseworthy one, which ends with agreement and harmony, and the dispraised one that leads to enmity and disunity. It also tackles the rules, tools and ethics of arranging the latter as well as who can arrange it and what conditions are required in him, and kinds, characteristics and features of the parts in disagreement, and what caused the disagreement, is it religious or worldly affairs along with the method to follow to bring them to unity. Moreover, it discusses the concept of affinity among Muslims, its importance, possibility, and stages taking into consideration priorities and gradual progress to facilitate achieving the sought, aimed and defined affinity.

Key words:

praiseworthy disagreement – dispraised disagreement – defined affinity – sought affinity.

مقدمة :

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

إن الله تعالى أخرج الأمة الإسلامية للناس، وجعلها خير أمة بإيمانها وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وأنعم عليها بتفضيلها باسم العدالة وتولية خطير الشهادة على جميع خلقه، فقال فيها: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ **(البقرة: 143).**

ولتبقى أهلا لذلك دعاها سبحانه إلى أن تكون على ملة واحدة وعلى دين واحد، وتعتصم بحبله، وحذرها من الفرقة والتنازع حتى لا تفشل وتذهب ريحها، فقال سبحانه: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ **(الأنبياء: 92)، وقال عز وجل:** ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ **(آل عمران:103)، وقال تعالى:** ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ **(آل عمران: 105).**

فاستجابت لربها فتوحدت وائتلفت، وحافظت على وحدتها أكثر من عشرة قرون - وإن وجدت فيها استثناءات - لكنها لم تضعفها ولم تفرق كلمتها، فبقيت قوية موحدة محافظة على دينها ومبادئها وكرامتها، وحامية حماها وحدودها، وقادرة على رد كيد أعدائها.

لكنها اليوم تعاني من التفرق في الدين ومن الاختلاف المذموم المشين الذي أدى إلى الشحناء والبغضاء والتدابر والعداوة بين المسلمين، وصاروا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون وتنازعوا ففشلوا وكادت تذهب ريحهم.

فأصبحت أحوج ما تكون إلى من ينبهها إلى أسباب تفرقها وضعفها، ويدلها على السبيل لتغيير حالها وإعادة وحدتها وائتلافها وعزتها وخيريتها.

وفي إطار الإسهام في تحقيق هذا الهدف العظيم تأتي هذه الدراسة التي وسمتها ب (فقه تدبير الاختلاف سبيل إلى الائتلاف)، لتدلها على سبيل ائتلافها ووحدتها المتمثل في :

1 - الفقه بالاختلاف في شريعتها من حيث حقيقته وأنواعه وأسبابه ومآلاته.

2 - وفقه تدبيرالاختلاف من حيث أهميته وقواعده وآدابه وأهله وأصناف المختلفين وطرق ائتلافهم.

3 - وفقه الائتلاف من حيث أهميته وإمكانيته ومراحل تحقيقه.

الدراسات السابقة: هي كثيرة يصعب عدها وحصرها وقد وقفت على مجموعة منها، وحرصت على أن لا يكون عملي هذا تحصيل حاصل ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

ولا شك أن في تلك المؤلفات خيرا كبيرا، وعلما غزيرا، لكن الجديد في هذه الدراسة مما ليس فيها - حسب علمي - هو تقسيم أسباب الاختلاف إلى أسباب دينية

وأخرى دنيوية، والوقوف على أصناف المختلفين في الأمة المتدينين منهم والعلمانيين واللادينيين والقوميين وغيرهم، وبينت المنهج المقترح للائتلاف مع كل صنف منها. وارتأيت أن تتكون هذه الدراسة من مقدمة وثلاثة مباحث وفي كل مبحث مطالب ثم خاتمة وهي كما يلي:

المقدمة : أبين فيها أهمية الموضوع ودواعيه والحاجة إليه وهدفه والجديد فيه..

والمبحث الأول : خصصته للحديث عن العلم بالاختلاف وفيه مطالب

والمبحث الثاني: خصصته للحديث عن العلم بتدبير الاختلاف وبأصناف المختلفين وفيه مطالب

والمبحث الثالث خصصته للحديث عن الائتلاف بين المسلمين: مفهومه وأهميته وإمكانيته ومراحله، وفيه مطالب.

والخاتمة : ضمنتها الخلاصات والنتائج والتوصيات

واعتمدت في هذه الدراسة المنهج الوصفي والمنهج التحليلي، وجمعت فيها بين الجانب النظري والجانب التطبيقي التنزيلي مراعيا في ذلك الواقع المعيش.

المبحث الأول : العلم بالاختلاف

ويتكون من مجموعة من المطالب:

المطلب الاول: مفهوم الاختلاف

الاختلاف لغة واصطلاحا:

الخلاف في اللغة : هو مصدر خالف، كما أن الاختلاف مصدر اختلف، والخلاف هو: المضادة، وقد خالفه مخالفة وخلافاً، وتخالف الأمران واختلفا، لم يتفقا، وكل ما لم يتساوَ فقد تخالف واختلف)[1].

قال الراغب الأصفهاني: (الخلاف: أعم من الضد؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين)[2].

الخلاف في الاصطلاح: الخلاف أوالاختلاف في الاصطلاح هو: (أن يذهب كل واحد إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر)[3].

أو هو: (منازعة تجري بين المتعارضين؛ لتحقيق حق أو لإبطال باطل)[4].

والمستفاد من هذين التعريفين للاختلاف وما ورد في معناه اللغوي، هو أن الفقهاء يستعملون لفظ الخلاف أو الاختلاف بِمَعْنَييهما اللُّغَوِيِّن وهما عندهم بمعنى واحد، وإن اختلفت أسبابه ودواعيه وآثاره، ولذلك نجده يضاف لكل علم وقع فيه فيصطبغ بصبغته، فيقال: الخلاف الأصولي، والخلاف الفقهي، والخلاف الكلامي، والخلاف النحوي، والخلاف السياسي وهكذا.

(1) انظر: ابن منظور لسان العرب: 4/ 181 – 192

(2) الراغب الأصفهاني: مفردات القرآن: ص 294

(3) انظرالفيومي أحمد بن محمد: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ،: ص179.

(4) الجرجاني علي بن محمد: التعريفات: ص135

إلا أن هـذا لا ينفـي كـون الفقهـاء إذا أطلقـوه في كتبهـم أو أضافـوه إلى العـالي - الخـلاف العـالي- فإنـه ينـصرف إلى الخـلاف الفقهـي دون غـيره.
والـذي أعنيـه بالاختـلاف في عنـوان هـذا البحـث هـو معنـاه العـام اللغـوي الـذي يشـمل كل أنـواع الاختـلاف الممكنـة بـين المسـلمين، المذمومـة منهـا والمحمـودة، ومـا كان منهـا يرجـع إلى أمـر دينـي كالاختـلاف في الأصـول والقواعـد والكليـات والفـروع والجزئيات، أو كان يرجـع إلى أمـر دنيـوي كالاختـلاف السـياسي في توليـة رئيـس أو خلعـه مثـلا، وهـي أكثـر الأسـباب وأخطرهـا، والاقتصـادي والاجتماعـي، والاختـلاف الناتـج عـن المعـاصي كالظلـم والتعـدي في المـال أو الـدم أو العـرض،. أو كان يرجـع إلى الأمريـن معـا الدينـي والدنيـوي.

المطلب الثاني : أهمية العلم بالاختلاف ومواقعه

إن لمعرفـة الاختـلاف ومواقعـه أهميـة كـبرى عنـد العلمـاء تجلـت في كـون بعضهـم اعتـبره هـو عـين العلـم، وعـده آخـرون شرطـا مـن شروط الاجتهـاد والإفتـاء، يقـول الشـاطبي بعدمـا أورد أقوالهـم (... وَلِذَلِـكَ جَعَـلَ النَّـاسُ الْعِلْـمَ مَعْرِفَـةَ الِاخْتِـلَافِ... وَكَلَامُ النَّـاسِ هَنَـا كَثِـيرٌ، وَحَاصِلـهُ مَعْرِفَـةُ مَوَاقِـعِ الْخِـلَافِ، لَا حِفْـظَ مُجَـرَّدِ الْخِـلَافِ، وَمَعْرِفَةُ ذَلِـكَ إِنَّمَـا تَحْصُـلُ بِمَـا تَقَـدَّمَ مِـنَ النَّظَـرِ؛ فَـلَا بُـدَّ مِنـه لـكل مُجتهـد.)[5].
ومـن هـؤلاء النـاس مـن ذكرهـم ابـن العربـي في قولـه: [فَعَـنْ قَتَـادَةَ: (مَـنْ لَـمْ يَعْـرِفْ الِاخْتِـلَافَ لَـمْ يشـمَّ أَنفُـه الْفِقْـهَ) وَعَـنْ هِشَـامِ بْـنِ عُبَيْـدِ اللَّـهِ الـرَّازِيِّ: (مَـنْ لَـمْ يَعْـرِفِ اخْتِـلَافَ الْقِـرَاءَةِ فَلَيْـسَ بِقَـارِئٍ، وَمَـنْ لَـمْ يَعْـرِفِ اخْتِـلَافَ الْفُقَهَـاءِ فَلَيْـسَ بِفَقِيـهٍ). وَعَـنْ عَطَـاءٍ: (لَا يَنْبَغِـي لِأَحَـدٍ أَنْ يُفْتِـيَ النَّـاسَ حَتَّـى يَكُـونَ عَالِمًـا بِاخْتِـلَافِ النَّـاسِ؛ فَإِنَّـهُ إِنْ لَـمْ يَكُـنْ كَذَلِـكَ رَدّ مِـنَ الْعِلْـمِ مَـا هُـوَ أَوْثَـقُ مـن الـذي في يديـه).
وَعَـنْ أَيُّـوبَ السِّـخْتِيَانِيِّ وَابْـنِ عُيَيْنَـةَ: (أَجْـسَرُ النَّـاسِ عَـلَى الْفتيـا أَقَلُّهُـمْ عِلْمًـا بِاخْتِـلَافِ الْعُلَمَـاءِ)، زَادَ أَيُّـوبُ: (وأمسـكُ النـاسِ عَـنِ الْفُتْيَـا أَعْلَمُهُـمْ بِاخْتِـلَافِ الْعُلَمَـاءِ).
وَعَـنْ مَالِـك: (لَا تَجُـوزُ الْفتْيَـا إِلَّا لِمَـنْ عَلِـمَ مَـا اخْتَلَـفَ النَّـاسُ فِيـهِ، قِيـلَ لَـهُ: اخْتِـلَافَ أَهْـلِ الـرَّأْيِ؟ قَـالَ: لَا، اخْتِـلَافَ أَصْحَـابِ مُحَمَّـدٍ صـلى اللـه عليـه وسـلم، وَعَلِـمَ النَّاسِـخَ وَالْمَنْسُـوخَ مِـنَ الْقُـرْآنِ وَمِـنْ حَدِيـثِ الرَّسُـولِ اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم).

المطلب الثالث : أصل الاختلاف ومصدره

إن الأصـل في الاختـلاف الواقـع بـين النـاس بـكل أنواعـه هـو اختـلاف آراء الناظريـن في الشريعـة وأنظارهـم واجتهاداتهـم وأفهامهـم ومداركهـم وأهوائهـم، وليـس في الشريعـة. وراجـع كذلـك إلى اختـلاف تصوراتهـم للوجـود والحيـاة والمـوت، واختـلاف شـهواتهم وأهوائهـم ومقاصدهـم...
لأن الأصل في الشريعة أنها لا اختلاف في أصولها ولا في فروعها، ولا تعارض بين نصوص القرآن، ولا بين نصوص السنة الصحيحة، ولا بين نصوص القرآن ونصوص السنة. وكل ما يظن بأنه تعارض بينها لا يعدو أن يكون تعارضا في ظواهرها وليس فيها .

(5) الشاطبي في الموافقات: 4/ 116

لأن الشريعة جاءت لرفع الخلاف والنزاع بين المختلفين والمتنازعين، وقد نفى الله عنها الاختلاف ونهى الناس عنه وحذرهم منه.
يقول الشاطبي رحمه الله: (الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف، كما أنها في أصولها كذلك، ولا يصلح فيها غير ذلك.)[6]

المطلب الرابع : مشروعية الاختلاف

مشروعية الاختلاف قد أصل لها القرآن والسنة النبوية منذ عهد التشريع، واتخذه السلف منهجا لهم في الحياة، مما أعطى للحركة العلمية إشعاعا فكريا و ثقافيا متميزا في شتى المجالات و في العلوم المختلفة.
واستدلوا على ذلك بأدلة من القرآن والسنة.

المطلب الخامس : أسباب اختلاف الناس وأنواعه

لقد كان الناس أمة واحدة متفقين على دين واحد فاختلفوا، فأرسل الله إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ليحكموا بينهم فيما اختلفوا فيه من الحق.
قال الخطابي : (والاختلاف في الدين ثلاثة أقسام أحدها: في اثبات الصانع ووحدانيته وإنكار ذلك كفر. والثاني: في صفاته ومشيئته وإنكارها بدعة. والثالث: في أحكام الفروع المحتملة وجوها، فهذا جعله الله تعالى رحمة وكرامة للعلماء .)[7]
نستنتج من هذه الأقوال أن الناس جميعا ينقسمون إلى قسمين اثنين هما:
1 - المختلفون (أمة الدعوة): وهم أهل الكفر والشرك والضلال
2 – المتفقون (أمة الاستجابة): وهم أهل الإيمان والتوحيد والهدى
وهذا القسم الثاني – أمة الاستجابة – قد يعرض لهم الاختلاف في مسائل الاجتهاد، وهو قسمان :
أحدهما: الاختلاف المحمود: وهو الواقع في الفروع دون الأصول وفي الجزئيات دون الكليات.
وثانيهما: الاختلاف المذموم: وهو الواقع في بعض قواعد الدين أو كلياته.

أولا: الاختلاف المحمود: أصله ومآله وأسبابه وأهله
1 – الاختلاف المحمود: أصله ومآله

الاختلاف المحمود إما أن يكون راجعا إلى أمر ديني أو إلى أمر دنيوي.
فإن كان راجعا إلى أمر ديني فهو الذي اشتهر عند الفقهاء وهو المقصود عند إطلاقه، وهو الناتج عن الاجتهاد المعتبر الصادر من أهله وفي محله، والباعث عليه طلب الحق وتحري مقصود الشارع.
ومحله هو ما لا نص فيه، أو ما فيه نص ظني الثبوت أو ظني الدلالة أو ظنيهما معا.

(6) الموافقات: 4/ 85
(7) النووي: شرح صحيح مسلم:11/ 91 - 92

وإن كان راجعا إلى أمر دنيوي، فهو الناتج عن اختلاف أنظار المسلمين وتقديراتهم في بعض المصالح والمنافع الخاصة، وفي درء بعض المفاسد الصغيرة المحدودة، وفي قدرتهم على الصبر على المكاره وتحمل الابتلاءات، وما يكون بسبب التنافس في طلب العلم أو الدنيا والمال والجاه في حدود المباح، وهذا لا يكاد ينفك عنه إنسان، وما شاكل ذلك مما لا تنتج عنه عداوة ولا بغضاء ولا فرقة، وتبقى معه الأخوة والمحبة، ولا يفسد للود قضية.

ويسمى كذلك الاختلاف المشروع، والجائز، والمباح، والمقبول، واختلاف التنوع، واختلاف التكامل.

...ويؤول من الاختلاف في حقيقته إلى الاتفاق، وينتج عنه التَّحَابُّ وَالتَّآلُفُ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِين، ولَمْ يَصِيرُوا شِيَعًا، وَلاَ تَفَرَّقُوا فِرَقًا. وذلك لأنه اختلاف معتد به، و(مَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنَ الْخِلاَفِ فِي ظَاهِرِ الأَمْرِ يَرْجِعُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَى الْوِفَاقِ ... وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ وَجْهُ التَّحَابِّ وَالتَّآلُفِ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي مَسَائِلِ الإِجْتِهَادِ، لأَنَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ عَلَى طَلَبِ قَصْدِ الشَّارِعِ، فَلَمْ يَصِيرُوا شِيَعًا، وَلاَ تَفَرَّقُوا فِرَقًا.)[8]

ولهذا تركت التفصيل فيه، لأنه محمود ومشروع وفيه رحمة واسعة، وفصلت الكلام في الاختلاف المذموم لما ينتج عنه من التفرقة والنزاع.

ثانيا : الاختلاف المذموم : أصله ومآله

بناء على ما عرفت به الاختلاف فيما سبق ذلكم التعريف الشامل لكل أنواع الاختلاف الدينية والدنيوية، فإن الاختلاف المذموم منه ما كان سببه أمرا دينيا، وما كان سببه أمرا دنيويا أو هما معا.

فأما ما كان راجعا إلى أمر ديني (ما هو بدعة): فهو ما وقع نتيجة اجتهاد من غير أهله، وفي غير محله، وكان الباعث عليه الهوى أو التعصب. ونتج عنه اتفاق في أصل الدين واختلاف في بعض قواعده الكلية. لأنه اجتهاد غير معتبر (وَهُوَ الصَّادِرُ عَمَّنْ لَيْسَ بِعَارِفٍ بِمَا يَفْتَقِرُ الإِجْتِهَادُ إِلَيْهِ؛ لأَنَّ حَقِيقَتَهُ أَنَّهُ رَأْيٌ بِمُجَرَّدِ التَّشَهِّي وَالأَغْرَاضِ، وَخَبْطٌ فِي عِمَايَةٍ، وَاتِّبَاعٌ لِلْهَوَى، فَكُلُّ رَأْيٍ صَدَرَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ فَلاَ مِرْيَةَ فِي عَدَمِ اعْتِبَارِهِ؛ لأَنَّهُ ضِدُّ الْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ...)[9]

وَهِو الذي (يَقَع الإِتِّفَاقُ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَيَقَعَ الإِخْتِلاَفُ فِي بَعْضِ قَوَاعِدِهِ الْكُلِّيَّةِ).

وأما ما كان منه راجعا إلى أمر دنيوي (المعاصي والمخالفات): فهو ما وقع من اختلاف بسبب اجتهاد جاهل في أمر دنيوي، الباعث عليه الهوى والتعصب بين قبيلتين أو جماعتين أو حزبين، نتيجة ظلم وتعد على دم أو مال أو عرض بغير حق، أو مخالفة أو معصية أدت إلى إثارة فتن عرقية جاهلية، أو سياسية كالخروج على إمام عادل ومخالفة السواد الأعظم من أهل الإسلام، تسببت في العداوة والبغضاء والفرقة بين المسلمين، وغيرها من المخالفات والمعاصي المماثلة التي ليست بدعا دينية.

(8) الموافقات: 2/ 159 – 160

(9) الشاطبي: الموافقات: 2/ 121

وما كان منه راجعا إليهما – الديني والدنيوي – فهو الذي اجتمعت فيه البدع والمعاصي والمخالفات وهو شرها وأخطرها لاجتماع الشرين والمفسدتين فيه.
ومآل هذا الاختلاف بأنواعه الثلاثة واحد هو أنها تؤدي جميعها إلى العداوة والبغضاء والتفرق شيعا والتنازع والاقتتال وفشل الأمة وذهاب ريحها.

1 – أسباب الاختلاف المذموم
لقد كان نبي الرحمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حريصا على هداية أمته وائتلافها، وخائفا عليها من الفرقة والنزاع مدة بعثته حتى أنه لما حضرته الوفاة أراد أن يكتب لها ما يحميها به من الضلال والبدع والاختلاف، إلا أنه حال بينه وبين ذلك اختلاف أصحابه كما ورد في الصحيحين عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجالٌ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده. فقال بعضهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهلُ البيت واختصموا، فمنهم مَنْ يقول: قربوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك. فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (قوموا.) قال عبيد الله: فكان يقولُ ابن عباس: إن الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم.)[10]
وقد وقع في هذه الأمة ما كان يخشاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها من الخلاف المذموم والضلال.
ولهذا الخلاف أسباب ثلاثة قد تجتمع وقد تفترق وهي:
1– الجهل: وذلك عندما يجتهد من لم يكن أهلا للاجتهاد وهو يعتقد أنه من أهل العلم والاجتهاد أو يعتقد الناس فيه ذلك وهو ليس كذلك، فيجتهد في الجزئيات وتارة في القواعد والكليات والأصول الاعتقادية والعملية.
2 – اتباع الهوى: إن المعنى المراد عند إطلاق كلمة الهوى هو إشباع شهوات النفس وتحقيق رغباتها. والغالب فيه أن يكون ميلا إلى خلاف الحق وتحقيق مشتهيات الطبع دون مقتضيات الشرع، فينتج عنه الضلال والشقاء.
وكان مذموما لأنه مخالف للمقصد الشرعي من وضع الشريعة الذي هو: (إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا)[11] .
(وسُمِّيَ أَهْلُ الْبِدَعِ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ لِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ فَلَمْ يَأْخُذُوا الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مَأْخَذَ الِافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهَا، حَتَّى يَصْدُرُوا عَنْهَا، بَلْ قَدَّمُوا أَهْوَاءَهُمْ،

(10) رواه البخاري ومسلم
(11) الشاطبي الموافقات: 2/128

وَاعْتَمَدُوا عَلَى آرَائِهِمْ، ثُمَّ جَعَلُوا الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مَنْظُورًا فِيهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ....)[12]
وقال فيه الشّنقيطيّ:(إنّ الواجب الّذي يلزم العلم به أن يكون جميع أفعال المكلّف مطابقة لما أمره به معبوده - جلّ وعلا-، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع ما يستحقّه عليه خالقه من العبادة والطّاعة إلى هواه.)[13]

3 – اتباع العوائد الفاسدة والاستنان بالرجال

والمقصود به اتباع ما كان عليه الآباء والكبراء، وهو التقليد المذموم، وقد ذمه الله تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ **(البقرة: 170).**
قال السعدي: (أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك، وقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس وأشدهم ضلالا وهذه شبهة لرد الحق واهية)[14]
وقوله تعالى: ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ **(الزخرف:22).**
قال القرطبي: (التقليد عند العلماء حقيقته قبول قول بلا حجة، وعلى هذا فمن قبل قول النبي صلى الله عليه وسلم من غير نظر في معجزته يكون مقلدا، وأما من نظر فيها فلا يكون مقلدا.
وفي التحذير من الاستنان بالرجال بلا تبين ولا نظر قال ابن مسعود: (لا يقلدن أحدكم دينه رجلا إن آمن آمن وإن كفر كفر فإنه لا أسوة في الشر)[15].

المختلف فيه وأصناف المختلفين:

1– المختلف فيه بين المسلمين

إن أكثر العلماء وأرباب الكلام والفقهاء الذين اهتموا بالبحث في حقيقة الاختلاف وفي أنواعه وأسبابه وآثاره سواء كان بين المجتهدين من الفقهاء والأصوليين، أو بين المقلدين أو بين الفرق التي افترقت بسبب أوقعها في العداوة والبغضاء يرجعونه إلى أمر ديني دون غيره من الأسباب، فإن كان في الفروع والجزئيات وتحروا فيه قصد الشارع كان اختلافا محمودا وجائزا، وإن كان في بعض قواعد العقائد وأصول الدين وكان الباعث عليه الجهل أو الهوى والتعصب كان اختلافا مذموما وممنوعا.

(12) انظر الشاطبي: الاعتصام : 2/ 371 وما بعدها

(13) أضواء البيان: (6/ 330

(14) انظر تفسير السعدي في تفسيره للآية: 170 من سورة البقرة

(15) و -رواهما الطبراني: 9/ 152 وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: الأول رجاله رجال الصحيح، والثاني: فيه المسعودي قد اختلط وبقية رجاله ثقات.

ولـم يرجـع أحـد منهـم ذلـك إلى أمـر دنيـوي أو إلى أمـر دينـي ودنيـوي، رغـم أنـه ممكـن وتنتظمـه الآيـات والأحاديـث الـواردة في التحذيـر مـن الفرقـة، وليـس ثمـة دليـل يـدل عـلى تخصيـص الأمـر الدينـي دون الدنيـوي أوهمـا معـا.

فاخـترت أن أتجـاوز هـذا العـرف أو التقليـد الـذي توارثـه العلمـاء وأربـاب الـكلام في حديثهـم عـن اختـلاف الأمـة وافتراقهـا إلى ثـلاث وسـبعين فرقـة، وقـصروا رجـوع أسـباب ذلـك عـلى أمـر دينـي عقـدي، فأضفـت إليـه أمـرا دنيويـا وآخـر جامعـا بينهما.

ومما أكـد لي اعتمـاد هـذا الـرأي واقـع الأمـة في المـاضي والحـاضر الـذي يشـهد بـأن كثـيرا مـن الاختلافـات المذمومـة التـي نتجـت عنهـا فرقـة وعـداوة وبغضـاء بـين المسـلمين يرجـع سـببها إلى أمـور دنيويـة وليسـت دينيـة، كمـا وقـع ويقـع بـين الـدول مـن اختلافـات سياسـية، واختلافـات بسـبب الحـدود الجغرافيـة البريـة أو البحريـة، وأخـرى بسـبب الأطمـاع الاقتصاديـة وغيرهـا كثـير قـد نتجـت عنهـا عـداوة وبغضـاء ومقاطعـة وأحيانـا اقتتـال.

وزد عـلى ذلـك أن الأمـة الإسـلامية في المـاضي كان الديـن مهيمنـا عـلى حياتهـا كلهـا وموجهـا لهـا - وإن كان فيـه دخـن -، في حـين لـم يعـد الديـن في زماننـا مهيمنـا عليهـا كمـا كان، فقـد زاحمتـه أفـكار ومذاهـب ماديـة وأنظمـة أجنبيـة علمانيـة يمينيـة ويسـارية بسـبب الغـزو الفكـري، حولـت اهتماماتهـا وأثـرت في أسـباب اختلافهـا وتفرقهـا.

ولهـذه الأسـباب وغيرهـا قسـمت المختلـف فيـه باعتبـار السـبب الـذي يرجـع إليـه إلى ثلاثـة أقسـام:

الأول: المختلـف فيـه الـذي يرجـع إلى أمـر دينـي: فهـو مـا وقـع نتيجـة اجتهـاد مـن غـير أهلـه، وفي غـير محلـه، وكان الباعـث عليـه الهـوى أو التعصـب. ونتـج عنـه اتفـاق في أصـل الديـن واختـلاف في بعـض قواعـده الكليـة، وهـو الـذي سـبق تفصيلـه.

والثانـي: المختلـف فيـه الـذي يرجـع إلى أمـر دنيـوي (المعـاصي والمخالفـات): فهـو مـا وقـع مـن اختـلاف بسـبب اجتهـاد جاهـل في أمـر دنيـوي الباعـث عليـه الهـوى والتعصـب، بـين دولتـين أو قبيلتـين أو جماعتـين أو حزبـين نتيجـة ظلـم وتعـد عـلى دم أو مـال أو عـرض بغـير حـق، أو مخالفـة أو معصيـة أدت إلى إثـارة فتـن عرقيـة جاهليـة، أو سياسـية كالخـروج عـلى إمـام عـادل ومخالفـة السـواد الأعظـم مـن أهـل الإسـلام، نتـج عنـه العـداوة والبغضـاء والفرقـة بـين المسـلمين، وغيرهـا مـن المخالفـات والمعـاصي المماثلـة التـي ليسـت بدعـا دينيـة.

والثالـث: المختلـف فيـه الـذي يرجـع إلى أمـر دينـي ودنيـوي: فهـو الـذي ينتـج عـن السـببين السـابقين واجتمعـت فيـه البـدع والمعـاصي والمخالفـات، وهـو شرهـم وأخطرهـم لاجتمـاع الشريـن فيـه والمفسـدتين .

ومـآل هـذا الاختـلاف المذمـوم بأنواعـه الثلاثـة واحـد هـو أنهـا تـؤدي جميعهـا إلى العـداوة والبغضـاء والتفـرق شـيعا، والتنـازع والاقتتـال وفشـل الأمـة وذهـاب ريحهـا.

وقـد أشـار الإمـام الشـاطبي رحمـه اللـه إلى هـذا - وإن كان هـو نفسـه لـم يراعـه

– أثناء حديثه عن سبب افتراق الفرق بقوله : (...هذه الفرق إن كانت افترقت بسبب موقع في العداوة والبغضاء فإما أن يكون راجعا إلى أمر هو معصية غير بدعة، ومثاله أن يقع بين أهل الإسلام افتراق بسبب دنيوي... وإما أن يرجع إلى أمر هو بدعة كما افترق الخوارج من الأمة ببدعهم التي بنوا عليها في الفرقة، وكالمهدي المغربي الخارج عن الأمة نصرا للحق في زعمه فابتدع أمورا سياسية وغيرها خرج بها عن السنة – كما سبقت الإشارة من قبل –، ...وإما أن يراد المعنيان معا).

وعلق على ذلك بقوله: (فأما الأول فلا أعلم قائلا به وإن كان ممكنا في نفسه إذ لم أر أحدا خص هذه بما إذا افترقت الأمة بسبب أمر دنيوي لا بسبب بدعة وليس ثم دليل يدل على التخصيص، لأن قوله عليه الصلاة والسلام (من فارق الجماعة قيد شبر) الحديث لا يدل على الحصر... فلم يكن منهم قائل بأن الفرقة المضادة للجماعة هي فرقة المعاصي غير البدع على الخصوص.

وأما الثالث وهو أن يراد المعنيان معا فذلك أيضا ممكن إذ الفرقة المنبه عليها قد تحصل بسبب أمر دنيوي لا مدخل فيها للبدع، وإنما هي معاص ومخالفات كسائر المعاصي...، فلا اختصاص بأحدهما غير أن الأكثر في نقل أرباب الكلام وغيرهم أن الفرقة المذكورة إنما هي بسبب الابتداع في الشرع على الخصوص، وعلى ذلك حمل الحديث من تكلم عليه من العلماء ولم يعدوا منها المفترقين بسبب المعاصي التي ليست ببدع)[16]. واستدل على ذلك بنصوص كثيرة قرآنية وحديثية وبأقوال العلماء.

2 – أصناف المختلفين

إذا كان تدبير الاختلاف يقتضي معرفة أصناف المختلفين وصفاتهم وطبائعهم فأجدني ملزما بذلك، وقد صنفتهم بناء على أقسام المختلف فيه فكانت ثلاثة أصناف هي:

الصنف الأول: المختلفون بسبب ديني: ويشمل خمس فئات هي:

1 – المقلدون المتعصبون للمذاهب وأئمتها

2 – الفرق الإسلامية الكلامية

3 – الطائفتان المسلمتان في حالة بغي إحداهما على الأخرى

4 – التنظيمات الإسلامية (الجماعات والحركات والمنظمات)

5 – الطرق الصوفية

الصنف الثاني: المختلفون بسبب دنيوي: ويشمل ثلاث فئات هي:

1 – السياسيون : الرؤساء والحكومات والأحزاب

2 – التنظيمات القومية العنصرية

3 – أصحاب المصالح الشخصية

(16) الشاطبي: الاعتصام: 2 / 381 وما بعدها، ومن رام التفصيل والأدلة على ذلك من القرآن والسنة وأقوال العلماء يجده هناك

المبحث الثاني: العلم بتدبير الاختلاف وبأصناف المختلفين

معنى تدبيرالاختلاف:

ودَبَّرَ الأَمْرَ وتَدَبَّره: نظر في عاقبته، واسْتَدْبَرَه: ودبر الأمر وتدبره: نظر في عاقبته، واستدبره رأى في عاقبته ما لم ير في صدره؛ ...

والتَّدْبِيرُ في الأَمر: أَن تنظر إِلى ما تَؤُول إِليه عاقبته، والتدبر التفكر فيه. وفلان ما يَدْرِي قِبَالَ الأَمْرِ من دِباره أَي أَوَّله من آخره.

والتدبير: أَنْ يُدبِّر الإنسانُ أمرَه، وذلك أَنَّه يَنظُر إلى ما تصير عاقبتُه وآخرُه، وهو دُبُره. (17)

وتدبير الاختلاف بين المسلمين هو النظر في عاقبته وما تؤول إليه بضبط شروطه وآلياته وضوابطه وآدابه، حتى لا يؤدي إلى العداوة والبغضاء والفرقة، وتحفظ معه الأخوة والمحبة والوفاق بينهم.

وحسن تدبير الاختلاف هو إتقانه حتى تحقق أقصى المنافع والمصالح الممكنة، وتدرأ أقصى ما يستطاع من المضار والمفاسد الحاصلة أو المتوقعة.

أهمية تدبير الاختلاف:

تتجلى أهمية تدبير الاختلاف في كونه استجابة لأمر الله تعالى الذي أمر المسلمين بالاعتصام بحبله جميعا وأن لا يتفرقوا، وأمرهم بإصلاح ذات البين بين الزوجين وبين من اختلفوا أو اقتتلوا من المؤمنين كما قال تعالى لما اختلف الصحابة في الغنائم: (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) (الأنفال: 1) فأمرهم بالتقوى وإصلاح ذات البين . وقال سبحانه في فضل الإصلاح بين الناس: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) (النساء: 114)

ومما يؤكد ذلك ما روي عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة ؟ قال : قلنا : بلى . قال : " إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة)[18] **. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب: (ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله، تصلح بين أناس إذا تفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا)**[19]**.**

كما تتجلى في أهمية مقاصده ونتائجه، فبه - بعد الله تعالى - تدفع الخصومات والخلافات والنزاعات التي تسبب العداوة والبغضاء والفرقة والاقتتال بين المسلمين، وبه تحفظ أخوتهم ومحبتهم وتوادهم وتعاطفهم وتعاونهم على البر والتقوى، وبه يتم التأليف بين القلوب، وتجمع الكلمة، وترص الصفوف، ويتحقق النصر بإذن الله تعالى.

(17) ابن منظور: لسان العرب وابن فارس: مقاييس اللغة في مادة (دبر)

(18) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح

(19) رواه الإمام أحمد في المسند 6/ 20، 22، والترمذي 4/ 165 رقم 1621 وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم 6679

ـ من يدبر الاختلاف لتحقيق الائتلاف؟

إن تدبير الاختلاف بين المسلمين مهمة صعبة، وأمانة ثقيلة، ولذلك أنيطت في الإسلام بمن توفرت فيه شروطها وكان أهلا لها، وهم حكام المسلمين وأمراؤهم أو من يوكلونه هم أو غيرهم من العلماء والخبراء الصالحين شريطة أن يكونوا من أهل العدالة وحسن النظر والبصر بالفقه في الدين وفي واقع المختلفين وحالهم.

وذلك مستفاد مما اشترطه الفقهاء من الصفات في الحكمين المكلفين بالصلح بين الزوجين في حالة الشقاق بينهما، - وهما فردان اثنان - وأقصى ما يقع بينهما في حالة عدم الصلح الطلاق وهو مباح، فما بالكم بمن يحكم بين طائفتين أو قبيلتين أو دولتين من المسلمين؟ فاشتراط تلك الصفات فيه آكد وأشد. يقول القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهلها وحكما من أهله...) الآية (سورة النساء: 35): (والجمهور من العلماء على أن المخاطب بقوله: " وإن خفتم " الحكام والأمراء. وأن قوله: إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما يعني الحكمين؛ في قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما. أي إن يرد الحكمان إصلاحا يوفق الله بين الزوجين. وقيل : المراد الزوجان ؛ أي إن يرد الزوجان إصلاحا وصدقا فيما أخبرا به الحكمين يوفق الله بينهما. وقيل: الخطاب للأولياء. يقول: إن خفتم أي علمتم خلافا بين الزوجين (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) والحكمان لا يكونان إلا من أهل الرجل والمرأة ؛ إذ هما أقعد بأحوال الزوجين، ويكونان من أهل العدالة وحسن النظر والبصر بالفقه . فإن لم يوجد من أهلهما من يصلح لذلك فيرسل من غيرهما عدلين عالمين ؛ وذلك إذا أشكل أمرهما ولم يدر ممن الإساءة منهما. فأما إن عرف الظالم فإنه يؤخذ منه الحق لصاحبه ويجبر على إزالة الضرر.)[20]

ومن هذا نخلص إلى أن الذين يناط بهم تدبير الخلاف والصلح بين المسلمين يشترط فيهم الشروط التالية:

- الإسلام: لأن المسلم مؤتمن وغير متهم في حرصه على الصلح بين المسلمين، لأنه أخوهم ومن أهل دينهم، والأعلم بحالهم، ولا يجوز أن يكونوا من غير المسلمين.

- العدالة : حتى يحكم بينهم بالحق وينصف المظلوم من الظالم، ومن كان ظالما لا ينبغي أن يوسد إليه هذا الأمر، لأنه يفسد ولا يصلح، ويفرق ولا يجمع.

- حسن النظر: وذلك بأن يكون فطنا ذكيا خبيرا بما يصلح للطرفين ليستجيبوا للصلح والاتفاق، ويهتم بأصول الخلاف دون فروعه وبأسبابه دون نتائجه، حتى لا يفسد ويفرق من حيث يظن أنه يصلح ويجمع، فيزيد المختلفين اختلافا وشقاقا.

- الإخلاص وابتغاء وجه الله: لأنه من كان قصده خالصا وفقه الله في تدبيره وإصلاحه.

- البصر بالفقه في الدين وفي واقع المختلفين وأحوالهم: لأنه بفقه الدين يعرف

(20) انظر الجامع لأحكام القرآن: تفسير الآية 35 من سورة النساء

الأحكام والحقوق والواجبات، والترغيب والترهيب إذا احتاج إلى الوعظ والتذكير، وبفقه واقعهم يعرف معتقداتهم وأفكارهم وعاداتهم ومنطلقاتهم ومقاصدهم، وأسباب اختلافهم، وظالمهم من مظلومهم، فيركز على ما يجمعهم ولا يفرقهم.

قواعد تدبير الخلاف بين أصناف المختلفين وآدابه:

إن الحديث عن قواعد تدبير الخلاف وآدابه كتب فيها الكثير وتحدث عنها جمهور غفير، وفي كل ذلك خير كثير، ومع ذلك لازال بين المسلمين اختلاف مذموم خطير وشره مستطير. لأن غالبية من كتبوا وألفوا في هذا الموضوع أرجعوا كل أسبابه إلى أمور دينية – قواعد العقائد والابتداع في الدين–، ولم يلتفتوا إلى الأسباب التي ترجع إلى أمور دنيوية علما بأن ما يسمى بالفرق الكلامية التي كان سببها الرئيس الخلاف في الإمامة وهي أمر دنيوي تحول بعد ذلك إلى أسباب دينية.

ولعل ذلك راجع إلى استصحاب المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها خلافات دينية نشأت عنها فرق إسلامية، منها ما بقي على الهدى، ومنها ما ابتدع وضل، ومنها ما غلا وكفر، ومنها ما انقرض واندثر، ومنها ما بقي على الضلال وتفرق وانتشر.

كل ذلك وغيره شغلهم عما حدث وجد في مجتمعاتهم من خلافات دنيوية نشأ عنها أصناف من المختلفين بأسماء مختلفة عصرية – نتيجة عوامل داخلية وخارجية–، قد تغلف أحيانا بالدين وهي ليست دينية زادت من تمزيق الأمة وتفرقها، ولا تقل خطرا عن سابقاتها.

وبالإضافة إلى ذلك أنهم يذكرون الأسباب والآداب وقواعد التدبير مجردة بعيدة عن الواقع المعيش وما يجري فيه من خلاف وضلال وطيش، ويتحدثون عن مختلفين قد ماتوا وماتت أفكارهم وبدعهم، ويقدمون أمثلة كذلك لا صلة لها بزماننا ولا بمكاننا وكأننا نكتب لغيرنا.

ولذلك فالأمة اليوم في حاجة إلى إعادة النظر في منهجية تدبير ما تعانيه من الاختلاف المنكود لتحقيق الائتلاف المنشود.

ولهذا سلكت سبيلا مخالفا في حديثي عن أسباب الاختلاف و قواعد تدبيره وآدابه، وحرصت على أن لا أتركها مجردة فربطتها بالزمان والمكان والحال. وذلك بربط كل صنف من أصناف المختلفين – السالفة الذكر - بما يناسبه من القواعد والآداب، وبحسن تدبير اختلافه لتحقيق الائتلاف، وهو كما يلي:

أولا: تدبير الاختلاف بين المختلفين بسبب ديني:

ويشمل خمس فئات وهي:

الفئة الاولى: المقلدون المتعصبون للمذاهب الفقهية وأئمتها:

والمقصود بهم بعض أتباع المذاهب الفقهية الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد، واقتصروا على تقليد الأئمة وتمسكوا بآرائهم واجتهاداتهم حتى قدسوها وحرموا

مخالفتها وقدموها على الكتاب والسنة، وهم الذين جاءوا بعد عصر الأئمة وتدوين المذاهب، وذلك من بداية القرن الرابع الهجري إلى نهاية القرن الثالث عشر وبقي بعضهم إلى يومنا هذا.

وقد كان ذلك مظهرا من مظاهر انحطاط الأمة وإغلاق باب الاجتهاد وانتشار الخمول والكسل وترديد المقولة: ما ترك الأول للآخر شيئا.

ولقد سبقت الإشارة إلى أن اختلاف المجتهدين والأئمة في الفروع الفقهية لا يعد اختلافا إنما هو في حقيقته اتفاق كما ورد عن الشاطبي وغيره، ووصف بأنه ينفع ولا يضر، وأنه اختلاف تنوع وتكامل ولذلك سمي محمودا...

ولولا ما آل إليه أمر هؤلاء المقلدين المتعصبين الذين حولوا ما كان من الاختلاف فيها محمودا ورحمة إلى اختلاف مذموم ونقمة، لما نتجت عنه عداوات وبغضاء وفرقة، بعدما ضلوا عن منهج أصحابها وحادوا عن قواعدهم وآدابهم في عرضها والاستدلال عليها والدفاع عنها، ومعاملة من يخالفهم فيها، حتى بلغ ببعضهم الأمر إلى أن جعلها دينا لا تجوز مخالفته، فيحبون من اتبعه ويقربونه، ويكرهون من خالفه ويعادونه، كما يسيئون الأدب مع أئمة المذاهب الأخرى ويرمونهم بالجهل والابتداع ورقة الدين، ويورثون هذا الجهل والضلال لأبنائهم وطلبتهم...

وبما أن هذا الأمر مشهور يعرفه الجمهور، والمقام مقام الاختصار فلا أرى داعيا لذكر ما ورد في ذلك من الأقوال والآثار.

ولتدبير الخلاف مع هؤلاء وأمثالهم ينبغي مراعاة القواعد والآداب التالية:

معرفتهم ومعرفة مقاصدهم ومن وراء تعصبهم:

وذلك لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا سبيل إلى تدبير الاختلاف معهم وإصلاح ذات بينهم إلا بعد معرفتهم ومعرفة أسباب ما هم عليه. وذلك بمعرفة مستواهم العلمي ومذهبهم وبلادهم ومستوى تدينهم والتزامهم بمذهبهم في أصوله وفروعه.

وكذلك معرفة سبب تعصبهم هل هي أسباب ذاتية سببها الجهل أو الهوى أو العصبية، أو موضوعية سياسية فرضها عليهم حاكم بلادهم فحرصوا على إرضائه فبالغوا في الأخذ به والدفاع عنه بما يجوز وما لا يجوز. أم أسباب دعوية وراءها متدينون جهال - دعاة اللامذهبية والرجوع إلى الكتاب والسنة بلا واسطة علمية، الذين يحتقرون الأئمة ومذاهبهم وأتباعهم، ويعتبرونهم سبب افتراق الأمة وانتشار البدع فيها.

إقناعهم بأن الاختلاف المحمود مشروع بالكتاب والسنة والإجماع:

والدليل على ذلك نصوص من القرآن والسنة وأقوال الصحابة والأئمة والعلماء، ويؤكده اختلاف الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته، واختلاف من بعدهم من التابعين ومن تبعهم بإحسان من الأئمة والعلماء المجتهدين.

كما ينبغي تعليمهم الفرق بين المجتهد والمقلد، وما يجوز فيه الاختلاف وما لا يجوز فيه، والثابت والمتغير وغيرها مما يجعل وطأة المذهب تخف ويقدر بقدره حتى يصير الميزان عندهم الكتاب والسنة وليس أقوال الرجال.

إقناعهم بأن العصمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست لأحد من أمته سواه:

فلا عصمة لأحد بعده مهما علت درجته في العلم والتقوى، سواء كان صحابيا أو تابعيا أو إمام مذهب أو وليا صاحب كرامات أو شيخ طريقة أو طائفة أو كانت جماعة أو حزبا أو قبيلة أو وطنا أو غيرهم من العلماء والصالحين. لأنه يجوز في حقهم جميعا الخطأ والزلل والغفلة والنسيان، وكلامهم جميعا يؤخذ منه ويرد خلافا لكلام الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم.

وينبهوا إلى التزام الأدب مع الأئمة والعلماء المجتهدين جميعا واحترامهم والدعاء لهم، والتماس الأعذار لهم، لأنهم معذورون. وألا يقدموا أقوالهم وأفعالهم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه يجوز انتقادهم ومخالفتهم والترجيح بين مذاهبهم وآرائهم دون طعن ولا تقبيح.

إقناعهم بأنه من لم يكن معصوما فلا قداسة لرأيه ولا تبخيس:

وينبغي تنبيههم على أن يسلكوا منهجا وسطا في تعاملهم مع الأئمة وآرائهم، فلا يجعلوهم في اجتهاداتهم معصومين ولا آثمين، فلا تقديس ولا تبخيس، وأن ينصفوهم ولا يظلموهم.

فهذا ابن القيم يقول في إنصافهم وإن خالفوا السنة: (...فإن ذلك لا يوجب اطراح أقوالهم جملة وتنقصهم والوقيعة بهم، فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصد السبيل بينهما فلا نؤثم ولا نعصم، ولا نسلك بهم مسلك الرافضة في علي، ولا مسلكهم في الشيخين، بل نسلك مسلكهم أنفسهم فيمن قبلهم من الصحابة، فإنهم لا يؤثمونهم ولا يعصمونهم، ولا يقبلون كل أقوالهم ولا يهدرونها...)[21] .

إقناعهم بأن الترجيح بين المذاهب بما يؤدي الى افتراق الكلمة وحدوث العداوة لا يجوز:

لإن التأدب مع أئمة المذاهب المخالفة وأتباعها يقتضي عند نقدها أو الترجيح بينها مراعاة ما يجمع ولا يفرق، وما يؤاخي ولا يعادي، لأن العلم رحم بين أهله.

ومما يستفاد منه في هذا المقام ما أشار إليه الشاطبي في حديثه عما يتعلق بالمجتهد المقتدى به منبها على ما وقع فيه كثير من الناس الذين تجاوزوا الترجيح بالوجوه الخالصة إلى الترجيح ببعض الطعن على المذاهب المرجوحة عندهم، أو على أهلها القائلين بها، و أن أكثر ما وقع ذلك في الترجيح بين المذاهب الأربعة ومذهب داود وغيره، ومنها:

- اعتبار الطعن في المخالف من أرباب المذاهب ليس من شأن العلماء، وأن الطعن

(21) االبن القيم: إعلام الموقعين: 3/ 248

في مساق الترجيح يثير العناد من أهل المذهب المطعون عليه، ويزيد في دواعي التمادي والإصرار على ما هم عليه وإظهار محاسنه، فلا تبقى للترجيح حينها فائدة زائدة على الإغراء.

- وأن الترجيح مغر بانتصاب المخالف للترجيح بالمثل، ويصير المرجحون يتتبعون القبائح عوض المحاسن، لأن النفوس مجبولة على الانتصار لأنفسها ومذاهبها وسائر ما يتعلق بها. وأن هذا العمل مورث للتدابر والتقاطع بين أرباب المذاهب ويورثون ذلك لمن يعلمونه فيصيروا شيعا.

- وأن الطعن والتقبيح في مساق الرد والترجيح ربما أدى إلى التغالي والانحراف في المذهب فيثير الأحقاد[22]

على مدبري الخلاف بين هؤلاء انتقاد أفكارهم وتجنب تجريحهم:

وليكن ذلك بالحكمة والرفق واللين، فلا يرمونهم بالجهل ولا بالضلال – وإن كانوا كذلك – وينتقدون أفكارهم بعرضها على كتاب الله وسنة رسوله ويتجنبون تجريحهم بغض الطرف عن مساوئهم وذكر محاسنهم - مراعاة للمآل – حتى لا يزدادوا تمسكا بطريقتهم وإصرارا على منهجهم، لأنهم متيقنون غير شاكين بأنهم على الحق المبين، وأن مخالفيهم جهال ضالون وعلى الباطل يدافعون وللدين الحق محاربون.

الفئة الثانية: الفرق الإسلامية الكلامية:

وأقصد الفرق التي نشأت في صدر الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بعد مقتل عثمان رضي الله عنه إلى يومنا هذا والتي كان سبب نشأتها سياسيا – الخلاف حول الإمامة - ثم تحول السياسي إلى ديني عقدي فسميت لذلك الفرق الإسلامية الكلامية نسبة إلى علم الكلام. وهي التي تتكون من ثلاث فرق كبيرة: فرق أهل السنة، وفرق الشيعة، وفرق الخوارج. ثم تفرع عن كل واحدة منها أعداد كثيرة من الفرق.

ولتدبير اختلاف هذه الفرق الكلامية لا بد من مراعاة الأمور التالية:

العلم بها وبسبب نشأتها وتفرقها وبدرجة اختلافها واتفاقها:

إنه لا مناص لمدبري الاختلاف مع هذا الصنف من المختلفين المسمى في كتبنا العتيقة الفرق الإسلامية الكلامية أن يكون على علم بها، وبأسباب نشأتها وما تفرع عنها، وبسبب انشقاقها وتمزقها، وبأماكن وجودها، وبصوابها وخطئها، وما تتفق عليه وما تختلف فيه، وقبل ذلك كله يعرف ما انقرض منها كالسبئية والكيسانية والمختارية والمحمدية وغيرها من فرق الشيعة، وما بقي إلى يومنا هذا منها كالإمامية الإثنى عشرية والزيدية والإسماعيلة، ومن فرق السنة الأشاعرة والماتريدية والإباضية... وما تغير وتطور، وما بقي على حاله في عقيدته وأفكاره...وذلك حتى يلغوا من حسابهم ما مات منها وانقرض، ويقفوا على ما تغير من عقائد ما بقي منها وأفكارهم، وعلى اجتهادات علمائهم المتفق عليها

(22) الشاطبي الموافقات : 4/193 وما بعدها بتصرف

والمختلف فيها، حتى لا ينسبوا إليهم ما شذ من آراء عالم من علمائهم أو ما صححوه مما تبين لهم خطأه، ويقولوهم ما لم يقولوا، ويميزوا بين الفرق التي تنضوي تحت اسم الفرقة الأم ولها أسماء خاصة وأفكار خاصة مخالفة لأصلها وتميزها عن غيرها.

ومن يجهل هذا يقع في الخطأ فيسند رأي فرقة إلى فرقة أخرى، أو رأي فرقة منقرضة إلى فرقة موجودة. وقد يقع مثل هذا أيضا في تدبير اختلاف الفرق السنية كالأشاعرة والماتريدية ووالإباضية والمعتزلة والظاهرية. ولا بد كذلك من التمييز بين علماء هذه الفرق وما يعتقدونه ويرونه وبين عامتها وما يوافقون فيه أئمتهم وما يخالفونهم فيه.

ومما يؤسف له أن يوجد اليوم بعض الجهال مولعين بالبحث عن عيوب الآخرين، ويسمون بعض المسلمين بأسماء فرق قديمة بالية لا وجود لها، أو باقية ولا علم لهم بها ولا بآرائها،. كما نجد من ينقب في كتب بعض العلماء الذين يخالفهم لعله يجد فيها عبارة وردت في مصادر بعض الفرق الضالة في نظره، فيحكم عليهم من خلالها، ويتهمهم بانتمائهم إليها من أجل تنفير الناس من علمهم وأفكارهم.

اعتبار كل هذه الفرق الكلامية مسلمة من أهل القبلة وليست كافرة:

وهذا أمر مهم جدا في تدبير الاختلاف مع هؤلاء وأمثالهم، لأن تكفير المختلف في تكفيره شره أكثر من خيره بل لا خير فيه، لأنه يعتقد أنه مسلم، ويفتخر بانتسابه للإسلام، ويدافع عن الشريعة بما يرى أنه الحق، - وإن كان مبتدعا وضالا في نظر المخالف- وإذا كفرنا من كان هذا حاله ماذا ننتظر منه بعدما نغضبه ونستفزه إلا أن يكفرنا، أو يحكم علينا بالشرك أو بالنفاق أو يقاتلنا، فيعاقبنا بمثل ما عاقبناه به أو بما هو أشد. وهذا أمر خطير وشره مستطير، يزيد في العداوة والبغضاء والفرقة، ويحول دون تحقيق الائتلاف والوحدة.

يقول الشاطبي رحمه الله: (وقد اختلفت الأمة في تكفير هؤلاء الفرق أصحاب البدع العظمى. ولكن الذي يقوى في النظر وبحسب الأثر عدم القطع بتكفيرهم . والدليل عليه عمل السلف الصالح فيهم (...) وإنا وإن قلنا : إنهم متبعون للهوى، ولما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فإنهم ليسوا بمتبعين للهوى بإطلاق، ولا متبعين لما تشابه من الكتاب من كل وجه. وأيضا، فقد ظهر منهم اتحاد القصد مع أهل السنة على الجملة من مطلب واحد، وهو الانتساب إلى الشريعة...) [23]

وهذا ابن تيمية رحمه الله الذي يتهمه خصومه بالتساهل في التكفير يقول فيهم: (وقد ذهب كثيرٌ من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار، فأسلم على يديه خلقٌ كثير، وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين

(23) الاعتصام : 2/ 377

مبتدعين وهو خيرٌ من أن يكونوا كفاراً)[24]. فقد سماهم مسلمين مبتدعة واعتبر عملهم خيرا.
ومما يؤكد ذلك ما يستفاد من حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة وهو كون هذه الفرق:
أ- من الأمة الإسلامية؛ كما في قوله -صلى الله عليه وسلم-: «وتفترق أمتي...» فهذا صريح أن هذه الفرق من المسلمين.
ب- كونها في النار لا يلزم منه الخلود فيها، وهذا وعيد بدخولها، وهم تحت المشيئة؛ إن شاء الله عفا عنهم بفضله، وإن شاء عذبهم بعدله، وكل كافر في النار، وليس كل من في النار كفرا، والفارق بينهما الخلود وعدمه.
ج- أن دخول المسلم النار، إذا خفت موازينه ولم تنفعه شفاعة الشافعين يكون من أجل تطهيره مما ارتكبه من الموبقات والمعاصي، ثم يدخل الجنة بعدها.
ويؤكد ذلك أيضا صعوبة تحديد ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعد اختلاف العلماء فيه واختلافهم في تعيين الفرقة الناجية، (وإنما كانت طريقة الصحابة ظاهرة في الأزمنة المتقدمة أما وقد استقرت مآخذ الخلاف فمحال وهذا الموضع مما يتضمنه قول الله تعالى: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم).
فتأملوا -رحمكم الله - كيف صار الاتفاق محالا في العادة ليصدق العقل بصحة ما أخبر الله به و الحاصل أن تعيين هذه الفرقة الناجية في مثل زماننا صعب ومع ذلك فلا بد من النظر فيه)[25].
وبذلك يكون عدم التكفير هو الصواب المناسب لتضييق مساحة الاختلاف وتيسير سبل الائتلاف، لأن دعاة التكفير في زماننا جلبوا على الأمة الويلات والشرور والنكبات، أزهقت فيها الأرواح البريئة وهتكت فيها الأعراض الطاهرة، وهدمت بيوت عامرة، ورملت نساء ويتم ولدان. وهذا يدعونا اليوم إلى إعادة النظر في ما كتب عن الولاء والبراء، ونعيد كتابته فنتبين من أحكامه
فنعرف من نوالي ومن نعادي حتى لا نصيب قوما بجهالة ونحن لا نعلم فنصبح من النادمين.
الحرص على سترهم وعدم تعيينهم :
وذلك لأن سترهم وعدم تعيينهم أدعى إلى تقريبهم من جماعة المسلمين وتيسير الائتلاف معهم والتعاون على المتفق عليه. ولأن تعيينهم بذكر أسمائهم ووصفهم بما يكرهون مثل أن يقال لهم: أهل البدع أو الفرق الضالة أو بأنهم في النار، أو أنهم من الفرقة الفلانية يثير غضبهم فيدبرون ولا يقبلون، ويدافعون عن أنفسهم برد الصاع صاعين، فيصفون المخالف بأقبح الصفات، وينسبونه إلى أسوء الفرق وحينها يتعذر الائتلاف والوفاق.

(24) مجموع الفتاوى: 13/ 96
(25) الشاطبي: الاعتصام: 2/ 424

ومما يؤكد ذلك قول الشاطبي في سياق دفاعه عن سترهم وعدم تعيينهم وبيان الدليل على ذلك:

(أما أولا : فإن الشريعة قد فهمنا منها أنها تشير إلى أوصافهم من غير تصريح ليحذر منها، ويبقى الأمر في تعيين الداخلين في مقتضى الحديث – حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة - مرجى، وإنما ورد التعيين في النادر كما قال عليه الصلاة والسلام في الخوارج : (إن من ضئضئ هذا قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم)[26] الحديث، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يعرف أنهم ممن شملهم حديث الفرق ...

وأما ثانيا: فلأن عدم التعيين هو الذي ينبغي أن يلتزم ليكون سترا على الأمة كما سترت عليهم قبائحهم فلم يفضحوا في الدنيا في الغالب، وأمرنا بالستر على المؤمنين ما لم تبد لنا صفحة الخلاف...

وأيضا، فللستر حكمة أخرى، وهي أنها لو أظهرت مع أن أصحابها من الأمة لكان في ذلك داع إلى الفرقة وعدم الألفة التي أمر الله ورسوله بها، حيث قال تعالى:(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) (آل عمران: 103) وقال تعالى: (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) (الأنفال: 1)...

فإذا كان من مقتضى العادة أن التعريف بهم على التعيين يورث العداوة بينهم والفرقة، لزم من ذلك أن يكون منهيا عنه، إلا أن تكون البدعة فاحشة جدا كبدعة الخوارج، وذكرهم بعلامتهم حتى يعرفوا، ويلحق بذلك ما هو مثله في الشناعة أو قريب منه بحسب نظر المجتهد، وما عدا ذلك فالسكوت عنه أولى)[27].

لقد بين رحمه الله حكم التعيين ودليله وقصده، فأما الحكم فهو أنه يستحب سترهم وعدم تعيينهم والاقتصار على ذكر أوصافهم ليحذر منهم، إلا إذا كانت بدعتهم فاحشة جدا كالخوارج ومن كان في زماننا مثلهم واتصف بصفاتهم أو بأقبح منها، وأناط تحديدهم بالمجتهدين.

وأما الدليل فهو فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي اقتصر على ذكر أوصافهم ولم يعين منهم إلا الخوارج، كما في الحديث السالف الذكر وغيره، وكذلك دخولهم في عموم الأمر بالسترعلى المؤمنين ما لم تبد لنا صفحة الخلاف.

وأما القصد من ذلك فهو درء العداوة بين المسلمين والفرقة.

وما دام الأمر محصورا في ذكر أوصافهم وعلاماتهم دون تعيينهم فلا بد من معرفتها للتعرف عليهم من خلالها أو للحذر منها، فقد ذكر العلماء أن لها خواصا وعلامات في الجملة

هي: الْفُرْقةُ، والزيغ عن الحق واتباع المتشابهات ثم اتِّباعُ الْهَوَى. واستدلوا على ذلك بنصوص قرآنية وأخرى حديثية كثيرة.

اعتماد الحوار بالتي هي أحسن بين المختلفين مع مراعاة آدابه وأخلاقه.

(26) رواه مسلم

(27) نفسه: 2/ 401

ويكون باستمرار كلما دعت الحاجة إليه. وبناء على هذا ينبغي استئناف عملية التقريب بين المذاهب التي قطعت مراحل ثم توقفت وعلى رأسها المذهبين السني والشيعي.

وهذا التدبير مع هذه الفرق خاص بغير الباغية منها، لأن للباغية تدبيرا خاصا في الشريعة الإسلامية، وهو يصدق على كل من بغى بغض النظر عن انتمائه، ولذلك يمكن اعتبار هذا النوع صنفا آخر من أصناف المختلفين وملخصه كما يلي :

الفئة الثالثة: طائفتان مسلمتان بغت إحداهما على الأخرى:

أصل هذه المسألة قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين... الآية) (الحجرات:9)

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية : (قال العلماء : لا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعا أو لا . فإن كان الأول فالواجب في ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة. فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغي صير إلى مقاتلتهما . وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل . فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق . فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين . والله أعلم (...) وهذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين، وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين)[28] .

وهذا الاقتتال بين الطائفتين قد يكون بالأيدي أو بالعصي والنعال أو بالسلاح أو بأي وسيلة أخرى تستعمل بين المتخاصمين المتدافعين.

والطائفتان قد تكونا حيين أو قبيلتين أو جماعتين أو حزبين أو فريقين رياضيين ومشجعيهما، وقد يكون بين دولتين مسلمتين وما أكثره في زماننا.

ونص بعض المفسرين على أن الذي يتعين عليه أن يقاتل الفئة الباغية هو إمام المؤمنين .

وذهب الطاهر بن عاشور إلى أن وصف البغي يتحقق بإخبار أهل العلم أن هذه الفئة بغت على الأخرى، أو بحكم الخليفة العالم العدل.

ومن حسن تدبير اختلاف البغاة وصلحهم أن الفقهاء لم يعتبروهم كالكفار أو المحاربين، بل جعلوا لهم أحكاما خاصة، فقالوا: (من العدل في صلحهم ألا يطالبوا

(28) انظر جامع أحكام القرآن في تفسير سورة الحجرات : الآية: 9

بما جرى بينهم من دم ولا مال، فإنه تلف على تأويل. وفي طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستشراء في البغي. وهذا أصل في المصلحة (...). ولا يقتل أسيرهم ولا يتبع مدبرهم ولا يذفف على جريحهم، ولا تسبى ذراريهم ولا أموالهم. وإذا قتل العادل الباغي، أو الباغي العادل وهو وليه لم يتوارثا.)[29].

ويلتبس الأمر في حالة كون الحاكم غير عالم ولا عدل، ويكون الخارج عليه عالما عدلا، أو يكون هو الباغي على فئة من المواطنين، وهنا يحتاج إلى تفصيل. وكذلك في حالة بغي دولة على أخرى، أو كانتا باغيتين معا، فمن يصلح بينهما؟ وحال الأمة اليوم لا تحسد عليه، فهي تعاني من الفرقة والعداوة بين مكوناتها مما احتاجت معه إلى تحكيم غير المسلمين في إصلاح ذات بينها، فازدادت فرقة وعداوة وشتاتا واقتتالا.

والواجب اليوم على الصالحين الغيورين الأمناء من العلماء وأولي الأمر التعجيل بتأسيس هيأة إسلامية دولية تفصل بين المتنازعين وتدبر اختلافهما بالعدل والقسط خاصة إذا كان بين دولتين أو بين حاكم وشعبه، حقنا للدماء وصونا للأعراض وحماية للأموال والعمران.

الفئة الرابعة: التنظيمات الإسلامية:(الجماعات والحركات والمنظمات...)

المقصود بهذه التنظيمات الجماعات والحركات والمنظمات والأحزاب التي تتبنى الإسلام عقيدة ومنهجا وسلوكا وفكرا، وتعتبره مرجعيتها الأولى في كل أعمالها.

وتدبير الاختلاف معها يحتاج إلى اعتماد القواعد والآداب التالي:

معرفتها ومعرفة منطلقاتها ومقاصدها:

لتدبير الاختلاف مع هذه التنظيمات لا بد من معرفتها معرفة مفصلة تيسر على مدبري الاختلاف سبل الائتلاف، وذلك بأن يعلموا بأنها تختلف فيما بينها في الرؤية والمنهج والأسلوب والمواقف وفي ترتيب الأولويات و في الأهداف والمقاصد وغيرها.

وأن منها من تعتمد شمولية الإسلام، ومنها من تهتم بالتربية وأخرى بالدعوة وأخرى بالأخلاق، ومنها من تركز على إصلاح العقيدة، ومنها من تهتم بالإصلاح السياسي، وأخرى تعنى بالتعليم ونشر العلم وإصلاح الفكر...الخ.

ومنها المعتدلة الوسطية المسالمة، ومنها المتشددة الغالية، ومنها الجهادية العنيفة، ومنها المنفتحة على الغير المشاركة في العمل السياسي، ومنها المنغلقة على نفسها المقاطعة لغيرها، ومنها من تعتمد السرية في كل أعمالها، ومنها السنية ومنها الشيعية ...

كما تختلف في درجة الهداية والصلاح، والصواب والخطأ، والاتباع والابتداع، والقوة والضعف، والاستقلالية والتبعية...وهي تختلف فيما بينها في المواقف السياسية، ومناهج الدعوة والتربية، وفي بعض الأحكام الفقهية، كاختلافهم في الجهاد هل

(29) نفسه ونفس السورة والآية

هـو جهـاد طلـب أو جهـاد دفـع؟ وفي دار الإسـلام ودار الحـرب، وفي اللحيـة والحجـاب والنقـاب، والتمذهـب، والـولاء والـبراء وغيرهـا.
وبنـاء عـلى العلـم بطبيعـة كل تنظيـم وخصوصياتـه يتـم إحسـان تدبـير الخـلاف، وذلك باختيـار مـا يناسـب كل هيـأة مـن هـذه الهيـآت مـن الأسـاليب والوسـائل والأدوات، لتحقيـق الصلـح معهـا وبينهـا، أو تحقيـق الائتـلاف فيضـم قريبهـا ويقـرب بعيدهـا.
تصنيـف هـذه التنظيمـات وتمييـز المختلـف في الفـروع والجزئيـات عـن المختلـف في القواعـد والكليـات:
وذلـك بـأن يميـز السـني مـن الشـيعي، ويعـرف الشـيعي هـل هـو مـن الفرقـة الإماميـة الإثنـى عشريـة أوالزيديـة أو الإسـماعيلية؟، والسـني هـل هـو مـن الأشـاعرة أو الماتريديـة أو الإباضيـة...؟
وبعـد ذلـك تصنـف المتماثلـة فيمـا بينهـا، والمتكاملـة المختلفـة في الفـروع والجزئيـات التـي يعتـبر اختلافهـا محمـودا ينفـع ولا يـضر، كاختـلاف المجتهديـن في الفـروع الفقهيـة السـالف الذكـر، فتحـض عـلى التعـارف والتعـاون عـلى الخـير، وتوحيـد مـا تيـسر منهـم مـن المتماثلـين في الأصـول والفـروع والمنطلقـات والأهـداف والمواقـف، وكذلـك بالنسـبة للمتقاربـين، وتجمـع في تنظيـم واحـد – مالـم يوجـد مانـع - تحـت قائـد واحـد واسـم واحـد – كمـا حصـل في بعـض البلـدان الإسـلامية -، أو بتأسـيس هيـأة أو اتحـاد أو منظمـة باسـم جديـد ينخرطـون فيهـا جميعـا مـع الاحتفـاظ بأسـمائهم وقادتهـم.
وبالنسـبة للمختلفـين في بعـض المبـادئ والمقاصـد والمنهـج والأولويـات، ويتفقـون في غيرهـا، ويكـون المتفـق عليـه أكثـر مـن المختلـف فيـه، يتـم التنسـيق بينهـم ليتعاونـوا عـلى مـا اتفقـوا عليـه، ويعـذر بعضهـم بعضـا فيمـا اختلفـوا فيـه، وتذكيرهـم بـأن جـل مـا تختلـف فيـه التنظيمـات السـنية الصالحـة ناتـج عـن اجتهـاد ليـس فيـه نص قطعـي الثبـوت والدلالـة، وإقنـاع المجموعتـين بـأن السـبيل إلى وحـدة الأمـة وائتلافهـا هـو ائتـلاف مكوناتهـا بـدءا بعلمائهـا ودعاتهـا ومربيهـا والمؤسسـات القائمـين عليهـا.
وأمـا مـا كان مـن هـذه التنظيمـات مختلفـا في بعـض أصـول الديـن وقواعـده، أو مخالفـا لمـا أجمعـت الأمـة عليـه، أو اجتمعـت فيهـا مجموعـة مـن البـدع الجزئيـة الدينيـة أو الدنيويـة كالذيـن يكفـرون المسـلمين ويخرجـون عليهـم بالسـلاح فيقتلـون الأبريـاء بغـير حـق، فيلحقـون بالفـرق الكلاميـة الضالـة، ويدبـر اختلافهـم بمنهـج تدبـير اختلافهـم الـذي سـبق بيانـه.

الفئة الخامسة – تدبير الاختلاف مع المتصوفة شيوخا وأتباعا:
لقـد اختلـف العلمـاء في تعريـف التصـوف وفي نشـأته وأسـبابه، وأنواعـه، كمـا اختلفـت آراؤهـم في شـيوخه وأتباعهـم، هـل هـم عـلى الحـق أم عـلى الباطـل، فمنهـم مـن أفـرط ومنهـم مـن فـرط، ومنهـم مـن اعتـدل وتوسـط، والصـواب هـو (أنهـم مجتهـدون في طاعـة اللّـه، كمـا اجتهـد غيرهـم مـن أهـل طاعـة اللّـه، ففيهـم السـابق المقـرب

بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم)[30].

وبناء عليه يكون من جعلهم سواء فليس لحمقه دواء، لأن منهم التقي السابق بالخيرات، ومنهم المؤمن المقتصد الذي يحافظ على الفرائض ولا يهتم بالنوافل، ومنهم المسلم العاصي المتهاون المضيع للفرائض والواقع في البدع والضلالات.

وما داموا كذلك فإن تدبير الاختلاف معهم يتم وفق المنهج التالي:

1 – معرفة حقيقتهم وأصنافهم :

فلا بد من معرفتهم معرفة كاملة قبل أي خطوة أخرى، وذلك بأن تعرف عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم ما يوافق الشرع منها وما يخالفه، ويصنفون تصنيفا يميز فيه السني من البدعي، والمعتدل من الغالي، والعالم المجتهد من الجاهل المقلد. وفي حالة وقوعهم في البدعة نتبين هل هي ناتجة عما في أصولهم وصادرة عن شيوخهم، أم هي من ابتداع جهال أتباعهم.

وحينها يتضح بأن الذي يحتاج اختلافه إلى حسن التدبير ليتحقق الائتلاف هم المبتدعون المخالفون للشرع. أما ما عداهم إن وقع معهم اختلاف فهو من قبيل الاختلاف المحمود لا المذموم وهو يعد وفاقا.

2 – احترامهم والتأدب معهم وستر عيوبهم:

فلا ينسبون إلى كفر ولا إلى بدعة، ولا ينعتون بما يكرهون من الصفات، ويتم تنبيههم إلى بدعهم ومخالفاتهم – بعد ذكر محاسنهم - بعرضها على كتاب الله وسنة رسوله، وبيان وجوه مخالفتها لهما بالتي هي أحسن دون تقبيح الأشخاص أو تجريحهم، أو الإساءة إلى شيوخهم وقادتهم، والحرص على ستر عيوبهم وعدم التشهير بهم لتيسير تقريبهم وإعادة النظر في بدعهم ومبالغاتهم، لأن فضحها وتعييرهم بها يؤدي إلى انتصابهم للدفاع عنها، والاستدلال عليها بما يناسب وما لا يناسب، واتهام المخالف بما فيه وما ليس فيه، وهذا يزيد الخلاف خلافا، ويسبب العداوة والبغضاء ويزيد في الفرقة.

وبالنسبة للمؤسسات والهيآت التي لم أذكرها ضمن أصناف المختلفين، سواء كان اختلافها بسبب ديني أو دنيوي، يتم تدبير اختلافها بقياس ما لم يذكر منها على ما ذكر، فمن كان اختلافها محمودا يقاس على المحمود، ومن كان اختلافها مذموما يقاس على المذموم.

الصنف الثاني: تدبير اختلاف المختلفين بسبب دنيوي:

ويشمل ثلاث فئات هي:

1 – تدبير اختلاف السياسيين: الرؤساء والأحزاب والحكومات والمنظمات الحقوقية

أ – تدبير اختلاف الرؤساء والحكام:

(30) ابن تيمية: الفتاوى: 14/ 176

الاختلاف المحتمل المتعلق بهذه الفئة يكون في غالبه دنيويا ، لأن سببه الرئيس هو الصراع على السلطة والتسلط والجاه والوجاهة والتحكم والسيادة، وقد يكون دينيا أو جامعا بينهما، وهذا الذي كان وراء نشأة الفرق الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد مقتل عثمان لما اختلفوا في الإمامة. وقد يغلف أحيانا بالدين فيكون الدين حينها وسيلة لا غاية. ويعد هذا السبب من أخطر الأسباب التي فرقت الأمة ومزقتها عبر التاريخ وإلى يومنا هذا.

وقد اختلف الفقهاء اختلافا كبيرا في حل هذه المعضلة، ووجدوا تدبير الاختلاف فيها من أصعب التدابير، ومما يؤكد ذلك ما ورد عنهم في تفسير الآيات التي تنص على اقتتال المؤمنين والصلح بينهم، وطاعة أولي الأمر وعصيانهم، وتنصيبهم وعزلهم.

ومنها قول ابن العربي في تفسير قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ... الآية) (الحجرات: 9) في تحديد الإمام الذي يقاتل معه سواء كان حاكما أو خارجا:(قال علماؤنا في رواية سحنون: "إنما يقاتل مع الإمام العدل سواء كان الأول أو الخارج عليه، فإن لم يكونا عدلين فأمسك عنهما، إلا أن تراد بنفسك أو مالك أو ظلم المسلمين فادفع ذلك " ...لا تقاتل إلا مع إمام عادل يقدمه أهل الحق لأنفسهم، ولا يكون إلا قريشيا، وغيره لا حكم له، إلا أن يدعو إلى الإمام القرشي، قاله مالك، لأن الإمامة لا تكون إلا لقرشي.

... قال مالك: "إذا بويع للإمام فقام عليه إخوانه قوتلوا إذا كان الأول عدلا، فأما هؤلاء فلا بيعة لهم إذا كان بويع لهم على الخوف". قال مالك: "ولا بد من إمام بر أو فاجر"...).[31]

وقال القرطبي منبها على حسن تدبير هذا الأمر بمراعاة المآل والتبين من الخارج الذي قد يدعي العدل وهو ليس كذلك في تفسير قوله تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة)ـ (البقرة: 29): (إن خرج خارجي على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده، فإن كان الإمام فاسقا والخارجي مظهرا للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجي حتى يتبين أمره فيما يظهر من العدل أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأول، وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح، حتى إذا تمكن رجع إلى عادة من خلاف ما أظهر)[32].

وقال المواق في شرحه على المختصر منبها على الاجتهاد في تحقيق مصلحة العدل ودرء مفسدة القتل: (من أعان على عزل إنسان وتولية غيره ولم يأمن سفك دم مسلم، فهو شريك في دمه إن سُفك)[33]. وكذلك ينبغي وضع قوانين تضبط العلاقة بين الحاكم ومعارضيه حتى لا يقع أحد الطرفين في الظلم والشطط

(31) ابن العربي: أحكام القرآن: 4/1717وما بعدها، ومن رام التفصيل فليرجع إلى"رسالة في الإمامة العظمى" لعبد القادر الفاسي ضمن مجموع ،ط حجرية بالخزانة العامة.

(32) الجامع لأحكام القرآن: 1/273.

(33) الناصري: الاستقصا: 6/37.

فتحدث فتنة وصراع ونزاع، كما ينبغي ألا تبقى المعارضة مرهونة بالقوانين الغربية، فتكون دائما معارضة لكل تصرفات الحكومة والحاكم، بل تصبح كهيأة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو هيأة الحسبة، فتؤيد ما كان صوابا وصلاحا، وتعارض ما كان خطأ وفسادا.

ومن هذه الآراء الفقهية يتبين أن هذا مقام مزلة أقدام، وحيرة أفهام، ومعترك صعب، والفرق بين القول فيه وتنزيله كبير، ولنا في ثورات الربيع العربي عبرة ودرس خطير.

والمخرج من هذه المعضلة هو: إما التزام الشورى بشروطها وقواعدها، وإما التزام الديموقراطية واحترام نتائجها، ولعلها أسلم طريقة إلى حد الآن، وهي الوسيلة الأمثل المتاحة في زماننا لتدبير الخلاف وحسم النزاع حول الرئاسة والحكم وتداول السلطة، ولدرء الفرقة والاقتتال وسفك الدماء، وللحفاظ على الوحدة والائتلاف.

وعلى المصلحين ومدبري الاختلاف بين الحكام القائمين والخارجين عليهم، وبين الحكام والشعوب ربط المسؤولية بالمحاسبة، والدعوة إلى اعتماد الديموقراطية الحقة، وتجنب التزييف والتزوير والتحايل في الانتخابات...

2 – تدبير الاختلاف مع الأحزاب السياسية:

الحزب تنظيم يجمع مجموعة من الناس ينادون بمذهب سياسي واحد. وتختلف الأحزاب باختلاف عقيدتها ومنطلقاتها وبرامجها وأهدافها. وجلها يسعى إلى امتلاك السلطة، من أجل أن يسود ويقود ويسخر كل الامكانيات لتحقيق أهدافه العامة والخاصة، ومن خلالها يحقق خدمات للمجتمع دينية واقتصادية واجتماعية وثقافية وغيرها.

وقد قسم علماء السياسة الأحزاب إلى ثلاثة أنواع هي:

أ – الأحزاب الإيديولوجية أو أحزاب البرامج:

وهي الأحزاب التي تتمسك بمبادئ أو أيديولوجيات وأفكار محددة ومميزة، ويعد التمسك بها وما ينتج عنها من برامج أهم شروط العضوية في الحزب، كالأحزاب الاشتراكية والشيوعية والدينية.

ب – الأحزاب البراجماتية: و يتسم هذا النوع من الأحزاب بوجود تنظيم حزبي له برنامج يتصف بالمرونة مع متغيرات الواقع، بمعنى إمكانية تغيير هذا البرنامج أو تغيير الخط العام للحزب وفقاً لتطور الظروف. تتضمن أحزاب المصالح والأقليات.

ج – أحزاب الأشخاص: هي من مسماها ترتبط بشخص أو زعيم، فالزعيم هو الذي ينشئ الحزب ويقوده ويحدد مساره، وهذا الارتباط بالزعيم راجع إلى شخصيته المتميزة أو إلى الطابع القبلي، أو الطبقي الذي يمثله الزعيم.

وبالنسبة لواقعنا الإسلامي يمكن حصر أنواع الأحزاب الموجودة فيه فيما يلي:

أحزاب دينية، وأحزاب لا دينية، وأحزاب علمانية تؤمن بالدين وتفصله عن

الدولة، وأحزاب أصحاب المصالح والانتهازيين، وأحزاب قبلية طائفية.
ولا شك أن هذه الأحزاب تختلف فيما بينها أحيانا في الكليات والقواعد التي تعتمدها، وأحيانا في الجزئيات، وأحيانا تكون بينها اختلافات شكلية لا أثر لها. كما يختلف حالها إذا كانت في الأغلبية عن حالها في المعارضة.
وبناء عليه يكون حسن تدبير الاختلاف بينها ومعها بالنسبة لكل نوع منها كما يلي:
أحزاب دينية تعتمد المرجعية الإسلامية:
وهي نوعان: معتدلة وغالية.
فأما المعتدلة منها فيتم تدبير اختلافها كما دبر الاختلاف بين التنظيمات الإسلامية المعتدلة، وما زاد عليها بسبب العمل السياسي الدنيوي وما يترتب عنه من تدافع وتسابق على المناصب والمواقع والمصالح التي لا تكاد توجد في التنظيمات التربوية الدعوية، فيتم تدبيره بالوعظ والتذكير بالله تعالى والنصح، وإن لم ينفع فبالقانون والمحاسبة الصارمة، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. وأما تدبير المتشددة الغالية منها فيعتمد فيه على ما دبر به اختلاف التنظيمات المتشددة الغالية.
أحزاب لا دينية – كالشيوعية مثلا - تعتمد القوانين الوضعية والمواثيق الدولية ولا تعترف بالدين جملة لا بعقيدته ولا بعباداته ولا بتشريعه، بل تعتبره أفيون الشعوب. وهذا النوع عرف تراجعا كبيرا منذ سقوط الشيوعية حتى كاد ينقرض في المجتمعات الإسلامية، وما بقي منه وقع فيه تغيير وتبديل ولين وإصلاح حتى صار أصحابه لا يذكرون الدين بسوء علانية مراعاة لمشاعر المسلمين.
وهؤلاء إما أن يعلن أصحابها بالكفر أو بالإسلام، فإن أعلنوا بالكفر فاختلافهم يدبر كما يدبر اختلاف الأقليات غير المسلمة في البلاد الإسلامية، وإن أعلنوا بالإسلام يعتبرون مسلمين، لأننا أمرنا أن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، فتجري عليهم أحكام وقوانين الأغلبية الحاكمة.
ويتم تدبير اختلافهم بالاحتكام إلى الدستور والقوانين المتفق عليها بين جميع المواطنين، ويتم التحالف معهم في إطار القانون وليس في إطار الدين، ولا يكفرون ولا يفسقون ولا يتهمون بإلحاد ولا بزندقة، وإنما تناقش أفكارهم وآراؤهم وتعرض على الدين - ما داموا يصرحون بأنهم مسلمون- وعلى العقل والمنطق لعلهم يرجعون. كما يركز في معاملتهم على المتفق عليه ويعذرون في المختلف فيه.
أحزاب علمانية تعترف بالدين ولا ترفضه، لكنها تنادي بفصله عن السياسة: وتأخذ بالعقيدة والعبادة دون التشريع في المعاملات، لأنها تعتمد فيها على القوانين الوضعية والمواثيق الدولية وتقدمها على أحكام الشريعة الإسلامية. فإما أن يكون ذلك جهلا منها بشمولية الإسلام، وإما أن يكون مداراة لحاكم علماني يرى ما لله لله وما لقيصر لقيصر.
وفي هذه الحالة يدبر اختلافها بالرفق بها واللين معها ومراعاة حالها، والحرص

على تنبيهها وتعليمها حقيقة الدين، وتذكيرها بأن السياسة قسم من الشريعة وليس قسيما لها، وبخطورة فصل الدين عن حياة المسلمين، وتعويضه بالقوانين الوضعية.

وإن كان موقفها من الدين ناتج عن علم منها ووعي واختيار فهي علمانية قلبا وقالبا، تختلف عن السواد الأعظم من الأمة باعتقادها أفضلية التشريعات البشرية على التشريعات الربانية، وهي بدعة عقدية سببها الرغبة في السلطة والتسلط والجاه والمال.

ولذلك يكون تدبير اختلافها أشبه ما يكون باختلاف الفرق الكلامية المبتدعة التي تختلف في أصول الدين وقواعد العقائد. وتحتاج هي الأخرى إلى النصح والتوجيه والدعوة بالتي هي أحسن، ولا يحكم عليها بكفر ولا فسوق، وتعرض آراؤها وتصوراتها على كتاب الله وسنة رسوله وسيرته وسيرة خلفائه الراشدين، لعل أصحابها يقتنعون ويؤوبون إلى رشدهم، وإن أبوا وأصروا على مذاهبهم يتعاون معهم على المتفق عليه ويعذرون في المختلف فيه.

وبذلك نتجنب إثارة العداوة والبغضاء والتدابر والاقتتال، ونحقق الائتلاف مع وجود الاختلاف.

أحزاب الانتهازيين وأصحاب المصالح : وهي أحزاب لا دينية ولا علمانية ولا قومية، لا طعم لها ولا لون ولا رائحة، فهي تتلون بلون المكان الذي توجد فيه مصلحتها وحاجتها، وتحرص على أن تكون مع الفئة الغالبة بغض النظر عن عقيدتها ومبادئها ومقاصدها، ولا ترى مانعا من تغيير مبادئها وبرامجها وشعاراتها بتغير الظروف والأحوال.

وتدبير الاختلاف مع هؤلاء سأبينه مفصلا في الحديث عن تدبير اختلاف أصحاب المصالح الشخصية فيما سيأتي بعد.

أحزاب قبلية أو طائفية: الحزب القبلي أو الطائفي هو الذي يتزعمه رئيس القبيلة أو الطائفة، وهو الذي يقوده ويحدد مبادئه ومنطلقاته ومقاصده القائمة على العنصرية ولا ينازعه فيها أحد، كما أنه لا ينازع في رئاسته ولا يبدل ولا يفكر في ذلك، إما لقوة شخصيته، أو لمكانته ونسبه، وإما لطابع القبيلة أو الطائفة التي يمثلها هذا الزعيم. ويمكن تسمية هذه الأحزاب بالأحزاب العنصرية.

وتدبير اختلاف هذا النوع من الأحزاب قد فصلته في حديثي عن تدبير اختلاف التنظيمات العنصرية وهي الصنف الموالي:

2 – تدبير الاختلاف مع التنظيمات العنصرية

المقصود بالعنصريَّة التَّفرقةُ والتمييزُ في المعاملة بين الناس على أساس الجنس، أو العرق، أواللَّون، أو اللغة، أو الثقافة، أو مكان السكن، أوالمعتقدات، أوالعادات، أو المستوى الاجتماعي والاقتصادي.

ومن سلبيات العنصرية أنها: تولد الحقد والكراهية في المجتمع بين أفراده

وأسره ومجموعاته وقبائله وتنظيماته، وكذلك بين الدول الإسلامية فيما بينها، فتفرق بينهم وتولد النزاعات والخلافات والصراع المؤدي أحيانا إلى نشوب الحرب والاقتتال وسفك الدماء.

ولتدبير الاختلاف مع هؤلاء فيما بينهم ومع غيرهم وتحقيق الائتلاف ينبغي مراعاة الأمور التالية:

معرفة عددهم في المجتمع وأثرهم فيه وطبيعتهم وسلوكهم ومقاصدهم، وما ترجع إليه عنصرية كل فئة منهم، وكونهم من الأغلبية أو الأقلية، ومعرفة إن كانوا يدعون إلى عنصريتهم أم لا.

توعيتهم بحقيقة الدين الإسلامي، وبأن رابطة العقيدة فيه مقدمة على كل الروابط الأخرى بدون استثناء، وأن المؤمنين إخوة لا تفاضل بينهم في جنس أو لون أو عرق أو قبيلة إلا بالتقوى، وأنهم كلهم لآدم وآدم من تراب.

حرص الرؤساء والحكومات الإسلامية على تضييق دائرة الخلافات بين القبائل، وبين المجموعات القائمة على العنصرية في المجتمع..

حرص الدول الإسلامية على العدل والقسط بين كل مكونات المجتمع في الحقوق والواجبات في جميع المجالات.

توظيف كل وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في دعم الأخوة والمحبة بين كل مكونات المجتمع، ومحاربة كل أسباب التمييز العنصري ومظاهره، وبيان أخطاره ومساوئه على الفرد والمجتمع.

وضع برامج تعليمية لكل المستويات - من التعليم الأولي إلى الجامعي - تركز على الأخوة والمساواة بين كل مكونات المجتمع أمام الشرع والقانون وتحض عليها وتبين فضائلها، وتدعو إ لى نبذ العصبية ومحاربتها وتبين مساوئها وعواقبها.

منع تأسيس الأحزاب السياسية على أساس عنصري، أو اعتمادها في برامج الأحزاب وحملاتها الانتخابية.

سن قوانين تفرض عقوبات زاجرة على كل من يستغل العنصرية في إثارة الفتنة والنزاعات في المجتمع، والاستعانة بمنظمات حقوق الإنسان لنشر ثقافة الإخاء والمساواة من خلال المحاضرات والندوات والمؤتمرات والبرامج التلفزيونية ونشر الكتب وتوزيع المطويات وغيرها.

وبعد هذا كله تبقى الاستعانة بالله تعالى، لأنه هو الذي يؤلف بين القلوب، ولو أنفقنا ما في الأرض جميعا ما ألفنا بينها.

3 – تدبير الاختلاف مع أصحاب المصالح الشخصية:

أقصد بهؤلاء الذين يدورون مع مصالحهم الشخصية حيث دارت، ويقدمونها على المبادئ والقيم والمصالح العامة ومصالح الآخرين. وهذا الصنف من المختلفين قد يكون حزبا - سواء كان في الأغلبية أو المعارضة - أو جماعة، أو نقابة، أو هيأة، أو جمعية، قائمين على أساس تحقيق مصالح أعضائهم، كما قد يكون أفرادا يتسللون إلى أحزاب قائمة على احترام المبادئ والقيم، أو إلى جماعات دينية، أو

دنيوية صادقة أمينة، وهم لا مبادئ لهم ولا دين لهم ولا صدق ولا أمانة، وما أكثرهم اليوم في الأمة الإسلامية وهي تعاني منهم الويلات ويسببون لها المصائب والنكبات.

ولتدبير الاختلاف مع هؤلاء ينبغي مراعاة الأمور التالية:

معرفتهم والتثبت منهم حتى لا ينسب إليهم من ليس منهم، لأنهم لا يعرفون إلا بصفاتهم وأفعالهم، ثم تذكيرهم بالله ووعظهم بالتنبيه على سوء أخلاقهم دون تجريح أشخاصهم.

الحرص على نشر الوعي الديني لتصحيح هذا التصور، وتغيير هذه الأخلاق السيئة والتنفير منها ببيان الآثار السلبية الناتجة عن تقديم المصالح الخاصة على المصالح العامة، وأنها من أهم أسباب هلاك الأمم ودمارها وتخلفها في كل مناحي الحياة الدينية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية. وبيان فضل الثبات على المبادئ وتقديم المصلحة العامة على الخاصة وحب الخير للغير، والدفاع عن الدين والوطن والأمة، وذلك بواسطة المنابر الدينية، والإعلامية، والتعليمية، وما فيها من دروس وخطب ومحاضرات وبرامج وندوات ومؤتمرات.

الحذر والتحذير منهم حتى لا يخدع الناس بهم وبما يدعون، وحتى لا يصلوا إلى مواطن اتخاذ القرارعن طريق هيآتهم أو هيآت أخرى قد تسللوا إليها.

سن قوانين صارمة وعقوبات لازمة، ورادعة لكل من ضيع الحقوق العامة أو شارك في ضياعها، وعلى رأسها الاعتداء على المال العام بالنهب أو التبذير أو غير ذلك، وربط المسؤولية بالمحاسبة، واعتماد قانون: من أين لك هذا؟، ورد المظالم إلى أهلها.

المبحث الثالث: الائتلاف بين المسلمين: مفهومه وأهميته وإمكانيته ومراحله

المطلب الأول: مفهوم الائتلاف في اللغة والاصطلاح

معنى الائتلاف لغةً:

يقال: أَلِفته إلفًا -من باب علم- وألفته أنِسْت به، ولزمته وأحببته، والاسم الأُلفة بالضمِّ، والأُلفة أيضًا اسم من الائتلاف، وهو الالتئام والاجتماع.

فهو مُؤْلَفٌ ومأْلُوفٌ... وأَلَّفْتُ بينهم تأْلِيفًا إذا جَمَعْتَ بينَهم بعد تَفَرُّقٍ[34].

معنى الائتلاف اصطلاحًا:

قال الجرجاني: (الأُلْفَة: اتِّفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش)[35](2) .

وقال الرَّاغب: (الإلْفُ: اجتماع مع التئام، يقال: أَلَّفْتُ بينهم، ومنه: الأُلْفَة)[36]

يتبين من التعريفين اللغوي والاصطلاحي أن الألفة أو الائتلاف يتضمن المعاني التالية: الأنس، والملازمة، والالتئام، والاجتماع، والاتفاق، والمعاونة. وكلها معان

(34) ابن منظور : لسان العرب والقاموس المحيط للفيروز آبادي: مادة ألف

(35) التعريفات للجرجاني: ص 34

(36) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص 81

جميلة تحتاج إليها الأمة الإسلامية خاصة والإنسانية عامة.

المطلب الثاني: أهمية الائتلاف بين المسلمين وإصلاح ذات بينهم :

لقد اهتم الإسلام بوحدة المسلمين وائتلافهم اهتماما كبيرا، وجعل ذلك واجبا عليهم جميعا، ومما يدل على هذا الاهتمام والعناية ما جاء في القرآن والسنة من الآيات والأحاديث الكثيرة التي تدعو إلى الألفة ونبذ الفرقة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

- قوله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: 103)

وقوله سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران:105).

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:1).

وقوله عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) (الأنعام: 159)

وقوله سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:32)

وقال صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[37].

وقال صلى الله عليه وسلم:(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)[38].

وعَنْ عَرْفَجَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ: (مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ)[39].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم.)[40].

قال القرطبي: (قوله تعالى: (ولا تفرقوا) يعني في دينكم كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم، عن ابن مسعود وغيره. ويجوز أن يكون معناه ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخوانا، فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر...)[41].

كل هذه النصوص تدل على أن الالتزام بالجماعة والألفة أصل من أصول الدين يقدم على الفروع والجزئيات ويضحى بها في سبيل تحقيقه، فهي متكاملة ويشرح بعضها بعضا. وقد سبق بيان أهمية إصلاح ذات البين في حديثي عن فضل تدبير الخلاف.

(37) متفق عليه

(38) متفق عليه

(39) رواه مسلم

(40) رواه البخاري

(41) الجامع لأحكام القرآن في تفسير الآية 103 من سورة آل عمران

المطلب الثالث: إمكانية ائتلاف الأمة ووحدتها بعد تفرقها

إن ما تعيشه الأمة الإسلامية اليوم من العداوة والبغضاء والفرقة بين مكوناتها أفرادا وجماعات وأحزابا ودولا، وما تعرفه من اقتتال بينها وسفك للدماء جعل بعض أبنائها يستبعدون عودتها إلى وحدتها وائتلافها وأخوتها. ويسألون هل وحدة الأمة الإسلامية ممكنة؟ وإن كانت ممكنة فما السبيل إلى تحقيقها؟

وللجواب عن هذين السؤالين أقول: إن الأصل في الأمة الإسلامية أنها واحدة موحدة، قد وحدها الله بالإسلام على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ دعاهم الله إلى الاعتصام بحبله وحذرهم من التفرق، وذكرهم بنعمته عليهم إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بها إخوانا متحابين ومتعاطفين ومتعاونين كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص، وبقيت موحدة مدة ألف سنة مضت، وإن شابها بعض الاختلافات والنزاعات بين بعض أطرافها، ومع ذلك فقد انصهرت فيها القبائل والأجناس، والعرب والعجم، والألوان واللغات، والأغنياء والفقراء،... وكانت قوية عزيزة لا يجرؤ عدو على انتهاك حرماتها أو تدنيس مقدساتها، أو تجاوز حدودها، أو هتك أعراضها، أو نهب أموالها.

لكن لما اشتد خلافها ونزاعها وصار بأسها بينها شديداً بسبب انحرافها ومكر أعدائها، فشلت وذهبت ريحها، وأصبحت تابعة بعدما كانت متبوعة، ومقودة بعدما كانت قائدة، وذليلة بعدما كانت عزيزة. وهذا لا يعني أنها ماتت أو كادت، فهي لا تموت لأنها أمة الشهادة على الناس، بل ذلك كان عقابا وتنبيها لها بسبب مخالفتها لكتاب الله وسنة رسوله، وابتغائها العزة في غير دينه، لعلها تعود وتؤوب إلى الله.

وقد بدأت تعود بفضل الله ثم بفضل المخلصين من العلماء والدعاة والقادة إلى رشدها وصوابها، ولا أدل على ذلك مما نشاهده من صحوة مباركة- رغم ضعفها وغلو بعض دعاتها - تدعو إلى الله، وتنادي بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله، وتحض على جمع كلمة المسلمين ورص صفوفهم، وتحذر من أخطار الخلاف والنزاع والفرقة. إنها بداية ولكل بداية نهاية، ومن سار على الدرب وصل، ومن عرف ما قصد هان عليه ما وجد.

وما دام الأصل في الأمة هو الوحدة والائتلاف، والفرقة طارئة عليها، وأن الرجوع إلى الأصل أصل، فإن تحقيق وحدة الأمة ممكن شرعا وعقلا، بل الوحدة هي فريضة شرعية وضرورة واقعية، وستتحقق بإذن الله تعالى إذا وجدت الأسباب والشروط وانتفت الموانع. (وما ذلك على الله بعزيز) (فاطر: 17).

المطلب الرابع: الائتلاف المحدود والائتلاف المنشود

إذا كان اختلاف الأمة وافتراقها قد تم عبر مراحل وأطوار ليصل إلى ما وصل إليه في زماننا، فإنه لا سبيل إلى درئه ورفعه لتعود الأمة إلى أصلها وسابق عهدها ووحدتها وائتلافها إلا عبر مراحل وخطوات كذلك، انسجاما مع سنة التدرج التي هي سُنّة من سنن الله تعالى، وقانون من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل.

وبناء عليه سيتحقق ائتلاف المسلمين بتوفيق من الله تعالى عبر مرحلتين اثنتين – ائتلاف محدود وائتلاف منشود – ولكل مرحلة منهما خطوات وأولويات وهي كما يلي:

المرحلة الأولى: الائتلاف المحدود

وأقصد بالائتلاف المحدود: المرحلي، أو الجزئي أو المقدور عليه، أوالمستطاع. وهو جهد بشري يقصد إصلاح ما فسد من أحوال الأمة، وعلى رأسها إصلاح ذات بينها، وهذا ما نبه الله عليه على لسان نبيه شعيب عليه السلام في قوله تعالى: (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) (هود: 88)، وفي قوله سبحانه: (فاتقوا الله ما استطعتم) (التغابن:16).

ويعتبر تحقيق الائتلاف بهذا المعنى فريضة شرعية وضرورة واقعية، فهي فرض كفاية أوجبه الله على جماعة المسلمين، فإذا أداه من يكفي سقط التكليف عن الباقين، وإذا لم يؤده أحد منهم أثم الجميع.

وهذا التدرج يعني مجموع الأمة وعامة مؤسساتها واتحاداتها الموجودة والتي ستوجد، أما الخاصة منها التي قطعت أشواطا من الائتلاف والوحدة، فليست معنية باتباع هذه الخطوات بحذافيرها، وعليها أن تستمر في ائتلافها واتحادها، ولا تنتظر غيرها لتسير بسيرها، ولكن تحرص عليها وترعاها حتى تلحق بها، وهذا يدخل في استباق الخيرات والتعاون على البر والتقوى.

ولا يفوتني أن أنبه على أمر مهم وضروري – كضرورة الماء والهواء – يعتبر أرضية لما بعده من المراحل، ألا وهو العلم بالدين والدنيا، وذلك لأن العلم نور، وأفضله العلم بالله تعالى الذي ينتج عنه إيمان صادق قوي يحيي الله به المؤمنين حياة طيبة، ويجعل لهم نورا يمشون به في الناس، فيرون به الأشياء على حقيقتها، ويرون الطريق الذي يسلكونه ويتبعونه، وبه يميزون بين الحق والباطل، والنافع والضار، والخير والشر، والصديق والعدو. وهذا يحتاج إلى جهد كبير، وصبر جميل، وتدافع خطير، لإصلاح السياسة التعليمية في العالم الإسلامي، وإصلاح جامعاته ومعاهده، وكل مراحل تعليمه، ومناهجه وبرامجه، والعمل على تعميمه، واستقلاله وتطهيره من سموم أعدائه، وإصلاح القائمين عليه.

فإذا تحقق هذا الأساس المتين تيسر ما بعده من المراحل والخطوات بيقين.

ويتحقق الائتلاف المنشود بإذن الله تعالى بعد حين، وذلك عبر مرحلتين اثنتين: هذه أولاهما وستتم – بتوفيق من الله تعالى – عبر المراحل والخطوات التالية:

تعريف الأمة بمشروعية الاختلاف وبأهمية الائتلاف ووجوبه:

فتقنع الأمة بأن الاختلاف سنة الله في خلقه، وأنهم في حاجة إلى حسن تدبيره، وتعرف مكانة الائتلاف وفضله ويحبب للمسلمين ويرغب فيه، كما تعرف كذلك بخطورة الفرقة ومساوئها وجعل المسلمين يكرهونها. وتعلم بأن أمتنا أمة واحدة وأن الأصل فيها أنها مؤتلفة وموحدة، وأن الفرقة فيها طارئة ومبددة .

– تعريف الأمة بأسباب الاختلاف المذموم:

ذلكم الاختلاف الذي أدى إلى فرقتها، وتصدع وحدتها، ونزاعها وفشلها، وبيان دور الأهواء والأطماع والشهوات والأعداء في ذلك.

- نشر فقه تدبير الاختلاف وفقه الائتلاف في الأمة:

وذلك بإدراجه في برامج المدارس والجامعات والمعاهد، ووسائل الإعلام، وبأن تخصص له ندوات ومؤتمرات ومحاضرات، من أجل إعادة الأمل في الوحدة والائتلاف إلى الذين يئسوا منها أو كادوا.

-تحقيق ائتلاف لا قتال فيه بين المسلمين:

وهذا هو الحد الأدنى من الائتلاف،، وهي مرحلة لا يستهان بها، حين يتفق المسلمون على تحريم الاقتتال بينهم ومنعه مهما بلغت خلافاتهم حقنا للدماء وحفاظا على الأرواح، وذلك بعدما تحصى الأحاديث الموضوعة وغير الصحيحة التي تدعو إلى قتال المسلمين ويبين وضعها وكذبها بين الناس ويحذر منها، ويبصرونهم بقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم:(سِباب المسلم فسوقٌ، وقتاله كفرٌ).[42] فالفسوق هو الخروج عن طاعة الله ورسوله، والكفر هنا دون الكفر المخرج من الملة، ومما ورد في تأويله أن فعله يشبه فعل الكفار، وهو فعل شنيع لا ينبغي أن يفعله مؤمن. ولتحقيق ذلك تحتاج الأمة إلى تأسيس هيأة دولية إسلامية للفصل في النزاعات بين المسلمين.

- تحقيق ائتلاف لا تكفير فيه ولا سباب ولا لعن بين المسلمين:

وذلك بجمع كل الأحاديث الموضوعة وغير الصحيحة الواردة في لعن أهل السنة أو الشيعة الرافضة أو غيرهم من الفرق، وبيان وضعها وكذبها ومن كان وراء ذلك، وتحذير المسلمين من روايتها ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كما يتم الاتفاق على تحريم تكفير أهل القبلة ومنعه منعا كليا مهما بلغت معاصيهم وبدعهم ومنكراتهم، وكذلك منع سبابهم ولعنهم سواء الأحياء منهم أو الأموات، وخاصة في وسائل الإعلام والكتب والدروس والمحاضرات وشبهها، وفرض عقوبات زاجرة على المخالفين، عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن المؤمن كقتله)[43]، وقوله: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء)[44].

- تحقيق ائتلاف يتعاون فيه المختلفون في المتفق عليه، ويعذر بعضهم بعضا في المختلف فيه: فالمتفق عليه هو الثوابت العقدية والمعلوم من الدين بالضرورة، وهو الذي ينبغي أن نركز عليه في حواراتنا ومحاضراتنا وبحوثنا ودعوتنا، ونغض الطرف عن الفروع و الجزئيات التي قد تفرقنا. وهذا يعتبر فريضة شرعية وضرورة واقعية.

ولا يشترط في هذا الائتلاف انخراط جميع مكونات الأمة لأنه ائتلاف مرحلي

(42) أخرجه البخاري ومسلم

(43) رواه البخار ومسلم

(44) رواه الترمذي والبخاري في الأدب المفرد، والحاكم، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي والألباني

جزئـي، يضـم فيـه القريـب ويقـرب فيـه البعيـد ويؤجـل الأبعـد.
- تحقيق ائتلاف بين مؤسسات الدول الإسلامية وهيآتها:
والمقصـود بـه تأسـيس اتحـادات أوتحالفـات أو شراكات بين مؤسسـات العالم الإسـلامي وهيآتـه ومنظماتـه في كل المجـالات، العلميـة والاقتصاديـة والسياسـية والعسـكرية والفنيـة والرياضيـة وغيرهـا. قصـد التقريـب بينهـا وتحقيـق التآلـف والائتـلاف بـين القائمـين عليهـا، والتعـاون عـلى جلـب المصالـح ودرء المفاسـد.
ولا شـك أن منهـا مـا هـو موجـود في حاجـة إلى أن يجـدد ويسـدد حتـى لا يبـدد، ومنهـا مـا هـو مفقـود فيحتـاج إلى مـن يوجـده وينشـئه، تمهيـدا لتحقيـق الائتـلاف الـكلي المنشـود.
ومـن الاتحـادات الموجـودة في عالمنـا العربـي والإسـلامي عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر مـا يـلي: اتحـاد جامعـات العالـم الإسـلامي، واتحـاد الجامعـات الإسـلامية، واتحـاد الجامعـات العربيـة، والاتحـاد الإسـلامي لعلمـاء المسـلمين، ورابطـة علمـاء المسـلمين، ورابطـة العالـم الإسـلامي، واتحـاد مجالـس البحـث العلمـي العربيـة، ورابطـة علمـاء أهـل السـنة، والتكامـل الاقتصـادي العربـي، والاتحـاد العربـي للتنميـة والتكامـل الاقتصـادي، والاتحـاد الإسـلامي العسـكري لمحاربـة الإرهـاب وغيرهـا، إلا أن جلهـا لـم تحقـق مقاصدهـا وأهدافهـا، لأن منهـا مـا ولـد ميتـا، ومنهـا مـا ولـد مشـوه الخلقـة ومعاقـا، ومنهـا مـا ولـد حيـا ولـم ينـمُ ولـم يتطـور، ومنهـا مـا تطـور ثـم تعثـر وتدهـور، ومنهـا مـا ركـد فتعفـن، ومنهـا مـا نمـا وتطـور واسـتمر وقليـل مـا هـي.
ولا يتحقـق الائتـلاف الـذي نقصـده بينهـا إلا بإحيـاء مـا كان منهـا ميتـا وبعثـه، وعلاج مـا كان منهـا عليـلا وتقويمـه، وتقويـة مـا كان منهـا ضعيفـا متعثـرا ومتدهـورا ودعمـه، وتحريـك مـا كان منهـا راكـدا متعفنـا وتطهيره، وذلـك بإعـادة النظـر في رؤاها، وأهدافهـا، ومقاصدهـا، وأعضائهـا، ورؤسـائها، فمـا كان منهـا يخـدم الائتـلاف يثبـت ويبقـى، ومـا كان منهـا يزيـد في الاختـلاف والفرقـة يبعـد ولا يبقـى. وبالنسـبة لمـا كان منهـا حيـا سـليما مسـهما في تحقيـق الوحـدة والائتـلاف فيشـجع ويطـور.
هـذا بالنسـبة لمـا هـو موجـود، وأمـا مـا هـو مفقـود ممـا تحتـاج إليـه الأمـة فيجـب تأسيسـه وإيجـاده، ويكـون أساسـه عـلى التقـوى، وبنيانـه مرصوصـا يشـد بعضـه بعضـا فيقـوى، ومبادئـه وبرامجـه وأهدافـه ورجالـه خـيرا وأبقـى. وبذلـك يصـير مـا كان أفـرادا جماعـات، ومـا كان أشـتاتا اتحـادات، ومـا كان مفرقـا مجمعـات، تمهيـدا لتوحيـد كل المؤسسـات والتحالفـات والاتحـادات.
وبهـذه الاتحـادات يتـم التعـاون في المجـال العلمـي عـلى مسـتوى الجامعـات، والكليـات، والشـعب والتخصصـات، ومراكـز البحـث، قصـد تبـادل الخـبرات وتبـادل الطـلاب والمدرسـين والباحثـين، وتوحيـد -أو تقريـب- المقاصـد والمناهـج والبرامـج والمشـاريع العلميـة والتعـاون عـلى إنجازهـا.
وعـلى مسـتوى المجالـس العلميـة، والمجامـع الفقهيـة، واتحـادات العلمـاء قصـد ترتيب الأولويـات، وضبـط فقـه الموازنـات، والتنبيـه عـلى الاهتمـام بالمتفـق عليـه مـن القواعـد

والكليات، والمعلوم من الدين بالضرورة في العبادات والمعاملات، وغض الطرف عما اختلف فيه من الفروع والجزئيات، وتجنب الخوض فيها ومناقشتها إلا في مقامها وبين أهلها من العلماء وطلاب المعاهد والجامعات، وقصد توحيد الفتوى في قضايا الأمة الكبرى التي تحتاج إلى اجتهاد جماعي، والتقريب بين المذاهب الفقهية والفرق الإسلامية كالسنة والشيعة. والرد على خصوم الإسلام ودفع الشبهات، وتنبيه الغلاة، ونصح الحكام والأمراء والولاة، والصلح بين المتنازعين من الدول والقبائل والطوائف والبغاة...

وفي المجال الاقتصادي على مستوى كليات العلوم الاقتصادية، والجمعيات، والمنظمات التجارية والصناعية والفلاحية، بتأسيس اتحادات بينها وتحالفات من أجل التعاون وتبادل الخبرات، وتحقيق اقتصاد قوي متين يقاوم الفقر والأزمات، ويحقق الأغراض والغايات، ويحمي الأمة من النكبات، وييسر التبادل التجاري والتعاون الصناعي والفلاحي بين الأعضاء فتلغى الرسوم الجمركية، وتفتح أسواق حرة...، تمهيدا لتأسيس سوق مشتركة بين كل الدول الإسلامية. ويحصل بذلك التكامل والانسجام بين المنضوين تحت هذه الاتحادات[45].

وهكذا بالنسبة لباقي المجالات الأخرى السياسية والعسكرية والاجتماعية والفنية والرياضية وغيرها.

وبالنسبة للمجال السياسي يبدأ بإحياء ما مات من الاتحادات أو كاد، وتقوية ما ضعف منها، وتحريك ما ركد وتجمد، وتشجيع ما كان منها حيا متحركا.

ويتم ذلك أولا بين ما كان منها متماثلا أو متقاربا في المنطلقات والأهداف والغايات، وبذلك تضيق مساحة الاختلاف الذي يفرق ويفتق، وتتسع مساحة الائتلاف الذي يوحد ويرتق.

ولا تصل الأمة إلى هذه المرحلة من الائتلاف إلا بعد تخطيط محكم عتيد، وجهد جهيد، وعمر مديد، ووجود رجال صالحين مصلحين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وآثروا الآجلة على العاجلة، وضحوا بالغالي والنفيس، وتسلحوا بالعلم والصبر الجميل، واستعانوا برب العالمين.

المرحلة الثانية: الائتلاف المنشود

إن الائتلاف المنشود هو أقصى ما يطمح إليه المصلحون من ائتلاف الأمة ووحدتها، وهو بلا شك سيكون دون مستوى ائتلاف أصحاب القرون الثلاثة الأولى، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم شهد لهم بالخيرية والأفضلية، وإن كان ذلك في الجملة لا في التفصيل، لأنه يوجد أفراد في القرن الرابع مثلا خير من أفراد في القرون الثلاثة الأولى لأن أكرم الناس عند الله أتقاهم بغض النظر عن زمانهم ومكانهم، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه

(45) كما حصل في الاتحاد الأوربي - وغيره من الاتحادات - الذي بدأ بفكرة ثم بتأسيس جمعية اقتصادية، ثم صارت سوقا مشتركة، ثم اتحادا أوروبيا كبيرا قويا متعاونا في جميع المجالات، رغم اختلاف مذاهب أعضائه الدينية والسياسية، واختلاف بلدانهم، ولغاتهم، ومستوياتهم.

وسلم قَالَ: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ) [46].

وبناء عليه سيكون الائتلاف المنشود في هذا الزمن وما بعده باعتبار الإجمال دون ائتلاف القرون الثلاثة الأولى، وذلك من حيث قوة الإيمان والتقوى والإحسان والأخلاق الحميدة، لا من حيث أمور الدنيا وعلومها وتعمير الأرض وتسخير ما فيها، وسيبقى في الأمة استباق الخيرات والتنافس فيها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ويشهد لهذا ما ورد في صحيح مسلم بشرح النووي في باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة عن حذيفة بن اليمان في قوله: (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: نعم، فقلت هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلت: وما دخنه ؟قال: قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت يا رسول الله صفهم لنا، قال: نعم قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت يا رسول الله فما ترى إن أدركني ذلك قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[47] .

قال أبو عبيد وغيره: (... قالوا: والمراد هنا – بالدَّخَن – ألا تصفو القلوب بعضها لبعض، ولا يزول خبثها، ولا ترجع إلى ما كانت عليه من الصفاء. قال القاضي:(قيل: المراد بالخير بعد الشر أيام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه))[48].

وحصر الخير في أيام عمر بن عبد العزيز مجرد اجتهاد، لا نص فيه، والراجح هو أن الخير في هذه الأمة لا ينقطع إلى يوم القيامة، كما دلت على ذلك نصوص كثيرة، ومنها ما ورد في الفئة المنصورة وغيرها مما لا يسمح المقام بذكرها.

وإذا أردنا توصيف ما نتوقعه في هذه المرحلة فنقول: إن حال الناس في الأمة سيكون حينئذ أقرب ما يكون إلى حال خير الناس في القرون الثلاثة الأولى في أمور الدين، من حيث الإيمان، والتقوى، والاستقامة، وحسن الخلق، والأخوة، والائتلاف، والوحدة، والمحبة، والإيثار، والتعاون على البر والتقوى، والتناصح، والتناصر، لكن حالهم في أمور الدنيا سيكون أفضل من حال ناس خير القرون، من حيث العلوم التقنية، والطب، والعمران، ووسائل الاتصال والتواصل والنقل، وأنواع الطعام

(46) رواه البخاري ومسلم

(47) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم

(48) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي: 12/ 236

والشراب واللباس والأثاث وغيرها. إلا أن الفارق المميز بين الخيرين – خير القرون الثلاثة وخير مرحلة الائتلاف المنشود هو ما أخبر به الصادق المصدوق وسماه (الدخن)، والذي قالوا فيه بأن المراد منه ألا تصفو القلوب بعضها لبعض، ولا يزول خبثها، ولا ترجع إلى ما كانت عليه من الصفاء. ومع ذلك ستعود لها خيريتها بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وتصبح أهلا للشهادة على الناس بدعوتهم إلى الله.

وتحقيق هذه المرحلة وهذا الأمل المنشود - الذي يراه أعداء الأمة وجهال أبنائها بعيدا، ويراه المصلحون من العلماء والأمراء والدعاة والمؤمنون الصادقون قريبا -، تحتاج الأمة إلى نشر العلم ومحاربة الجهل والأمية الحرفية والدينية، لتفقه واقعها وحالها وما يجري حولها، وتعرف عناصر قوتها وأسباب ضعفها، وخطورة مكر أعدائها بها، بالإضافة إلى توفر شروط ووسائل أكثر مما اشترط في المرحلة التي قبلها، فيكون زمان تحقيقها أطول، والتخطيط لها أتقن، والجهد أكثر، والمصلحون أقوى وأصبر، والنتيجة تكون بتوفيق الله كذلك أعظم وأحسن. ذلك لأن الله تعالى جعل من سننه ربط المسببات بأسبابها، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب ثم نتوكل عليه، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

خاتمة:

بعدما أنهيت البحث عن دور فقه الاختلاف وحسن تدبيره في تحقيق الائتلاف بين المسلمين، أراني ملزما بعرض ما استفدته وتوصلت إليه من نتائج وخلاصات، لعلها تفيد الناظر فيه، بما ينبغي له الاقتناع به، أو العمل به، أو البحث فيه أوتقويمه وتطويره.

ومن هذه النتائج والخلاصات ما يلي:

- ضرورة التمييز بين الأحكام المنصوص عليها والاجتهادات الفقهية
- لا تقديس لرأي أحد سواء كان فردا أو جماعة أو طائفة أو حزبا أو دولة
- العلماء والأئمة والأولياء نحترمهم ونقدرهم، بلا تقديس ولا تبخيس، ولا عصمة ولا تدنيس
- الحذر من زلة العالم، لا يصح اعتمادها، ولا يشنع عليه بها، ولا ينتقص من أجلها، ولا ينسب إلى التقصير
- أهمية العلم بتدبير الاختلاف وبقواعده ووسائله وآدابه
- أهمية العلم بفقه الائتلاف بين المسلمين ومراحله وخطواته
- ضرورة معرفة المخالفين معرفة مفصلة قبل أي تدبير للخلاف معهم
- أهمية أسباب اختلاف المسلمين الدنيوية وخطورتها والحاجة إلى تنبيه الغافلين عنها .
- تحريم وتجريم قتال المسلم بغير حق، لأن سبابه فسوق وقتاله كفر
- تحريم وتجريم تكفير أهل القبلة وسبابهم ولعنهم الأحياء منهم والأموات

مهمـا كانـت أخطاؤهـم.

- الحـرص عـلى تصحيـح أخطـاء المخالفـين بالتـي هـي أحسـن دون تجريـح أشـخاصهم ولا تقبيحهـم.
- الاقتناع بإمكانية التحالف مع كل المخالفين من المسلمين إما كليا أو جزئيا
- الحرص على تصنيف المخالفين تبعا للمختلف والمؤتلف فيه معهم
- تحديـد لـكل صنـف مـن المخالفـين خطـة وأسـلوبا لتدبـير الخـلاف معـه يراعـى فيهمـا حالـه
- ضرورة احترام سنة التدرج في تدبير الاختلاف وتحقيق الائتلاف
- الاقتنـاع التـام بـأن الفرقـة الناجيـة غـير معينـه، حتـى لا تسـتأثر بهـا فئـة دون غيرهـا
- الفرقـة الناجيـة قـد تكـون أفـرادا أو جماعـة أو فرقـة أو جماعـات أو حزبـا أو أحزابـا في دولـة أو دول...
- الفـرق الضالـة في الأمـة غـير معينـين، يجـب سـترهم وعـدم تعيينهـم وفضحهـم، والحـرص عـلى هدايتهـم .
- تعيـين مـن ينبغـي تعيينهـا والتحذيـر منهـا مـن الفـرق موكـول إلى علمـاء الأمـة دون غيرهـم

التوصيات:

- حـض الجهـات المسـؤولة في وزارات التعليـم عـلى إدراج مـادة فقـه الاختـلاف وتدبـيره وفقـه الائتـلاف في مقرراتهـا وبرامجهـا.
- إنشـاء ماسـترات ومراكـز الدكتـوراه وفـرق بحـث في تدبـير الاختـلاف وفقـه الائتـلاف ومـا يخدمـه
- وضـع خطـة لتأسـيس اتحـادات أو تحالفـات بـين مؤسسـات أو هيـآت متشـابهة أو متقاربـة
- وفتح باب الانخراطات في الاتحادات القائمة وتيسير شروطها
- إعـداد كتيبـات ومطويـات في موضـوع تدبـير الاختـلاف وفقـه الائتـلاف وتوزيعهـا عـلى المؤسسـات والهيـآت والعلمـاء والباحثـين والدعـاة والخطبـاء والطلبـة.
- الإكثار من الندوات والمؤتمرات في موضوع فقه تدبير الخلاف وفقه الائتلاف
- وأسـأل اللـه عـز وجـل أن يعجـل بوحـدة هـذه الأمـة وبائتلافهـا وبنصرهـا عـلى أعدائهـا إنـه سـميع مجيـب.
- والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

لائحة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الائتلاف والاختلاف: أسسه وضوابطه، صالح بن غانم السدلان، دار بلنسية: 2008
3. آداب الاختلاف في الإسلام. د. طه جابر فياض العلواني- كتاب الأمة عدد (9). الطبعة الثانية.
4. أحكام القرآن: لابن العربي. تحقيق: علي محمد البجاوي. دار الفكر. الطبعة الأولى.
5. أعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن قيم الجوزية. دار الحديث. القاهرة.
6. الاعتصام: لأبي إسحاق الشاطبي إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الأولى: 1417هـ1997-م.
7. الاعتصام بالشريعة: للشيخ طارق الشامخي. دار البدائل، الطبعة الأولى: 1421هـ- 2001م.
8. الإسلام بين العلماء والحكام: عبد العزيز البدري. المكتبة العلمية (المدينة المنورة). الطبعة الثانية: 1403هـ1983-م.
9. إسلام بلا مذاهب: د. مصطفى الشكعة. دار القلم.
10. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري. تحقيق وتعليق: ذ. جعفر الناصري و ذ. محمد الناصري. دار الكتاب.
11. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر بيروت: 1415هـ/ 1995م
12. البحر الحيط في أصول الفقه لبدر الدين الزركشي، دار الكتبي، الطبعة الأولى، 1414هـ/ 1994م
13. البيعة والخلافة في الإسلام: مجموعة من الأساتذة. مطبعة فضالة، الطبعة الأولى: 1415هـ1994-م.
14. جامع بيان العلم وفضله ليوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، دار ابن الجوزي، ط : الأولى 1994م
15. جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري، مؤسسة الرسالة
16. دليل تنمية القدرة على تدبير الاختلاف، د. خالد الصمدي، مركز نماء للبحوث والدراسات 2017
17. لسان العرب: لابن منظور الإفريقي المصري. دار صادر، الطبعة الأولى: 1412هـ 1992-م.
18. الموافقات في أصول الشريعة: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: 1411هـ 1991-م
19. مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي: د. علي سامي النشار. دار المعارف (القاهرة), الطبعة الرابعة: 1978م.
20. - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأحمد بن محمد الفيومي المقريء، مكتبة لبنان
21. المعيار المعرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب: لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي. طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية: 1401هـ 1981-م.
22. معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية: لمناع القطان. الطبعة الأولى.
23. المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم بيروت، ط الأولى: 1412هـ
24. مقدمة ابن خلدون: لعبد الرحمان ابن خلدون. المحقق: لونان. دار الفكر (بيروت). الطبعة الأولى 1423هـ 2003- م.
25. المقاصد الحسنة لشمس الدين السخاوي، تحقيق محمد عثمان، دار الكتاب العربي بيروت.
26. مقاصد الشريعة: للطاهر بن عاشور. الشركة التونسية للنشر.
27. المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة: د. يوسف القرضاوي. مكتبة وهبة
28. المغني: لابن قدامة المقدسي. على مختصر عمر بن حسين بن أحمد الخرقي. عالم الكتب بيروت.
29. النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف (دراسة تأصيلية تحليلية) د. محماد بن محمد رفيع، دار السلام، مصر

30. في فقه التدين فهما وتنزيلا: د. عبد المجيد النجار. كتاب الأمة، عدد 22. الطبعة الأولى: 1410هـ.
31. في فقه الأولويات: د. يوسف القرضاوي. مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة: 1421هـ2000-م.
32. في فقه الواقع رسائل إلى الإسلاميين: لعبد السلام البسيوني. دار الوفاء، الطبعة الثانية: 1413هـ 1992-م.
33. فقه الإصلاح بين التربية والسياسة: "ابن العربي وابن تومرت نموذجا": د.عبد المجيد عمر النجار. التوفيق، الطبعة الأولى: 1417هـ1997-م.
34. الرسالة: للإمام الشافعي. تحقيق: أحمد محمد شاكر. دار الفكر.
35. شرح صحيح مسلم: للإمام النووي. دار الكتب العلمية. بيروت.
36. - التعريفات: لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1983م
37. تفسير القرآن العظيم: لابن كثير. تحقيق: د. يوسف عبد الرحمان. دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية 1407هـ1987-م.
38. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة دار السلام - الرياض
39. تفسير التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر. 1984م.
40. الخلاف الفقهي دراسة في المفهوم والأسباب والآداب: د. أحمد بن محمد البوشيخي. كتاب المحجة عدد (2) عام 1424هـ- 2003م.
41. ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية: د. محمد سعيد رمضان البوطي. مؤسسة الرسالة بيروت. الطبعة الثانية: 1397هـ - 1977م.

قاعدة الشك في التماثل كتحقق التفاضل
(دراسة فقهية تطبيقية)

إعداد: عبدالمجيد المبروك علي خالد.
محاضر مساعد- كلية القانون / جامعة وادي الشاطئ.

الاستلام : 14/ 2/ 2023 القبول: 15/ 3/ 2023

المستخلص:

في هذا البحث تم تسليط الضوء على مضمون هذه القاعدة، والتي يُقصد بها عند الفقهاء أن الأموال الربوية- سواء نقوداً أو مطعومات- عند مبادلتها ببعضها، إذا كانت من نفس الجنس، فلابد من التيقن بمماثلتها لبعضها البعض، دون زيادة أو نقصان في أحد البدلين، وهذه المماثلة يمكن تحققها بالكيل إذا كان البدلين من المكيلات، أو بالوزن إذا كان من الموزونات، أو بالعد إذا كان من النقود، بمعرفة قدر كل منهما بالتساوي، أما مجرد حصول الشك في التماثل بينهما، بأن جُهل قدرهما يعتبر العقد باطلاً؛ لأن هذا الجهل اعتبره الفقهاء بمنزلة اليقين بوجود التفاضل فأبطلوا العقد بسبب ذلك، وبناء على ذلك سطر الفقهاء هذه القاعدة الفقهية مؤكدة لهذا المعنى فقالوا: الشك في التماثل فيما يشترط فيه التماثل كتحقق التفاضل. فالربا في الشرع مبني على الاحتياط، والشك والشبهة فيه يعملان عمل الحقيقة، كما نص على ذلك الفقهاء.

كلمات مفتاحية: الجهل، المساواة، العلم، الزيادة.

Title: The Rule of Doubt in Symmetry as Verification of Differentiation (Applied Jurisprudence Study)

Abstract

In this research, the light was shed on the content of the doubt's rule about symmetry, such as verification of differentiation, which is meant by jurists as the usurious money. Whether money or food when exchanged for each other, if they are of the same kind, it is necessary to be certain that they are similar to each other, without an increase or decrease in one of them. This similarity can be achieved by measure if the two allowances are of measures, or by weight if they are of weights, or by counting if they are of money, by knowing the amount of each of them equally. As this ignorance was considered by the jurists as the certainty of the existence of the differentiation, they nullified the contract. Based on that, the jurists wrote this jurisprudential rule confirming this meaning, and they said: Doubt in symmetry is in what is conditioned by symmetry, such as achieving differentiation. The usury in Sharia is based on precaution, and suspicion and doubt in it do the work of the truth, as stipulated by the jurists.

Keywords: ignorance, equality, knowledge, increase.

المقدمة

أما بعد فمن المعلوم أن الربا من الكبائر، وملعون صاحبه، وشره وخطره عظيم على الفرد والمجتمع، ولعظم خطورته فقد سدّ الشارع جميع الطرق الموصلة إليه، ورتب على مقارفته العقاب الشديد، وجاء فيه الوعيد من الله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بنص الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأمرنا عند التعامل بالأموال الربوية بأن نحتاط ونعمل اليقين، ونبعد الشك، وخاصة في الأموال الربوية التي يشترط فيها التماثل، ومن خلال هذه الخطورة وضع الفقهاء للربا قواعد وضوابط تضبطه حتى لا يقع الإنسان فيه، ويكون على حذر منه، ومن هذه القواعد؛ قاعدة (الشك في التماثل كتحقق التفاضل)، والتي يُفهم منها أن الأموال الربوية عند التعامل بها وتبادلها لابد فيها من التماثل، فبمجرد حصول الشك في عدم التماثل بين البدلين يجعل الصفقة باطلة، والعقد فاسداً؛ لأن الجهل بالتماثل في الربويات كالعلم بزيادة أحدها على الآخر وهذا حرام شرعاً، لذلك جاء هذا البحث لبيان مضمون هذه القاعدة التي تعد من أهم قواعد الربا، وبيان أدلتها من الكتاب والسنة، والتطبيقات الفقهية عليها، بشيء من الإيجاز والتسهيل.

خطة البحث: يتكون الإطار العام لهذا البحث من مقدمة، ومبحث واحد يحتوي على سبعة مطالب، وخاتمة فيها بيان لأهم النتائج، وفهرس المراجع، والموضوعات، وذلك على النحو التالي:

المطلب الأول : التعريف بمفردات القاعدة.
المطلب الثاني: المعنى العام للقاعدة.
المطلب الثالث: صيغ القاعدة.
المطلب الرابع: أدلة القاعدة.
المطلب الخامس: العمل بالقاعدة عند الفقهاء.
المطلب السادس: التطبيقات على القاعدة.
المطلب السابع: مما استثني على القاعدة.

المطلب الأول: التعريف بمفردات القاعدة:

الشك لغة: جاء في معجم مقاييس اللغة، ولسان العرب: معنى الشك بقولهم: " الشين والكاف أصل واحد مشتق بعضه من بعض، وهو يدل على التداخل، من ذلك قولهم شككته بالرمح، وذلك إذا طعنته فداخل السنان جسمه... ومن هذا الباب الشك، الذي هو خلاف اليقين، إنما سمي بذلك لأن الشاك كأنه شك له الأمران في مشك واحد، وهو لا يتيقن واحدا منهما، فمن ذلك اشتقاق الشك".[1]

(1) معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م، 3/173. مادة شك. ولسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، 10/451. مادة شكك.

والشك اصطلاحاً: عرّفه صاحب التعريفات بقوله: هو التردُّد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، وقيل: ما يستوي طرفاه وهو الوقوفُ بين الشيئين لا يميل القلبُ إلى أحدهما.[2]

التماثل: جاء في المصباح المنير، ومختار الصحاح معنى التماثل بقولهم: " المثل يستعمل على ثلاثة أوجه بمعنى الشبيه وبمعنى نفس الشيء وذاته وزائدة والجمع أمثال ويوصف به المذكر والمؤنث والجمع فيقال هو وهي وهما وهم وهن مثله، وفي التنزيل ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ [المؤمنون: 47][3].

كتحقق: جاء في لسان العرب: " الحق نقيض الباطل وجمعه حقوق... تقول حققت الأمر وأحققته إذا كنت على يقين منه".[4]

وجاء في المصباح المنير: " وحققت الأمر أحقه إذا تيقنته أو جعلته ثابتا لازما...وحقيقة الشيء منتهاه وأصله المشتمل عليه".[5]

وجاء في التعريفات الفقهية: " الحَقُّ: هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، اليقينُ، ضدُ الباطل، الحظُّ والنصيبُ، المالُ والمِلكُ، الأمر المقضيُّ جمعه حقوق".[6]

التفاضل: وهو الزيادة والخير، والفضل والفضيلة معروف ضد النقص والنقيصة".[7]

المطلب الثاني: المعنى العام للقاعدة:

يُقصد بلفظ القاعدة إجمالاً أن الأموال الربوية عند مبادلتها ببعضها، إذا كانت من نفس الجنس، فلابد من التيقن بمماثلتها لبعضها البعض، دون زيادة أو نقصان في أحد البدلان، وهذه المماثلة يمكن تحققها بالكيل إذا كانا البدلان من المكيلات، أو بالوزن إذا كان من الموزونات، بمعرفة قدر كل منهما بالتساوي، أما مجرد حصول الشك في التماثل بينهما، بأن جُهل قدرهما يجعل العقد باطلاً؛ لأن هذا الجهل اعتبره الفقهاء بمنزلة اليقين بوجود التفاضل فأبطلوا العقد بسبب ذلك، فالربا في الشرع مبني على الاحتياط، والشك والشبهة فيه يعملان عمل الحقيقة، كما نص على ذلك الفقهاء[8].

---

(2) التعريفات الفقهية، لمحمد عميم الإحسان المجددي البركتي الناشر: دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان 1407هـ - 1986م)، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2003م، ص124، وبدائع الفوائد، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 4/26.

(3) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، (المتوفى: نحو 770هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، 2/563، مادة مثل، ومختار الصحاح، لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م، ص290. مادة مثل.

(4) لسان العرب، لابن منظور، 10/49.

(5) المصباح المنير للفيومي، 1/143.

(6) التعريفات الفقهية للبركتي، ص80.

(7) لسان العرب، لابن منظور، 11/524، والمصباح المنير للفيومي، 2/475، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس، 4/508. مادة فضل.

(8) المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي))، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، الناشر: دار الفكر، 10/231-232. مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م15/ 338.

ومن هنا سطر الفقهاء هذه القاعدة الفقهية مؤكدة لهذا المعنى فقالوا: الشك في التماثل فيما يشترط فيه التماثل كتحقق التفاضل، أي أن الأموال الربوية لا تُباع بجنسها إلا بتحقق المماثلة فيها، فكل الأموال الربوية التي لا يجوز التفاضل فيها، فلا يجوز بيع بعضها ببعض، جزافاً بكيل ولا جزافاً بجزاف؛ لعدم المماثلة المأمور بها في ذلك، فجهل التساوي حالة العقد كالعلم بالتفاضل».[9]

فهذه القاعدة تعد مثل الحائط الذي يحمي الشريعة الإسلامية من خطورة الربا؛ وسدّت كل الطرق التي تؤدي إليه، بأن جعلت الشبهة تعمل فيه عمل الحقيقة، وأن مبناه على الاحتياط، وبناء عليه اشترطت الشريعة الإسلامية الوضوح التام في جميع المعاملات التي يدخلها الربا؛ حتى نتيقن من صحتها، وخلوها منه. [10]

المطلب الثالث: الصيغ التي وردت بها القاعدة:

الصيغة الأولى: الجهل بالتساوي كالعلم بالتفاضل[11].

الثانية: الجهل بالتساوي كالعلم بعدمه في باب الربا[12] .

الثالثة: الجهل بالتماثل كالعلم بالتفاضل[13].

الرابعة: ما جهلت حقيقة المماثلة فيه لم يؤمن التفاضل فيه[14].

الخامسة: الجهل بالتماثل في المنع كتحقق التفاضل[15].

السادسة: توهم الفضل كتحققه فيما ينبني أمره على الاحتياط[16].

---

(9) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي , محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، عام النشر: 1387 هـ 13/ 309. الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لموسى بن أحمد بن موسى بن سالم بن عيسى بن سالم الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الدين، أبو النجا (المتوفى: 968هـ)، المحقق: عبد اللطيف محمد موسى السبكي، الناشر: دار المعرفة بيروت – لبنان، 2/ 115.

(10) المبسوط، لمحمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: 483هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: 1414هـ - 1993م، 12/ 178.

(11) مجموع الفتاوى لابن تيمية، 15/338. والمنتقى شرح الموطإ، لأبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: 474هـ)، الناشر: مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، الطبعة: الأولى، 1332 هـ، 4/ 262.

(12) المغني لابن قدامة، لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: 620هـ)، الناشر: مكتبة القاهرة، 4/29.

(13) الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ)، المحقق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1999 م ، 150-108/5، والجامع في أصول الربا، لرفيق يونس المصري، دار القلم دمشق، والدار الشامية بيروت، الطبعة الأولى: 1412هـ، 1991م، ص81.

(14) التمهيد لابن عبدالبر، 13/ 309.

(15) التلقين في الفقه المالكي، لأبي محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي المالكي (المتوفى: 422هـ)، المحقق: أبو أويس محمد بو خبزة الحسني التطواني، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 1425هـ-2004م، 2/144. والقوانين الفقهية، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: 741هـ)، ص168.

(16) المبسوط للسرخسي، 14/ 38.

السابعة: الربا مبني على الاحتياط فالشبهة فيه تعمل عمل الحقيقة[17].
الثامنة: المماثلة المجهولة كالمفاضلة المعلومة[18].
التاسعة: الجهل بالتساوي فيما يشترط فيه التساوي كالعلم بالتفاضل[19].
العاشرة: الشك في التماثل كتحقق التفاضل،[20].
الحادية عشرة : الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة[21].
الثانية عشرة : وجهل التساوي حالة العقد على مكيل بجنسه أو على موزون بجنسه كعلم التفاضل في منع الصحة إذا اتحد الجنس المكيل أو الموزون[22].
الثالثة عشر: التماثل شرط، والجهل به يبطل البيع كحقيقة التفاضل[23].
المطلب الرابع: أدلة القاعدة من الكتاب والسنة والإجماع:
الدليل الأول: قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[24].
الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[25].
وجه الدلالة: دلت هذه الآيات على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك[26].
الدليل الثالث: ما رواه جابر بن عبدالله[27] رضي الله عنهما قال: ((لعن

(17) المبسوط للسرخسي، 21/37.

(18) الجمع والفرق (أو كتاب الفروق)، لأبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني (ت 438 هـ)،المحقق: عبد الرحمن بن سلامة بن عبد الله المزيني، الناشر: دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع – بيروت، رقم الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م، 3/743.

(19) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، 20/350.

(20) شرح المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب، للمنجور أحمد بن علي المنجور (المتوفى 995 هـ)، دراسة وتحقيق: محمد الشيخ محمد الأمين، الناشر: دار عبد الله الشنقيطي، 1/426. وتطبيقات قواعد الفقه عند المالكية، للصادق الغرياني، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الطبعة الأولى 1423ه، 2002م، ص107،

(21) الأشباه والنظائر ـ لتاج الدين عبد الوهاب بن علي ابن عبد الكافي السبكي، الناشر : دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1411 هـ - 1991م، 2/304، والجامع في أصول الربا، لرفيق يونس المصري، ص81.

(22) كشاف القناع عن متن الإقناع، لمنصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق هلال مصيلحي مصطفى هلال، الناشر دار الفكر، سنة النشر 1402هـ، مكان النشر بيروت، 3/253.

(23) المغني، لابن قدامة، 4/14.

(24) سورة البقرة، آية 278.

(25) سورة البقرة، آية 275.

(26) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : 671 هـ)، المحقق : هشام سمير البخاري، الناشر : دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة : 1423 هـ/ 2003 م، 3/364.

(27) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام السلمي ابن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة، الإمام الكبير، المجتهد، الحافظ، صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن الأنصاري، الخزرجي، السلمي، المدني، الفقيه. من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتا. روى: علما كثيرا عن النبي -صلى الله عليه وسلم، وكان مفتي المدينة في زمانه. قال الواقدي، ويحيى بن بكير، وطائفة: مات سنة ثمان وسبعين. وقال أبو نعيم: سنة سبع وسبعين. قيل: إنه عاش أربعا وتسعين سنة. ينظر: سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : 748هـ)، المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة ، 1405 هـ / 1985 م، 3/189-194.

رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديْه، وقال: هم سواء)) [28].

وجه الدلالة : دلّ هذا الحديث على حرمة تعاطي الربا، بدليل اللعنة؛ والإبعاد من رحمة الله، وفيه تصريح بتحريم كتابة المبايعة بين المترابيين والشهادة عليهما، وفيه تحريم الإعانة على الباطل، وخص الآكل لأنه الأغلب في الانتفاع وغيره مثله [29].

الدليل الرابع: عن عبادة بن الصامت[30] رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلا بمثل، سواء بسواء، يدا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم، إذا كان يدا بيد»[31].

وجه الدلالة من الحديث: دل هذا الحديث على عدم جواز بيع الربوي بجنسه إلا بالتساوي، وأن ما تقتضي فيه المماثلة في الجنس الواحد لابد فيه من التماثل، ويحرم الازدياد فيه، فالجنس الواحد من المأكولات يدخله الربا من وجهين: الزيادة، والنسيئة[32].

الدليل الخامس: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن المخابرة[33]، والمحاقلة[34]، وعن المزابنة[35]، وعن

(28) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب: لعن آكل الربا وموكله، ح رقم 1598. 3/1219.

(29) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1392هـ، 11/26. وسبل السلام، لمحمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني (المتوفى : 1182هـ)، الناشر : مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة : الرابعة 1379هـ/ 1960م، 3/36.

(30) هو عبادة بن الصامت ابن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن [عمرو بن عوف] بن الخزرج.الإمام، القدوة، أبو الوليد الأنصاري، أحد النقباء ليلة العقبة، ومن أعيان البدريين.سكن بيت المقدس. شهد المشاهد كلها مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم، مات: بالرملة، سنة أربع وثلاثين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، 5/2- 10.

(31) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب: الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً، حديث رقم، 1587، 3/1211.

(32) التمهيد لابن عبدالبر، 13/311، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- عمان، الطبعة: الثالثة، 1412هـ / 1991م، 3/385.

(33) المخابرة: هي المزارعة على الخبرة وهي النصيب، الفائق في غريب الحديث والأثر، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ، المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة – لبنان، الطبعة: الثانية، 1/349.

(34) الحقل: القراح من الأرض وهي الطيبة التربة الخالصة من شائب السبخ الصالحة للزرع. ومنه حقل يحقل إذا زرع والمحاقلة: مفاعلة من ذلك وهي المزارعة بالثلث والربع وغيرهما. وقيل هي اكتراء الأرض بالبر. وقيل: هي بيع الطعام في سنبله بالبر. وقيل: بيع الزرع قبل إدراكه. ينظر: الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري، 1/298.

(35) المزابنة: بيع التمر في رءوس النخل بالتمر لأنها تؤدي إلى النزاع والمدافعة من الزبن [167] وهو الدفع. العرية: النخلة التي يعريها الرجل محتاجا أي يجعل له ثمرتها فرخص للمعري أن يبتاع ثمرتها المعري بتمر لموضع حاجته سميت عرية لأنه إذا وهب ثمرتها فكأنه جردها من الثمرة وعراها. ينظر: الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، 1/298-299.

بيع الثمر حتى يبدو صلاحها، وأن لا تباع إلا بالدينار والدرهم، إلا العرايا[36].

وجه الدلالة: دلّ هذا الحديث على أن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن كل بيع فيه جهالة وغرر، كبيع ماهو مكيل بجزاف، أو بيع رطب بيابس، أو بيع مجهول بمعلوم[37].

الدليل السادس: وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تباع الصبرة[38] من الطعام بالصبرة من الطعام، ولا الصبرة من الطعام بالكيل المسمى من الطعام»[39].

الدليل السابع: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: ((نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الصبرة من التمر لا يعلم مكيلتها بالكيل المسمى من التمر))[40].

وجه الدلالة من الحديثين: في الحديثين تصريح بتحريم بيع مجهول بمجهول من جنسه، كالصبرة بالصبرة من الطعام مجهولتي المقدار، أو مجهول بمعلوم، كالصبرة من الطعام بمكيل من جنسه؛ للجهالة وعدم التماثل بينهما، ولأنها أطعمة ربوية يشترط فيها المساواة عند بيعها ببعض، ولا يمكن أن تتحقق المساواة مع الجهل بمقدار كليهما. قال العلماء لأن الجهل بالمماثلة في هذا الباب كحقيقة المفاضلة[41].

الدليل الثامن: ما رواه سعد بن أبي وقاص[42] رضي الله عنه، قال: سمعت

---

(36) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب: الرجل يكون له ممر أو شرب في حائط أو في نخل، ح رقم: 2381، 3/115.

(37) التمهيد لابن عبدالبر، 13/310، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، 4/384.

(38) الصبرة: الطعام المجتمع كالكومة، وجمعها: صُبَر، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، 3/9.

(39) أخرجه النسائي في سننه، كتاب البيوع، باب: بيع الصبرة من الطعام بالصبرة من الطعام، ح رقم، 4548، 7/270. وحكم عليه الألباني بأنه صحيح عند تعليقاته على هذا الحديث في الكتاب نفسه.

(40) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب: باب تحريم بيع صبرة التمر المجهولة القدر بتمر، ح رقم: 1530، 3/1162.

(41) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، 1392هـ، 10/172، و الدراري المضية شرح الدرر البهية، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م، 2/261، ونيل الأوطار، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، 1413هـ - 1993م، 5/233.

(42) هو: سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لأي. الأمير، أبو إسحاق القرشي، الزهري، المكي.أحد العشرة، وأحد السابقين الأولين، وأحد من شهد بدرا، والحديبية، وأحد الستة أهل الشورى. قال المدائني، وأبو عبيدة، وجماعة: توفي سنة خمس وخمسين. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، 1/ 92.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن اشتراء التمر بالرطب، فقال لمن حوله: «أينقص الرطب إذا يبس؟»، قالوا: نعم، «فنهى عن ذلك»[43].

وجه الدلالة: دلّ الحديث على عدم جواز بيع الرطب بالتمر لعدم التساوي، وهذا يتضح من خلال الاستفهام التقريري من النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: " أينقص الرطب إذا يبس"، أي: أليس ينقص الرطب إذا يبس؟ فهو لم يستفهم، وإنما ينبه ويقرر لصحابته رضوان الله عليهم علة التحريم وهو التفاضل في نقصان الرطب إذا يبس؛ إشارة إلى فساد العقد لعدم التماثل؛ لأنه معلوم لديهم أن التمر من الأطعمة الربوية التي لا تُباع إلا مثلا بمثل، فكان هذا نص واضح منه في مراعاة المآل[44].

الدليل التاسع : من الأدلة على هذه القاعدة (الإجماع). أجمع الفقهاء على أن كل ما يشترط فيه التماثل وكان من نفس الجنس لا يجوز أن يُباع منه المكيل بجزاف، ولا يجوز أن يُباع منه أيضاً الجزاف بجزاف؛ للجهل بالتساوي في الحالتين، وكل جهل بالتساوي في الربويات كالعلم بالتفاضل فيها. [45]

المطلب الخامس: العمل بهذه القاعدة عند الفقهاء:

عمل بهذه القاعدة فقهاء المذاهب الأربعة، وهي قاعدة مشهورة في باب الربا، فقد نص عليها الأحناف بقولهم: " الربا مبني على الاحتياط، فالشبهة فيه تعمل عمل الحقيقة[46]، وقولهم: " توهم الفضل كتحققه فيما يبنى أمره على الاحتياط"[47]. وعمل بها أيضا فقهاء المالكية، فقد ورد عنهم" الجهل بالتماثل في المنع كتحقق التفاضل" [48].

وقد أخذ بها أيضاً: الشافعية فقالوا: " الجهل بالتماثل كالعلم بالتفاضل"[49]. وهي معروفة عندهم بقاعدة " مد عجوة".

(43) أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب البيوع، باب: ما جاء في النهي عن المحاقلة، والمزابنة، ح رقم: 1225، 3/520. وقال الترمذي معلقاً على هذا الحديث: «هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم، وهو قول الشافعي، وأصحابنا». سنن الترمذي، 3/520. وصححه الألباني عند تعليقه على هذا الحديث في نفس الكتاب، تحت رقم (1225).

(44) التمهيد لابن عبدالبر، 19/192. وسبل السلام، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني (المتوفى : 1182هـ، الناشر : مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة : الرابعة 1379هـ/ 1960م، 3/44، والمنتقى شرح الموطأ، لأبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: 474هـ)، الناشر: مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، الطبعة: الأولى، 1332 هـ، 4/243.

(45) الإجماع، لمحمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تحقيق ودراسة: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى لدار المسلم، 1425 هـ/ 2004 م، ص97، والاستذكار، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 – 2000، 6/331-332.

(46) المبسوط للسرخسي، 12/178.

(47) المبسوط للسرخسي، 14/38.

(48) التلقين للقاضي عبدالوهاب، 2/144.

(49) الحاوي الكبير للماوردي، 5/108.

قال الشربيني[50] رحمه الله: " هذه المسألة هي القاعدة المعروفة بقاعدة مُد عجوة".[51]، كما نص عليها الحنابلة بقولهم:" الجهل بالتساوي كالعلم بعدمه في باب الربا".[52]

المطلب السادس: التطبيقات الفقهية للقاعدة:

أولاً: مثال بيع صُبرة من الطعام الربوي – سواء أكانت بر أو شعير أو زبيب أو تمر – بصبرة مثلها من نفس جنس الطعام دون كيلٍ أو وزنٍ لكليهما، أو بمعرفة وزن إحداهما دون الأخرى، فمثل هذه الصفقة لا تجوز وتعتبر باطلة؛ لاحتمال وجود الزيادة في إحدى الصبرتين، فالشك في المماثلة فيما تشترط فيه المماثلة كتحقق المفاضلة. [53]

بل حتى لو باع صبرتين مجهولتي المقدار ببعضهما جزافاً ثم خرجتا متماثلتين، فالعقد باطل بالاتفاق؛ لأن الأموال الربوية يشترط فيها العلم بالتماثل قبل إجراء العقد، فالربوي لا يُباع بجنسه بالتخمين؛ بل لابد من اليقين؛ لأن الجهل بالتماثل وقت إجراء العقد كتحقق التفاضل[54].

ثانياً: لا يجوز بيع الحب بالدقيق جزافاً دون معرفة قدر كل منهما، لأن الحب قد طُحن، والطحن قد فرق أجزاءه، وينكبس في المكيال أكثر من الحب، فيحصل في مكياله دون ما يحصل في مكيال الحب، فحتى وإن لم يتحقق التفاضل فقد جهل التماثل، والجهل بالتماثل كالعلم بالتفاضل فيما يشترط التماثل فيه[55].

ثالثاً: ومن تطبيقاتها أيضاً لا يجوز بيع الفضة الخالصة بالفضة المغشوشة إذا لم يُعلم قدر كل منهما؛ لأن الفضة مال ربوي لا يُباع بجنسه دون العلم بالتماثل، فالجهل بالتماثل في الربويات كالعلم بالتفاضل، لذلك فسدت المعاملة. [56]

رابعاً: ومنها عدم جواز بيع معدن ربوي مختلط بذرات تراب يتعذر معه عزل إحداهما عن الآخر بمعدن ربوي من جنسه لتعذر التماثل، كبيع تراب

(50) محمد بن أحمد الشربيني، القاهري، الشافعي، المعروف بالخطيب الشربيني (شمس الدين) فقيه، مفسر، متكلم نحوي،. توفي في 2 شعبان من تصانيفه: السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير في التفسير في اربعة مجلدات، الفتح الرباني في حل ألفاظ تصريف عز الدين الزنجاني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج للنووي، ينظر: معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، 8/ 269.

(51) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، لمحمد الخطيب الشربيني، الناشر دار الفكر، بيروت، 2/ 28.

(52) المغني لابن قدامة، 29/4.

(53) مجموع الفتاوى لابن تيمية، 15/338، المنثور في القواعد الفقهية، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الثانية، 1405هـ - 1985م، 2/236. وموسوعة القواعد الفقهية لمحمد صدقي بن أحمد بن محمد آل بورنو أبي الحارث الغزي الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م، 3/ 50.

(54) المنثور في القواعد، لبدر الدين الزركشي،

(55) الشرح الكبير على متن المقنع، لعبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الحنبلي، أبي الفرج، شمس الدين (المتوفى: 682هـ)، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع،12/45. وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي (المتوفى: 1230هـ)، دار الفكر، 3/ 53.

(56) مجموع الفتاوى لابن تيمية، 29/ 450،

مختلط بذرات ذهب بذهب من جنسه، أو بيع تراب مختلط بذرات فضة بفضة من جنسها، لعدم تحقق التماثل بينهما، والتماثل مشروط في تبادل الربويات، فالجهل به كتحقق التفاضل[57].

خامساً: ومنها أيضاً تحريم بيع كل رطب بيابس إذا كانا من نفس الجنس كالتمر بالرطب أو الزبيب بالعنب، وغيرها، حتى ولو تساويا في الكيل أو الوزن مراعاة لمآله؛ لأن الرطب قد يجف، وإذا جف تغير وزنه، فجُهلت المماثلة فيه وقت العقد، والجهل بالمماثلة في الربويات كالعلم بالمفاضلة، حتى قال الإمام مالك: " كل رطب بيابس من نوعه حرام» [58].

سادساً: ومن التطبيقات المشهورة والمعروفة بيع الزيتون حباً بالزيت، ولا يُعلم قدر كليهما أو قدر أحدهما، فالبيع حرام ولا يجوز؛ لتعذر التماثل بينهما، والتماثل مشروط في الربويات، فمهما كانت الدقة بالغة فالتفاضل متحقق[59].

سابعاً: ومن التطبيقات المعاصرة لهذه القاعدة: الهدية النقدية الموضوعة داخل سلعة معينة، فبعض التجار يقوم بوضع قطعة ذهبية، أو قطعة فضية، أو بعض النقود داخل بعض السلع، ويعطونها للناس كجوائز وهدايا، من أجل تشجيعهم على شرائها، فقد ألحق بعض العلماء المعاصرين هذه المعاملة بمسألة مد عجوة ودرهم؛ لأن البائع في مسألتنا هذه قد أعطى للمشتري هذه السلعة وفيها أوراق نقدية مقابل أوراق نقدية من المشتري، كما لو كانت السلعة بداخلها دنانير، وبيعت بدنانير، فهذه المعاملة غير صحيحة وباطلة؛ لأن كل من البدلين اشتمل على مال ربوي، وجهل تساويهما، والجهل بالتساوي في الربويات كتحقق التفاضل، وهي شبيهة جداً بمسألة مد عجوة ودرهم، والتي قال أغلب الفقهاء بمنعها لما ذكرنا.[60]

المطلب السابع: مما استثني على هذه القاعدة:

فهذه القاعدة ليست مطردة في جميع المسائل الفقهية، وإنما يوجد عليها استثناء لا يشمله حكمها، وهي ما يعرف بمسألة العرايا، فهذه المسألة مستثناة من بيع المزابنة المحرم.

والعرايا: جمع عريَّة، وهي مبادلة التمر بالرطب على رؤوس النخل مجازفة للحاجة، فهي النخلة يعريها صاحبها رجلاً محتاجاً، وذلك أن يجعل له ثمرها عاما، فرخص لرب النخل أن يبتاع ثمر تلك النخلة من المعرى بتمر، لموضع حاجته[61].

(57) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لعلاء الدين الكاساني، الناشر دار الكتاب العربي، سنة النشر 1982، مكان النشر بيروت، 5/196. وضوابط الربا لسليمان الرحيلي، إصدار دائرة الشؤون الإسلامية، 1436هـ، 2015م، ص169 - 170.

(58) الاستذكار لابن عبدالبر، 6/328، -330.

(59) بدائع الصنائع، للكاساني، 5/ 191.

(60) المعاملات المالية المعاصرة في الفكر الاقتصادي الإسلامي، إعداد ياسر بن طه على كراويه، ص104، وينظر: مسألة "مدعجوة" دراسة فقهية تطبيقية د. بسام حسن العف ود. رفيق أسعد رضوان، بحث مقدم لمجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثاني، ص469.

(61) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، 4/ 298.

جاء في النهاية: " بيع الثمر في رؤوس النخل بالتمر، وهو أن من لا نخل له من ذوي الحاجة يدرك الرطب ولا نقد بيده يشتري به الرطب لعياله، ولا نخل له يطعمهم منه ويكون قد فضل له من قوته تمر، فيجيء إلى صاحب النخل فيقول له: بعني ثمر نخلة أو نخلتين بخرصها من التمر، فيعطيه ذلك الفاضل من التمر بثمر تلك النخلات ليصيب من رطبها مع الناس، فرخص فيه إذا كان دون خمسة أوسق"[62].

فلو نظرنا إلى مثل هذه المعاملة- وهي بيع الرطب باليابس- لوجدنا أنها محرمة حسب الأصل والقاعدة؛ لعدم وجود مماثلة بيع الرطب واليابس، ولكن أباحها النبي صلى الله عليه وسلم للحاجة، وخروجاً عن القاعدة، ورفقاً بالناس وتسهيلاً عليهم.

والدليل على إباحتها ما رواه زيد بن ثابت[63] رضي الله عنه، قال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ((رخص أن تباع العرايا بخرصها تمرا)) [64].

وجه الدلالة: أن هذا الحديث فيه دلالة على أن بيع العرايا مستثناة من المحظور[65].

الخاتمة :

وبعد دراسة لهذا الموضوع فقد توصلتُ إلى جملة من النتائج:

أن الربا من الكبائر، وملعون صاحبه، وشره وخطره عظيم على الفرد والمجتمع، ولعظم خطورته فقد سدّ الشارع جميع الطرق الموصلة إليه، ورتب على مقارفته العقاب الشديد.

أن المقصود بهذه القاعدة إجمالاً أن الأموال الربوية عند مبادلتها ببعضها، إذا كانت من نفس الجنس، فلابد من مماثلتها لبعضها البعض، أما مجرد حصول الشك في التماثل بينها، فإنه يجعل العقد باطلاً؛ لأن هذا الجهل اعتبره الفقهاء بمنزلة اليقين بوجود التفاضل.

أن الفقهاء قد جعلوا لهذه القاعدة عدة صيغ أوردوها في كتبهم، وكل مذهب من المذاهب الأربعة أوردها بصيغة، ومن هذه الصيغ الصيغة التي جُعلت عنواناً لهذا البحث.

أن القاعدة موضوع البحث لها أدلة كثيرة تدل عليها من الكتاب والسنة والإجماع.

وجدتُ أن هذه القاعدة قد عمل بها جميع فقهاء المذاهب الأربعة (الحنفية،

(62) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير،3/224.

(63) هو: زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد الخزرجي، الإمام الكبير، شيخ المقرئين والفرضيين (2) ، مفتي المدينة، حدث عن: النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن صاحبيه، وقرأ عليه القرآن بعضه أو كله، ومناقبه جمة. مات سنة خمس وأربعين، عن ست وخمسين سنة. ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، 2/426 ومابعدها.

(64) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب: حديث رقم: 2380، 3/115.

(65) التمهيد لابن عبدالبر، 2/333.

والمالكيــة، والشــافعية، والحنابلــة)، ونصــوا عليهــا في كتبهــم المذهبيــة بصيــغ مختلفــة، وهــي قاعــدة مشــهورة في بــاب الربــا.

وجــدتُ لهــذه القاعــدة عــدة تطبيقــات عليهــا، منهــا تطبيقــات غــير معــاصرة كبيــع صــبرة الطعــام بصــبرة الطعــام، أو الزبيــب بالعنــب، أو الرطــب باليابــس، مــع جهالــة المقــدار في كليهمــا، ومنهــا تطبيقــات معــاصرة كالهديــة النقديــة الموضوعــة داخــل الســلع.

تبــيّن لي أن هــذه القاعــدة ليســت مطــردة في جميــع المســائل الفقهيــة، وإنمــا يوجــد عليهــا اســتثناء لا يشــمله حكمهــا، وهــي مــا يعــرف بمســألة العرايــا، فهــذه المســألة مســتثناة مــن بيــع المزابنــة المحــرم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. الإجماع، لمحمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تحقيق ودراسة: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى لدار المسلم، 1425 هـ/ 2004 م.
3. الاستذكار، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 – 2000.
4. الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لموسى بن أحمد بن موسى بن سالم بن عيسى بن سالم الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الدين، أبي النجا (المتوفى: 968هـ)، المحقق: عبد اللطيف محمد موسى السبكي، الناشر: دار المعرفة بيروت – لبنان.
5. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لعلاء الدين الكاساني، الناشر دار الكتاب العربي، سنة النشر 1982، مكان النشر بيروت.
6. بدائع الفوائد، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
7. تطبيقات قواعد الفقه عند المالكية، للصادق الغرياني، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الطبعة الأولى 1423ه، 2002م.
8. التعريفات الفقهية، لمحمد عميم الإحسان المجددي البركتي الناشر: دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان 1407هـ - 1986م)، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2003م.
9. التلقين في الفقة المالكي، لأبي محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي المالكي (المتوفى: 422هـ)، المحقق: ابو أويس محمد بو خبزة الحسني التطواني، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 1425هـ2004-م.
10. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي , محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، عام النشر: 1387 هـ
11. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
12. الجامع في أصول الربا، لرفيق يونس المصري، دار القلم دمشق، والدار الشامية بيروت، الطبعة الأولى: 1412هـ 1991م.
13. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : 671 هـ)، المحقق : هشام سمير البخاري، الناشر : دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة : 1423 هـ/ 2003 م.
14. الجمع والفرق (أو كتاب الفروق)، لأبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني (ت 438 هـ)،المحقق: عبد الرحمن بن سلامة بن عبد الله المزيني أصل هذا الكتاب أطروحتان: الأولى ماجستير والثانية دكتوراه لنفس الباحث، الناشر: دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع – بيروت، رقم الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م.
15. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي (المتوفى: 1230هـ)، دار الفكر.
16. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ)،

المحقق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ 1999- م .
17. الدراري المضية شرح الدرر البهية، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطعبة الأولى 1407هـ - 1987م.
18. روضة الطالبين وعمدة المفتين، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- عمان، الطبعة: الثالثة، 1412هـ / 1991م.
19. سبل السلام، لمحمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني (المتوفى : 1182هـ)، الناشر : مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة : الرابعة 1379هـ/ 1960م.
20. سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ 3)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ 4، 5)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م.
21. السنن الصغرى للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، 1406 – 1986، مذيل بأحكام الألباني، وهو متن مرتبط بشرح السيوطي والسندي.
22. سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : 748هـ)، المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة ، 1405 هـ / 1985 م.
23. الشرح الكبير على متن المقنع، لعبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الحنبلي، أبو الفرج، شمس الدين (المتوفى: 682هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، أشرف على طباعته: محمد رشيد رضا صاحب المنار.
24. شرح المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب، للمنجور أحمد بن علي المنجور (المتوفى 995 هـ)، دراسة وتحقيق: محمد الشيخ محمد الأمين، أصل الكتاب: أطروحة دكتوراة (الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، شعبة الفقه)، بإشراف الدكتور/ حمد بن حماد بن عبد العزيز الحماد، الناشر: دار عبد الله الشنقيطي.
25. ضوابط الربا لسليمان الرحيلي، إصدار دائرة الشؤون الإسلامية، 1436هـ 2015م.
26. الفائق في غريب الحديث والأثر، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة – لبنان، الطبعة: الثانية.
27. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
28. القوانين الفقهية، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: 741هـ).
29. كشاف القناع عن متن الإقناع، لمنصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق هلال مصيلحي مصطفى هلال، الناشر دار الفكر، سنة النشر 1402هـ مكان النشر بيروت.
30. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى.
31. المبسوط، لمحمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: 483هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: 1414هـ - 1993م.

32. مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م.
33. المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي))، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، الناشر: دار الفكر.
34. مختار الصحاح، لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م.
35. مسألة "مدعجوة" دراسة فقهية تطبيقية د. بسام حسن العف ود. رفيق أسعد رضوان، بحث مقدم لمجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثاني.
36. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
37. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، (المتوفى: نحو 770هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.
38. المعاملات المالية المعاصرة في الفكر الاقتصادي الإسلامي، إعداد ياسر بن طه على كراويه.
39. معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.
40. معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبي الحسين (المتوفى: 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.
41. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، لمحمد الخطيب الشربيني، الناشر دار الفكر، بيروت.
42. المغني لابن قدامة، لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: 620هـ)، الناشر: مكتبة القاهرة.
43. المنتقى شرح الموطإ، لأبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: 474هـ)، الناشر: مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، الطبعة: الأولى، 1332 هـ
44. المنثور في القواعد الفقهية، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الثانية، 1405هـ - 1985م.
45. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، 1392هـ
46. موسوعة القواعد الفقهية لمحمد صدقي بن أحمد بن محمد آل بورنو أبي الحارث الغزي الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003م.
47. النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزريابن الأثير (المتوفى: 606هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

التوجيه الأصولي للإمام الصنعاني في مسألة فسخ عقد امرأة المُعسِر

إعداد:
د. فرج المبروك آدم محمد
أستاذ مساعد- كلية الشريعة والقانون/جامعة السيد محمد بن علي السنوسية الإسلامية

الاستلام : 16/ 1/ 2023 القبول : 15/ 2/ 2023

المستخلص:

بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة والسلام على أشرف خلقه وعلى آله وصحبه

فقد وسمت هذا البحث بعنوان "التوجيه الأصولي للإمام الصنعاني في مسألة فسخ امرأة المعسر عن نفقة امرأته " وهذه المسألة تناولها من جانب فقهي وأصولي محي علوم السنة علامة اليمن في القرن الثاني عشر، ولاشك أننا في حاجة لمعرفة أحكامها، لأن الإسلام يهدف من تشريع الزواج إلى بناء الأسرة من خلال مجتمع تسوده المودة والرحمة وراحة الزوج والزوجة وإعمار الكون، فإن حصل أي اختلال فيما يوجبه عقد الزواج و يقتضيه، ومنها النفقة الواجبة على الزوج فإذا فُقدت النفقة بسبب الإعسار فهل للزوجة الحق في طلب التفريق؟ وهذا يحدث بين الزوجين في بعض الأحيان، فوضع التشريع الإسلامي حلًا لرفع هذا الضرر الواقع على الزوجة، وللعلماء رأي مختار في فسخ النكاح لإعسار الزوج كما قالوا: الفرقة بإعسار الزوج فسخ وليس طلاقًا، وأخيرًا وضعت خاتمة للبحث أكدت فيها أن المسألة تحتاج إلى مزيد دراسة وخاصة من النواحي القانونية.

الكلمات المفتاحية: القاضي، عقد الزواج، المعسرين، محل النزاع.

Summary of the research

After praising God and praising him for what he deserves, and prayers and peace be upon the most honorable of his creation, his family and companions And after: This research was titled "The Fundamentalist Guidance of Imam Al-Sana'ani in the Issue of Dissolution of the Insolvent Woman from His Wife's Maintenance." Because Islam aims by legislating marriage to build the family through a society dominated by affection, mercy, comfort of the husband and wife, and the reconstruction of the universe. It happens between the spouses sometimes, so the Islamic legislation developed a solution to remove this harm caused to the wife, and the scholars have a chosen opinion regarding the annulment of the marriage due to the insolvency of the husband, as they said: the division due to the insolvency of the husband is annulment and not divorce, and finally I put a conclusion to the research in which I confirmed that the issue needs more study, especially In legal terms.

Key words: The Judge , The Marriage Contract , The lnsolvent , The Subject of Dispute , The Sayings Of Scholars .

المقدمـــة :

الحمـد للـه باسـمه نعتصـم، وبحولـه نسـتدفع، وببركتـه نسـتهدي، سـبحانه لا نحـصي ثنـاء عليـه، فحمـدًا لـه في الأولى والآخـرة إنـه ملهـم الصـواب، وولي التوفيـق والصـواب، وأصـلي عـلى سـيدنا محمـد الـذي أُتـي الحكمـة وفصـل الخطـاب وعـلى آلـه وصحبـه الأحبـاب.

وبعـد: إن الحديـث عـن الأحـكام الشرعيـة قـد تناولهـا الكثـيرون وتحـدث عنهـا الأقدمـون والمحدثـون، فمـا مـن ناحيـة مـن نواحيهـا إلا وقـد عرضـوا لهـا، ولكـن رغـم مـا تـم دراسـته إلا أن هنـاك جوانـب تحتـاج إلى مزيـد مـن البحـث والدراسـة، خاصـةً الأمـور التـي تتعلـق بقضايـا الأحـوال الشـخصية للإنسـان وموضوعهـا يمـس الحيـاة الاجتماعيـة في أنبـل مقاصدهـا وأسـمى أغراضهـا وغاياتهـا، فوقـع اختيـاري عـلى رسـالة لأحـد علمـاء القـرن الثانـي عـشر الهجـري الأمـير الصنعانـي تنـاول فيهـا مسـألة ذات أهميـة كبـيرة في العلاقـات الزوجيـة عنوانهـا: " المسـألة الثاقبـة الأنظـار في تصحيـح أدلـة فسـخ امـرأة المعـسر بالإعسـار" فتناولـت الجانـب الفقهـي والأصـولي تحتـي عنـوان: (التوجيـه الأصـولي للإمـام الصنعانـي في مسـألة فسـخ امـرأة المعـسر بالإعسـار)

أسباب اختيار البحث:

دفعتنـي أسـباب متعـددة لاختيـار هـذا الموضـوع، والكتابـة فيـه، منهـا مـا هـو خـاص، وهـو الحصـول عـلى درجـة علميـة مسـتحقة، ومنهـا مـا هـو عـام وهـو رغبتـي في بيـان بعـض الأحـكام الشرعيـة المتعلقـة بالأحـوال الشـخصية، وخاصـة فيمـا يتعلـق بالمسـألة التـي تطـرق إليهـا الإمـام الصنعانـي في رسـالته لمـا لهـا مـن أهميـة بالغـة حيـث اختلـف فيهـا العلمـاء قديمًـا وحديثًـا، وكان لهـذا الاختـلاف الأثـر البالـغ عنـد أهـل القانـون والفتـوى.

أهمية الموضوع :

تكمـن أهميـة هـذا البحـث في معرفـة أصـول وقواعـد المنهـج العلمـي الـذي سـار عليـه الإمـام الصنعاني،ومعرفـة الحكـم الشرعـي بـين الزوجـين في حالـة الإعسـار وتوضيحـه للمسـلمين، وأن الفرقـة التـي تكـون بسـبب الإعسـار وتقصـير الـزوج عـن أحـد واجباتـه وفـق عقـد الـزواج، ومـدى مشروعيـة طلـب الزوجـة في الفسـخ.

إشكالية البحث :

يمكن إجمال إشكالية البحث في التساؤلات الآتية:

1 – ما مدى تأثر وتأثير الإمام الصنعاني بمذهبه الزيدي؟

2 – مـا أسـباب اختـلاف الفقهـاء في مسـألة الـزوج المعـسر عـن النفقـة ومـا يترتـب عـلى هـذا الاختـلاف مـن أحـكام ؟

3 - أي الأقوال أقوى أدلة من الآخر؟

البحوث والدراسات السابقة:

مـن خـلال دراسـتي لهـذا الموضـوع لـم أجـد مـن تنـاول الإمـام الصنعانـي في هـذا

الموضـوع، وكل مـا وجدتـه دراسـات للموضـوع مـن زوايـا مختلفـة وليـس بشـكل مسـتقل ومـن أهـم هـذه الدراسـات:

1 - أثـر الإعسـار في فسـخ عقـد النـكاح إعـداد: د. هنـد بنـت سـعد القحطـان جامعـة الملـك خالـد.

2 - تفريـق القـاضي بـين الزوجـين بسـبب الإعسـار بالنفقـة دراسـة فقهيـة مقارنـة بقانـون الأحـوال الشـخصية الكويتـي، إعـداد: د. زايـد الهبـي زيـد العازمـي، وهـو مقارنـة بـين الشريعـة والقانـون .

منهج البحث ووسائل جمع المعلومات: لقـد اعتمـدت في هـذا البحـث المنهـج التكامـلي، الـذي تنـدرج تحتـه بقيـة المناهـج ومنهامـا يأتـي:

أولاً - المنهـج الاسـتقرائي الـذي يكـون بتتبـع موضـوع البحـث في كتـب الفقـه، وأصـول ا لفقه .

ثانيـاً - المنهـج الوصفـي التحليـلي، وذلـك يتجـلى في وصـف الظاهـرة، وتحليلهـا فقهيًـا وأصوليًـا مـا أمكـن.

وحتـى يكـون البحـث مسـتوفيًا للـشروط المنهجيـة المتبعـة فقـد اعتنيـت بتوثيـق ما ورد في هـذا البحـث مـن نصـوص، وأقـوال بعزوهـا إلى مصادرهـا، ومراجعهـا في هامـش البحـث، إضافـة إلى تخريـج الآيـات بذكـر اسـم السـورة ورقـم الآيـة، وتخريـج الأحاديث النبويـة مـن مصادرهـا المعتمـدة، والحكـم عليهـا أحيانًـا، ونظـرًا لكثـرة أسـماء الأعـلام الـواردة في البحـث وتجنبًـا للحشـو، والتطويـل لـم أترجـم لهـم.

خطوات البحث: قسـمت البحـث إلى مقدمـة، وثلاثـة مباحـث وخاتمـة، أعقبتهـا بقائمـة المصـادر، والمراجـع، فجـاءت الخطـة عـلى النحـو الآتـي:

المقدمـة وقـد اشـتملت عـلى سـبب اختيـار الموضـوع وبيـان أهميتـه، وإشـكالية البحـث، والبحـوث والدراسـات السـابقة، ومنهـج البحـث ووسـائل جمـع المعلومـات.

المبحث- الأول : ترجمة الإمام الصنعاني ويشمل:

المطلب الأول- عصر الإمام الصنعاني.

المطلب الثاني-التعريف بالإمام الصنعاني.

المبحث الثاني- مسألة فسخ امرأة المعسر عن نفقة امرأته ويشمل:

المطلب الأول- التعريف بكلمة الإعسار والفسخ.

المطلب الثاني-تعريف النفقة وحكمها وموانعها .

المطلب الثالث- تحرير محل النزاع في المسألة.

المبحـث الثالـث-آراء الفقهـاء في المسـألة وأدلتهـم والتوجيهـات الأصوليـة للصنعانـي ويشـمل:

المطلب الأول-استدلال أصحاب القول الأول.

المطلب الثاني-استدلال أصحاب القول الثاني.

المطلب الثالث-التوجيه الأصولي للصنعاني في المسألة.

المبحث الأول- ترجمة الإمام الصنعاني:

المطلب الأول- عصر الإمام الصنعاني:

مما لا أشك فيه أن لكل إنسان ارتباطًا بعصره وتأثُّرًا بمصره، ومن المعلوم أن معرفة العصر والمصر الذي عاش فيه الإنسان يعين على فهم آرائه وتصور شخصيته، فكما يقال: الإنسان ابن زمانه ومكانه، وتتفق المصادر التي ترجمت للإمام الصنعاني[1] على أن مولده بمدينة كحلان وهي مدينة جبلية في الشرق الشمالي من حَجة من بلاد اليمن وإليها يُنسب فيقال: الكحلاني في منتصف شهر جماد الآخر سنة تسع وتسعين وألف وتوفي في الثالث من شعبان سنة اثنين وثمانين ومائة وألف للهجري فهو يعد من علماء القرن الثاني عشر الهجري، وهذه الفترة عرفت بفترة استقلال اليمن عن الدولة العثمانية قبل عودتها واحتلالها مرة أخرى فهذه هي الفترة التي عاش فيها الإمام الصنعاني، وقد سلط الضوء على هذه الحقبة من تاريخ الدولة الإمامية القاسمية فيما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر الميلادي صاحب رسالة الدولة القاسمية في اليمن جذورها وأسس قيامها [2].

فمن الناحية السياسية كانت اليمن تحت حكم الدولة القاسمية التي استمرت في حكمه حتى سنة 1962م وقد عاصر الشيخ الصنعاني ستة من الأئمة الذين حكموا اليمن، وهذه الفترة كانت مليئة بالاضطراب والتوتر السياسي نتيجة الصراع المستمر على الحكم مما كان لها أسوأ الآثار على اليمنيين في هذه الفترة مما تسبب في سوء الأحوال الاقتصادية ففرضت الضرائب والمكوس والغرامات على الجميع، كما تعرضت أموال اليمنيين إلى السلب والنهب من بعض القبائل المتفرقة، مما عزز الطبقية في المجتمع اليمني التي كانت السبب الرئيس في تفرقته حيث ظهرت طبقة السادة، وهم المنتسبون لآل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ثم بعدها منزلة طبقة الفقهاء والقضاة، ثم تأتي طبقة مشايخ القبائل والأعيان، وبعدها آخر الطبقات وهي الغالبية العظمى من اليمنيين، وهي طبقة الحرفيين والمزارعين والتجار، أما الحالة الدينية التي عاصرها الصنعاني في هذه الفترة فهي كمثيلاتها السابقة في السوء، حيث ابتعد الناس في اليمن وغيره عن السنة وعاشوا في بدع وخرافات وشركيات كثيرة، وتعصب أعمى للمذاهب الذي بلغ أعلى مراتبه في هذا العصر مما زاد في معاناة الصنعاني في سبيل اجتهاده ونبذه للتقليد حيث كان المذهب الزيدي هو المنتشر في معظم المناطق اليمنية.

أما أثر العصر فيه فقد أورده صاحب كتاب الصنعاني وكتابه توضيح

(1) البدر الطالع محاسن ما بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، ط لا- دار المعرفة بيروت 1431هـ ص132. وينظر معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة ط1- مؤسسة الرسالة بيروت 1414هـ، ج3 ص132.وينظر التاج المكلل، أبو الطيب محمد صديق خان ط الأولى وزارة الأوقاف قطر1428هـص 375.

(2) الدولة القاسمية في اليمن جذورها وأسس قيامها، وليد عبد الحميد أحمد النود- رسالة ماجستير جامعة صنعاء كلية الآداب اليمن، المقدمة.

الأفكار[3] بقوله: "إن عصر الصنعاني -رحمه الله- بالرغم من الاضطرابات والأزمات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن الحروب والحوادث التي أضعفت المسلمين – وخاصة في اليمن- فلا زراعة ولا صناعة ولا علوم، إلا أن نشاط المسجد بصفته المدرسة الأولى في تكوين الثقافة والفكر قد أدى دوره في إيجاد العلماء، بل كان مكانًا للمناظرات والاجتهادات الشرعية فكان لذلك نبوغ علماء وأدباء في حقبة تدنى فيها الفكر العربي الإسلامي، ولم يكن الصنعاني-رحمه الله- إلا ثمرة من ثمار المسجد والبحث العلمي فيه"[4].

المطلب الثاني- التعريف بالإمام الصنعاني :

أولًا- اسمه ونسبه ومولده ونشأته :

اسمه ونسبه: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن علي كنيته أبو إبراهيم وشهرته الأمير الصنعاني، ويرجع نسبه إلى أمير المؤمنين علي- رضي الله عنه- .

مولده ونشأته: ولد الأمير الصنعاني في مدينة كحلان وهي مدينة جبلية من بلاد اليمن تبعد عن حجة حوالي سبعة عشر كيلو متر[5]، وينسب إليها فيقال: الكحلاني وكان مولده في منتصف جماد الآخر سنة تسع وتسعين وألف من الهجرة . أما نشأته فكان والده من الفضلاء الزاهدين الراغبين في العمل وله عرفان تام وشعر جيد .

وفي سنة سبع ومائة وألف من الهجرة انتقل والد الصنعاني وأهله إلى صنعاء فنشأ فيها وتعهده أبوه بالتربية والتعليم، وأخذ عن والده بعد حفظه للقرآن الكريم الفقه والنحو والبيان وعلوم الدين وأسلمه إلى أهل العلم حتى تخرج عليهم فصار عالمًا فاضلًا يُشار إليه بالبنان وأصبح موضع تقدير وإعجاب من أهل العلم حتى قُصد وأُثني عليه وأضحى من أعلام الدين وأنصار السنة وصنف في كل فن تقريبًا،[6] و قيل: إن والده توفي سنة اثنين وأربعين ومائة وألف من الهجرة[7]. وبعد اكتمال رجولته وتفكيره في الإنتاج العلمي بدأ يسعى لطلب العلم من علماء خارج قطره اليمن وهذا يتضح من العرض الآتي.

ثانياً رحلاته وشيوخه:

أكدت مصادر ترجمة الإمام الصنعاني أنه لم يرتحل من اليمن إلا للحجاز قاصدًا المدينة ومكة وبقي فيهما مدة واجتمع بأئمة من علماء الحرمين ومصر وأخذ الإجازات في علوم متنوعة فكانت حجته الأولى سنة1122هـ. فأخذ في المدينة

(3) الصنعاني وكتابه توضيح الأفكار أحمد محمد العليمي، ط1- دار الأمة دبي 1408هـ ص43 بتصرف

(4) المصدر السابق ص49.

(5) الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم، الحميري، تح: إحسان عباس، ط 2-مؤسسة ناصر ببيروت1980م ج1 ص490.

(6) فهرس الفهارس والأثبات، محمد عبد الحي الكتاني، تح: إحسان عباس،ط2- دار الغرب الإسلامي بيروت 1982م،ج1 ص513.

(7) البدر الطالع للشوكاني، ج 2 ص139.

المنورة عن خطيب حرمها الشيخ عبد الرحمن بن الخطيب والشيخ طاهر بن إبراهيم الكردي المدني ثم رجع إلى كحلان قبل حجته الثانية التي ألتقى فيها بشيخه أبي الحسن السندي ت 1138هـ. وفي سنة 1132هـ رجع من المدينة إلى جدة ثم عاد إلى صنعاء وفي سنة 1134هـ حج الحجة الثالثة فاجتمع بالعلامة الأسدي والسيد عبد الرحمن بن أسلم وغيرهما، أما حجته الرابعة والأخيرة فكانت سنة 1139هـ وقد مكث في الطائف فترة بعد الحج[8]، وكان من شيوخه بالحرمين سالم بن عبد الله البصري ت1134هـ،وقد ذكر الشوكاني أن مشايخ الصنعاني أربعة هم العلامة زيد بن محمد بن الحسين ت1123هـ،والعلامة صلاح بن الحسين الأخفش ت1142هـ، والعلامة عبد الله بن علي الوزير ت1147هـ، والعلامة علي بن محمد العنسي ت 1139هـ.[9] .

ثالثا- آثاره العلمية:

عند الحديث عن آثار الصنعاني لابد من التطرق إلى أمرين في غاية الأهمية:

أولهما- تلاميذه:

قيل: إن أحد أمراء اليمن عرض عليه ولاية القضاء في أحد ثغورها فامتنع عن قبول ذلك، واستقر على عادته للتدريس فتتلمذ على يديه الكثير من طلاب العلم المجتهدين الذين قال عنهم الشوكاني: " وقد كَثُر أتباع الصنعاني من الخاصة والعامة وعملوا باجتهاده وتظهروا بذلك وقرأوا عليه كتب الحديث"[10]، ولعل من أبرز تلاميذ الصنعاني على سبيل المثال ما ذكرهم الشوكاني وهم:

الشيخ عبد القادر بن أحمد بن ناصر وهو شيخ الشوكاني (ت1207هـ)[11]، والشيخ أحمد بن محمد قاطن (ت1199هـ)[12]، والقاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال (ت1092هـ)[13]، والشيخ حسن بن إسحاق المهدي (ت1160هـ)[14]، والشيخ الحسين بن عبد القادر بن علي الذي أكمل منظومة بلوغ المرام للصنعاني[15] .

ثانيهما- مؤلفاته:

الإمام الصنعاني من العلماء المكثرين في التصنيف حيث بلغت مصنفاته ورسائله أكثر من مائة مصنف في فنون شتى، كما له من الرسائل الصغيرة والتي هي عبارة عن إجابات لأسئلة عُرضت عليه ما يفوق عدد ما صنف

(8) البدر الطالع للشوكاني ج 1 ص137.

(9) المصدر السابق ج1 ص131 وما بعدها. وينظر هامش العدة حاشية الصنعاني على إحكام الإحكام لابن دقيق العيد،ت ح:علي بن محمد الهندي،ط2- المكتبة السلفية القاهرة 1409هـ، ج1 ص30 ومابعدها.

(10) البدر الطالع للشوكاني، ج 1ص 137.

(11) ينظر ترجمته في البدر الطالع للشوكاني ج 1 ص 360، 368.

(12) ينظر ترجمته في البدر الطالع للشوكاني ج 1 ص 113.

(13) ينظر ترجمته في البدر الطالع للشوكاني ج 1 ص 59.

(14) ينظر ترجمته في البدر الطالع للشوكاني ج1 ص 194.

(15) ينظر ترجمته في البدر الطالع للشوكاني ج1 ص 221،222.

[16] ومن مؤلفاته على سبيل المثال: سبل السلام شرح بلوغ المرام (ط)، وإرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد (ط)، وتطهير الاعتقاد من أدران الالحاد(ط)، وإجابة السائل شرح بغية الأمل في أصول الفقه(ط) والعدة حاشية على إحكام الأحكام (ط)، بحث في امرأة المُعسر باعتبار الزوج عن إنفاقها وهو موضوع الدراسة. وفاته:

كان- رحمه الله- مصابًا بمرض الإسهال فطلب له أهله العلاج ووصفت له الوصفات إلا أن ذلك لم يفده شيئًا، ففي صنعاء وفي يوم الثلاثاء ثالث شعبان سنة اثنتين وثمانين ومائة توفي ابن الأمير الصنعاني ودفن غربي منارة جامع المدرسة بأعلى صنعاء عن ثلاث وثمانين سنة، وقد رثاه جماعة من أكابر العلماء في عصره نثرًا وشعرًا.

المبحث الثاني : مسألة فسخ امرأة المعسر عن نفقة امرأته وامرأة المفقود :

من المعلوم أن الطلاق حق للزوج، ولا يملك إيقاعه أحد سواه إلا بناء على توكيل أو تفويض منه، وأن الشريعة لم تهمل جانب المرأة في هذا الموضوع فمنحتها الحق في طلب التفريق، وأوجبت على القاضي أن يُجيبها إلى طلبها إذا كانت هناك من الأسباب ما تقره العدالة وامتنع الزوج عن المفارقة، ومن الحالات التي يسوغ للزوجة أن تطلب التفريق أمام القضاء[17]هي رد الإمام الصنعاني في إحدى رسائله الصغيرة التي سبقت الإشارة إليها عن جواب لسؤال عرض على الشيخ إبراهيم بن خالد العلفي[18] حيث يقول الإمام الصنعاني في مقدمة رسالته: " بعد بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين جواب لسيدنا إبراهيم بن خالد العُلفي-رحمه الله- في مسألة المعسر عن نفقة امرأته وامرأة المفقود "[19]، وقبل عرض إجابة الشيخ العُلفي ورد الأمير الصنعاني وتوجيهه الأصولي في المسالة لابد من الحديث بإيجاز عن هذه المسألة مع بيان آراء الفقهاء وبيان أدلتهم فيها ومناقشة الصنعاني لها.

المطلب الأول- التعريف بكلمة الإعسار والفسخ

أولًا- الإعسار لغةً: العسر قلة ذات اليد، والعسر نقيض اليسر، والعسر خلاف والتواء، أمر عسير وعسر، ويوم عسير وعسر.[20]

(16) مقدمة تحقيق إرشاد النقاد إلى سيسير الاجتهاد للصنعاني، تح: أحمد فريد المزيدي،ط1دار الكتب ا لعلمية بيروت 1427 ص 8

(17) الأحكام الشرعية للأحوال الشخصية، زكي الدين شعبان ط 6- منشورات جامعة قاريونس 1993م ص 473.

(18) العلفي هو: إبراهيم بن خالد العُلفي كان فقيهًا يمنيًا زيديًا زاهدًا لم يتزوج عاصر شيخه الصنعاني عاش في النصف الأول من القرن الثامن عشر الهجري ولد سنة 1106هـ في رداع وعاش في ذمار واستقر وتوفي في صنعاء سنة1156هـ ينظرالبدر الطالع للشوكاني ج1 ص14،15.

(19) بحث في فسخ امرأة المعسر بإعسار الزوج عن إنفاقها، محمد بن إسماعيل الصنعاني، رقم المخطوط ( ). تحت التحقيق – مكتبة الإمام زيد بن علي اليمن اللوحة الأولى.

(20) كتاب العين، للخليل الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السمرائي، ط لا- دار مكتبة الهلال، ج 1ص 326.

وفي الاصطلاح: هو عدم القدرة على النفقة بمال ولا كسب[21].

قال الرازي في تفسيره:" العسرة اسم من الإعسار وهو تعذر الموجود من المال يقال: أعسر الرجل، إذا صار إلى حالة العسرة، وهي الحالة التي يتعسر فيها وجود المال."[22]

والفسخ في اللغة: فسخ الشيء يفسخه فسخًا فانفسخ نقضه فانتقض تقول: فسخت البيع والعزم والنكاح فانفسخ أي انتقض، الفسخ في اللغة يدور حول النقض والتفريق والزوال وكلها معاني مترادفة تدل على الفرقة والزوال[23].

ثانيًا- في الاصطلاح: عرفه الأحناف بقولهم:" فسخ العقد رفعه من الأصل وجعله كأن لم يكن"[24]، وعرفه غيرهم بقوله "الفسخ هو قلب كل واحد من العوضين إلى صاحبه، والفسوخ ما تعلق الفسخ به كالإعسار في النفقة فيتقرر إلى الحاكم؛ لأنه موضع اجتهاد"[25].

المطلب الثاني- تعريف النفقة وحكمها وموانعها:

وقبل الحديث عن آراء الفقهاء في المسألة يبقى سؤال مفاده: ما المراد بالنفقة وحكمها، وموانعها؟ وللإجابة عن ذلك يمكن القول:

أولًا-النفقة في اللغة: اسم من الإنفاق، وما ينفق من الدراهم ونحوها، والزاد، وما يفرض للزوجة على زوجها من مال للطعام والكساء والسكنى والحضانة ونحوها [26]، وفي كتب الأصول النفقة في الشرع الإدرار على الشيء بما به بقاؤه، ثم نفقة الغير تجب على الغير بأسباب الزوجية والقرابة والملك [27].

ثانيًا-حكم النفقة أنها واجبة باتفاق الفقهاء للزوجة على زوجها جزاء احتباسها وقصر نفسها عليه والدليل على وجوبها الكتاب والسنة والاجماع.[28]

ثالثًا- موانعها فأربعة منها الآتي:

المانع الأول – النشوز فلا نفقة لناشزة وإن قدر الزوج على ردها.

المانع الثاني- الصغيرة، فإذا كانت صغيرة وهو كبير أو صغير.

المانع الثالث- سفر المرأة لحاجتها أو حبسها ولو ظلمًا.

(21) المجموع شرح المهذب، محي الدين النووي، ط لا- دار الفكر بيروت، ج 18 ص249.

(22) -التفسير الكبير او مفاتح الغيب، فخر الدين الرازي، ط لا- دار الكتب العلمية بيروت،1421هـ ج7 ص89.

(23) لسان العرب محمد بن منظور،ط3- دار صادر بيروت 1414هـ ج3 ص45، وينظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الجوهري، تح:أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين بيروت1407هـ ج1 ص429.مادة (فسخ)

(24) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع علاء الدين الكاساني، ط لا-دار الكتاب العربي بيروت1982م ج2 ص295.

(25) المنثور في القواعد الفقهية، بدر الدين الزركشي، ط 2- وزارة الأوقاف الكويتية 1405هـج 3ص 42.

(26) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون،، ط لا – ت مجمع اللغة العربية القاهرة ج2ص942 مادة نفق.

(27) فتح القدير، كمال بن الهمام ط لا –دار الفكر بيروت، ج4ص378.

(28) الأحكام الشرعية للأحوال الشخصية، زكي الدين شعبان ص309.

المانـــع الرابـــع العـــدة والتلبـــس بالعبـــادات كالإحـــرام والصـــوم تطوعًـــا دون إذن الـــزوج.[29]

المطلب الثالث- تحرير محل النزاع في المسألة:

أولًا- صـورة المسـألة كمـا أوردهـا الصنعانـي وغـيره: إذا أعـسر الـزوج بالنفقـة الواجبة عليـه فهـل للزوجـة حـق في طلـب التفريـق ؟ وهـل للقـاضي النظـر في هـذا الطلـب وإعطائهـا حـق التفريـق؟

ثانيًـا- يمكـن تحريـر محـل النـزاع كمـا أورده صاحـب بحـث تفريـق القـاضي بـين الزوجـين بسـبب الإعسـار بالنفقـة بالآتـي:

1 – اتفـق الفقهـاء عـلى أن نفقـة الزوجـة غـذا تجمـدت عـلى زوجهـا بـأن انفقـت عـلى نفسـها ثـم طلبـت منـه تلـك النفقـة، وكان الـزوج عاجـزًا ولا يقـدر عـلى أدائهـا، لا يحـق لهـا طلـب الفسـخ وليـس للقـاضي فسـخ عقـد النـكاح.[30]

2 – واتفقـوا عـلى أن الزوجـين إذا كانـا موسريـن، وكان الـزوج ينفـق نفقـة الموسريـن ثـم عجـز عـن نفقـة الموسريـن، أو كان ينفـق نفقـة المتوسـطين، ثـم عجـز عـن نفقـة المتوسـطين فإنـه لاحـق للزوجـة في طلـب التفريـق بسـبب إعسـار زوجهـا عـن هذيـن النوعـين مـن النفقـة؛ لأن الواجـب عليـه نفقـة المعسريـن، والقـدر الزائـد عـن نفقـة المعسريـن يسـقط بالإعسـار.[31]

المبحث الثالث- آراء الفقهاء في المسألة وأدلتهم والتوجيه الأصولي للصنعاني:

توطئـة :

اتفـق أهـل العلـم مـن الفقهـاء عـلى أن نفقـة الزوجـة واجبة عـلى زوجهـا، واتفقوا كذلـك عـلى أنـه إذا أعـسر بالنفقـة، ورضيـت المـرأة بالمقـام معـه لا تطليـق ولا فسـخ، مـا دامـت راضيـة، ولكـن أهـل العلـم مـن الفقهـاء اختلفـوا إذا أعـسر الـزوج ولـم تـرض المـرأة بالمقـام معـه، وإلى ذلـك ذهـب الصنعانـي فاعتـبر الأول ليـس محـل نـزاع والثانـي هـو محـل النـزاع بقولـه: " أمـا امـرأة المعـسر الصابـرة عـلى إعسـاره فليسـت محـل النـزاع أمـا الثانـي وهـو المـرأة التـي تطلـب النفقـة أو الطـلاق فـإن طلقهـا وإلا رفعتـه للحاكـم ليأمـره بفراقهـا لتعـذر النفقـة فـإن امتنـع فسـخ نكاحـه هـذا هـو محـل النـزاع "[32] ويؤكـد الصنعانـي الأمـر قائـلًا:" إن مجـرد عـسر الـزوج ليـس سـببًا للفسـخ بـل السـبب مركـب مـن أمريـن إعسـار الـزوج وطلـب المـرأة للطـلاق"[33]. ومـن هنـا اختلـف أهـل العلـم مـن الفقهـاء إذا أعـسر وعجـز الـزوج عـلى نفقـة زوجتـه،

(29) الوسـيط في المذهـب، أبـو حامـد محمـد الغـزالي، تـح: أحمـد محمـود إبراهيـم، ط لا- دار السـلام القاهـرة 1417هـ ج 6 ص 218 وينظـر روضـة الطالبـين للنـووي ط لا- المكتـب الإسـلامي بيروت1405هـج 9 ص69.

(30) مجلة كلية الشريعة والقانون بتفهنا الأشراف – الدقهلية العدد الرابع والعشرون لسنة2022م الإصدار الأول ج1 ص9.

(31) المصـدر السـابق ص9 وينظـر المغنـي لابـن قدامـة، تـح: عبـد اللـه عبـد المحسـن وعبـد الفتـاح الحلـو، ط 3-دار عالـم الكتب الرياض1417هـ، ج11 ص367.

(32) مخطوط فسخ امرأة المعسر بإعسار الزوج عن انفاقه، محمد بن إسماعيل الصنعاني ص

(33) المصدر السابق ص

وكان عجزه على قدر نفقة المعسرين، فهل للقاضي أن يفرق بينهما إذا طلبت الزوجة ذلك؟ اختلف الفقهاء على أقوال منها:

القول الأول- ما ذهب إليه جمهور العلماء إلى جواز تطليق الزوجة على زوجها لعدم انفاقه عليها وثبوت الفسخ قاله مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وأبو عبيد وجماعة[34].

القول الثاني- ما ذهب إليه الهادوية [35] والأحناف وهو قول للشافعي أنه لا فسخ بالإعسار عن النفقة إذا لم يكن للزوج مال ضاهر يمكن أخذ النفقة منه سواء كان ذلك لفقره أو للجهل بما له أو لإخفائه بحيث لا يعلم مكانه فليس للزوجة الحق في طلب التفريق بل لها أن تطلب من القاضي فرض نفقة عليه والإذن لها بالاستدانة عليه أو حبسه .[36]

القول الثالث – أورده الشوكاني حيث قال:" ذهب ابن حزم إلى أنه يجب على المرأة الموسرة الإنفاق على زوجها المعسر ولا ترجع عليه إذا أيسر، وذهب ابن القيم إلى التفصيل وهو أنها ' إذا تزوجت به عالمة بإعساره أو كان حال الزوج موسرًا ثم أعسر فلا فسخ لها، وإن كان هو الذي غرّها عند الزواج بأنه موسر ثم تبين لها إعساره كان لها الفسخ."[37]،وبعد أن ساق أقوال هذا الفريق لم يتطرق الإمام الشوكاني لأدلتهم وخاصةً ما أوره أبن حزم بقوله:" الزوجة وارثة فعليها نفقته بنص القرآن وبرهان ذلك قوله عز وجل[38]: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾ [39].

أما ابن القيم فلم يأتي بدليل على ما أورده في المسألة مكتفيًا برده على دليل ابن حزم في المسألة[40]، كما فعل بعده الإمام الصنعاني في رده على دليل ابن حزم وما ساقه ابن القيم على أدلة القائلين بالفسخ لإعسار الزوج بالنفقة الذي سيأتي بعد عرض أدلة الفريقين

المطلب الأول-استدل أصحاب القول الأول بأدلة من المنقول والمعقول، منها:

(34) -بداية المجتهد ونهاية المقتصد لأبي الوليد بن رشد، راجعه عبد الحليم محمد عبد الحليم، ط لا- دار الكتب الحديثة القاهرة ج 2ص 55. وينظر مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، الخطيب الشربيني، اعتنى به:محمد خليل عيناني، ط 1-دار المعرفة بيروت 1418هـ ج3 ص578.

(35) الهادوية:هم أتباع الإمام الهادي ومقلدوه أغلبهم في الجزيرة العربية والعراق وأغلبية أهل اليمن عليها اليوم وقد نات شهرة واسعة واهتمامًا خاصًا، ينظر الأحكام في الحلال والحرام، أحمد بن سليمان ط لا- مؤسسة زيد بن علي الأردن ج1 ص 12.

(36) بدائع الصنائع علاء الدين الكاساني ج 4 ص28.وينظر الاختيار لتعليل المختار، عبد الله الموصلي الحنفي، تح: عبد اللطيف محمد عبد الرحمن، ط 3- دار الكتاب العلمية بيروت1426هـ، ج 4 ص 6.

(37) نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، علق عليه:عصام الدين الصباحي، ط 1-دار الحديث القاهرة1421هـ ج 6 ص718.

(38) المحلى لأبي محمد بن حزم، تح:أحمد شاكرن، ط لا- المطبعة المنيرية القاهرة 2347هـ ج10 ص 92.

(39) سورة البقرة: آية 233.

(40) زاد المعاد في هدي، خير العباد، لأبن القيم الجوزية، تح: شعيب الأرناؤوط، ط 26- 1412هـ ج 5 ص521.

1 _ قولـه تعـالى ﴿فَإِمْسَـاكٌ بِمَعْـرُوفٍ أَوْ تَسْـرِيحٌ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ [41]وقولـه تعـالى ﴿وَلَا تُمْسِـكُوهُنَّ ضِـرَارًا لِّتَعْتَـدُواْ وَمَـن يَفْعَـلْ ذَٰلِـكَ فَقَـدْ ظَلَـمَ نَفْسَـهُۥ﴾ [42]، فوجـه الدلالـة في الآيـة الأولى ليـس الإمسـاك مـع تـرك الانفـاق إمسـاكًا بمعـروف فيتعـين التسريـح، أمـا الآيـة الثانيـة نهـت عـن إمسـاك الزوجـة عـلى وجـه الإضرار بهـا وفي إمسـاكها مـع عـدم الإنفـاق عليهـا إضرار واعتـداء عليهـا [43].

2 - حديـث أبـي هريـرة- t-قـال: قـال رسـول اللـه-r-:" اليـد العليـا خـير مـن اليـد السـفلى، ويبـدأ أحدكـم بمـن يعـول ؛ تقـول المـرأة: أطعمنـي أو طلقنـي"[44]، وموضـع الشـاهد في الحديـث فقـد قـال ذلـك حكايـة عـن المـرأة، وقـد أقـر ذلـك، فـدل عـلى أنـه تُـشرع للمـرأة الفرقـة عنـد إعسـار زوجهـا بالنفقـة وهـي سـنة تقريريـة[45] .

3 -حديـث أبـي هريـرة مرفوعًـا، بلفـظ قـال رسـول اللـه- صـلى اللـه عليـه وسـلم- في الرجـل لا يجـد مـا ينفـق عـلى امرأتـه قـال" يفـرق بينهمـا"[46] .

يقـول الصنعانـي: وقـد اختلـف في رفـع هـذا الحديـث إلى النبـي -صـلى اللـه عليـه وسـلم- فرفعـه البيهقـي وابـن الجـوزي اعتمـادًا منهمـا عـلى سـياق الدارقطنـي بسـنده عـب أبـي هريـرة مرفوعًـا(المـرأة تقـول لزوجهـا أطعمنـي أو طلقنـي...) ثـم روى بسـنده عـن سـعيد بـن المسـيب أنـه قـال: في الرجـل لا يجـد مـا ينفـق عـلى امرأتـه قـال: يفـرق بينهمـا، ثـم أخـرج الدارقطنـي بسـنده عـن أبـي هريـرة عـن النبـي - صـلى اللـه عليـه وسـلم - بمثلـه) فظـن البيهقـي وابـن الجـوزي أن المـراد بمثلـه روايـة سـعيد بـن المسـيب [47].

4 - مـا رواه الإمـام الشـافعي قـال:" أخبرنـا مسـلم بـن خالـد بـن عبيـد اللـه عـن نافـع عـن ابـن عمـر أن عمـر بـن الخطـاب- رضي اللـه عنـه_ كتـب إلى أمـراء الأجنـاد في رجـال غابـوا عـن نسـائهم يأمرهـم أن يأخذوهـم أن ينفقـوا أو يطلقـوا فـإن طلقـوا بعثـوا بنفقـة مـا حبسـوا "[48].

ووجـه الدلالـة مـن فعـل عمـر- رضي اللـه عنـه -أنـه لـم يجـد لهـم أمـوالًا يأخـذ عنهـا كنفقـة لنسـائهم، فكتـب إلى أمـراء الأجنـاد أن يطلبـوا منهـم النفقـة إن وجدوهـا، وإن لـم يجـدوا فيطلبـوا منهـم أن يطلقـوا، فهـذا يـدل عـلى أن للحاكـم أو القـاضي أن

(41) سورة البقرة: آية 229.

(42) سورة البقرة: آية 231.

(43) المغني لابن قدامة المقدسي، تح: عبد الله عبد المحسن وعبد الفتاح الحلو، ط 3 –دار عالم الكتب الرياض1417هـ ج 11ص361.

(44) التلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني، ط 1- دار الكتب العلمية بيروت1419هـ ج4 ص26.

(45) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور البهوتي، تح: مجمد أمين،ط 1-عالم الكتاب بيروت1417هـ ج 4 ص 415.

(46) معرفـة السـنن والآثـار، أحمـد البيهقـي، تـح: عبـد المعطـي أمـين، ط 1- دار الوعـي حلب1412هـ ج11 ص284 رقـم الحديـث (15526).

(47) مجمـوع الرسـائل الفقهيـة للصنعانـي، محمـد بـن إسـماعيل الصنعانـي، تـح: خالـد بـن محمـد، ط 1- مكتبـة الفـاروق الحديثـة القاهـرة ص231.

(48) الأم، للإمام محمد بن إدريس الشافعي ط لا- دار المعرفة بيروت1393هـ ج 5 ص91. باب الرجل لا يجد ما ينفق على امرأته.

يفرق بين الزوجين إذا لم يجد الزوج ما ينفقه على زوجته وطلبت هذه الزوجة التفريق.[49]

5 - وروي عن أبي الزناد قال: سألت سعيد بن المسيب عن الرجل لا يجد ما ينفق على امرأته أيفرق بينهما ؟ قال: نعم قلت: سنة؟ قال: سنة، قال الشافعي رضي الله عنه: "الذي يشبه قول سعيد: سنة أن يكون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم[50] ويرى الصنعاني أن وجه الدلالة في هذا الأثر أن قول سعيد بن المسيب أن التفريق سنة إذا لم يجد الزوج ما ينفقه على زوجته فإن هذا القول ينصرف إلى سنة رسول الله_ صلى الله عليه وسلم- فإذا كانت سنة الرسول- صلى الله عليه وسلم_ التفريق بين الزوج المعسر وبين زوجته، فإنه وجب الامتثال لسنة الرسول.[51]

6 - أن الإجماع منعقد على أنه للقاضي أن يفرق بين الزوجين عند ثبوت عيب من العيوب في الزوج كالعنة والجب إن طلبت الزوجة هذا التفريق، وذلك للضرر الذي يلحقها من وجود هذا العيب في زوجها، والمتمثل في نقص الاستمتاع بالعجز عن الوطء، ولا يبقى بلا قوت فإن وجود العيب في الزوج لا يفوت إلا المتعة أو كمالها، أما عدم الإنفاق فإنه يفوت الكل؛ لأن الإنسان لا يستطيع العيش بدون النفقة التي توفر له الأكل والشرب، فلما كان الضرر من عدم الإنفاق أشد منه في العيوب فإن التفريق بسببه يكون أولى[52].

7 - القياس على الحيوانات والرقيق، فإن من أعسر بالنفقة أجبر على بيعها اتفاقًا حتى لا يموت جوعًا تحت يده، فيقاس، عليهما الزوجة بأن يفسخ نكاحها حتى لا تتعرض إلى الموت تحت يده لعدم الإنفاق عليها، وقد ساق الإمام الصنعاني في رسالته هذا القياس مبينًا العلة المشتركة بين الأصل والفرع لإثبات الفسخ ونفي عدمه لقولهم: النكاح ثابت بيقين بلا نزاع، فقال ما نصه:" هذا لا كلام فيه وهل الخوف إلا في فسخ نكاح ثابت، مؤكدًا على إخراج البهيمة بالبيع والعبد بعتقه بسبب عدم الإنفاق، ويطرح الإمام الصنعاني أسئلةً على خصومة ويقول:" فكيف يمنع عن فسخ الزوجة إذا لم ينفق عليها ؟ وهل هذا إلا تفريق بين النظائر في الاستدلال بلا دليل على التفريق مع أن دليلهم أو علتهم على بيع العبد أو عتقه واحدة، وهي عدم الإنفاق وهي علة امرأة المعسر"[53].

المطلب الثاني -استدل أصحاب القول الثاني بأدلة من المنقول والمعقول منها:

1 - قوله تعالى: لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ

(49) - المصدر السابق ج5 ص 91.

(50)- مسند الشافعي، الشافعي أبو عبد اللهن ط لا- دار الكتب العلمية بيروت1400هـ ص 266.

(51) - مجموع الرسائل الفقهية للصنعاني ص233. وينظر مغني المحتاج للشربيني ج 3 ص 579.

(52) - سبل السلام شرح بلوغ المرام، محمد إسماعيل الصنعاني ج 3 ص610.

(53) - مجموع الرسائل الفقهية للصنعاني ص 223.

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [54] **وقوله:** ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [55]

فقوله: (لا يكلف الله نفسًا إلا ما آتاها) يدل على أن من لم يقدر على نفقة زوجته إنه غير مكلف بالإنفاق في هذه الحالة، وإذا كان غير مكلف بالإنفاق لم يجز التفرق بينه وبين زوجته لأجل عجزه عن شيء لم يوجبه الله على الزوج، ومما يقوي ذلك قوله تعالى بعد ذلك:﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [56] فإنه يدل على أنه لا يفرق بين الزوجين لأجل الإعسار بالنفقة؛ لأن المعسر يُرجى له اليسار[57].

ناقش الصنعاني هذا الدليل، وأكد أن الآية الكريمة في غير محل النزاع، فإنها فيمن له رزق إلا أنه قليل بدليل قوله:(فلينفق مما آتاه الله) فهذا عنده ما ينفقه.. فالآية تصلح حجة على من طلبت أن ينفق عليها الزوج المقتر عليه نفقة الموسع عليه، فهذه لا تجاب إلى مطلوبها، وليس الآية فيمن نحن فيه، ويستطرد الصنعاني في إبطال هذا الدليل فيقول:" فغاية ما فيها – أي الآية-الأمر بأنه ينفق مما آتاه الله، وأنه لا يكلفه الله إلا ما آتاه فإين الدليل فيها على أن المرأة إذا أُلزم بنفقتها لا تطلب نفقة ولا طلاقًا هذا لا تدل عليه الآية لا مطابقتًا ولا تضمينًا ولا التزامًا" [58]

2 – إن الصحابة كان فيهم المعسر والموسر وكان المعسرون منهم أضعاف الموسرين ولم يؤثر عن النبي – صلى الله عليه وسلم- أنه مكن امرأة قط من الفسخ بسبب إعسار زوجها ولا أعلمها بأن الفسخ حقٌ لها.[59].

ناقش الأمير الصنعاني هذا الاستدلال بأنه مسلّم وليس فيه دليل أو شبهة دليل، إنما الدليل أن تجدوا نقلًا صحيحًا عن امرأة من الصحابة المعسرين أنها رافعت زوجها إليه – صلى الله عليه وسلم- وقالت: ينفقني أو يطلقني وقال لها رسول الله- صلى الله عليه وسلم-:" ليس لك ذلك بل اصبري على إعساره" وهذا شيء لا تجده في رواية الأحاديث ولا كتب الحديث، أما كون في الصحابة من هو معسر وزوجته صابرة عليه وراضية به فأي دليل في هذا على محل نزاع الفريقين، وأي تقوٍّ على مانحن فيه.[60]

2 -حديث جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما- قال: دخل أبوبكر يستأذن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-فوجد الناس جلوسًا ببابه، لم يؤذن لأحد

(54) سورة البقرة: آية 7.

(55) سورة البقرة: آية 280.

(56) سورة الطلاق: آية 7.

(57) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، حققه وعلق عليه، شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، ط 26- مؤسسة الرسالة بيروت1412هـ ج5 ص 518.

(58) مجموع الرسائل الفقهية للصنعاني ص 223 بتصرف.

(59) التلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني، ط 1- دار الكتب العلمية بيروت 1419هـ، ج4 ص 31.

(60) مجموع الرسائل الفقهية للصنعاني ص 226.

منهم، قال: فأُذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأُذن له، فوجد النبي- صلى الله عليه وسلم- جالسًا حول نسائه، واجمًا ساكتًا قال: فقال: لأقولن شيئًا أضحك رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقال يا رسول الله: لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام أبوبكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقه، كلاهما يقول: تسألن رسول الله مل ليس عنده، فقلن والله لا نسأل رسول الله شيئًا أبدًا ليس عنده ثم اعتزلهن شهرًا..."[61] .

اعترض الصنعاني هذا الاستدلال بقوله:" هذه القصة ليست من محل النزاع ثم أنها تحتمل أن أزواجه – صلى الله عليه وسلم- طلبن التوسعة في النفقة زيادة على ما يجب، وأن في الرواية مضاف محذوف تقديره طلبن توسعة النفقة فحذف للقرائن الدالة، وهذا الحذف ثابت سنة وكتابًا ولغةً، ثم حشد الإمام الصنعاني عدة أدلة لإثبات ما قرره.

أقول: كان جديرٌ بالإمام الصنعاني أن يعتمد قدح الإمام ابن حزم في هذا الاستدلال بقوله: "وأما نحن فلا نحتج عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بما رواه أبو الزبير عن جابر لم يقل فيه أنه سمعه منه"[62]،

المبحث الثالث – التوجيه الأصولي للإمام الصنعاني :

وبعد عرض بعض أدلة الفريقين في المسألة يمكن إجمال المنهج الذي سار عليه الإمام الصنعاني في هذه المسألة، واعتمد عليه في ترجيحاته وآرائه يقوم على أصول واضحة المعالم من أهمها:

أولًا – الكتاب والسنة :

إن ما يدل على اعتماده على الكتاب والسنة في استدلاله هو ما صرح به في كثير من كتبه نحو قوله:" فليس العمدة الدليل من الكتاب والسنة أو قياس في معنى الأصل فإذا قام الدليل فلا ينظر إلى التفتيش قال به قائل أو لا فلا وحشة مع الدليل ولا ناظر بعد وجوده إلى قال ولا قائل ولا قيل والله يقول الحق ويهدي السبيل"[63]، ولذلك نراه يحشد أدلة من الكتاب في المسألة للاستدلال على أقواله والرد على خصومه، أما الحديث لم يقل أهمية عند الصنعاني من الكتاب فنجده في رده على القائلين بأن الأحاديث المستدل بها خصومه منها ما هو مرسل صحابي أو تابعي فيقول الصنعاني:" أما القول بأنه حديث مرسل فقد تقرر عند أهل المذهب الزيدي في الأصول قبول المرسل، وأما مرسل كبار التابعين كابن المسيب فقبوله مذهب أكثر العلماء.

أقول: ما ذهب إليه الصنعاني بالاحتجاج بالحديث المرسل خالفه ابن الصلاح

(61) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، ط لا- دار الجيل بيروت رقم الحديث(3763) ج4 ص187.

(62) المحلى، لابن حزم الظاهري،ج10 ص97.

(63) العدة حاشية على إحكام الأحكام ابن إسماعيل الصنعاني ج 1ص140.

في مقدمته[64]، أما مرسل التابعي فقال ابن جرير: أجمع التابعون بأسرهم على قبول المرسل، ولم يأتِ عنهم إنكار، واشتهر عن الشافعي أنه لا يحتج بالمرسل ألا مراسيل سعيد بن المسيب[65]

وقيل: إن الصنعاني يقبل الحديث الضعيف الذي لم يشتد ضعفه، وهو مقدم على العمل بالقياسات الباطلة وإذا لم يكن في الأحكام الفقهية، وله بحث في هذه المسألة[66] .

كما اقتبس من إمام الحرمين الجويني نقله عن أئمة المحققين أن قول الصحابي من السنة كذا، لا يُحمل على الرفع[67]

ثانيًا – الاجماع: يستدل بالإجماع ويعتبره في آرائه الفقهية، ويبني عليه ترجيحاته العلمية، كما أنه يعتبر بخلاف الظاهرية فقد قال: "فإنْ ثمّ إجماع فلا التفات إلى خلاف من خالف"[68]، وفي هذه المسألة يقول الصنعاني:" إن الإجماع منعقد على أنه للقاضي أن يفرق بين الزوجين عند ثبوت عيب من العيوب ..."[69].

ويبقى أمر لابد من بيانه في هذه المسألة وهو ما الراجح بين القولين في المسألة ؟ بعد عرض أدلة الصنعاني وفريقه وردوده على خصومه في هذه المسألة، يبدو أن الإمام الصنعاني من أصحاب القول بالتفريق بين الزوجين في حال إعسار الزوج في النفقة، وهذا يتضح من قوله:" وأن الحق هو القول بإيجاب الطلاق عن الزوج، فإن امتنع رافعته إلى الحاكم، فيأمره بالطلاق، فإن امتنع فسخت نكاحه، وهذا هو اللائق بمحاسن الشريعة في بقائها معه بلا نفقة أو حبسه فيضيق عليه وعليها ويعذب بحبسه ومنعه من بطشه، وأي فائدة تعود للمرأة بسجنه"[70]

والحق أن الصنعاني لم ينفرد بهذا الاختيار؛ بل اختاره الإمام ابن حجر في تلخيصه حيث قال: " والذي يظهر بالتأمل في هذه الأدلة ومناقشتها اختيار القول بثبوت حق الفراق لزوجة المعسر في الجملة، لقوة أدلته، أضف إلى ذلك أنه مذهب الجمهور، وأنه نقل عن بعض الصحابة، ولم ينقل عن أحدٍ منهم ما يخالفه، وأما القول بمنع هذا الحق على الإطلاق فإنه لم يسلم له دليل"[71]، بينما نجد أن صاحب كتاب تفريق القاضي بين الزوجين له رأي آخر في المسألة مخالف لما

(64) مقدمة ابن الصلاح، لابن عمرو عثمان بن الصلاح، ط 1- المطبعة العلمية حلب 1350هـ

(65) تدريب الراوي، جلال الدين السيوطي، تح: ابو معاذ طارق بن عوض الله، ط1- دار العاصمة الرياض1424هـ، ج3 ص134،133.

(66) آراء الإمام الصنعاني ومدى توافقها مع آراء الصحابة في الطهارة، محمد بن فائق بن همام، رسالة ماجستير- جامعة المدينة العالمية 1433هـ ص 31 وما بعدها.

(67) الصنعاني وكتابه توضيح الأفكار د. أحمد محمد العليمي، ط 1 –دار الكتب العلمية بيروت ص293.

(68) سبل السلام، لابن إسماعيل الصنعاني، ط لا- دار الحديث ج 2 ص 321.

(69) مجموع الرسائل الفقهية للصنعاني ص 235 .

(70) مجموع الرسائل الفقهية للصنعاني ص 236.

(71) التلخيص الحبير، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ج 4 ص32.

ذهب إليه الصنعاني ومن رجح التفريق، فيقول عند ذكره الترجيح بين الأقوال ما نصه:" الذي يترجح عندي بعد عرض الأدلة ومناقشيها، هو القول بعدم التفريق بسبب الإعسار بالنفقة؛ لقوة ما استدل به أصحاب هذا القول، لا سيما أن أدلة أصحاب القول القاضية بالتفريق بين الزوجين غير ناهضة لإثبات هذا الحكم فبعضها غير ثابت، والبعض الآخر غير صريحة في الدلالة على التفريق، كما بيّنا ذلك عند مناقشة أدلتهم، ولهذا يتضح ترجيح القول بعدم التفريق لاسيما وأن معهم الأصل وهو أن لا يحل تحريم فرج أباحه الله للزوج بغير دليل صريح صحيح[72]، والله أعلم وأحكم.

الخاتمـــــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الرسالات، سيد الخلق وهادي الناس إلى منتهى الغايات، أما بعد: ففي ختام هذا البحث (التوجيه الأصولي للإمام الصنعاني في مسالة فسخ عقد امرأة المعسر)، يمكن القول: إن العلاقة بين أصول الحديث وأصول الفقه علاقة تشابه في وضع القواعد واستنتاج الأدلة، وهما متلازمان فإذا كان علم أصول الحديث يبين قواعد منهج التثبت في قبول الأخبار والروايات، فإن علم أصول الفقه يبين قواعد فهم تلك الأخبار والروايات وبناء الأحكام على تلك الدلائل، ولعل من الأوائل الذين تنبهوا لهذا الأمر الإمام الصنعاني في كتابه سبل السلام في الحديث، وكتابه في الأصول إجابة السائل كما يؤكد ما ذهبنا إليه أبرز المسائل الفقهية والخلافية التي سماها (المسألة الثاقبة الأنظار في تصحيح أدلة فسخ امرأة المعسر بالإعسار)، والتي حاولنا استيفاء الحديث عنها وعن أثر اختلاف الفقهاء فيها.

نتائج البحث :

1 - إن الإمام الصنعاني زيدي المذهب، ولكنه لم يخالف مذاهب أهل السنة في هذه المسألة .

2 - في حالة إعسار الزوج وصبرت الزوجة على ذلك فليس هذا محل نزاع في المسألة، ولكن محل النزاع إذا لم تصبر، فترفع أمره إلى القاضي ليجبره على الطلاق، وإلا فسخ القاضي العقد.

التوصيات :

1 - أوصي المشرع في الأحوال الشخصية الالتزام بالرأي الراجح في المسألة تطبيقًا لمبدأ لا ضرر ولا ضرار .

2 - زيادة التوعية في مجال العلاقات الزوجية، وذلك من خلال تكثيف الندوات وورش العمل والتوعية من خلال وسائل الإعلام وغيرها.

وختامًا فإن أصبت فهذا توفيق من الله، وإن أخطأت فمني، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(72) تفريق القاضي بين الزوجين بسبب الإعسار بالنفقة، د: زايد الهبي زيد.

قائمة المراجع

أولًا : المراجع:
1 – الأحكام الشرعية للأحوال الشخصية، زكي الدين شعبان .
2 – الاختيار لتعليل المختار، عبد الله الموصلي الحنفي،
3 – الأم، للإمام محمد بن إدريس الشافعي.
4 – بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع علاء الدين الكاساني.
5 – بداية المجتهد ونهاية المقتصد لأبي الوليد بن رشد.
6 – البدر الطالع محاسن ما بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني .
7 – التاج المكلل، أبو الطيب محمد صديق خان.
8 – تدريب الراوي، جلال الدين السيوطي.
9 – التفسير الكبير او مفاتح الغيب، فخر الدين الرازي.
10 – تفريق القاضي بين الزوجين بسبب الإعسار بالنفقة، د: زايد الهبي زيد.
11 – التلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني.
12 – الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم، الحميري .
13 – روضة الطالبين للنووي.
14 –زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية .
15 – سبل السلام، لابن إسماعيل الصنعاني.
16 – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الجوهري.
17 – صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج .
18 – الصنعاني وكتابه توضيح الأفكار أحمد محمد العليمي .
19 – فتح القدير، كمال بن الهمام.
20 – فهرس الفهارس والأثبات،محمد عبد الحي الكتاني.
21 – كتاب العين، للخليل الفراهيدي .
22 – كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور البهوتي .
23 – لسان العرب محمد بن منظور.
24 – المجموع شرح المهذب، محي الدين النووي.
25 – مجموع الرسائل الفقهية، محمد بن إسماعيل الصنعاني .
26 – المحلى لأبي محمد بن حزم .
27 – مسند الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي.
28 – معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة .
29 – المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون.
30 –معرفة السنن والآثار، أحمد البيهقي.
31 – المغني لابن قدامة .
32 – مغني المحتاج غلى معرفة ألفاظ المنهاج، الخطيب الشربيني .
33 – مقدمة ابن الصلاح، لابن عمرو عثمان بن الصلاح .
34 – مقدمة تحقيق إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد للصنعاني.
35 – المنثور في القواعد الفقهية، بدر الدين الزركشي .
36 – نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني .
37 – هامش العدة حاشية الصنعاني على إحكام الإحكام لابن دقيق العيد .
38 – الوسيط في المذهب، أبو حامد محمد الغزالي .

ثانيًا: الرسائل

1 – آراء الإمام الصنعاني ومدى توافقها مع آراء الصحابة في الطهارة، محمد بن فائق بن همام، رسالة ماجستير- جامعة المدينة العالمية 1433هـ ص 31 وما بعدها.

2 – الدولة القاسمية في اليمن جذورها وأسس قيامها، وليد عبد الحميد أحمد النود- رسالة ماجستير جامعة صنعاء كلية الآداب اليمن، المقدمة.

المخطوطات:

1 – مخطوط فسخ امرأة المعسر بإعسار الزوج عن إنفاقها، محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحت التحقيق – مكتبة الإمام زيد بن علي اليمن.

المجلات:

1 – مجلة كلية الشريعة والقانون بتفهنا الأشراف – الدقهلية العدد الرابع والعشرون لسنة2022م الإصدار الأول.

حديث " لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الآخِرَةِ " دراسة حديثية عقدية

إعداد :
د. حسين حميد عباس
أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية/ كلية التربية- جامعة درنة.

الاستلام : 15/ 1/ 2023 القبول : 18/ 2/ 2023

المستخلص :

حديث " لكل نبي دعوة مستجابة" من الأحاديث التي استشكلها بعض العلماء فأردت أن أوضح معانيه، وأزيل بعض اللبس مع استنباط شيء من الفوائد العقدية، من خلال استقراء أقوال العلماء وتحليلها والمقارنة بينها، واقتضت طبيعة الدراسة تخريج الحديث، وتراجم رواته، والحكم عليه، وبيان معنى الشفاعة في اللغة الاصطلاح، وبيان مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات شفاعة النبي- ﷺ- يوم القيامة، وكذلك بيان مذهب المنكرين لشفاعة النبي -ﷺ- يوم القيامة، وذِكر أدلتهم والرد عليها، وقد توصلت الدراسة إلى أن الحديث ثابت متنا وسندا، وكذلك توصلت إلى تواترت الأحاديث في شفاعة النبي- ﷺ- في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم، وقد أجمع عليها الصحابة، وأهل السنة قاطبة وبَدَّعُوا من أنكرها، وأيضا توصلت الدراسة إلى أنَّ إثبات الشفاعة لا ينافي علم الله -ﷻ- المحيط بكل شيء، وأن بعض الأعمال تشفع لصاحبها يوم القيامة، كشفاعة كلمة التوحيد، وشفاعة الانتماء لأمة محمد -ﷺ- وشفاعة الصيام والقرآن... وغيرها.

والله ولي التوفيق

Abstract

The saying of the prophet –Hadeeth– " Every prophet has a prayer which is granted" is one of the prophet's Hadeeths that confused religious scholars. Accordingly, I attempt to clarify its meaning and eliminate all the doubts and ambiguities. Also, I tried to derive some theological benefits through extrapolation, analyzation and comparison of scholar's sayings. The nature of the study required the authentication of the Hadeeth, interpretations of its narrators, judgment, and the statement of the meaning of intercession in language and terminology; and the explanation of the doctrine of Ahl al–Sunnah wal–Jama'ah in proving the intercession of the Prophet on the Day of Resurrection; explanation of the doctrine of those who deny the intercession of the Prophet on the Day of Resurrection – mentioning their evidence and responding to them. The study found out that the Hadeeth is literally and traceably well–authenticated; the total agreement by the prophet's companions and the whole of Ahil alsunna upon the frequencies of Hadeeths about the prophet's intercession and reject disobeyers from monotheists who deny the Hadeeth and will enter Hell for their sins. Also, the study concluded that proving intercession does not contradict the knowledge of God surrounding everything, and that some actions will intercede for its owner on the Day of Resurrection, such as the intercession of the word of monotheism, the intercession of belonging to the nation of Muhammad, the intercession of fasting, the Qur'an, and others.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد-ﷺ- وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلي يوم الدين.

وبعد

إن عِلم السُّنةَ النبويَّة من أشرف العلوم وأجلّها قَدْرًا بعد القرآن الكريم الذي هو أصل الدين، فقد جاءت السنة شارحةً للقرآن ومبيِّنةً له، ومكانتُها تأتي في الإسلام بعد القرآن الكريم، فهي تفسير وتوضيح للقرآن، تبين مشكله، وتفصل مجمله, وتوضح مبهمه, وهي كنز من الكنوز الثمينة، ولقد اهتم المحدثون على مدار التاريخ منذ عصر النبي -ﷺ- بسنته وتعلّموها وعملوا بها وعلّموها، ونشروها للناس، وبذلوا جهودًا عظيمة وجليلة في خدمتها، جمعًا وتصنيفًا ودراسة وتصحيحًا وتنقيحًا وتضعيفًا، حرصًا منهم على سلامة الحديث وضبطه، وحفظه من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ولقد اعتمد أهل السنة والجماعة على الكتاب والسنة، في إثبات عقائدهم، مما جنبهم الوقوع في البدع والمحدثات، التي وقع فيها أهل الأهواء والبدع، والحديث – محور الدراسة - يعالج قضية من قضايا العقيدة المهمة، ألا وهي شفاعة النبي -ﷺ- يوم القيامة، ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث الموسوم بـــــــــ (حديث " لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الآخِرَةِ " دراسة حديثية عقدية)

إشكالية البحث:

يحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما موقف أهل السنة والجماعة من شفاعة النبي-ﷺ- لأهل المعاصي من الموحدين؟
2. ما الأدلة التي اعتمد عليها النافين لشفاعة النبي -ﷺ-؟ وكيف يمكن الرد عليه؟

أهمية هذا الموضوع:

- تنبع أهمية هذا الموضوع من أهمية الجانب الذي يعالجه بالبحث والدراسة.
- بيان ما تضمنه هذا الحديث من قضايا عقدية تتعلق بشفاعة النبي-ﷺ- في الآخرة.
- إن الحديث - موضوع الدراسة- من الأحاديث الدالة على مسائل عقدية مهمة، وفي بيانها وإيضاحها نشر للعقيدة الصحيحة.

أما عن أسباب اختيار الموضوع فتكمن في الآتي:

- رغبتي الجادَّة في بحث هذا الموضوع، النَّابعة من أهميّته؛ وذلك لتعلقه بسنة النبي -ﷺ-.
- الرغبة في خدمة السنة الشريفة بتمييز الثابت الصحيح من السقيم الضعيف.
- بيان ضعف شُبه المبتدعة حول الحديث الشريف- موضوع الدراسة- وذلك بعرضها، ثم مناقشتها.

أهداف البحث:

- الاعتماد على النصوص الصحيحة فيما يجب اعتقاده.

- إبراز مفهوم تكاملية العلوم وخاصة بين علمي الحديث والعقيدة.

- الرد على أهل الأهواء والبدع، وإبطال شبهاتهم حول المسائل العقدية.

أما عن المنهج المستخدم في الدراسة:

سوف أتبع في هذا البحث المنهج الاستقرائي، وذلك بالحديث عن قضايا الإسناد، والمنهج التحليلي، وذلك بالحديث عن قضايا المتن، والمنهج النقدي، وذلك بالرد على من ينكر شفاعة النبي- ﷺ- في الآخرة.

تقسيمات الدراسة

اقتضت طبيعة الدراسة أن تنقسم إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة : عرضت فيها أهمية الموضوع وأهدافه، وأسباب اختياره، ومشكلة البحث، والمنهج المستخدم في الدراسة، وتقسيم الدراسة.

المبحث الأول- دراسة قضايا السند في الحديث الشريف، وينقسم إلى ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: تخريج الحديث.

المطلب الثاني: ترجمة رواة الإسناد.

المطلب الثالث: الحكم على الحديث.

المبحث الثاني: بيان معنى الحديث، وما يتعلق به من مباحث عقدية، وفيه ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: مفهوم الشفاعة في اللغة والاصطلاح، وبيان معنى الحديث كما ورد في صحيح البخاري.

المطلب الثاني: مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات شفاعة النبي-ﷺ- يوم القيامة وأدلتهم على ذلك.

المطلب الثالث: مذهب المنكرين لشفاعة -ﷺ- يوم القيامة وأدلتهم والرد عليها.

الخاتمة : وتضمنت أهم النتائج التي تم التوصل إليها وتوصيات البحث:

والله تعالى أسأل أن يجعل عملي صالحًا ولوجهه خالصًا، وأن ينفع به، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول- دراسة قضايا السند في الحديث الشريف، وينقسم إلى ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: تخريج الحديث.

ورد حديث " لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ " في روايات متعددة ولكل رواية طريق أو أكثر على النحو الآتي:

الرواية الأولى- رواية أبي هريرة -رضى الله عنه- ولها عدة طرائق منها:

الطريق الأول- قال الإمام البخاري- رحمه الله-: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الآخِرَةِ"[1].

الطريق الثاني- قال الإمام مسلم- رحمه الله-: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ عُمَارَةَ وَهُوَ ابْنُ الْقَعْقَاعِ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا فَيُسْتَجَابُ لَهُ، فَيُؤْتَاهَا، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2].

الطريق الثالث- قال الإمام مالك- رحمه الله-: حَدَّثَنِي يَحْيَى، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُو بِهَا، فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي، شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الْآخِرَةِ"[3].

الطريق الرابع- قال ابن ماجة- رحمه الله-: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي، فَهِيَ نَائِلَةٌ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا"[4].

الطريق الخامس- قال الترمذي- رحمه الله-: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا"[5]

الطريق السادس- قال الإمام أحمد - رحمه الله- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ بَحْرٍ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى

(1) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، بَابٌ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، حديث رقم(6304).

(2) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ اخْتِبَاءِ النَّبِيِّ صَلاَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْوَةَ الشَّفَاعَةِ لِأُمَّتِهِ، حديث رقم(6304).

(3) موطأ الإمام مالك، من كتاب القرآن، بَابُ مَا جَاءَ فِي الدُّعَاءِ، حديث رقم(26).

(4) سن ابن ماجه، كتاب الزُّهْدِ، بَابُ ذِكْرِ الشَّفَاعَةِ، حديث رقم(4307).

(5) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، بَابُ مَا جَاءَ إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ، حديث رقم(3602).

اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَـالَ: " لِـكُلِّ نَبِـيٍّ دَعْـوَةٌ، فَأُرِيـدُ - إِنْ شَـاءَ اللـهُ - أَنْ أَخْتَبِـئَ دَعْوَتِـي لِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ شَـفَاعَةً لِأُمَّتِـي"[6].

الطريـق السـابع- قـال البيهقـي - رحمـه اللـه- ثنـا أَبُـو الْعَبَّـاسِ مُحَمَّـدُ بْـنُ يَعْقُـوبَ، ثنـا أَحْمَـدُ بْـنُ عَبْـدِ الْجَبَّـارِ، ثنـا أَبُـو مُعَاوِيَـةَ، عَـنِ الْأَعْمَـشِ، عَـنْ أَبِـي صَالِـحٍ، عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ، قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللـهِ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: " إِنَّ لِـكُلِّ نَبِـيٍّ دَعْـوَةً مُسْـتَجَابَةً، وَإِنِّـي اخْتَبَـأْتُ دَعْوَتِـي شَـفَاعَةً لِأُمَّتِـي، فَهِـيَ نَائِلَـةٌ مَـنْ مَـاتَ مِنْهُـمْ إِنْ شَـاءَ اللـهُ لَا يُـشْرِكُ بِاللـهِ شَـيْئًا "[7].

الطريـق الثامـن- قـال الزرقانـي- رحمـه اللـه-: حَدَّثَنِـي يَحْيَـى عَـنْ مَالِـكٍ عَـنْ أَبِـي الزِّنَـادِ عَـنِ الْأَعْـرَجِ عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ «أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَـالَ لِـكُلِّ نَبِـيٍّ دَعْـوَةٌ يَدْعُـو بِهَـا فَأُرِيـدُ أَنْ أَخْتَبِـئَ دَعْوَتِـي شَـفَاعَةً لِأُمَّتِـي فِي الْآخِـرَةِ"[8].

الطـرق التاسـع- قـال ابـن عبـد البـر- رحمـه اللـه-: حدثنـا إسـماعيل، قـال: حدثني مالـك، عـن أبـي الزنـاد، عـن الأعـرج، عـن أبـي هريـرة، أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسـلم قـال:" لـكل نبـي دعـوة مسـتجابة يدعـو بهـا، وأريـد أن أختبـئ دعوتـي شـفاعة لأمتي في الآخـرة"[9].

الطريـق العـاشر- قـال الدارمـي - رحمـه اللـه- أَخْبَرَنَـا الْحَكَـمُ بْـنُ نَافِـعٍ، أَنْبَأَنَـا شُـعَيْبٌ، عَـنِ الزُّهْـرِيِّ قَـالَ: حَدَّثَنِـي أَبُـو سَـلَمَةَ بْـنُ عَبْـدِ الرَّحْمَـنِ أَنَّ أَبَـا هُرَيْـرَةَ قَـالَ: قَـالَ النَّبِـيُّ صَـلى اللـه عَليـهِ وسَـلم: لِـكُلِّ نَبِـي دَعْـوَةٌ, وَأُرِيـدُ - إِنْ شَـاءَ اللـهُ - أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِـي شَـفَاعَةً لأُمَّتِـي يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ[10].

الرواية الثاني- رواية جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- ولها عدة طرائق منها:

الطريـق الأول- قـال الإمـام مسـلم- رحمـه اللـه-: وَحَدَّثَنِـي مُحَمَّـدُ بْـنُ أَحْمَـدَ بْـنِ أَبِـي خَلَـفٍ، حَدَّثَنَـا رَوْحٌ، حَدَّثَنَـا ابْـنُ جُرَيْـجٍ، قَـالَ: أَخْبَرَنِـي أَبُـو الزُّبَـيْرِ، أَنَّـهُ سَـمِعَ جَابِـرَ بْـنَ عَبْـدِ اللـهِ، يَقُـولُ: عَـنِ النَّبِـيِّ صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، لِـكُلِّ نَبِـيٍّ دَعْـوَةٌ قَـدْ دَعَـا بِهَـا فِي أُمَّتِـهِ، وَخَبَـأْتُ دَعْوَتِـي شَـفَاعَةً لِأُمَّتِـي يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ[11].

الطريـق الثانـي- قـال الإمـام أحمـد- رحمـه اللـه-: حَدَّثَنَـا رَوْحٌ، حَدَّثَنَـا ابْـنُ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَنِـي أَبُـو الزُّبَـيْرِ، أَنَّـهُ سَـمِعَ جَابِـرَ بْـنَ عَبْـدِ اللـهِ، يَقُـولُ: " لِـكُلِّ نَبِـيٍّ دَعْـوَةٌ قَـدْ دَعَـا بِهَـا فِي أُمَّتِـهِ وَخَبَّـأْتُ دَعْوَتِـي شَـفَاعَةً لِأُمَّتِـهِ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ " يَعْنِـي النَّبِـيَّ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ[12].

(6) مسند الإمام أحمد، 14/519، حديث رقم(8959).

(7) السنن الكبرى، من كتاب الجراح، باب أَصْلِ تَحْرِيمِ الْقَتْلِ فِي الْقُرْآنِ، حديث رقم(15837).

(8) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، من كتاب القرآن، بَابُ مَا جَاءَ فِي الدُّعَاءِ، حديث رقم(492).

(9) فتـح البـاري شرح صحيـح البخـاري ابـن حجـر، رقـم كتبـه وأبوابـه وأحاديثـه: محمـد فـؤاد عبـد الباقـي، دار المعرفـة - بـيروت، 1379م، 11/97، حديـث رقـم(6304).

(10) مسند الدارمي، من كتاب الرقاق، بَابٌ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ حديث رقم(3012).

(11) صحيح مسلم، من كتاب الإيمان، باب اختباء النبي -ﷺ- دعوة الشفاعة لأمته، حديث رقم(345).

(12) مسند الإمام أحمد، 23/ 330، حديث رقم(15116).

الطريق الثالث- قال حبان-رحمه الله-: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُوسَى، بِعَسْكَرَ مُكْرَم، قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَعْمَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[13].

الطريق الرابع- قال أبو يعلى- رحمه الله-: حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ، حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ، وَخَبَّأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ" [14].

الطريق الخامس- قال الطبراني- رحمه الله-: حَدَّثَنَا أَسْلَمُ بْنُ سَهْلٍ الْوَاسِطِيُّ قَالَ: نا الْقَاسِمُ بْنُ عِيسَى قَالَ: نا رَحْمَةُ بْنُ مُصْعَبٍ، عَنْ عَزْرَةَ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ، دَعَا بِهَا فَاسْتُجَابَ اللَّهُ لَهُ، وَإِنِّي أَخَّرْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي"[15].

الرواية الثالثة- رواية أنس بن مالك -رضي الله عنه- ولها طرائق عدة منها:

الطريق الأول- قال الإمام مسلم: حَدَّثَنِي أَبُو غَسَّانَ الْمِسْمَعِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَابْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا وَاللَّفْظُ لِأَبِي غَسَّانَ قَالُوا حَدَّثَنَا مُعَاذٌ يَعْنُونَ ابْنَ هِشَامٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ قَتَادَةَ حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعَاهَا لِأُمَّتِهِ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ" [16].

الطريق الثاني- قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا بَهْزٌ، وَعَفَّانُ قَالَا: حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً قَدْ دَعَا بِهَا، فَاسْتُجِيبَ لَهُ، وَإِنِّي اسْتَخْبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ[17].

الطريق الثالث- قال ابن حبان: أَخْبَرَنَا الْفَضْلُ بْنُ الْحُبَابِ الْجُمَحِيُّ، حَدَّثَنَا مُسَدَّدُ بْنُ مُسَرْهَدٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى الْقَطَّانُ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً دَعَاهَا فِي أُمَّتِهِ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي"[18].

(13) صحيح ابن حبان، 14/ 33، حديث رقم (6460).

(14) مسند أبي يعلى، أبو يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، ط1، 1404هـ – 1984م، 4/166، حديث رقم(2237).

(15) المعجم الأوسط، الطبراني (ت: 360هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد, عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، د- ت، 3/ 243، حديث رقم(3043).

(16) صحيح مسلم، من كتاب الإيمان، بَاب اخْتِبَاءِ النَّبِيِّ -ﷺ- دَعْوَةَ الشَّفَاعَةِ لِأُمَّتِهِ، حديث رقم(299).

(17) مسند الإمام أحمد، 19/ 470، حديث رقم(12376).

(18) صحيح ابن حبان، 14/ 76، حديث رقم (6196).

الطريق الرابع- يقول أبو نعيم الأصبهاني: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ ثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي الْحَارِثِ وَأَبُو عَوْفٍ ثَنَا رَوْحٌ قَالا ثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ لَهُ فِي أُمَّتِهِ وَإِنِّي دَخَرْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[19].

الطريق الخامس- قال البزار: حَدَّثنا محمد بن عبد الرحيم، حَدَّثنا روح بن عبادة، حَدَّثنا شعبة، عَن قَتادة، عَن أَنَسٍ، قال: قال رسول الله صَلَّى الله عَلَيه وَسَلَّم: لكل نبي دعوة دعا بها لأمته, وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة[20].

الطريق السادس- قال أبو يعلى: حدثنا عبيد الله بن عمر حدثنا حرمي بن عمارة حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " لكل نبي دعوة دعا بها وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة"[21].

الطريق السابع- قال البيهقي: وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ: مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الصَّغَانِيُّ حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ عِبَادَةَ ح وَأَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدِ بْنُ الأَعْرَابِيِّ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّعْفَرَانِيُّ حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- :"إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً قَدْ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[22].

مما سبق نستطيع القول إن أحاديث أبي هريرة رضي الله عنه وردت لها تسعة طرق، وجميع ألفاظ الحديث صحيحة ولا تعارض بينها.

أما رواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهما وردت ولها خمسة طرق، وجميع ألفاظ الحديث صحيحة ولا تعارض بينها.

ورواية أنس بن مالك وردت ولها سبعة طرق، وجميع ألفاظ الحديث صحيحة ولا تعارض بينها.

المطلب الثاني: ترجمة رواة الإسناد.

سوف نقوم بإذن الله تعالى بترجمة رواة الطريق الأول من الرواية الأولى؛

(19) المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ قَوْلِهِ -ﷺ- لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ، حديث رقم(493).

(20) مسند البزار، البزار (ت: 292هـ)، تحقيق: عادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، ط1، 1988م، 13/ 428، حديث رقم (7169).

(21) مسند أبي يعلى، 5/ 306، حديث رقم(2928).

(22) السنن الكبرى، من كتاب الشهادات، باب النُّكُولِ وَرَدِّ الْيَمِينِ، حديث رقم(21294).

لورودهـا في صحيـح البخـاري عـلى النحـو الآتـي:

أولًا- (إسـماعيل): هـو إسـماعيل بـن عبـد اللـه بـن عبـد اللـه بـن أويـس بـن مالـك بـن أبـي عامـر الأصبحـي[23]،

حليـف بنـي تيـم بـن مـرة، وهـو أخـو أبـي بكـر عبـد الحميـد بـن أبـي أويـس وابـن أخـت مالـك بـن أنـس وزوج ابنتـه[24].

ولـد في المدينـة المنـورة سـنة تسـع وثلاثـين ومئـة[25]، يلتقـي نسـبه مـع الإمـام مالـك في جـده مالـك ابـن ابـي عامـر[26].

نـال شـهادات عـدة بالعلـم وسـعته منهـا مـا قالـه عنـه الذهبـي: " وكان عالـم أهـل المدينـة، ومحدثهـم في زمانـه"[27]، وقـال عنـه ابـن عـدي:" وقـد حـدث عنـه الناس، وأثنـى عليـه ابـن معـين وأحمـد والبخـاري، يحـدث عنـه الكثـير"[28].

وفاتـه: مَـاتَ سـنة سِـتّ وَعشْريـن وَمِائَتَـيْنِ[29]، وقيـل في رجـب سـنة سـبع وعشريـن ومائتـين[30].

ثانيًا- مالك بن أنس الإمام، رحمه الله:

هـو شـيخ الإسـلام، حجـة الأمـة، أبـو عبـد اللـه مالـك بـن أنـس بـن مالـك بـن أبـي عامـر بـن عمـرو بـن الحـارث بـن غيمـان بـن خثيـل بـن عمـرو بـن الحـارث، وهـو ذو أصبـح بـن عـوف بـن مالـك.[31]

إمـام دار الهجـرة الثبـت الحجـة الحافـظ المتقـن الفقيـه[32]، وُلـد الإمـام مالـك بالمدينـة المنـورة، وقيـل إنـه وُلـد بـذي المـروة، وهـي قريـة تقـع بـوادي القـرى بـين تيمـاء وخيـبر، واختلـف العلمـاءُ في السـنة التـي وُلـد فيهـا، فقيـل إنـه وُلـد سـنة:

(23) تهذيب التهذيب، ابن حجر(ت852)، دار الفكر بيروت- لبنان، ط1، 1404هـ- 1984م، (1 /271).

(24) تهذيـب الكمـال، المـزي(ت: 742هـ)، تحقيـق: بشـار عـواد معـروف، مؤسسـة الرسـالة- بـيروت، ط1، 1400هـ – 1980م، 3/124.

(25) ينظـر: سـير أعـلام النبـلاء، الذهبـي (ت: 748هـ)، تحقيـق: مجموعـة مـن المحققـين بإشراف الشـيخ شـعيب الأرنـاؤوط، مؤسسـة الرسـالة، ط3، 1405هـ-1985م، 10/393.

(26) ينظـر: التعديـل والتجريـح، سـليمان بـن خلـف بـن سـعد الباجـي،(ت474)، تحقيـق: أبـو لبابـة حسـين، دار اللـواء للنـشر والتوزيـع – الريـاض، ط1، 1406هـ- 1986م، 1/370؛ والضعفـاء والمتروكـين، ابن الجـوزي (ت:597هـ)، تحقيق: عبـد اللـه القـاضي، دار الكتـب العلميـة بـيروت- لبنـان، ط1، 1406هـ، 1/117؛ تهذيـب التهذيـب، ابـن حجـر، 1/271.

(27) سير أعلام النبلاء، 10/392.

(28) الكامـل في ضعفـاء الرجـال، ابـن عـدي الجرجانـي (ت: 365هـ)، تحقيـق: عـادل أحمـد عبـد الموجـود، وعـلي محمـد معـوض، الكتـب العلميـة - بـيروت- لبنـان، ط1، 1418هـ1997م، 1/527 .

(29) الثقات، ابن حبان (ت: 354هـ)، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، ط1، 1395هـ-1975هـ، 8/99.

(30) ينظر: تهذيب التهذيب، 1 /272.

(31) ينظـر: سـير أعـلام النبـلاء، 8/48؛ وتزيـين الممالـك بمناقـب الإمـام مالـك، جـلال الديـن السـيوطي، الـدار البيضـاء، المغـرب، ط1، 1431هـ-2010م، صـ17؛ شرح الزرقانـي عـلى موطـأ الإمـام مالـك، الزرقانـي، تحقيـق: طـه عبـد الـرؤوف سـعد، مكتبـة الثقافـة الدينيـة – القاهـرة، ط1، 1424هـ - 2003م، 9/ 173.

(32) البحـر المحيـط الثجـاج في شرح صحيـح الإمـام مسـلم بـن الحجـاج، محمـد بـن عـلي بـن آدم بـن مـوسى، دار ابـن الجـوزي، ط1، 1436هـ 5/381.

90هـ، وقيل 93هـ، وقيل94هـ، وقيل 95هـ، وقيل96هـ، وقيل98هـ[33]، ولكن الأكثرين على أنه وُلد سنة 93هـ في خلافة، الوليد بن عبدالملك"[34].

حدَّث عن الإمام مالك عددٌ كبيرٌ من الناس فقد حدّث عنه من شيوخه: عمه أبو سهيل، ويحيى بن أبي كثير، والزهري، ويحيى بن سعيد، وزيد بن أبي أنيسة، وعمر بن محمد بن زيد، وغيرهم، ومن أقرانه: معمر، وابن جريج، وأبو حنيفة، وعمرو بن الحارث، والأوزاعي، وشعبة، والثوري، والليث، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، وابن أبي الزناد، ومحمد بن الحسن الفقيه، وغيرهم[35]، وكان – رحمه الله- أول من انتقى الرجال من الفقهاء بالمدينة وأعرض عمن ليس بثقة في الحديث، ولم يكن يروي إلا ما صح، ولا يحدث إلا عن ثقة مع الفقه والدين والفضل والنسك[36].

ثناء العلماء عليه:

قال الإمام الشافعي: " إذا جاءك الحديث عن مالك فشُدَّ يدك به»، وقال: " كان مالك إذا شك في الحديث طرحه كله"[37]، ورُوي عن عبد السلام بن عاصم قال قلت لأحمد بن حنبل يا أبا عبد الله رجل يحب أن يحفظ حديث.. فقال: يحفظ حديث مالك"[38]، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: من أثبت أصحاب الزهري؟, قال: مالك أثبت في كل شيء[39].

وفاته: مرض الإمام مالك – رحمه الله-، ثم جاءته منيته، وأكثر الرواة على أنه مات سنة 179هـ[40]

ثالثًا- أبو الزناد:

هو عبد الله بن ذكوان، وذكوان أبوه مولى رملة ابنة شيبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وقيل: هو مولى عائشة بنت عثمان، وقيل: مولى عثمان[41].

(33) ينظر: مالك: حياته وعصره – آراؤه وفقهه، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 1952، صـ25.

(34) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون إبراهيم بن علي اليعمري(ت 799هـ) تحقيق وتعليق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، د – ت، 89-88/1.

(35) ينظر: سير أعلام النبلاء، 8/52.

(36) الثقات، ابن حبان، 7/460؛ وينظر: الأنساب، أبي سعيد عبد الكريم السمعاني،(ت: 562هـ)، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، 1998م، 1/174؛ وينظر: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، السخاوي (ت: 902هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1414هـ- 1993م، 2/399.

(37) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض (ت: 544هـ)، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط1، 1965م، 1/90.

(38) الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (ت: 327هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1271هـ- 1952م، صـ29.

(39) تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، السيوطي، صـ 16.

(40) مالك حياته وعصره وفقهه، محمد أبو زهرة، صـ50.

(41) ينظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر (ت 463هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1387هـ، 5/18.

ولد سنة خمس وستين في حياة ابن عباس[42]، ونشأ في كفالة فاطمة بنت عثمان[43].

حدث عن: أنس بن مالك، وأبي أمامة بن سهل، وعروة، وابن المسيب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، ومرقع بن صيفي، والشعبي، وسليمان بن عبد الرحمن، وغيرهم[44].

حدث عنه: ابنه عبد الرحمن, وموسى بن عقبة, وصالح بن كيسان, وهشام بن عروة, وابن إسحاق, ومالك, والليث, وسفيان الثوري, وسفيان بن عيينة, وغيرهم[45].

نال عدة شهادات بالعلم وسعته منها: قال عنه الإمام أبو حنيفة- رحمه الله- أنه أفقه أهل بلده[46]، وقال الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله-" أبو الزناد ثقة"[47]، وكان سفيان الثوري- رحمه الله- يرى أنه أمير المؤمنين في الحديث[48]، وعدّه الإمام الذهبي من الطبقة الرابعة من الحفاظ، وهي الطبقة الثالثة من التابعين، وهم طبقة الزهري وقتاده وأبي الزبير[49]، وعدّه ابن سعد في الطبقة الرابعة من التابعين من أهل المدينة[50].

وفاته: مات أبو الزناد فجأة في مغتسله ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان سنة ثلاثين ومائة، وقيل: توفي أبو الزناد سنة إحدى وثلاثين ومائة[51].

رابعًا- الأعرج:

هو الإمام الحافظ، الحجة، المقرئ، أبو داود عبد الرحمن بن هرمز المدني الأعرج[52]، مولى ربيعة بْن الحارث بن عبد المطلب، ويُقال: مولى مُحَمَّد بْن ربيعة[53].

(42) سير أعلام النبلاء، 5/ 445.

(43) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: 597هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ- 1992م، 7/ 290.

(44) ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 5/445.

(45) ينظر: سير أعلام النبلاء، 6/161؛ وتهذيب الكمال، المزي، 478-14/477.

(46) تهذيب التهذيب، ابن حجر/ 5/204.

(47) الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 5/49؛ وتهذيب التهذيب، 5/ 204.

(48) تذكرة الحفاظ، الذهبي، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1، 1419هـ- 1998م، 1/ 101؛ والأعلام، الزركلي،(ت: 1396هـ)، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، 4/86.

(49) المعين في طبقات المحدثين، الذهبي (ت: 748هـ)، تحقيق: همام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان، عمان – الأردن، ط1، 1404هـ، صـ 46.

(50) الطبقات الكبرى، ابن سعد (ت: 230هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1410هـ - 1990م، 5/348.

(51) التمهيد، ابن عبد البر، 18 /8؛ وتهذيب الكمال، 5/ 140؛ وتاريخ دمشق، ابن عساكر، 28/49؛ وسير أعلام النبلاء، الذهبي، 5/450.

(52) سير أعلام النبلاء، الذهبي، 5/ 69.

(53) الطبقات الكبرى، ابن سعد، 5/ 216؛ وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي، 17/468.

سَمِعَ: أبا هريرة، وأبا سعيدٍ الخُدْري، وعبدَ الله بنَ بُحَينة، وعِدَّة، وحدَّث عنه: الزُّهْرِيُّ، وأبو الزِّناد، وصالحُ بنُ كَيسان، ويحيى بنُ سعيد، وابنُ لَهِيعة، وغيرُهم[54]، أخذ القراءة عرضا عن: أبي هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة[55]، وكان ابن هرمز يكتب المصاحف[56]، سافر في آخر عمره إلى مصر، ومات مرابطا بالإسكندرية سنةَ سبعَ عشرةَ ومئة[57].

قال فيه الحافظ:" ثقة ثبت عالم من الثالثة"[58]، وذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من أهل المدينة[59]، وقال:" كان ثقة، كثير الحديث"[60] " وقد وثّقه علي بن المديني والعجلي وأبو زرعة الرازي وابن خراش، كما روى له الجماعة[61].

خامسًا- أبو هريرة:

أُختلِف في اسم أبي هريرة -رضي الله عنه- قبل إسلامه على أقوال، فقيل: عبد شمس بن صخر، وقيل: عبد عمرو بن عبد غنم، وقيل غير ذلك، كما اختلف في اسمه بعد إسلامه على أقوال أيضًا، أشهرها: عبد الرحمن بن صخر، فقد رُوي عنه أنه قال: " كَانَ اسْمِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَبْدَ شَمْسِ بْنِ صَخْرٍ، فَسُمِّيتُ فِي الْإِسْلَامِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ"[62]، وروي عنه في سبب تكنيته بذلك أنه قال: "كنت أرعى غنم أهلي، وكانت لي هريرة صغيرة، فكنت أضعها بالليل في شجر، فإذا كان النهار ذهبت بها معي، فلعبت بها فكنون أبا هريرة"[63].

قدم المدينة ورسول الله -ﷺ- بخيبر، فأسلم سنة 7هـ، ولزم النبي -ﷺ-، وكان أكثر الصحابة حفظًا للحديث ورواية له، وولي إمرة المدينة مدة، وتوفي فيها سنة تسع وخمسين[64].

وروى عنه: ثمانمائة نفس أو أكثر منهم: وأنس بن مالك، والحسن البصري، وحفص بن عاصم، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن يسار، وشريح بن هانئ، والشعبي، وابن عمر، وعبد الرَّحمن الأعرج، وعروة بن الزبير، وعطاء بن أبي

(54) طبقات علماء الحديث، محمد بن أحمد الدمشقي الصالحي (ت: 744 هـ)، تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط2، 1417هـ، 1/170؛ والجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 5/297.

(55) ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 5/69.

(56) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي، 17/471.

(57) ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 5/70.

(58) تقريب التهذيب 352.

(59) تهذيب الكمال، المزي، 17/470.

(60) الطبقات الكبرى، ابن سعد، 5/216.

(61) ينظر: تهذيب الكمال، 17/471.

(62) المستدرك على الصحيحين، الحاكم (ت: 405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1411هـ – 1990م، 5/509؛ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1415هـ، 7/349.

(63) المستدرك، الحاكم، 3/506؛ والسنن، الترمذي، 5/ 350.

(64) ينظر: حلية الأولياء لأبي نُعَيْم الأصبهاني، 1/ 376.

رباح، وعكرمة مولى ابن عباس- رضي الله عنهم- وآخرون كثيرون[65].

مروياته:

كان أبو هريرة -ﷺ- عنه من أحفظ أصحاب النبي-ﷺ- فقدُروي عنه نحو خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثا مسندا[66].

شهادة أهل العلم له بالحفظ:

كان – رحمه الله – من أحفظ الصحابة رضيّ الله عنهم وأكثرهم حديثًا، روي عَنْ ابْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما-، أَنَّهُ قَالَ: لِأَبِي هُرَيْرَةَ: " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْتَ كُنْتَ أَلْزَمَنَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَحْفَظَنَا لِحَدِيثِهِ"[67]، وقال طلحة بن عبيد اللَّه:" لا أشك أن أبا هريرة سمع من رسول اللَّه -ﷺ- ما لم نسمع"[68]، وروى البيهقي وغيره عن الشافعي-رحمه الله- قال:" أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره"[69]، وقال البخاريّ:" روى عنه نحو الثمانمائة من أهل العلم، وكان أحفظ من روى الحديث في عصره"[70]، وقال الحاكم:" قَدْ تَحَرَّيْتُ الِابْتِدَاءَ مِنْ فَضَائِلِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِحِفْظِهِ لِحَدِيثِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَهَادَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُ بِذَلِكَ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ حَفْظَ الْحَدِيثِ مِنْ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَإِلَى عَصْرِنَا هَذَا فَإِنَّهُمْ مَنْ أَتْبَاعِهِ وَشِيعَتِهِ إِنَّ هُوَ أَوَّلُهُمْ وَأَحَقُّهُمْ بِاسْمِ الْحِفْظِ"[71].

وفاته: تعددت الروايات في تاريخ وفاة أبي هريرة، فقيل: توفي سنة سبع وخمسين، وقيل: مات سنة ثمان وخمسين، وقيل: سنة تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة[72].

المطلب الثالث: الحكم على الحديث.

مما لاشك فيه عند أهل العلم عامة، وعند أهل الحديث خاصة أن هذا الحديث صحيح سنداً ومتنًا، سيما وأنه قد أخرجه أكابر علماء الحديث؛ كالبخاري ومسلم في صحيحهما، والإمام مالك في موطئه، والإمام أحمد في مسنده، وأخرجه الترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه، والبزار، والدرامي، وأبي يعلي وغيرهم.

(65) ينظر: تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، 10/424.

(66) سير أعلام النبلاء، الذهبي، 2/632.

(67) سنن الترمذي، الترمذي، 5/ 684.

(68) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، 7/357.

(69) تذكرة الحفاظ، الذهبي، 1/ 30.

(70) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، 7/353.

(71) المستدرك، الحاكم، 3/512.

(72) ينظر: تهذيب الكمال، المزي، 34/378.

ومن العلماء الذين قالوا بصحة الحديث:

1 - الإمام الترمذي في سننه[73].

2 - أبو نعيم أحمد الأصبهاني(430هـــ)[74].

3 - قال ابن عبد البر في تعليقه على هذا الحديث: " ... وهما إسنادان صحيحان لمالك أحدهما في الموطأ، وهو حديث أبي الزناد، وروي عن أبي هريرة وغيره من وجوه كثيرة، وحديث أبي الزناد محفوظ عن ثقات أصحاب أبي الزناد، منهم ورقاء بن عمر اليشكري، ومالك بن أنس، وجماعة"[75].

4 - الإمام البغوي(ت:516هـــ)[76].

5 - محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي (ت:543هـ)[77].

6 - المُظْهِري (ت: 727 هـ)[78].

7 - محمَّدُ بنُ عزِّ الدِّينِ عبدِ اللطيف الكَرمانيّ، المشهور بـ ابن المَلَك (ت: 854 هـ)[79].

8 - الألباني(ت:1420هـــ)- رحمه الله-[80].

9 - محمد عبد الرحمن المباركفوري (ت:1353هـــ)[81].

10 - أحمد محمد شاكر(ت:1377هـــ)[82].

11 - شعيب الأرنؤوط(ت: 1438 هـ)[83].

12 - حسين سليم أسد(ت: 1443هـــ)[84].

---

(73) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، بَابُ مَا جَاءَ إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ، حديث رقم(3602)، قال فيه هذا حديث حسن صحيح.

(74) المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ قَوْلِهِ -ﷺ- لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُو بِهَا، حديث رقم(492)، قال فيه صَحِيح وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ؛ وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، 7/363.

(75) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، 19/63.

(76) شرح السنة، البغوي، المكتب الإسلامي، دمشق- بيروت، 1403هـ - 1983م، 5/5، قال فيه هذا حديث متفق على صحته.

(77) المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك، محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي (ت: 543هـ)، دَار الغَرب الإسلامي، ط1، 1428هـ - 2007م، 3/435، قال فيه متَّفَقٌ عليه في صِحَّتِهِ ومَتْنِهِ.

(78) المفاتيح في شرح المصابيح، الحسين بن محمود المظْهِري (ت: 727 هـ)، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر- وزارة الأوقاف الكويتية، ط1، 1433هـ- 2012م، 3/117.

(79) شرح مصابيح السنة، الإمام البغوي، 3/67.

(80) ينظر: صحيح الجامع الصغير وزياداته، الألباني(ت: 1420هـ)، المكتب الإسلامي، د- ت،1/431، قال فيه صَحِيح؛ وصَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، محمد ناصر الدين الألباني محمد ناصر الدين الألباني، مكتَبة المَعارف لِلنَّشْرِ والتوزيْع، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، 1421هـ - 2000م، 3/450.

(81) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري(ت: 1353هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، د-ت، 10/45، قال فيه هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

(82) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل (ت: 241هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ- 2001م، 8/201.

(83) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، 13/ 141، قال فيه إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(84) مسند أبي يعلى، أبو يعلى، 5/372، قال فيه إسناده صحيح؛ ومسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، الدارمي، 3/ 1850.

ومـمّ سـبق يمكننـا القـول أن هنـاك إجمـاع مـن أهـل العلـم بصفـة عامـة، وأهـل الحديـث بصفـة خاصـة عـلى صحـة هـذا الحديـث متنـا وسـندًا.

المبحـث الثانـي: بيـان معنـى الحديـث، ومـا يتعلـق بـه مـن مباحـث عقديـة، وفيـه ثلاثـة مطالـب عـلى النحـو الآتـي:

المطلـب الأول: مفهـوم الشـفاعة في اللغـة والاصطـلاح، وبيـان معنـى الحديـث كمـا ورد في صحيـح البخـاري.

أولًا- معنى الشفاعة لغة واصطلاحًا:

أ- الشفاعة لغة:

الشـفاعة لغـة مأخـوذة مـن الشـفع الـذي هو ضـد الوتـر، وهـو جعـل الفـرد زوجًا، يقـال: كان وتـراً فَشَـفَعهُ مـن بـاب قطـع، والشـفاعة الدُّعـاءُ والشَّـفاعةُ كلام الشَّـفِيعِ لِلْمَلِـكِ في حاجـة يسـأَلُها لغـيره، وشَـفَعَ إِليـه في معنـى طَلَـبَ إِليـه، والشَّـافِعُ الطالـبُ لغـيره يَتَشَـفَّعُ بـه إِلى المطلـوب يقـال تَشَـفَّعْتُ بفـلان إِلى فـلان فَشَـفَّعَني فيـه.[85] وجـاء في تـاج العـروس: الشَّـفاعَة هـي: كلامُ الشَّـفيع للمَلِـكِ في حاجـةٍ يسـأَلُها لغـيرِه، وَشَـفَع إِليـه: في معنـى طَلَـبَ إِليـه .. الشَّـفاعَة: التَّجـاوُزُ عـن الذَّنـوبِ والجرائـم".[86]

تبـين لنـا ممـا سـبق أن معنـى الشـفاعة في اللغـة يـدور حـول الدعـاء، والطلـب، والتجـاوز عـن الذنـوب.

ب- الشفاعة اصطلاحًا:

هي سؤال فعل الخير، وترك الضّرر عن الغير لأجل الغير على سبيل التضرّع [87]

قال الجرجاني: "هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجناية في حقه"[88].

وعرفها ابن الأثير بقوله: "هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم" [89].

وقيل هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة[90].

ومـن التعريفـات السـابقة يتضـح لنـا أن معنـى الشـفاعة في الاصطـلاح يـدور حـول جلـب الخـير ودفـع البـلاء.

ثانيًا- معنى الحديث كما ورد في صحيح البخاري:

قـال البخـاري- رحمـه اللـه-: حَدَّثَنَـا إِسْـمَاعِيلُ، قَـالَ: حَدَّثَنِـي مَالِـكٌ، عَـنْ أَبِـي الزِّنَـادِ، عَـنِ الأَعْـرَجِ، عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَـالَ:

(85) ينظر: لسان العرب، ابن منظور(ت: 711هـ)، دار صادر, بيروت، ط3 - 1414هـ، 8/183.

(86) ينظر: تاج العروس، محمد المرتضى الزبيدي، المطبعة الخيرية، القاهرة، ط1، 1306هـ، 1/5348.

(87) موسـوعة كشـاف اصطلاحـات الفنـون والعلـوم، التهانـوي (ت: 1158هـ)، تحقيـق: عـلي دحـروج، مكتبـة لبنـان- بـيروت، ط1- 1996م، 1/1034.

(88) التعريفـات، الجرجانـي (ت: 816هـ)، تحقيـق: جماعـة مـن العلمـاء، دار الكتـب العلميـة بـيروت – لبنـان، ط1، 1403هـ -1983م، صـ127؛ والنهايـة في غريـب الحديـث، ابـن الأثـير، تحقيـق: طاهـر أحمـد الـزاوى - محمـود محمـد الطناحـي، المكتبـة العلمية - بـيروت، 1399هـ، 2/485.

(89) النهاية في غريب الحديث، 2/ 485.

(90) شرح العقيـدة الواسـطية محمـد بـن صالـح العثيمـين، خـرج أحاديثـه واعتنـى بـه: سـعد بـن فـواز الصميـل، دار ابـن الجـوزي للنـشر والتوزيـع، المملكـة العربيـة السـعودية، ط16، 1421هـ، 2/168.

"لِـكُلِّ نَبِـيٍّ دَعْـوَةٌ مُسْـتَجَابَةٌ يَدْعُـو بِهَـا، وَأُرِيـدُ أَنْ أَخْتَبِـئَ دَعْوَتِـي شَـفَاعَةً لِأُمَّتِـي فِي الآخِـرَةِ"[91].

المعنى العام:

يكشـف هـذا الحديـث عـن مـدى حـرص الرسـول -ﷺ- عـلى خـير أمتـه وسـعادتها في الدنيـا والآخـرة، حيـث أنـه يدخـر دعوتـه المسـتجابة، وشـفاعته العظمـى التـي وعـده اللـه بهـا إلى الآخـرة؛ حتـى يشـفع للمذنبـين مـن أمتـه شـفاعة كريمـة يـرضي بهـا قلـب الرسـول الـرؤوف الرحيـم[92].

قـال القرطبـي:" معنـاه: أنهـم عليهـم السـلام لهـم دعـوة في أممهـم هـم عـلى يقـين في إجابتهـا بمـا أعلمهـم اللـه تعـالى، ثـم خيّرهـم في تعيينهـا، ومـا عداهـا مـن دعواتهـم يرجـون إجابتهـا، وإلا فكـم قـد وقـع لهـم مـن الدعـوات المجابـة؟ وخصوصًـا نبينـا -ﷺ-، فقـد دعـا لأمتـه بـألا يسـلط عليهـم عـدوا مـن غيرهـم، وألا يهلكهـم بسـنة عامـة فأعطيهمـا، وقـد منـع أيضًـا بعـض مـا دعـا لهـم بـه؛ إذ قـد دعـا ألا يجعـل بأسـهم بينهـم فمنعهـا، وهـذا يحقـق مـا قلنـاه مـن أنّهـم في دعواتهـم راجـون الإجابة، بخـلاف هـذه الدعـوة الواحـدة "[93].

وهـذا مـن حسـن نظـره - عليـه أفضـل الصـلاة والسـلام -؛ حيـث اختـار أن تكـون دعوتـه فيمـا ينبغـي، ومـن فضـل كرمـه أن جعلهـا لأمتـه شـفاعة للمذنبـين، فكأنـه -عليـه السـلام- هيـأ النجائـب للمنقطعـين؛ ليلحقهـم بالسـابقين[94].

وفي هـذا الحديـث بيـان فضيلـة نبينـا -ﷺ- عـلى سـائر الأنبيـاء عليهـم السـلام حـين آثـر أمتـه بمـا خصّـه اللـه بـه مـن إجابـة الدعـوة بالشـفاعة لهـم، ولـم يجعـل ذلـك في خاصّـة نفسـه وأهـل بيتـه[95].

ثالثًا- استشكال الحديث وبيان الإشكال:

استشـكل ظاهـر الحديـث بمـا وقـع لكثـير مـن الأنبيـاء مـن الدعـوات المجابـة، ولا سـيما نبينـا محمـد-ﷺ- وظاهـره أن لـكل نبـي دعـوة مسـتجابة فقـط[96]، وقـد قـال اللـه تعـالى للنـاس كافـة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافـر: 60] فعـم كل الدعـاء، وهذا وعـد مـن اللـه لعبـاده، وهـو لا يخلـف الميعـاد، وإنمـا خـصّ كل نبـي بدعـوة واحـدة

(91) صحيح البخاري، من كتاب الدعوات، بَابٌ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، حديث رقم(6304).

(92) المنهل الحديث في شرح الحديث، موسى شاهين لاشين، دار المدار الإسلامي، ط1، 2002م، 4/ 267.

(93) المفهـم لمـا أشـكل مـن تلخيـص كتـاب مسـلم، القرطبـي (ت: 656هـ)، حققـه وعلـق عليـه وقـدم لـه: محيـي الديـن ديـب ميسـتو، وآخـرون، دار ابـن كثـير، دمشـق- بـيروت، ط1، 1417هـ - 1996م، 1/ 453.

(94) التوضيـح لـشرح الجامـع الصحيـح، ابـن الملقـن (ت: 804هـ)، تحقيـق: دار الفـلاح للبحـث العلمـي وتحقيق الـتراث، دار النوادر، دمشـق – سـوريا، ط1، 1429هـ - 2008م، 29/ 177.

(95) شرح صحيـح البخـاري، ابـن بطـال، (ت: 449هـ)، تحقيـق: أبـو تميـم يـاسر بـن إبراهيـم، مكتبـة الرشـد - السـعودية، الرياض، ط2، 1423هـ - 2003م، 10/ 75.

(96) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، 11/ 96- 97.

مستجابة، فأين فضل درجة النبوة ؟[97].

أقول أهل العلم في هذا الإشكال:

اختلف العلماء في الجواب على هذا الإشكال على أقوال أهمها:

إن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها، وما عدا ذلك من دعواتهم فهو على رجاء الإجابة، وقيل معنى قوله" لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ " أي أفضل دعواته ولهم دعوات أخرى، وقيل لكل منهم دعوة عامة مستجابة في أمته إما بإهلاكهم وإما بنجاتهم، وأما الدعوات الخاصة فمنها ما يستجاب ومنها مالا يستجاب، وقيل لكل منهم دعوة تخصه لدنياه أو لنفسه كقول نوح:] لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ([نوح: 26] وقول زكريا:] فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي ([مريم: -5 6] وقول سليمان:]وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي([ص: 35] حكاه بن التين، وقال بعض شراح المصابيح ... المراد بهذا الحديث أن كل نبي دعا على أمته بالإهلاك إلا أنا فلم أدع فأعطيت الشفاعة عوضا عن ذلك للصبر على أذاهم والمراد بالأمة أمة الدعوة لا أمة الإجابة[98].

وأجيب عن هذا الإشكال: بأن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها وما عدا ذلك من دعواتهم فهو على رجاء الإجابة "[99].

وَرَجَّحَ النَّوَوِيُّ أَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُتَيَقَّنَةُ الْإِجَابَةِ وَعَلَى يَقِينٍ مِنْ إِجَابَتِهَا وَأَمَّا بَاقِي دَعَوَاتِهِمْ فَهُمْ عَلَى طَمَعٍ مِنْ إِجَابَتِهَا وَبَعْضُهَا يُجَابُ وَبَعْضُهَا لَا يُجَابُ"[100].

قال ابن بطال رحمه الله:" وليس قوله: " "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مستجابةٌ". مما يدل أنه لا يستجاب للأنبياء غير دعوة واحدة، وقد ثبت عن النبي - ﷺ- أنه أجيبت دعوته في المشركين حين دعا عليهم بسبع كسبع يوسف، ودعا على صناديد قريش المعاندين له، فقتلوا يوم بدر"[101].

المطلب الثاني- مذهب أهل السنة في الشفاعة:

إن أهل السنة والجماعة يثبتون الشفاعة بأنواعها الثمانية، ومنها الشفاعة لأهل الكبائر من أمة النبي- ﷺ -، ويردون قول المعتزلة المنكرين لها[102].

يقول أبو الحسن الأشعري: "وأجمعوا – أي أهل السنة - على أن شفاعة النبي -ﷺ- لأهل الكبائر من أمته، وعلى أنه يخرج من النار قومًا من أمته بعد ما

(97) شرح صحيح البخاري، 10/75.

(98) فتح الباري شرح صحيح البخاري، 11/ 96- 97.

(99) فتح الباري شرح صحيح البخاري، 11/ 96- 97؛ وفتح المنعم شرح صحيح مسلم موسى شاهين لاشين، دار الشروق، ط2، 1423هـ- 2002م، 2/32؛ والكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني (ت: 786هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط2، 1401هـ- 1981م، 22/123.

(100) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط2، 1392هـ، 3/75.

(101) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، 10/75.

(102) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، محمد ابن ابي العز الحنفي، تحقيق: أحمد شاكر، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط1، 1418هـ، 1/282-290.

صـاروا حممـاً"[103]

ويقـول ابـن قدامـة المقـدسي:" ويشـفع نبينـا -ﷺ- فيمـن دخـل النـار مـن أمتـه مـن أهـل الكبائـر، فيخرجـون بشـفاعته بعدمـا احترقـوا وصـاروا فحمـا وحممـا فيدخلـون الجنـة بشـفاعته ولسـائر الأنبيـاء والمؤمنـين والملائكـة شـفاعات" [104].

ويقـول الإمـام ابـن تيميـة: " ومذهـب سـلف الأمـة وأئمتهـا، وسـائر أهـل السـنة والجماعـة إثبـات الشـفاعة لأهـل الكبائـر، والقـول بأنَّـه يخـرج مـن النـار مـن في قلبـه مثقـال ذرة مـن إيمـان".[105]

- أدلة إثبات الشفاعة عند أهل السنة والجماعة:

اسـتدل أهـل السـنة والجماعـة عـلى عـدم كفـر مرتكـب الكبـيرة، وعـدم خلـوده في النـار إن دخلهـا، وعـلى ثبـوت الشـفاعة بنصـوص مـن القـرآن الكريـم، والحديـث الشريـف عـلى النحـو الآتـي:

أولًا- ثبوت الشفاعة بالقرآن الكريم:

اسـتدل أهـل السـنة بالعديـد مـن الآيـات القرآنيـة للدلالـة عـلى إثبـات الشـفاعة يـوم القيامـة منهـا:

1 - قولـه تعـالى: ﴿يَعْلَـمُ مَـا بَيْـنَ أَيْدِيهِـمْ وَمَـا خَلْفَهُـمْ وَلَا يَشْـفَعُونَ إِلَّا لِمَـنِ ارْتَضَى وَهُـمْ مِنْ خَشْـيَتِهِ مُشْـفِقُونَ﴾ [سـورة الأنبيـاء آية 28].

هـذه الآيـة مـن أقـوى الدلائـل في إثبـات الشـفاعة لأهـل الكبائـر، وهـو أن مـن قـال لا إلـه إلا اللـه فقـد ارتضـاه اللـه في ذلـك، ومتـى صـدق عليـه أنـه ارتضـاه اللـه في ذلـك (فقـد صـدق عليـه أنـه ارتضـاه اللـه)

وإذا ثبت الله سبحانه قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية[106].

2 - يقـول تعـالى: ﴿ يوْمَئِـذٍ لا تَنْفـعُ الشَّـفاعَةُ إلاّ لِمَـنْ أذِنَ لَـهُ الرحمـنُ ورَضِيَ لَـهُ قَـوْلاً﴾ [سـورة طه آيـة 109].

قـال القـاضي عيـاض -رحمـه اللـه- مذهـب أهـل السـنة جـواز الشـفاعة عقـلا ووجوبهـا سـمعًا بصريـح قولـه تعـالى: ﴿ يوْمَئِـذٍ لا تَنْفـعُ الشَّـفاعَةُ إلاّ لِمَـنْ أذِنَ لَـهُ الرحمـنُ ورَضِيَ لَـهُ قَـوْلاً﴾ وقولـه ﴿وَلَا يَشْـفَعُونَ إِلَّا لِمَـنِ ارْتَضَى﴾ وأمثالهمـا وبخـبر الصـادق -ﷺ-، وقـد جـاءت الآثـار التـي بلغـت بمجموعهـا التواتـر بصحـة الشـفاعة في الآخـرة لمذنبـي المؤمنـين، وأجمـع السـلف والخلـف ومـن بعدهـم مـن أهـل السـنة عليهـا[107].

(103) رسـالة إلى أهـل الثغـر، أبـو الحسـن الأشـعري أبـو الحسـن الأشـعري (ت: 324هـ)، تحقيـق: عبـد اللـه شـاكر محمـد الجنيـدي، عمـادة البحـث العلمـي بالجامعـة الإسـلامية، المدينـة المنـورة، المملكـة العربيـة السـعودية، 1413هـ، صـ164.

(104) لمعـة الاعتقـاد الهـادي إلى سـبيل الرشـاد، ابـن قدامـة المقـدسي، تحقيـق: بـدر بـن عبـد اللـه البـدر، الـدار السـلفية – الكويـت، ط1، 1406هـ، صـ134.

(105) مجمـوع الفتـاوى، ابـن تيميـة (ت: 728هـ)، تحقيـق: عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن قاسـم، مجمـع الملـك فهـد لطباعة المصحـف الشريـف، المدينـة النبويـة، المملكة العربيـة السـعودية، 1416هـ-1995م، 1/116.

(106) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي(ت: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3- 1420هـ، 22/ 136.

(107) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، 3/35.

3 - قال تعالى:﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء آية145].

هذه الآية تدل على إثبات الشفاعة للفساق من المسلمين؛ لأنه -ﷺ- خص المنافقين بهذا التهديد، ولو كان ذلك حاصلا لغير المنافقين، لم يكن ذلك زجرا عن النفاق[108].

ثانيًا- أدلة إثبات الشفاعة من الحديث الشريف:

استدل أهل السنة والجماعة بعدة أحاديث على ثبوت الشفاعة في الآخرة، يقول الإمام ابن تيمية- رحمه الله-: " فقد تواترت الأحاديث عن النبي -ﷺ- في أنه يخرج أقوام من النار بعدما دخلوها، وأن النبي -ﷺ- يشفع في أقوام دخلوا النار، وهذه الأحاديث حجة على الوعيدية الذين يقولون: من دخلها من أهل التوحيد لم يخرج منها"[109].

ويقول الإمام أبو الحسن الأشعري- رحمه الله-: " إن الله عز وجل يخرج قومًا من النار بعد أن امتحشوا بشفاعة رسول الله -ﷺ- تصديقا لما جاءت به الروايات عن رسول الله -ﷺ-".[110]

ومن الأحاديث التي تثبت الشفاعة صراحة للمذنبين من أمة رسول الله -ﷺ-:

1 - حديث جابر بن عبد الله قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ:" إِنَّ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي"[111].

2 - حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ شُفِّعْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ أَدْخِلِ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ فَيَدْخُلُونَ، ثُمَّ أَقُولُ أَدْخِلِ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى شَيْءٍ "، فَقَالَ أَنَسٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" [112].

3 - عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»[113].

4 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ

(108) مفاتيح الغيب، 11/251.

(109) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، 7/486.

(110) الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري (ت: 324هـ)، تحقيق: فوقية حسين محمود، دار الأنصار- القاهرة، ط1، 1397هـ، ص17.

(111) سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، حديث رقم(4452).

(112) صحيح البخاري كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم حديث رقم (6509).

(113) صحيح البخاري كتاب الإيمان، بَابُ زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ، حديث رقم (44).

فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدْ اسْوَدُّوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَا أَوْ الْحَيَاةِ شَكَّ مَالِكٌ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً"[114].

المطلب الثالث- مذهب النافين للشفاعة لأهل الكبائر وأدلتهم ومناقشتها.

ذهب المعتزلة والخوارج وغيرهم إلى القول بنفي الشفاعة لأهل الكبائر، وسوف يقتصر حديثنا في هذا المبحث على موقف المعتزلة فقط خشية الإطالة.

فالمعتزلة ينكرون شفاعة النبي -ﷺ- وغيره فيمن استحق النار من أهل الكبائر؛ لأن إثبات الشفاعة للفساق عندهم ينافي مبدأ الوعيد الذي هو أصل من أصولهم الخمسة التي يقوم عليها مذهبهم.

يقول القاضي عبد الجبار الهمذاني- من كبار المعتزلة – " إن الشفاعة ثابتة للمؤمنين دون الفساق من أهل الصلاة".[115]

ويقول ابن تيمية:" إن الخوارج والمعتزلة يقولون: " إن من دخل النار لا يخرج منها بل يخلد فيها وينكرون شفاعة محمد -ﷺ- في أهل الكبائر قبل الدخول وبعده، وينكرون خروج أحد من النار"[116].

واستدل المعتزلة على مذهبهم بعدة بأدلة نقلية، وأخرى عقلية على النحو الآتي:

أولاً- أدلتهم من القرآن الكريم:

استدل المعتزلة بعدة أدلة من القرآن الكريم على نفي الشفاعة للمسلم العاصي، وذلك لفهمهم الخاطئ لنصوص القرآن الكريم، منها:

1 – قال تعالى:﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [سورة البقرة:48].

يقول القاضي عبد الجبار:" الآية تدل على أن من استحق العقاب لا يشفع النبي -ﷺ- له، ولا ينصره؛ لأن الآية وردت في صفة اليوم"[117]

ويقول الزمخشري عند تفسير هذه الآية:" فإن قلت: هل فيه دليل على أنّ الشفاعة لا تقبل للعصاة؟ قلت: نعم، لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع فعلم أنها لا تقبل للعصاة"[118].

ومّمّ تجدر الإشارة إليه أن استدلال المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر باطل؛ وذلك لأن الشفاعة في الآية الكريمة هي الشفاعة للكافرين.

(114) صحيح البخاري كتاب الإيمان، بَاب تَفَاضُلِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الْأَعْمَالِ، حديث رقم (22).

(115) شرح الأصول الخمسة، القاضي عبدالجبار، حققه وقدم له: عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة، ط3، 1416هـ-1996م، صـ690.

(116) مجموع الفتاوى الكبرى، ابن تيمية 6/659، 637.

(117) متشابه القرآن، القاضي عبدالجبار(ت: 415هـ)، تحقيق: عدنان محمد زرزور، دار التراث، د – ت،1/90- 91.

(118) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (ت: 538هـ)، دار الكتاب العربي- بيروت، ط3- 1407هـ، 1/136- 137.

يقول القرطبي: "وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى:)وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ(النفس الكافرة لا كل نفس".[119]

ويقول الطبري: قوله تعالى:)وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ(. إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله عز وجل).[120]

ويقول ابن كثير: "قوله تعالى)وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ(يعني من الكافرين، كما قال تعالى:)ما تنفعهم شفاعة الشافعين([سورة المدثر: آية 48]".[121]

ويقول البيضاوي " وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها مخصوصة بالكفار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة، ويؤيده أن الخطاب معهم، والآية نزلت رداً لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم".[122]

ومّما سبق يتبين لنا أن المراد بالشفاعة المنفية في الآية الشفاعة للكفار لا للعصاة؛ وبذلك يبطل استدلال المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر.

2 - قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النَّارِ﴾. [سورة الزمر:19].

يقول القاضي عبد الجبار: " الآية تدل على أن من أخبر الله تعالى أنه يعذبه لا يخرج من النار، فإذا صح أنه أخبر بذلك في الفجار والفساق، فيجب ذلك فيهم...ويدل أيضاً: على أنه صلى الله عليه وسلم لا يشفع لهم؛ لأنه لو شفع لهم لوجب أن يكون منقذاً من النار وقد نفى الله تعالى عنه ذلك"[123].

وتجدر الإشارة أن الآية الكريمة في أهل الكفر والضلال، ولا دلالة فيها على نفي الشفاعة عن صاحب الكبيرة، لأنه ليس ممن حقت عليه كلمة العذاب.

يقول الطبري:")أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ(أفمن وجبت عليه كلمة العذاب في سابق علم ربك يا محمد بكفره"[124].

ويقول محمد سيد طنطاوي:" أفمن وجب عليه العذاب بسبب إصراره على

(119) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964م، 1/379.

(120) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري (ت: 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ- 2000م، 1/33.

(121) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير(ت: 774هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999م، 1/158.

(122) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي (ت: 685هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1418هـ، 1/79.

(123) متشابه القرآن، 2/592.

(124) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، 21/275.

كفره حتى النهاية، أفتستطيع أنت- أيها الرسول الكريم- أن تنقذه من هذا المصير الأليم؟ لا- أيها الرسول الكريم- إنك لا تستطيع ذلك؛ لأن من سبق عليه قضاؤنا بأنه من أهل النار، بسبب استحبابه الكفر على الإيمان لن تستطيع أنت أو غيرك إنقاذه منها[125].

ثانيًا- الأدلة العقلية:

استدل المعتزلة بعدة أدلة عقلية على إنكار الشفاعة لأهل الكبائر منها:

1 - يقول القاضي عبد الجبار:" أليس أن الأمة اتفقت على قولهم: اللهم اجعلنا من أهل الشفاعة، فلو كان الأمر على ما ذكرتموه لكان يجب أن يكون هذا الدعاء دعاء لأن يجعلهم الله تعالى من الفساق، وذلك خلف[126]".

ويرد الإمام القرطبي على بطلان هذه الشبهة قائلًا:" إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول، ويرغب إلى الله في أن تناله لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب، ولا قاسم لله سبحانه بكل ما افترض عليه بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب، ويرجو النجاة، وقال صلى الله عليه وسلم:" لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ" قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:" وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ "[127][128].

2 - يقول القاضي عبد الجبار: "ما قولكم فيمن حلف ليفعل ما يستحق به الشفاعة؟ أليس يلزمه أن يرتكب الكبيرة، ويصير من أهل الفسوق والعصيان؟"[129].

يرد أبو منصور البغدادي هذا الدليل قائلا: "وجوابنا عن هذا السؤال: إن الحالف إن حلف على أن يعمل عملا يستحق به الشفاعة حانث في يمينه؛ لأن من نال الشفاعة في الآخرة فإنما ينالها بفضل من الله تعالى بلا استحقاق، وإن حلف أن يعمل عملا يصير به من أهل الشفاعة أمرنا بأن يعتقد أصولنا في التوحيد والنبوات وأن يجتنب البدع الضالة"[130].

ومّمّ سبق يتبين لنا بطلان أدلة المعتزلة في إنكار الشفاعة؛ لأن النبي-ﷺ- وكذلك أصحابه رضوان الله عليهم، كانوا يصلون الجنازة على المذنب العاصي، وغير المذنب من المسلمين، ولو كان الميت المذنب لا يشفع فيه، ولا ينفعه الدعاء لما كان للصلاة عليه معنى.

(125) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط1، 1998م، 12/ 209.

(126) شرح الأصول الخمسة، صـــ 692.

(127) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (6463).

(128) الجامع لأحكام القرآن، 1/ 380،381.

(129) شرح الأصول الخمسة، صـــ693.

(130) أصول الدين، صـــ 245.

الخاتمة

الحمد لله الذي أعان على إتمام هذا البحث، والصلاة والسلام على إمام المتقين وخاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

لقد منَّ الله- تعالى- عليَّ بإنهاء هذا البحث، وقد خلصت من هذه الدراسة بنتائج أجمل أهمها في النقاط الآتية:

- إن حديث " لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ.." ثابت متنا وسندا.
- ينكر بعض الفرق ومنهم المعتزلة شفاعة النبي -ﷺ- لأهل الكبائر من أمته في خروجهم من النّار؛ لأنّهم يرون أنّ مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار.
- تواترت الأحاديث في شفاعة النبي - ﷺ- في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم، وقد أجمع عليها الصحابة، وأهل السنة قاطبة وبَدَّعُوا من أنكرها.
- أهل السنة والجماعة يقرّون بشفاعة نبيّنا محمد-ﷺ- في أهل الكبائر، ويذهبون إلى أن مرتكب الكبيرة لا يكفر ولا يخلد في النار؛ وذلك لبقاء أصل الإيمان عنده.
- مذهب أهل السنة والجماعة أن الشفاعة ثابتة للرسول -ﷺ- والأنبياء والصالحين والملائكة والشهداء والعلماء.
- للرسول-ﷺ- أكثر من شفاعة, منها: الشفاعة العظمى, وشفاعته لأهل الكبائر, والشفاعة لتخفيف العذاب في جهنم في بعض الأوقات, والشفاعة لرفع الدرجات في الجنة.
- إن إثبات الشفاعة لا ينافي علم الله -ﷻ- المحيط بكل شيء، فهي تكريم للشافع ورحمة للمشفوع له.
- بعض الأعمال تشفع لصاحبها يوم القيامة، كشفاعة كلمة التوحيد، وشفاعة الانتماء لأمة محمد - ﷺ- وشفاعة الصيام والقرآن... وغيرها.

التوصيات:

- الاعتناء بمثل هذه الأبحاث التي تدفع الشبهات المثارة حول عقيدة أهل السنة والجماعة.
- يوصي الباحث بالاهتمام بالأحاديث الواردة في الشفاعة، ودراستها دراسة حديثية عقائدية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص.
1. الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري (ت: 324هـ)، تحقيق: فوقية حسين محمود، دار الأنصار- القاهرة، ط1، 1397هـ.
2. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1415هـ.
3. الأعلام، الزركلي(ت: 1396هـ)، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.
4. الأنساب، أبي سعيد عبد الكريم السمعاني(ت: 562هـ)، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، 1998م.
5. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي (ت: 685هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1418هـ.
6. البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، محمد بن علي بن آدم بن موسى، دار ابن الجوزي، ط1، 1436هـ.
7. تاج العروس، محمد المرتضى الزبيدي، المطبعة الخيرية، القاهرة، ط1، 1306هـ.
8. تاريخ دمشق، ابن عساكر (ت: 571هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415هـ - 1995م.
9. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن المباركفورى (ت: 1353هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، د- ت.
10. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، شمس الدين السخاوي (ت: 902هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1414هـ- 1993م.
11. تذكرة الحفاظ، الذهبي، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1، 1419هـ- 1998م.
12. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض (ت: 544هـ)، تحقيق: ابن تاويت الطنجي،
13. مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط1، 1965م.
14. تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، جلال الدين السيوطي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1431هـ-2010-م.
15. التعديل والتجريح، سليمان بن خلف بن سعد الباجي (ت474)، تحقيق: أبو لبابة حسين، دار اللواء للنشر والتوزيع – الرياض، ط1، 1406هـ- 1986م.
16. التعريفات، الجرجاني (ت: 816هـ)، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط1، 1403هـ 1983-م.
17. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ت: 774هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999م.
18. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط1، 1998م.
19. تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ)، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد- سوريا، ط1، 1406هـ - 1986م.
20. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر (ت 463هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1387هـ.
21. تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، شمس الدين الذهبي (ت: 748 هـ)، تحقيق: غنيم عباس غنيم - مجدي السيد أمين، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط1، 1425هـ- 2004م.
22. تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (ت852)، دار الفكر بيروت- لبنان، ط1، 1404هـ- 1984م.
23. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي (ت: 742هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1، 1400هـ - 1980م.

24. التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن (ت: 804هـ)، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، دمشق – سوريا، ط1، 1429هـ– 2008م.
25. الثقات، ابن حبان (ت: 354هـ)، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، ط1، 1395هـ 1975-هـ.
26. جامع البيان في تأويل القرآن " تفسير الطبري"، ابن جرير الطبري (ت: 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ– 2000م.
27. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964م.
28. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (ت: 327هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1271هـ– 1952م.
29. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني (ت: 430هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، 1409هـ.
30. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي اليعمري(ت 799هـ) تحقيق وتعليق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، د – ت.
31. سنن ابن ماجه، ابن ماجة (ت: 273هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ– 2009م.
32. سنن الترمذي، الترمذي (ت: 279هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط2، 1395هـ - 1975م.
33. السنن الكبرى، النسائي (ت: 303هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1، 1421هـ - 2001م.
34. سير أعلام النبلاء، الذهبي (ت: 748هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ 1985-م.
35. شرح الأصول الخمسة، القاضي عبدالجبار، حققه وقدم له: عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة، ط3، 1416هـ– 1996م.
36. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، الزرقاني، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ط1، 1424هـ - 2003م.
37. شرح السنة، البغوي، المكتب الإسلامي، دمشق- بيروت، 1403هـ - 1983م.
38. شرح العقيدة الطحاوية، محمد ابن ابي العز الحنفي، تحقيق: أحمد شاكر، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط1، 1418هـ.
39. شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط16، 1421هـ
40. شرح صحيح البخارى، ابن بطال، (ت: 449هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط2، 1423هـ - 2003م.
41. شرح مصابيح السنة، البغوي(ت: 854 هـ)، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، إدارة الثقافة الإسلامية، 1433هـ– 2012م.
42. صحيح ابن حبان، محمد بن حبان(ت: 354هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط2، 1414هـ - 1993م.
43. صحيح البخاري، البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ
44. صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، 1421هـ - 2000م.
45. صحيح الجامع الصغير وزياداته، الألباني (ت: 1420هـ)، المكتب الإسلامي، د– ت.
46. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي

– بيروت، د– ت.
47. الضعفاء والمتروكين، ابن الجوزي (ت: 597 هـ)، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، ط1، 1406هـ.
48. الطبقات الكبرى، ابن سعد (ت: 230هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1410 هـ – 1990م.
49. طبقات علماء الحديث، محمد بن أحمد الدمشقي الصالحي (ت: 744 هـ)، تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط2، 1417هـ.
50. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة – بيروت، 1379م.
51. فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لاشين، دار الشروق، ط2، 1423هـ – 2002م.
52. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني (ت: 786هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، ط2، 1401هـ– 1981م.
53. الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي الجرجاني (ت: 365هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الكتب العلمية – بيروت– لبنان، ط1، 1418هـ1997م.
54. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (ت: 538هـ)، دار الكتاب العربي– بيروت، ط3 – 1407هـ.
55. لسان العرب، ابن منظور(ت: 711هـ)، دار صادر, بيروت، ط3 – 1414هـ.
56. لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، الدار السلفية – الكويت، ط1، 1406هـ.
57. مالك حياته وعصره وفقهه، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 1952م.
58. متشابه القرآن، القاضي عبدالجبار(ت: 415هـ)، تحقيق: عدنان زرزور، دار التراث، د – ت.
59. مجموع الفتاوى، ابن تيمية (ت: 728هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ1995–م.
60. المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك، محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي (ت: 543هـ)، دَار الغَرب الإسلامي، ط1، 1428هـ– 2007م.
61. المستدرك على الصحيحين، الحاكم (ت: 405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1411هـ – 1990م.
62. مسند أبي يعلى، أبو يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، ط1، 1404هـ – 1984م.
63. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل (ت: 241هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ– 2001م.
64. مسند البزار، البزار (ت: 292هـ)، تحقيق: عادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط1، 1988م.
65. مسند الدارمي، الدارمي (ت: 255هـ)، تحقيق: حسين سليم الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1412هـ– 2000م.
66. المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، أبو نعيم الأصبهاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن، قدّم له: كمال عبد العظيم العناني، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، د– ت.
67. المعجم الأوسط، الطبراني (ت: 360هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد, عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، د– ت.
68. المعين في طبقات المحدثين، الذهبي (ت: 748هـ)، تحقيق: همام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان – عمان – الأردن، ط1، 1404هـ.
69. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي(ت: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط-3

1420هـ.
70. المفاتيح في شرح المصابيح، الحسين بن محمود المُظْهِري (ت: 727 هـ)، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر- الكويت، ط1، 1433هـ- 2012م.
71. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي (ت: 656هـ)، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو، وآخرون، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 1417هـ- 1996م.
72. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: 597هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ - 1992م.
73. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط2، 1392هـ.
74. المنهل الحديث في شرح الحديث، موسى شاهين لاشين، دار المدار الإسلامي، ط1، 2002م.
75. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي (ت: 1158هـ)، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان- بيروت، ط-1 1996م.
76. موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس، تحقيق: تقي الدين الندوي، دار القلم- دمشق، ط1، 1413هـ - 1991م.
77. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ

أثر الأعذار والجوائح على عقد الإيجار في المذهب المالكي

إعداد :
أ.عمر المختار البشكار المغيربي
قسم الدراسات الإسلامية- كلية التربية تيجي / جامعة الزنتان

الاستلام : 12/ 1/ 2023 القبول : 20/ 2/ 2023

المستخلص

تعتبر المدّة الزمنية هي الركن الأهم في عقد الإجارة، وقد تكون هذه المدة طويلة أو قصيرة، حسب ما تقتضيه طبيعة المنفعة، مما قد يطرأ على هذه المدة من تبدّل مفاجيء في الظروف والأحوال ذات التأثير الكبير على مابنى عليه الطرفان المتعاقدان حساباتهما، لذا تناولت هذه الدراسة بعضاً من المسائل التي سُئل عنها علماء المذهب المالكي حول عقد الإجارة، ومقارنتها ببعض التطبيقات المعاصرة في هذا الزمان، وذلك وفق المنهج الوصفي المقارن، وتعد مشكلة الإيجار في عصرنا هذا، وما يمر به العالم في ظل هذه الجائحة من أهم المسائل التي أشغلت الأجير والمستأجر، وعليه نهدف إلى معرفة ما ينبغي أن يكون عليه كلا الطرفين من حيث دفع الإجارة كاملا، أو الفسخ، أو وضع الثمن بمقدار ما تضرر به المستأجر، والوصول إلى نتائج صريحة حول هذه القضية، 1 -كرد الإجارة عند فوات كامل المنفعة، 2 - عدم الفسخ عند بقاء المنفعة متاحة ولو جزئيا.

كلمات مفتاحية: الأعذار- الجوائح – الإيجار، المذهب المالكي.

abstract

The period of time is considered the most important pillar in the lease contract, and this period may be long or short, depending on what is required by the nature of the benefit, which may occur during this period of sudden change in circumstances and conditions that have a great impact on what the contracting parties built their accounts on, so this study dealt with Some of the issues that the scholars of the Maliki school were asked about about the lease contract, and comparing it with some contemporary applications in this time, according to the comparative descriptive approach. Accordingly, we aim to know what should be done by both parties in terms of paying the lease in full, or rescinding it, or putting the price in proportion to what the tenant was harmed by, and reaching clear results on this issue, 1- Refunding the lease when the full benefit is lost, 2- Non-termination When the benefit remains available, even in part.

Keywords: excuses – pandemics – rent, the Maliki school of thought.

أثر الأعذار والجوائح على عقد الإيجار في المذهب المالكي.

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين، الذي أتم علينا النعمة وأكمل لنا الدين، وجعلنا من أتباع شريعة محمد سيد بني آدم أجمعين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد...

يعد عقد الإجارة من أهم العقود في الشريعة الإسلامية التي حظيت بوفرة من النصوص الشرعية ولقيت اهتماماً كبيراً من الفقهاء لما لهذا العقد من دور في تلبية حاجات الأفراد وبناء المقومات الإقتصادية للمجتمعات وغيرها من النواحي الأخرى، لذلك اقتضى الأمر لتقديم دراسة مبسطة عن عقد الإجارة نحاول فيها المزج بين بعض المسائل التي أجاب عنها علماء صدر هذه الأمة وتنزيلها على واقعنا المعاصر محاولين الاستفادة من ذلك قدر ما أمكن، ولما كانت المساحة المطلوبة للكتابة محددة ركز الباحث على بعض المسائل والتي بدورها تخدم هذه الدراسة بما يسهم في توضيح موضوعاتها معتمدين على ماجاء من مسائل وأحكام في دواوين وكتب المذهب المالكي.

حيث وضعنا لهذه الورقة عنوان: (أثر الأعذار والجوائح على عقد الإيجار في المذهب المالكي)، فبدأت ببيان معنى العذر لغة واصطلاحاً وأدلة اعتباره عند المالكية، ثم معنى الجائحة لغة واصطلاحاً وأدلة اعتبارها عند المالكية، كما بينت نوازل المالكية في الإجارة ثم بيّنت بعض التطبيقات المعاصرة لهذه النوازل، وأخيرا ختمت الورقة بأهم النتائج المستخلصة من هذه الدراسة.

المطلب الأول: في معنى العذر لغة واصطلاحاً وأدلة اعتباره عند المالكية.

معنى العذر في اللغة

العذر في اللغة الحجة التي يعتذر بها ويقال أعذر الرجل إذا بلغ أقصى الغاية في العذر، وفي الحديث،" لقد أعذر الله إليك" أي عذرك وجعلك موضع العذر فأسقط عنك الجهاد، ورخص لك في تركه[1].

معنى العذر في الاصطلاح:

قال الشاطبي العذر ما شرع لأمر شاق استثناء من أصل كلي يقتضي المنع مع الإقتصار على مواضع الحاجة، وعرفه غيره، إن العذر سبب مادي ظاهر على حركة حياة المسلم لايستطيع معه مواصلة الإلتزام بالحكم الشرعي، أو هو كل عارض لا يمكن معه استيفاء المعقود عليه إلا بضرر زائد يلحقه في نفسه أو ماله يثبت له حق الفسخ،[2]، فيدخل في ذلك كل عذر يؤدي بالضرر للمستأجر في فوات

(1) انظر تاج العروس، ج6، 54.

(2) الموافقات للشاطبي، ج1، ص304. فقه الأعذار الشرعية لرافع محمد، ص8.

كامل المنفعة من العين المؤجرة أو فوات بعضها كالأعذار السماوية التي تتمثل في الآفات والكوارث الطبيعية وغيرها، وكذلك الأعذار البشرية التي تكون بفعل أدمي كغصب الدار المستأجرة وإغلاق الحوانيت والمحال التجارية بسبب السلطات وغيرها من الأعذار التي تلحق الضرر بالمتعاقدين.

أدلة اعتبار العذر في الفقه الإسلامي

مما يستدل به في اعتبار العذر في عقود البيع وغيرها من القرآن والسنة مايلي.

أولاً: قوله تعالى "وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه"[3]

ثانياً: قوله تعالى" وما جعل عليك في الدين من حرج "[4]

وجه الدلالة أن الشارع الحكيم قد أعتد بالعذر وجعله من الضرورة التي أباحها الله تعالى عند تحقق الضرر لأحد المتعاقدين وجعله مخففا للاحكام الشرعية أو مسقطا لها وذلك دفعا للحرج والمشقة عن المكلفين ولم يجعل الله علينا حرجاً في ديننا، [5].

ثانياً من السنة:

روي عن عمر رضي االله عنه: "إن البيع صفقة أو خيار والمسلمون عند شروطهم " فجعل البيع نوعين، نوعا ليس فيه خيار ونوعا فيه خيار الفسخ ولأنها عقود معاوضة لا ينفرد احد العاقدين فيها بالفسخ، إلا عند العجز عن المضي في موجب العقد من غير تحمل ضرر، ورفع الضرر من الأصول التي وضعها الشارع تيسيراً على العباد ودفعاً للمشقة عنهم ولنا في القواعد الفقهية التي قررها العلماء المستنبطة من الشرع الحنيف في ذلك الكثير منها كقاعدة "الضرر يزال"، وقاعدة "المشقة تجلب التيسير" وغيرها من القواعد الفقهية التي إعتنت برفع الضرر من المكلفين في العبادات والمعاملات وغيرها من الفروع الفقهية، [6].

من المعقول

من المعلوم في عقود الإجارة هو إستيفاء منفعة من الشي المؤجر، ولكن قد يحدث أمر طارئ يجعل صاحب العذر يعجز عن المضي في موجب العقد إلا بضرر زائد لم يستحقه بالعقد فيثبت له حق الفسخ، دفعا للضرر ولأن الشارع راعى مصالح المكلفين فشرع الخيارات رحمة بالمتعاقدين لضمان رضاهما وحفظ مصلحتهما ودفع الضرر عنهما، ومن أجل نفي المنازعات والخصومات وذلك من أهم مقاصد الشريعة، وكذلك من أجل تحقيق العدل ومنع الظلم في المعاملات والوصول إلى تمام الرضا والتوسعة على المتعاقدين، ولأنّ الحاجة تدعو إلى

(3) سورة الأنعام الآية 119.

(4) سورة الحج الآية 78.

(5) انظر أحكام المعسر لعبدالله الحديثي، ص137.

(6) انظر أثر الأعذار لنزار عويضات، ص44.

الفسخ عند العذر، لأنّه لو لزم العقد عند تحقّق العذر، للزم صاحب العذر ضرر لم يلتزمه بالعقد وهذا منافٍ للشريعة.

المطلب الثاني: في معنى الجائحة لغة واصطلاحا وأدلة اعتبارها عند المالكية.

أولاً: الجائحة في اللغة

"جاح يجوح إذا عدل عن المحجة إلى غيرها والجوح، الاستئصال من الاجتياح جاحتهم السنة جوحا وجياحة وأجاحتهم واجتاحتهم استأصلت أموالهم، وهي تجوحهم جوحا وجياحة، وهي سنة جائحة جدبة وجحت الشيء أجوحه... وأصابتهم جائحة ؛ أي : سنة شديدة اجتاحت أموالهم، فلم تدع لهم وجاحا، والوجاح : بقية الشيء من مال أو غيره،" [7].

ثانياً: الجائحة في الاصطلاح

ذكر المالكية في تعريف الجائحة أقوال متعددة قد تكون مختلفة في ألفاظها وعباراتها ولكن كانت هذه التعاريف متقاربة في مدلولها ومعناها. فقد عرف ابن القاسم الجائحة بأنها كل شيٍ لايستطاع دفعه لو علم به، كالبرد والحر والسموم والثلج والمطر والجراج والفأرة والنار والجيش، [8]. وعرفها الباجي فقال الجائحة إسم لكل ما يجيح الإنسان وينقصه إلاّ أن هذا التعريف له عرف في الشرع واللغة، [9]. وفصل ابن رشد في الجائحة من أقوال المذهب بإن الجائحة نوعان، السماوية وما كانت من صنع الإنسان، فقال "وأما ما أصاب الثمرة من السماء مثل البرد والقحط وضده والعفن فلاخلاف في المذهب أنه جائحة، وأما العطش فلا خلاف بين الجميع أنه جائحة، وأما ما أصاب من صنع الآدميين فبعض من أصحاب مالك رآوه جائحة، وبعضهم لم يره جائحة والذين رأوه جائحة انقسموا قسمين، فبعضهم رأى منه جائحة ما كان غالبا كالجيش ولم ير ما كان منه بمغافصة" وهو الأخذ على غرة"، جائحة مثل السرقة، وممن إعتبر السرقة جائحة ابن القاسم رحمه الله، وبعضهم جعل كل ما يصيب الثمرة من جهة الأدميين جائحة بأي وجه كان، [10].

أدلة اعتبار الجوائح عند المالكية:

أولاً: من القرآن الكريم.

استدلوا بجملة من الأيات التي تحرم أكل أموال الناس بالباطل ومنها.

قوله تعالى" وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ" [11]. وقوله تعالى" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُم وَلَا

(7) انظر لسان العرب لإبن منظور، حرف الجيم،جوح، ج3، ص234.

(8) انظر الفروق للقرافي، ج1، 579.

(9) انظر المنتقى شرح الموطأ للباجي، ج3، ص380.

(10) انظر حاشية العدوي على الرسالة، ج2، ص283، أنظر بداية المجتهد لإبن رشد، ص588.

(11) سورة البقرة الآية 188.

تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا"[12]. وقوله تعالى" وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَالِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[13].

وجه الإستلال من الآيات السابقة إن هذه الأيات جاءت عامة في تحريم أكل أموال الناس بالباطل وبغير حق بأي طريقة كانت ومن ذلك عقود البيوع والمعاوضات والإجارة فلا ينفرد أحد المتعاقدين بالمنفعة دون الأخر، قال ابن العربي المالكي: "قوله تعالى: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا ﴾ هذه الآية، من قواعد المعاملات، وأساس المعاوضات ومعناه: ولا تأخذوا ولا تتعاطوا، [14]، وأخذ البائع الثمن من المشتري بعد تلف الثمار من غير فعل من المشترى ولاتقصير يدخل في عموم النهي من الشارع بحرمة أكل المال بالباطل، لذا وجب وضع الجائحة للخروج من هذا النهي في الآية.

ثانياً: من السنة

الأول: حديث سليمان بن عتيق عن جابر " إن رسول الله صل الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح"

هذا الحديث نص صراحة على وضع الجوائح والأمر يقتضي الوجوب مالم تصرفه قرينة عن ذلك، قال ابن قدامة رحمه الله " وهو صريح في الحكم فلا يعدل عنه"، [15].

الثاني: حديث أنس بن مالك رضي الله عنه" أن رسول الله صل الله عليه وسلم نهى عن بيع الثمار حتى تزهى فقيل ما تزهى قال حتى تحمر، فقال أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق"، [16].

الثالث: حديث جابر رضي الله عنه قال" قال رسول الله صل الله عليه وسلم لو بعت من أخيك ثمراً فأصابته جائحة فلا يحل لك أن تأخذ منه شيئاً بم تأخذ مال أخيك بغير حق"، [17].

الأحاديث السابقة صريحة الدلالة في تحريم أخذ المال من المشتري إذا إجيحت الثمرة، كما إن هناك من القواعد الفقهية المشهورة ما يندرج تحتها رفع الضرر الواقع في الجوائح وغيرها كقاعدة " الضرر يزال" وقول النبي صل الله عليه وسلم "لا ضرر ولا ضرار"،[18]. وغيرها من القواعد والأحاديث التي تستمد دلالتها من سماحة الشريعة في رفع الضرر عن المتعاقدين، فالضرر يجب إزالته،

(12) سورة النساء الآية 29

(13) سورة النساء الآية 161

(14) انظر أحكام القرآن لإبن العربي، ج1، ص137

(15) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة ج4/ ص191، ر.م 1554

(16) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، ج4، ص465، ر.م 2114.

(17) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساقاة، باب وضع الجوايح، ج3، ص1190، ر.م 1554.

(18) رواه مالك مرسلًا، وحسنه النووي، ورواه غير واحد من أهل العلم وله طرق يقوي بعضها بعضاً، أنظر موطأ مالك باب القضاء ج1،ص566.، وأنظر الأربعين النووية للنووي، الحديث الثاني والثلاثون، ص119

لأن الأخبار في كلام الفقهاء للوجوب، فيجب رفع الضرر بعد وقوعه، [19].
من المعقول

إن وضع الجوائح يتلاءم مع مقاصد الشريعة الإسلامية في جلب المصالح ودر المفاسد وتحقيق مصالح الناس، فالشرع لا يعتبر من المقاصد إلاّ ما تعلق به غرض صحيح محصل لمصلحة أو دارئ لمفسدة لتتحقق مصالح الناس في العاجل والأجل بكل وجوهها الشرعية وبهذا عمل السلف الصالح من أهل المدينة وغيرها، قال ابن عبد البر رحمه الله "وممن قال بوضع الجوائح هكذا مجملا أكثر أهل المدينة منهم يحيى بن سعيد الأنصاري ومالك بن أنس وأصحابه وهو قول عمر بن عبد العزيز وبوضع الجوائح كان يقضي رضي الله عنه وبه قال أحمد بن حنبل وسائر أصحاب الحديث وأهل الظاهر"، [20].

المطلب الثالث: نوازل المالكية في الإجارة

المسألة الأولى

سئل ابن رشد عن المتقابلين للفنادق والأرحي إذا قل الواردون لسكنى الفنادق والطعام للطحن، فهل ذلك جائحة يحط به الكراء عنهم أم لا؟

فأجاب: إذا قل الواردون من البلاد لسكنى الفنادق المكتراة المتخذة للنزول فيها من فتنة حرب حدثت في الطرق وما أشبه ذلك، أو قل الواردون للطحن في الأرحى المكتراة لجهد أصاب ذلك المكان وما أشبه ذلك، كان ذلك عيباً فيما إكتراه المكتري فيكون مخيراً بين أن يتمسك بكرائه أو يرده ويفسخه عن نفسه، فإن سكت ولم يقم حتى مضت المدة أو بعضها لزمه جميع الكراء، ولا يسقط عنه الكراء إلا لخلاء أهل ذلك الموضع حتى تبقى الرحى معطلة لا تطحن، والفنادق خالية لاتسكن، ولا يلزم الكري إذا قلت الواردة أن يحط المكتري من كرائه بقدر ما نقص من الواردة بغير رضاه، وإنما يوجب ذلك للمكتري التخير على ما وصفناه وبالله التوفيق[21].

المسألة الثانية

وسئل عن المكتري للحوانيت إذا قلت التجارة لضعف الناس مثل هذا العام هل هي جائحة، يحط عنهم الكراء بقدر ما نقصهم من التجر؟ وكيف إن كانت الحوانيت للأحباس هل حكمها وحكم غير المحبسة سواء أم لا؟

الجواب عليه: تصفحت السؤال ووقفت عليه.

وليست قلة التجر في الحوانيت المكتراة لما أصاب الناس من ضعف الحال بجائحة يكون للمكتري لها القيام بها سواء كانت للأحباس أم لم تكن الحكم في ذلك سواء، وإن رأى القاضي في حوانيت الأحباس أن يحط عن المكتري من الكراء لما تشكوه على سبيل الإستيلاف جاز كما يجوز للوكيل المفوض إليه أن يحط

(19) انظر القواعد الفقهية للزحيلي،ج1، ص210

(20) أنظر التمهيد لإبن عبد البر ج3، ص195.

(21) المعيار للونشريسي، ج6، ص228، 227.

من أثمان ما باع لموكله على هذا الوجه، [22].

وكذلك تنفسخ الإيجارة إذا أمر السلطان بإغلاق الحوانيت ولم يتمكن المكتري من المنفعة وهو المشهور، والمراد بالسلطان هنا ذو القهر ويلزم السلطان إجرتها لربها إذا كان قصده غصب المنفعة فقط دون الذات، وبظهور حمل ظئر أي مرضع أو حصول مرض لها لا تقدر معه على رضاع إن تحقق ضرر الرضيع، أي خيف موته،[23].

المسألة الثالثة

وسئل مالك عن رجل اشترى ثمر حوائط في صفقة واحدة فيصاب منها حائط ثمرته كلها أو بعضها، أترى أن يوضع عنه؟

قال: إن كان ذلك الحائط أو ما أصيب منه ثلث الثمرة من جميع الحوائط وضع عنه، وإلا لم يوضع عنه، وإن كان الحائط كله، وإن كان في صفقات مختلفات وضع عنه من كل حائط ثلث ثمرته لما أصابته الجائحة. قال محمد بن رشد: أما الحوائط إذا اشتُريت في صفقة واحدة فحكمها في الجائحة حكم الحائط الواحد إن تلفت الجائحة ثلث ثمر الجميع وضع عن المبتاع ثلث الثمن....[24].

وجه الإستدلال من النوازل السابقة

بين إبن رشد رحمه الله كما في المسألة الأولى أن السبب الداعي لقلة الواردين في البلاد لسكنى الفنادق المكتراة المتخذة للنزول فيها قد يكون من فتنة، أو حرب حدث في الطرق، منع من وصول المارة لها، وهذه أعذار وردت على عقد الإجارة يخير المكتري بين الفسخ والإمضاء، كما أن قلة الإقبال على الطحن في الأرحى المكتراة قد يكون لجهد أصاب ذلك المكان، ومن ثم اعتبر ذلك عيبا فيما اكتراه المكتري، فيكون مخيرا بين أن يتمسك بكرائه، أو يرده ويفسخه، فإن سكت ولم يقم حتى مضت المدة أو بعضها لزمه جميع الكراء، ولا يسقط عنه الكراء إذا مضت المدة، وكذلك كان الحال في المسألة الثانية لم يعتبر ابن رشد رحمه الله قلت التجر في الحوانيت المكتراة لما أصاب الناس من ضعف الحال بجائحة يكون للمكتري لها القيام بها سواء كانت للأحباس أم لم تكن الحكم في ذلك سواء، لأن هذه الأمور معروفة في التجارة وتقلبات الأسعار في التجارة لاتأثير لها في العقود لأنها من طبيعة التجارة وتقلباتها التي لا تنفك عنها.

وأما في المسألة التي سئل عنها إمام المذهب رحمه الله فهي من الأعذار الطارئة التي ليست من صنع الآدميين، والمقصود بها الآفات السماوية أو الكوارث الطبيعية التي تحدث فيكون بسببها حدوث ضرر لأحد المتعاقدين، فالمتقرر عند

(22) انظر فتاوى ابن رشد الجد، ص630،

(23) انظر شرح الزرقاني ج7، ص61، وانظر حاشية الدسوقي ج5، ص381. وأنظر حاشية الخرشي على مختصر خليل، ج7، ص271.

(24) أنظر البيان والتحصيل لإبن رشد ج12، ص144.

المالكيــة إنــه إذا أجيــح ثلــث الثمــر فإنــه يوضــع عــن المبتــاع ثلــث الثمــن مــن الثمــرة، وإن إجيــح أقــل مــن ذلــك لــم يوضــع عنــه في ذلــك شي، وقــد زاد مالــك رحمــه اللــه بــرد الإلتــزام في الأعــذار المرهقــة إلى الحــد المعقــول فقــد جــاء في المدونــة، " وكذلــك الــدار يتكارهــا في الســنة بعــشرة دنــانير فيكــون فيهــا أشــهر كراؤهــا غــال و أشــهر كراؤها رخيــص مثــل كــراء دور مكــة في إبــان الحــج و غــير إبــان الحــج و الفنــادق تتــكارى ســنة و لهــا إبــان نفاقهــا فبــه ليســت كغــير ذلــك مــن الإبــان فيســكنها الأشــهر ثــم تنهــدم أو تحــترق، فإنمايردمــن الكــراء بقدرذلــك مــن الأشــهر"،[25].

وأمــا إذا تعطلــت العــين المؤجــرة تمامــاً فهــي مــن الأعــذار التــي تجيــز فســخ عقــد الأيجــار وقــد ضرب لهــا علمــاء المذهــب المالكــي مــن خــلال أقوالهــم ومســائلهم التــي عرضــت عليهــم أمثلــة كثــيرة، كغصــب الــدار المســتأجرة حتــى تنقــضي المــدة، [26].ومســألة حمــل الظــئر أي المرضــع أو حصــول مــرض لهــا لا تقــدر معــه عــلى الإرضــاع إن تحقق ضرر الرضيــع، أي خيــف موتــه وكذلــك في الأوامــر التــي تصــدر مــن الســلطان والتشريعــات الصــادرة مــن الدولــة والتــي تــؤدي إلى خســارة كبــيرة للمكــتري بســبب إغــلاق الحوانيــت بحيــث لا يتمكــن مســتأجروها مــن الإنتفــاع بالعــين المؤجــرة فــإن الإجــارة تنفســخ في كل ذلــك، وعــلى هــذا يكــون للإجــارة في الفســخ والمــضي في العقد ثلاثــة أحــوال وهــي.

الأول: مــا ينقــص المنفعــة نقصــا يتــضرر بــه المكــتري و يأبــى المؤجــر أن يــصلحه أو يلحــق المســتأجر ضرر لطــول مــدة الإصــلاح، أو مــا لا يمكــن البقــاء معــه مــن الــضرر فيعطــي الخيــار للمســتأجر في فســخ الإجــارة أو المــضي فيهــا

القسم الثاني : فوات المنفعة بالكلية كحمل ظئر يتضرر به الرضيع وكذا إذا أمر الــسلطان بــإغلاق الحوانيت وغصب الدار حتى تنقضي المدة، ففي كل ذلك تنفسخ الإجارة.

القسم الثالث : ما يمنع استيفاء المنفعة شرعا ،كما لو أجر رجلا لقلع ضرس ثم سكن الألم ، أو أجر رجلا لاستيفاء القــصاص ثم عفى عنه و لم يعتد المالكية بالأعذار الخاصة كما لو ظهر للعاقد أن يعدل عن السفر بعد كراء، الدابة فلا تنفسخ الإجارة، أو أراد تغيير حرفته من التجارة إلى الزراعة بعد كراء الحانوت أو مــرض فلم يستطع العمل فلا عذر له و يلزمه العقد إذ لا خلل في المعقود عليه، [27].

التطبيقات المعاصرة للنوازل السابقة

وبالنظــر إلى القضايــا والنشــاطات التجاريــة في مســألة كســاد التجــارة، ســواءً كانــت للأعــذار أو لغيرهــا والأســباب في ذلــك كثــيرة كالحــروب وبعــض الأعــذار التــي تمــر بهــا البلــدان مــن إنتشــار بعــض الأوبئــة كالتــي مــرت عــلى العالــم الإســلامي وغــيره بمــا يعــرف "بفايــروس كورونــا" وتداعياتــه وإصــدار بعــض التشريعــات مــن الســلطات

(25) أنظر المدونة ج3، ص584.

(26) أنظر عقد الجواهر الثمينة لإبن شاس،ج2، ص316)

(27) أنظر عقد الجواهر الثمينة لإبن شاس،ج2، ص316،317.

المختصة كإغلاق المحال التجارية وإيقاف الدراسة على مختلف مستوياتها وما يلحق بذلك من تبعات على عقود الإيجار المبرمة وغيرها من الأمور الأخرى أدى ذلك إلى كساد التجارة وعدم ممارسة الأفراد نشاطاتهم المعتادة مما أدى لضعف دخل الأفراد في هذه الفترة، كل ذلك كان له تداعيات على عقود الإجارة وما يتعلق بها من إلتزامات بين المالك والمستأجر وعلى ما ذكر المالكية يمكن تقسيم ذلك في واقعنا المعاصر إلى أمرين.

الأول: ما ينقص المنفعة نقصاً جزئياً.

وهذا الأمر كثيراً ما يحدث وخاصة في فترات الحروب وبعض المشاكل في الطرقات في أزمنة الفتن وتأثر المحال التجارية من قلة المارة وكذلك فترات الحضر التي فرضتها السلطات المسؤلة على الأفراد والمحال التجارية وخاصة في الأزمات كالتي عاشتها الشعوب الإسلامية وغيرها بما يعرف" بمرض كرونا" لايرى الباحث فسخ الإجارة في هذه الحالة للأسباب التالية.

أولاً: إن المنع يجري مؤقتا بسبب هذه الأعذار ويتجدد شيئا فشيئا إلى حين رفع الحظر أو إنفراج الأزمة.

ثانياً: إن المنع ليس نهائيا تتعذر فيه المنفعة بشكل كامل من العين المؤجرة فهو منع جزيئ تبقى فيه الإستفادة من الإجارة متاحة للمؤجر.

ثالثاً: إن الموضوع عام وهو يؤثر على استقرار التعاملات على نطاق واسع جدا، والقضاء غير قادر على تحمل هذا الحجم من الخصومات بين المالكين والمستأجرين

رابعاً: إن العديد من المحلات أصبح لها قيمتها في مواقعها كما أنها قامت بعمل ديكورات مكلفة تجعل من الفسخ خسارة كبرى، ممكن أن تؤدي إلى خسران تلك التكاليف التي قد يستفيد منها المؤجر بسبب الفسخ، فتكون نتيجة الفسخ عكسية على المستأجر، وفي صالح المؤجر

خامساً: يجب على المتعاقدين من باب رفع الضرر تعديل العقد برد الالتزام إلى الحد المعقول و ذلك أن ينقص من الالتزام للمستأجر بقدرما نقص من المنفعة ... بمفهوم أن العين التي حدث فيها ما يمنع نفعها و بقي فيها بعض المنفعة من جهة ما استأجرها له فإنه لا تنفسخ به الإجارة و إنما ينقص من الأجرة بمقدار ما نقص من المنفعة حتى تنجلي الأزمة وهذا مابيناه سابقاً.

الثاني فوات كامل المنفعة

تنفسخ الإجارة بفوات كامل المنفعة وهو ماذكرناه في مسألة إغلاق الحوانيت وعدم مقدرة المكتري من المنفعة وهو ما عليه المذهب، فإذا نظرنا لواقعنا اليوم فإن هناك من المسائل الكثيرة المشابهة لهذه المسألة وخاصة عند الأعذار الطارئة كالأمراض والأوبئة وأوامر السطات وغيرها ولنذكر بعضاً من ذلك على سبيل الذكر لا الحصر.

1 – تعطل العين المؤجرة تماماً ولم يستطع المؤجر لهذه العين من الوصول إليها، كالمحال التجارية والأسواق والأراضي المؤجرة وغيرها بعذر من الأعذار القاهرة وكانت هذه المدة طويلة تلحق ضرراً بالمؤجر.
2 – حجز قاعات الأفراح وبدلات الأعراس، وقد أغلقت القاعات وأجلت الأعراس.
3 – سائقوا نقل الطلاب بالأجرة والتوقف عن النقل بسبب إغلاق المدارس والروضات.
4 – المساكن المؤجرة للطلبة وقد أغلقت الجامعات وعاد الطلبة لبيوتهم .

وعلى ذلك فإذا قمنا بتنزيل ماقرره المالكية على ماذكرناه في واقعنا اليوم فإن الإجارة تنفسخ وتسقط الأجرة في حال عدم استيفاء المنفعة في عقد الإجارة كما هو حاصل في بعض ما ذكرناه كحجز قاعات الإفراح وحجز بدلات الإعراس ونقل الطلاب بالأجرة ومساكن الطلبة المؤجرة للطلبة وغيرها من الأمور ، وإن من المطلوب رد المبالغ إلى أهلها لأن المنفعة لم تتحقق بسبب الإغلاق الحاصل لهذه الأماكن بسبب العذر الذي لا دخل للمستأجر فيه والله أعلم.

الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث الذي يعد من أهم ما يشغل فئة كبيرة من جموع العالم والمسلمين خاصة في العصر الحالي، نأمل أن يكون هو الدليل الأكيد من خلال بعض المسائل التي عرضت على أهل العلم من المالكية حول عقد الإجارة، ومن أهم النتائج التي توصل إليها مايلي:

1 – العذر عند المالكية هو كل أمر يؤدي بالضرر على المستأجر في فوات كامل المنفعة أو بعضها ويدخل في ذلك الأفات والكوارث الطبيعية وإغلاق الحوانيت والمحال التجارية بأوامر السلطان وغيرها.
2 – إن وضع الجوائح يتلائم مع مقاصد الشريعة الإسلامية في جلب المصالح ودر المفاسد وتحقيق مصالح الناس.
3 – في الأعذار المرهقة يعدل العقد من باب رفع الضرر، وذلك برد الالتزام إلى الحد المعقول بأن ينقص من الالتزام للمستأجر بقدرما نقص من المنفعة.
4 – تنفسخ الإجارة بتعطل العين المؤجرة تماماً وكانت هذه المدة طويلة تلحق ضرراً بالمؤجر
5 – لا تنفسخ الإجارة إذا كانت العين المؤجرة متاحة ولو جزئياً لأن المنع ليس نهائيا تتعذر فيه المنفعة بشكل كامل من العين المؤجرة فهو منع جزئي تبقى فيه الاستفادة من الإجارة متاحة للمؤجر.

المصادر والمراجع

1. الشاطبي، ابي إسحاق ابراهيم بن موسى اللخمي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق، عبدالله دراز، محمد دراز، عبدالسلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، 2004، ص868.
2. رافع محمد عبيدات، فقه الأعذار الشرعية، تحقيق رافع محمد، دار الكتاب الثقافي للطباعة والنشر، إربد الأردن، 2006.بدون طبعة.
3. بن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر بيروت 2010، ص403.
4. الباجي، أبي الوليد سليمان بن خلف، المنتقى شرح موطأ مالك، مطبعة السعادة مصر، ط1/ 1332ه.
5. العدوي، أبو الحسن علي بن محمد بن مكرم، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر بيروت، 1994.
6. أبن رشد، أبي الوليد محمد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار ابن جزم، كتاب البيوع، البيوع المنهى عنها، الجزء الأول، ص515.
7. مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم، ج3 ر.م 1716 ص1342.
8. لبخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، 1993، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقه في الدين، دار بن كثير، ر.م 71
9. مالك ابن أنس، موطأ مالك، تحقيق سعيد الهلالي، مكتبة الفرقان، دار إحياء العلوم العربية 1994، كتاب الطهارة، باب الطهور للوضوء، ج1، ر.م 43/ ص34.
10. الزحيلي، وهبة بن مصطفى الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر دمشق، ط3/ ج6/ ص4456.
11. الونشريسي، أحمد بن يحي، النوازل الجامعة أو نوازل الجامع، تحقيق، شريف المرسي، دار الأفاق العربية 2011، القاهرة ، ط1،ص5.
12. الباجي، أبي الوليد سليمان بن خلف، المنتقى شرح موطأ مالك، مطبعة السعادة مصر، ط1332،1ه.
13. الزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، مكتبة الثقافة الدينة، 2003، كتاب البيوع، باب العيب في الرقيق.
14. ابن عرفة، محمد بن أحمد الدسوقي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، دار الفكر، ج3/ص6.
15. ابن رشد، أبي الوليد ابن رشد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتعليل في مسائل المستخرجة، وضمنه المستخرجة من الأسمعية المعروفة بالعتبية لمحمد العتبي القرطبي، تحقيق، سعيد اعراب، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط2/ 1988م/ ص285، 284.
16. بن شاس، جلال الدين عبد الله بن نجم، عقد الجوار الثمينة في مذهب عالم المدينة، تحقيق حميد بن محمد لحمر، دار الرب الإسلامي،
17. القرّافي، أبي العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي، الفروق وأنوار البروق في أنواء الفروق، تحقيق، المنصور، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1/ 1998م.
18. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد الأندلسي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق، محجموعة من المحقيقين، دار الأوقاف والشؤن الإسلامية المغربية، ، ط1412/2ه.

الكسب المشروع في الفقه الإسلامي
مفهومه ــ مقاصده ــ طرق استثماره

إعداد:
محمد أحمد عمران عثمان
قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم- توكرة / جامعة بنغازي

الاستلام : 25/ 12/ 2022 القبول : 20/ 1/ 2023

المستخلص :

البحث يهدف إلى التعريف بالكسب المشروع وأهميته، وإبراز المقاصد الشرعية للكسب الحلال وتقديمها بصيغة مبسطة، كذلك إيضاح الأحكام الشرعية من الكسب المشروع، ثم ألحقته بنبذة مختصرة للتعرف على ابتكار المنتج وضرورة الاكتفاء الذاتي والتطوير من الاقتصاد الوطني، وأهميته في تحسين الأداء التسويقي، في مجتمعنا، وأما المنهج الذي سلكته في الوقوف على هذا الموضوع فقد سلكت المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بعرض الضوابط والمقاصد وتحليلها ثم استخلاص بعض الطرق لتطوير المنتج الحلال.

كلمات دالة : ــ الكسب ــ المقاصد ــ الابتكار ــ الاستثمار

Research summary

The research aims to define legitimate earning and its importance,and to highlight the legitimate purposes of lawful earning and present them in asimplified form .As for the approach that I followed in standing on this subject,I followed the descriptive and analytical approach, by presenting and analyzing the controls and purposes, and then extracting some ways to develop the halal product.

المقدمة :

الحمد لله العلي الكبير، العليم القدير، الحكيم الخبير، الذي جل عن الشبه والنظير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وصلى الله وسلم على رسوله البشير النذير، السراج الهادي المنير، المخصوص بالمقام المحمود، والحوض المورود، وعلى أصحابه الأطهار الأخيار، وأهل بيته الأبرار الذين أذهب الله عنهم الرجس وخصهم بالتطهير، وعلى التابعين لهم بإحسان، والمقتدين بهم في كل زمان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الشريعة الإسلامية بقواعدها الكلية، وموازينها المنضبطة، وأسسها الثابتة، وعطائها المستمر، صالحة لكل زمان ومكان، فكمال الشريعة وشمولها من أبرز عوامل ثباتها، فما من نازلة إلاّ ولله سبحانه فيها حكم، ولقد بذل العلماء المسلمون قديماً وحديثاً جهوداً كبيرة من أجل تقرير قواعدها الشرعية، وإيضاح أحكامها، وتجلية مميزاتها، وترسيخ مفاهيمها، وتجسيدها واقعاً يحتذى به في شتى ضروب الحياة.

لقد قررت الشريعة الإسلامية في الإنسان غريزته نحو المال قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [1]، وأسندت إليه تملكه بالحيازة، ودعت إلى المحافظة عليه، وصانت حق ملكيته باعتباره ضرورة من ضروریاته كنفسه وعرضه، وحرمت الاعتداء عليه، ولكنها في ذات الأمر ضبطت فيه غريزته، فهذبت هذه النفس المسلمة بفرائض ونوافل وأحكام وحدود تربط هذا المال بأصول العقيدة والأخلاق، ودوره في الحياة لتحرر الإنسان من عبودية المال، وتسمو بغريزة حبه فتضعه وسيلة في يده تدور بينه وبين الآخرين في تداول مشروع متوازن يحقق أهداف الجميع.

ولهذا كان لنظام الإسلام المالي وفقهه الاقتصادي أكبر الأثر في إعمار الحياة لإصلاح النفوس البشرية التي التزمت به دينًا، فأعطت ما عليها وأخذت ما لها بوجه الحق، ثم عاملت بالفضل وتطوعت بالبذل، وسارعت بالإنفاق في وجوه الخير، ولبت حاجة الإنسان بسد خلة المعوز أيًّا كان، فلم تعق الحاجة مقصده وهدفه المشروع في الحياة.

إن فقه المعاملات المالية في الإسلام يعتبر المال -كسائر ما في الحياة- مملوكًا لله الخالق وحده تعالى ملكية حقيقية، ثم هو بيد الإنسان مستخلف فيه، يلتزم أمره ونهيه أنى يتوجه، بلا إهمال أو تجاوز؛ لإيمانه بخالقه ومالكه ورازقه القائل: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كبير﴾ [2].

فكل ما ذكر يحتاج إلى طاقات بشرية منتجة لتنتج ذلك كله ليأخذه المستهلك ليأكله حلالاً طيباً.

(1) سورة العاديات آية رقم 8 .

(2) سورة الحديد آية رقم 7 .

ومن مقاصد الشريعة في مجال الكسب الشرعي: التشديد في تحريم إنتاج كل ما يضر بالناس، في دينهم، أو في أنفسهم، أو في نسلهم وذرياتهم، أو في عقولهم وأفكارهم، أو في قيمهم وأخلاقهم، أو في أي جانب من جوانب حياتهم.

ولذا يحرِّم الإسلام إنتاج المخدرات بكلِّ أنواعها، ويحرِّم زراعة النباتات التي تؤخذ منها المخدِّرات، ويحرِّم كذلك تصنيعها وتسويقها، ويلعن في ذلك كلَّ مَن لعنهم في الخمر، بل الواقع أن الخمر ما خامر العقل، وكلُّ هذه المخدرات خمر، لأنها تخامر العقل، وتخرجه عن طبيعته المميزة الحاكمة. بل هي - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - أشدُّ إثما من الخمر المعروفة، لأن أضرارها أشدُّ من أضرار الخمر على الفرد والأسرة والمجتمع.

أسباب اختيار الموضوع وأهميته :

1) يهدف هذا البحث إلى بيان ولو الشيء اليسير للكسب الحلال وأهميته.
2) إن لسلامة الكسب وتحري الحلال أثراً طيباً على الإنسان في سلوكه وصفاء قلبه وقبول دعائه، لذلك يعتبر من الأولويات التي يجدر البحث فيه.
3) التعرف على ابتكار المنتج وأهميته في تحسين الأداء التسويقي الإسلامي.

صعوبات البحث :

1) عدم وجود كتابات وبحوث سابقة ظاهرة للناس تكون شاملة لموضوع الكسب الشرعي، فشق على الكثير من البحاث تحديد معالم الموضوع، ومجال البحث فيه البحث الشامل الدقيق.
2) انتشار مثل هذه المواضيع العلمية في الكتب الفقهية، مما يصعب جمعها ورسم حدودها.

أهداف الدراسة

تسعى هذه الدراسة لتحقيق الأهداف التالية :

1) تقديم ولو شيء بسيط لعامة الناس للتعريف بهذا الموضوع ؛لأنه مبني عليه قوتهم اليومي.
2) التعريف بالكسب الشرعي وأهميته ومقاصده.
3) إبراز موضوع الكسب الشرعي بصيغة مبسطة لتطبيقها وبذلك يكون الهدف الأسمى وهو الفوز بسعادة الدارين.
4) التعرف إلى الكسب الشرعي وأهميته وطرق استثماره.

منهجية البحث:

وأما المنهج الذي سلكته في هذا البحث فقد سلكت المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بعرض المفاهيم الفقهية وتحليلها، والمقصد منها ثم استخلاص بعض الطرق لتطوير الكسب الشرعي.

أما خطة البحث فكانت على النحو الآتي:

المقدمة: وتشمل أسباب اختيار الموضوع والصعوبات التي واجهها الباحث وأهداف الدراسة ومنهجية البحث التي صار عليها الباحث في بحثه.

المبحث الأول: ويشمل: التعريف بالكسب الشرعي وبعض الأحكام الفقهية الخاصة به
المبحث الثاني: المقاصد الشريعة فيما يتعلق بالكسب الشرعي.
المبحث الثالث: الاستثمار المالي للكسب الشرعي
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأول: ويشمل: التعريف بالكسب الشرعي وبعض الأحكام الفقهية الخاصة به

الِاكْتِسَاب فِي عرف أهل اللِّسَان تَحْصِيل المَال بِمَا يحل من الْأَسْبَاب وَاللَّفْظ فِي الْحَقِيقَة يسْتَعْمل فِي كل بَاب وَقد قَالَ الله تَعَالَى {أَنْفقُوا من طَيِّبَات مَا كسبتم} وَقَالَ عز وَجل {وَمَا أَصَابَكُم من مُصِيبَة فبمَا كسبت أَيْدِيكُم} أَي بجنايتكم على أَنفسكُم فقد سمي جِنَايَة الْمَرْء على نَفسه كسبا وَقَالَ جل وَعلا فِي آيَة السّرقَة {جَزَاء بِمَا كسبا} أَي باشرا من ارْتِكَاب الْمَحْظُور فَعرفنَا أَن اللَّفْظ مُسْتَعْمل فِي كل بَاب وَلَكِن عِنْد الاطلاق يفهم مِنْهُ اكْتِسَاب المَال.

والِاكْتِسَابُ فِي عُرْفِ اللِّسَانِ تَحْصِيلُ الْمَالِ بِمَا حَلَّ مِنْ الْأَسْبَابِ[3] قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[4] ، **وقال تعالى:** ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[5]. **أي: (فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجاريات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم)** [6] **وقال تعالى:** ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَى وَءاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾[7] **(أي: مسافرون يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر)** [8].

وجوب تحري الكسب الحلال :

من الأوامر المهمة في الإسلام ولا سيما في مجال الكسب أن يتحرى المسلم الكسب الحلال كي يسلم وينجو من عذاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [9]، **وقيل في قوله تعالى:** ﴿ **فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا**﴾ [10] **يعني أحل طعاماً .**

وهناك آيات من القرآن الكريم والسنة النبوية ترغب في الحلال وتحث عليه

(3) المبسوط محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: 483هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت 30/ 244.

(4) سورة التوبة آية رقم 10

(5) سورة الملك آية رقم 15.

(6) تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ) المحقق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت. الطبعة: الأولى - 1419 ه ابن كثير، 8/ 179.

(7) سورة المزمل آية رقم 20.

(8) م ن 8/ 258 .

(9) سورة النحل آية رقم 114.

(10) سورة الكهف آية رقم 19.

لأن الحلال هو المقصود من جمع المال، وقد جاءت الآيات القرآنية متنوعة في الحث عليه

1 – فلقد أمر بها عقب الفراغ من العبادة، فيقول تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (11).

2 – ومثله قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾(12).

3 – وتارة يتحدث عن أسباب الرزق ولا يمنع من ممارستها حتى في أثناء أداء فريضة العمر، فيقول جل شأنه في سياق الحديث عن مناسك الحج: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾(13).

4 – وتارة يصف عباده الصادقين المخلصين بمزاولة الكسب الحلال، فيقول: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾(14).

5 – وعن البيع والشراء يقول جل شأنه: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(15).

ومن هنا جاء الإسلام يطالب المسلمين بالعمل والمشي في مناكب الأرض، ليأكلوا من رزق الله، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(16).

ولا يقبل منهم أن يتقاعسوا عن ذلك بدعوى الزهد في الدنيا، فالزهد في الدنيا: أن تملكها ولا تملكك، أن تجعلها في يدك ولا تسكنها قلبك، أن تستمتع بطيباتها وتتَّجه بإرادتك إلى الآخرة، ولذلك علَّق القرآن أمر الدنيا والآخرة على الإرادة، فقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(17).

حكم معرفة الحلال والحرام :

ومعرفة الحلال من الحرام فرض عين على كل مسلم مكلف ليكون على بصيرة من دينه حتى لا يقع في المحظور ويخالف أحكام الإسلام(18).

لذلك فإن لتحري طلب الحلال، واجتناب الحرام، واتقاء الشبهات، في حياة المسلم، أهمية قصوى، حيث يتوقف على ذلك شرعية منهاجه، وسلوكه في الدنيا، ومصيره في الآخرة، ويتجلى مظهر الامتثال لأوامر الله تعالى ورسوله، والانتهاء عما نهى الله تعالى عنه ورسوله، في الاقتصار على الحلال دون الحرام والشبهات، والرغبة في الخير دون الشر، وذلك في شتى الميادين، وجميع المجالات: في

(11) سورة الجمعة آية رقم 10.

(12) سورة الشرح آية رقم 7.

(13) سورة البقرة آية رقم 198.

(14) النور آية رقم 37.

(15) البقرة آية رقم 275.

(16) سورة الملك آية رقم :15.

(17) سورة الشورى آية رقم :20.

(18) اتقاء الحرام والشبهات في طلب الرزق أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل الناشر: دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م1/ 11

المأكل والمشرب، والملبس، والعمل، والمعاملات، والكسب، والبيع والشراء، والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية قال - صلى الله عليه وسلم: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تقربوها، وترك أشياء عن غير نسيان فلا تبحثوا عنها»، ويحتل الحلال والحرام من النصوص الشرعية ومن الأحكام الفقهية في الإسلام مساحة عريضة، نظراً لأهميتهما في حياة المسلم وتناولهما شتى شؤون الحياة، بما يصلح للمرء دنياه وأخراه، في مجال العقيدة والعبادة والاقتصاد والسياسة والشؤون الخاصة والعامة والعلاقات مع النفس ومع غيرهما، وصح عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكفُّ الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) [19]، وهذا الحديث فيه الحث على الصدقة والأكل من عمل يده والاكتساب بالمباحات بالحطب والحشيش النابتين في موات . ورَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ طَلَبُ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مسلم ولما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ على كل مسلم [20]، ومن أحاديث التهويل في أكل الحرام يقول -ﷺ- (كُلُّ لَحْمٍ نبت من حرام فالنار أولى بِهِ)[21].

ويقول أيضاً:(مَنْ لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار) [22] .

وَأَمَّا الْآثَارُ فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَرِبَ لَبَنًا مِنْ كَسْبِ عَبْدِهِ ثُمَّ سَأَلَ عَبْدَهُ فَقَالَ تَكَهَّنْتُ لِقَوْمٍ فَأَعْطَوْنِي فَأَدْخَلَ أَصَابِعَهُ فِي فِيهِ وَجَعَلَ يَقِيءُ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسَهُ سَتَخْرُجُ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا حَمَلَتِ الْعُرُوقُ وَخَالَطَ الأمعاء [23].

وَكَذَلِكَ شَرِبَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ لبن إبل الصدقة غلطاً فأدخل إصبعه وتقيأ وقالت عائشة رضي الله عنها إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة هو الورع

(19) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، الحديث رقم 1470 . فيض الباري على صحيح البخاري المؤلف: (أمالي) (المتوفى: 1353هـ) المحقق: محمد بدر عالم الميرتهي، أستاذ الحديث بالجامعة الإسلامية بدابهيل (جمع الأمالي وحررها ووضع حاشية البدر الساري إلى فيض الباري) الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م3/ 143.

(20) أخرجه البيهقي في "سننه الكبير" (6 / 128) برقم: (11808)، الناشر : مجلس دائرة المعارف العمانية بحيدر آباد الدكن – الهند، الطبعة: الأولى 1352 : 1355 هـ.

(21) المعجم الأوسط للطبراني (6 /310) برقم (6495)، الناشر: دار الحرمين - القاهرة، الطبعة: الأولى 1415هـ - 1995م.

(22) المغني عن حمل الأسفار، تحقيق: أشرف عبد المقصود، الناشر : مكتبة طبرية - الرياض، سنة النشر 1415هـ - 1995م، (1/ 437). وقال ابن العربي: «وأَخْبَرَ عن فَسَادِ أَمْرِهِ في آخِرِ الزمان، فقال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لاَ يُبَالِي الْعَبْدُ فِيهِ من كَسَبَ الْمَالَ فهذا في الصحيح، زَادَ الناس فيه ما لم يَصِحَّ، فقالوا: «مَنْ لَمْ يُبَالِ مِنْ حَيْثُ كَسَبَ الْمَالَ، لَمْ يُبَالِ اللهُ مِنْ حَيْثُ أَدْخَلَهُ النَّارَ». والحديث باطل». عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت، د. ط، د. ت، (5/ 203).

(23) أخرجه معمر بن راشد في "جامعه" (11/ 209) برقم: (20346)،المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة: الثانية، 1403 هـ.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه (لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز، ومن كانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات وقال بعض السلف إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه ومن أقام نفسه مقام ذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر)[24]، إلى غير ذلك مما يدل على الحث في طلب الحلال، وتجنب الحرام، فيجب على المسلم أن يمشي في مناكب الأرض طالباً للرزق، فيباح له ذلك لأنه إذا ترك السعي في طلب الزرق ترتب على ذلك فقره واضطراره إلى سؤال الناس واستجدائهم فكان آثماً وإنما يجب عليه حفظ ماء الوجه بطلب الرزق الحلال بكسب يده ما دام قادراً على ذلك، أما ترك الأمة كلها للمكاسب فإنه لا يجوز؛ لأنه خلاف مقصود الله من عمارة الأرض، فالسعي في طلب المال مشروع، وهو وإن كان مباحاً بالجزء فإنه ضرورة بالكل؛ لأنه عون على طاعة الله تعالى، فهو إن كان كذلك فسيمكّن المسلم من الصدقة العادية والجارية، أي الدائمة المتمثِّلة في الوقف الخيري، وهو الذي يعينه على الإسهام في مشروعات الخير، من كفالة الأيتام، ورعاية المساكين وابن السبيل، وإقامة مؤسَّسات الخير والإغاثة الإنسانية

المبحث الثاني: المقاصد الشريعة فيما يتعلق بالكسب الشرعي .

مسألة الحاجات الإنسانية محور اهتمامات الفكر الاقتصادي في حركته الدائبة، وهكذا صارت الحاجات جوهر علم الاقتصاد ومحور المشكلة الاقتصادية فيه، ولهذه الأهمية البالغة للحاجات كان المنهج الإسلامي في مقاصد الشريعة خير معين وضابط لعلاجها من خلال التفكر في المقصود للشريعة الإسلامية فالمقاصد متعدِّدة وكثيرة، وما يهمنا هنا هو ما يتعلَّق بالإنتاج والكسب الحلال، ولكن قبل أن أخوض في كل ذلك سأتطرق إلى بيان سريع لتعرف معنى المقصد عند بعض العلماء فأقول وبالله التوفيق:

مقاصد الشريعة هي: (المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة)[25].

يقول الغزالي [26]: (إن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، ولكن نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع وَمَقْصُودُ الشَّرْعِ مِنْ الْخَلْقِ خَمْسَةٌ: وَهُوَ أَنْ يَحْفَظَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَنَفْسَهُمْ وَعَقْلَهُمْ وَنَسْلَهُمْ وَمَالَهُمْ)[27].

(24) إحياء علوم الدين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفي: 505هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت2/91.

(25) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تح محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن، ط2، 2001ف، ص251.

(26) سبق ترجمته.

(27) المستصفي: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفي: 505هـ) تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، 1413هـ - 1993م 1/174.

مقاصد الشريعة هي: (الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع الحكيم عند كل حكم من أحكامها)[28].

لقد ذكر الغزالي أن إباحة الطعام والشراب الحلال إلى جانب كونها حافظاً للنفس وهو المقصود الأول، فهي لها مقاصد أخرى منها أنها سبب لحصول الأجر ودفع الوزر حيث قال: (وإنما آداب الدين وسنته التي يلتزم العبد بزمامها ويلجم المتقي بلجامها حتى يتزن بميزان الشرع شهوة الطعام في إقدامها وإحجامها فتصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر، وإن كان فيها أوفي حظ النفس)[29] .

(وعليه فإذا أكل المسلم أو شرب أو نام بقصد التقوي على طاعة الله من صيام أو جهاد أو قيام، فهذا مثاب على هذه الأعمال بهذه النية)[30] .

ومن مقاصد حفظ العقل الذي أمرنا به هو أن الله عز وجل فضّل الإنسان بالعقل وميّزه به على باقي المخلوقات وقد سخر الله كل ما في الكون لخدمة هذا الإنسان على أن يستخدم عقله في استغلال نعم الله ليكون خليفة في الأرض لإعمارها واستخراج ثرواتها لجلب المصالح التي يتلذذ بها في الدنيا وينعم بها في الآخرة، وذلك من خلال شرع الله الذي شرع لعباده هذا الشرع الذي لا يتحقق ولا يقوم إلا بالعقل، لأن العقل أساس التكليف .

وقد اهتم القرآن بالعقل وورد ذكره ومشتقاته في تسعة وأربعين موضعاً منها قوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [31]، لذلك حث على الإنتاج العلمي وحث على العلم والتعلم والتأليف في كل المستويات ؛ لأنه أساس كل شيء فلا يتحقق الإنتاج الزراعي ولا الصناعي ولا الغذائي ولا يعرف كونه حلالاً إلا بالعلم ومعرفة ما هو ممنوع ومرغوب، كما (أن التعليم ضروري وطبيعي في البشر لحاجة الإنسان إلى معرفة العلوم المختلفة التي لا تتيسر بالفهم والوعي فقط، بل بملكة خاصة تحصل بالتعليم، وأن التجربة تفيد عقلاً والملكات الصناعية تفيد عقلاً، والحضارة الكاملة تفيد عقلاً وهذه كلها قوانين تنظم علوماً فيحصل فيها زيادة عقل)[32].

لذلك من المقاصد العظيمة لحفظ العقل الذي هو أساس كل شيء، شرع الحلال وحرم الحرام الذي يفسد العقل فحرم الله الخمر في قوله تعالى : ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[33]، ويلحق بذلك كل ما يستر العقل ويذهب به، (فكل ما أسكر من مشروب أو مأكول فيحرم قياساً على الخمر؛ لأنها حرمت لحفظ العقل الذي

(28) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها علال الفاسي دار الغرب الإسلامي، ط5، 1993ف،، ص7.

(29) إحياء علوم الدين 2/2.

(30) مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، المملكة العربية السعودية الرياض , 1412هـ، 1991ف، ع48 /139 .

(31) سورة البقرة الآية 269.

(32) مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1348، ص359 .

(33) سورة المائدة الآية 90.

هـو منـاط التكليـف فتحريـم الـشرع الخمـر دليـل عـلى ملاحظـة هـذه المصلحـة) [34] .

ولا يقتـصر تحريـم الخمـر عـلى المعـروف منهـا، بـل المحـرم كل مـا مـن شـأنه إذهـاب العقـل، ومـن ذلـك إنتـاج النباتـات التـي يسـبب تناولهـا ذهـاب العقـل فحرمهـا اللـه تعـالى، وهـذا هـو المقصـود الأسـمى .

مقاصد إنتاج المال الحلال:

والإسـلام حريـص عـلى أن يدفـع المسـلمين ليعملـوا ويكدحـوا في إطـار السـنن الكونيـة، لإنتـاج المـال وكسـبه وتنميتـه التنميـة الحـلال، ولا يتوانـوا عـن ذلـك، ويدعـوا غيرهـم مـن الأمـم يأخـذون زمـام المبـادرة منهـم، بـل عليهـم أن يتقرَّبـوا إلى اللـه بالعمـل في عمـارة أرضـه، ويعتـبروا ذلـك مـن العبـادة التـي خلقهـم اللـه لهـا، كمـا قـال سـبحانه: ﴿ وَمَـا خَلَقْـتُ الْجِـنَّ وَالإِنـسَ إِلاَّ لِيَعْبُـدُونِ﴾ [35]. وهـذا مقتبـس مـن قولـه-r: (التاجـر الصـدوق الأمـن مـع النبيـين والصديقـين والشـهداء)[36]، وقـال صـلى اللـه عليـه وسـلم مـن سـعى عـلى عيالـه مـن حلـه فهـو كالمجاهـد في سـبيل اللـه ومـن طلـب الدنيـا حـلالاً في عفـاف كان في درجـة الشـهداء، فهـذا مقصـد عظيـم دلنـا عليـه رسـولنا الكريـم وهـو أن مـن حفـظ مالـه وتحـرى الصـدق والحـلال فيـه فهـو في أعـلى درجـة مـع النبيـين والصديقـين والشـهداء، نسـأل اللـه أن يجعلنـا منهـم.

وفي روايـة زهـده اللـه في الدنيـا وروي أن سـعداً سـأل رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم أن يسـأل اللـه تعـالى أن يجعلـه مجـاب الدعـوة فقـال لـه أطـب طعمتك تسـتجب دعوتـك [37].

وفي حديـث أبـي هريـرة رضي اللـه عنـه المعـدة حـوض البـدن والعـروق إليهـا واردة فـإذا صحـت المعـدة صـدرت العـروق بالصحـة وإذا سـقمت صـدرت بالسـقم [38] ومثـل الطعمـة مـن الديـن مثـل الأسـاس مـن البنيـان فـإذا ثبـت الأسـاس وقـوي اسـتقام البنيـان وارتفـع وإذا ضعـف الأسـاس واعـوج انهـار البنيـان ووقـع.

مقاصد الإنتاج الزراعي:

المقصـود بالإنتـاج الزراعـي: إنتـاج الثمـار والحبـوب التـي يأكلهـا الناس، ويعيشـون عليهـا مثـل القمـح والأرز والأذرة والشـعير وغيرهـا، ومثلهـا مـن الخـضروات والفواكـه التـي جعلهـا اللـه قوتـاً طيبـاً لعبـاده. قـال تعـالى: ﴿ وَآيَـةٌ لَّهُـمُ الأَرْضُ الْمَيْتَـةُ أَحْيَيْنَاهَـا وَأَخْرَجْنَـا مِنْهَـا حَبًّـا فَمِنْـهُ يَأْكُلُـونَ وَجَعَلْنَـا فِيهَـا جَنَّـاتٍ مِـن نَّخِيـلٍ وَأَعْنَـابٍ وَفَجَّرْنَـا فِيهَـا

(34) المستصفى، ص174 .

(35) سورة الذاريات آية رقم 56،

(36) الجامـع الكبـير - سـنن الترمـذي المؤلـف: محمـد بـن عيـسى بـن سَـوْرة بـن مـوسى بـن الضحـاك، الترمـذي، أبـو عيـسى (المتـوفى: 279هـ) حديـث رقـم: 1209 2/ 506. تحقيـق: بشـار عـواد معـروف النـاشر: دار الغـرب الإسـلامي – بـيروت سـنة النـشر: 1998 م.

(37) المعجم الأوسط للطبراني (6 /310) برقم (6495)، الناشر: دار الحرمين - القاهرة، الطبعة: الأولى 1415هـ - 1995م.

(38) أخرجـه الطبرانـي في المعجـم الأوسـط (4/ 329) برقـم (4343)، النـاشر: دار الحرمـين - القاهـرة، الطبعـة: الأولى 1415هـ - 1995م.

مِنْ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ (39).

وقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (40).

وقد جاءت الأحاديث النبوية الصحيحة تحثُّ على الإنتاج الزراعي بكلِّ صنوفه، وتعِد على ذلك بأعظم مقصود وهو الأجر عند الله. قال r: "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"(41)، ومما يدخل في هذا المقام: ما جاء من الحديث في (إحياء الموات) كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "مَن أحيا أرضا ميتة فهي له"(42)، فسمَّى هذا العمل في إصلاح التربة، وتهيئتها للزرع والغرس، وسوق الماء إليها، ونحو ذلك: (إحياء)، كما سمَّى الأرض التي لم تهيَّأ للزراعة (ميتة)، وفي هذه التسمية ما فيها من الثناء على هذا العمل، كما أنه كافأه على هذا الجهد بتمليكه ثمرة عمله، ليتنافس الناس على هذا العمل الخيِّر النافع، الذي لا يثمر إلا الخير والبركة والنماء للمجتمع(43).

مقاصد الإنتاج الصناعي:

في القرآن الكريم والسنة النبوية تجد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، في سياق الحثِّ على العمل الصناعي والحرفي، ينوِّه بفضل داود عليه السلام، ويعدَّه نموذجا يحتذيه المؤمنون، فيقول: "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده"(44)، فرغم ما آتى الله داود من الملك، وما مكَّن له في الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ (45)، لم يأكل عن طريق الملك، بل كان يأكل من عمل يده، أي من صناعة الدروع.

ويربِّي الإسلام المسلم على احترام العمل، ولو كان مدخوله قليلا، أو كان الناس ينظرون إليه نظرة استهانة، أو كان شاقًّا على النفس، لكنه يعفُّ المسلم عن مدِّ يده للآخرين، ومن المقاصد الشرعية في المنتج الصناعي الحلال أن الإنسان

(39) سورة يس آية رقم 33 - 35.

(40) سورة الأنعام آية رقم141.

(41) الجامع الكبير - سنن الترمذي 1382 (المتوفي: 279هـ) المحقق: بشار عواد معروف الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت سنة النشر: 1998 م).3/ 59.

(42) رواه أبو داود في الخراج والإمارة حديث رقم : 3073 المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت 3/178.

(43) مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي بحث مقدم للدورة الثامنة عشرة للمجلس - دبلن ص22.

(44) رواه البخاري في باب كسب الرجل من عمل يده حديث رقم :979 الناشر: مكتَبة المعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2002 م (2072)، وأحمد في المسند (17181)،2/ 22.

(45) سورة البقرة آية رقم251.

يحتاج إلى استصناع احتياجاته بأنواع ومقادير وصفات مخصوصة، قد ال توجد في السوق فيرغب في صنعها، فأبيح له الصنع، ولو حرم؛ لوقع الناس في الحرج.

كذلك من مقصوده أن فيه تحقيقا لمصالحهم، واستثمارا أموالهم، وتوفيرا لحاجاتهم، كصنع الإلكترونيات وبناء المطارات، وغيرها من متطورات التكنلوجيا الحديثة,

فالمقصد الشرعي موجود في عقد النظام الصناعي الإسلامي، فتحقيق العدل والمساواة بين الصانع والمستصنع، موجود في شريعتنا قال تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ [46] ومن أهم مقاصده أيضا حفظ الحقوق والممتلكات، وعدم تلفها أو تعرضها للخطر؛ لأنه يؤدي إلى استقرار المجتمع، وتآلفه؛ ويتحقق ذلك بدقة العقود، وتفصيل الحقوق والواجبات لكل الأطراف، والإشهاد، والتوثيق، وأخذ الضمانات، بما يمنع الخصومة، وغيرها، ولا شك أن كل ذلك موجود في عقد الاستصناع الحلال فقط، ولا يوجد في العقود الغربية المبنية على الربا والفائدة المزعومة. فكلما كانت شروط الاتفاق واضحة ومحكمة ودقيقة ابتعدنا عن الحرام وما يجره .

ومن مقاصد المنتج الصناعي الحلال تداول الأموال ورواجها في المجتمع، ويراد بهذا المقصد حركة المال ودورانه في المجتمع، بحيث ينساب دون حبس أو كنز؛، أو عدم دفع الزكاة، وكل ذلك بلا شك محرم.

ومن أهم المزايا المقاصدية التي يتمتع بها عقد الاستصناع أن عمليات الصنع تُسهم في تحريك عجلة الاقتصاد الوطني؛ لأنها تنطوي على مشروعات حقيقية، تولد المدخول وتسهم في تحقيق أهداف المصرف الإسلامي؛ بتوظيف أمواله لخدمة المجتمع، وللحصول على تدفق نقدي حلالاً منتظماً، وهذا يزرع الثقة في الصناعة الإسلامية، ويطورها، ويعلي قدرها.

ومن مقاصده أنه يقوم على مبدأ المشاركة، وهو مبدأ إسلامي أصيل في تحقيق الرواج، كما أنه لا يبنى على منهج الحيَل؛ لمخالفتها للمقاصد الشرعية؛ فالصنع الحلال تحريك لأموال المجتمع الإسلامي؛ لاستثمارها بطرق مشروعة فيما يفيد من مشروعات مدنية،، وتجارية، وتبادل منافع، داخليا وخارجيا؛ لتخفيف الأعباء المالية عن الدول الفقيرة خاصةً، ويُشارك بفاعلية في توظيف موارد المجتمع وطاقاته، كما يُشارك في إقامة المشروعات الضخمة دون انتظار الحصول على التمويل المال اللازم؛ ومن ثم تجنب التضخم، وارتفاع أسعار المعدّات، كما أنه يتيح للمشروعات الوطنية فرصة الاستفادة من المعدات الحديثة؛ فلو أرادت الدولة شراء معدات ضخمة، أو إقامة مشروعات

(46) سورة النحل لآية رقم 90.

عمالقة تحتاج إلى مبالغ طائلة، فبدل اللجوء للاقتراض الربوي فإنها تلجأ لعقود مشروعة في المؤسسات المالية الإسلامية؛ لشراء المعدات، أو إقامة المشروعات. وهي تجربة رائدة في الاقتصاد الإسلامي؛ تحمي الدولة من الفوائد الربوية، وتعالج مشكلة البطالة والكساد في المجتمع[47].

المبحث الثالث: الاستثمار المالي للكسب الشرعي:

يجب أن نتساءل: ما هي حدود الإمكانيات الدولة الفردية- بالنسبة إلى وطن بمفرده- لمواجهة الضرورات الداخلية والخارجية، لتوفير منتج إسلامي خاص بنا، أعني حدود حرية التصرف في الداخل، في نطاق دفع الطاقات الاجتماعية على أساس شرعي متين وضروري لدفع عجلة النمو الاقتصادية، ومن ناحية أخرى من أجل الصمود في وجه الزحف الاقتصادي من الخارج, وإجباره للدول الإسلامية بالتسوق والاستيراد من سوقها.

يجب أن نلاحظ أن شروط الاقتصاد التكاملي لا تتوافر إلا في أوطان معدودة مثل الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي والصين.

فالولايات المتحدة مثلاً تستهلك 95 % من إنتاجها داخل حدودها، أي أنها تستطيع إلغاء علاقتها الاقتصادية مع الخارج دون أن يتصدع اقتصادها إلا بنسبة 5 % ودون أن يشعر العامل بقطع العلاقات إلا على النسبة نفسها.

وبعبارة أخرى، فإن الولايات المتحدة تتمتع بالحرية الاقتصادية المطلقة، على وجه التقريب، وذلك بسبب اتساع رقعتها وقاعدتها الإسكانية، أي يُسرها من ناحية الثروة الطبيعية والعدة البشرية.

والصين، بعد الثورة الثقافية، أصبحت هي الأخرى، تستطيع قطع العلاقات الاقتصادية مع الخارج دون تضرر، على أساس من التقشف تفرضه ضروراتها الداخلية الحالية في مرحلة الإقلاع التي لا زالت تمر بها.

فهذه الدول كمثال لنا نحن كدولة، لماذا لا نكون مثل هذه الدول التي حققت أهدافها الاقتصادية مع أنها ناقصة لدخول الربا في معاملاتهم، ونحن الدول الإسلامية إذا طبقنا نظاماً خالياً من الربا، ونمضي خطوة أخرى في إضافة شيء مهم وهو: إن كل وطن، مسلم كدولتنا، تستطيع حل بعض مشكلاته داخل حدوده، خاصة اقتصادها، كما يستطيع حل مشكلات أخرى في نطاق تنظيم على أساس إسلامي، على أن يكون من مواردها، مثل إنتاج وتسويق البترول بالنسبة للدول العربية فقط للاستفادة منها كدولة مسلمة ولمنع التضخم المالي من عملاتها الصعبة فتنخفض الأسعار ونحقق اكتفاءً ذاتياً وبذلك نتحكم في منتوجنا ونميزه إن كان حلالاً أم حراماً.

ولكن قضية مثل هذه لا يمكن الفصل فيها بالارتجال وإنما بالدراسة على الخريطة.

(47) مقاصد الشريعة في العقود المالية: أشرف عبد الحليم كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة الشارقة - الإمارات العربية المتحدة ـــ بتصرف ص17 ـ 19.

إن ليبيا، على سبيل المثال، لها متسع من التراب، وفائض من المال المعطل؛ وعقول بشريه لا يستهان بها، فلو اجتمعت هذه العوامل الثلاثة في خطة تجريبية لأدرك العالم العربي عامة وليبيا خاصة أن شروط الإقلاع والاكتفاء الذاتي هي تحت يده، عندما يريد النهوض الاقتصادي، حتى تصير هذه التجربة لبنة عربية في أساس الحضارة الإسلامية الجديدة.

إن في استطاعة العالم العربي أن يعيد للتراب وظيفته الاقتصادية، وذلك منذ اليوم، بوسائله الموجودة بيده منذ الآن، حتى في الميدان الفني إذا قرر من ناحية أخرى استعادة العقول العربية المغتربة لأسباب مختلفة، منها الأسباب الثقافية التي تتصل بفقدان المسوغات الكفيلة بشد العزائم ورفع الهمم، إلى مستوى المسؤوليات المنوطة بالعلماء والمثقفين، في نطاق مشروع شامل تتحد فيه الأيدي والعقول والأموال في الرقعة العربية، أو في أكبر جزء ممكن منها بقدر ما تكتمل فيه شروط الاقتصاد التكاملي، حتى يستأنس الناس، والقادة بوجه خاص، بأن الأوطان التي لا تستطيع مواجهة الظروف الاقتصادية العالمية بمفردها، تستطيع الصمود لها والنمو، إذا تكاتفت عقولها وأيديها وأموالها في ورشة عمل مشترك من أجل اقتصاد متحرر لا يخضع لضغط خارجي، فبهذه الطريقة من الممكن أن تحل المشاكل الاقتصادية في النواحي الإنتاجية والتوزيعية والتبادلية كما يتضمن ذلك ما يتعلق بحرية توزيع الثروة وتملكها والتصرف فيها.

ابتكار المنتج:

في ظل الانتشار الكبير للعولمة واقتصاد المعارف ، أصبح العالم يشهد عدة تحولات في مختلف المجالات، بما فيها العلمي والتكنولوجيا اللذان يتطوران بشكل سريع، ولهذا على الدول الصغيرة والمتوسطة مواكبة هذه التغيرات السريعة.

من أجل البقاء والاستمرارية، ما يفرض عليها تحقيق أعلى مستويات من الأداء التسويقي حتى يمكنها الخوض في المنافسة .

لذا تكمن أهمية ابتكار المنتج ودوره في تحسن الأداء التسويقي، وتطوير المنتجات يعتبر خيار مجبر عليه، في ظل الظروف اليوم التي تتميز فيها البيئة الاقتصادية بالمخاطرة وعدم التجدد والتقادم السريع لابتكار المنتجات، ومن خلال إتباع هذه التطورات في ابتكار منتجات تستطيع الدول النامية أن تضمن بقائها في السوق، وذلك لتتمكن من التجاوب والتغيرات في أذواق الزبائن وهذا ما ينعكس إيجابيا على أداها التسويقي.

ولإبراز أهمية ابتكار المنتج في تحسن الأداء التسويقي في هذه الدول، يجب أن تطور من طاقاتها البشرية ودعم العقول المتميزة وتعليمها تعليماً جيداً لتتمكن من إبراز أجود ما عندها لتواكب العالم، ولتضمن عدم استغلالها أو فرض منتج من منتجاتها.

إن مفهوم الابتكار المنتج هو مفهوم واسع ويشمل كل ما هو جديد ومختلف يميز المؤسسة عن الآخرين ويمنحها دعما في المركز التنافسي وتحسين الأداء، سواء كان الابتكار في مجال المنتج أو طرق الأداء الإداري. فاستخدام طريقة معالجة للمواد الداخلية

في تصنيع المنتــج هو ابتكار المنتــج أو استخدام طريقة جديدة في تقديــم خدمة الزبون هو ابتكار، وعليه فإن الابتكار مرتبط بأي شيء جديد من قبل الدولـــة.

والإبتــكار هو التحسن التدريجــي والتوصل إلى المنتج الجديــد جزئيا من خلال التحسينات الكثــيرة والصغــيرة ، والتــي يتم إدخالهــا على المنتجــات الحالية .

خصائص ابتكار المنتج:

1 تصميم المنتج: يعتبر تصميم المنتــج من الأمور المهمـــة المؤثــرة على فرص تسويقها. ويتجاوز منتج مجــرد ولفت الانتباه إلى الوصول إلى ما هو أبعد من ذلك وهو فعالية الأداء بشكل يريح المســتهلك العربــي المســلم، فــلا يكــون شــكله سيء أو عليــه صــوراً محرمــة، أو خليعــة .

2 جودة المنتج: تعد جودة المنتــج من الوسائل التــي تساعد المســوقين في ترسيخ صورة المنتج في ذهن المســتهلك ، وخاصــة إذا تــم توضيفهــا في مجتمعاتنــا وخاصــة ليبيــا، فنفــور المســتهلك مــن المنتــج المحــلي ســببه رداءة المنتــج ؛لأنــه لــم يراعــي حــق اللــه فيــه.

ومــن أمثلــة هــذه الفقــرة ـــ وهــي جــودة المنتــج وتطويرهاـــــــ قيــام جهــات تقويــم المطابقــة بالتدقيــق عــلى المنتجــات والخدمــات ومنــح الشــهادات، واشــتراط اصــدار منــح شــهادات للمنتــج الحــلال

3 العلامة التجارية :تعتبر العلامة التجارية أمرا مهما وجزاء لا يتجزأ من السلعة وتعنـــي إســما تجاريــا أو علامة، وهي طريقة للتعريف بالمنتــج أو الخدمــة التــي يقدمها المنتــج، فهي عبارة عن اسم أو رسم أو توقيع أو رمز أو مزيج من كل ذلك يمكـــن من خلالهـــا تعريف المنتـــج لبائع واحد أو مجموعـــة من لبائع واحد أو مجموعـــة من البائعـــين، ليتعــرف مــن خلالهــا المســتهلك عــلى هــذا المنتــج، وهــذا للأســف نفتقــده في مجتمعنــا.

4 التعبئة والتغليف: تعد إستراتيجية التعبئة الامتداد الرئيسي لتكوين المنتجـــات. بل أن الاهتمام بالتعبئة في أحيان كثــيرة يعد أهم بكثــير من الاهتمام بمحتويــات المنتــج ذاته، لأن العبوة قد تؤثر بشكل مباشر على اتجاهــات المســتهلك نحــو المنتــج وبالتالي تؤثر في قراره الشرائي من عدمه، حتــى أصبــح مــن ثقافاتنــا أن تعبئــة الغــرب أفضــل مــن التعبئــة المحليــة، فــإذا قمنــا نحــن ببلدنــا بوضــع موازيــن معينــة وتقنــين لــكل ذلــك، وأصبــح المخالــف في قبضــة القانــون فســننهض حتمــاً بمنتوجنــا المحــلي والإســلامي.

5 بطاقة عنوان المنتج: يعتبر عنوان المنتـــج أمر مهما يؤدي عدة وظائف أهمهـــا التعريف بالسلع وماركتها.

ومن بين مستويات ابتكار المنتج الأساسية نجد:

أ) المنفعة الجوهرية أو المنتج الجوهرية: ويمثــل المنافــع الحقيقيــة التــي يسعى المســتهلك الحصــول عليها .

ب) صفات الحقيقية للمنتج أو ما يعرف بالمنتج الملموس أو الفعلي: وهو يتكون من عدة عناصر تتمثل بشكل السلعة وخصائصها، ونوعيتها، وشكل تصميمها، وطريقة تغليفها، وكذلك الماركــة التجارية لهــا .

ج) لخدمات الداعمة للمنتج الأصلي أو ما يعرف بالمنتج المكمل أو المتوقع: وما هو إلا حصيلة

الاتجاهات والظروف التي يتوقعها المشترون تلقائيا عند شرائهم للمنتج.

6. الرقابة التسويقية:هي عملية تسمح بمطابقة وقياس درجة تحقيق الأهداف المحددة في الخطة العملياتية،وهي محاولة شاملة ومنتظمة ومستقلة ودورية لاختبار المنتج والمنتجين ومراقبتهم.

بعض الحلول التي يجب تنفيذها والتقيد بها:

أ) توحيد التشريع الفقهي، وتوحيد المتطلبات الأساسية الواجب توافرها في المنتجات المنضوية تحت مظلة واحدة لمنظومة مرتبطة بالمنتجين للحلال.

ب) توحيد جهات مسؤولة على منح شهادات وعلامات للحلال .

ج) توحيد آليات الاعتراف المتبادل بين الهيئات العاملة من منتجين ومستوردين، والتدقيق على كل هذه المنتجات.

الاستثمار المالي للكسب الحلال:

بعد اكتساب المال من حِلِّه، ينبغي أن تسعى الدولة في تنميته، حتى لا يُستهلك بمرور الزمن، بسبب النفقة على أمور الدولة وهذا أمر دائم. والمال إذا كان يؤخذ منه باستمرار دون أن يُنمَّى جدير بأن يُهدَّد بالفناء بطول الزمن،، وأوكل الإسلام تعمير الكون وتنميته للإنسان ليكون بحق خليفة الله في أرضه هو غاية خلقه، فلم يخلق الله تعالى الإنسان في هذه الدنيا عبثا أو لمجرد أن يأكل ويشرب، وإنما خلقه لرسالة يؤديها، هي أن يكون خليفة الله في أرضه؛ لأنه صاحب الملك والمالك الحقيقي لكل الأموال. لذا سيحاسب المكتسب للمال أو الحائز المتصرف فيه حسابا عسيرا، وقد ترتب على تكييف الإسلام للملكية خاصة كانت أم عامة، أن أصبحت أمانة واستخلاف ومسئولية، ويجب الالتزام في شأنها بتعاليم الإسلام فلا يجوز مثلا تمكين السفهاء والمبذرين من هذا المال،لذلك أوجب حفظه وتنميته بكل الوسائل المتاحة.

وتعتبر مشكلة توزيع الثروة بين الناس من أهم مشاكل المجتمع في كل عصر، وذلك لأن التنمية الاقتصادية ووفرة الإنتاج، وطرق الاستثمار الصحيحة المبنية على المعاملات الإسلامية هي الأساس والمفتاح لحل المشكلة الاقتصادية، فإنه لا قيمة لهذه التنمية ولا معنى لهذه الوفرة، إذا لم تعم الجميع لتشمل كل فرد من أفراد المجتمع وكل دولة من دول العالم.

وإذا كان التفاوت في توزيع الثروة والدخول، هو أمر طبيعي يقره الإسلام تبعا لاختلاف المواهب والقدرات، بل يعتبر ضرورة لإيجاد الحوافز وتحقيق التعاون والتكامل سواء على المستوى المحلي أو العالمي، إلا أن الإسلام يرفض بشدة التفاوت الفاحش في توزيع الثروة أو احتكارها، أو أن تستأثر من خلاله فئة معينة من الأفراد، مما يؤدي إلى تهميش الأغلبية وسلبيتها، فنجد أن الإسلام يعالج توزيع الثروة والدخول من زاوية أخرى هي زاوية استعمال الثروة أو الدخل، مما لا نجد له مثلا في أي مذهب أو نظام اقتصادي.

فمثلا في ظل أي نظام اقتصادي رأسماليًّا كان أو اشتراكيًّا، يستطيع المرء في ظل

هـذا النظـام أن يكـون ثـروة وأن يكـون بلغـة اليـوم "مليونـيرًا" وأنـه طالمـا كـون ثروته بالطـرق المسـموح بهـا في هـذا النظـام، فـإن أحـدًا لا يملـك أن يحاسـبه عـن كيفيـة اسـتخدام دخلـه أو التـصرف في ثروتـه، بخـلاف الأمـر في الإسـلام فـإن هـذا الثـري ليـس حـرًّا في اسـتعمال مالـه كيفمـا شـاء، بـل هـو مقيـد بعـدة قيـود فهـو لا يسـتطيع مثـلا أن يكتنـز مالـه أو يحبسـه عـن التـداول والإنتـاج، وهـو لا يسـتطيع أن يعيـش عيشـة مترفـة وإلا عـد بنـص القـرآن مجرمًـا، وهـو بالتـالي ليـس أمامـه بالنسـبة لمالـه الزائـد عـن حاجتـه أو كفايتـه إلا أحـد أمريـن:

إما استثماره في مشروعات إنتاجية تعود بالنفع على المجتمع.

ب- وإما إنفاقه على الفقراء والمحتاجين وفي مشروعات خيرية.[48].

الخاتمة:

هـذا وأحمـد اللـه تعـالى عـلى التوفيـق للتحميـد، وأشـكره عـلى التحقيـق في التوحيـد، نحمـده أن مـن علينـا بأفضـل الرسـل سـيدنا محمّـد، أرسـله إلى القريـب والبعيد، بشـيراً للخلائـق ونذيـرا، وسراجـاً في الأكـوان منـيرا، ووهـب لـه مـن إحسـانه وفضلـه خـيرا كثـيرا، وجعلـه مقدّمـا عـلى الـكلّ كبـيرا، ولـم يجعـل لـه مـن أربـاب جنسـه نظـيرا، ونهـى أن يدعـى باسـمه تعظيمـاً لـه وتوقـيرا، وأنـزل عليـه كلامـاً قـرّر صـدق قولـه بالتحـدي بمثلـه تقريـرا، صـلى اللـه عليـه وسـلم تسـليماً كثـيراً.

وبعـد: فلمّـا كان القـرآن العزيـز والسـنة المطهـرة أشرف العلـوم، كان الفهـم لمعانيـه ومقاصـده شرف، وشرف العلـم بـشرف المعلـوم، .. وإنـي نظـرت في جملـة مـن كتـب الفقـه والحديـث ـــ خاصـة في أبـواب الكسـب الحـلال أو مـا شـابهها ـــ فوجـدت أن جميعهـا تحـث وتهـدف وتبـين أن لسـلامة الكسـب وتحـري المنتـج الحـلال أثـراً طيبـاً عـلى الإنسـان في سـلوكه وصفـاء قلبـه وقبـول دعائـه وعبادتـه، وهـذا المقصـد الأسـمى لخلـق الجـن والإنـس،.. لذلـك يعتـبر مـن الأولويـات التـي يجـدر البحـث فيـه، فأسـهمت بـشيء يسـير فيمـا يخـص بموضـوع المنتـج الحـلال والـذي اللـه عـز وجـل أن يوفقنـا فيـه إنـه ولي ذلـك والقـادر عليـه.

وخلاصـة هـذا البحـث تتمثـل في تقديـم ولـو شيء بسـيط لعامـة النـاس للتعريـف بهـذا الموضـوع ؛لأنـه مبنـي عليـه قوتهـم اليومـي.

والتعريـف بالكسـب الحـلال وأهميتـه، كذلـك إبـراز المقاصـد الشرعيـة للكسـب الحـلال وتقديمهـا بصيغـة مبسـطة، ثـم عـرض موجـز لبعـض الطـرق اسـتثمار الكسـب الشرعـي، وإيجـاد الحلـول لهـا.

وفي الختـام أوصي طلبـة العلـم عامـة وطلبـة العلـم الشرعـي خاصـة أن يهتمـوا بمثـل هـذه المواضيـع وذلـك بإثـراء مثـل هـذه الموضوعـات في المؤسسـات التعليميـة؛ لأنهـا مـن الأشـياء الضروريـة في هـذا الديـن.

(48) الإسـلام والتـوازن الاقتصـادي بـين الأفـراد والـدول محمـد شـوقى الفنجـرى (المتـوفي: 1431هـ) النـاشر: وزارة الأوقـاف130/1ـ131، يتـصرف.

المصادر والمراجع:

1/ القرآن الكريم
2/ إحياء علوم الدين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفي: 505هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت.
3/ الإسلام والتوازن الاقتصادي بين الأفراد والدول محمد شوقى الفنجرى (المتوفي: 1431هـ) الناشر: وزارة الأوقاف130/1ـ131، يتصرف.
4/ البداية لابن كثير . أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفي: 774هـ) المحقق: علي شيري الناشر: دار إحياء التراث العربي الطبعة: الأولى 1408، هـ – 1988 م.
5/ تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفي: 774هـ) المحقق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون بيروت الطبعة: الأولى 1419 ه.
6/ الذيل على طبقات الحنابلة، ابن رجب، مطبعة السنة المحمدية، 1952ف، 133/4 .
7 / زهرة التفاسير: محمد بن أحمد بن مصطفي بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفي: 1394هـ) دار النشر: دار الفكر العربي.
8/ سنن البيهقى الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1994ف .
المصباح المنير، الفيومى،ص241، مادة)نوى(وإغاثة اللهفان، ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة بيروت، ط2، سنة 1975.
9/ سنن البيهقي "سننه الكبير"، الناشر : مجلس دائرة المعارف العمانية بحيدر آباد الدكن – الهند، الطبعة: الأولى 1352 : 1355 هـ.12/ المبسوط محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفي: 483هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت.
10/ شرح صحيح الترمذي، دار الكتب العلمية – بيروت، د. ط، د. ت .
11/ الطبراني "الكبير"، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية، د. ت.
12/ طريق إلى الإخلاص والفقه في الدين المؤلف: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي الناشر: دار الأندلس الخضراء الطبعة: الأولى، 1421هـ/ 2001م .
13/ الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ (الشَّامل للأدلّة الشَّرعيَّة والآراء المذهبيَّة وأهمّ النَّظريَّات الفقهيَّة وتحقيق الأحاديث النَّبويَّة وتخريجها) المؤلف: أ. د. وَهْبَة بن مصطفي الزُّحَيْلِيّ، أستاذ ورئيس قسم الفقه الإسلاميّ وأصوله بجامعة دمشق - كلّيَّة الشَّريعة الناشر: دار الفكر - سوريَّة – دمشق الطبعة: الرَّابعة
14/ فقه العبادات على المذهب المالكي كوكب عبيد الناشر: مطبعة الإنشاء، دمشق - سوريا. الطبعة: الأولى 1406 هـ – 1986 م.
15/ لسان العرب : محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (المتوفي: 711هـ) الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – 1414 ه.
16/ مختصر منهاج القاصدين ابن قدامة المقدسي، تح عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4 سنة 2001 ف.
17/ المدخل أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (المتوفي: 737هـ) الناشر: دار التراث.
مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، المملكة العربية السعودية الرياض , 1412هـ 1991ف ع48 /139 .
ومعجم المؤلفين، عمر كحالة، مكتبة المثنى بيروت.
18/ المستصفى: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفي: 505هـ) تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، 1413هـ – 1993م.
21/ المعجم الأوسط للطبراني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة، الطبعة: الأولى 1415هـ – 1995م.

19/ مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها علال الفاسي دار الغرب الإسلامي، ط5، 1993ف.
20/ مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي بحث مقدم للدورة الثامنة عشرة للمجلس – دبلن ص22.
21/ مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن، ط2، 2001ف.
22/ المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف حامد العالم، دار الحديث القاهرة، الدار السودانية بالخرطوم .
23/ مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1348.

أُصُولُ النَّظَر الائْتِمَاني وفَلْسَفتُه الأَخْلاقيَّة عندَ طَهَ عبد الرَّحْمَن في أُفق التَّأسيس لِنَسَقٍ مَعرفيٍّ مُتكامِلٍ بين عِلمِ الأَخلاقِ وعلوم الوحي

د.يوسف المتوكل
دكتوراه في الفكر الإسلامي والفلسفة - جامعة سيدي محمد بن عبد الله - المغرب

الاستلام : 01/ 01/ 2023 القبول : 06/ 02/ 2023

ملخص:

نتطلع في هذه الدراسة إلى الكشف عن مفاصل أطروحة النظر الائتماني عند الفيلسوف طه عبد الرحمن، والبحث في فلسفته الأخلاقية المستمدة من علوم الوحي ومقاصد الشريعة الإسلامية، ومن ثم إبراز مظاهر التكامل والتفاعل بين النظر الائتماني في علم الأخلاق والسلوك وعلوم الوحي، ورصد أوجه الإمداد والاستمداد بينهما، في محاولة لاستخراج الآليات والوسائل المنهجية التي دعت إلى وجود هذا التداخل والتكامل بين النظر والعمل. وهي المظاهر التي استند إليها الفيلسوف طه عبد الرحمن في التأصيل لنظريته التكاملية في علوم ومعارف التراث الإسلامي العربي، وذهابه إلى القول بالرؤية الشمولية لمجامع علوم التراث، وإيمانه بإمكانية تحقيق تكامل منهجي ومعرفي بين العلوم الإسلامية الأصيلة والعلوم الإنسانية المرتحلة إلى فضاء الثقافة والمعرفة الإسلامية العربية؛ وهو ما يدعونا إلى البحث في الآثار المعرفية لهذا التكامل، ودورها في بناء نسق معرفي تكاملي جديد.

الكلمات المفتاحية: الائتمانية – التكاملية - الفقه - المقاصد - الأخلاق

Summary:

In this study, we look forward to revealing the joints of the thesis of credit consideration of the philosopher Taha Abdel Rahman, and research in his ethical philosophy derived from the sciences of revelation and the purposes of Islamic law, and then highlight the manifestations of integration and interaction between credit consideration in ethics, behavior and the sciences of revelation, and monitor the aspects of supply and derivation between them, in an attempt to extract the mechanisms and methodological means that called for the existence of this overlap and integration between consideration and action. These are the manifestations on which the philosopher Taha Abdel Rahman relied in rooting his integrative theory in the sciences and knowledge of the Arab Islamic heritage, and his view of the comprehensive vision of heritage science academies, and his belief in the possibility of achieving systematic and cognitive integration between authentic Islamic sciences and humanities migrating to the space of Arab Islamic culture and knowledge, which invites us to research the cognitive effects of this integration, and its role in building a new integrative knowledge system.

Keywords: Credit – Integrative – Jurisprudence – Purposes – Ethics

تقديم

نتطلع في هذه الدراسة إلى الكشف عن مفاصل أطروحة النظر الائتماني عند الفيلسوف طه عبد الرحمن، والبحث في فلسفته الأخلاقية المستمدة من علوم الوحي ومقاصد الشريعة الإسلامية، ومن ثم إبراز مظاهر التكامل والتفاعل بين النظر الائتماني في علم الأخلاق والسلوك ومقاصد الشريعة الإسلامية، ورصد أوجه الإمداد والاستمداد بينهما، في محاولة لاستخراج الآليات والوسائل المنهجية التي دعت إلى وجود هذا التداخل والتكامل بين النظر والعمل؛ وهي المظاهر التي استند إليها الفيلسوف طه عبد الرحمن في التأصيل لنظريته التكاملية في علوم ومعارف التراث الإسلامي العربي، وذهابه إلى القول بالرؤية الشمولية لمجامع علوم التراث، وإيمانه بإمكانية تحقيق تكامل منهجي ومعرفي بين العلوم الإسلامية الأصيلة والعلوم الإنسانية المرتحلة إلى فضاء الثقافة والمعرفة الإسلامية العربية؛ وهو ما يدعو إلى البحث في الآثار المعرفية لهذا التكامل، ودورها في بناء نسق معرفي تكاملي جديد.

وسنحاول من خلال هذه المقاربة تناول النظر الائتماني في "فلسفة الأخلاق" و"علم السلوك" في علاقته بـ"الأحكام الشرعية العملية"؛ مع العمل على استخلاص النتائج العلمية والعملية التي تُلامس في جوهرها تقويم المستوى المعرفي والسلوكي المتعلق بالفرد والمجتمع، والمرتبط بالذات وبالغير، أخذا وعطاء وتفاعلا مع الواقع الإنساني. كما تُلامس أيضا تقويم المستوى المعرفي والعقدي لعلاقة الإنسان بخالقه في "التخلُّق" و"التعلُّق" بـ"الذات العلِيَّة"، ائتمارا بالأوامر الإلهية التكليفية وواجباته الدينية، وائتمانا باستحضار مفاهيم وقيم "الأمانة" و"الشاهدية الإلهية" الموجِّهة، التي تجعله يراقب الله فيما ائتُمِن عليه من التكاليف والواجبات الشرعية، حتى يصير قوله وفعله حاضرا حضورا إيجابيا ومؤثرا في نفسه والمجتمع من حوله علميا وعمليا.

ولما كانت "أحكام الشريعة الإسلامية"، أو "الفقه الإسلامي" عموما، يتخذ بحسب طه عبد الرحمن اتجاهين: أحدهما "ائتِماري"، يبرز فيه جانب "التَّكليف" الذي يتجه نحو الامتثال الظاهري للجوارح؛ والثاني "ائتماني"، يبرز فيه جانب "الأمانة" الذي يتجه نحو الامتثال الباطني الذي تشترك فيه الروح والجوارح معا، فإنه كان حري بنا أن نتوجه بالنظر والفحص العلمي الدقيق إلى كيفية استثمار مناهج "علم الأخلاق" ومنهج "التزكية" في إبراز علاقته التكاملية بعلم مقاصد الشريعة الإسلامية، ومساءلة تلك العلاقة الجدلية بين التكاليف التي تتصل بظاهر الأحكام الشرعية، وبين مفاهيم الأمانة التي تتصل بالقيم الأخلاقية البانية، التي تثوي وراءها تلك الأحكام؛ وذلك في ضوء مستويين رفيعين من النظر: "نظر ائتماري" مرتبط بالتفكر في الأصول العامة التي تنبني عليها الأحكام العملية الشرعية، أو نحو ما يطلق عليه بـ"الآمرية الإلهية" و"آمرية الأحكام"؛ و"نظر ائتماني" مرتبط بالتفكر في الأصول العامة التي تنبني عليها

القيم الأخلاقية المؤسسة للأحكام الشرعية العملية، أو ما يطلق عليه بـ"الشاهدية الإلهية" و"ائتمانية القيم".

وبهذا، سنقف على جهود فيلسوف الأخلاق في استجلاءه ابتداء لمظاهر التكامل والتداخل المعرفي والمنهجي بين علم الأخلاق وأحكام الشريعة الإسلامية، وكشفه للأوصاف الأخلاقية التي تشبعت بها مقاصد الشريعة الإسلامية، وانبنت على أساسها أحكامها، وهو ما يجعلها متعلقة بالعمل أكثر من تعلقها بالإشارة والنظر.

ثم نقف على اجتهاده الفلسفي، وهو يضع الأسس العامة للنظر الائتماني في مقابل النظر الائتماري، الذي أُطلق عليه بـ"الشَّاهِديَّة الإلهيَّة"، والتي من مقتضياتها المعرفية أن صِلة المخلوق بالخالق هي صلة المشهود بالشاهد الأعلى، وأن صلة المأمور بالآمر الأعلى تابعة لهذه الصلة. وهو ما يعنى أن الإنسان يَرْقُب الله في كل أعماله العاجلة والآجلة على اعتبار أنها أمانات ائتُمن عليها، فوجب حفظها حفظا رعائيا، لا ائتمارا بالأوامر الظاهرية وحسب، وإنما شاهدا شهودا على هذه المعاني، التي تورثه صلاحا فرديا وجماعيا، عاجلا وآجلا.

وباعتقادنا أن هذا التصور في فلسفة التكامل الائتمانية بين المعرفة الدينية والسلوك الإنساني غير مسبوق في هذا المجال، فوجب كشف الحُجب عنه، ولفت الأنظار إلى أثر هذا التكامل المعرفي والمنهجي بين العِلمين في المعرفة الإنسانية، وسبل التفاعل معها في بناء تصور تكاملي بين العلوم المعرفية الدينية والعلوم الإنسانية.

وعليه فقد تم تقسيم الدراسة إلى مبحثين أساسيين:

أولهما: تعلق بالنظرية التكاملية بين علوم الوحي من جهة والعلوم الإنسانية من جهة ثانية، والمتجلية في نموذج حَي وهو التكامل المعرفي بين علم الأخلاق ومقاصد الشريعة الإسلامية، أو ما يمكن أن نطلق عليه بالبعد الأخلاقي والسلوكي لمقاصد الشريعة الإسلامية.

ثانيهما: تعلق بائتمانية القيم الأخلاقية، أي بالنظر في الفقه الإسلامي الائتماري المنبني على الظاهر القانوني للأحكام الشرعية، والذي لا يورث سوى تعبدا ظاهريا، في غياب التمثل الأخلاقي العملي لهذه الأحكام، في مقابل النظر في الفقه الائتماني، المنبني ليس على الظاهر وحسب، إنما على الباطن الأخلاقي الذي يثمر سلوكا ظاهريا لهذه الأحكام، والذي يعالج قضية الأحكام الشرعية في علاقتها بعلم السلوك، وكيفية بناء مفهوم معرفي مشترك ومتكامل بين العِلمين، تنبني على أساسه المعرفة والقيم، ويكون معيارا يقوّم به السلوك الفردي، ويبنى على أساسه المجتمع المُتَفَقِّه والمُتَخلِّق.

المبحث الأول

النظرية التكاملية بين علم الأخلاق وعلوم الوحي

يشكل التداخل المنهجي والمعرفي بين العلوم الإسلامية المختلفة مظهرا بارزا من مظاهر تكامل معارف التراث الإسلامي العربي. وقد كان لتصنيف العلوم والمعارف العربية والإسلامية وترتيبها أهميته القصوى في خدمة التقارب والتشابه وتحقيق عنصر التكامل؛ وهو ما عبر عنه "ابن حزم" (ت456ه) في رسالة مراتب العلوم، بقوله: "العُلوم كلّها متعلق بعضها ببعض، ومحتاج بعضها إلى بعض"[1].

وما جاء أيضا على لسان "الغزالي" (ت505ه) في ميزان العمل، قائلا: "إن العلوم مُرَتَّبة ترتيبا ضروريا، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق مراعي ذلك الترتيب"[2]. وبناء عليه، كان من أولويات البحث العلمي عند العلماء المتقدمين، أن يتدرج الباحث في تلقي العلوم والمعارف بحسب أولوياتها العلمية، ولَمَّا يَكتملُ التَّحصيل تصير هذه العلوم مُشَكِّلة وحدة منسجمة في نسق متكامل، يتداخل ويتفاعل بعضها مع بعض.

لم يكتف العلماء المسلمون بالقول بـ"تراتب العلوم"، وتدرجها فيما بينها، وتعلق بعضها ببعض، بل أقروا كذلك بمشروعية التفاعل فيما بينها؛ فكان أن تفاعلت جملة من المباحث الكلامية مع المباحث اللغوية والبلاغية والفلسفية، كما تتفاعل المباحث المنطقية مع المباحث اللغوية والأصولية. وهو مظهر آخر من مظاهر التداخل، لا يقل أهمية عن الأول في بروز التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية، وإفادة بعضها البعض، في علاقة متداخلة ومتشابكة بين حقولها ومجالاتها العلمية.

وهذا ما جعل العلوم المعرفية تُثري بعضها، وتوجه مسار بعضها البعض. إن هذا التفاعل والإثراء جعل أيضا العديد من المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالعلم الواحد تمتزج بمصطلحات ومفاهيم غيره من العلوم، في صور تجسد مظهر التكامل؛ وخير شاهد على هذا التفاعل والإثراء، هو اختلاط التصورات الفلسفية بالمفاهيم الكلامية والمعاني الصوفية، وامتزاج مصطلحات الجدل بمصطلحات جل العلوم الإسلامية، مثل الفقه، وعلم الكلام، والنحو، والبلاغة.

هذا الطابع التداخلي بين حقول معرفية متعددة ومتنوعة بدرجات مختلفة، وتفاعلها فيما بينها، أدى فيما بعد إلى الوصول إلى فكرة "الموسوعية"، وهي المرتبة الرفيعة التي تتعلق بالتعليم الموسوعي، فالتكوين الموسوعي، ثم التأليف الموسوعي؛ حيث ما لبثت قضية الموسوعية العلمية أن خلقت مظهرا علميا راقيا

(1) الأندلسي، أبو محمد علي ابن حزم، 1980، رسالة مراتب العلوم في ضوء ما سبقها من تصنيف للعلوم عند العرب، تحقيق، إحسان عباس، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزء الرابع، ص 90-89.

(2) الغزالي، أبو حامد، 1964، ميزان العمل، تحقيق، سليمان دنيا، ط1، مصر، دار المعارف، ص 209.

في شتى مناحي العلوم والمعارف، وهو مظهر قَلَّ نظيره في التاريخ الإسلامي العربي[3].

ولا عجب إذاك، أن نجد زمرة من العلماء ساروا على هذا النمط المعرفي الشمولي والموسوعي ما دعاهم إلى التَّفَنُّن في شتى العلوم والمعارف العقلية والنقلية، حتى أُطلق عليهم فيما بعد بالعلماء الموسوعيين، ليس لقوة علمهم وتمكنهم من أدواته المنهجية وحسب، إنما أيضا في تصنيف مصنفاتهم وموسوعاتهم، التي تنوعت بين الفلسفة والمنطق، والكلام والفقه، والنحو والشعر والأدب، وغيرها من العلوم التي تمزج بين المعارف الحِكْمِيَّة والمِلِّيَّة.

إذا تم التسليم بهذا التصنيف، الذي يدل دلالة واضحة على البناء المتراص لمعارف التراث وعلومه، سواء من جهة "ترتيب العلوم" أو من جهة "تفاعلها" فيما بينها، فإنه كان من الواجب أن يتم النظر إلى العلوم الإسلامية والعربية نظرة شمولية، تتجه إلى كيفية تفاعلها مع جميع جوانب الحياة الإنسانية، الفردية والجماعية، ليس فقط في ارتباط هذه الحياة بالوجود المادي للإنسان وحسب، وإنما في التفاعل معها باعتبار عناصر الحياة الإنسانية المختلفة، المادية والروحية، النفسية والاجتماعية، العاجلة والآجلة.

ومن ثم، النظر في الكيفية التي ينبغي أن يُستثمر بها هذا التكامل والتفاعل المعرفي بين العلوم في استشكال قضايا الإنسان الوجودية، وعلاقته بالكون والحياة، ابتداء كفرد مسلم مكلف، يتحمل مسؤولية أفعاله وأقواله اتجاه نفسه واتجاه خالقه؛ وانتهاء بكونه يشكل عنصرا أساسيا من عناصر أفراد المجتمع، الذي ينهض بِتَخليق الحياة العامة، وبناء مجتمع يتكامل فيه نمطين اثنين من الوجود، نمط "الإِنْوِجَاد" الذي يحفظ اقتران جسم الإنسان بروحه، في تفاعله مع عالم الشهادة، فيسمو بقيم عالم الغيب؛ ونمط "التَّوَاجُد" الذي يحمل الروح على تعاطي الانفكاك عن الجسم المادي، والذي يتحدد به عالم الغيب، فيعيش بقيمه ومعانيه في عالم الشهادة[4].

وهذا كله، انطلاقا من تفاعله مع علوم الوحي الإلهي ومقاصد الشريعة الإسلامية

(3) الجدير بالذكر هنا، هو أن الحياة العلمية في الحضارة الإسلامية تميزت بخاصية فريدة، هي خاصية الموسوعية والعلماء الموسوعيين، الذين جمعوا بين عمق التخصص وشمولية الموسوعية؛ فنجد الواحد منهم موسوعة شاملة لمختلف العلوم والفنون، ونذكر على سبيل المثال، الغزالي (ت505ه)، الذي مثل ظاهرة فكرية لعلوم عصره، من الفقه إلى الأصول إلى الفلسفة إلى التصوف وعلم السلوك. وابن رشد (ت595ه)، الذي كان الناس يفزعون إلى فتواه في الفقه كما يفزعون إلى فتواه في الطب. وابن سينا (ت427ه)، الذي كان يلقب بالشيخ الرئيس في الشرعي والمدني، في الإلهيات والطبيعيات، في التصوف وفي النبات والحيوان.

(4) لا يفتأ "طه عبد الرحمن" يدعو في معظم كتاباته، إلى ضرورة توظيف الإمكانات الاشتقاقية الخاصة باللسان العربي في صناعة الفكر العربي والفلسفي؛ لذلك نجده في كثير من الأحيان يَنْحَتُ مصطلحاته من استثمار اللغة العربية، لاسيما من منظومة مفاهيم ومصطلحات التراث الإسلامي العربي القديم، أو من نصوص "القرآن الكريم" وأقوال "السنة النبوية الشريفة". ونورد هاهنا نموذجا من تلك النماذج؛ فقد صَكّ الرجل هذين المصطلحين، وهما: "الإِنْوِجَاد" و"التَّوَاجُد"؛ ومصطلح الإنوجاد مشتق من كلمة وَجد، لكونه يختص بالدلالة على معنى الوجود في العالم المرئي، كما إذا قيل: وجدته، فانوجد هنا، بمعنى وجد. (يرجى الرجوع إلى عبد الرحمن، طه، 2012، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، ط2، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص36 - 37 - 38).

السَّمحة، التي تشكل الرؤية، وتُحدد المسار، الذي يُوجه الإنسان المعاصر الوجهة الصحيحة السليمة، إن على مستوى الحياة العاجلة أو الأخرى الآجلة.

أولا : التكامل المنهجي والمعرفي بين أصول الفقه وعلم الأخلاق

في سياق التأسيس المنهجي والمعرفي لأركان "النظرية التكاملية" في التراث الإسلامي العربي، لم يجد الفيلسوف طه عبد الرحمن من العلماء الأصوليين الذي استوفى الشروط النظرية والعملية ليكون مثالا نموذجيا للتداخل والتكامل المعرفي أكثر من "أبو إسحاق الشاطبي" (ت790هـ)[5]، وهو الرجل الذي كان ولازال يُنسب إليه تجديد علم "أصول الفقه" وتوسيعه[6]. وقد كان مصنفه الموسوم بـ"الموافقات في أصول الشريعة"[7]، مجالا خصبا لاستجلاء مظاهر التداخل والتكامل المعرفي الداخلي.

ويعد علم "أصول الفقه" من بين العلوم الإسلامية المبدعة في دراسة قوانين الشريعة الإسلامية، ومقاصدها العامة، التي تفردت بها الحضارة الإسلامية؛ فأضحى هذا العلم نتاجا علميا كان له قصب السبق في تدشين "علوم المناهج"[8]، أو (الميتودولوجيا Méthodologie) الذي ينظر في الأدلة الشرعية وقواعد الاستنباط والأحكام، وفي فقه العلم[9]، أو (الإبستمولوجيا Epistémologie)[10]، الذي يبحث في

(5) محمد أبو إسحاق الشاطبي (ت790هـ)، صاحب كتاب "الموافقات في أصول الشريعة"، الذي يؤسس فيه للكليات المتضمنة لمقاصد الشرع في وضع الشريعة، وكتاب الاعتصام، وكتاب الإفادات والإنشادات، وهو من صنف المذكرات المشتملة على فوائد علمية، وغيرها من التصانيف التي تتسم بالسعة والشمول والعمق. (يرجى الرجوع لـ: الشاطبي، أبو إسحاق، 1406هـ-1985م، فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق، محمد أبو الأجفان، ط1، تونس، مطبعة الكواكب، ص 52-32).

(6) تجدر الإشارة إلى أن الإمام الشاطبي كانت له تجديدات معتبرة في علم الأصول، وكان مدُّه فيها واسع ومتقدم؛ حيث جدد في هذا العلم تجديدا قد يصل إلى حد التأسيس في بعض جوانبه؛ من أهمها: اتخاذه الاستقراء منهجا، يقوم منطقه على تصفح الأجزاء وتتبعها، للخروج بقانون عام وهو الدليل الاستنباطي. (أنظر: بابكر حسن، خليفة، 2007، التجديد في أصول الفقه، مشروعيته وتاريخه وإرهاصاته المعاصرة، مجلة المسلم المعاصر، السنة الثانية والثلاثون، عدد 126-125، لبنان، ص180-87).

(7) الشاطبي، أبو إسحاق، 1425ه-2004م، الموافقات في أصول الشريعة، شرح وتخريج، عبد الله دراز وعبد السلام بن عبد الشافي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

(8) يعد علم "أصول الفقه" من أكثر العلوم تعبيرا عن المنهج في العلوم الإسلامية، وهو العلم الذي كشف عن ابتكار هذا المنهج عند المسلمين، وذلك باعتباره ثمرة العقل الإسلامي الخالص. ويورد زكي الميلاد نصا يقارن فيه فخر الدين الرازي (ت606ه)، بين الشافعي (ت204ه) وأرسطو (ت322 ق.م) والفراهيدي (ت173ه)، فيقول: "واعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول، كنسبة أرسطوطاليس إلى علم المنطق، وكنسبة الخليل الفراهيدي إلى علم العروض، ذلك أن الناس كانوا قبل أرسطوطاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة، لكن ما كان عندهم قانون مخلص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين، فلا جرم كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة، فإن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلي قلما أفلح، فلما رأى أرسطوطاليس ذلك استخرج علم المنطق". (يرجى الرجوع لـ: الميلاد، زكي، 2012، أصول الفقه ومسألة المنهج، مجلة المسلم المعاصر، عدد 146-145، لبنان، ص 159-127).

(9) الميتودولوجياMéthodologie :، لغويا Métodos تعني الطريق إلى Logos، وتعني دراسة أو علم، وموضوعها هو الدراسة القبلية للطرائق العلمية من حيث غاياتها ومبادئها وإجراءاتها وتقنياتها. (أنظر: الدريج، محمد وآخرون، 2011، معجم مصطلحات المناهج وطرق التدريس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، الرباط، ص 142).

(10) يعود أصل مصطلح "الإبستمولوجيا" للكلمة اليونانية Epistemology، وهي مكونة من مقطعين épistème، وتعني المعرفة، وLogos تعني السبب؛ فهي من حيث الاشتقاق اللغوي تشير إلى مقالة في العلم. (أنظر: – La rousse dictionnaire encyclopédique, 1979, rousse la librairie paris volume 13, p : 501.

فالإبستمولوجيا تنظر في المعرفة العلمية نظرة تكاملية؛ فهي لم تعد تفصل بين الذات والموضوع، ومهمتها البحث في نمو المعارف العلمية من جميع جوانبها التاريخية والنفسية والمنطقية. (يرجى الرجوع إلى: يفوت، سالم، 1988، درس الإبستمولوجيا، ط2، الدار البيضاء، دار توبقال، ص 188).

فلسفة التشريع؛ كما تمتزج فيه علوم أخرى عملية مستقلة بنفسها، مثل علم الحديث، والتفسير، وعلم القراءات، وعلم الكلام.

بالرجوع إلى كتاب الموافقات، يجد المتصفح أن الشاطبي ينشغل بمنهج التداخل والتكامل منذ بداية صفحاته الأولى؛ فقد انفردت مقدماته العلمية بالتمهيد لبيان المقصود الذي شغله وهو عنصر التداخل المعرفي، بالقدر الذي شغله التأسيس لعلم المقاصد الشرعية وما يتعلق بها من أحكام؛ وهو ما يؤكده طه عبد الرحمن بقوله: "ولا أدل على انشغاله بالتداخل من فتح باب استشكاله، والنظر في هذا الإشكال في مطلع كتابه الموافقات"[11].

لذلك انبرى في تأسيسه لهذا العلم إلى وضع حدود الاندماج الذي يمكن أن يلحق بعلم الأصول، لأنه وبدون وضع هكذا حدود ستضيع خصوصيته العلمية التي يتميز به؛ وهكذا أخرج الشاطبي كل المعارف والعلوم التي لا تخدم علم الأصول، والتي سميت بالمسائل العارية، كونها عارية عن إفادة العلم وخدمة مقاصده.

اعتمد الشاطبي هذا الإجراء المنهجي في القاعدة الرابعة من القواعد الثلاثة عشر، التي قرر فيها أن "كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية أو آداب شرعية أو لا تكون عونا في ذلك[12]، فوضعها في أصول الفقه عارية"[13]. وبناء عليه، فقد انبنى التداخل المعرفي على كل العلوم التي ثبتت إفادتها لهذا العلم، وبنيت عليها مسائل وقضايا فقهية، أو استُخلصت منها آداب شرعية، أو حتى وإن كانت تعين على ذلك بطريق مباشر لا بالوساطة؛ فتكون بذلك المعارف المتكاملة مع علم الأصول هي بالذات "المعارف التي تأصلت في هذا العلم، وانبنت عليها الفروع الفقهية"[14].

بناء على هذه القاعدة المنهجية، قرر الشاطبي قوانين التداخل المعرفي التي أجملها في قانونين أساسيين، هما: "إفادة الفقه"، و"الدخول في النسبة إلى علم الأصول". وقد اجتهد طه عبد الرحمن بإضافة شرط آخر إلى هذين القانونين، وهو "مبدأ تراكم الأدلة"، أي تنوعها وتكثيرها، مما يفيد اليقين أكثر من الظن؛ ومقتضى هذا الشرط هو "أن الدليل الواحد قد يفيد بانفراده الظن، لكنه يفيد باجتماعه إلى غيره اليقين"[15]. وبهذا، يمكن القول، أن الفضل الكبير يرجع للشاطبي في تأسيسه وتجديده لمفهوم أساسي في مقاصد الشريعة الإسلامية، وهو مفهوم المقصد[16].

(11) عبد الرحمن، طه، 2012، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط4، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص 94.

(12) علق محقق الكتاب عبد الله دراز على ذلك، بقوله: "أي بطريق مباشر لا بالوساطة، كما هو الحال في الاستعانة على الاستنباط بالعلوم الآتية؛ فهو يريد أن المقدمات التي ذكرها في كتابه، فيها العون المباشر الذي يجعلها من الأصول، بخلاف المقدمات البعيدة". (أنظر: الشاطبي، أبو إسحاق، 1425ه-2004م، الموافقات في أصول الشريعة، مصدر سابق، هامش ص 26.

(13) المصدر نفسه.

(14) عبد الرحمن، طه، 2012، تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق، ص95.

(15) المرجع نفسه، ص 96.

(16) ويعتبر هذا من باب اهتمامه بمفهوم مصطلح المقاصد عموما، وبمقاصد الشريعة الإسلامية على الخصوص، ولفته الأنظار إلى أسرارها. ثم إنه بمنهجه الكلي قدم للمجتهدين والعلماء مضامين الشريعة الإسلامية مختصرة واضحة، تؤمن لها الشرط اللازم لحسن فهمها، وسداد الاجتهاد فيها. (أنظر بهذا الصدد: الزرقاء، مصطفى أحمد، 1425هـ-2004م، المدخل الفقهي العام، ط2، دمشق، دار القلم، الجزء الأول، ص 119).

أخذ هذا المفهوم حظا وافرا من البحث والدراسة المصطلحية في القديم والحديث[17]؛ إلا أنه لم يعرف اجتهادا مبدعا ومخالفا لما تقرر في الدرس المفاهيمي والمضموني إلا على يد الفيلسوف طه عبد الرحمن، الذي أبدع في تدقيقه وإخراجه من حقل المفاهيم والمدلولات المصطلحية المتداولة، وذلك بعد أن جعله مشتركا بين ثلاثة معاني أساسية؛ فمن خلال استشكال مصطلح المقصد والاستدلال على دلالاته الخطابية والتعبيرية، يتبين أنه مدار التداخل والتكامل المعرفي الداخلي.

ثانيا: المستويات الدلالية لمفهوم "القَصْدِ" في علم المقاصد

قدم طه عبد الرحمن تأويلا جديدا لمفهوم مصطلح المقاصد؛ حيث استشكل من خلاله أصول وأركان التداخل والتكامل المعرفي الحاصل بين "أصول الفقه" و"علم الأخلاق" في التراث الإسلامي العربي[18]. انطلق بداية من تتبع المعاني اللغوية لفعل "قَصَدَ"، من خلال تعريفه بالضد في ثلاث مستويات أساسية، وتفصيل الفروق فيما بينها من جهة المعنى.

المستوى الأول: في معنى "قصد"[19]، وهو حصول الفائدة، وهو أيضا ضد اللغو؛ فالمقصود من جهة المعنى هو المضمون الدلالي للكلام، يقول طه عبد الرحمن: "يستعمل الفعل قصد بمعنى هو ضد الفعل لغا يلغو؛ ولما كان اللغو هو الخلو عن الفائدة أو صرف الدلالة، فإن المقصد يكون على العكس من ذلك، هو حصول الفائدة أو عقد الدلالة. واختص المقصد بهذا المعنى باسم المقصود، فيقال: المقصود بالكلام ويراد به مدلول الكلام، وقد يجمع على المقصودات"[20]. وحرصا على التمييز استعمل الجمع؛ فالقُصود جمع مقصد وهو المضمون الدلالي؛ فيشتمل علم المقاصد من هذا الوجه على نظرية سميت بـ"نظرية المقصُودات"،

(17) بالنظر إلى البحوث والدراسات الشرعية والأصولية المتقدمة والمتأخرة، قَلَّما يوجد تعريف دقيق للمقاصد يرتبط بـ"علم الأخلاق". فمن بين التعريفات المتداولة، ما جاء به ابن عاشور، أنها: "الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة، أو لحفظ مصالحهم العامة، في تصرفاتهم الخاصة. (أنظر: ابن عاشور، الطاهر، 1435ه-2005م، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق، محمد الحبيب بن الخوجة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 306- 307). أما علال الفاسي، فيقول: "المراد بمقاصد الشريعة، الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها". (أنظر: الفاسي، علال، 1993، مقاصد الشريعة ومكارمها، ط5، الرباط، دار الغرب الإسلامي، ص 7). فهذه التعريفات تدور على كون أن المقاصد تمثل مراد الله في أحكامه وتشريعاته، مما فيه مصلحة المكلفين في المعاش والمعاد، غير أنها لم تخرج عن المدلول المقصود المجمع عليه من كافة العلماء والأصوليين.

(18) لا يخفى على الناظر أن الشاطبي كان يفكر من خلال نسيج مصطلحي متناسق وعميق، بحثا وتحريرا، ونقدا وتجديدا، وبوضعه هذه الطريقة الجديدة في التفكير الأصولي، يكون الشاطبي، قد دشن من خلال ذلك مشروعا ثقافيا جديدا، يدل على "قدرته على تجديد المفاهيم، ثم إلباسها صيغ الاصطلاح؛ وهذا ضرب من التأسيس في العلم؛ فالتجديد الذي يتأسس على التغيير في المصطلحات أو مفاهيمها هو تجديد في الجوهر، وإضافة حقيقية للعلم". (أنظر: الزرقاء، مصطفى أحمد، 1425هـ-2004م، المدخل الفقهي العام، مرجع سابق، ص 119).

(19) تطلق المقاصد لغة على مادة (ق.ص.د) في اللسان العربي؛ حيث جاء في لسان العرب: أن أصل (ق.ص.د) الاعتزام والتوجه، والنهوض نحو الشيء، وفي بعض المواضع يقصد الاستقامة دون الميل. (أنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، 1414ه، لسان العرب، تحقيق، عبد الله الكبير وهاشم محمد الشادلي، ط3، القاهرة، دار المعارف، الجزء الثالث، ص 353). وبهذا يكون معنى مادة (قصد) تدل على معان مشتركة ومتعددة، إلا أن الغالب عند إطلاقها انصرافها إلى العزم على الشيء، والتوجه نحوه.

(20) عبد الرحمن، طه، 2012، تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق، ص 98.

وهي التي تبحث في المضامين الدلالية للخطاب الشرعي.

المستوى الثاني: في معنى "قصد" وهو حصول التوجه المسبوق بالنية، وهو أيضا ضد السهو؛ فالمقصد هنا هو المضمون الشعوري أو الإرادي؛ يقول صاحبنا: "يستعمل الفعل قصد أيضا بمعنى هو ضد الفعل سها ويسهو، ولما كان السهو هو فقد التوجه أو الوقوع في النسيان، فإن المقصد يكون على خلاف ذلك، هو حصول التوجه والخروج من النسيان. واختص المقصد بهذا المعنى باسم القصد، وقد يجمع على قصود أو قل بإيجاز إن المقصد بمعنى القصد هو المضمون الشعوري أو الإرادي"[21]. فيشتمل كذلك علم المقاصد بهذا المستوى على نظرية سميت بـ"نظرية القُصود"، وهي التي تبحث في المضامين الشعورية أو الإرادية.

المستوى الثالث: هو في معنى "قصد" وهو حصول الغرض الصحيح والمشروع، وهو ضد اللهو أيضا؛ فالمقصد هنا مختلف عن المعنى الأول والثاني، فهو يعبر عن المضمون القيمي، يقول الرجل: "يستعمل الفعل قصد كذلك بمعنى هو ضد الفعل لها ويلهو؛ ولما كان اللهو هو الخلو عن الغرض الصحيح وفقد الباعث المشروع، فإن المقصد يكون على العكس من ذلك هو حصول الغرض الصحيح، وقيام الباعث المشروع. واختص المقصد بهذا المعنى باسم الحِكمة؛ فالمقصد بهذا المعنى هو المضمون القيمي"[22].

وهذا من دلالات مفهوم المقاصد، الذي وُسم بـ "نظرية المقاصد"؛ ونظرية المقاصد عند العلماء الأصوليين هي التي تختص بالبحث في المضامين القيمية للخطاب الشرعي. إن هذه النظريات الثلاث المترابطة مفاهيميا: نظرية المقصودات، ونظرية القُصود، ونظرية المقاصد، هي التي تمنحنا في منتهى جمعها ما يطلق عليه عند الأصوليين بعلم المقاصد[23].

وهنا بالذات، كان من لزاما على طه عبد الرحمن أن يستشكل السؤال الذي لطالما ظل حبيسا في الأذهان، ومنسيا في جل الدراسات والبحوث التراثية قديمها وحديثها، وهو سؤال ظل يُعمل فيه الفكر والنظر المتفحص، والدال على وعي كبير بمسؤولية المفكر والفيلسوف العربي المسلم في إبداع مفاهيمه ونحت مصطلحاته، عن دواعي جعل هذه النظريات الثلاثة في علم المقاصد تجتمع في صلب أصول الفقه إلا لغاية واحدة، وهي أنها تحمل في مظانها أوصافا من

(21) المرجع نفسه.

(22) المرجع نفسه.

(23) يورد ابن مسعود اليوبي في كتابه: "مقاصد الشريعة الإسلامية" تعريفا جامعا للمقاصد، حاول أن يجمع فيه بين جملة من تعاريف العلماء؛ حيث يقول إن المقاصد هي: "المعاني والحِكم ونحوها التي رعاها الشارع في التشريع عموما وخصوصا، من أجل تحقيق مصالح العباد". (أنظر: ابن مسعود اليوبي، أحمد، 1418ه-1998م، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، ط1، الرياض، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ص 36-35). والمقصود بـ"المعاني" هي العلل؛ و"الحِكم" هي ما يترتب على التشريع من جلب مصلحة ودرء مفسدة؛ والقصد من "نحوها" أي الألفاظ الأخرى كالغاية والفائدة، وهي مقصود الشراع؛ وقوله: "التي رعاها الشارع في التشريع" أي التي قصدها؛ وتعبيره بـ "العموم والخصوص"، ليشمل التعريف المقاصد العامة والخاصة؛ وأما عبارة "من أجل تحقيق مصالح العباد" فهو وصف قصد به الإيضاح.

"علـم الأخـلاق"[24]؛ مؤكـدا عـلى أن هنـاك أصـل جامـع بينهـا، أي بـين النظريـات الثـلاث، قائـلا: "إذ إن لـكل مـن المقصـود والقصـد والمقصـد أوصافـا أخلاقيـة ظاهـرة وخفيـة"[25]. فلننظـر في هـذا البعـد الأخلاقـي الـذي تتميـز بـه مقاصـد الشريعـة الإسـلامية والعلـوم الخادمـة لهـا.

ثالثا: البعد الأخلاقي لعلم المقاصد في الشريعة الإسلامية

عمـل طـه عبـد الرحمـن عـلى اسـتجلاء الأوصـاف الأخلاقيـة التـي تشـبعت بهـا مقاصـد الشريعـة الإسـلامية، وانبنـت عـلى أساسـها أحكامهـا، لبيـان كيـف تداخـل وامتـزج علـم الأخـلاق بعلـم الأصـول، منتهيـا إلى حقيقـة التداخـل المعـرفي بـين العِلمـين. وأفـاد أن الحكـم الشرعـي عنـد الأصوليـين مبنـي عـلى عنـصر أسـاسي وهـو "الفطـرة"، التـي يكـون تعلقهـا بالعمـل والسـلوك أكثـر مـن تعلقهـا بالإشـارة والنظـر.

فالمعانـي العمليـة بالنسـبة إليـه، هـي بمثابـة القواعـد السـلوكية التـي تقررهـا الأحـكام الشرعيـة، ومتـى تـم التسـليم بـأن كل حكـم شرعـي مبنـي عـلى الفطـرة فهـو بمنزلـة "قاعـدة تقـوّم السـلوك، فلَـزِم أن يكـون كل حكـم شرعـي ناهضـا بتقويـم الأخـلاق"[26].

ولذلـك سـتتميز هـذه النظريـات الثـلاث، المترابطـة مضمونيـا ومفاهيميـا، والتـي هـي نظريـة المقصـودات، ونظريـة القُصـود، ونظريـة المقاصـد بأوصـاف أخلاقيـة ظاهـرة وخفيـة في علـم المقاصـد. وهـذا الـذي سـيجعلها تمتـزج وتتفاعـل وتتكامـل بعلـم الأخـلاق. فلننظـر في هـذه الأوصـاف التـي عمـل فيلسـوف الأخـلاق عـلى كشـفها وإبرازهـا علميـا وعمليـا، ونقلهـا مـن مرتبـة التجريـد النظـري إلى الفعـل السـلوكي الـذي يؤسـس للعمـل أكثـر مـن تأسيسـه عـلى النظـر.

نظرية المقصودات

اختـص العنـصر المقصـدي الأول مـن مقاصـد الشريعـة الإسـلامية، وهـو "المقصـود الشرعـي" بأوصـاف أخلاقيـة، أجملهـا طـه عبـد الرحمـن في وصفـين أساسـيين:

أولهمـا: أن "المقصـود الشرعـي" مـن النـص لا يقـف عنـد إدراك ظاهـره اللغـوي وأسـلوبه التعبـيري، إنمـا لـه صبغـة معنويـة تسـتفاد مـن مضمونـه القريـب مـن أول النظـر، أو البعيـد الـذي يسـتدعي الغـوص في باطنـه سـعة وعمقـا. غـير أن المقصـود الشرعـي الـذي يمكـن إدراكـه بنـاء عـلى مفهـوم النـص ليـس تصـورا مجـردا، إنمـا هـو مُـدرك متصـل اتصـالا بالقيمـة العمليـة، ومقتـضى القيمـة العمليـة، كمـا يـورد

(24) تجـدر الإشـارة إلى أن طـه عبـد الرحمـن مـا فتـئ يحـث الباحثـين في حقـل مقاصـد الشريعـة الإسـلامية والأصـول، إلى أن يتنبهـوا إلى أن الشريعـة الإسـلامية، إنمـا جـاءت مـن أجـل حـث المسـلم عـلى التخلُّـق قبـل التعلُّـق؛ بمعنـى أن الأحـكام الـواردة في هـذه العلـوم، ينبغـي أن يُنظـر إليهـا عـلى أنهـا أمانـات قبـل أن تكـون أوامـر. يقـول مـبرزا هـذه الحقيقـة: "الواقـع أن مـن يُعمـل الفكـر في أحـكام هـذه المباحـث، لا يلبـث أن يتبـين أن هنـاك أصـلا جامعـا بينهـا، إذ أن لـكل مـن هـذه النظريـات، أوصافـا أخلاقيـة نسـيتها أو تناسـتها الدراسـات التراثيـة، وهـذا يـبرز كيـف امتـزج علـم الأخـلاق بعلـم الأصـول. (أنظـر: عبـد الرحمـن، طـه، 2016، ديـن الحيـاء، مـن الفقـه الائتمـاري إلى الفقـه الائتمانـي: -1-أصـول النظـر الائتمانـي، ط1، بـيروت، المؤسسـة العربيـة للفكـر والإبـداع، ص99).

(25) عبد الرحمن، طه، 2012، تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق، ص 99.

(26) المرجع نفسه.

فيلسوفنا، هو "أن الخطاب المبلغ يُنهض إلى العمل ويحرك دواعي الممارسة في ظروف سلوكية مخصوصة؛ ولا مذهب فقهي أحرص على هذا التوجه العملي من المذهب الذي كان ينتسب إليه الشاطبي"[27].

وبما أن المقصود الشرعي أضحى يُدرك بالإشارة التي يلتقطها العقل، كما يدرك بالعبارة من منطوق النص، فقد صار مُتَّصلا بالقيمة العملية أكثر من القيمة المجردة الخالية من العمل، ومتحققا به كتحققه بالنظر؛ وعليه فإن المقصود الشرعي له مضمون دلالي ينزع نحو العمل والسلوك. ولما كان المضمون عمليًّا فإن له تعلق بالقيم والأخلاق، فهو مقصود أخلاقي بامتياز، وتشهد على ذلك القاعدة الأصولية، التي تقضي بأن "العبرة في التصرفات بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمباني"[28].

ثانيهما: أن الأوصاف الأخلاقية المرتبطة بالمقصود الشرعي ذات صبغة فطرية؛ فإذا كان المقصود الشرعي يختص بالعمل السلوكي وفقا لمراد الفطرة التي تنزل منزلة الهيئة الخلقية والروحية التي انطوت عليها نفس الإنسان، والتي توصله إلى معرفة عبوديته للخالق، فإنه يقوم باستثمار هذه الهيئة التي لا تبقى حبيسة الباطن بل تخرج إلى الظاهر، فيتخلَّق في سلوكياته بآدابها، ويحفظ من الآفات التي يمكن أن تلحق السلوكيات التي لا تستند إلى الفطرة؛ فالغاية من الشارع الحكيم، أنه وضع المقصودات الشرعية من أجل تحصيل الأخلاق، كما تشهد بذلك الكثير من الآيات القرآنية الكريمة.

من بين هذه الآيات، الآيتان الكريمتان، اللتان تجمعان بين الأحكام والغايات الخلقية، وهي قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[29]. وقوله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[30]. وتأتي هذه الآيات وغيرها في سياقات تبرز الغايات الأخلاقية من تشريع الأحكام.

إضافة إلى هذه الحقائق، عمد طه عبد الرحمن إلى تعزيز ما ذهب إليه بمسلمتين أساسيتين، تنزعان نحو تقوية المعاني السلوكية للقواعد الشرعية، وتجعلها أكثر ثبوتا ورسوخا؛ أولها: أن القاعدة الشرعية أكثر تسديدا للسلوك من غيرها؛ ثانيا: أن القاعدة الشرعية أكثر تغلغلا في العمل من غيرها؛ فالقواعد

(27) المرجع نفسه.

(28) أنظر على سبيل المثال كتاب: الزحيلي، مصطفى، 1427هـ-2006م، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، ط1، دمشق، دار الفكر، ص 403. وإلى ذلك ذهب الطاهر بن عاشور، في أن أحكام الشريعة تعلقت بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني. ولذلك، عقد ابن عاشور فصلا خاصا عنونه بـ: (دلالة الشريعة اللفظية لا تستغني عن معرفة المقاصد الشرعية)". (أنظر: العثماني، سعد الدين، 2012، جهود المالكية في تصنيف التصرفات النبوية، ط1، القاهرة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ص 127).

(29) العنكبوت الآية 45.

(30) التوبة الآية 103.

والأحكام الشرعية تنبني على السلوك والأخلاق والعمل أكثر من انبنائها على النظر والتجريد.

نظرية القُصود

يتميز العنصر الثاني من مقاصد الشريعة الإسلامية، وهو القصد الشرعي عند فيلسوفنا بوصفين أساسيين:

أحدهما : أطلق عليه بـ"الصبغة الإرادية للقصد الشرعي"، وهو على ضربين: الضرب الأول، إرادة الشارع التي تقضي بفعل المأمور به وترك المنهي عنه؛ والضرب الثاني، إرادة المكلف التي تقضي باتباع الشرع في الفعل والترك على الوجه المطلوب.

ثانيهما : سمي بـ"الصبغة التجرُّدية للقصد الشرعي"؛ فصاحب الفعل القصدي هنا، مدعو لتحصيل "النية الحسنة" والخالصة من أفعاله المقصودة، والتجرد من كل ما يمكنه أن يشيب هذا الفعل، باعتبار أن النية تنزل منزلة الأصل الذي تتفرع عنه كل الأفعال قلبية كانت أو حسية، أو هي "منزلة المعيار الذي يحدد القيمة الأخلاقية لهذه الأفعال، فيحكم عليها بالصلاح أو الفساد"[31]؛ فبالنية يحسّن الفعل أو يُبطل.

ولتحصيل التجرد للنية الخالصة وتوجيه القصد، ساق فيلسوفنا جملة من الشروط الخاصة التي لا يمكن ضبطها إلا باستيفائها، من أهمها: دفع الاشتراك مع الحظ، والابتدار باستحضار النية، ثم تكثير النيات؛ علما أن النية شرط من الشروط الأخلاقية. وعزز الرجل هذه الشروط بحقيقتين أساسيتين، وهما: "أن النية والإخلاص أسبق من غيرهما من المعاني الأخلاقية، إذ ينزلان منزلة الشرطين اللذين إذا فقدا فقد المشروط (...)؛ وأن النية والإخلاص أدق المعاني الأخلاقية، إذ يخفى أصلهما عن النظر ويمتنع محلهما عن القياس"[32]. على هذا الأساس، سيصير من مقتضيات الحكم الشرعي أن يكون حمّالا لأدق الشرائط الأخلاقية وأسبقها.

نظرية المقاصد

يرتبط العنصر الثالث من مقاصد الشريعة الإسلامية، وهو "المقصد" بأوصاف أخلاقية، أجملها صاحبنا في وجهين بارزين:

أولهما: سمي بـ"الصبغة الحِكمية للمقصد الشرعي"؛ فلا جرم أن الحكم الشرعي له غايات محددة، توجب على المكلف القيام بالأوامر والانتهاء عند النواهي على أكمل وجه، وتحقيق الحكمة من مقاصد تلك الغايات، حتى أن الشارع الحكيم سلك مسلكا خاصا في تعليل الأحكام والاستدلال عليها.

وهذا ما غلب على اشتغال العلماء الأصوليين ومعظم الفقهاء، حينما جمعوا في تعليل الأحكام، بين "التعليل السببي" وبين "التعليل الغائي" أو "التعليل

(31) عبد الرحمن، طه، 2012، تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق، ص: 101.

(32) المرجع نفسه.

بالحِكم"؛ "فالتعليل السببي يقوم على أحكام موضوعة وقوانين مضبوطة، وعلى ربط الأسباب بالمسببات؛ ، بينما التعليل الغائي يقوم هو الآخر على أحكام قيمية وسنن معنوية، وعلى ربط الأسباب بفاعلها"[33]. على أساس هذا الجمع بين التعليل السببي والغائي تنبني توجهات عملية خلقية، تميز بها مصنف الشاطبي وجمهور علماء المذهب المالكي عموما، لاسيما حينما تبنوا الأخذ بالمصدر التشريعي الأساسي في هذا الاتجاه الذي وهو "عمل أهل المدينة"[34].

ثانيهما: سمي بـ"الصبغة المصلحية للمقصد الشرعي"؛ يفيد فيلسوفنا بهذا الصدد، أن المصلحة تجمع الحكم الشرعي بالخُلق، الذي يجعل تصريفها ينحو منحى معنويا أكثر مما هو مادي؛ ذلك أن لفظ المصلحة الذي يراد به أساسا المحل المعنوي، هو الذي يقع فيه صلاح المكلف؛ وبذلك تصبح المصالح المقترنة بالحكم الشرعي ذات وظائف وقيم أخلاقية، يُحصّل بها الإنسان صلاحه المادي والمعنوي في العاجل والآجل.

إذن، ترتبط الأحكام الشرعية بالمصالح التي تتحدد بمقاصد وغايات كبرى، أهمها أنها تضمن التيسير على المكلف؛ وهذه المقاصد والغايات عبارة عن قيم أخلاقية ينهض بها الحكم الشرعي. إضافة إلى هذا، فإن ارتباط الأحكام الشرعية بالمصالح والغايات نتيجة لحقيقتين أساسيتين، أكد طه عبد الرحمن أنهما ينحوان نحو اعتبار الأحكام الشرعية ثاوية لأقوم الأخلاق وأسمى القيم، وهما: "أن الحكم الشرعي أقوم من غيره أخلاقا، بموجب نزول هذا الحكم على مقتضى الفطرة الإنسانية؛ وأن هذا الحكم أسمى من غيره قيما أخلاقية، بموجب تفضيل الشرع للقيم الروحية"[35].

وعليه، يمكن القول: إن علم مقاصد الشريعة الإسلامية هو انعكاس للصورة النهائية التي اتخذها علم الأخلاق باندماجه بعلم أصول الفقه، والمظهر الأشمل والأكمل على التداخل الذي حصل بينهما، من خلال يقينية نظريات المقصود والقصد والمقصد الشرعي، على أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالأوصاف الأخلاقية المذكورة أعلاه؛ فيكون علم المقاصد بنظر فيلسوفنا طه، هو الصورة التي اتخذها علم الأخلاق للاندماج في علم الأصول.

وبهذه الحقائق يتبين أن علم الأخلاق يفيد الفقه في أحكامه كلها، ويشمله

(33) المرجع نفسه، ص 102.

(34) يعد عمل أهل المدينة من الأصول التي انفرد بها الإمام مالك؛ وخير دليل على ذلك، هو توجيهه لوثيقة بالغة الأهمية إلى الليث بن سعد، جاء فيها: "لقد بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا، (...)، فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام، إذ رسول الله بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه، ويسن لهم فيتبعونه". (أنظر: القاضي أبو الفضل، عياض، 1403هـ-1983م، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ط2، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 65-64). وقد أكد أحمد نور، أن "مالك كان شديد التّأسِّي بمن سبقه، مجانبا لما لم يرى أصوله تعتمد على تلك الثروة الفقهية عندهم". (أنظر: سيف، أحمد نور، 1421هـ-2000م، عمل أهل المدينة بين مصطلحات مالك وآراء الأصوليين، ط2، دبي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ص 81).

(35) عبد الرحمن، طه، 2012، تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق، ص 102.

من جميع جوانبه، فتكون كل الفروع الفقهية مؤسسة على معاني القيم ومبادئ الأخلاق، التي تشكل نسقا موحدا يبرز فيه التداخل الداخلي لعلم الأصول مع علم الأخلاق، في صورة فريدة من التكامل العلمي المنهجي والقيمي لمضامين نصوص التراث الإسلامي العربي.

ولا شك أن الإمام الشاطبي يدرك هذه الحقيقة تمام الإدراك، التي عمل طه عبد الرحمن على استجلاءها وبيان مضمونها، وهي أن مكارم الأخلاق شاملة لكل المصالح التي شملتها الشريعة الإسلامية، وهو مفهوم قول الشاطبي الجامع: "أن الشريعة كلها إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق"[36]؛ وقوله أيضا: "الشريعة جاءت متممة لمكارم الأخلاق، ومصلحة لما أفسد قبل ملة إبراهيم عليه السلام"[37].

غير أن صاحب تجديد المنهج، حاول أن يستشكل هذا الحقيقة ويبدع فيها بطريقته العلمية الفلسفية، على شاكلة المتقدمين من العلماء، فأبدع في محاولة إخراج علم الأصول وأحكام الشريعة الإسلامية، من النظر المجرد المرتبط بظاهر الحكام، إلى النظر والتفكر في القيمة العلمية الأخلاقية لهذه الأحكام، حتى تجد أثرها المعرفي والسلوكي سواء على مستوى الفرد المكلف من جهة، أو على مستوى الجماعة وهي تشيّد منظومة فقهية أكثر تخلّقا وتعلقا، تجمع بين الحفاظ على الامتثال للأحكام الشرعية ظاهريا وباطنيا.

وهذا ما يجعلنا نعيد النظر في إمكانية استثمار هذا التكامل بين علم الأخلاق ومقاصد الشريعة الإسلامية، نحو بناء الفرد المسلم القادر على اكتساب القدرات والإمكانات العلمية والمعرفية التي توصله إلى الإبداع المعرفي والفعل السلوكي الحضاري.

المبحث الثاني

فلسفة النظر الائتمانية للفقه الإسلامي في ارتباطه بالأخلاق

يميز طه عبد الرحمن من خلال تحليلاته العلمية المقاصدية بين نوعين من الفقه الإسلامي؛ أحدهما سمي بـ"الفقه الائتماري"[38]، وهو الفقه الذي يبرز فيه

(36) الشاطبي، أبو إسحاق، 1425ه-2004م، الموافقات في أصول الشريعة، مصدر سابق، ص 406.

(37) وردت عدة أحاديث نبوية تدل على أن هذه المعاني الأخلاقية مستقاة من مقاصد الشريعة الإسلامية وغاياتها، من بينها: الحديث الشريف: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، أو "صالح الأخلاق"، رواه البخاري في الأدب المفرد رقم: (273). وما يستفاد من أداة الحصر "إنما"، ومن اللفظ صالح، هو أنه حيثما وجدت المصلحة المقترنة بالحكم الشرعي فثمة أخلاق صالحة، وهذا المعنى هو مضمون قول الشاطبي: "الشريعة كلها إنما تخلق بمكارم الأخلاق". (أنظر: عباس عسكر، علاء، 1431هـ-2010م، نحو رؤية فلسفية للقيم في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ط1، عمان، دار غيداء للنشر، ص 220).

(38) يتبين أن العلم الذي اختص باسم "الفقه الائتماري"، قد بني في الأصل على تقديم صفة مخصوصة من الصفات الإلهية، وهي التي اتخذ لها طه عبد الرحمن اسم المصدر الصناعي "الآمرية"؛ فالفقه بالنسبة إليه معرفة "الآمرية الإلهية". وقد اعتمد في قيامه على السَّمع من الآمر، الذي يُلزم المأمور بفعل المطلوب منه على جهة الفور والاستعجال؛ وهو ما يؤكد أن الصبغة السَّمعية الفَوْقِيَّة تُشعر بأن "البُعد" صفة مميزة للعلاقة بين طرفي الأمر الفقهي؛ فتكون العلاقة الفقهية ذات الطابع الائتماري علاقة بين بعيدين؛ وهنا لا يتصور المسلم صفة "الألوهية" إلا بعيدة ومحتجبة عنه احتجابا مطلقا؛ في حين أن الآمر الإلهي سبحانه أخبرنا بقربه من عبده، وهو قرب يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

جانب "التكليف"، ويتجه فيه الإنسان المسلم نحو الامتثال الظاهري للجوارح؛ والثاني عُرف بـ"الفقه الائتماني"[39]، وهو الفقه الذي يبرز فيه جانب "الأمانة"، ويتجه فيه المسلم نحو الامتثال الروحي الباطني.

ولما كانا هذين الاتجاهين الفقهيين يختلفان من حيث مستوى الإدراك النظري والتمثل العملي، بين التكاليف التي تتصل بـ"ظاهر الأحكام الشرعية"، وبين العمل بهذه التكاليف باعتبارها "أمانات"، تتصل بالقيم الأخلاقية البانية التي تثوي وراءها هذه الأحكام، فإن استشكال هذين الاتجاهين سيتحدد في ضوء مستويين رفيعين من النظر؛ أولهما: "نظر ائتماري" مرتبط بالتفكر في الأصول العامة التي تنبني عليها الأحكام العملية الشرعية، أو نحو ما يطلق عليه بـ"الأمرية الإلهية" و"آمرية الأحكام"؛ ثانيهما: "نظر ائتماني" مرتبط بالتفكر في الأصول العامة التي تنبني عليها القيم الأخلاقية المؤسسة للأحكام الشرعية العملية، أو نحو ما يطلق عليه بـ"الشاهدية الإلهية" و"ائتمانية القيم".

أولا: مستويات النظر والعمل في الخطاب الشرعي

إذا كان موضوع "الفقه الائتماري" بالنسبة لطه عبد الرحمن، هو استنباط الأحكام الشرعية المتعلقة بالرسوم الظاهرة، فإن "الفقه الائتماني" موضوعه مختلف تماما عن الأول، فهو يعني استخراج للقيم الأخلاقية التي هي تحت هذه الأحكام. وهنا سيتم التمييز في هذا الصدد بين مستويات متعددة في التعامل مع الخطاب الشرعي[40]:

المستوى الأول: وهو النظر في الشرع، الذي هو عبارة عن العلم بأحكامه، والذي يتضمن، كما يرى صاحبنا، ثلاثة أنواع من النظر: "نظر اجتهادي"، يختص باستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وهو النظر الذي يتولاه العالِم والفقيه الائتماري؛ و"نظر أصولي"، يشتغل بالبحث في الأصول والقواعد العامة التي تتحدد بها طرق الاستنباط التي يتبعها الفقيه في استخراج الأحكام[41]؛ ثم

(39) يؤسس الفقه الائتماني صفة "الآمرية الإلهية" على مبدأين أساسيين: أولهما، "مبدأ الشهادة"، والأصل فيه قوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ". (الأعراف الآية 172). ويقتضي المبدأ الائتماني أن الإنسان شهد بربوبية الخالق، وأخذ منه الميثاق على ذلك. ثانيهما "مبدأ الأمانة"، الأصل فيه قوله سبحانه:"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا". (الأحزاب الآية 72). يقتضي أن يكون الإنسان قد اختار حمل الأمانة في وجوهها المتعددة، كالإيمان، والعبادة، والعدل، والحرية، والمسؤولية وغيرها. وهنا لا يقتصر الأمر الائتماني على الاهتمام بظواهر الأحكام الشرعية ورسومها، وإنما تتصل الأمانة المعروضة هنا بالقيم الأخلاقية الثاوية وراء تلك الأحكام.

(40) يراد بالخطاب الشرعي، بمعنى الشرع والحكم والخطاب الإلهي، وهي معاني مترادفة؛ ويراد بها أيضا، "الوضع الإلهي الذي يسوق ذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات، وهو ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم. (يراجع بهذا الصدد: ابن الخوجة، محمد الحبيب، 1425ه-2004م، بين علمي أصول الفقه والمقاصد، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 13).

(41) لا شك أن طه عبد الرحمن أراد أن يبرز الفرق بين الفقه كعِلم، يشتغل فيه الفقيه على الأحكام الجزئية المتعلقة بالرسوم الظاهرة، التي يتهذب بها المكلف، وبين أصول الفقه كعِلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى الفقه على وجه التحقيق من قبل المجتهد في القضايا الكلية؛ فالفقيه موضوعه أعمال المكلفين، بينما الأصولي موضوعه خدمة حكمة الشريعة ومقاصدها. (أنظر بهذا الصدد: ابن الخوجة، محمد الحبيب، 1425ه-2004م، بين علمي أصول الفقه والمقاصد، مرجع سابق، ص 19-18-17).

"نظر تفكري" على ضربين: ضرب ائتماري يختص بالبحث في المبادئ أو الأصول العامة التي ينبني عليها ظاهر الأحكام الشرعية، وضرب ائتماني يختص بالبحث في المبادئ والأصول العامة التي تنبني عليها القيم الأخلاقية المنضوية في الأحكام الشرعية[42].

وهنا، يتبدى لنا أن السياق العام الذي سيشتغل عليه فيلسوفنا، وسيبرزه بشكل أساسي، هو تركيزه على النظر الائتماني وأصوله العامة، التي يرى أنها ستستقل بالنظر التفكري والعملي، وهذه الأصول هي:

الأصل الأول، هو أن القيم الأخلاقية تؤخذ من الأحكام الشرعية بطريق "الاستدلال"[43]، الذي يعتمد على مبادئ مسلمة وتصورات أولية، يستنتجها الإنسان بداهة وفقا لقواعد المنطق؛ ويستخرجها الناظر أو المجتهد من هذه الأحكام بإعمال العقل على قانونه.

الأصل الثاني، هو أن القيم الأخلاقية تؤخذ من الأسماء الحسنى بطريق "الاستبصار"[44]؛ إذ يدركها الناظر إدراكا مباشرا هو إلى الشعور الوجداني أقرب منه إلى الاعتبار الاستدلالي. إذن فلابد للناظر هنا من مستبصرات لبناء استدلالاته.

الأصل الثالث، فهو أن الائتمان عبارة عن رعاية القيم الأخلاقية المبثوثة في الأحكام الشرعية؛ إذ أن هذه القيم الأخلاقية، كما يورد طه، "ليست من كسب الإنسان، وإنما فُطر عليها، والذي يبدو من كسبه هو إقامتها، إذ بهذه الإقامة تفرغ ذمته"[45].

المستوى الثاني: وهو مستوى العمل؛ والذي يرى فيه طه عبد الرحمن أن الفقه على خلاف النظر، ائتماريا كان أو ائتمانيا؛ فهذا النظر يشترط فيه العمل، فلا فقه بغير عمل، ولا فقيه غير عامِل. فتقديم اعتبار العمل، يأتي تعبيرا عن أحد أهم المقتضيات التي يختص بها الشرع الإسلامي، وهو مقتضى جعل العمل شرطا ضروريا في صلاح كل من النظر والعقل والعلم؛ ولذلك، لابد للنظر أن يكون مصحوبا بالعمل، بحيث لا ينفك عن التأثر والانفعال به، حتى يفتح العمل آفاقا

(42) عبد الرحمن، طه، 2016، دين الحياء، من الفقه الائتماري إلى الفقه الائتماني: -1-أصول النظر الائتماني، مرجع سابق، ص 21).

(43) المنهج الاستدلالي هو البرهان، الذي يبدأ من قضايا مسلم بها، ويسير إلى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة، دون التجاء إلى التجربة. (أنظر: بدوي، عبد الرحمن، 1977، مناهج البحث العلمي، ط3، الكويت، وكالة المطبوعات، ص 82). وقد فرق بدوي بين نوعين من الاستدلال: الاستدلال المنطقي، وهو كل برهان دقيق، مثل القياس والحساب؛ والاستدلال المنهجي، الذي هو السلوك العام لتحصيل الحقائق، وهو عبارة عن التسلسل المنطقي المتنقل من مبادئ أو قضايا أولية إلى قضايا تستخلص منها بالضرورة.

(44) يقرر طه عبد الرحمن أن الأسماء الحسنى والصفات العلى جامعة للكمالات الإلهية بموجب ميثاق الإشهاد، الوارد في قوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ". (الأعراف الآية 172)؛ والذي يقتضي أن الإنسان شهد بربوبية الخالق في عالم الذر، وأُخذ منه الميثاق بذلك.

(45) عبد الرحمن، طه، 2016، دين الحياء، من الفقه الائتماري إلى الفقه الائتماني: -1-أصول النظر الائتماني، مرجع سابق، ص 22.

واسعة للتحقق بالقيم الأخلاقية والسلوك القويم[46].

المستوى الثالث: وهو مستوى الاستعمال؛ فالفقه الائتماني على خلاف الفقه الائتماري، يشترط فيه "الاستعمال"؛ والمقصود بالاستعمال عند الرجل، هو مراقبة الآخرين في العمل بالأحكام الشرعية؛ من هنا يفرق صاحبنا، من حيث المبدأ، بين نوعين من الاستعمال:

النوع الأول، وهو "الاستعمال الائتماري" الذي هو مراقبة الآخرين في العمل بظاهر الحكام الشرعية، أي بصورتها القانونية أو التشريعية، غير أن الأخذ بهذا الضرب من الاستعمال الائتماري قد تنقلب فيه المصلحة إلى مفسدة؛ ذلك أن واجب الفقيه الائتماري ينحصر فقط في بيان ظواهر الأحكام، التي هي عبارة عن رسوم العبادات والمعاملات.

النوع الثاني، هو "الاستعمال الائتماني"، الذي هو مراقبة الآخرين في العمل بباطن الأحكام الشرعية، أي مراقبتهم في التخلق بالقيم الثاوية فيها؛ وهنا يكون واجب الفقيه الائتماني، ألا يقف عند بيان القيم الأخلاقية التي هي في ضمن الأحكام الشرعية، بل يتعداه إلى أن يراقب تخلق الآخرين بهذه القيم، ذلك لأن "التخلق غير الترسّم، إذ الترسم لا يُحتاج فيه إلا إلى البصر، بينما التخلق فيُحتاج فيه إلى البصيرة"[47].

وعليه، يعتبر الفقه الائتماني توجها مفصليا عند الرجل، إذ يشكل أفقا رحبا للارتقاء بالأحكام الشرعية من الوقوف على رسومها الظاهرة إلى النفود في باطنها القيمي والروحي، أي إلى مرحلة الائتمان التي هي رعاية القيم الأخلاقية المبثوثة في هذه الأحكام. ولهذا، ما فتئ فيلسوفنا طه يفرق بين نوعين من القيم الأخلاقية: أحدهما، "الأخلاق الخارجية" أو "البَرَّانِيَّة"، وهي الأخلاق التي يكون تحصيلها مقصودا لغرض آخر يحدده القانون، بحيث يعامل كل خلق منها على أنه وسيلة لبلوغ هذا الغرض القانوني، مكونا بذلك صفة قائمة بظاهر الإنسان.

ثانيهما، "الأخلاق الداخلية" أو "الجِوَانِّيَّة"، وهي الأخلاق التي يكون تحصيلها مقصودا لذاته، إذ يعامل كل خلق منها على أنه غاية في ذاته، بغض النظر عما يترتب عليه من مصلحة في العالم المرئي، مكونا صفة قائمة بباطن الإنسان، بصرف النظر عما ينتج عنها من آثار في الظاهر.

(46) ما من شك في أن النظر المرتبط بالعمل والسلوك له أبعاد فكرية جديدة، بفضل التأثير والتأثر الذي يوجد بينهما، كأنهما شيء واحد، لاسيما في الممارسة الفكرية الإسلامية العربية، باعتبارها تنزع نحو العمل أكثر من نزوعها نحو النظر المجرد؛ ولذلك، يورد صاحبنا، أنه "متى ظل النظر والعمل متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، بات من حق الناظر أن يحكم على السلوكيات وعلى الغيبيات معا". (ينظر بهذا الشأن: عبد الرحمن، طه، 2013، الحوار أفقا للفكر، ط1، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص 55-54).

(47) عبد الرحمن، طه، 2016، دين الحياء، مرجع سابق، ص 22.

وغنـي عـن البيـان أن صفـة "الشـاهدية الإلهيـة"[48]، تشـترط التحقـق بالأخـلاق الجوانيـة، نظـرا لأنهـا "لا توجـد إلا حيـث يوجـد الإخـلاص للـه وحـده في كل واحـد مـن تنزيـلات أحكامـه عـلى الواقـع"[49]. ولا مندوحـة أن الإسـلام بمقتـضى الحديـث النبـوي الشريـف: "إنمـا بعـث لأتمـم مـكارم الأخـلاق"[50]، عبـارة عـن رسـالة أخلاقيـة مثـلى، بحيـث يكـون مـدار "الآمريـة الإلهيـة" فيـه هـو تحصيـل السـلوك الصالـح، سـواء بالنسـبة للفـرد أو الجماعـة. وعـلى هـذا، فـكل أمـر مـن أوامـره تعـالى يجـب أن يقـترن عـلى الأقـل بقيمـة خلقيـة واحـدة، ينبغـي أن يسـعى تنفيـذ هـذا الأمـر إلى تحقيقهـا في سـلوك الفـرد والجماعـة[51].

عـلى ضـوء ذلـك، يـرى صاحبنـا، أن الأمـر الإلهـي أو الحكـم الشرعـي ينبنـي عـلى مقومـين اثنـين: "مقـوم قانونـي" و"مقـوم أخلاقـي"؛ إذ يقـدَّم المقـوم الأخلاقـي عـلى المقـوم القانونـي، لأن فائـدة الأمـر الإلهـي أو الحكـم الإلهـي ليسـت في التطبيـق الخارجـي مـن حيـث هـو كذلـك، ولكـن في الإصـلاح الخلقـي الـذي ينتـج عنـه. ويبـدو بهـذا الصـدد، أن الاهتمـام انصـب عنـد الفقهـاء بالأسـاس عـلى المقـوم القانونـي مـن الأوامـر الإلهيـة، أمـا المقـوم الخلقـي فلـم يحـظ بنفـس الاهتمـام، وإنمـا وقـع إهماله.

ثانيا: الفقه الإسلامي بين النظر الائتماري والنظر الائتماني

منـذ نشـأة علـم أصـول الفقـه في النصـف الثانـي مـن القـرن الهجـري الثانـي، تـم وضـع الصياغـة النظريـة للفقـه في إطـاره؛ وبهـذا أضحـى الفقـه يعـرف بكونـه: "العِلم الـذي يختـص ببيـان الأحـكام الشرعيـة المتعلقـة بأفعـال المكلفـين، والمسـتخرجة مـن أدلـة شرعيـة محـددة بواسـطة قواعـد مقـرر في علـم الأصـول"[52]. وهـو مـا يعنـي أن الممارسـة الفقهيـة قـد تقلبـت في طوريـن اثنـين بحسـب طـه عبـد الرحمـن: أحدهمـا

(48) يقتـضي "مبـدأ الشـهادة"، كمـا جـاء في الآيـة المذكـورة أعـلاه (الأعـراف الآيـة 172)، أن الإنسـان قـد شـهد بربوبيـة الخالق سـبحانه؛ والمـراد بـ"الشـاهدية الإلهيـة"، هـو شـهود الإنسـان عـلى ربوبيـة الخالـق، وسـميت أيضـا بعـين الشـهادة، التـي لـم تكـن مجـرد إقـرار عـن بـلاغ، وإنمـا كانـت إقـرارا عـن خطـاب تلقـاه الإنسـان عـن قـرب واتصـال، أي أنهـا جمعـت إلى الإقـرار القـولي إقـرار فعـلي، ودليـل هـذا هـو نهـوض سـائر ذريـات آدم بهـذه الشـهادة.

(49) عبد الرحمن، طه، 2012، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، مرجع سابق، ص 402-401.

(50) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم: (273). وأخرجه أحمد تحت رقم: (8939).

(51) مقتـضى "الآمريـة الإلهيـة" كمـا يتصورهـا فيلسـوفنا، هـي أنهـا الأصـل الأول الـذي يُـرَدُّ إليـه كل شيء؛ ذلـك أن الإنسـان ينبغـي أن يعلـم أن الخالقيـة والرازقيـة للـه وحـده؛ فـلا خلـق ولا رزق إلا بأمـر يقضيـه؛ وهنـا يتقـدم الأمـر عـلى الـرزق كمـا يتقـدم عـلى الخلـق؛ ولذلـك، يقـول تعالى:"هُـوَ الَّـذِي يُحْيِـي وَيُمِيـتُ فَـإِذَا قَـضَىٰ أَمْـرًا فَإِنَّمَـا يَقُـولُ لَـهُ كُـن فَيَكُـونُ". (غافـر الآيـة 68)؛ فوجـود الآمريـة المطلقـة هـو الـشرط في وجـود الرازقيـة والخالقيـة المطلقـة؛ وهكـذا، تكـون "الآمريـة التـي يتجـلى بهـا الحـق سـبحانه عـلى الإنسـان هـي التـي تحـدد خيريتـه وهدايتـه؛ إذ أنـه إذا أطـاع أوامـره وافقـت إرادتـه إرادة اللـه في صـلاح وجـوده المرئـي وفـلاح وجـوده الغيبـي". (يرجـى الرجـوع إلى: عبـد الرحمـن، طـه، 2012، روح الديـن مـن ضيـق العلمانيـة إلى سـعة الائتمانيـة، مرجـع سـابق، ص 369-368).

(52) يعـرف الفقـه في اللغـة بالعِلـم والفهـم بالـشيء، وأطلـق عـلى مـا يتنـاول الأحـكام الدينيـة، مـن أحـكام العقائـد والمعامـلات. وأساسـه هـو خطـاب اللـه المتعلـق بأفعـال المكلفـين. (أنظـر: ابـن الخوجـة، محمـد الحبيـب، 1425ه-2004م، بـين علمـي أصـول الفقـه والمقاصـد، مرجـع سـابق، ص 14). وقـد عرفـه ابـن خلـدون بـ: "العلـم بأحـكام اللـه في أفعـال المكلفـين بالوجـوب والحظـر والنـدب والكراهـة والإباحـة، وهـي متلقـاة مـن الكتـاب والسـنة، ومـما نصبـه الشـارع لمعرفتهـا مـن الأدلـة". (أنظـر: ابـن خلـدون، عبـد الرحمـن، 1425ه-2004م، مقدمـة ابـن خلـدون، تحقيـق، عبـد اللـه محمـد درويـش، ط1، دمشـق، دار البلخـي، ص 416).

الطـور العفـوي، الـذي سـمي بـ"الفقـه الحـي"[53]؛ والثانـي الطـور التقنـي، الـذي أنتج فيـه مـا عـرف بـ"الفقـه الصناعي".

غـير أن الفـرق بـين الفقهـين ليسـا فرقـا كميـا، يتعلـق باختـلاف درجـة التعقيـد فيهمـا، بقـدر مـا هـو فـرق كيفـي يتعلـق باختـلاف منشـئهما؛ إذ منشـأ "الفقـه الحـي"، كمـا يحتـجُّ بذلـك طـه عبـد الرحمـن ، هـو الفطـرة الروحيـة التـي خلـق عليهـا الإنسـان، والتـي تحمـل في طيهـا معانـي الديـن وقيمـه المثـلى، بحيـث يمكـن تسـميته أيضـا بـ"الفقـه الروحـي"؛ في حـين أن منشـأ "الفقـه الصناعـي" هـو النسـبة النفسـية التـي يتعاطاهـا الإنسـان، مسـندا الأشـياء إلى نفسـه، والتـي تشـكل غطـاء يحجـب الفطـرة الروحيـة، وقـد تـم تسـميته بـ"الفقـه النفـسي"[54].

إن الفقـه الصناعـي لـم يسـتطع، كمـا يذهـب إلى ذلـك طـه، أن يطـور آلياتـه ويضـع قواعـده ويرتـب أدلتـه، إلا بالتخلـص مـن الجانـب غـير المنضبـط مـن "الأمريـة"، الـذي هـو الجانـب الخُلقـي الـذي مصـدره الفطـرة، مكتفيـا بالجانـب المنضبـط منهـا الـذي هـو الجانـب القانونـي؛ في حـين كان الفقـه الحـي يجمـع بـين الجانبـين معـا في العبادات والمعامـلات، جاعـلا الجانـب الخُلقـي أصـلا والجانـب القانونـي فرعـا.

وقـد كشـف فيلسـوفنا عـن بعـض هـذه المظاهـر، التـي اكتفـى فيهـا الفقـه الصناعـي بالجانـب القانونـي مـن الأوامـر الإلهيـة أو الأحـكام الشرعيـة، لا سـيما فيمـا يتعلـق بتقويـم السـلوك الفـردي وبنـاء المجتمـع، وهـي مجملـة في مظهريـن أساسـيين، همـا:

الجماعة في مقابل الفرد

فلـم يعـد الهـدف مـن الفقـه كمـا كان، هـو تنميـة القـوة الإيمانيـة، والهمـة التعبديـة، والـوازع الداخـلي لـدى الفـرد، حتـى يخلـص الديـن للـه، بقـدر مـا صـار هـو تقويـة المظاهـر الاجتماعيـة للتعبـد، وتقنـين التطبيـق الجمعـي للشـعائر، حفظـا عـلى الأمـة وترسـيخا لصلـة الانتمـاء إلى الجماعـة، بـل صـار الهـدف بحسـب طـه، هـو تثبيـت الوضـع المجتمعـي والسـياسي القائـم؛ وبهـذا أضحـى التعبـد في خدمـة التدبـير، بعـد أن كان التدبـير في خدمـة التعبـد.

الظاهر في مقابل الباطن

لـم يعـد الفقـه يهتـم بتزكيـة باطـن الفـرد، ولا بتربيـة الضمـير الخلقـي عنـده، ولا بتصحيـح أعمالـه القلبيـة، بـل غـدا لا يعنيـه إلا ضبـط سـلوكه الخارجـي في تفاصيلـه، وإخضـاع مختلـف أعمـال جوارحـه لإحكامـه عـلى صورتهـا القانونيـة، واقفـا كمـا يرى

(53) أطلـق عليـه طـه عبـد الرحمـن أيضـا اسـم "الفقـه الـضروري"، بحيـث أن مفهـوم الـضرورة يحمـل في مقصـوده معنـى الوجـوب في مقابـل الجـواز؛ إذ أن هـذا الفقـه هـو القـدرة عـلى معرفـة الديـن الـذي يجـب أن يحصلـه كل مسـلم؛ ومعنـى البداهـة في مقابـل النظـر، إذ أن هـذا الفقـه يـدرك بـأول العقـل.

(54) يـرى الرجـل أن التعبـد للـه أو العمـل الدينـي عامـة، ينبنـي عـلى الفطـرة التـي أودعهـا اللـه في روح الإنسـان، والتـي هـي بمثابـة الذاكـرة الغيبيـة التـي تحفـظ مواثيـق غليظـة، أخذهـا الإنسـان عـلى نفسـه أمـام خالقـه في عالـم الغيـب. غـير أن الإنسـان، وبتقـادم الزمـن، تشـكلت لديـه طبقـة مـن الـرّان غطـت تلـك الفطـرة، فحجبـت عنـه تلـك الحقائـق؛ فبـدأت نفسـه تنسـب الأشـياء إليـه، مورثـة إيـاه الشـعور بأنـه أضحـى يملـك ويسـود مـا تنسـبه إليـه، حتـى تنبعـث فيـه الرغبـة في السـيادة عـلى غـيره مـن الخلـق، وهـو مـا سـمي بمبـدأ "النسـبة".

الرجل، "عند الرسوم الظاهرة والطقوس المقررة للتعبد، ومتخذا من تأديتها على مقتضاها الشكلي معيارا لا للحكم على صحة العبادات والمعاملات، بل على ثبوت الاستقامة لصاحبها"[55]؛ وبهذا أضحى الأصل في تقويم الأعمال الظاهر بعد أن كان هو الباطن.

وهكذا قام التصور الإسلامي على الفقه الصناعي أو الائتماري، في مقابل الفقه الحي أو الائتماني؛ وذلك بجعله علما قانونيا يختص بالمظاهر الاجتماعية للتعبد بالأحكام الشرعية، متناسيا الاشتغال على القيم الأخلاقية الجِوانية للفرد؛ فلم يعد يشتغل إلا على سلوكه الخارجي، وإخضاع أعماله الدينية والتدبيرية للتقويم القانوني، في مقابل التقويم السلوكي الباطني، الذي يؤثر على جوارح الفرد وسلوكيات المجتمع.

ثالثا: من الفقه الأمري إلى شهود الآمر في أوامره

لكي يتخلص الفقه الإسلامي من هذا الحصر ويتحقق بالخلاق الجِوانية، يتحتم عليه أن ينتقل من فقه "الأَمْرِيَّة إلى فقه "الآمِرِيَّة الإلهية"؛ والمراد بهذا الانتقال، هو أن يخرج الإنسان المسلم من كونه يفقه أوامر الله إلى كونه يفقه عن الآمر أوامره؛ وشتان بين فقه الأوامر والفقه عن الآمر؛ فالأول هو العلم بالقوانين التي تنطوي عليها الأوامر الإلهية أو الأحكام الشرعية، تحليلا وتحريما، وبالكيفيات المختلفة التي يمكن أن تطبق بها في الواقع.

بينما الثاني، هو فقه الآمرية الإلهية، وهو شهود الآمر الإلهي في أوامره المنزلة، وشهوده أيضا في كيفيات جريانها على الأحداث، حتى كأنه هو المُنْزِلُ لها على الواقع، فضلا عن كونه المنزل لها من عالم الأمر. وبهذا، "يكون الفرق بين فقيه الأحكام والفقيه عن الله، كالفرق بين العالِم غير المتزكي الذي ينسب أفعال التدبير إلى نفسه ولو بواسطة إليه، وبين العالِم المتزكي الذي ينسبها إلى الله وحده"[56].

لقد تم حصر معرفة الفقيه في المعرفة الظاهرة، المتمثلة في العلم بظاهر الأوامر والأحكام الشرعية، دون السعي إلى معرفة باطنها، الذي يحمل على العمل بالأخلاق غير المنضبطة. وهو ما تفيده لفظة الفقه، التي تعني العلم بالأمرية الإلهية، لا على اعتبار أنها قانون تنظيمي مفصل ومصنع يضبط سير الحياة الإنسانية في ظاهرها، وإنما على اعتبار أنها جملة الأحكام التي تُعلم من الأمرية الإلهية بالضرورة[57]، والتي يتعين على المسلم أن يعمل بها، لا في ظاهر حياته وعلاقاته ومعاملاته وحسب، بل أيضا في باطنها الروحي، لكي يتحقق بالأفعال والأحوال والأوصاف التي يُحَصِّل بها الاستقامة في العالم المرئي أي عالم الشهادة،

(55) عبد الرحمن، طه، 2012، روح الدين، مرجع سابق، ص 404.

(56) المرجع نفسه، ص 411 -412.

(57) وذلك مثل: فرضية الصلاة والزكاة، وغيرها من أركان الإسلام، وحرمة القتل والزنا، وأكل الربا وشرب الخمر، ونحوها من الكبائر. ومثل الأحكام القطعية في الزواج والطلاق، والحدود والقصاص، وما شابه ذلك.

وسعادته في العالم الغيبي[58]؛ وهو ما يحقق له أيضا "التَّوَاجُدُ" و"الإِنْوِجَادُ" في نفس الوقت بين العالمين الغيبي والمرئي.

وهذا ما يدفع بالمسلم لأن يتفقه في الدين على قدر حاجته، حتى لا يأتي أعماله وهو جاهل بأحكامها قوانين وأخلاقا، فلا تنفعه في عالمه الغيبي، فضلا عن عالمه المرئي. وعلى هذا، فليس المطلوب من وجهة نظر طه عبد الرحمن، هو تكوين فئة من "التَّخَصُّصِيِّين[59] في الجزئيات الظنية[60] والاجتهادية المتفرعة من الأمرية الإلهية، بقدر ما هو تعميم للثقافة الدينية الأساسية على جميع أفراد المجتمع المسلم، كما تُعمم أي معرفة قانونية أو اجتماعية لا يعذر جاهلها، حتى يكون هؤلاء الأفراد كلهم متفقهين في دينهم تفقها حيًّا، أي جامعا بين طرفي الأمرية الإلهية القانونية والأخلاقية[61].

مما سيجعل كل مسلم يخدم دينه علميا وعمليا، انطلاقا من المجال الذي يعمل فيه، أو حيثما أفضت به أسباب الحياة، إكمالا لتعبده وإتماما لتقربه؛ والحال كما يرى فيسلوفنا، أن الإمكانات القانونية والأخلاقية لهذه الخدمة، ليست أوفر ولا طرقها أظهر ولا أجورها أكثر في النظر في النصوص الدينية منها في الاشتغال بأي ميدان آخر من ميادين المعرفة أو الممارسة متى تحقق المشتغل به بنية الإخلاص لدينه.

بل يذهب صاحبنا إلى أبعد من ذلك، حينما يؤكد أن المسلم المشتغل في ميادين الحياة المختلفة، قد تؤهله درايته الواسعة بمجال عمله لأن يتجاوز رتبة الإرشاد الذي يقوم به الفقيه المختص بالنصوص الدينية، إلى رتبة مضاهاته في استنباط الأحكام الخاصة بالوقائع التي تحصل في هذا المجال، بل يجوز أيضا أن يكون أقدر على الإصابة في اجتهاده وتوسيع أفق دينه، ونفع نفسه والمجتمع من حوله.

(58) يورد مصطفى محمد شلبي بهذا الصدد، أن عددا من الفقهاء كان لهم هذا التصور العملي والروحي للفقه، لاسيما في تعاريفهم التي جاءت مؤيدة لما ذهب إليه طه، من أنه يشمل كذلك العمل بالباطن كما الظاهر. ومن بين تلك التعاريف، قولهم: "أن الفقه يراد به باطن الشيء، والوصول إلى أعماقه، وهو نظام شامل ينظم علاقات الإنسان بخالقه، والعلاقات بين الأفراد والجماعات، أو علاقات الدول الإسلامية فيما بينها، أو فيما بينها وبين غيرها في السلم والحرب. (يرجى النظر في: شلبي، مصطفى محمد، 1382ه-1962م، المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، الإسكندرية، مطبعة دار التآليف، ج1، ص 32).

(59) من بين أهم المظاهر التي يكتفي فيها الفقه الصناعي الائتماري بالجانب القانوني من الأحكام الشرعية، هو قضية "الاختصاص"، التي يعترض عليها صاحبنا أشد الاعتراض؛ فالفقه كان من قبل ممارسة مشتركة، يتعين على كل مسلم أخذ نصيبه منها، قلّ هذا النصيب أو كثر. لكنه اليوم أضحى مادة لها خاصَّتُها من العلماء والفقهاء، الذين يستأثرون بطريقة التعامل مع النصوص التأسيسية، وتحديد السلوك التعبدي المقنن من الأحكام الفقهية.

(60) بالرغم من أهمية علم الفقه وشموليته لمجالات الأحكام الشرعية، وقطعية أدلته من الكتاب والسنة، إلا أنه لا يفيد إلا الظن؛ لأنه وإن كان قطعي الثبوت إلا أن أكثره ظني الدلالة. وهو ما يؤكده القنوجي، بقوله: "والغاية والغرض في العلوم العملية يحصلان بالظن ولا يلزم فيهما اليقين، وبذلك صار هذا العلم محلا للاجتهاد، وجاز الأخذ فيه بأي مذهب مجتهد أراده المقلد. (ينظر: القنوجي، صديق بن الحسن، وعبد الجبار، 1978، أبجد العلوم، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ج2، ص 402).

(61) عبد الرحمن، طه، 2012، روح الدين، مرجع سابق، ص 419-418.

رابعا: الفقه الائتماني وآثاره العملية في بناء الفرد والمجتمع

إذا ثبت أن المجتمع يشارك بجميع أفراده في عملية "التفقه الروحي"، فإنه لا يبقى الامتياز لأي جهة معينة في تحصيله، وهو ما يجعل من هذا المجتمع المتفقه يتولى أمره الديني والخلقي بنفسه، فيرتقي درجة في تخليق جميع أفراده، وبناء إنسان تتكامل فيه جميع جوانبه الشخصية الإنسانية السوية، النفسية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها؛ فيحق لهذا المجتمع بهذا التصور أن يختار على أساس مبدأ الشورى العامة، ووفق معايير محدد قائمة على العدل والحق، أفرادا من أبنائه ليقوموا بإدارة شؤونه العامة والخاصة.

وبهذا، سيتسم هذا المجتمع المتفقه تفقها روحيًّا بخاصية أساسية، وهي أن قراراته وتدابيره الحياتية، لا تكتسب شرعيتها من الفقه المنبني على قوانين الدين ومبادئ الشريعة في ظاهرها، وإنما تكتسب هذه الشرعية من داخل المجتمع نفسه؛ بحيث تكون قلوب أفراده، كما يتصور ذلك طه، "قد أُشبعت بالممارسة التعبدية إيُّما إشباع، حتى أصبحت تسري في مختلف مؤسساته التدبيرية روح تعبدية، يَنْبثق عنها بصورة تلقائية ما يحتاجه من قوانين تنظيمية وإجراءات تدبيرية"[62]. فيكون كل ما يصدر عن هذا المجتمع موصولا بسبب أو بآخر بالروح الأصلية التي فُهمت بها النصوص الدينية أول ما فهمت.

وهكذا، حتى إذا وضع أفراد المجتمع قانونا تنظيميا، أو اتخذوا قرارا سياسيا، أو أنشؤوا مؤسسة علمية، أو نقحوا تنظيما، أو غيروا حكما أو علقوا عملا، كل ذلك ستغدوا شرعيته مستمدة من داخله لا من خارجه، لأن أساسها الفطرة الروحية التي فطر عليها الإنسان.

إذن، فالواجب الذي يؤكد عليه فيلسوفنا طه، هو أنه "على كل فرد من المجتمع المسلم، أن يتفقه في دينه على مقتضاه الروحي، بالقدر الذي يفرغ ذمته في أداء مختلف أعماله، عبادة كانت أو معاملة[63]. غير أن التفقه المطلوب هنا، ليس الذي يلزم منه التمكن من التِّقْنِيّة الظاهرية للأحكام، إنما هو التفقه الذي يلزم فيه التحقق بالخُلقية الباطنية للأحكام؛ وهذه "الخلقية الداخلية" هي إلى الفطرة الثابتة القائمة على "الصبغة الروحية" أقرب منها إلى الصنعة المتبدلة القائمة على "النسبة النفسية"، كما هي صناعة الفقه[64].

إن هذه الثقافة الأخلاقية التي سيتبناها المجتمع في بناءه المعرفي والسلوكي الأخلاقي، والتي ينبني عليها الفقه الحي، تقبل التعميم والانتشار، بما لا تقبله ثقافة القوانين التي ينبني عليها الفقه الصناعي؛ ذلك أن ثقافة القوانين هي فرض كفاية، كما يرى طه، أي إذا قام بها البعض سقطت عن البعض الآخر، أو

(62) عبد الرحمن، طه، 2012، روح الدين، مرجع سابق، ص 436 -437.

(63) المرجع نفسه، ص 438.

(64) وهو ما تؤكده الآية الكريمة في قوله عز وجل:"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (الروم الآية 30).

إذا حصَّلتها فئة من المجتمع أغْنَت عن تحصيل الفئات الأخرى لها؛ بينما الثقافة الأخلاقية التي تدعو إلى تصحيح الأعمال وتقويم السلوك بالرجوع إلى باطن وروح الإنسان، هي فرضُ عين، بحيث لا يغني تحصيل أحد لها عن تحصيل غيره، إذ أن إهمال هذا الفرض فيه فساد الإنسان وخراب العمران.

وهنا لابد من الإشارة إلى خاصية أساسية، تتعلق بهذا المجتمع الذي نحن بصدد بناءه وفقا لقواعد القيم الأخلاقية المنبثقة من الأحكام الشرعية ومقاصد الشريعة الإسلامية، وهي:

أن المجتمع المتفقه تفقها حيًّا ائتمانيًّا، ليس كأي مجتمع، بل هو مجتمع يُنظر إليه على أنه متقدم دينيا، كما يكون المجتمع متقدما اقتصاديا، في مقابل المجتمع غير المتفقه، الذي هو مجتمع متخلف دينيا؛ فكم من المجتمعات المتقدمة اقتصاديا متخلفة دينيا؛ وكما يجوز بنظر صاحبنا، ترتيب المجتمعات بحسب وضعها المادي، بحيث يكون بعضها أرقى اقتصاديا من بعض، فكذلك يجوز ترتيبها بحسب وضعها التَّعبدي، بحيث يكون بعضها أرقى دينيا من بعض، ويتجلى هذا التقدم أو الرقي الديني في تمتع الأفراد بخلقية عالية، تجعل مجتمعهم يأتي في مقدمة المجتمعات تحققا بمكارم الأخلاق، كما يتجلى التقدم أو الرقي القانوني في تمتع أفراد المجتمع بحقوق شافية وحريات وافية، لا يتمتع بها غيرهم في مجتمعات أخرى[65].

بل نجد هذا التفاضُل حتى بين المجتمعات ذات الدين الواحد، فبعضها أفقه وأخلق من بعض؛ والانتقال بها إلى مزيد التفقه والتخلق لا يتطلب من القدرات والمقدرات ما يتطلبه الانتقال بها إلى مزيد التنمية الاقتصادية والترقية الاجتماعية والمأسسة السياسية، بل إن هذه التنمية المُكلِّفة نفسها "يمكن تحقيقها بأيسر الطرق وأخف الجهود لو يتقدمها تحصيل التفقه الحي المناسب، والتخلق الروحي المواكب"[66].

وهكذا فإن انخفاض كلفة التفقه والتخلق، والحاجة إلى الارتقاء بمستواه، كل ذلك يدعو، كما يُشدد على ذلك فيلسوفنا، إلى تنزيل مبادرة وضع البرامج التفقيهية، والسياسات التخليقية، الكفيلة بجعل المجتمع يسير على طريق الرُّقي الديني، كما توضع له الخطط الاقتصادية والسياسات المالية، لكي يسير على طريق الرقي المادي والسياسي.

(65) تجدر الإشارة إلى أن المجتمع المتفقه تفقها أخلاقيا روحيا، يقيم علاقاته بين أفراده وجماعاته على المصالح الأخلاقية، وهو بنظر طه عبد الرحمن، على العكس من المجتمع غير المتفقه، الذي يقيمها على المصالح القانونية، نظرا لأن القانون لا يضبط إلى الظاهر من الأعمال، بينما الأخلاق تضبط الباطن الذي هو أساس الظاهر؛ وهو ما يترتب عليه أن المجتمع المتفقه لّما جعل أساس التعامل بين أفراده هو مكارم الأخلاق، فقد أقام الأفضلية بينهم على مبدأ التنافس الخلقي.

(66) عبد الرحمن، طه، 2012، روح الدين، مرجع سابق، ص 441-440.

خاتمة

شكل التداخل والتفاعل بين العلوم الإسلامية مظهرا مهما من مظاهر تكامل علوم التراث؛ وذلك بالنظر إلى ترتيب العلوم وتصنيفها، وهو ما كان له بالغ الأثر في خدمة التقارب بينها، وامتزاج حقولها المعرفية، وإثراء بعضها البعض، ما أدى إلى تحقيق التكامل الذي تُوّج بخاصية الموسوعية العلمية. ولذلك، كان النظر في هذا البحث حول استثمار هذا التقارب والتفاعل والتكامل بين العلوم العربية والإسلامية الأصيلة مع غيرها من العلوم والمعارف في بناء الإنسان والمجتمع المسلم، وذلك بنظرة شمولية، تتكامل فيها جوانب الحياة الإنسانية الوجودية، التي تتجه إلى التعامل معه باعتبار شخصيته المزدوجة، التي تجمع بين جانبيه الروحي المادي، في تكامل بين مكوناته النفسية والسلوكية والاجتماعية.

وكان الفيلسوف طه عبد الرحمن من بين المفكرين المعاصرين الذين تألقوا في هذا الحقل، بعدما عمل على تأسيس نظريته التكاملية في علوم التراث، واختياره لنموذج فريد استوفى الشروط النظرية والعملية لتكون أعماله العِلمية مثالا نموذجيا لتحقيق التكامل المعرفي وهو أبو إسحاق الشاطبي، الذي يرجع إليه الفضل الكبير في تأسيسه وتجديده لمفهوم أساسي في مقاصد الشريعة الإسلامية، وهو مفهوم المقصد.

وقد أبدع طه عبد الرحمن في إخراج هذا المفهوم من حقل المفاهيم المتداولة، فجعله مشتركا بين معان يبرز فيها التداخل المعرفي بين أصول الفقه وعلم الأخلاق، وهي نظرية المقصودات والقُصود والمقاصد، التي تمنحنا في منتهى جمعها ما يطلق عليه بعلم المقاصد.

فكان من نتائج جعل هذه النظريات تجتمع في صلب أصول الفقه هو أنها تحمل أوصافا من علم الأخلاق. وهذا ما جعل الرجل يجتهد في استجلاء هذه الأوصاف الأخلاقية التي تشبعت بها مقاصد الشريعة الإسلامية، وانبنت على أساسها أحكامها. وهو ما يعني أن الأحكام الشرعية ترتبط بالمصالح التي تتحدد بمقاصد وغايات كبرى، أهمها هي أنها عبارة عن قيم أخلاقية ينهض بها الحكم الشرعي، بموجب نزوله على مقتضى الفطرة الإنسانية.

والنتيجة، هي أن علم مقاصد الشريعة الإسلامية، هو انعكاس للصورة النهائية التي اتخذها علم الأخلاق باندماجه في علم أصول الفقه، والمظهر الأكمل والأشمل على التداخل الذي حصل بينهما من خلال يقينية نظريات المقصود والقصد والمقصد الشرعي، على أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بأوصاف أخلاقية؛ فتكون بذلك كل الفروع الفقهية مؤسسة على معاني القيم ومبادئ الأخلاق، التي تشكل نسقا موحدا يبرز فيه التداخل لعلم الأصول مع علم الأخلاق، في صورة فريدة من التكامل العلمي لمضامين نصوص التراث الإسلامي العربي.

من جهة أخرى، واستثمارا عمليا لهذه النتيجة، عمل طه عبد الرحمن على التمييز بين الفقه الائتماري الذي يختص باستنباط الأحكام الشرعية المتعلقة

بالرسوم الظاهرة، والفقه الائتماني الذي يعمل على استخراج القيم الأخلاقية التي هي تحت هذه الأحكام. فكان اجتهاده في هذا السياق انشغالا بإبراز الدور المركزي للنظر الائتماني وأصوله العامة في بناء الفرد والمجتمع معرفيا وسلوكيا، من خلال الارتقاء بالأحكام الشرعية من الوقوف على رسومها الظاهرة إلى النفود في باطنها الروحي.

وعليه، كان السعي حثيثا للانتقال من نموذج الفقه الصناعي الائتماري إلى نموذج الفقه الائتماني، الذي يعمل على إخراج الإنسان من الأمرية إلى فقه الآمرية الإلهية؛ أي من كونه يفقه أوامر الله إلى كونه يفقه عن الآمر أوامره؛ وذلك بشهود الآمر سبحانه في أوامره المنزلة. وهو ما يتطلب من كل مسلم مكلف أن يتفقه في الدين على قدر حاجته، حتى يكون جميع أفراد المجتمع متفقهين تفقها حيا، يجمع بين طرفي الأمرية الإلهية القانونية والأخلاقية. مما سيجعل كل مسلم يخدم دينه انطلاقا من المجال الذي يعمل فيه، سواء كان عملا دينيا أو دنيويا.

وبذلك سنحصل على مجتمع يشارك جميع أفراده في عملية التفقه الروحي، فيرتقي درجة في تخليق الحياة العامة، وبناء إنسان تتكامل فيه جميع جوانبه الشخصية الإنسانية السوية، النفسية والاجتماعية، السياسية والاقتصادية، السلوكية والأخلاقية، وغيرها؛ وهكذا، ستكون قراراته وتدابيره التنظيمية الفردية والجماعية، لا تكتسب شرعيتها من الفقه المنبني على قوانين ومبادئ الشريعة في ظاهرها، وإنما على شرعية داخلية، انبثقت من الممارسة التعبدية التي أثمرت تخلقا حيًّا عاليا، سيكون له بالغ الأثر على مختلف المؤسسات التنظيمية والتدبيرية الفردية والجماعية.

لائحة المصادر والمراجع

1. ابن الخوجة، محمد الحبيب، 1425ه2004-م، بين علمي أصول الفقه والمقاصد، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
2. ابن حنبل، أحمد،2008، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
3. ابن خلدون، عبد الرحمن، 1425ه2004-م، مقدمة ابن خلدون، تحقيق، عبد الله محمد درويش، ط1، دمشق، دار البلخي.
4. ابن عاشور، الطاهر، 1435ه2005-م، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ومراجعة، محمد الحبيب بن الخوجة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
5. ابن مسعود اليوبي، أحمد، 1418ه1998-م، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، ط1، الرياض، دار الهجرة للنشر والتوزيع.
6. ابن منظور، محمد بن مكرم، 1414ه، لسان العرب، تحقيق، عبد الله الكبير وهاشم محمد الشادلي، ط3، القاهرة، دار المعارف.
7. الأندلسي، أبو محمد علي ابن حزم، 1980، رسالة مراتب العلوم في ضوء ما سبقها من تصنيف للعلوم عند العرب، تحقيق، إحسان عباس، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
8. بابكر حسن، خليفة، 2007، التجديد في أصول الفقه، مشروعيته وتاريخه وإرهاصاته المعاصرة، مجلة المسلم المعاصر، السنة الثانية والثلاثون، عدد 126-125، لبنان.
9. البخاري، محمد بن إسماعيل، 1423ه2003-م، صحيح البخاري، ط1، دمشق، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع.
10. بدوي، عبد الرحمن، 1977، مناهج البحث العلمي، ط3، الكويت، وكالة المطبوعات.
11. الدريج، محمد، وآخرون، 2011، معجم مصطلحات المناهج وطرق التدريس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، الرباط.
12. الزحيلي، مصطفى، 1427هـ2006-م، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، ط1، دمشق، دار الفكر.
13. الزرقاء، مصطفى أحمد، 1425هـ2004-م، المدخل الفقهي العام، ط2، دمشق، دار القلم.
14. سيف، أحمد نور، 1421هـ2000-م، عمل أهل المدينة بين مصطلحات مالك وآراء الأصوليين، ط2، دبي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث.
15. الشاطبي، أبو إسحاق، 1406هـ1985-م، فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق، محمد أبو الأجفان، ط1، تونس، مطبعة الكواكب.
16. الشاطبي، أبو إسحاق، 1425ه2004-م، الموافقات في أصول الشريعة، شرح وتخريج، عبد الله دراز وعبد السلام بن عبد الشافي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
17. شلبي، مصطفى محمد، 1962-1382، المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، الإسكندرية، مطبعة دار التآليف.
18. عباس عسكر، علاء، 1431هـ2010-م، نحو رؤية فلسفية للقيم في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ط1، عمان، دار غيداء للنشر.
19. عبد الرحمن، طه، 2012، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط4، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
20. عبد الرحمن، طه، 2012، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، ط2، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
21. عبد الرحمن، طه، 2013، الحوار أفقا للفكر، ط1، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
22. عبد الرحمن، طه، 2016، دين الحياء، من الفقه الائتماري إلى الفقه الائتماني: 1--أصول النظر الائتماني، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للفكر والإبداع.

23. العثماني، سعد الدين، 2012، جهود المالكية في تصنيف التصرفات النبوية، ط1، القاهرة، دار الكلمة للنشر والتوزيع.
24. الغزالي، أبو حامد، 1964، ميزان العمل، تحقيق، سليمان دنيا، ط1، مصر، دار المعارف.
25. الفاسي، علال، 1993، مقاصد الشريعة ومكارمها، ط5، الرباط، دار الغرب الإسلامي.
26. القاضي عياض، أبو الفضل، 1403هـ-1983م، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ط2، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
27. القنوجي، صديق بن الحسن، وعبد الجبار، 1978، أبجد العلوم، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
28. الميلاد، زكي، 2012، أصول الفقه ومسألة المنهج، مجلة المسلم المعاصر، عدد 146-145، لبنان.
29. يفوت، سالم، 1988، درس الإبستمولوجيا، ط2، الدار البيضاء، دار توبقال.
30. La rousse dictionnaire encyclopédique, 1979, librairie la rousse, paris volume 13.

معالم تجديد الدرس الأصولي عند مالكية الغرب الإسلامي

الدكتور محمد والزين
أستاذ زائر بجامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس-المغرب

الاستلام : 16/ 1/ 2023 القبول : 14/ 2/ 2023

المستخلص :

يعد التجديد مبدأ أصيلا في تراثنا الأصولي؛ فقد حرص علماؤنا على مراعاة هذا المبدأ في مؤلفاتهم العلمية، وممارستهم التدريسية، وكان لعلماء الغرب الإسلامي إسهام كبير في تأسيس هذا المبدأ، وترسيخ معالمه في الدرس الأصولي؛ تجلى ذلك في إنتاجهم العلمي؛ الذي يبرهن على عمق تصورهم للمعرفة الأصولية؛ تأليفا، وتدريسا، ومسالك ترسيخ ملكاتها. ولبيان ذلك، حاولنا تتبع المسار العلمي لأعلام المالكية من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجريين، ودراسة مؤلفاتهم؛ رغبة في استكناه معالم تجديد الدرس الأصولي، لَعَلَّنا نستفيد منها في تجويد تدريس علم أصول الفقه.

الكلمات المفتاحية: التجديد/أصول الفقه/ الدرس الأصولي/ الباجي/ ابن رشد/ الشاطبي.

Abstract:

Functionalismisconsidered a principal deeplyrooted in oureducationalpatrimony.Our scholarsshowed a greatpersistence to adoptthis principal in theirscientific books. and in their practice of education. The Islamic Western scholarshad a contribution to establishit and to fixits frame in the fundamentalistlesson. This lies in theirscientific production whichprovestheirdeepfundamentalism of the functionalism and its right implementation.

To show its aspects, wetried to go along the thepath of ourscholars and to studytheirwritings, having the desire to draw the frames of theirfunctionalism to hopefullybenefitfrom the fundametalistlesson.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد؛

فإن تجديد العلوم الشرعية يقتضي من الباحثين الاهتمام بثلاث قضايا أساسية؛ هي:

القضية الأولى: دراسة العلوم الشرعية، وتتبع مراحل تطورها؛ من خلال قراءة تحليلية لتراثنا الإسلامي.

القضية الثانية: تشخيص واقع تدريس العلوم الشرعية بالمؤسسات الجامعية، والمعاهد العليا؛ بغية رصد أوجه القوة والضعف في الممارسة التدريسية، وتجويد مناهج تدريس هذه العلوم.

القضية الثالثة: الانفتاح على المستجدات التربوية المعاصرة، واستثمارها في تجديد مناهج تدريس العلوم الشرعية بالجامعات المغربية.

تحقيقا لهذا الهدف الأسمى أقدم ورقة بحثية في موضوع: "معالم تجديد الدرس الأصولي عند مالكية الغرب الإسلامي"؛ قصد تحقيق الأهداف الآتية:

أهداف البحث:

1. الإسهام في خدمة الدرس الأصولي، وتجويد تدريسه؛
2. بيان تجليات التجديد الأصولي عند مالكية الغرب الإسلامي؛
3. بيان أهمية استثمار مبدأ الوظيفية في تجديد الدرس الأصولي.

إشكال البحث: نسعى في هذا البحث إلى مقاربة الإشكال الآتي:

ما تجليات تجديد الدرس الأصولي عند مالكية الغرب الإسلامي؟ وهل كان مبدأ الوظيفية حاضرا في تدريس علم أصول الفقه عند مالكية الغرب الإسلامي ؟

فرضيات البحث:

- يمكن الكشف عن تجليات تجديد الدرس الأصولي؛ من خلال استنطاق مؤلفات أصوليي مالكية الغرب الإسلامي.
- يُمكن استثمار معالم الوظيفية المستفادة من تراثنا؛ لتجويد الدرس الأصولي بالتعليم الجامعي.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث الاعتماد على المنهج الوصفي؛ وذلك من خلال تتبع سير علمائنا، ودراسة حياتهم العلمية والتعليمية. إضافة إلى المنهج التحليلي؛ وذلك عند دراسة مؤلفات أصوليي الغرب الإسلامي، وتحليل بنيتها المعرفية، وبيان علاقة التأليف بالتدريس. وقد اقتصرت على ثلاثة أعلام ممن كانت لهم اليد الطولى في التأليف والتدريس في الغرب الإسلامي، ودرست مؤلفاتهم الأصولية؛ وهي إحكام الفصول للإمام الباجي(ت474ه)، والضروري لابن رشد الحفيد(ت595ه)، والموافقات للإمام الشاطبي(ت790ه) رحمهم الله جميعا.

خطة البحث:

انعقد موضوع البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة؛ تناولت في المقدمة الإطار المنهجي، وجعلت المبحث الأول لبيان معالم التجديد عند الإمام الباجي، في حين خصصت المبحث الثاني لإبراز معالم التجديد عند الإمام ابن رشد، وأفردت المبحث الثالث لكشف معالم التجديد عند الإمام الشاطبي، وشفعت ذلك بخاتمة موجزة تلخص ما ورد في البحث.

يعد التجديد مبدأ أصيلا في تراثنا الأصولي؛ فقد حرص علماؤنا على مراعاة هذا المبدأ في مؤلفاتهم العلمية، وممارستهم التدريسية، وكان لعلماء الغرب الإسلامي إسهام كبير في تأسيس هذا المبدأ، وترسيخ معالمه في الدرس الأصولي؛ تجلى ذلك في إنتاجهم العلمي؛ الذي يبرهن على عمق تصورهم للمعرفة الأصولية؛ تأليفا، وتدريسا، ومسالك ترسيخ ملكاتها. ولبيان ذلك، حاولنا تتبع المسار العلمي لأعلام المالكية من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجريين، ودراسة مؤلفاتهم؛ رغبة في استكناه معالم تجديد الدرس الأصولي، لَعَلَّنا نستفيد منها في تجويد تدريس علم أصول الفقه؛ بيانها كما يلي:

المبحث الأول : معالم التجديد عند الإمام الباجي(ت474ه)

يعتبر الإمام الباجي رحمه الله من مجددي الفكر الأصولي، ومن مؤسسي المنهج الجدلي في الغرب الإسلامي؛ حيث كان غرضه من تأليف كتاب (المنهاج في ترتيب الحجاج) تعليم المالكيين طريقة الجدل والانتصار لمذهبهم؛ قال في هذا الصدد: (أزمعت على أن أجمع كتابا في الجدل يشتمل على جمل أبوابه، وفروع أقسامه، وضروب أسئلته، وأنواع أجوبته، وأعفيته من التطويل الممل للمريد، والاختصار المخل بالمقصود، وجعلته جامعا لما يحتاج إليه، مستوعبا لما يعول عليه في الاستدلال بالكتاب والسنة والإجماع والقياس، وغير ذلك من أنواع الأدلة)[1].

إن من تتبع مؤلفات الإمام الباجي-خاصة تلك التي ألفت في الجدل والأصول والفقه- يجد معالم التجديد حاضرة في تأليفه، ومستحضرا حاجات طلبته، باعتباره مدرسا للعلوم الشرعية في بلاد الأندلس، ويمكن إبراز معالم التجديد عنده في النقط الآتية:

معالم التجديد في التدريس وأسلوبه

إن منهج الإمام الباجي رحمه الله في التأليف، عرضا وأسلوبا؛ فيه كثير من الإشارات التجديدية، المتعلقة أساسا بعملية التدريس؛ سواء على مستوى التخطيط، أو التنفيذ؛ وهي إشارات حاولنا استنباطها من كتاب إحكام الفصول، عسى أن يستفاد منها في بلورة تصور لتدريس (علم أصول الفقه)؛ ويمكن تحديدها في أمرين:

(1) المنهاج في ترتيب الحجاج، الباجي، ص: 7. تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، تونس، (دون ذكر ط وتاريخ النشر).

أولا: تنظيم عملية التدريس

مما لا شك فيه أن عملية التدريس تحتاج -أكثر من أي عمل آخر- إلى تنظيم يسهل التحصيل العلمي، ويسهم في بناء (الملكة) في العلوم المدرسة؛ ومنها علم الأصول. وأقصد بالتنظيم مجموعة من الخطوات التي تتخذ بقصد تيسير علمية التدريس؛ لتحقق أهدافها.

وطبيعي أن يختلف هذا التنظيم حسب اختلاف الزمان والمكان والإمكانات المتوفرة؛ لكن المؤكد لدينا أن عملية التدريس عند أبي الوليد كانت منظمة بقدر ما يناسب البيئة التي عاش فيها؛ وما تتيحه الإمكانات المتوفرة في عصره، والذي يؤكد هذا جملة من الأمور، نجملها فيما يلي:

1 - اختيار مكان التدريس؛ وهذا الأمر -وإن بدا بدهيا في عصرنا- يدل على أن التدريس كان عملا مقصودا له شروطه وأهدافه، وخطواته؛ فقد روى لنا أبو نصر ابن ماكولا (ت487ه)؛ أحد تلامذة الباجي ما يؤكد أن أبا الوليد(ت474ه) كانت له مجالس خاصة بالتدريس؛ حيث قال: "رجع إلى الأندلس فروى، ودرس وألف، فقرأت عليه كتاب التمييز لمسلم عن أبي ذر الهروي، وحضرتُ مجالسه، وكان جليلا رفيع القدر والخطر"[2].

ولا يمكن أن نتصور هذه المجالس في الطرقات والأسواق، بل هي مجالس رفيعة القدر والخطر على قدر صاحبها؛ يُختار لها أفضل الأماكن وأحسنها؛ إما أن تكون في المساجد؛ وهي الأصل، أو بعض المدارس التي بنيت لغرض التعليم.

وواضح من تعبير ابن ماكولا بصيغة الجمع (مجالس)؛ وليس بالمفرد (مجلس)؛ أن هذه المجالس مستمرة؛ حضرها مرات وقرأ عليه فيها.

ويتأكد هذا التنظيم والاستمرار لعملية التدريس بما ذكره صاحب (طبقات الأصوليين) عند ترجمته لأحمد بن سليمان(ت493ه)؛ أحد أبناء الباجي؛ حيث قال: "الفقيه، الأصولي المالكي، تفقه على أبيه سليمان القاضي،ثم خلفه في حلقة درسه بعد وفاته...، وكان يعتمد عليه في إصلاح مؤلفاته في علم الأصول"[3]. وما كان لابنه أن يخلفه في التدريس، لو لم تكن هذه المجالس منظمة؛ لها مكان، وطلبة، وعلوم تُدرَّس.

2 - اختيار المادة المُدرَّسة: من الوظيفية في التدريس اختيار المحتوى الدراسي المناسب لحاجات الطلبة، وقدراتهم العقلية.

وإذا كنا نعدم نصوصا صريحة تدل على طبيعة هذا الاختيار عند الإمام الباجي؛ فإننا نجد بعض الإشارات فيما ذكرتْه كتب التراجم؛ تدل على أن لكل مجلس علما يُدرَّس فيه؛ ومن ذلك أن أبا الوليد(ت474ه) تفقه عليه خلق كثير، وتفقه به الأصحاب والأقارب، وفي مقدمتهم ابنه أحمد(ت493ه) -كما مر-؛ أي صار هؤلاء فقهاء؛ فهو إذن كان يدرسهم الفقه؛ وهو الفقيه الذي ألف (المقتبس

(2) الإكمال، ابن ماكولا، ج1، ص: 468. دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1411هـ-1990م.

(3) الفتح المبين في طبقات الأصوليين، المراغي، ج1، ص: 271، وزارة الأوقاف، مصر، ط الأولى، 1366هـ- 1947م.

في علم مالك ابن أنس)، و(فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام)، و(شرح المدونة)، و(المهذب في اختصار المدونة). وهو الذي أعاد للفقه المالكي مهجته.

ومن النصوص التي ذكرناها نستشف اختيار أبي الوليد للمحتوى في علم الحديث، والأصول. أما الأول؛ فيدل عليه ما صرح به تلميذه ابن ماكولا؛ أنه قرأ عليه كتاب التمييز لمسلم عن أبي ذر الهروي؛ وقراءته هذه كانت في حصص خاصة بهذا العلم؛ ذلك أنه أكد الأمر بعد هذا التصريح بقوله: "وحضرت مجالسه"؛ ويَحتمل أن يكون المقصود مجالس أبي الوليد عامة في كل العلوم التي كان يُدرسها، كما يمكن أن يكون المراد؛ مجالسه الخاصة بعلم الحديث، وأي الاحتمالين صح؛ فهو يؤكد أن الباجي كانت له مجالس؛ ولكل مجلس علم يُدرَّس فيه.

وأما الثاني؛ وهو علم الأصول الذي يعود الفضل في تدريسه للمالكية في هذه الحقبة لأبي الوليد؛ وهذا يدل عليه كلام أبي بكر بن العربي(ت543ه) الذي تأسف على حال التعليم بالأندلس قبل قدوم الباجي من المشرق وتصدره للتدريس؛ حيث قال: "فصار الصبي عندهم إذا عقل، فإن سلكوا به أمثل طريق لهم، علموه كتاب الله تعالى،...ثم نقلوه إلى الأدب،...ثم إلى الموطأ، ...ثم إلى المدونة،...ثم إلى وثائق ابن العطار، ثم إلى أحكام ابن سهل فقال: فلان الطليطلي، وفلان المجريطي، وابن مغيث- لا أغاث الله نداءه، ولا أنالـه رجاءه،- فيرجع القهقرى أبدا إلى وراء على أمه الهاوية، ولولا أن طائفة نفرت إلى دار العلم، وجاءت بلباب منه، كالأصيلي، والباجي، فرشت من ماء العلم على هذه القلوب الميتة، وعطرت أنفاس الأمة الزفرة لكان الدين قد ذهب"[4].

وبالنظر إلى ما ذكره ابن العربي(ت543ه)-وغيره-؛ فإن علم أصول الفقه كان شبه غائب عند المالكية في هذه الحقبة؛ فهم ولَّوا وجوههم شطر الفقه، يدرسون الموطأ، ثم المدونة، ثم بعض الوثائق؛ فكان اهتمامهم منصبا على الفقه؛ لذلك يرى ابن العربي أن هذا الاهتمام بالفروع رجع بهم القهقرى إلى الهاوية؛ حتى بعث الله أبا الوليد(ت474ه) فأحيا به القلوب الميتة بما جاء به من لباب العلم. وأي علم تميز به الباجي وزرعه في الأندلس غير علم الأصول؟

3 - وجود فئة مواظبة على حضور مجالس التعليم

إن الركن الثالث الذي لا نتصور تدريسا في حال غيابه؛ هو الفئة المواظبة على حضور الحصص التعليمية؛ ومن الوظيفية في تدريس العلم أن يقدم إلى أهله؛ لذا فإن المنطق يفرض أن تكون مجالس أبي الوليد(ت474ه) في علم الأصول يحضرها خواص الطلبة؛ نظرا لطبيعة المادة المدرسة التي كان من نتاجها تأليف كتاب (إحكام الفصول)؛ فهو لم يكن يدرس هذا المحتوى للعوام، ولا يستقيم أن يكون

(4) العواصم من القواصم، أبو بكر ابن العربي، ص: 364- 365. تحقيق عمار طالبي، مكتبة دار التراث، القاهرة، (بدون ط، وسنة النشر).

الأمـر كذلـك، بـل قـد تفقـه عليـه الأصحـاب. وليـس الفقيـه مـن حفـظ الفـروع، بـل مـن اسـتطاع تخريـج الفـروع عـلى الأصـول.

يقـول الإمـام السـمعاني(ت489ه): "إن مـن يعـرف الفـروع والأحـكام، ولا يعـرف دلائلهـا وعللهـا؛ فهـذا ناقـل، يرجـع إلى حفظـه، ولا يعـول عـلى اجتهـاده، ولا يرتفـع الإجمـاع بخلافـه. وأمـا مـن يكـون حافظـا للأحـكام والفـروع بدلائلهـا وعللهـا، مشرفـا عـلى الأصـول في ترتيبهـا ولوازمهـا، عارفـا شـبهها وأدلتهـا وعللهـا؛ فهـذا أكمـل الفقهـاء علمـا، وأصحهـم فيـه اجتهـادا؛ وهـذه الطبقـة هـم الذيـن يرجـع إليهـم في الإجمـاع والاختـلاف"[5].

ثانيا: تنويع طرق التدريس[6]

تقـدم أن أبـا الوليـد(ت474ه) كانـت لـه مجالـس تعليميـة منظمـة يسـودها الوقـار والسـكينة؛ يأتـي إليهـا الباجـي بقصـد التدريـس، تـاركا كل أعمالـه الأخـرى، كمـا يحـضر هـذه المجالـس طلبـة يطرقـون بـاب أسـتاذهم للتعلـم.

وبالنظـر إلى طبيعـة عـرض المباحـث الأصوليـة في كتـاب (إحـكام الفصـول)، ومـا رواه طلبـة الباجـي عـن مجالسـه التعليميـة؛ يمكـن القـول: إن أبـا الوليـد كان يعتمـد طريقتين-عـلى الأقـل- في التدريـس؛ وهمـا:

أ- طريقـة الإلقـــــــاء: وهـي طريقـة يتـولى فيهـا الشـيخ تقديـم بعـض مسـائل العلـم لطلبتـه؛ وهـم يسـتمعون إليـه؛ ومما يـدل عـلى ذلـك؛ مـا ذكـره القاضي عيـاض (ت544ه) في ترجمتـه لأبـي الوليـد[7].

وإذا كانـت طبيعـة العلـم الـمُدرَّس مـن عوامـل اختـلاف طريقـة التدريـس؛ فـإن ذلـك يعنـي أن اختيـار هـذه الطـرق أمـر حـاضر في ذهـن أبـي الوليـد وإن لـم يـصرح بـه؛ شـأنه في ذلـك شـأن جملـة مـن الخطـوات التدريسـية التـي لـم يكتـب عنهـا شيء لأسـباب مجهولـة، ولكـن بوسـع المتأمـل في ترتيـب مباحـث العلـم وطريقـة عرضهـا؛ أن يسـتنبط تجليـات الوظيفيـة في التدريـس، والمتمثلـة في تلـك الخطـوات التـي كانـت تمـارس ولا توصـف؛ ومنهـا:

- تحديـد الأهـداف؛ لقـد نـص الإمـام الباجـي بوضـوح عـلى الغـرض مـن وضـع كتابـه، وبـين أنـه ألفـه لسـببين: سـبب علمـي؛ وآخـر تعليمـي، وأن تأليفـه لكتـاب الإحـكام مقصـود؛ دعـت إليـه حاجـات علميـة وتعليميـة[8].

(5) قواطـع الأدلـة، السـمعاني، ج1، ص: 481. تحقيـق: محمـد حسـن إسـماعيل الشـافعي، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، لبنـان، ط الأولى، 1418هـ- 1999م

(6) ليـس المقصـود هنـا طـرق التدريـس بمفهومهـا المعـاصر، والمعـروف عنـد المختصـين في علـم التدريـس. بـل أحددهـا بنـاء عـلى ترجيـح أن أصوليـي الغـرب الإسـلامي كانـوا يدرسـون بهـا بشـكل عـام.

(7) قـال رحمـه اللـه واصفـا ذلـك: "حـاز الرئاسـة بالأندلـس، فأُخِـذَ عنـه بهـا علـمٌ كثـير، وسَـمع منـه جماعـة، وتفقـه عليـه خلـق كثـير"، ترتيـب المـدارك، ج8، ص: 118. تحقيـق محمـد بـن تاويـت الطنجـي مـع الغـير، وزارة الأوقـاف والشـؤون الإسـلامية-المغرب، ط الثانيـة، سـنة 1983م.

(8) ينظـر: إحـكام الفصـول، للباجـي، ص: 280. تحقيـق عمـران عـلي أحمـد العربـي، منشـورات جامعـة المرقـب، بنغـازي-

ومن ثم؛ فالعمل التعليمي -كما التأليف العلمي- لن يؤتي أكله ما لم ينطلق من أهداف واضحة؛ تراعي مبدأ الوظيفية في اختيار المحتوى الدراسي.

- الانطلاق في التدريس من البنية الكلية؛ وتستفاد هذه القاعدة التدريسية من التخطيط الذي قدمه الباجي لأقسام الكتاب؛ فبعد أن بين الغرض من تأليف الكتاب، قدم تصورا كليا، يجعل القارئ يطلع على ما في الكتاب إجمالا؛ والغرض من ذلك "أن يكون الإقدام على تعلمه مع حظ من العلم الجُمْلي بالعلم الذي يحاول الخوض فيه"[9].

ولا ريب أن هذا المنهج مفيد في التأليف؛ نظرا لمراعاته النسقية في عرض المادة العلمية لـ(علم أصول الفقه)؛ وهو عمل وظيفي، ييسر الاحتفاظ بالمادة المدرسة؛ وإذا كان الأمر كذلك في التأليف؛ فإنه في التدريس أنفع وأفيد؛ لأن لغة التأليف ليست هي لغة التدريس؛ ومقاصد هذا غير مقاصد ذاك.

ويمكن تسمية هذه الخطوة بـــــ (البيان الإجمالي) في التدريس؛ وتتأكد أهميته إذا أخذنا بعين الاعتبار طريق اشتغال الدماغ البشري، الذي يتعامل مع البنية[10]، ويتعلم بها أكثر مما يتعلم عن طريق تجزيء المعرفة إلى عناصر متفرقة؛ فالتعلم في (النظرية الجشطلتية) هو: "استبصار وفهم حقيقي للعلاقات القائمة بين أجوائه، بحيث يصبح لها معنى؛ وبذلك يكتسب الطالب الخبرة، من خلال تعلمه الذي يصعب نسيانه، ويمكنه من تعميمه، واستثماره وتوظيفه في كل المواقف التعليمية الأخرى"[11].

البدء بتوضيح المفاهيم الأساسية؛ وذلك تجنبا لسوء الفهم من جهة، وتسهيلا لعملية التعلم من جهة أخرى؛ وهذا ما قام به الباجي رحمه الله في التمهيد/الفصل الثاني؛ إذ شرح جميع المصطلحات التي سيوظفها في الكتاب؛ فهو بذلك، وبلغة تربوية؛ يتعاقد مع الطالب والقارئ، ويوفر شروط حسن التواصل، ويدرأ عوائقه.

ولا شك أن المصطلح من صلب العلم، بل هو لغة العلم، التي يعبر بها عن نفسه، ويتواصل مع متخصصيه ودارسيه ومتعلميه، ولا يمكن أن يحصل التواصل والفهم السليم بين المتخاطبين؛-وهم هنا المدرس والطالب - إلا إذا كانت لغة التواصل موحدة بينهما دلاليا؛ ولغة العلم هي المصطلح؛ وهي أشد تعقيدا من لغة التواصل العادية، ومن ثم لا يبقى "من شك في أن من أهم الطرق الموصلة

ليبيا، ط الأولى، سنة 2005م.

(9) البرهان، الجويني، ج1، ص: 5. تحقيق سمير مصطفى دباب، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط الأولى، سنة 2002م.

(10) وقد أكدت نظريات التعلم الحديثة على أهمية تقديم التعلمات في بنية كلية؛ لأن الدماغ البشري يتعامل مع الجشطلت(البنية) بسهولة كما هو مقرر في (النظرية الجشطلتية الألمانية)؛ وهي نظرية تربوية حديثة، أسسها ثلاثة علماء ألمان؛ وهم: "فريتمر(ت1943م)، وكوفكا(ت1941م)، وكوهلر(ت1967م)". ويرى أصحاب هذه النظرية أن السلوك عبارة عن وحدة كلية واحدة، غير قابلة للتحليل ولا للتجزئة. ينظر: نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، كفاح يحيى صالح العسكري ومن معه، ص: 181. تموز للنشر والتوزيع، دمشق- سوريا، ط الأولى، سنة 2012م.

(11) أساسيات وتطبيقات في علم المناهج، نجوى عبد الرحمان شاهين، ص: 74، دار القاهرة، مصر، ط الأولى، سنة 2006م.

إلى العلم معرفة اصطلاحات أهله"[12].

ونظرا لقوة الصلة بين العلم والمصطلح؛ فـ"إن أكثر ما يحتاج به في تحصيل العلوم المدونة، والفنون المروجة إلى الأساتذة؛ هو اشتباه الاصطلاح؛ فإن لكل علم اصطلاحا خاصا به. إذا لم يعلم بذلك؛ لا يتيسر للشارع فيه الاهتداء إليه سبيلا، ولا إلى انقسامه دليلا"[13].

البيان التفصلي لمحتوى الدرس؛ وهذا البيان لا بد أن يجتنب فيه التطويل الممل، والاختصار المخل. فمما يؤدي إلى الملل والضجر لدى الطلبة؛ الاسترسال في الكلام أثناء شرح الدرس؛ فقد تحدث ابن النديم(ت384ه) عن ربيعة الرأي (ت136ه) -وهو يصف حاله إذا خطب وتكلم- فقال:"كان بليغا خطيبا، إذا أخذ في الكلام وصله؛ حتى يمل ويضجر. قيل: إنه تكلم يوما وعنده أعرابي، فقال له ربيعة: ما العي؟ قال له الأعرابي: ما أنت فيه منذ اليوم"[14].

ولا بد من الحرص على أنتكون لغة التدريس سلسة، خالية من الغرابة والتعقيد، مهذبة سليمة من التحقير والاستخفاف؛ إذ يعتبر التعقيد اللغوي، وتحقير المخالف والاستهزاء به من عوائق التعلم؛ لذلك اشترط الباجي على نفسه أن يبين لطلبته علم الأصول وفق هذه الشروط، وأن يكون وظيفيا في ذلك البيان، فقال: "سألتني أن أجمع لك كتابا في أصول الفقه...مع الإعفاء من التطويل المضجر، والاختصار المجحف، فأجبت سؤالك امتثالا لأمره -تعالى- بالتبيين للناس"[15].وهذه عين الوظيفية.

ب- الطريقة الحوارية؛ المقصود بها -في هذا السياق- تلك الطريقة التي تعتمد على المطارحة، من خلال عرض المسائل الأصولية، ومناقشها، ورد الاعتراضات الواردة عليها، فيحصل فيها الأخذ والرد في الكلام بين الأستاذ وطلبته.

وهي طريقة مفيدة في التدريس؛ خصوصا إذا علمنا أن أبا الوليد(ت474ه)يلبس هذه الطريقة منهج الحجاج، باعتباره آلية للإقناع، والتأثير في المتلقي، وتحفيزه ومساعدته على التركيز ومواصلة التعلم؛ إذ إن حضور هذا المنهج في التدريس يغري بالمتابعة؛ لما فيه من استفزاز للعقل ومسلماته، عكس المنهج السردي الذي تمتاز به الطريقة الإلقائية؛ إذ يعتمد فيها على الشحن المعرفي بدل المناقشة، وتدريب الطلبة على اكتساب الملكة الأصولية؛ لذلك تفقه عليه الأصحاب، وأخذ عنه علم كثير بالأندلس، حتى حاز الرئاسة العلمية بها.

والتفقه -كما نبهنا على ذلك- فيه دلالة على اكتساب الملكة في الفقه، ولا

(12) المصطلح الأصولي عند الإمام الشاطبي، الدكتور فريد الأنصاري، ص: 27. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط الثانية، 1435هـ- 2014م.

(13) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ج1، ص: 44. تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان، ط الأولى، سنة 1996م.

(14) الفهرست، ابن النديم، ج3، ص: 18-17، تعليق: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1430هـ- 2009م. (دون ذكر ط).

(15) إحكام الفصول، الباجي، ص: 280.

تكتسب الملكة بالتلقين؛ إذ لا بد من طرق أخرى تربي الطالب على اكتساب الملكات، ولا شك أن أبا الوليد كان يعتمدها؛ ومن أبرزها: الطريقة الحوارية.

والذي يوضح ذلك ما نطق به منهج أبي الوليد في التأليف؛ ذلك أنه يعرض المسألة الأصولية، ثم يذكر أقوال العلماء فيها، سواء داخل المذهب أو خارجه، ثم يعرب عن رأيه ويحشر له أدلة نقلية وعقلية، ويورد أدلة المخالفين ويناقشها. وكتابه من أوله إلى آخره، قائم على الصيغ الحجاجية التالية:

والدليل على ما نقوله... ، والدليل على صحة ما ذهب إليه أصحابنا...

فإن قالوا فالجواب..، فإن قال قائل...، استدلوا أيضا...، أما هم فاحتج من نصر مذهبهم.

أنا لا نسلم ما ذكروه، جواب أول، جواب ثان، جواب ثالث...[16].

وقد استعمل الباجي(ت474ه) هذه الطريقة من أجل تدريب المالكية على طريقة الإقناع والإفحام؛ سواء في محاججة المذاهب الأخرى المخالفة؛ أو حتى مع فقهاء المذهب المالكي؛ إذ كثيرا ما يذهب إلى رأي خاص به ومخالف للمذهب،متمسكا بالدليل القوي، ومبتعدا عن التعصب المذهبي.

ولا شك أن هذه الطريقة التي نرجح أن أبا الوليد درَّس بها، قد تلقى تكوينه العلمي بها، واكتسبها من أساتذته البغداديين؛ والإنسان غالبا ما يتأثر بالطريقة التي درَس بها !

ومن المفيد أن نذكر نصا عن الباجي نفسه، يصف فيه الجو الذي كان يسود مجالس التدريس والنظر؛ خصوصا ما حضره منها عند المحققين من أساتذته؛ "قال أبو الوليد الباجي المالكي رحمه الله وقد شاهد هذه المناظرة وحضرها: العادة ببغداد أن من أصيب بوفاة أحد ممن يكرم عليه قعد أياما في مسجد ربضه يجالسه فيها جيرانه وإخوانه؛ فإذا مضت أيام عزوه، وعزموا عليه في التسلي، والعودة إلى عادته من تصرفه؛ فتلك الأيام التي يقعد فيها في مسجده للعزاء مع إخوانه وجيرانه لا تقطع في الأغلب إلا بقراءة القرآن، أو بمناظرة الفقهاء في المسائل"[17].

ويستطرد الباجي(ت474ه) وهو يروي ظروف مناظرة خاصة حضرها فيقول: "فتوفيت زوجة القاضي أبي الطيب الطبري؛ وهو شيخ الفقهاء في ذلك الوقت ببغداد وكبيرهم؛ فاحتفل الناس بمجالسته، ولم يكد يبقى أحد منتم إلى علم إلا حضر ذلك المجلس؛ وكان ممن حضر ذلك المجلس القاضي أبو عبد الله الصيمري، وكان زعيم الحنفية وشيخهم؛ وهو الذي كان يوازي أبا الطيب في العلم والشيخوخة والتقدم.فرغب جماعة من الطلبة إلى القاضيين أن يتكلما في مسألة من الفقه يسمعها الجماعة منهما وتنقلها عنهما. وقلنا لهما: إن أكثر

(16) إحكام الفصول في أحكام الأصول ، الباجي، ص: 312، 361، 399، 450، 501، 603. والحق أن هذا الأسلوب الحجاجي لا تكاد تخلو منه صفحة في الكتاب، وإنما أحلت على هذه الصفحات على سبيل المثال فقط.

(17) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج4، ص: 245. تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، السعودية، ط الثانية، سنة 1413هـ.

من في المجلس غريب قصد إلى التبرك بهما والأخذ عنهما؛ ولم يتفق لمن ورد منذ أعوام جمة أن يسمع تناظرهما؛ إذ كانا قد تركا ذلك منذ أعوام، وفوضا الأمر في ذلك إلى تلاميذهما؛ ونحن نرغب أن يتصدقا على الجمع بكلامهما في مسألة يتجمل بنقلها وحفظها وروايتها"[18].

ويضيف الباجي قائلا: "أما القاضي أبو الطيب؛ فأظهر الإسعاف بالإجابة. وأما القاضي أبو عبد الله؛ فامتنع من ذلك وقال: من كان له تلميذ مثل أبي عبد الله -يريد الدامغاني- لا يخرج إلى الكلام، وها هو حاضر؛ من أراد أن يكلمه فليفعل. فقال القاضي أبو الطيب عند ذلك: وهذا أبو إسحاق من تلامذتي ينوب عني. فلما تقرر الأمر على ذلك انتدب شاب من أهل كازرون يدعى أبا الوزير يسأل أبا إسحاق الشيرازي الإعسار بالنفقة هل يوجب الخيار للزوجة.؟فأجابه الشيخ:إنه يوجب الخيار وهو مذهب مالك خلافا لأبي حنيفة في قوله: إنه لا يوجبه لها. فطالبه السائل بالدليل على صحة ما ذهب إليه"[19].

ولا شك أن طريقة هؤلاء الأساتذة في التدريس تركت أثرا في نفس أبي الوليد الباجي، فرواها لمن بعده بتفصيل؛ فكيف لا يحرص على ممارستها وتعليمها لطلبته؟ حتى يطمئن على أن تلامذته قادرون على مواجهة المخالفين، كما اطمأن القاضي أبو الطيب الطبري(ت450ه) على تلميذه أبي إسحاق الشيرازي(ت476ه)، واطمأن أبو عبد الله الصيمري(ت436ه) على تلميذه أبي عبد الله الدامغاني(ت478ه).

وكيف يطمئن الأستاذ على طالبه إن كان يدرسه بطريقة لا تعلمه كيف يسأل؟ وكيف يجيب؟ وكيف يعترض، أو يرد الاعتراض؟ وكيف يستدل، ويوجه أدلة المخالف؟ وغير ذلك من الأمور التي يكتسبها الطالب بالطرق الفعّالة في التدريس؛ مثل (الطريقة الحوارية).

لقد استفدنا من سيرة أبي الوليد الباجي(ت474ه)، ومن كتابه (إحكام الفصول) معالم تجديدية مهمة؛ فقد نص على منهج الاشتغال، وعناصره، وحدوده، والتزم بذلك في سائر مباحث الكتاب.

وإذا تبين أن الباجي طبق هذه الخطوات في التأليف؛ - وهو الذي بينا أنه تأثر بخبرته في التدريس؛ فإن تفعيله في مجال تدريس (علم الأصول) من باب أولى وأحرى، ومن غير المعقول أن يكون (علم أصول الفقه) علما منهجيا يضبط الفهم، ويسدد الفكر، ولا يستفاد منه في ضبط الاشتغال التدريسي!

إن (المنهج الأصولي) ينبغي أن يستفاد منه في كل العلوم الإسلامية؛ و"ربما يظن كثير من أن أصول الفقه تقتصر فائدته على الفقه في المسائل العملية، والحق خلاف ذلك؛ فإن فائدة هذا العلم لا يستغني عنها المفسر، والمحدث، والمتكلم، والباحث في العقائد، وكل من يحتاج إلى فهم نصوص الوحي والاستدلال بها؛ فإن

(18) نفسه، ج4، ص: 246.

(19) نفسه، ج4، ص: 246.

هـذا العلـم عبـارة عـن قواعـد للفهـم الصحيـح والاسـتدلال الصحيـح، والجمـع بـين مـا ظاهـره التعـارض"[20]، وأضيـف إلى مـا ذكـره صاحـب النـص أن فائـدة هـذا العلـم المنهجيـة لا يسـتغني عنهـا أيضـا المـدرس في عمليـة التدريـس؛ تخطيطـا، وتنفيـذا، وتقويمـا.

المبحث الثاني: معالم التجديد عند الإمام ابن رشد الحفيد (ت595هـ)

إن تتبـع سـيرة ابـن رشـد(ت595هـ)، والنظـر في منهجـه في التأليـف؛ بنـاء، وعرضـا، وأسـلوبا؛ أفـضى بنـا إلى اسـتنباط جملـة مـن الإفـادات التربويـة، تبـين تجديـده في التأليـف والتدريـس، ونرجـح أن يكـون أبـو الوليـد مارسـها، وإن لـم يـصرح بهـا؛ ذلـك أن التدريـس باعـث عـلى التأليـف، سـواء في علـم الأصـول أو غـيره؛ يقـول أبـو حامـد الغزالي(ت505هـ): "سـاقني قـدر اللـه تعـالى إلى معـاودة التدريـس والإفـادة، فاقـترح عـلي طائفـة مـن محصـلي علـم الفقـه تصنيفـا في أصـول الفقـه؛ أصرف العنايـة فيـه إلى التلفيـق بـين الترتيـب والتحقيـق، وإلى التوسـط بـين الإخـلال والإمـلال؛ عـلى وجـه يقـع في الفهـم دون كتـاب "تهذيـب الأصـول" لميلـه إلى الاسـتقصاء والاسـتكثار، وفـوق كتـاب "المنخـول" لميلـه إلى الإيجـاز والاختصـار، فأجبتهـم إلى ذلـك مسـتعينا باللـه، وجمعـت فيـه بـين الترتيـب والتحقيـق؛ لفهـم المعانـي فـلا مندوحـة لأحدهمـا عـن الثانـي، فصنفتـه وأتيـت فيـه بترتيـب لطيـف عجيب؛يطلـع الناظـر في أول وهلـة عـلى جميـع مقاصـد هـذا العلم،ويفيـده الاحتـواء عـلى جميـع مسـارح النظـر فيـه، فـكل علـم لا يسـتولي الطالـب في ابتـداء نظـره عـلى مجامعـه ولا مبانيـه؛ فـلا مطمـع لـه في الظفـر بـأسراره ومباغيـه؛ وقـد سـميته كتـاب " المسـتصفى مـن علـم الأصـول"[21].

إن الطالـب الـذي لا يطلـع عـلى مقاصـد العلـم، ومسـارح النظـر فيـه، ولا يـدرك تصـوره الـكلي في أول وهلـة، لا مطمـع لـه في التحقـق بعلـم الأصـول، وإدراك أسراره وسـبر أغـواره. وأنـى يكـون لـه ذلـك بـدون معرفـة الأهـداف، وإدراك البنيـة الكليـة للعلـم، وتحقيـق الربـط بـين الفقـه والأصـول في التدريـس؟ !

وإذا كان الـضروري مـن المصالـح؛ هـو مـا تتوقـف عليـه الحيـاة، ولا تسـتقيم بـدون وجـوده؛ فـإن "الـضروري في أصـول الفقه"-عنـوان الكتـاب- يوحـي بـأن المؤلـف ركـز عـلى مـا لابـد منـه في الصناعـة الأصوليـة، ممـا تتحقـق بـه الكفايـة لطالـب علـم الأصـول؛ وهـذا مـن تمـام الوظيفيـة.

ولعـل تعبـير ابـن رشـد(ت595هـ)بكلمة "الـضروري"؛ فيـه إيمـاء إلى تنقيـة العلـم، وتهذيبـه مـن أمـور ظهـر لـه أنهـا لا تخـدم العلـم، وأنهـا ليسـت ضروريـة؛ لأنهـا لا تمـت إلى العلـم بصلـة، ولا تخـدم غاياتـه مـن قريـب أو بعيـد.

إن كتـاب الإمـام ابـن رشـد(ت595هـ) "كان لـه تميـز مـن خـلال عـدة جوانـب منها:كيفيـة عرضـه للموضـوع الأصـولي؛ حيـث ذهـب إلى إيصـال الطالـب بالقاعـدة

(20) أصـول الفقـه الـذي لا يسـع الفقيـه جهلـه، عيـاض بـن نامـي السـلمي، ص: 20. دار التدمريـة، الرياض-السـعودية، ط الأولى، 1426 هـ- 2005م.

(21) المستصفى، الغزالي، ج1 ص: 33. تحقيق محمد سليمان الأشقر، الرسالة العالمية، دمشق، ط الثانية، سنة 2013م.

الأصولية مباشرة ودون إطالة، وذكر الدليل المتعلق بالموضوع بإيجاز؛ حيث يسهل على طالب العلم الإحاطة بالموضوع إجمالا، فلا يضيع في جوانب نظرية، بعيدا عن صلب الموضوع الذي يبحثه ويتناوله"[22].

ومن أهم تجليات الوظيفية عند ابن رشد؛ جرأته على حذف المقدمات المنطقية التي صدر بها الغزالي هذا العلم؛ معللا ذلك بأنها ينبغي أن تدرس في محلها؛ فقد يكون هذا المزج بين مبادئ العلوم عائقا من عوائق التحصيل والتعلم؛ فـ"أبو حامد قدم قبل ذلك مقدمة منطقية، زعم أنه أداه إلى القول في ذلك نظر المتكلمين في هذه الصناعة في أمور منطقية. ونحن فلنترك كل شيء إلى موضعه؛ فإن من رام أن يتعلم أكثر من واحد في وقت واحد، لم يمكنه أن يتعلم ولا واحدا منها"[23].

والاختصار عند ابن رشد؛ هو اختصار انطلق فيه متحريا الإيجاز الذي هو مظنة للتحصيل وإقبال النفس على التعلم في بدايات الطلب، غير غافل عن البعد المنهجي للعلم "وما نظن به أنه أكثر ذلك صناعي"[24].

إن تلخيص ابن رشد للمستصفى -على صغر حجمه-؛ يتحفنا بفوائد تربوية هامة؛ تبين وظيفيته في تدريس (علم أصول الفقه)؛ أهمها:

تحديد الأهداف؛ ذلك أن من يرغب في تحصيل علم الأصول لا بد أن يعلم مقصوده منه؛ لأن معرفة القصد حافز على التعلم؛ فمن عرف ما قصد، هان عليه ما وجد.

ولقد أشرنا إلى أن الإمام ابن رشد(ت595ه) صرح بأغراض تأليفه لكتاب (الضروري في أصوله الفقه)؛ مما يدل على أن التأليف الأصولي في الغرب الإسلامي لم يكن اجترارا وتكرارا لما سبق فحسب، كما لم يكن ترفا فكريا أو عملا اعتباطيا لا وظيفية له، ولا فائدة منه.

فالإمام ابن رشد كان مختصرا؛ جعل غرض التأليف في كتابه أول ما يجب بيانه والتصريح به؛ فميز بين الهدف الخاص والعام؛ وقدم الخاص على العام. فالأول أعلن فيه أن المختصر تذكرة له، يرجع إليها للانتفاع بها. والثاني: بين فيه أنه قدم في مختصره الضروري من المعرفة الأصولية القابلة للتعلم؛ أي المعرفة الصناعية؛ وبين الغاية من علم الأصول.

إن تعبير الإمام ابن رشد بعبارة (الضروري) فيه إشارة إلى أن هناك تعلمات لا بد من تحصيلها؛ وهنا ميز ابن رشد بين مراتب المعرفة؛ فدعا ضمنيا إلى التركيز على الضروري والمهم؛ لأن زمن التعليم محدود ومتناه، ومسائل علم الأصول قد لا يتسع هذا الزمن لتدريسها.

(22) العطاء الفكري لأبي الوليد بن رشد، ص : 117، أعمال ندوة علمية بجامعة آل البيت- الأردن، سنة 1998م. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب الأردن، ط الأولى، 1420هـ- 1999م.

(23) الضروري، ابن رشد، ص: 37- 38. تحقيق جمال الدين العلوي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط الثانية، سنة 2012م

(24) نفسه، ص: 34.

ولا شك أن هذه المسألة تفرض الإجابة عن سؤال مفاده: كيف يمكن تحديد الضروري والمهم من علم الأصول؟

إن جواب هذا السؤال يحتاج إلى تفصيل في بحث خاص. أما إجمالا؛ فتحديد الضروري من المعرفة الأصولية يكون بناء على مقاصد التأليف والتدريس، وطبيعة الفئة المستهدفة. فما كان خادما لها، منسجما مع طبيعة العلم، ولا يستقيم العلم إلا بها؛ فهو ضروري ومن صلب العلم؛ يجب أن يكون محتوى للتدريس. وما كان دون ذلك، فيجب التخلص منه. وسبيل تحقيق ذلك؛ هو: وضع أهداف واضحة (للدرس الأصولي).

إن تنصيص ابن رشد(ت595هـ) -ومن قبله الباجي(ت474هـ)- على أغراض التأليف؛ يدل على أن تدريس هذا العلم لا يستقيم إلا بتحديد أهداف واضحة ودقيقة ومصرح بها؛ فإذا كان التأليف مصدرا بالأهداف؛ فمن باب أولى أن يتحقق ذلك في التدريس.

تحديد المحتوى وعرضه في بنية كلية؛ فقد بين ابن رشد رحمه الله مباحث مؤلفه (الضروري)؛ أو ما عبر عنه بالأجزاء الأربعة في مقدمة كتابه؛ واستطاع بذلك أن يقدم تصورا إجماليا عن محتوى علم أصول الفقه، ملتزما في عرض ما حدده في هذا التصور؛ مما يدل على التخطيط الهادف، والالتزام المنهجي الذي تميز به أصوليو مالكية الغرب الإسلامي؛ مثل ما بينت عند الباجي رحمه الله.

وقد أشار ابن رشد في مقدمة كتابه إلى هذا الانسجام بقوله: "أجزاء هذه الصناعة بحسب ما قسمت إليه في هذا الكتاب؛ أربعة أجزاء"[25]. والناظر في مؤلفه (الضروري في أصول الفقه) يجد أنه قدم هذه الصناعة وفق قواعد منهجية دقيقة، أو بتعبير المؤلف أشبه ما تكون بوظيفة البركار والمسطرة؛ حيث استحضر فيها فقه الأولويات، وميز بين ما هو من صلب العلم وما ليس منه؛ فأثبت الضروري وحذف ما سواه.

ولا يعزب عن المهتمين بعلم أصول الفقه؛ أن القواعد الكلية مقدمة على ما سواها من الفروع والمسائل الجزئية، وكلما كان البدء بالكليات؛ سهل إدراك الجزئيات بردها إلى أصولها؛ فالعموم قبل الخصوص، والإطلاق قبل التقييد، والإجمال قبل البيان، والوضوح قبل الخفاء،... وهكذا في سائر القواعد والثنائيات الأصولية.

والتجديد في هذا كله: أن التدريس المفيد؛ يلزم أن ينطلق من هذا المبدأ العام، وألا تغيب عن مدرس هذا العلم حكمة الإمام الزركشي(ت794هـ) رحمه الله التي قال فيها: "الحكيم إذا أراد التعليم لا بد له من بيانين: إجمالي تتشوف إليه النفس، وتفصيلي تسكن إليه"[26]؛ وهذا يبين أهمية الانطلاق من النظر الكلي

(25) الضروري، ابن رشد، ص: 36.

(26) المنثور في القواعد للزركشي. ج 1 ، ص: 11. تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط الأولى، 1421هـ- 2000م.

في مقام التدريس؛ ذلك أن تقديم تصور إجمالي عن مباحث العلم قبل الانتقال إلى مسائله الجزئية؛ سيجعل الطالب متشوفا لتعلم المزيد؛ لأنه يكون قد تصور في ذهنه البنية الكلية للعلم.

3 - الوظيفية ؛ وتتجلى هذه الفائدة التربوية عند الإمام ابن رشد(ت595ه) في الالتزام المنهجي، والتخلص من المقدمة المنطقية التي صُدر بها كتاب (المستصفى)"؛ فأبو حامد قدم مقدمة منطقية زعم أنه أداه إلى القول في ذلك نظر المتكلمين في هذه الصناعة في أمور ما منطقية (...)، ونحن فلنترك كل شيء إلى موضعه"[27]؛ فوضع الشيء في موضعه هو عين الحكمة والوظيفية.

ومن مظاهر الوظيفية عند الإمام ابن رشد(ت595ه)؛ التزامه بتقديم ما يحقق الأهداف من المعارف الأصولية، وتحريه الضروري من هذه الصناعة، واجتنابه التكرار الممل في عرضها، وإعراضه عن الاختصار المخل في أسلوبها؛ لأن ذلك يفضي إلى الإبهام لا إلى الإفهام.

وتحقيقا لهذه الغاية؛ جاءت لغة الكتاب خالية من الغرابة والتعقيد، واضحة الدلالة، سليمة من التعريض بالمخالف أو التشهير به، مع النزوع -عند الضرورة-، إلى توظيف منهج الحجاج بأساليبه المختلفة، لكنه لم يكن مقصودا بالأصالة؛ إذ لم يكن غرض المؤلف الدفاع عن المذهب المالكي، بقدر ما اهتم بتقريب المادة الأصولية إلى طلبة هذا الفن.

إن الوظيفية الواردة في تأليف ابن رشد بكل تجلياتها السابقة؛ لهي أليق وأمس بالتدريس؛ فغياب مراعاة الجانب النفسي للطالب في التدريس قد يؤدي إلى نفوره من الإقبال على تعلم هذا العلم. أما الجنوح إلى الإغراب والنأي عن البيان؛ فلا يرفع من شأن هذا العلم ومدرسه كما قد يظن البعض؛ وإنما القدرة على البيان والإفهام هي التي تجعل المدرس قادرا على أداء مهمة التدريس بنجاح.

وحاصل الكلام أنه آن الأوان أن يعود علم أصول الفقه إلى منابعه الأولى، ويحقق غاياته التي من أهمها إنتاج قوانين تسدد الفكر والنظر، وتعصمه من الزلل، كما نبه على ذلك أبو الوليد ابن رشد رحمه الله[28].

التدرج: إذا كان التدرج شرطا من شروط التعلم؛ فإن أبا الوليد ابن رشد كان وظيفيا في مراعاة هذا المبدأ؛ حيث لم يفته التنبيه على هذا الأمر في مؤلفه (الضروري في أصول الفقه)؛ ففي مقدمة هذا الكتاب أكد على ضرورة مراعاته، فقال: "فلنترك كل شيء إلى موضعه؛ فإن من رام أن يتعلم أشياء أكثر من واحد، في وقت واحد، لم يمكنه أن يتعلم ولا واحدا منها"[29].

ومن ثم؛ فإن مدرس علم أصول الفقه يجب أن يراعي هذا المبدأ، فيقدم ما حقه التقديم، ويؤخر ما واجبه التأخير، ويراعي القدرات العقلية للطلبة،

(27) الضروري، ابن رشد، ص: 37.

(28) نفسه، ص: 34- 36.

(29) نفسه، ص: 37- 38.

وخصائصهم النفسية، وزمن التعليم، وزمن التعلم، وغير ذلك من العوامل المؤثرة في الاشتغال التربوي في وقتنا المعاصر.

لقد تأكد مما سبق أن أبا الوليد ابن رشد(ت595ه) لم يكن مختصرا فحسب، ولكنه أسهم في المدرسة الأصولية المالكية، وقدم تأليفا يشهد على حضور الوظيفية عند أصوليي الغرب الإسلامي؛ الذين ألفوا كتبا نافعة؛ استجابة لحاجات تعليمية، ومقاصد تربوية، دل عليها ما بيناه من المستفادات التربوية.

المبحث الثالث: معالم التجديد عند الإمام الشاطبي(ت790ه)

لقد قرر الشاطبي(ت790ه) مبدأ تعليميا أصبح حديث المتكلمين في التربية المعاصرة، وهو (وظيفية التعلمات) في (علم أصول الفقه)؛ الذي ارتوى بمباحث لغوية، وكلامية، ومنطقية؛ أبعدته عن وظيفته، كما لا يخفى على المتخصصين في هذا العلم؛ لذلك، فـــــــ "كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية، أو آداب شرعية، أو لا تكون عونا في ذلك؛ فوضعها في أصول الفقه عارية"[30]؛ ومعنى ذلك في الدرس الأصولي؛ استبعاد التعلمات الأصولية التي لا تخدم وظيفة علم الأصول؛ وهي إنتاج الفقه؛ لأن "أصول الفقه لم يختص بإضافته إلى الفقه إلا لكونه مفيدا له، ومحققا للاجتهاد فيه، فإذا لم يفد ذلك؛ فليس بأصل له"[31].

إن وظيفية التعلمات تستلزم أن يكون (الدرس الأصولي) يستجيب لحاجات الفرد، ومتطلبات المجتمع؛ وهو ما يقتضي أن يكون التعليم الجامعي "موفور الجودة والجدوى والجاذبية، وملائما للحياة العملية، ومتطلبات الاندماج السوسيو-اقتصادي؛ مستشرفا لمهن المستقبل، ومواكبا للتحولات المتسارعة على الصعيد الدولي"[32].

إن المعيار إذن، في اختيار المحتوى الأصولي للتعلم؛ هو ارتباطه بالفقه، وتحقيقه لحاجات الطالب، وإلا فهو استطراد وخروج عن الدرس !

معالم التجديد في منهج الإمام الشاطبي

يتضمن منهج الشاطبي(ت790ه) في التأليف، ومساره في التّعلم والتعليم؛ جملة من المستفادات ذات البعد التدريسي الوظيفي، يمكن الحديث عنها في نقطتين أساسيتين؛ هما:

أولا: حضور أركان العملية التعليمية التعلمية

لقد انصب اهتمام الشاطبي في مقدمات كتابه (الموافقات)-بشكل صريح- على المعلم، والمادة المعرفية، إلى جانب المتعلم؛ وهي أركان العملية التعليمية التعلمية، وتفصيل القول في ذلك على الشكل الآتي:

1 - المعلم (المدرس)

(30) الموافقات، ج2، ص: 59. تحقيق وتعليق الحسين أيت سعيد، منشورات البشير بنعطية، فاس، المغرب، ط الأولى، سنة 2017م.

(31)نفسه، ج2، ص: 59.

(32) الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2030-2015، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي-الرباط، ص: 53.

لقد بين الشاطبي أنه لا بد للطالب من معلم يرشده، ويدله على ما يفيده الاشتغال به؛ وحدد مواصفات هذا المعلم في أربعة أمور؛ فقال: "كثيراً ما كنت أسمع الأستاذ أبا علي الزواوي يقول: قال بعض العقلاء: لا يسمى العالم بعلم مّا، عالما بذلك العلم على الإطلاق، حتى تتوفر فيه أربعة شروط:

أحدها: أن يكون قد أحاط علماً بأصول ذلك العلم على الكمال؛

والثاني: أن تكون له قدرة على العبارة عن ذلك العلم؛

والثالث: أن يكون عارفاً بما يلزم عنه؛

والرابع: أن تكون له قدرة على دفع الإشكالات الواردة على ذلك العلم"[33].

ويتضح من هذا النص أن المدرس له شروط ومواصفات، يمكن التعبير عنها بلغة تربوية بـ"كفايات المدرس"؛ وهي من خلال النص أربعة:

- الكفاية المعرفية؛ وتتجلى في إحاطته بأصول ذلك العلم، والاستيعاب لمباحثه، بحيث يكون متمكنا منها، وقادرا على استحضارها عند الحاجة إليها؛ أو ما يمكن تسميته: بإحكام التخصص.

- الكفاية المنهجية؛ وتتجلى في القدرة على التصرف في ذلك العلم؛ من حيث آثاره المترتبة عليه، والوظائف التي يحققها منهجا وعملا، وتلك القدرة على التصرف هي مقام التحقق الذي يتصف به العالم الراسخ في العلم، البالغ فيه مبلغ الكمال والتمام.

- الكفاية التواصلية؛ وقد حصرها الشاطبي(ت790ه) في القدرة على التعبير عن مقصوده في ذلك العلم؛ بحيث يستطيع تحقيق الإفهام، وتبليغ مقصوده على وجه التمام.

- الكفاية الحجاجية؛ وهي القدرة على الدفاع عن العلم، ورد الشبه الواردة عليه بالبراهين النقلية والعقلية.

فإن قصَر عن التمكن من هذه الكفايات، حصل له النقص عن رتبة الكمال بمقدار ما نقص، ولم يصل إلى درجة المتحقق بالعلم، الذي يكون أهلا لأن يؤخذ عنه.

فتحصّل من ذلك؛ أنه لا بد للعلم من مُعلِّم، ولا بد أن يكون المُعلّم متحققا بالعلم؛ وعلامات تحققه به ثلاث[34]:

- الأولى: العمل بما علم، حتى يكون قوله مطابقا لفعله؛ لأنه قدوة لطالب العلم، فأحرى به أن يكون أول من يعمل بما يعلم.

- والثانية: أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم، ولازمهم؛ لأنه جدير أن يتصف بما اتصفوا به.

- والثالثة: الاقتداء بمن أخذ عنه من الشيوخ، والتأدب بأدبهم؛ لأن من العلم

(33) الإفادات والإنشادات، الشاطبي، ص: 107. تحقيق: محمد أبو الأجفان، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط الأولى، 1403هـ- 1983م.

(34) الموافقات، ج2، ص: 182.

ما يقال، ومنه ما يرى في التصرفات والأحوال[35].

المادة المعرفية (المحتوى)

إن أكبر عائق معرفي يواجه المدرس في علاقته بالمعرفة؛ هو كيفية انتقائها انتقاء صحيحا يحقق غايات العلم، ويلبي حاجيات الفئة المستهدفة، ومن ثَم وضع الشاطبي رحمه الله ضوابط ومعايير لتجديد (الدرس الأصولي)بشكل خاص، مع امتدادها لتأطير التجديد في العلم بصفة عامة، وأهم هذه المعايير (الوظيفية)؛ لأن "كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية، أو آداب شرعية، أو لا تكون عونا في ذلك؛ فوضعها في أصول الفقه عارية"[36].

وبالنظر إلى منهج الشاطبي في تأليف (الموافقات)، يمكن تحديد ثلاثة معايير،تبين مدى إسهام أبي إسحاق في تجديد المحتوى العلمي لعلم الأصول؛ وتلك المعايير هي:

إبعاد الدخيل؛ ويتجلى ذلك في الفطام عن المألوف الأصولي؛ فقد اعتاد الأصوليون تصدير مؤلفاتهم الأصولية بمقدمات ضمنوها قضايا منطقية، وأخرى لغوية، وبعضها كلامية؛ حتى صارت كأنها جزء من علم الأصول؛ لذلك عاب عليهم أبو إسحاق طريقتهم في بحثها، ومبالغتهم في الاعتناء بها، وضعا وشرحا واستدلالا؛ فنادى في المقدمة الرابعة بضرورة المحافظة على مباحث علم أصول الفقه؛ وذلك بالاحتراز من خلطه ببعض العلوم التي يجب أن تؤخذ مسلمة من مظانها؛ "وعلى هذا يخرج عن أصول الفقه كثير من المسائل التي تكلم عليها المتأخرون وأدخلوها فيها"[37]؛ وبذلك كان نداء الشاطبي(ت790ه) واضحا، ودعوته إلى استقلال مباحث علم الأصول صريحة، لو وجدت من يستجيب لها، ويلبي النداء!

فالشاطبي إذن؛ يرى أن كثيرا من المسائل التي أدخلت في علم الأصول ليست من هذا العلم في شيء، وأن الذي جعل علماء الأصول يدرجونها في مباحثه؛ هو تأثرهم التلقائي بمناهج التأليف السائدة في عصرهم؛ وقد حاول أبو إسحاق الدفاع عن رأيه من خلال أمرين متجانسين:

- أحدهما: يتجلى في عدوله عمليا عن تصدير كتابه بما له تعلق بمعهود الأصوليين، مستعيضا عنها بثلاث عشرة مقدمة، ضمنها أهم الأسس النظرية التي اتخذها قاعدة لبناء كتابه عليها.

- والثاني: إعرابه في كثير من المواطن عن تبرمه من الاستعانة بالضوابط

(35) نفسه، ج2، ص: 182.

(36) نفسه، ج2، ص: 59.

(37) نفسه، ج2، ص: 60؛ ومن أمثلة ذلك ما ذكره الشاطبي في المقدمة الرابعة: "مسألة ابتداء الوضع، ومسألة الإباحة هل هي تكليف أم لا، ومسألة أمر المعدوم، ومسألة هل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- متعبدا بشرع أم لا، ومسألة لا تكليف إلا بفعل، كما أنه لا ينبغي أن يعد منها ما ليس منها، ثم البحث فيه في علمه وإن انبنى عليه الفقه؛ كفصول كثيرة من النحو، نحو معاني الحروف، وتقاسيم الاسم والفعل والحرف، والكلام على الحقيقة والمجاز، وعلى المشترك والمترادف، والمشتق، وشبه ذلك". نفس المصدر، ص: 60- 61- 62.

المنطقيــة، والطرائــق المســتعملة فيهــا؛ لتحصيــل المــراد مــن المســائل الشرعيــة؛ "لأن التــزام الاصطلاحــات المنطقيــة، والطرائــق المســتعملة فيهــا مبعــد عــن الوصــول إلى المطلــوب في الأكثــر؛ لأن الشريعــة لــم توضــع إلا عــلى شرط الأمية.ومراعــاة علــم المنطــق في القضايــا الشرعيــة منــاف لذلــك"[38].

ويظهــر أن الإمــام الشــاطبي(ت790ه) دعــا -ضمنيــا- إلى مراعــاة خصائــص العلــم، والالتــزام بحــدوده، وعــدم خلطــه بالمنطــق؛ خاصــة في جانــب المصطلــح؛ لأن المصطلــح مــن صلــب العلــم؛ بــل إن شــئنا القــول: العلــم هــو المصطلــح.

ولمــا كانــت المصطلحــات المنطقيــة لا تجــري عــلى وزان المصطلحــات الشرعيــة؛ إذ تُبعــد الطالــب عــن الوصــول إلى المطلــوب في الغالــب؛ بســبب مــا تمتــاز بــه مــن التجريــد والتعقيــد المنطقيــين. لَــمَّا كان الأمــر كذلــك؛ فــإن الشــاطبي نَبَّــه إلى أن الشريعــة تراعــي حــال المكلفــين، ولا تخاطبهــم بمــا لا يفهمــون، أو مــا لا يطيقــون؛ إذ مــن مقاصــد الشــارع "وضــع الشريعــة للإفهــام"[39]؛ وهــذا يــدل عــلى ضرورة مراعــاة خصائــص الفئــة المســتهدفة في التدريــس، والأخــذ في الاعتبــار تفــاوت القــدرات العقليــة بينهــا، والعوامــل المؤثــرة في التعلــم؛ ســواء كانــت نفســية، أو اجتماعيــة، أو اقتصاديــة أو غيرها؛ وهــو مــا يقتــضي أن يكــون المــُـدرس عــلى وعــي بهــذه المؤثــرات؛ حتــى يتمكــن مــن مراعاتهــا عــلى قــدر المســتطاع.

وكمــا بــدأ أبــو إســحاق في مقدمــات كتاب(الموافقــات) بالدعــوة إلى إبعــاد الدخيــل في علــم الأصــول؛ هــا هــو أبــو إســحاق مــرة أخــرى يجــدد التذكــير في آخــر مســألة مــن مســائل الكتــاب؛ وذلــك بعــد حديثــه عــن أحــكام الســؤال والجــواب، وبيانــه لكيفيــة بنــاء الدليــل في التناظــر؛ وحتــى لا يُفهــم مــن كلامــه أن المقصــود هــو طريقــة بنــاء الدليــل عنــد المناطقــة، شــفع كلامــه بفصــل يزيــل بــه اللَّبــس، ويكشــف فيــه عــن المقصــود، فقــال: "اعلــم أن المــراد بالمقدمتــين هــا هنــا، ليــس مــا رســمه أهــل المنطــق عــلى وفــق الأشــكال المعروفــة، ولا عــلى اعتبــار التناقــض، والعكــس، وغــير ذلــك، وإن جــرى الأمــر عــلى وَفقهــا في الحقيقــة؛ فــلا يَسْــتَتِبُّ جريانــه عــلى ذلــك الاصطــلاح؛ لأن المــراد تقريــب الطريــق الموصــل إلى المطلــوب، عــلى أقــرب مــا يكــون، وعــلى وَفــق مــا جــاء في الشريعــة"[40].

مــرة أخــرى نجــد الشــاطبي- صاحــب النظــر الثاقــب- يختــم كمــا بــدأ بالتأكيــد على الحفــاظ عــلى طبيعــة علــم الأصــول، وتنقيتــه ممــا علــق بــه؛ خصوصــا علــم المنطــق؛ فهــو لا يريــد نســج هــذه المســألة(كيفية بنــاء الدليــل في التناظــر) وفــق الأشــكال المعروفــة عنــد المناطقــة، وإن صــادف بعــض اصطلاحاتهــم، أو جــرى بنــاء المســألة عــلى وفقهــم؛ فــإن ذلــك لا يعنــي ألبتــة أنــه يجــري عــلى منهجهــم في التناظــر.

إضافــة الأصيــل؛ مــن المباحــث التــي أغفلهــا الأصوليــون-وإن أشــاروا إلى شــذرات

(38)نفسه، ج5، ص: 522.

(39) الموافقات، الشاطبي، ج3، ص: 144.

(40) نفسه، ج5، ص: 521.

منهـا- (مبحـث المقاصـد)، الـذي يعـد الشـاطبي أول مـن أضافـه إلى محتـوى علـم الأصـول، وأبـدع فيـه أيمـا إبـداع؛ فقـد "سـلك فيـه مسـلك التقعيـد، والتأسـيس، والتنظـير الـكلي لتلـك الكليـات والقواعـد، دون الإكثـار مـن ذكـر الجزئيـات"[41]؛ وبهـذا أضـاف أبـو إسـحاق(ت790ه) لبنـة كانـت مفقـودة في صرح هـذا العلـم، فأحيـا بـه اللـه علـم الأصـول بعـد أن دنـا مـن المـوت.

التمييـز بـين مـا هـو مـن صلـب العلـم ومـا هـو مـن ملحـه، ومـا ليـس مـن هـذا ولا ذاك؛ فانحـصر المحتـوى الأصولي-بنـاء عـلى هـذا المعيـار – في ثلاثـة أقسـام[42]:

الأول: مـا هـو مـن صلـب العلـم؛ وهـو الأصـل والمعتمـد، ولا يمكـن الاسـتغناء عنـه؛ لأن "عليـه مـدار الطلـب وإليـه تنتهـي مقاصـد الراسـخين، وذلـك مـا كان قطعيـا، أو راجعـا إلى أصـل قطعـي"[43]؛ فهـذا القسـم هـو الأسـاس لمـا سـواه؛ إذ يؤسـس لمعرفـة تسـتند إلى قواعـد، وتخضـع لهـا، وتحاكـم إليهـا.

وعليـه؛ فـإن مـا هـو مـن صلـب العلـم؛ هـو الـذي يسـتحق التقديـم، ولا يصـح تأخـير المعـارف التـي حقهـا أن تكـون الأوائـل والأهـم؛ والمعيـار بطبيعـة الحـال؛ هـو مـدى تحقيقهـا لوظائـف العلـم ومقاصـده، ومراعاتهـا لطبيعتـه، التـي تقتـضي تقديـم الأهـم عـلى المهـم.

وتنحـصر الخصائـص التـي اسـتحق بهـا هـذا القسـم التقديـم عـلى غـيره؛ في ثلاثـة؛ هـي: العمـوم والاطـراد، والثبـات، والحاكمية.

وبهـذه الخصائـص صـار هـذا القسـم قائمـا بذاتـه، يُبنـى عليـه غـيرُه، ولا يُبنـى عـلى غـيره؛ لأن "الحاكميـة تعنـي الرجـوع إليـه عنـد الاختـلاف، والتحاكـم إليـه عنـد المنازعـة"[44].

الثانـي: مـا هـو مـن الملـح؛ والمـراد بهـا مسـتملحات العلـم؛ فهـو كمالي،كبعـض قصـص العلـم الـذي يخاطـب العاطفـة، وينمـي الفكـرة، ولكنـه لا ينضبـط بقواعـد العلـم الأسـاسي، ولا يرجـع فيـه إلى ضابـط يقيـده[45]. بـل يرجـع إلى أصـل ظنـي، أو قطعي، لكنه تخلفت فيه إحدى خواص القسم الأول.

الثالـث: مـا ليـس مـن صلـب العلـم ولا مـن ملحـه؛ وهـو مـا ليـس لـه أصـل قطعـي ولا ظنـي، وأشـبه أن يرجـع عـلى أصلـه بالإبطـال؛ لذلـك لا يعتـبر علمـا، ولا مكمـلا للعلـم؛ وذلـك "كالإغـراب باسـتجلابغير المعهـود، والجعجعـة بـإدراك مـا لـم يدركـه الراسـخون، والتبجـح بـأن وراء هـذه المشـهورات مطالـب لا يدركهـا إلا الخواص،

(41) الموافقات، مقدمة المحقق، ج1، ص: 180.

(42) نفسه، ج2، ص : 142.

(43) نفسه، ج2، ص: 142.

(44) نفسه، مقدمة المحقق، ج1، ص: 161.

(45)- نفسـه، ج1، ص: 160. وقـد أطـال الشـاطبي في التمثيـل لهـذا القسـم، فذكـر تسـعة أمثلـة؛ منهـا: "المسـائل التـي يختلـف فيهـا؛ فـلا ينبنـي عـلى الاختـلاف فيهـا فـرع عمـلي، كالمسـائل المنبـه عليهـا ... في أصـول الفقـه، ويقـع كثـير منهـا في سـائر العلـوم، وفي العربيـة منهـا كثـير؛ كمسـألة اشـتقاق الفعـل مـن المصـدر، ومسـألة اللهـم، ومسـألة أشـياء، ومسـألة الأصـل في لفـظ الاسـم"، الموافقـات، ج2، ص: 156- 157.

وأنهم من الخواص ...وأشباه ذلك مما لا يحصل منه مطلوب"[46].

المتعلم (الطالب)

أما الركن الثالث؛ فأشار إليه الشاطبي(ت790ه) غير ما مرة؛ لأنه لا حديث عن التعلم بدونه؛ وهو (طالب العلم)؛ لذلك رسم له طرق التعلم، وبين المراتب التي يسلكها؛ ليحقق (ملكة الاجتهاد).

ثانيا : طرائق التدريس وأساليب التقويم

من تجليات الوظيفية عند الإمام الشاطبي أنه فصل القول في المحتوى العلمي، وأمارات العالم المتحقق بالعلم (كفايات المدرس)، ثم شفع ذلك ببيان الطرق التي يتم بها التعليم، ويتحقق بها التحصيل؛ ذلك أن تحديد العلم المطلوب ليس بكاف وحده، بل لا بد من رسم الطرق النافعة في التحصيل، وتتلخص عند الشاطبي في طريقتين:

الأولى: طريقة المشافهة؛ وتكون هذه الطريقة بتلقي العلم من أفواه الشيوخ بالمباشرة؛ وهي أنفع الطريقتين وأسلمهما؛ والسبب في ذلك "خاصية جعلها الله تعالى بين المعلم والمتعلم، يشهدها كل من زاول العلم والعلماء؛ فكم من مسألة يقرؤها المتعلم في كتاب، ويحفظها ويرددها على قلبه فلا يفهمها؛ فإذا ألقاها إليه المعلم فهمها بغتة، وحصل له العلم بها بالحضرة؛ وهذا الفهم يحصل إما بأمر عادي من قرائن أحوال، وإيضاح موضع إشكال لم يخطر للمتعلم ببال، وقد يحصل بأمر غير معتاد، ولكن بأمر يهبه الله للمتعلم عند مثوله بين يدي المعلم، ظاهر الفقر بادي الحاجة إلى ما يلقى إليه"[47].

لقد ذكر الإمام الشاطبي(ت790ه) في هذا النص ثلاثة أمور مهمة، يحصل بها التعلم في حضرة الأستاذ؛ ويمكن بيانها في الآتي:

أولا: الفهم بأمر عادي من قرائن الأحوال؛ هذه المرتبة تحصل للطالب في سياق التعلم الذي عادة ما تُوظَّف فيه قرائن متعددة؛ سواء كانت حالية(سياقية)، أو مقالية (لفظية)؛ فمشاهدة الطالب وسماعه لهذه القرائن؛ يساعده على الفهم؛ إذ يوظف كل حواسه في التعلُّم؛ سمعا، وبصرا، وفؤادا؛ فيدرك بالبصر ما فاته بالسمع، ويفهم بالإشارة، ما لم يحققه بالعبارة.

ثانيا: الفهم بإيضاح من الأستاذ لأمر مشكل؛ قد لا تكفي القرائن السياقية في تحقيق الفهم لدى الطالب؛ خاصة إذا خفي عليه موضع الإشكال، وصعب عليه الوصول إليه. وفي هذه الحالة لا بد من مساعدة الأستاذ؛ لينبه الطالب على موضع الإشكال، ويعلمه منهج الوصول إلى الحل؛ حيث يقدم له مفاتيح التعلم؛ ويختصر عليه مسالك الطلب؛ حتى يدرك الأمور على وجهها، ويتصور القضايا بأبعادها الخفية، ويكتسب القدرة على حل القضايا المُشكِلة في وضعيات مشابهة.

ثالثا: فتح الله على المتعلم؛ قد يقع التعلم بأمور لا تُدرِكُها الأبصار، ولكن

(46) نفسه، ج2، ص: 165.

(47) نفسه، ج2، ص: 186.

تفهمـا البصائـر؛ فقـد يَرجـع المتعلـم بعلـم غزيـر في وقـت وجيـز؛ وذلـك بالفتـح الرباني الـذي يناله المخلصـون لـه في طلـب العلـم، المتواضعـون لجلالـه، الراغبـون في تحصيـل العلـم للفـوز برضـاه -عـز وجـل- في العاجـل والآجـل؛ فتراهـم يمتثلـون لتحقيـق ذلـك بـين يـدي شـيوخهم؛ مفتقريـن إلى مـا عندهـم، ومتواضعـين أمامهـم، لا يمنعهـم عـن التعلـم مانـع، ولا تلهيهـم عـن التحصيـل تجـارة ولا بيـع.

ومـن كان هـذا حالـه وقصـده؛ فـإن اللـه عـز وجل-المطلـع عـلى كل الأحـوال- سـيُعلّمه مـا لـم يكـن يعلـم، ويفتـح عليـه مـن بـركات العلـم والفهـم مـا يعجـز اللسـان عـن وصفـه؛ وذلـك فضـل اللـه يؤتيـه مـن يشـاء.

ومـن تجليـات هـذه الطريقـة؛ حصـول التفاعـل بـين المعلـم والمتعلـم عـن طريـق مناقشـة مسـائل الـدرس، والأصـل في ذلـك؛ أن يصـدر السـؤال مـن المتعلـم للمعلـم، يقـول الشـاطبي(ت790ه) -وهـو يتحـدث عـن أنـواع السـؤال-: الرابـع: وهـو الأصـل الأول: سـؤال المتعلـم للعالـم، وهـو يرجـع إلى طلـب علـم مـا لـم يعلـم"[48].

ورغـم أن أبـا إسـحاق أخـره في الذكـر، وجعلـه الرابـع، لكنـه لـم يفتـه التنبيـه عـلى أن حقـه التقديـم؛ فهـو متأخـر في الذكـر، ومتقـدم في الرتبـة والفعـل.

ولا شـك أن هـذه الالتفاتـة التربويـة مـن الشـاطبي رحمـه اللـه؛ تبـين أن المتعلـم في تراثنـا التربـوي هـو محـور العمليـة التعليميـة التعلميـة؛ ذلـك أن تمكـين المتعلـم مـن حـق السـؤال في المقـام الأول؛ يـدل عـلى أن وجـوده الحقيقـي رهـين بمـدى استشـكاله، وسـؤاله عمـا لا يعلـم، ومـا لا يفهـم.

والطريقـة الثانيـة: مطالعـة الكتـب؛ وهـي طريقـة متوقفـة عـلى (المشـافهة)، ومكملـة لهـا في نفـس الوقـت.

أمـا توقفهـا عليهـا؛ فيظهـر في أنـه لا بـد أن يَحصـل للطالب"مـن فهـم مقاصـد ذلـك العلـم المطلـوب، ومعرفـة اصطلاحـات أهلـه؛ مـا يتـم لـه بـه النظـر في الكتـب، وذلـك يحصـل بالطريـق الأول، ومـن مشـافهة العلمـاء، أو ممـا هـو راجـع إليـه"[49].

إن المطالعـة مفيـدة -بلاشـك- في تكويـن الطالـب؛ لأنهـا تقـوم عـلى التعلـم الذاتـي، ولا تخضـع لزمـن نمطـي محـدود، لكـن لا بـد فيهـا مـن فهـم مقاصـد العلـم، وليـس مجـرد معرفتهـا!

فأبـو إسـحاق-لله دره- لـم تخنـه العبـارة، ولـم يكتـف بالإشـارة؛ لأن فهـم مقاصـد العلـم المطلـوب، يُمكِّـن الطالـب مـن التمييـز بـين مـا هـو مـن صلـب العلـم، ومـا هـو مـن ملحـه، ومـا ليـس مـن هـذا ولا ذاك.

وإذا كانـت مطالعـة الكتـب طريقـا نافعـا في بابـه، فإنـه ليـس كل كتـاب يسـتحق أن يطالَـع؛ لذلـك عـلى الطالـب "أن يتحـرى كتـب الأقدمـين مـن أهـل العلـم المـراد؛ فإنهـم أقعـد بـه مـن غيرهـم مـن المتأخريـن، وأصـل ذلـك التجربـة والخـبَر"[50].

(48) الموافقات، الشاطبي، ج5، ص: 466.

(49) نفسه، ج2، ص: 189.

(50) نفسه، ج2، ص: 189.

إن كتب الأقدمين تمكن الطالب من اكتساب (الملكات الأصولية)؛ فالذي يرتاض على كتاب (الرسالة) للشافعي(ت204ه)، و(التقريب) لأبي بكر الباقلاني(ت403ه)، و(المعتمد) لأبي الحسين البصري(ت436ه)، و(البرهان) لأبي المعالي الجويني(ت478ه)، و(المستصفى) لأبي حامد الغزالي(ت505ه)، و(الموافقات) لأبي إسحاق الشاطبي(ت790ه)، كيف سينتهي به الأمر بعد طول مصاحبة؟

فالعادة جارية على أن من عاشر كتب هؤلاء؛ سينتهي به الأمر إلى أن يَكون ربَّان من علم الأصول، يستطيع الاستنباط، والمقارنة، والترجيح، وإجراء القواعد الكلية على الفروع الجزئية، وربط هذه بالأصول؛ وتلك منزلة من منازل الاجتهاد.

ولتحقيق هذه المرتبة على وجه الكمال؛ ينبغي أن يكون الطالب ذا لسان سؤول، وقلب عقول، ويداوم المطارحة مع قرينه، إما بـ"مذاكرته له بما سمع، أو طلبه منه ما لم يسمع مما سمعه المسئول، أو تمرنه معه في المسائل قبل لقاء العالم، أو التهدي بعقله إلى فهم ما ألقاه العالم"[51]؛ وتلك وجوه المطارحة مع الأقران؛ المفضية إلى تحقيق الملكة بعد طول الزمان.

وتمام القول في هذا البحث نخصصه للحديث عن تجليات الوظيفية في التقويم؛ فقد أشار الإمام الشاطبي إلى بعض ما يتحقق به، وإن كان على وجه الإجمال؛ فقال رحمه الله: "الثالث: سؤال العالم للمتعلم، وهو على وجوه كذلك؛ ...{منها} اختبار عقله أين بلغ... أو تنبيهه على ما علم؛ ليستدل به على ما لم يعلم"؟[52].

يتضح من هذا النص أن التقويم يتخذ أداة السؤال وسيلة له، ويتنوع حسب مراحل الدرس؛ وهو من خلال ما يفهم من النص ثلاثة أنواع:

- تقويم تشخيصي[53]؛ ويتجلى في اختبار المتعلم قبل الحوض في العلم إن كان ذلك في بداية الطلب، أو عند تدريس مبحث من مباحثه حال الشروع في التدريس؛ فيكون الغرض من التقويم هو "اختبار عقله أين بلغ"؟

وهذا يدل على أن الأستاذ لا بد أن يختبر المتعلم؛ حتى يعلم موقعه من العلم، وهل له مكتسبات سابقة أم لا؟

وذلك يفيده في معرفة مستوى المتعلمين، فليس يستوي من له سابق علم بمن لا علم له؛ وكيف يجتمعان، ويخاطبان على وزان واحد؟

- تقويم تكويني؛ ويتجلى هذا النوع -بحسب النص السابق- في تنبيه الطالب أثناء الدرس على مواضع الإشكال التي يُطلب رفعها، ولا يكون التنبيه

(51) الموافقات، الشاطبي، ج5، ص: 466.

(52) نفسه، ج5، ص: 466.

(53) "التقويم التشخيصي: هو اختبار سريع، أو أسئلة شفوية، أو حوار مفتوح يستهدف التعرف على مدى استعداد {الطلبة} لمتابعة الدرس واستيعاب محتوياته". المنهل التربوي، عبد الكريم غريب، ج1، ص:402؛ منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط الأولى، سنة 2006م. قلت: لأن المعارف الجديدة لا بد أن تكون مناسبة للمعارف السابقة؛ وإلا صعُب استقبالها وتقَبُّلها؛ كما يمكن التقويم التشخيصي من اكتشاف تمثلات المتعلمين واستعداهم المعرفي.

إلا بالسؤال المستمر والمصاحب لكل مرحلة من مراحل الدرس؛ وهذا يقتضي أن تكون طريقة التدريس طريقة تفاعلية، تجعل الطالب في صلب العملية التعليمية التعلمية، وتسمح له بالمشاركة والتفاعل، ويُمْكن معها توظيف هذا النوع من التقويم.

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره أبو إسحاق(ت790ه)، عن إحدى المجالس التعليمية التي حضرها؛ حيث قال: "حضرت يوماً مجلساً بالمسجد الجامع بغرناطة مقدم الأستاذ القاضي أبي عبد الله المقري في أواخر ربيع الأول عام سبعة وخمسين وسبعمائة، وقد جمع ذلك المجلس القاضي أبا عبد الله، والقاضي أبا القاسم الشريف شيخنا، والأستاذ أبا سعيد بن لب، والأستاذ أبا عبد الله البلنسي، وذا الوزارتين أبا عبد الله بن الخطيب وجماعة من الطلبة. فكان من جملة ما جرى أن قال القاضي أبو عبد الله المقري: سئلت عن مسألة من الأصول لم أجد لأحد فيها نصاً، وهي تخصيص العام المؤكد بمنفصل، فأجبته بالجواز محتجاً بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [54]؛ فهذا عام مؤكد"[55].

- التقويم الإجمالي؛ يفهم من قول الشاطبي(ت790ه): "اختبار علقه أين بلغ"؛ أن يكون هذا الاختبار بعد انتهاء الدرس؛ ليقف الأستاذ على مستوى فهم الطالب، ودرجة استيعابه للدرس.

ويدل النص باللزوم على أن الاختبار يستهدف العمليات العقلية المختلفة؛ ولا يركز على استرجاع المعارف فحسب !

وليس غريبا أن يكون هذا التقويم كذلك؛ إذا كانت طريقة التدريس تقوم على التفاعل، وتدرب الطالب على اكتساب الملكات، وتوظيف المكتسبات، وما جرى على أصله لا يستغرب منه.

خاتمة:

إن ما سبق بيانه عن معالم التجديد في التأليف والتدريس عند أصوليي الغرب الإسلامي؛ يدل باليقين على أن تراثنا الأصولي، يتضمن منهجا أصيلا يراعي مبدأ الوظيفية في التعليم والتعلم؛ فقد ألفينا في هذا التراث حديثا عن مناهج بناء المعرفة وطرق اكتسابها، وتدريسها، وما يتعلق بمن يدرسها أو يتعلمها، والعوامل المؤثرة في التحصيل العلمي عند الطالب، سواء كانت نفسية أو اجتماعية، أو بيداغوجية.

ولا شك أن هذا التراث التربوي اللاحب؛ إذا وفقنا لاستخراجه وبيانه للناس، واستطعنا توظيفه بطريقة تناسب المتغيرات التي نعيشها؛ فإن المخرجات ستكون أفضل؛ ذلك أن تجديد علم الأصول لا يكون بتجاوز التراث واعتباره قديما عفا عنه الزمن، بل يحصل بالانطلاق منه، ومعرفة سلبياته وإيجابياته؛ فيُؤخذ

(54) جزء من الآية 31 من سورة الأعراف.

(55) الإفادات والإنشادات، ص: 126- 127.

ما حقه الإعمال، ويُترك ما حقه الإهمال.

ولا يخفى أن الشأن التربوي يعرف مستجدات كثيرة، لا يمكن الإعراض عنها بدعوى حداثتها، وأن التراث فيه كفاية لا حاجة معه إلى غيره؛ فهذا مما لا يقول به عاقل، فضلا عن باحث يعرف مسار العلوم وتطورها، وتراكمها، ويدرك واقع الناس ومستجدات العصر.

وعليه؛ فلا مانع أن يستفاد من تلك المستجدات في تجديد ما يمكن أن يتجدد من علم الأصول؛ سواء تعلق الأمر بطرق بناء المعرفة، وكيفية تحصيل العقل لها، أو طرائق تدريسها وتقويمها، أو ما يرتبط بالجوانب النفسية والاجتماعية المؤثرة في ذلكم التحصيل.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

لائحة المصادر والمراجع

1. إحكام الفصول، للباجي، تحقيق عمران علي أحمد العربي، منشورات جامعة المرقب، بنغازي- ليبيا، ط الأولى، سنة 2005م.
2. أساسيات وتطبيقات في علم المناهج، نجوى عبد الرحمان شاهين، دار القاهرة، مصر، ط الأولى، سنة 2006م.
3. أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، عياض بن نامي السلمي، دار التدمرية، الرياض- السعودية، ط الأولى، 1426 هـ- 2005م
4. الإفادات والإنشادات، الشاطبي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط الأولى، 1403هـ- 1983م.
5. الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، ابن ماكولا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1411هـ1990-م.
6. البرهان في أصول الفقه، للجويني. تحقيق سمير مصطفى دباب، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط الأولى، سنة 2002م.
7. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي مع الغير، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المغرب، ط الثانية، سنة 1983م.
8. الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2030-2015، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي-الرباط.
9. الضروري في أصول الفقه، ابن رشد، تحقيق جمال الدين العلوي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط الثانية، سنة 2012م
10. طبقات الشافعية، تاج الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، السعودية، ط الثانية، سنة 1413هـ.
11. العطاء الفكري لأبي الوليد بن رشد، أعمال ندوة علمية بجامعة آل البيت- الأردن، سنة 1998م. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب الأردن، ط الأولى، 1420هـ- 1999م.
12. العواصم من القواصم، أبو بكر ابن العربي، تحقيق عمار طالبي، مكتبة دار التراث، القاهرة، (بدون ط، وسنة النشر).
13. الفتح المبين في طبقات الأصوليين، المراغي، وزارة الأوقاف، مصر، ط الأولى، 1366هـ- 1947م.
14. الفهرست، ابن النديم، تعليق: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1430هـ- 2009م. (دون ذكر ط).
15. قواطع الأدلة في الأصول، أبو المظفر السمعاني، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، 1418هـ- 1999م
16. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد التهانوي. تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان، ط الأولى، سنة 1996م.
17. المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، تحقيق محمد سليمان الأشقر، الرسالة العالمية، دمشق، ط الثانية، سنة 2013م.
18. المصطلح الأصولي عند الشاطبي، فريد الأنصاري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط الثانية، 1435هـ- 2014م.
19. المنثور في القواعد للزركشي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط الأولى، 1421هـ- 2000م.
20. المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد الباجي، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، تونس، (دون ذكر ط وتاريخ النشر).
21. المنهل التربوي، عبد الكريم غريب، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط الأولى، سنة 2006م.

22. الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق وتعليق الحسين أيت سعيد، منشورات البشير بنعطية، فاس، المغرب، ط الأولى، سنة 2017م.
23. نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، كفاح يحيى صالح العسكري ومن معه، تموز للنشر والتوزيع، دمشق- سوريا، ط الأولى، سنة 2012م.

المتلقي عند ابن قتيبة الدينوري في مقدمة كتابه عيون الأخبار

إعداد :
د. الخير عامر رحب عبد الكريم
محاضر بجامعة سبها، كلية التربية الغريفة
أ. آمنة عبد السلام ربوه
محاضر مساعد بجامعة سبها، كلية التربية الغريفة

الاستلام : 20/ 1/ 2023 القبول : 22/ 02/ 2023

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على دور المتلقي من خلال نظرية التلقي التي شيدها وأسس بنيانها ابن قتيبة الدينوري (276هـ) . وجاءت الدراسة في مقدمة وثلاثة محاور:

المحور الأول : المتلقي سامعاً وقارئاً .

المحور الثاني: المقدمة بين المؤلف والمتلقي .

المحور الثالث: مقدمة عيون الأخبار .

لتصل الدراسة إلى أن ابن قتيبة أبدى اهتماماً كبيراً بالمتلقي، فكان حضوره طاغياً في مقدمة كتابه،؛ بل إن المتلقي كان سبباً رئيساً في صبغ الكتاب بصبغته التي ظهر عليها .

وتوصلت أيضاً إلى أنه كاتب وناقد يمثل عصراً ومرحلة، ويمثل المفكر الشمولي النفعي في طرح نظريته في الكتابة .

الكلمات المفتاحية : نظرية التلقي، دور المتلقي، النقد الأدبي.

The recipient according to IbnQutayba Al-Dinuriin the introduction to his book, Oyoun al-Akhbar

Abstract

This study aims to identify the role of the recipient through the reception theory that was proposed and developed by IbnQutayba al-Dinuri (276H).

The study is divided into an introduction and three parts:

The first part: the recipient is a listener and a reader.

The second part: the introduction between the author and the recipient.

The third part: Introduction to"Oyoun al-Akhbar".

The study concludes that IbnQutayba showed great interest in the recipient, so his presence was overwhelming in the introduction to his book; Rather, the recipient was a major reason for imbuing the book in the way it appeared.

I also concluded that he is a writer and critic who represents aperiodand an era. He also represents the utilitarian holistic thinker in presenting his theory of writing.

Keywords: reception theory, the role of the recipient, literary criticism.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيعد ابن قتيبة الدينوري واضع حجر الأساس في تاريخ نظرية التلقي في النقد الأدبي العربي، فقد انصب اهتمامه على الشعر، فركز بشكل كبير على الشعراء واهتم بحياتهم وأخبارهم وأشعارهم وتربيتهم وأنسابهم .

وأما كتابه عيون الأخبار فيعد مثالاً للتأليف الأدبي في التراث العربي، كما يُعد كنزاً من كنوز الثقافة العربية عبر تاريخها الطويل، فهو يجمع بين آداب السياسة وأصولها والصفات التي يجب على السلطان أن يتحلّى بها، وآداب الحرب وفنونها، والطعام وألوانه وفنونه إلى آخر ما نراه من ألوان الثقافة العامة التي ينبغي على المرء الإلمام بأطرافها، ويجمع إلى ذلك الأخبار والروايات والحكايات والأحداث والنوادر والأشعار التي يأتي بها للاستشهاد على ما يقول .

وكانت طبيعة الموضوع تحتم علينا المُضي على هذا المنوال، فبدأنا بالمقدمة، ثم المحور الأول : المتلقي سامعاً وقارئاً .

ثم المحور الثاني: المقدمة بين المؤلف والمتلقي .

ثم المحور الثالث: مقدمة عيون الأخبار .

ثم الخاتمة التي تناولت أهم النتائج التي تم التوصل إليها .

1) المتلقي سامعاً وقارئاً :

المتلقي في سياق هذا البحث هو القارئ المفترض أو المتوقع، الذي كان سامعاً إبان عصر الرواية، وبسبب من تداخل التأليف والرواية في ظل الحضارة العربية يكون المتلقي سامعاً وقارئاً في الوقت ذاته، وتحمل لغة التأليف في طياتها سمات اللغتين المكتوبة والمنطوقة معاً .

فعلى الرغم من دخول الثقافة العربية في عصر تدوين حقيقي في بداية النهضة العربية الإسلامية أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية فما زالت آثار الرواية بادية في الكتابات الأولى ومستمرة في الكتابات التالية لذلك بدرجات متفاوتة، ففي العصر العباسي الثاني بقي النظر إلى الرواية على أنها الأصل وكانوا يقولون في معرض الذم: "هل هو إلا لحانة صحفي لمن يأخذ الصحف عن المشائخ"[1] . وقد ذموا الصحف؛ لأنها تحل محل الشيخ أو الأستاذ، فكيف لجلد أو عظم أو ورق أن يكون – وهو الميت-مصدراً للعلم وبديلاً عن الإنسان الحي العالم؛ لذا قيل: نأخذ علمنا عن الأحياء ولا نأخذه عن الأموات .

فما زال النقل الشفهي وديوان السماع هو الغالب إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في القرن الخامس الهجري[2] ، ولا أدل على استمرار هذا التقليد

(1) ابن قتيبة العالم الناقد الأديب، عبد الحميد سند الجندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د ط، 1962م، ص 12 .

(2) البصائر والدخائر، أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط 1، 1984م، 1/ 2 .

من أن الأصلين الكبيرين في الثقافة العربية الإسلامية : القرآن الكريم والسنة النبوية، مازالا ينقلان مشافهة وروايةً إلى يومنا هذا .

وآثار الرواية كانت ظاهرة بوضوح في الكتابات الأولى، مثل كتابات الأصمعي (ت 210هـ) والجاحظ (ت 255هـ) وابن قتيبة (ت 276هـ) والمبرد (ت 286هـ) وغيرهم في الخطب أو المقدمات، وفي المتون التي تحفل بسلاسل الرواة لتوكيد صدق الخبر بالإسناد المنضبط المكتوب، وإن أثقل كاهل النص المُؤَلَّف، وما ذلك إلا خدمة لفكرة الموثوقية المسيطرة على الرواية الشفهية، والمندرجة كذلك على هذه الكتابة التأليفية[3] .

لذلك كله حفلت هذه الكتابة التأليفية بمظاهر متعددة تدل دلالة واضحة على أن المتلقي في هذه الكتب أو المقدمات هو سامع وقارئ في آن واحد، وأهم تلك المظاهر ما يلي:

أولاً: افتتاح الكتب المؤلفة بصيغة تدل على النقل، مثل كلمة قال المؤلف أو المصنف أو فلان، مما يوحي بأن الكتاب قيل على مسمع قبل تأليفه .

ثانياً: افتتاح الكتب المؤلفة بخطبة (وهي المقدمة) تشتمل على عناصر الخطبة الشفهية المعهودة من حمد الله وثناء عليه، وصلاة على رسوله، ودعاء للكاتب وللقارئ والسامع ثم عرض الموضوع .

ثالثاً: عدم تنسيق مواد كثير من الكتب المؤلفة، وظهور استطراد المتحدث فيها أكثر من انضباط أو تنظيم المؤلف لها، كما في (البيان والتبيين) للجاحظ، و(الكامل في اللغة والأدب) للمبرد .

رابعاً: كثرة وجود كتب الأمالي والمجالس وغيرها، وهي التي تدل على أنها ألفت أصلاً بالإملاء والقول لا بالكتابة التأليفية المعهودة لاحقاً .

خامساً: كثرة ورود صيغ الدعاء للمتلقي القارئ والسامع في مفتتحات الجمل استمالة له أو تحبباً إليه .

فهذه المظاهر وغيرها ساعدت على ان يكون المتلقي سامعاً أكثر منه قارئاً، ومن ثم فقد ضمن له هذا الأمر بروزاً أجلى وأظهر في نصوص التأليف الأولى، حتى أمكن إطلاق لفظ المتلقي عليه؛ لأنها تجوز على السامع والقارئ معاً.

وتجدر الإشارة هنا أن هذه المظاهر السالفة أو بعضها قد غدت من السنن المحببة في أساليب الكتابة والتأليف، فاستمر وجودها في عصور متأخرة تقليداً كتابياً لا يخلو من جمال وبراعة، كما هو الشأن في استخدام صيغ الدعاء للقارئ في الكتابة حتى يومنا هذا .

2) المقدمة بين المؤلف والمتلقي :

عندما تتضام أجزاء الكتاب وتأتلف في مرحلة تالية، يتكامل مفهوم الكتاب التأليفي، فيغدو أكثر أمانة لذاته، وأشد إخلاصاً لوحدته وتلاحمه؛ لذا تتراجع شخصية الكاتب المتحدث من بين ثناياه، ولا يعود للقارئ بروز كبير فيه، فلا

(3) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، القاهرة، ط 5، 1978م، ص 179- 182 .

يبقى أمام المؤلف إلا المقدمة، يفزع إليها ليلتقي قارئه فيها؛ لذلك يتعاظم دورها، وتصبح مركزية في بنية الكتاب، وتفصح عن حرارة اللقاء بين المؤلف والقارئ .

في المقدمة يكون اللقاء مباشراً بين كل منهما، فإما أن يمضي القارئ قدماً ويلج الكتاب بسبب من قراءتها، وإما أن يتراجع إذا أخفق المؤلف في استمالته وإقناعه، لذلك استقرت المقدمة تقليداً راسخاً في الكتابة على مر العصور، وتحددت له ملامح كثيرة "لقد دأب مؤلفو الكتب منذ القديم على نهج سنة التمهيد لمؤلفاتهم بمقدمة غالباً ما تتضمن الإشارة إلى دوافع التأليف والمنهج والمضمون والهدف واسم المؤلف وكتابه، وخاصة في الكتب التراثية"[4] ، وغدا من المعهود أن " المقدمات تكتب لشرح مناهج الكتب"[5] .

فهذه المقدمة أو تلك "تحاول تحديد زاوية النظر إلى العمل كما تحاول إبرازه باعتباره ثمرة إنتاج موجه بطريقة ما. وإنه لا بد من تقدير ذلك التوجه، فهي إذن تدافع عن النص ضد عدم الفهم، وضد التأويلات المغلوطة، كما تحرص على إعادة تداوله وإبراز رسالته، لكنها تبقى بدورها خطاباً مكتوباً يحتاج إلى قراءة ويحتاج إلى تأويل"[6].

لذلك تبرز أهمية إعادة القراءة لكثير من المقدمات التراثية؛ لما تنطوي عليه من أهمية في قراءة تلك الكتب التي قدمت لها، أو في قراءة عصر التأليف، أو في قراءة تلك المقدمات إلى بعضها البعض؛ لقيمتها في ذاتها، ولأهميتها في بنية الكتاب بعامة، فالمقدمة " قد يعول عليها الكاتب كثيراً في جذب قارئه، أو في التأثير عليه أو الإيعاز له باستراتيجيته الخاصة، ونظراً لأهميتها في مصاحبة النص، وفي تأطيره فقد أُوليت أخيراً أهمية كبيرة في الدراسات الأدبية. وذهب البعض إلى حد اعتبارها جنساً أدبياً خاصاً ربما يتغير تعريفه فقط أو تختلف النظرة إليه بحسب الاتجاهات والعصور"[7].

ونظراً إلى هذه الأهمية لم يكن غريباً أن بلغت مقدمة ابن خلدون (ت 808هـ) ما بلغت من حيث الحجم في تأليفها، والأثر فيما تلاها من دراسات، حتى بلغت شهرتها الآفاق وقرئت قراءات متعددة على توالي العصور، وبها وحدها صار ابن خلدون من أشهر الكتّاب العرب والعالميين .

ومن المقدمات الأخرى التي نالت شهرة كذلك في حقل محدد كالنقد، مقدمة ابن سلام الجمحي لكتاب (طبقات فحول الشعراء) التي أعاد قراءتها سليمان

(4) خطاب المقدمات في شروح مخطوطة : لما أبدعه الحريري من مقامات، بوجمعة جمي، مقال منشور في مجلة جذور التراث، النادي الثقافي بجدة، عدد 1، فبراير 1999م، ص 237 .

(5) قراءة في مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام، سليمان الشطي، بحث منشور في مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد 1، مجلد 18، سنة 1987م، ص 160 .

(6) قراءة في خطاب المقدمات واستراتيجية التقديم، محمد خرماش، مقال منشور في مجلة أفكار، عمان، عدد: 138، ديسمبر 1999م، ص 49 .

(7) المصدر نفسه، ص 49 .

الشطي في بحث مسهب وبيّن أثرها في مسيرة النقد العربي، لما فيها من تنظيم، ولما تحوي من أفكار نقدية مبكرة، ونعتها بالتميز، ثم قال: "ولا أعرف مقدمة – بعد مقدمة ابن خلدون –أثارت واستوقفت الباحثين مثلما فعلت هذه المقدمة[8] .

3) مقدمة عيون الأخبار:

تعد مقدمة عيون الأخبار واحدة من أكثر المقدمات التراثية المبكرة دقة وإحكاماً فهي عبرت بوضوح عن شخصية كاتبها، وعن تماسك كتابته، وأبانت عن حقيقة الكتاب من جوانبه جميعاً، ولعل المقدمة ومن ثم الكتاب بما فيه، يدلان معاً على أن كتاب عيون الأخبار كان من أواخر ما ألف ابن قتيبة في حياته لما ينطويان عليه من دربة ومراس .

فإمعان النظر في هذه المقدمة من شأنه أن يعرّف المرء بعقلية المؤلف التصنيفية الدقيقة، وبطبيعة المتلقي على خلاف أحواله، وبهيكل الكتاب وبنائه الموسوعي .

وقبل ديباجة التقديم ترد العبارة التالية: قال الإمام أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري-رضي الله عنه- (ابن قتيبة)، والتي تشير إلى أن المقدمة رويت أو أمليت إملاء على عادة المتقدمين في تأليفاتهم، فمتلقيها هو القائل الأول لتلك العبارة، تلميذاً كان أو ناسخاً، وفي نعت ابن قتيبة بالإمام والترضي عنه توكيد للمقولة الشهيرة بحقه، "هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة"[9] وقد كان هذا الإمام القاضي من أبرز الأدباء الممثلين للتجديد السني في القرن الثالث الهجري [10]

ديباجة التقديم:

إن صفات الذات الإلهية التي ينتقيها المؤلف في عباراته الأولى في ديباجته لا تخلو من دلالة في سياق تقديمها لهذا الكتاب فهي صفات تفتح أفق المتلقي على رحابة تلك الذات وتشيع جوّاً من التسامح والانطلاق بمعانيها وبتكرار مضامينها في الجمل وبتقبلها الدال، فهو يحمد الله "الذي يعجز بلاؤه صفة الواصفين وتفوت آلاؤه عدد العادّين وتسع رحمته ذنوب المسرفين، والحمد الله الذي لا تحجب عنه دعوة ولا تخيب لديه طلبة ولا يضل عنده سعي، الذي رضي عن عظيم النعم بقليل الشكر وغفر بعقد الندم كبير الذنوب ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين"[11]

كما أن الصفات التي يصف المؤلف بها النبي من شأنها أن تشيع الجو ذاته،

(8) قراءة في مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ص 157 .

(9) تفسير سورة الإخلاص، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، راجع النصوص وخرّج الأحاديث: عبد العلي عبد الحميد حامد، الدار السلفية- بومباي، ط 1، 1986م، ص 187 .

(10) دراسات في اللغة واللهجات والأساليب العربية، يوهان فلك، ترجمة : رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي – القاهرة، د ط، 1980م، ص 138 .

(11) عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، ضبطه ووثق نصوصه وعلق عليه: الداني بن منير آل زهوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 1، 2003م، 1/ 13 .

وأن تعـزز المعانـي التـي هـدف إلى بثهـا في نفـس المتلقـي فالنبـي هـو البشـير النذيـر السراج المنـير والهـادي إلى الرضـا، والداعـي إلى المحبّـة والـدالّ عـلى سـبيل الجنـة فاتـح بـاب الرحمـة ومغلـق بـاب السـخط [12]

فهـذه الصفـات جميعـاً تركـز اهتمامهـا في الابتعـاد عـن الانقبـاض والتحلـل قليـلاً مـن الخـوف مـن مقارفـة الإثـم، فأبـواب الحـلال أوسـع مـن مغاليـق التحريـم، وعـلى المتلقـي أن يتقبـل مـا سـيأتي لاحقـاً بعيـداً عـن التزمـت .

ولسـنا نغـالي إذا زعمنـا أن ديباجـة المقدمـة في الكتـاب العربـي القديـم لا تخلـو في أغلـب الأحيـان مـن مثـل هـذا التسـهيم بالإشـارة إلى طبيعـة مـراد المؤلـف، وأن وصـف الـذات الإلهيـة أو صيـغ الدعـاء للقـارئ أو للمؤلـف أو للمسـلمين عامـة في المقدمـة يكـون متصـلاً بسـبب بمحتـوى الكتـاب وطبيعتـه .

ولعـل هـذا مـا هـدف إليـه الكاتـب هنـا حـين انتقـى واختـار ، ووطـأ للكتـاب ولموضوعـات المقدمـة التاليـة ، فهيـأ المتلقـي لجـو التسـامح أمـلاً في إقصـاء أجـواء التحريـم والتزمـت؛ لوعيـه الدقيـق بحالـة أولئـك المتلقـين .

وفي الفقـرة التاليـة أفـاد مـن الإطـار الدينـي العـام بالإشـارة إلى أن "زكاة العلـم نـشره، وخـير العلـوم أنفعهـا، وأنفعهـا أحمدهـا مغبّـة، وأحمدهـا مغبّـة مـا تعلّـم وعلّـم للـه وأريـد بـه وجـه اللـه تعـالى"[13] وهـو بهـذا يدافـع مقدمـاً عمـا سـيأتي لاحقـاً فيربـط العلـم بالمنفعـة المبـاشرة عمليـاً، وبالنيـة الخالصـة دينيـاً، ثـم يعطـف عـلى العلـم والعمـل ويلحمهمـا بالدعـاء إلى اللـه في الفقـرة الأخـيرة مـن ديباجتـه .

ويظهـر تكامـل الديباجـة في اكتمـال عنـاصر الخطبـة فيهـا، وهـي التـي تـدل عـلى الملامـح الشـفهية في بدايـات التأليـف عنـد العـرب، فقـد حـوت حمـد اللـه والثنـاء عليـه ثـم الصـلاة عـلى الرسـول –صـلى اللـه عليـه وسـلم– ثـم قـول القائـل أمـا بعـد، وعرض للموضـوع، وأخـيراً اختتـام بالدعـاء ، وذلـك تمـام الفقـرات الثـلاث الأولى، وهـذه هـي الخطبـة المعهـودة للكتـب القديمـة، لكـن ابـن قتيبـة يقـوم بعـد ذلـك بعـرض مقدمتـه الضافيـة الجامعـة .

دواعي التأليف:

إن كتـاب عيـون الأخبـار يسـتكمل المهمـة التـي اضطلـع بهـا كتـاب "أدب الكاتـب" فالأمـر الـذي دعـا ابـن قتيبـة إلى تأليـف كتابـه السـابق هـو ذاتـه الـذي يحـذوه إلى القيـام باسـتكماله في هـذا الكتـاب" فأكملـت لـه مـا ابتـدأت وشـيّدت مـا أسّسـت"[14] فـإذا كان "شـمول النقـص ودروس العلـم وشـغل السـلطان عـن إقامـة سـوق الأدب"[15] دافعـه إلى تأليـف (أدب الكاتـب)، فهـو دافـع تعليمـي تربـوي، وقـد كان طلـب إلى متلقـي ذاك الكتـاب– وهـو مغفـل التـأدب مـن الكتـاب– وشرط عليـه أن يعـي مـا فيـه، وأن

(12) انظر: المصدر نفسه، الموضع ذاته .

(13) المصدر السابق، الموضع ذاته .

(14) المصدر نفسه، 1/ 14 .

(15) المصدر نفسه، 1/ 13 .

يحفظ عيون الحديث "ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلا إذا كاتب، ويستعين بما فيها من معنى لطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور"[16] .

لكن المؤلف خشي على متلقيه أن يتهاون ويعجز أو أن يضعف ويكل لخور طباعه، فوضع له هذه العيون المختارة والمنتقاة، وهي كتاب عيون الأخبار؛ ليريحه من كد التعب وطول البحث، وهو يدرك أهمية هذا العمل له " ذلك عمل من طبّ لمن حبّ بل عمل الوالد الشفيق للولد البرّ ورضيت منه بعاجل الشكر وعوّلت على الله في الجزاء والأجر"[17] .

ابن قتيبة إذن يعنى بتحديد شخصية المتلقي، وهو المتأدب، ثم يعنى بحالاته في الكتابة والمحاورة، كما أنه يدرك حالاته النفسية بما يعتريه من ضعف وعجز وتهاون فلا يكله إلى نفسه، ثم يشيع بينه وبين المتلقي ذاك جوّاً من الألفة، ويهبه قسطاً من المحبة لينال منه الشكر عاجلاً، لكنه يبقى متصلاً بأفق أرحب، حين يرجو الجزاء والأجر من الله، لتأكده من علو شأن ما في كتابه من الوجهة الدينية الخالصة المرتبطة بهدفه النهائي منه .

فإذا اتضحت الصلة المتينة بين كتابي "أدب الكاتب" و"عيون الأخبار" الذي "يكمله في الغاية والمنهج"[18] فهل سيقصر ابن قتيبة كتابه الأخير على متلقي كتابه الأول؟ .

موضوع الكتاب وتسميته وأهميته والهدف منه :

حين يبين المؤلف موضوع الكتاب يفاجئ المتلقي بأنه ليس في القرآن والسنة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام، ولكنه مع ذلك دال على معالي الأمور، ومرشد إلى الأخلاق الكريمة. ويؤكد هذا الرأي أن الطريق إلى الله ليس واحداً ولا ينحصر تحديداً في الشعائر التعبدية من صلاة وصوم، أو في علم الحلال والحرام " بل الطرق إليه كثيرة وأبواب الخير واسعة وصلاح الدين بصلاح الزمان، وصلاح الزمان بصلاح السلطان، وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالإرشاد وحسن التبصير"[19] .

هذه نزعة إنسانية عامة تؤمن بالخير المطلق، وتقر بتعدد الطرق إلى الله، أي بالخروج من الدائرة الضيقة للدين الواحد، والدخول في رحابة الفكر الإنساني العام، ولعل ابن قتيبة يقدر بوعي قوة التيارات الأجنبية التي تتكالب على الناس في عصره؛ لذا يريد للخطاب الديني الإسلامي أن يخرج من إطار الشعائر التعبدية المحدودة إلى فضاء روحي أوسع، فيؤكد أهمية هذا التوجه باتساع أبواب الخير أولاً، وبتقديم أثر السلطان على القرآن في إقامة الحق ومن ثم في إقامة أمر الدين ذاته. وانتصاره الأجلى يكون للمعرفة التي تشكل القوة الأولى، فالمفكر أو

(16) المصدر نفسه، 1/ 14 .

(17) المصدر السابق، 1/ 14 .

(18) ابن قتيبة نوابغ الفكر العربي، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص 47 .

(19) عيون الأخبار، 1/ 14 .

العالم هو المرشد المؤثر في السلطان والسلطان هو المؤثر في الزمان والزمان هو المؤثر في الدين أخيراً .

فالحجاج المنطقي الذي ختم به المؤلف هذه الفقرة يقابل صرامة البيان الصارم الذي واجه به المتلقي في بداية الفقرة ذاتها حين عرف موضوع الكتاب بالسلب فنفى الصفة الدينية عنه. وهذا- على ما يبدو- من أهم أفكار المقدمة جرأة واتساع أفق .

أما موضوع الكتاب الذي صار علماً عليه فهو (عيون الأخبار) كما يصرح بذلك منتصراً لمحتوى الكتاب، بإضافة صفة عيون إلى الأخبار، معلياً من شأن تلك الأخبار، وواعياً بأهمية إثبات ذكر العنوان في سطور المقدمة، خلافاً للكثير من الكتب التراثية التي يستشكل الأمر في تحديد عنواناتها بدقة. ولعل العنوان من العلامات المهمة والشواخص المؤثرة في المتلقي كثيراً، فقد قال ميشيل هاوزر (Michelle Hauser):"قبل النص هناك العنوان، وبعد النص يبقى العنوان"[20] ، ثم يضيف ابن قتيبة منتصراً لهذه الأخبار قوله :" وهي لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء وزبدة المخض وحلية الأدب وأثمار طول النظر والمتخيّر من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف"[21]. وبهذا يؤكد أن وصفها بالعيون لم يكن جزافاً، بل لأنها تستحق هذا الوصف بجدارة، فشرفها من شرف أصحابها، وقيمتها في أنها مختارة ومنتقاة بعناية من تلك المصادر المهمة المتنوعة .

وحفاظاً على موقفه الديني وانسجاماً مع توجهه الأخلاقي العام، خص موضوع (الزهد) دون سواه بعنايته في الكتاب، ومقابل ذلك جعل فيه "نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون وعروض أخذ فيها القائلون"[22] ، وهذا يفضي بنا إلى تلمس الرؤية العامة التي كان يراها المؤلف للصلة ما بين الحياة الواقعية وحياة الكتب ، وعلى الأخص كتب الأدب العام التي تمتاز بالموسوعية، وتشكل وعاء حاوياً لما أمكن من حوادث الواقع، أي هي توازي الوجود الفعلي، وتحاول استيعاب حركة الواقع المتحقق في الحياة، والتجارب المتعددة، ونقل ذلك كله ليغدو تجارب وخبرات، لكنها على الورق، وبذا راح يبحث المؤلف عن أقوال في كل مذهب سلكه السالكون، وعروض أخذ فيها القائلون .

أما الملحظ النفسي لهذا التنوع فيصرح به المؤلف بقوله :" لأروّح بذلك عن القارئ من كدّ الجدّ وإتعاب الحق فإنّ الأذن مجّاجة والنفس حمضة" مؤكداً أن هاجسه الأول والأخير يبقى هو المتلقي، لذا فقد عني بحالاته كلها، فكلما نوّع في المعارف والأخبار، وحدد معالمها، أشار إلى

(20) قراءة في خطاب المقدمات واستراتيجية التقديم، محمد خرماش، مقال منشور في مجلة أفكار، عمان، عدد: 138، ديسمبر 1999م، ص 49، 50

(21) عيون الأخبار، 1/ 14 .

(22) المصدر نفسه، 1/ 15 .

الهدف من ذلك بالنسبة إلى هذا المتلقي، ويحسن هنا أن نتقصّى أحواله وتجلياته المتعددة التي فصّل فيها المؤلف القول بعباراته هو:

"وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرة ولأهل العلم تذكرة ولسائس الناس ومسوسهم مؤدّبا وللملوك مستراحا من كدّ الجدّ والتعب وصنّفتها أبوابا وقرنت الباب بشكله والخبر بمثله والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس حفظها وعلى الناشد طلبها، وهي لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء وزبدة المخض وحلية الأدب وأثمار طول النظر والمتخيّر من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف. جمعت لك منها ما جمعت في هذا الكتاب لتأخذ نفسك بأحسنها وتقوّمها بثقافها وتخلّصها من مساوئ الأخلاق كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها، وتروضها على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم، وتصل بها كلامك إذا حاورت وبلاغتك إذا كتبت، وتستنجح بها حاجتك إذا سألت، وتتلطف في القول إن شفعت، وتخرج من اللوم بأحسن العذر إذا اعتذرت فإنّ الكلام مصايد القلوب والسحر الحلال، وتستعمل آدابها في صحبة سلطانك وتسديد ولايته ورفق سياسته وتدبير حروبه، وتعمر بها مجلسك إذا جددت وأهزلت وتوضح بأمثالها حججك وتبذّ باعتبارها خصمك حتى يظهر الحقّ في أحسن صورة وتبلغ الإرادة بأخف مؤونة، وتستولي على الأمد وأنت وادع وتلحق الطّريدة ثانيا من عنانك وتمشي رويدا وتكون أوّلا هذا إذا كانت الغريزة مواتية والطبيعة قابلة والحسّ منقادا، فإن لم يكن كذلك ففي هذا الكتاب، لمن أراه عقله نقص نفسه فأحسن سياستها وستر بالأناة والرويّة عيبها ووضع من دواء هذا الكتاب على داء غريزته وسقاها بمائه وقدح فيها بضيائه، ما نعش منها العليل وشحذ الكليل وبعث الوسنان وأيقظ الهاجع حتى يقارب بعون الله رتب المطبوعين، ولم أر صواباً أن يكون كتابي هذا وقفا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامّهم ولا على ملوكهم دون سوقتهم، فوفّيت كلّ فريق منهم قسمه ووفّرت عليه سهمه وأودعته طرفا من محاسن كلام الزهاد في الدنيا وذكر فجائعها والزوال والانتقال وما يتلاقون به إذا اجتمعوا ويتكاتبون به إذا افتر قول في المواعظ والزهد والصبر والتقوى واليقين وأشباه ذلك لعل الله يعطف به صادفا، ويأطر على التوبة متجانفا، ويردع ظالما ويلين برقائقه قسوة القلوب"[23].

فإذا كانت مادة الكتاب تمثل بشمولها جوانب الحياة كلها، فمتلقي الكتاب يجب أن يمثل أيضاً جميع الناس، لذا فقد جعله ابن قتيبة موجهاً إلى المتأدبين والعلماء، وسائسي الناس ومسوسيهم، أو خواص الناس وعوامهم، أو ملوكهم وسوقتهم. فلم تخرج طبقة من الناس عن إطار التلقي، ولم تخرج فئة أو طائفة أيضاً، فلن يخص به طالب الدنيا دون طالب الآخرة، حرصاً على ذلك الشمول.

(23) المصدر السابق، 1/ 14، 15.

وكما دعت مواد الكتاب، الممثلة لجوانب الحياة جميعاً، إلى التنوع في شخصية المتلقي كذلك ساهمت في التعامل مع حالاته كلها، حرصاً على موسوعية الكتاب، وإيماناً بتلك الموسوعية الشاملة. فهدف المؤلف –كما صرح في المقدمة- موجّه إلى تربية المتلقي نفسياً وخلقياً ودينياً واجتماعياً وعلمياً .

فالتربية النفسية والخلقية والدينية تتمثل في تثقيف النفس، وتخليصها من مساوئ الأخلاق وترويضها على الأخذ من السنة الحسنة والسيرة القويمة والأدب الكريم والخلق العظيم. وكذلك يهتم المؤلف بذوق المتلقي أيما اهتمام، فإذا كان صاحب ذوق رفيع وغريزة مواتية فإن هذه المواد المبثوثة في الكتاب تساعده على بلوغ رتبة أرفع ويصير سابقاً بفضلها. أما إذا كان سقيم الغريزة أو الطبع فإن هذه المواد تساعده على رفع ذائقته؛ لأن منها ما ينعش العليل ويشحذ الكليل ويبعث الوسنان ويوقظ الهاجع. وكذلك من مهمات الكتاب أن يعيد الصادف أو المنحرف إلى الطريق القويم، والعاصي إلى التوبة، وقاسي القلب إلى الحق بما في الكتاب من عبر تلينه وتعيده إلى ذلك .

أما التربية الاجتماعية فهي تتمثل في العناية بحالات المتلقي في المحاورة والمكاتبة، والسؤال والشفاعة، والاعتذار، والجد والهزل، والاحتجاج والخصومة، وصحبة السلطان ورفقته. وهذه جميعاً تجعل المرء منتصراً على نفسه أولاً وعلى الآخرين تالياً.'' وتلحق الطّريدة ثانياً من عنانك وتمشي رويداً وتكون أوّلاً''. وهذا يشير بوضوح إلى المسؤولية التي يضطلع بها ابن قتيبة المُصالِح أو المفكر الذي يريد أن يربي أفراد المجتمع تربية هادفة في عصر مضطرب ومتلاطم الأمواج.

وأما التربية العلمية فلعلها ظاهرة فيما سبق كله. ويضاف إليها أن تنظيم مادة الكتاب أصلاً هدف المؤلف من ورائها إلى التسهيل على المتعلم والدارس والناشد ليتسنى لهم جميعاً التعلم والحفظ والطلب. وربما كان هذا هو السر في تماسك المقدمة وإسهابها لتقدم الكتاب أفضل تقديم .

فالمؤلف مدرك لأهمية الثقافة الموسوعية، ومقدر لها في عصر اصطراع المذاهب والمبادئ والأفكار، وموقن أن هذه الاتجاهات المتصارعة لا يخلو كل منها من عناصر فائدة وجمال، ولا سبيل إلى جعل المثقف المسلم قادراً على التعامل معها والإفادة منها إلا بإشاعة الثقافة الموسوعية لتقبل التناقضات على أرض دينية وأخلاقية صلبة، لذلك كله أراد ابن قتيبة للمسلم في كتابه هذا أن يدرك نواحي الجمال في العالم المحيط به دون أن يقع أسير مذهب ضيق أو فكر محدود .

وعلى الرغم من أهمية هذه الرسالة التي يضطلع بها الكتاب وجوهريتها، فقد أصرّ المؤلف على أن ينهج فيه أسلوب المزج بين الجد والهزل، إدراكاً منه لطبيعة النفس البشرية، وتفهماً منه لحالة المتلقي النفسية، لكن المتزمتين من المتلقين ممن يتشدقون بالتدين قد يكون لديهم على ذلك اعتراض، فكيف ابتدرهم المؤلف بالرد. وهاجمهم قبل أن يعترضوا على الكتاب، وهو مازال يود الإبقاء عليهم ضمن المتلقين ؟

الاحتجاج لبعض موضوعات الكتاب :

يقول المؤلف موجهاً كلامه إلى المتلقي المتزمت، مؤكداً مخاطبته بكاف الخطاب الدالة على الإفراد. تخصيصاً وتقليلاً:" وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما، فإذا مرّ بك، أيها المتزمّت، حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به. واعلم أنك إن كنت مستغنيا عنه بتنسكك فإن غيرك ممن يترخّص فيما تشدّدت فيه محتاج إليه، وإنّ الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيّأ على ظاهر محبتك، ولو وقع فيه توقّي المتزمّتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك. وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين"[24] .

فلعل من باب المراس في الحجاج أن يجعل ابن قتيبة المتزمت واحداً، فيفرده في الخطاب، ويوجه إليه الكلام بالتخصيص في الوقت الذي يخلع فيه على نفسه صفة الجمع "وما أردنا منه" فالمؤلف يمثل صوت الجماعة، أما المتزمت فإنه لا يمثل إلا ذاته وحسب. وملحظ أسلوبي آخر يضعف المتلقي المتزمت هو أن يجعله المؤلف مفعولاً به للكتاب مرة "سينتهي بك كتابنا" ولحديث أخرى "فإذا مر بك أيها المتزمت حديث" فيكون المتلقي بذلك منفعلاً أكثر منه فاعلاً. وأخيراً يتذرع المؤلف بأن المزاح والفكاهة في كتابه إنما يصدران عن الأشراف والأئمة. فكيف لهذا المتزمت –الذي يجل الأشراف والأئمة- أن يقدح بهم برفض ما يمكن أن يكون صدر عنهم؟

بعد ذلك يرفع ابن قتيبة من وتيرة الحجاج، بأن استغناء المتزمت عن بعض ما في الكتاب بحجة التمسك بالدين أو التنسك، إنما يمثل حالة خاصة به وحده، لا يشاركه فيها الآخرون، ممن يرون الأمور على وجه آخر أكثر انفتاحاً، وهؤلاء الآخرون من الناس هم غاية المؤلف وهدفه إلى جانب أولئك المتزمتين؛ لأن الصنفين معاً يمثلان الحياة والواقع. وإن المؤلف ليدرك أن الكتاب لو سار على خط صنف دون آخر لفقد شطراً من بهائه، ومن ثم لفقد قسماً كبيراً من القراء الذين يريدهم أن يقبلوا عليه .

بذلك يضرب لنا ابن قتيبة مثالاً لسعة أفق المفكر الذي ينزع إلى المعنى الإنساني العام المستند إلى طبيعة بشرية غير محدودة بفكر ديني معين، فالنفس البشرية تنزع إلى المزاح وإلى خلط الجد بالهزل أكثر من ميلها إلى إشاعة حمية الحرص والتوقي بسبب عقيدة متزمتة أو فكر منغلق .

ثم يلجأ المؤلف إلى إثبات رأيه بصياغة مثالية للكتاب، هذه الصياغة تقوم على فكرة الإباحة الدينية لأنواع الطعام المختلفة، فهي أنواع كثيرة ومباحة، لكن شهوات الآكلين هي التي تحكم الإقبال على صنف دون الآخر، تبعاً لما صرح به وهو الذوق، ومقولة الذوق هذه تنطبق على الطعام وعلى القراء بالأسلوب

(24) المصدر السابق، 1/ 15 .

ذاتـه. ومـن هنـا لـم يحـصر ابـن قتيبـة كتابـه في دائـرة رغبـة التقـوى والتزمـت، وإن كان حريصـاً عـلى أن يبقـي هـؤلاء المتزمتـون مـن بـين أفـراد الكتّـاب، لذلـك عنّـى نفسـه أن يـشرح لهـم، وأن يحتـج لقضيتـين عـلى درجـة عاليـة مـن الأهميـة وبـشيء مـن التفصيـل؛ لأنـه يتوقـع مـن هـؤلاء القـوم أن يطعنـوا في الكتـاب بسـببهما .

أما القضية الأولى فهي وجود حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة، قد تستثير خشوع ذلك المتزمت فيعرض عن الكتاب. واحتج ابن قتيبة لذلك بأن الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب –رضي الله عنهما– قد أفصحوا جميعاً في أحاديث لهم بذكر العورات دون أن يكنّوا، حيث كان الإفصاح ضرورياً، ولم يكن المقصود به إيذاء عرض أحد. ذلك أن مجرد ذكر العورة ليس من الحرام في شيء. وهذا النوع من الذكر والإفصاح هو الذي يرد في كتاب عيون الأخبار. ثم يحترز المؤلف لذلك فيقول:" ولم أترخّص لك في إرسال اللسان بالرّفث على أن تجعله هجيّراك على كل حال وديدنك في كل مقال، بل الترخّص منّي فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها، تنقّصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض، وأحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السّلف الصالح في إرسال النّفس على السجيّة والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع. ولا تستشعر أنّ القوم قارفوا وتنزّهت وثلموا أديانهم وتورّعت"[25] .

أما القضية الأخرى فهي متصلة بالسابقة ، وتختص بمسألة اللحن اللغوي في النادرة أو الطرفة أو الخبر أو الحديث. فقد أصر ابن قتيبة على ضرورة رواية النادرة المشتملة على اللحن كما هي؛ ذلك أن بعض الألفاظ الملحونة فيها قد تكون هي سر جمالها وحلاوتها. فإذا حاول الناقل تصويبها أساء إليها من حيث لا يعلم " ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وقّيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ولاستبشعها سامعها وكان أحسن أحوالها أن يكافئ لطف معناها ثقل ألفاظها"[26] .

الدفاع عن تفاوت مستويات الكتاب :

إن اليقظـة النقديـة التـي يتعامـل بهـا ابـن قتيبـة مـع المتلقـي تنعكـس بجـلاء عـلى نظرتـه إلى كتابـه، وتتيـح لـه أن ينقـده قبـل أن يصـل إلى يـد المتلقـي، لذلـك يـدرك المؤلـف أن في كتابـه تفاوتـاً أو تباينـاً في المـادة عـلى المسـتوى الفنـي في الأخبـار والأشـعار. وعـلى المسـتوى التنظيمـي في توزيـع تلـك الأخبـار والأشـعار عـلى الأبـواب والفصـول، فكيـف يأتـي دفاعـه عـن هـذا التفـاوت في مسـتوييه؟

بحـرص واضـح يحافـظ المؤلـف عـلى مخاطبـة المتلقـي بـكاف الخطـاب، فيبقـى قريبـاً منـه، ويكاشـفه بحقيقـة مـا سـيرد في الكتـاب قائـلاً: "وإن مـرّ بـك خـبر أو شـعر يتّضـع عـن قـدر الكتـاب ومـا بنـي عليـه فاعلـم أنّ لذلـك سـببين: أحدهمـا قلـة مـا جـاء في ذلـك المعنـى مـع الحاجـة إليـه، والسـبب الآخـر أن الحسـن إذا وصـل بمثلـه نقـص نوراهمـا ولـم يتبـيّن فاضـل بمفضـول. وإذا وصـل بمـا هـو دونـه أراك نقصـان أحدهمـا مـن الآخـر الرجحـان"[27] .

(25) عيون الأخبار، 1/ 17 .

(26) المصدر نفسه، الموضع ذاته .

(27) المصدر السابق، 1/ 17 .

فابن قتيبة يدرك بحسه النقدي تفاوت المستوى الفني في الأخبار والأشعار في كتابه ويعلل ذلك بالسببين اللذين ذكرهما، لكنه بذكاء يحاول التشكيك بكثرة وجود هذا التفاوت فيضع الأمر في جملة بأسلوب الشرط قاصداً التقليل، ومبيناً أنه يكون في خبر أو شعر، مفرداً ذلك دون أن يجمع للإيهام بالقلة، أي قد يمر ذلك في خبر أو شعر وحسب .

والسبب الأول لهذا التفاوت الفني ناجم عن موسوعية الكتاب، وتمسك مؤلفه بأن يجعله ممثلاً لجوانب الحياة جميعاً. فهو ينقل الخبر والشعر وإن كانا دون قدر الكتاب لتتحقق الفائدة المرجوة من الكتاب، وهي التي ينهي الفقرة بها مشيراً إلى ضرورة أن تتكامل شخصية المتلقي وثقافته بتكامل مادة الكتاب، خشية أن يمر به موقف فلا يجد ما يسعفه لبلوغ مرامه فيه .

ثم رأى ابن قتيبة أن يعلل السبب الآخر بعلة ذوقية خالصة. فالأشياء الجميلة أو الحسنة، إذا ضُم بعضها إلى بعض نقص ما فيها من جمال وحسن، ولم يعد من السهل تبين الأجمل أو الحسن. وكذلك إذا وُصل الحسن بما هو دونه اتضح أن هذا الأخير أكثر نقصاً، وإنما ظهر ذلك فيه لأنه كان موصولاً بما هو أحسن منه بشكل ظاهر، أي لو تُرك وحده فربما كان أقل نقصاً مما بدا، أو لم يتضح لفاحصه أنه يمثل هذا النقص، وبهذا فإن المؤلف يقرر مبدأً نقدياً عاماً في تعليل الجودة والرداءة في الأشياء في حال اجتماعها معاً في سياق واحد .

وبخصوص دفاعه عن تفاوت الأخبار والأشعار في انتظام توزعها على الأبواب والفصول في الكتاب يقول مخاطباً المتلقي أيضاً:" وإن وقفت على باب من أبواب هذا الكتاب لم تره مشبعا فلا تقض علينا بالإغفال حتى تتصفّح الكتب كلها، فإنه ربّ معنى يكون له موضعان وثلاثة مواضع فنقسم ما جاء فيه على مواضعه، كالتلطف في القول يقع في كتاب السلطان ويقع في كتاب الحوائج ويقع في باب البيان"[28] .

فهو إذاً يصر على تكامل كتابه وموازاته للحياة. لذا يرى أن على المتلقي أن يقرأه بهذه الروح أو النظرة، فلا يجعله أبواباً منفصلة أو فصولاً مقطعة؛ لأنه كتاب موصول يصدر عن رؤية شاملة ومتكاملة للحياة وللمتلقي، والدليل الذي ساقه على تنازع الأبواب أو الفصول لموضوع محدد هو الذي يجعل القارئ أو المتلقي منصفاً للكتاب ولصاحبه فلا يقضي عليه بالإغفال قبل أن ينظر فيه كله. وبهذا ينفي المؤلف عن كتابه رذيلة التكرار ببراعة، فقد أبى أن يعيد الخبر ذاته في أبواب الكتاب أو فصوله حيثما اقتضى الأمر ذلك؛ لأن التكرار باعث على الملل، ومخل بنظام الكتاب .

مصادر الكتاب :

تنتظم مصادر كتاب عيون الأخبار –كما يوضحها المؤلف في مقدمته_ في أصلين كبيرين هما: المرويات الشفهية، والمدونات الكتابية، وتحث كل أصل منهما

(28) المصدر السابق، 1/ 18 .

فروع عدة، فالمرويات الشفهية أخذها عن الشيوخ الكبار من العلماء وعن الجلساء والإخوان، وعمن هم أصغر منه سناً وقدراً، فلم يستنكف أن يأخذ مادة كتابه عن الحديث سناً لحداثته، ولا عن الصغير قدراً لخساسته، فأخذ عن الإماء والمشركين وغيرهم محتجّاً لذلك بأن "العلم ضالّة المؤمن من حيث أخذه نفعه"[29].

أما المدونات الكتابية فتمثلت في كتب الأعاجم وسيرهم، وبلاغات الكتاب في فضول من كتبهم، وهؤلاء الأعاجم هم اليونان والهنود والفرس وغيرهم، بذلك يتجلى التنوع في المصادر الذي يحقق انفتاح المؤلف ومن ثم المتلقي على الثقافات المتعددة على ما بينها من تعارض، وما ذلك إلا لأن الكتاب "في آداب ومحاسن أقوام ومقابح أقوام"[30]، فوجب على المؤلف أن يترك لهؤلاء وأولئك أن يعبّروا بأقوالهم وألسنتهم عن أحوالهم دون تبديل أو تغيير؛ لذا فقد حرص على الإشارة الصريحة إلى مصدره قبل كل خبر، فأثبت المصدر المكتوب بذكر عنوانه، كما أثبت سلسلة السند والرواة في الخبر الشفهي .

فابن قتيبة يصدر في تعامله مع المصادر عن نزعة إنسانية عامة تتقبل ثقافة الآخر المغايرة للثقافة الإسلامية السنية، ويدلل على إمكان الانفتاح الاجتماعي على الأمم الأخرى أولاً، وعلى المذاهب المعارضة لمذهبه ثانياً، وذلك في ظل مجتمع باتت تتصارع فيه تلك الثقافات والمذاهب والاتجاهات. ولم يعد أمام المفكر المسؤول إلا أن ينزع إلى الفكر الشمولي من خلال التأليف الموسوعي الذي يمثل تنوع الحياة الواقعية دون انغلاق. فكيف احتج المؤلف لتسويغ ذلك عقلياً ونقلياً في حديثه الموجه إلى المتلقي؟

لقد تمثل برهانه العقلي في أن الحق لا يزري به أن يسمع من المشركين، وأن النصيحة تؤخذ عن المائلين عن الحق، ذلك أن الحسناء لا يضيرها بالي الثياب، واللؤلؤة لا ينتقص من قدرها أنها بنت الصدفة، والذهب أصله من الرغام، فعلى العاقل ألا يضيع الفرصة؛ لأن الفرص تمر مر السحاب .

واحتجاجه النقلي عن ابن عباس أنه قال:" خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه، فإنه قد يقول الحكمة غير الحكيم وتكون الرّمية من غير الرامي"[31] . ولم يتوسع ابن قتيبة في ذلك إلا لإدراكه أن كتابه ليس في علوم الدين والحلال والحرام، فإن تلك العلوم مدار أمرها على العبادة والتقليد الديني الملزم، فلا يجوز أن تُؤخذ إلا عن الحجج الثقات في هذا الباب .

لكن ابن قتيبة كان على يقين من أن علوم الدين لا تكفي لثقافة الإنسان المسلم في عصره، فلابد له من علوم الدنيا، وعلوم الدنيا هذه لابد في تعاطيها من انفتاح عقلي في التعامل مع مادتها ومع مصادرها، وهي على الرغم من

(29) المصدر نفسه، 1/ 18 .

(30) المصدر السابق، الموضع ذاته .

(31) المصدر نفسه، 1/ 18 .

ذلك كله لا تفارق علوم الدين من حيث الهدف، إنما هي تعضدها؛ لأن الطرق غلى الله كثيرة .

وقد جلّى المؤلف في تعامله مع المصادر قضية نقدية على قدر كبير من الأهمية حين قرر مبدأه الشهير في التعامل مع الأشعار فقد قال:" وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين إذا كان متخيّر اللفظ لطيف المعنى لم يزّر به عندنا تأخر قائله كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدّمه فكل قديم حديث في عصره وكل شرف فأوّله خارجيّه"[32] .

هذا المبدأ النقدي يجعل جودة الشعر هي المقياس دون اعتبار للقدم والحداثة، أي دون النظر إلى الشاعر. إنما الشعر في ذاته هو الذي يستحق النظر ليس غير، ولعل ابن قتيبة ينطلق في موقفه هذا من فكرته العامة القائمة على التسوية أو التوفيق، وهو بذلك يتفق مع الجاحظ، إلا أن "ابن قتيبة أبين في التعبير عنه وأكثر إسهاباً"[33] مما يدل على شدة عنايته بمعاصريه أنصفهم شعراء وأفادهم بكتبه متلقين وكتاباً، وربما مثل هذا من جهة ابن قتيبة وعي العالم أو قلق المفكر حيال مجتمعه لإنصافه وتطوير بعض الجوانب فيه[34]، ذلك أنه رأى جهل العامة من الناس الذين يعظمون المتقدم ويغفرون زلته ويبخسون المتأخر ويتجنون عليه، وهذا شأنهم أبداً[35] ،فجاء إنصافه للمتأخرين من الشعراء أو المحدثين منهم، لينصف معاصريه وينبه العامة والكتاب على قيمتهم بمنطق عقلي تمثل بمقولته الشهيرة التي ذكرها هنا وكررها في مقدمة كتاب الشعر والشعراء، فكل قديم حديث في عصره، وكل شرف فأوله خارجيه[36] ، حتى صارت مبدأً نقدياً شهيراً دالاً على فضل صاحبه .

أبواب الكتاب وفهرسته:

جمع ابن قتيبة مادة كتابه كله من وقائع الحياة، مما تناقله الناس وكتبوه، ثم أعمل فكره فيها ليجعل لها نظاماً في كتابه فوجد أن هذه المادة على اختلاف فنونها وكثرة أبوابها تجتمع في عشرة كتب تمثل الحياة برمتها، لكنه حين نظر في كتبه المؤلفة قبل ذلك وجد ان أربعة منها تقع من ضمن هذا الكتاب الموسوعي الجديد، فماذا صنع؟

لقد رأى أن تبقى كتبه الأربعة تلك متميزة على حدة، وهي " كتاب الشراب، وكتاب المعارف، وكتاب الشعر، وكتاب تأويل الرؤيا"[37] ؛ لأنها أخذت صفة الكتب المؤلفة قبل الانتهاء من تأليف كتاب عيون الأخبار .

(32) المصدر السابق، الموضع ذاته . .

(33) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 4، 1982م، ص 107 .

(34) ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية، محمد رمضان الجربي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، طرابلس الغرب، ط 1، 1984م، ص 25، 200 .

(35) عيون الأخبار، 1/ 18 .

(36) المصدر نفسه، الموضع ذاته، وانظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة، د ط، 1958م، 1/ 62 .

(37) عيون الأخبار، 1/ 19 .

فإذا فهم الأمر على هذا الوجه يزول عجب عز الدين إسماعيل الذي قال:" الواقع أنه ليس هناك ما يفسر السبب في عدم إدراج ابن قتيبة الموضوعات الأربعة الأولى في كتاب عيون الأخبار، الذي رأينا أنه يجمع بين موضوعات شتى لا صلة بين بعضها وبعض؛ فقد كان من الممكن أن يستوعب كذلك بحثه عن الشراب وعن المعارف وعن الشعراء وعن تأويل الرؤيا"[38] .

فلو فعل ابن قتيبة ذلك لكرر مادة هذه الكتب الأربعة من جديد في عيون الأخبار، وهي التي ألفت سابقاً واستقلت، وبذا تصير كتبه متداخلة يعتريها خلل في التأليف، لكن الرجل آثر أن يجعل من كتبه جميعاً مشروعاً تأليفياً متكاملاً بحيث يحيل كل كتاب إلى الآخر دون أن يحتويه أو يورد جزءا من مادته، وقد ظهر ذلك جلياً حين ذكر في كتاب النساء قوله"...خلا أخبار عشّاق العرب فإني رأيت كتاب الشعراء أولى بها فلم أودع هذا الكتاب منها إلا شيئاً يسيراً"[39] ، والصلة بين كتابي كل جزء ظاهرة لا تخفى على أحد، وقد بيّنها المؤلف ليقنع المتلقي لذلك .

أما الكتب العشرة التي تألف منها كتاب عيون الأخبار فهي: كتاب السلطان وكتاب الحرب وكتاب السؤدد وكتاب الطبائع والأخلاق وكتاب العلم وكتاب الزهد وكتاب الإخوان وكتاب الحوائج وكتاب الطعام وكتاب النساء .

وقد أفرد لكل كتاب منها فقرة كاملة في المقدمة، عرض فيها للمفردات الواردة في الكتاب بشيء من التفصيل لتشكل عناوين للأبواب أو الفصول، ولتكون فهرسة للكتاب بعامة. وكان في ذلك كله ينظر بعين العطف على متلقيه فقال:" فهذه أبواب الكتب جمعتها لك في صدر أوّلها لأعفيك من كدّ الطلب وتعب التصفّح وطول النظر عند حدوث الحاجة إلى بعض ما أودعتها ولتقصد فيما تريد حين تريد إلى موضعه فتستخرجه بعينه أو ما ينوب عنه ويكفيك منه، فإن هذه الأخبار والأشعار وإن كانت عيونا مختارة أكثر من أن يحاط بها أو يوقف من ورائها أو تنتهي حتى ينتهى عنها"[40] وبهذا تكون المقدمة حاوية للفهرس التفصيلي لهذا الكتاب الموسوعي؛ خدمة للمتلقي وحرصاً على راحته .

أما الكتب العشرة فقد جعلها المؤلف في خمسة أجزاء بأن ربط كل كتاب منها بما يليه على الصعيد المضموني؛ ليبين عن تماسك الكتب وتلاحم الأجزاء ليتم العمل بمجمله، فحين كان يذكر مفردات كل كتاب كان يعرج على صلة الكتاب منها بسابقه. كقوله مثلاً في حديثه عن الكتاب الثاني كتاب الحرب " وهذا الكتاب مشاكل لكتاب السلطان فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً" ، وكذا يكون كتابا السؤدد والطباع والأخلاق جزءاً ثانياً، وكتابا العلم والزهد جزءاً ثالثاً، وكتابا الإخوان والحوائج جزءاً رابعاً وكتابا الطعام والنساء جزءاً

(38) المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، عز الدين إسماعيل، دار المعارف ، القاهرة، ط 2، 1980م، ص 169.

(39) عيون الأخبار، 1/ 20، 21 .

(40) المصدر السابق، 1/ 21 .

خامساً؛ لأن كتاب النساء "مقارب لكتاب الطعام، والعرب تدعو الأكل والنكاح الأطيبين فتقول: قد ذهب منه الأطيبان تريدهما"[41] .

وابتداؤه بكتاب السلطان خاصة يأتي لإيمانه بأن صلاح الدين بصلاح الزمان، وصلاح الزمان بصلاح السلطان، وصلاح السلطان بالإرشاد وحسن التبصير[42] ، وبهذا يعيد القيمة الأساسية في الإصلاح إلى العلماء الذين يرشدون السلطان ويبصرونه بالحق. ولعل هذا الموقف لابن قتيبة يكشف عن نهجه خط السلامة مع السلطان بعامة، فقد آثر دوماً أن يبقى بعيداً عن الصراع مع السلاطين وهو القريب العهد لمحنة أحمد بن حنبل ، والملتزم خط الصمت حيالها والممثل للخط السني المحافظ بوعي يحرص فيه على استمرار الأوضاع في ظل قيادة سياسية دينية ذات هيبة في عصر الشعوبية واختلاط الأفكار والمبادئ، ولعله بذلك كان صاحب موقف إصلاحي معتدل .

وفي ختام مقدمته تسود عباراته هذه الروح المتواضعة الاعتدالية أو التوفيقية حين يسوق القول التالي:" وقد خفّفت وإن كنت أكثرت، واختصرت وإن كنت أطلت، وتوقيت في هذه النوادر والمضاحك ما يتوقّاه من رضي من الغنيمة فيها بالسلامة ومن بعد الشّقة بالإياب، ولم أجد بدّا من مقدار ما أودعته الكتاب منها لتتمّ به الأبواب، ونحن نسأل الله أن يمحو ببعض بعضاً ويغفر بخير شرّاً وبجدّ هزلاً ثم يعود علينا بعد ذلك بفضله ويتغمدنا بعفوه ويعيذنا بعد طول الأمل فيه وحسن الظنّ به والرجاء له من الخيبة والحرمان"[43] .

فهو يعتذر بتلطف مؤثراً السلامة وراجياً أن يكون قد قدم شيئاً متكاملاً وتاماً، مستوحياً فحوى قول امرئ القيس:

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الآفاقِ ، حَتَّى ** رَضِيْتُ مِنَ الغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ[44]

بعد أن أضناه العمل، وأرهقه جمع المادة وتنظيمها، مع خشيته من أن يفهمها المتلقي المتزمت فهماً ينعكس بالسلب على بعض قيمه الدينية. ثم يتحول بعد ذلك إلى الدعاء إلى الله أن يغفر له موجهاً الذكر إلى نعت الله بالأوصاف الدالة على حسن ظنه به. وقد بدا ذلك وظهر في ألفاظ العفو والحمد والمغفرة وحسن الظن والرجاء .

الخاتمة

إن مقدمة عيون الأخبار توافرت على بيان رؤية الكاتب للكتاب، وتوضيح نظريته في الكتابة، فقد سوغت فعل لكتابة وطبيعة تلك الكتابة وأهدافها العملية، بأسلوب سجالي واجه به المؤلف المتلقي وحاصره فيه وطلب إذعانه لكل ما في المحتوى، هذا المحتوى الذي خلا ظاهرياً من المؤلف والمتلقي معاً بالانحياز التام إلى النقل والرواية باعتماد التوثيق والإسناد .

(41) المصدر نفسه، 1/ 20 .

(42) المصدر نفسه، 1/ 14 .

(43) المصدر السابق، 1/ 21 .

(44) شرح ديوان امرئ القيس، حسن المسندوبي، المكتبة الثقافية، بيروت، ط 7، 1982م، ص 64 .

وكان البارز الظاهر للمتلقي في مقدمة الكتاب سبباً رئيساً في صبغ الكتاب بصبغته الذي ظهر عليها؛ لذا فقد حفلت المقدمة بعرض الآراء الفكرية والنقدية للمؤلف بشهود المتلقي ومشاركته، ليختفيا ظاهرياً معاً في متن الكتاب على الرغم من حضورهما المبطن فيه .

إن هذا الحضور يجعل ابن قتيبة أكثر وعياً بالعالم الخارجي، وأكثر هجوماً عليه؛ لذلك سمح لهذا العالم بأن يؤثِّر فيه ذاته بفاعلية كبيرة حتى غدت الكتابة كلها من أجله، أي من أجل المتلقي، وقد جاءت مواقف المؤلف معبرة عن صدى ذلك التأثير والتأثر، ومجسدة بوضوح بروز ذلك الحضور.

وعلى ذلك فإن ابن قتيبة كاتب وناقد يمثل عصراً ومرحلة، ويمثل المفكر الشمولي النفعي في طرح نظريته في الكتابة. وظهور المتلقي في أعماله بعامة بيان لطبيعة تأليف ذلك العصر وتلك المرحلة. ومن ثم كشف العلاقة القائمة بين المثقف أو المفكر وواقعه الذي يعيش فيه .

المصادر والمراجع

1. البصائر والدخائر، أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط 1، 1984م.
2. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 4، 1982م.
3. تفسير سورة الإخلاص، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، راجع النصوص وخرّج الأحاديث: عبد العلي عبد الحميد حامد، الدار السلفية- بومباي، ط 1، 1986م.
4. خطاب المقدمات في شروح مخطوطة : لما أبدعه الحريري من مقامات، بوجمعة جمي، مقال منشور في مجلة جذور التراث، النادي الثقافي بجدة، عدد 1، فبراير 1999م.
5. دراسات في اللغة واللهجات والأساليب العربية، يوهان فلك، ترجمة: رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي – القاهرة، د ط، 1980م.
6. شرح ديوان امرئ القيس، حسن المسندوبي، المكتبة الثقافية، بيروت، ط 7، 1982م.
7. الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة، د ط، 1958م.
8. عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، ضبطه ووثق نصوصه وعلق عليه: الداني بن منير آل زهوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 1، 2003م.
9. ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، عبد الحميد سند الجندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د ط، 1962م.
10. ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية، محمد رمضان الجربي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، طرابلس الغرب، ط 1، 1984م.
11. ابن قتيبة نوابغ الفكر العربي، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، د ت.
12. قراءة في خطاب المقدمات واستراتيجية التقديم، محمد خرماش، مقال منشور في مجلة أفكار، عمان، عدد: 138، ديسمبر 1999م.
13. قراءة في مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام، سليمان الشطي، بحث منشور في مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد 1، مجلد 18، سنة 1987م.
14. المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، عز الدين إسماعيل، دار المعارف ، القاهرة، ط 2، 1980م.
15. مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، القاهرة، ط 5، 1978م.

علاقة البنية الإيقاعية بالصورة في شعر علي الرقيعي قصيدة (في بلادي) أنموذجًا

إعداد:
أ. حليمة محمد مختار عبد القادر
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية – جامعة إجدابيا

الاستلام : 13/ 1/ 2023 القبول : 15/ 2/ 2023

المستخلص:

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

يتناول هذا البحث البنية الإيقاعية، ودور عناصرها في تشكيل الصورة الشعرية التي تمثل الواقع المعيش عند الشاعر (علي الرقيعي)، بواسطة نموذج شعري يتمثل في قصيدة (في بلادي) وهو نص تتكاثف فيه عدة عناصر إيقاعية خارجية وداخلية، اعتمد عليها الشاعر بوضوح ليبين للقارئ صورة واضحة لبلاده في فترة زمنية عاشها بكل تفاصيلها الحزينة والمؤلمة. وقد اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي في المبحث الأول، عن طريق عرضٍ لمفاهيم مصطلحاتٍ خاصةٍ بالدراسة، وفي المبحث الثاني، الذي يدرس النص النموذج دراسةً تحليليةً لعناصر البنية الإيقاعية، استخدمت المنهج التحليلي لبيان تلك العلاقة.

الكلمات المفتاحية: إيقاع – التوازي – التفعيلة – التكرار.

Abstract

This research with the rhythmic structure and role of its elements in shaping the poetic image that represents the living reality of the poet (Ali Al-Raqee) through a poetic model represented in the poem (In my country).A clear picture of his country duringAperiod of time he lived, all its sad and painful details.

The study relied on the descriptive approach in the first section through a presentation of the concepts of terms specific to the study and in the second section which studies the model text an analytical studyof the elements of the rhythmic structure the analytical approach was used to demonstrate that relationship.

مـــدخـــل:

يُعـد موضـوع البنيـة الإيقاعيـة مـن الموضوعـات المهمـة في دراسـة الشـعر العربـي، التـي تُظهـر عنـاصر الإبـداع الفنـي عنـد الشـاعر، فضـلًا عـن امتلاكـه لأدوات الشـعر المتمثلـة في ضبـط الـوزن والقافيـة، وتوظيـف عنـاصر الإيقـاع الخارجـي والداخـلي في إبـراز الصـورة الشـعرية، وهـي مـن وسـائل إيضـاح المعنـى، التـي يحـاول الشـاعر بواسـطتها نقـل مشـاعره وعواطفـه ومـا يختلـج في نفسـه إلى القـارئ أو المتلقـي.

تأتـي أهميـة العلاقـة بـين الإيقـاع والصـورة مـن حيـث أن "العنـاصر التـي ينظـم بهـا الشـاعر إيقـاع قصيدتـه سـوف تنهـض هـي نفسـها بوظيفـةٍ أخـرى، فتكـون مـادةً طيّعـةً لبنـاء الصـورة أيضًـا"[1].

ويعـد الشـاعر الليبـي (عـلي الرقيعـي) مـن أوائـل الشـعراء الذيـن جمعـوا في تشـكيل قصائدهـم بـين العمـودي والتفعيلـة، كمـا أن تجربتـه الشـعرية في ديوانـه (الحنـين الظامـئ) تعـد مـن أجمـل القصائـد الليبيـة التـي حملـت العديـد مـن الموضوعـات والأغـراض المختلفـة، ومـن بينهـا قصيـدة (في بـلادي) موضـوع هـذه الدراسـة.

المبحث الأول: مفاهيم في البنية والإيقاع والصورة

البنيـة في اللغـة هـي "الهيئـة التـي بُنـي عليهـا"[2]، وأطلقهـا النقـاد قديمًـا عـلى "بنـاء الشـعر وطريقـة تركيبـه"[3]، كمـا ارتبـط مفهـوم الإيقـاع في اللغـة بمفاهيـم عديـدةٍ منهـا "وقـع واصطـدم ورتـب وبنـى"[4]، فتشـمل (البنيـة الإيقاعيـة) بذلـك كل العنـاصر التركيبيـة الموسـيقية في بنـاء النـص الشـعري، و"يدخـل في تكويـن هـذه الموسـيقى كل مـا في النـص مـن محتـوًى منصهـرٍ داخلـه"[5]، هـذا البنـاء الموسـيقي بعنـاصره المختلفـة التـي تبـدأ بإيقـاع الحـرف وما يكـون عليـه من (مـدٍّ أو شـدٍّ وهمسٍ أو جهـرٍ وتكـرارٍ)، إلى إيقـاع المفـردة، وصـولًا إلى إيقـاع الجملـة والتدويـر والقافيـة، تُسـهم بصـورةٍ كبـيرةٍ في إظهـار التناغـم الإيقاعـيّ للبيـت، ثـم للنـص الشـعري برمتـه.

وتعـرّف الصـورة في المعاجـم بأنهـا (الشـكل) و"تصـوّرت الـشيء: توهّمـت صورتـه فتصـوّر لي. تـرد الصـورة في كلام العـرب عـلى ظاهرهـا، وعـلى معنـى حقيقـة الـشيء وهيئتـه، وعـلى معنـى صفتـه، يقـال: صـورة الفعل كـذا وكـذا أي هيئتـه، وصـورة الأمر كـذا وكـذا أي صفتـه"[6]، وهـي بذلـك تتفـق مـع مفهـوم (البنيـة) اللغـوي في (هيئـة الـشيء أو شـكله)، ولأن الشـاعر يعـبر بقصيدتـه عـن تجربـةٍ شـعوريةٍ وهـي (أصـل الإبـداع الشـعري)،"فإن الوسـيلة الفنيـة الجوهريـة لنقـل التجربـة هـي الصـورة، فمـا

(1) البنيـة الإيقاعيـة في شـعر البحـتري. عمـر خليفـة بـن إدريـس. منشـورات جامعـة قاريونـس. بنغـازي - ليبيـا. ط1. 2003ف. ص502.

(2) لسان العرب. ابن منظور. دار الحديث. القاهرة - مصر. (د.ط) 2003ف. مادة (ب ن ى).

(3) البنية الإيقاعية في شعر البحتري. ص20.

(4) لسان العرب، مادة (و ق ع).

(5) البنية الإيقاعية في شعر البحتري. ص41.

(6) لسان العرب، مادة (ص ور).

التجربة الشعرية كلها إلا صورةٌ كبيرةٌ ذات أجزاء هي بدورها صورٌ جزئيةٌ"[7].

وهي بذلك تعد "الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياقٍ بيانيٍّ خاصٍّ؛ ليعبر عن جانبٍ من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة"[8].

تختلف رؤية عددٍ من النقاد لمفهوم الصورة ووظيفتها، فهي بين أداة النقل والإيحاء للتعبير المرفوض، وبين من جعلها وسيلةً لإيضاح المعنى، وأعطى بعضهم للخيال حقه ووظيفته في صنع الصورة الشعرية، وهو "الوزن الشعري للحقيقة المرسلة، وتخيل الشاعر إنما هو إلقاء النور في طبيعة المعنى ليشف به، فهو بهذا يرفع الطبيعة درجةً إنسانيةً"[9].

ولأن مفهوم الشعر هو الكلام الموزون المقفى، فالإيقاع فيه ينقسم إلى نوعين:

الإيقاع الخارجي: ويضم الوزن والرويّ والقافية.

ويعد (الوزن العروضي) من أهم مكونات الإيقاع الخارجي للنص الشعري، فهو "مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت"[10]، وهو الذي يُقام عليه بناء القصيدة، أما الرويّ فهو الحرف الذي تبنى عليه قافية القصيدة، وهو أساسيٌّ في القصيدة العمودية، والقافية هي الوقفة الموسيقية في نهاية كل بيتٍ أو سطرٍ شعريٍّ، وقد أولاها (ابن رشيق) أهميةً كبرى حين أشركها مع الوزن في "الاختصاص بالشعر ولا يُسمى شعرًا حتى يكون له وزنٌ وقافيةٌ"[11]، وهي ركنٌ مهمٌّ في "موسيقية الشعر الحر لأنها تحدث رنينًا وتثير في النفس أنغامًا وأصداء، وهي فوق ذلك فاصلةٌ قويةٌ واضحةٌ بين الشطر والشطر"[12]، ولابد أن نفرق بين الوزن والإيقاع، فقد شاع الخلط بينهما كثيرًا حتى ظُنّ أنهما مترادفان، فالوزن يعني كمّ التفاعيل داخل البيت، أمّا الإيقاع فهو ناتجٌ عن تكرار تلك التفاعيل وترديدها بطريقةٍ منتظمةٍ، و"تبرز أهمية الإيقاع وفضله على الوزن في أنه لا يعتمد النغم من أجل الإطراب؛ بل يتجاوز ذلك إلى التأثير النفسيّ لما يُثيره من انفعالاتٍ مباشرةٍ وغير مباشرةٍ"[13].

الإيقاع الداخلي: ويضم العديد من العناصر التي تشكل في مجموعها الموسيقى الداخلية للنص الشعري، منها (التوازي- التضاد- التكرار- التنغيم- النبر- الشد- المد - التنوين)، والتي تسهم بصورةٍ كبيرةٍ في إظهار التناغم الإيقاعي للبيت، ثم للنص الشعري كلّه.

(7) الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر. عدنان قاسم. المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع. ليبيا. ط1. 1980ف. ص245.

(8) البنية الإيقاعية في شعر البحتري.ص440.

(9) الأصول التراثية في نقد الشعر العربي. ص250.

(10) النقد الأدبي الحديث. محمد غنيمي هلال. دار نهضة مصر للطباعة والنشر. الفجالة - مصر.(د.ت.ط) ص436.

(11) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ابن رشيق القيرواني. تقديم: صلاح الدين هواري. هدى عودة. دار ومكتبة الهلال بيروت. لبنان. ط1. 1996ف. جـــــ1. ص261.

(12) نازك الملائكة. قضايا الشعر المعاصر. منشورات مكتبة النهضة. ط3. 1967ف. ص165.

(13) البنية الإيقاعية خرقا دلاليا في القصيدة الرومانسية الحديثة (إيقاع متفاعلن مصداقا). يونس عباس حسين. مجلة كلية التربية الأساسية. العدد (50). 2007ف. ص4.

يعرّف (التوازي) اصطلاحًا بأنّه "تماثل أو تعادل المباني أو المعاني في سطورٍ متطابقة الكلمات والعبارات"[14]، وهو يلعب دورًا مهمًّا في البنية الإيقاعية، عن طريق(التماثل التركيبي والتوازي بالتطابق والتوازي المعجمي) بين المفردات، وهو ما يسهم في إبراز الحالة النفسية للشاعر.

يأتي (التكرار) في اللغة بمعنى الإعادة والرجوع[15]، وهو اصطلاحًا" الإتيان بعناصر متماثلةٍ في مواضع مختلفةٍ من العمل الفني"[16]، ويعد بذلك من "وسائل إقناع السامع أو القارئ وشدّ انتباهه وصدم خياله بإبراز الشكل أكثر حدّةً وأكثر غرابةً"[17].

أما (الشد والمد والتنوين) فهي تعتمد في إظهارها على عنصر (التنغيم)، وهو" ارتفاع الصوت وانخفاضه في الكلام"[18].

كلما ازداد استعمال الشاعر لهذه العناصر، ارتفع الجرس الموسيقي في أثناء قراءة النص الشعريّ، وزاد من وضوح الصورة التي يسعى الشاعر إلى نقلها للقارئ، كما تكون علامةً واضحةً على إحساس الشاعر ومشاعره المكبوتة التي يحاول استخراجها بواسطة نصه الشعريّ.

ستُظهر الدراسة بعضًا من تلك العناصر، وهي (التوازي- التكرار- الشدّ- المدّ - التنوين)، وأثرها في إبراز الصورة الشعرية.

إن الإيقاع والصورة هما "سمتان مميزتان للشعر، وأن الكيفية التي يبني بها الشاعر المعمارية الموسيقية، هي التي تكشف عن الانفعال أو الافتعال في بناء الصورة"[19]، وهي بذلك -أي الصورة- "خلاصة تجربةٍ ذهنيةٍ غير مجردةٍ يخلقها إحساس الشاعر لتلك التجربة، وقدرة خياله على تحويلها من كونها ذهنيةً غير مجردةٍ إلى رسمها صورةً بارزةً للعيان يتذوقها متلقوها"[20]، فاستخدام الشاعر لعدد من العناصر الإيقاعية وقدرته على استغلالها في إبراز الصورة الشعرية، يعد من وسائل التعبير الفني، التي تضع تجربته الشعرية في قالب فني يسمى (القصيدة).

(14) الإيقاع في شعر سميح القاسم. دراسة أسلوبية. صالح علي صقر. رسالة ماجستير. قسم اللغة العربية. جامعة الأزهر.غزة.2012ف. ص73.

(15) ينظر: لسان العرب، مادة (ك ر ر).

(16) معجم مصطلحات الأدب. مجدي وهبة. مكتبة لبنان. لبنان. (د.ط) 1974ف. ص473.

(17) فضاء النص بين إيقاع الشعر وإيقاع العصر. أمل نصير. مطبعة السفير. الأردن. (د.ط) 2014ف. ص23.

(18) موسيقى الشعر العربي (التشكيل والتجديد). نبوية توفيق الخولاني. دار الزهراء. مصر. (د.ط) 2000ف. ص177.

(19) البنية الإيقاعية في شعر البحتري. ص438.

(20) الصورة الشعرية من التشكيل الجمالي إلى جماليات التخييل. ابتسام دهينة. مجلة كلية الآداب واللغات. جامعة محمد خيضر. الجزائر. عدد (11-10) 2012ف. ص240.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية

الإيقاع الخارجي.

اعتمد (الرقيعي) في نصه الشعري السابق وزن (الرمل) ذا التفعيلة الواحدة (فاعلاتن)، وقد استعمل التفعيلة تامّةً (مائةً وثلاث) مراتٍ، و(اثنتين وأربعين) مرةً مخبونةً (///0/0)، و(أربع) مراتٍ محذوفةً (//0/0)، و(ثلاث) مراتٍ مقصورةً (//0/00)، ومرةً واحدةً مخبونةً محذوفةً (///0)، فبلغت النسبة الأكبر للتفعيلة التامّة (سبعةً وستين) بالمائة، أي أكثر من نصف عدد التفعيلات المستخدمة في النص وهي (ثلاثٌ وخمسون ومائة) تفعيلةٍ، أما (المخبونة) فبلغت (سبعًا وعشرين) بالمائة، وقد أدى هذا التنوع في إيقاع تفعيلة الرمل بين (التامّة والمخبونة) إلى كسر رتابة النغم في النص، وتوظيف ذلك الإيقاع بين (//0/0/0) و(///0/0) لخلق جوٍّ شعريٍّ ونفسيٍّ، يدل على عمق التجربة والمشاعر المضطربة التي حاول الشاعر نقلها للمتلقي، كما ارتبطت التفعيلة (المخبونة) بحركة الأفعال والحوادث ما أفضى إلى تشكيل الصورة الشعرية، ولعل الشاعر لم يكن مضطرًا إلى كثرة الزحافات أو العلل، فالإيقاع في هذا الوزن "متصل النغمات، ينساب في تؤدة واتساقٍ، ويبعث النشوة والتطريب لموافقته لطبيعة الغناء"[21].

تنقّل الشاعر في أسطره الشعرية بين عدد من القوافي هي (الألف والياء والتاء المربوطة والهمزة المسبوقة بمد والراء)، وهو انتقالٌ نغميٌّ موسيقيٌّ أسهم في تنوع الإيقاع داخل النص الشعري، منها قول الشاعر:

"أنا مازلت أغنّيك ولكن في بلادي
في تعاريج المدينة
يبصق البؤس الضراعات الحزينة
في حنايا أنفسٍ لهثى صوادي
تأكل الجوع.. وتستاف العفونة
في سراديب الدروب
أنا مازلت على عهدي وفيًّا يا حبيبي"[22].

الإيقاع الداخلي.

التوازي: يلعب هذا العنصر دورًا مهمًّا في البنية الإيقاعية، ويزيد من وضوح الصورة داخل القصيدة، وفي النص السابق اتكأ الشاعر على هذا العنصر في بنائه لنصه، فنجد إيقاع التوازي بالتماثل التركيبي بين (بلادي –صوادي) و(الهزيلة- الطويلة)و(الإباء –الوباء) و(ساغب-شاحب) و(العطايا-الهدايا)، والتوازي بالتطابق بين (أنفسٌ لهثى صوادٍ – الأنفس اللهثى الصوادي)، فقد جاءت العبارة الأولى بصيغة التنكير منسجمةً مع العبارة السابقة لها (يبصق البؤس الضراعات الحزينة)، حين خيّم الحزن والبؤس على تلك الأنفس العطشى المتعبة من الجوع،

(21) البنية الإيقاعية في شعر البحتري. ص92.

(22) ديوان الحنين الظامئ. علي الرقيعي. منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع. ط1. 1979ف. ص157.

وكـرر العبـارة نفسـها معرفـةً، حيـث فتحـت الجـراح المؤلمـة، وكذلـك التـوازي المعجمـي في (جرحًـا – جرحنـا)، والتـوازي باقتضـاء السـياق (المدينـة- الحزينـة).

التكـرار: وازن (الرقيعـي) في نصـه بـين تكـرار العبـارة والتكثيـف الصوتـي داخـل العبـارة وتكـرار الكلمـة، لأن إيقـاع التكـرار يعـد مـن الأدوات المهمـة التـي يسـتعملها الشـاعر للكشـف عـن مشـاعره، والتعبـير عـن مكامـن نفسـه والبـوح بهـا، وبعمليـةٍ إحصائيـةٍ اتضـح للباحثـة أن حـروف المـد كانـت أكثـر اسـتعمالًا، إذ يأتـي دورهـا في "إضفـاء مسـحةٍ مـن الحـزن والأسى، أو لـونٍ مـن الاعتـزاز عـلى النـص الشـعري"[23]، فجـاءت في النـص عـلى النحـو الآتـي: حـرف المـد بالألـف (أربـعٌ وسـبعون) مـرةً، المـد بالـواو (ثـلاثٌ وثلاثـون) مـرةً، ثـم المـد بالياء (خمـس عـشْرة) مـرةً، وتلعـب هـذه الحـروف "دورًا إيقاعيًّـا أهم-ربّمـا- مـن الزحافـات، وتأتـي هـذه الناحيـة في الأهميـة مـن حيـث امتدادهـا الزمنـي الـذي يعـد أطـول مـن امتـداد الحـروف، حيـث إن حـرف المـد يسـاوي مـن حيـث الكميـة حركـةً متلـوّةً بسـكونٍ، وهـذا الامتـداد قـد يبطـئ حركـة الإيقـاع أو يسرّعهـا"[24]، مـن ذلـك قـول (الرقيعـي):

"في بلادي
يتقبّلن العطايا
والهدايا
في زرايات نُسميها (اشتغالا)
والبغايا
في بلادي
بائساتٌ من طريدات البشر"[25].

وأيـا كان نـوع المـد الـذي اسـتعمله الشـاعر فهـو يشـكل إيقاعًـا وموسـيقى داخليـةً في سـياق النـص الشـعري، وفي هـذه العبـارة (أنـا مازلـت أغنيـك ولكـن في بـلادي) يكثّـف الشـاعر صـوت النـون الـذي يتصـف بالوضـوح في السـمع، ثـم الـلام في الكلمـات (مازلت-لكن-بـلادي)، ثـم النـون المضعّفـة في (أغنيـك)، هـذا التكـرار الصوتـي يوضّـح الصـورة ويعمّـق المعنـى عنـد المتلقـي، كذلـك في قولـه (تـأكل الجـوع.. وتسـتاف العفونـة) فصـوت التـاء المهمـوس الانفجـاري عـبّر عـن مـدى المعانـاة التـي تعيشـها تلـك الأنفـس، فهـي (تسـتاف) أي تسـفّ العفونـة سـفًّا، وكـرّر التـاء للاسـتمرارية.

ويأتـي (الشـدّ والتضعيـف) في سـياق النـص بصـورةٍ أقلّ مـن المـد في المفـردات التالية (سـكّن –تصبّاني–أغنّيـك –وفيّـا –الضّراعـات –أنّ – بغصّـات) متناغمًـا ومناسـبًا مـع المعنـى، وموضحًـا الصـورة الشـعرية أكثر.

كمـا يُحـدِث (التنويـن) نغمـةً موسـيقيةً ويؤثـر في إيقـاع المفـردة التـي تليهـا، ففـي قولـه (يـا حبيبـي سـكن الآن)،جـاء التضعيـف في أسـلوبٍ إنشـائيٍّ (الأمـر) وقـد حـدد

(23) دراسات في الأدب الجاهلي. عبد العزيز نبوي. مؤسسة المختار للنشر والتوزيع. القاهرة. مصر. ط2. 2003ف.ص275.

(24) موسيقى الشعر العربي.ص102-101.

(25) الديوان.ص160.

الوقت بـــ(الآن)، ثـم يذكـر لـه السـبب في هـذا التوقـف فقد(تصبّانـي) حـزن الأيامـى واليتامـى في بـلادي، وفي (أنـكأت جرحًـا) هـذه النـون المنطوقـة في نهايـة (جرحًـا) تحمل دلالـة عمـق الجـرح (عزيـز الكبريـاء)، ثـم إن هـذا الجـرح مـليءٌ (بغصّـات) الإبـاء.

كمـا يُلاحـظ تكـرار الشـاعر لعـدد مـن الألفـاظ، منهـا (الحزانـى) ثـلاث مـراتٍ في أول القصيـدة ومنتصفهـا، و(ضراعـات) أربـع مـراتٍ (الضراعـات الحزينـة- في ضراعـاتٍ وأنّـاتٍ حزانـى- ضراعـاتٌ حزينةٌ-الضراعـات الحزينـة) فيقرنهـا في كل مـرةٍ بالحـزن، حيـث يبـدو المشـهد حزينًـا وبائسًـا في أغلـب سـطور القصيـدة، ويمكـن رصـد ذلـك الحـزن في عـددٍ مـن الكلمـات المرتبطـة بالحـزن (أسى نـوح الحزانى-الأيامـى-اليتامى-الجرح-آلام-آهات-أوجاع-شجاني-شقيًّا-بائسـات-البرد-الفقر-نزْع-الجوع-سـعال الشـاحب)،كما كـرّر لفظـة (الجـوع) أربـع مـراتٍ.

وبالرجـوع إلى الأزمنـة المسـتعملة في القصيـدة سـتجد أن الشـاعر اتـكأ في وصفـه للمشـهد عـلى الزمـن المضـارع أكثـر مـن الزمـن المـاضي؛ لأنـه يصـور واقعًـا مريـرًا يعايشـه فيحـاول ربـط المـاضي بالحـاضر، ليرسـم لنـا صـورةً حقيقيـةً، فقـد كان عـدد الأفعـال المسـتعملة في القصيـدة إجمـالًا (ثلاثـةٌ وخمسـون) فعـلًا مقسـمةً كالآتـي:

الزمن الماضي: سبعةٌ وثلاثون بالمائة.

الزمن المضارع: ستون بالمائة.

فعل الأمر: ثلاثةٌ بالمائة.

ممـا يـدل عـلى حضـورٍ واضـحٍ للجمـل الخبريـة المتمثلـة في الأفعـال والضمائـر، فقـد كـرّر (الرقيعـي) ضمـير المتكلـم (أنـا) ثـلاث مـراتٍ بصيـغٍ ومعـانٍ مختلفـةٍ، مؤكـدًا (لحبيبـه) أنـه مـازال وفيًـا لـه، وهـي:

أنا مازلت أغنّيك ولكن في بلادي.

أنا مازلت على عهدي وفيًّا يا حبيبي.

أنا مازلت سأتلوك سطورًا من شجوني.

ولأن الشـاعر يتحـدث عـن معانـاة شـعبه، فقـد سـيطرت الجمـل الإخباريـة عـلى نصـه الشـعري،لأن"الترابط الصوتـيّ والنحْـويّ والـدلاليّ بـين وحـدات الجملـة ومكوناتها وبـين الجملـة والجملـة هـو الـذي يمنـح الجملـة عطاءهـا الإيقاعـيّ الـذي لـن تكـون فيـه تكـرارًا لغيرهـا"[26].

لـم يعتمـد الشـاعر كثـيرًا عـلى الجمـل الإنشـائية فهـي قليلـةٌ في نصـه، مـع أنهـا تُشـكّل "في صياغتهـا حضـورًا إيقاعيًّـا وأسـلوبيًّا، يُعـبّر بوضـوح شـديدٍ عـن ضروبٍ مـن انفعـالات النفـس وأحوالهـا"[27]، ممـا يسـهم في إبـراز الصـورة الشـعرية للمتلقـي.

بـدأ قصيدتـه بأسـلوب النـداء (يـا حبيبـي)، وعـاد ليكـرره بعـد عـشرة أسـطرٍ في نهايـة السـطر الشـعري ليجـدد العهـد، وكذلـك كـرر عبـارة (في بـلادي) ثمانـي مـراتٍ للتأكيـد، وكانـت صيغـة (الأمـر) في الفعـل (سـكّن)، وأسـلوب النهـي في (لا

(26) البنية الإيقاعية في شعر البحتري.ص249.

(27) المرجع السابق. ص257.

تلمني)،وأسلوب الاستفهام في (أفأشدو مفعم البِشر وآلاف الحزانى – أفأشدو مفعم البِشر وأفواج الصبايا)، فالاستفهام هنا استنكاريٌّ، فكيف له الفرح والشدو والحزن منتشرٌ حوله.

وفي وصفه للمشهد الحزين من حوله يقول (الرقيعي):

"يبصق البؤس الضراعات الحزينة
في حنايا أنفسٍ لهثى صوادي
تأكل الجوع..وتستاف العفونة"[28].

وفي مشهدٍ آخر أشدّ بؤسًا يقول:

"إذ شجاني
في بلادي
ساغبٌ يمضغ آلام اللّيالي
في ضراعاتٍ وأنّاتٍ حزانى.. في ابتهالٍ
يمضغ الجوع.. وآلاف البراغيث الهزيلة
في لياليه الطويلة
والذباب
ما تني شرهاء تمتص دماه
والوباء
وسعال الشاحب المسلول في نزعٍ مرير
وشفوق الكوخ، والبرد وأوجاع الحصير"[29].

حيث يصف (الرقيعي)المشهد المأساويّ لما يعيشه أفراد مجتمعه في تلك الفترة، وما يراه على وجوههم من بؤسٍ وحزنٍ حدّ التشبّع، حتى بصق البؤس في حنايا تلك (الأنفس اللّهثى) التي لم تجد سوى الجوع والعفونة تأكلهما لتسدّ جوعها، ولم يضطر الشاعر للتفعيلة المخبونة إلا قليلًا، فأدّت (فاعلاتن) التامّة دورها الإيقاعيّ في وصف تلك الصورة، وقوله (ساغبٌ يمضغ آلام اللّيالي) فالمواطن في بلده ليس جائعًا فقط؛ بل مصابٌ بالإعياء لشدة جوعه، يمضغ الجوع والآلام، وحوله آلاف البراغيث (الهزيلة) و(الذباب) الشره يمتص دمه، إذ ينتشر (الوباء)، وهو يعيش في (كوخ) ويفترش الحصير، فعلاقة الشاعر بتجربته الشعرية "لا يُكيّفها واقع الحدث، وإنّما تُكيّفها رؤيته لواقع هذا الحدث، واقتداره على صياغته بوسائل شعرية تكثّفه، وتؤمن جودة التوصل معه"[30].

وفي مشهدٍ آخر يقول (الرقيعي):

"في بلادي
بائساتٌ من طريدات البشر

(28) الديوان.ص157.

(29) الديوان.ص158.

(30) البنية الإيقاعية في شعر البحتري. ص414.

ضمّهنّ الجوع والفقر لساعات الضجر
ضمّهنّ الكبت والظلم المرير
فتهافتن زُمرْ"[31].

فهو كلما جال بعينيه في الطريق وجد (الأخت البغيّ)، فوصفها بالأخت لأنّه حزين لما آل إليه حالها، فالفتيات في بلاده (بائساتٌ) وخائفاتٌ من ذئاب البشر، وقد ضمهن الجوع والفقر والظلم حيث لا يوجد حضنٌ حانٍ، ما أدى بهن إلى بيع أجسادهن (بمساحيق وأصباغٍ أخر في دهاليز الرذيلة) وهو ما ختم به الشاعر قصيدته ليكتمل المشهد وتكتمل الصورة أمام القارئ.

الخاتمة :

تتعدد العناصر الإيقاعية في بنية النص الشعري، وتتضافر في تكوين الصورة الشعرية، لتشكل معًا لوحةً فنيةً شعريةً تصوّر للقارئ عوالم خفيةً في ذهن الشاعر، وتنقل له روحه النابضة بالحياة، وقد اتضح لنا عن طريق هذه الدراسة أثر عناصر البناء الإيقاعي وتأثيرها في إبراز الصورة داخل النص الشعري، فكان لبعض العناصر وظيفةٌ إيقاعيةٌ واضحةٌ في إثراء المعنى، وعلاقةٌ وطيدةٌ مع الصورة الشعرية، فقد استطاع (علي الرقيعي) توظيفَ ما يمتلكه من إمكاناتٍ لغويةٍ ومفرداتٍ ثريةٍ وتكثيفٍ للأصوات داخل المفردة والعبارة، واستغلالَها في نقل واقعٍ حقيقيٍّ ومريرٍ، وإنِ اكتنفه بعض الخيال، إلا أن الشاعر وُفّق في ذلك التوظيف، وأرّخ لحقبةٍ زمنيةٍ لم نكن لنعلمها أو نحس بها، لولا إبداعه في نقلها وتصويرها بأسلوبٍ ينم عن مقدرةٍ لغويةٍ رائعةٍ.

(31)الديوان.ص160.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

الدواوين:

الحنين الظامئ، علي الرقيعي، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط1، 1979ف.

الكتب:

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تقديم: صلاح الدين هواري، هدى عودة، دار ومكتبة الهلال بيروت، لبنان، ط1، 1996، جـ1.

المعاجم:

لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة – مصر، (د.ط) 2003ف.

معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، لبنان، (د.ط) 1974ف.

ثانيا: المراجع

الكتب:

الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر، عدنان قاسم. المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع. ليبيا، ط1. 1980ف.

البنية الإيقاعية في شعر البحتري، عمر خليفة بن إدريس، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ط1. 2003ف.

دراسات في الأدب الجاهلي. عبد العزيز نبوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر. ط2. 2003ف.

فضاء النص بين إيقاع الشعر وإيقاع العصر. أمل نصير. مطبعة السفير. الأردن. (د.ط) 2014ف.

قضايا الشعر المعاصر. نازك الملائكة. منشورات مكتبة النهضة. ط3. 1967ف.

موسيقى الشعر العربي (التشكيل والتجديد)، نبوية توفيق الخولاني، دار الزهراء، القاهرة – مصر. (د.ط) 2000ف.

النقد الأدبي الحديث. محمد غنيمي هلال دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة – مصر، (د.ت.ط).

الرسائل الجامعية:

الإيقاع في شعر سميح القاسم. دراسة أسلوبية. صالح علي صقر. رسالة ماجستير. قسم اللغة العربية. جامعة الأزهر.غزة.2012 ف.

الدوريات:

البنية الإيقاعية خرقا دلاليا في القصيدة الرومانسية الحديثة (إيقاع متفاعلن مصداقا). يونس عباس حسين. مجلة كلية التربية الأساسية. العدد (50). 2007ف.

الصورة الشعرية من التشكيل الجمالي إلى جماليات التخييل، ابتسام دهينة. مجلة كلية الآداب واللغات. جامعة محمد خيضر، الجزائر، العدد (11-10)2012ف.

دور الصُّورة في تحقيق الوحـدة الفنيَّة بين نقائض جرير والفرزدق

أ ـ زهرة خليفـــة عبـدالسلام خليفـــة
محاضر/قسم اللغة العربية/ كليـة الآداب /جامعة إجدابيـــا

الاستلام : 1/ 1/ 2023 القبول : 14/ 2/ 2023

المستخلص:

تهـدف دراســة الصــورة الفنيَّــة إلى تبيــان القيمــة الجماليَّــة والإبداعيَّــة في الأعمــال الأدبيــة، حيــث منحــت المناهــج النقديــة المختلفــة الصــورة مكانــة خاصــة في دراســة الإبــداع الشــعري، لكونهــا بنيــة أساســية في البنــاء الفنــي للنــص الشــعري، ومعيــارًا للمَلَكَــة الإبداعيَّــة التــي يتمتَّــع بهــا المبــدع، ووســيلته للتأثــير في المتلقــي، فهــي ترجمــان الوجــدان فتجسِّــد وتنقــل العواطــف والانفعــالات الكامنــة في أعمــاق المبــدع إلى العالــم المحســوس نقــلاً فنيًّــا مؤثــرًا، ويســعى هــذا البحــث إلى بيــان دور الصــورة في تحقيــق الوحــدة الفنيَّــة بــين نقائــض جريــر والفــرزدق، حيــث كان لتكــرار الصــورة وإعــادة تشــكيلها أثــر في الربــط بــين هــذه النقائــض، فبعــد اســتقراء نقائــض جريــر والفــرزدق، تبــيَّن لنــا أن كلا الشــاعرين كان يُكــرِّر الصــورة التــي رســمها خصمــه بلفظهــا ويقلــب المعنــى لصالحــــه، وأحيانًــا يعيــد الشــاعر الثانــي تشــكيل الصــورة التــي رسمــــها الشــاعر الأول بصياغــــة جديــدة ، وتوظيفهــا لتوكيــد معانيــــه، وبذلك تختلــف الصورة الشــعرية باختــلاف العاطفــة لــدى الشــاعرين فخــرًا وهجــاءً.

الكلمات المفتاحيَّة: الصُّورة ـــــ النَّقائض ـــ الفنيَّة ـــ الشِّعر ـــ الإبداع.

Research Summary:

The study of the artistic image aims to show the aesthetic and creative value in literary works, where the various critical approaches gave the image a special place in the study of poetic creativity, as it is a basic structure in the artistic construction of the poetic text, and a criterion for the creative faculty that the creator enjoys, and his means of influencing the recipient, as it is a translator Consciousness embodies and transmits the emotions and emotions lurking in the depths of the creator to the tangible world through an effective artistic transmission. Between Jarir and Al-Farazdaq, it became clear to us that both poets used to repeat the picture drawn by his opponent with its words and turn the meaning in his favor. To emphasize its meanings, and thus the poetic image differs according to the difference in emotion between the two poets, pride and satire.

Key words: image_ artistic_ contradictions_ poetry _ creativity.

المُقدّمـــــــــة

الحمـدُ للـه ربِّ العالمـين، والصَّـلاة والسَّـلام عـلى أشرف الأنبيـاء والمرسـلين ، وعـلى آلـه وصحبـه أجمعـين، وبعـد:

إنَّ الشـعر العربـي منـذ أقـدم أصولـه يقـوم عـلى الخيـال والتصويـر، وتُعـدُّ الصـورة الفنيَّـة جوهـر النـص الشـعري وسـمة جماليَّـة تبـيَّن مواطـن الإبـداع فيـه، فتـأسر المتلقـي للإبـداع الأدبـي، وتجسِّـد التجربـة الشعوريـة التـي عاشهـا المبـدع، فيصوغهـا بقدرتـه التصويريـة فينقلهـا مـن الخفـاء إلى الظهـور، فقـد حظيـت الصـورة الفنيَّـة بعنايـة النقـاد قدامـى ومحدثـين، بوصفهـا قيمـة فنيَّـة تميـز العمـل الأدبـي الـذي يعتمـد عـلى اللغـة المجازيـة والإيحائيـة في التعبـير.

ويتنـاول هـذا البحـث دور الصـورة في تحقيـق الوحـدة الفنيَّـة بـين نقائـض جريـر والفـرزدق، وقـد خـصَّ البحـث النقائـض بالدراسـة؛ لأنهـا تُعـد الصـورة الناضجـة للشـعر العربـي في العـصر الأُمـوي، لمـا قدمتهـا للحيـاة الأدبيـة مـن ثـروة لُغويـة وقيمـة فنيَّـة، فاجتهـد شـعراؤها في تجويـد المعانـي والألفـاظ والصـور، حتـى عُـدَّوا مـن فحـول الشـعراء، فلـولا شـعرهم لذهـب ثُلـث اللغـة.

وهنـاك ظاهـرة فنيَّـة ميـزت النقائـض فاختلفـت في بنائهـا الفنـي عـن فنـون الشـعر الأخـرى، حيـث التـزم الشـعراء المتناقضـون بوحـدة الموضـوع ووحـدة الـوزن والقافيـة، وتكـرار المعانـي والألفـاظ والصـور، مـع قلـب المضامـين وعكسـها، بمـا تقتضيـه طبيعـة المنافسـة في عمـل المناقضـة.

وتناولنـا دور الصـورة في الربـط بـين النقائـض لأنهـا لـم تحـظ بالدراسـة، واعتمـد البحـث عـلى المنهـج الاسـتقرائي والتحليـلي لنصـوص النقائـض لبيـان دور الصـورة في الربـط بـين كل نقيضتـين، واقتضـت خطـة البحـث أن يكـون في مقدمـة و تمهيـد ومبحثيـن، وعرضنـا في التمهيـد تعريـف النقائـض في اللغـة والاصطـلاح ونشـأتها وأبـرز شـعرائها، وتناولنـا في المبحـث الأول الصـورة الفنيَّـة ومكانتهـا في العمـل الأدبـي، والمبحـث الثانـي خصصنـاه لدراسـة دور الصـورة في تحقيـق الوحـدة الفنيَّـة بـين نقائـض جريـر والفـرزدق مـن خـلال عـرض الصـورة الشـعرية في الأبيـات مـن كل نقيضـة، ومقارنتهـا بالصـور في النقيضـة الأخـرى حتـى نقـف عـلى مواطـن تكـرار الصـورة نفسـها، أو إعـادة تشكيلـها في صـورة أخـرى، ثـم تأتـي الخاتمـة وفيهـا خلاصـة مـا جـاء في البحـث، ثـم ألحقنـا بهـا قائمـة المصـادر والمراجـع.

التَّمهيـــد

مفهوم النقائض في اللغة:

النَّقـضُ: إفسـادُ مـا أَبْرَمْـتَ مـن عقـدٍ أو بنـاءٍ، وفي الصحـاح النَّقْـضُ نقـضُ البنـاءِ والحبـلِ والعهـدِ، والنقْـضُ ضـد الإبـرامِ، نَقَضَـهُ يَنْقُضُـه نقْضًـا وانْتَقَـضَ وتناقَـضَ، والنَّقْـضُ اسـمُ البنـاء المنْقُـوض إذا هُـدم، وناقضـه في الـشيء مُناقضـةً ونِقَاضًـا خالفه، والمنُاقَضـةُ في القـولِ: أن يُتكلـم بمـا يُتناقـضُ معنـاه ،وكذلـك المُناقضـةُ في الشِّـعرِ

يَنْقُضُ الشاعرُ الأخرُ ما قاله الأول، والنقيضة الاسم يجمع على النَّقائض، لذلك قالوا: نقائضُ جرير والفرزدق"[1]

مفهوم النقائض اصطلاحًا:

"أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدة، هاجيًا أو مفتخرًا ، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجيًا أو مفتخرًا ملتزمًا البحر والقافية والروي الذي اختاره الأول، وتمتاز عن المفاخرة بلزوم التحكيم فيها".[2] ويشترط في النقائض وحدة الموضوع بين النقيضتين فخرًا أو هجاءً، فهو محور النقائض لأن غرض الشاعر الثاني أن يهدم ما بنى الأول من المعاني، ولا بد من وحدة البحر العروضي فهو الشكل الموسيقي الذي يجمع بين النقيضتين وينظم عليه الشاعر الثاني بعد أن يختاره الأول، ولابد من وحدة الروي فهو الوحدة الموسيقية المتكررة التي تربط بين النقيضتين.

نشأة النقائض وأبرز شعرائها:

تُعدُّ النقائض تطور عن فن المنافرة التي عُرفت منذ العصر الجاهلي، وذلك لأنها تقوم على الفخر والهجاء ولابد من حَكَم يفصل بين المتناقِضين، وكان لعودة العصبيات القبلية في العصر الأُموي الأثر الأكبر في ظهور النقائض؛ لأن العصبية هي الوقود الذي يشعلها ،وسبب آخر أدّى لنشأتها هو ظهور الأحزاب السياسية وانقسام الشعراء تبعًا لذلك، وأيضا اشتعال روح المنافسة الفنيَّة بين الشعراء وتشجيع خلفاء بني أُمية لهذه المنافسة.

وأما أبرز شعرائها: جرير، والفرزدق ، والأخطل ، والراعي النُّمري ، و البعيث.

المبحث الأول: الصورة الفنيَّة ومكانتها في العمل الأدبي

إنَّ دراسة الصورة الفنيَّة في العمل الأدبي تُلقي الضوء على مكامن الجمال فيه وسبر أغواره، فقد تعددت المناهج النقدية لدراسة الإبداع الأدبي وتفسيره ،لكنها لم تصل إلى جوهره ومواطن الإبداع فيه وتحديد ملامحه الفنيَّة ، لذلك تُعد الصورة الفنية ركيزة أساسية في بناء العمل الأدبي، فغاية الأدب هي التأثير في المتلقي ويصل الأديب إلى هذه الغاية عن طريق الصور الفنيَّة، "فالصورة هي الصوغ اللساني المخصوص، الذي بوساطته يجري تمثل المعاني تمثيلاً جديدًا ومبتكرًا، بما يُحيلها إلى صورة مرئية معبِّرة"[3]، فهي عُدول عن الواقع إلى الخيال "يكونها الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها، فأغلب الصور مستمدة من الحواس"[4]، فهي تركيب يقوم الخيال بنسجه وبنائه ،ويتم ذلك بقدرة الشاعر الإبداعية على عقد صلات خفية غير مألوفة بين الأشياء فيصورها لنا كما انطبعت في ذهنه.

أما عن أهمية الصورة في الشعر فهي "الشيء الثابت في الشعر كله، لأن

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان الطبعة الثالثة ، ج/14،ص262ـ ص263، مادة (ن ق ض).

(2) أحمد الشايب ، تاريخ النقائض في الشعر العربي، الطبعة الثانية1954م، مكتبة النهضة المصرية، ص 3

(3) بشرى موسى صالح ، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث،،الناشر المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 1994 ،ص 3.

(4) علي البطل، الصورة في الشعر العربي، دار الأندلس، الطبعة الثانية 1981م ـ1401هـ،ص30

الاتجاهات تجيء وتذهب والأسلوب يتغير، وأنماط الأوزان تتبدل، وكل قصيدة إنما هي في ذاتها صورة""[5]، فما الشعر إلا نسيج من التصوير تنسجه الكلمات، "فالأفكار تتلاحق في صفوف من التشبيهات، حتى تستِمّ هذا الفن من التصوير، وكأنما القصائد برود يمانية، ففيها ألوان ونقوش ورسوم على صور وأشكال كثيرة"[6].

وقد حفل النقاد قديمًا وحديثًا بالصورة بوصفها العنصر الجوهري الذي تتجلى من خلاله جماليات النص الشعري، وجعلوها وسيلة الشاعر للتأثير في المتلقي وإثبات المعنى في ذهنه، وتمكينه في نفسه، فبالصورة الفنيَّة تتحقق غاية البيان، وذلك بجعْل المعنويات شواهد قائمة أمام الأبصار، فحضور صورة الأشياء تطبعها في الذهن فتدركها النفس وتتأثر بها، لأن الصورة هي" تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلمَّا رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان تبيُّن إنسان من إنسان وفرس من فرس، بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك"[7].

ويُعد الجاحظ أول من فتح باب القول في الصورة الشعرية ، حيث رأى أنَّ التصوير لبنة أساسية في البناء الشعري بقوله: "فإنما الشعر صناعة، وضَرْب من النسج، وجنس من التصوير"[8].

وجعل أبو هلال العسكري الصورة الحسنة شرطًا من شروط تحقيق البلاغة بقوله: "البلاغةُ كل ما تُبلِّغُ به المعنى قلب السامع، فتمكّنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورةٍ مقبولة ومعرِضٍ حسن"[9].

ويرى قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر أن الصورة هي تمثيل حسي للمعاني ، والصياغة الشكلية للشعر في مقابل المعنى ومرادفة للفظ و"أنَّ المعاني كلها معرَّضة للشاعر، وله أن يتكلم منها فيما أحب، إذ كانت المعاني للشعر كالمادة الموضوعة، والشعر منها كالصورة"[10].

وأما عن أهمية الصورة الشعرية للمبدع ، فهي معيار تميُّز الشاعر وتفرُّده، و بها يُحكم على جودة شعره ، وقد فضَّل النقاد القدامى امرأ القيس، وجعلوه من فحول الشعراء لبراعته في التشبيه وابتداعه صورًا مبتكرة لم يُسبق إليها، فقد جعله ابن سلام في الطبقة الأولى من طبقات الشعراء بقوله: "وقد احتجَّ لامرئ القيس من يقدمه قال: ما قال ما لم يقولوا، لكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب، واتَّبعته فيها الشعراء: استيقاف صحبه،

(5) محمد حسن عبدالله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، ص12

(6) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، الطبعة الحادية عشر، ص15.

(7) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، علق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، الطبعة الثالثة 1992م ص508

(8) أبو عثمان عمرو بن بجر الجاحظ ، كتاب الحيوان الجزء الثالث، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية 1965م ـ 1385هـ، ص132

(9) أبو هلال العسكري ،كتاب الصناعتين، تحقيق/علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي،ص16.

(10) أبو الفرج قدامة بن جعفر ، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية بيروت،ص53

والتبْـكاء في الديـار، ورقـة النسـيب، وقـرب المأخـذ، وشـبَّه النسـاء بالظبـاء والبَيـض ، وشـبَّه الخيـل بالعِقبـان والعـصي، وقيَّـد الأوابـد، وأجـاد في التشـبيه، وفصـل بـين النسـيب وبـين المعنـى"[11]، فالصـورة الشـعرية هـي أسـاس المفاضلـة بـين الشـعراء، والسرقـات الشـعرية لا تقـع إلا في الصـور المبتكـرة، كمـا ذكـر أبـو هـلال العسـكري "ومـا يُعـرفُ للمتقـدم معنـى شريـف إلا نازعـه فيـه المتأخـر، وطلـب الشركـة فيـه معـه، إلا بيـت عنـترة ـــ وتَـرى الذَّبـابَ بهـا يُغنـي وحـدهُ ـــ فإنـه مـا نُـوزِعَ في هـذا المعنـى، عـلى جودتـه، وقـد رامـه بعـض المُجيديـن فافتضحَ"[12]،فـكان لعنـترة بفضـل هـذه الصـورة المبتكـرة فضـل السـبق والإجـادة. فالفضـل والمزيـة في الحكـم عـلى الشـعر يرجـع إلى الصـورة ، فتمييـز جيـد الشـعر مـن رديئـه كتمييـز خاتـم عـن خاتـم، "ومعلـوم أن سـبيل الـكلام سـبيل التصويـر والصياغـة، وأن سـبيل المعنـى الـذي يعـبّر عنـه سـبيل الـشيء الـذي يقـع التصويـر والصـوغ فيـه، كالفضـة والذهـب يُصـاغ منهمـا خاتـم أو سـوار"[13]

إنَّ الصـورة الفنيَّـة هـي أثـر النفـسي الـذي يتركـه الشـاعر في المتلقـي، لأنهـا تعبـير عـن حالـة وجدانيـة عاشـها الشـاعر، وبمقـدار إبـداع الشـاعر تتحقـق الاسـتجابة الفنيـة لـدى المتلقـي للتجربـة الشـعورية التـي ينقلهـا العمـل الأدبـي، "وإنمـا الصنعـة والحِـذْق، والنظـر الـذي يَلطـف ويـدِقّ في أن تجمـع أعنـاق المتنافـرات والمتباينـات في رِبْـقة، وتُعقـد بـين الأجنبيـات معاقـد نسـب وشُـبكة، فإنـك تجـد الصـورة المعمولـة فيهـا، كلمـا كانـت أجزاؤهـا أشـد اختلافًـا في الشـكل والهيئـة، ثـم كان التـلاؤم بينهـا مـع ذلـك أتـمّ، والائتـلاف أبـين، كان شـأنها أعجـب، والحـذق لمصوِّرهـا أوجـب"[14]، فهـي وسـيلة المبـدع وطريقتـه في التعبـير عـن انفعالاتـه وعواطفـه، فيعتمـد عـلى خياله في بنائهـا، ويسـتمد عنـاصر صـوره مـن الواقـع المحسـوس، فهـذه الصـور الفنيَّـة مـرآة تعكـس مـا بنفسـية المبـدع عـلى الطبيعـة والأشـياء، فتتلـون بمشـاعره وانفعالاتـه، سـواء اعتمـد في ذلـك عـلى الرمـز والإيحـاء، أو التجسـيد و التشـخيص.

وتحقـق الصـورة الفنيـة للمتلقـي ـ لكونـه المسـتقبِل للإبـداع الأدبـي ـ المتعـة والتأثـير فتجذبـه للمشـاركة الوجدانيـة في تجربـة المبـدع الشـعورية التـي يعرضهـا في العمـل الأدبـي، فهـي "لا تقـود المتلقـي إلى الغـرض مبـاشرة، مثلمـا تفعـل العبـارات الحرفيـة، وإنمـا تنحـرف بـه عـن الغـرض، وتحـاوره وتـداوره بنـوع مـن التمويـه، فتـبرز لـه جانبًـا مـن المعنـى، وتخفـي عنـه جانبًـا آخـر، حتـى تثـير شـوقه وفضولـه، فيقبـل المتلقـي عـلى تأمـل الصـورة المجازيـة واسـتنباطها، وعندئـذٍ ينكشـف لـه الجانـب الخفـي مـن المعنـى"[15]، إذ تسـاعد القـارئ في اكتشـاف العلاقـات الخفيـة بـين

(11) محمد بن سلام الجُمحي، طبقات فحول الشعراء، شرحه: محمود محمد شاكر، دار المدني جدة ،ص55.

(12) أبو هلال العسكري ،كتاب الصناعتين،ص229

(13) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ،ص254

(14) عبدالقاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه/محمود محمد شاكر، طبعة المدني القاهرة،ص148

(15) جابـر عصفـور، الصـورة الفنيّـة في الـتراث النقـدي والبلاغـي عنـد العـرب، الطبعـة الثالثـة1992م المركـز الثقـافي العربـي، ص326ـ ص327

الأشياء المتباعدة، فتحقق الصورة انسجامًا بينها غير مألوف لديه يستشفّه بحسه الجمالي، فتمنحه دورًا إبداعيًا في فهم العمل الأدبي لا يقل عن دور المبدع.

عناصر بناء الصورة الفنيَّة:

*الخيال: يُعدُّ أبرز العناصر المكونة للصورة الفنيَّة فهو" القدرة على تكوين صور ذهنية لأشياء غابت عن متناول الحس، ولا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرد الاستعادة الآلية لمدركات حسية ترتبط بزمان أو مكان بعينه، بل تمتد فاعليتها إلى ما هو أبعد وأرحب من ذلك، فتُعيد تشكيل المدركات وتبني منها عالمًا متميزًا في جدّته وتركيبه، وتجمع بين الأشياء المتنافرة والعناصر المتباعدة في علاقات فريدة، تذيب التنافر والتباعد وتخلق الانسجام والوحدة"[16].

فبهذا تكون الصورة الفنيَّة وليدة خيال المبدع وأداته، ومقدرته على خلق علاقات خفية غير مألوفة بين الأشياء، وإضفاء صِبغة جديدة عليها فتحقق التناغم بينها في تأليف بديع يرسمه الشاعر بكلماته.

والخيال الشعري هو "أن تتمثّل للسامع من لفظ الشاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها وتصوّرها، ويكون باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقلّ التهدِّي إلى مثلها، فورودها مستندر مستطرف لذلك، كالجمع بين مفترقين من جهة لطيفة قد انتسب بها أحدهما إلى الآخر، وغير ذلك من الوجوه التي من شأن النفس أن تستغربها"[17].

*اللُّغة: هي وسيلة التعبير لدى المبدع لنقل تجربته الشعورية وترجمة ما في نفسه من انفعالات، ومادة العمل الأدبي، ويستخدم المتكلم اللغة استخدامًا حقيقيًا أو مجازيًا، والتعبير الأدبي يفضل الاستخدام المجازي، لأن فيه تحسين وإحداث خصوصية وتأثير في المعنى، لا يُحدثها الاستخدام الحقيقي، فإن الشاعر يعبر عن أفكاره تعبيرًا متميزًا، عن طريق ما يحدثه في الأفكار من صياغة خاصة[18].

والصورة الفنية هي تركيبة لغوية تتشكل من تناغم اللفظ مع المعنى، فالشاعر يستخدم اللغة استخدامًا خاصًا مجازيًا معبِّرًا ،فحينما يُنشئ صورة فإنه يملأها بعاطفته ويرسمها بمداد من فيض وجدانه، فتخرج بذلك صورة مؤثرة تأسر المتلقي، وكلما كان للشاعر مقدرة لُغوية في انتقاء الألفاظ والمعاني الموحية، وتوظيف أسلوبه في رسم الصورة وتشكيلها ، تؤدي الصورة وظيفة تعبيرية وتركيب دلالي جديد داخل سياق العمل الأدبي، وتصبح سمة أسلوبية تميز المبدع وتبرز النواحي الجمالية لنتاجه الأدبي .

(16) جابر عصفور، الصورة الفنيّة في التراث النقدي والبلاغي،ص13

(17) أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق/ محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب تونس 2008،الطبعة الثالثة،ص79ـ ص80

(18) يُنظر: جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ص321 ص322

*العاطفة: الصورة هي وسيلة الشاعر في التعبير عن عواطفه وإخراج مشاعره من مكامن نفسه إلى العالم الخارجي ليتفاعل معها المتلقي، "وتصبح الصورة معيارًا للعبقرية الأصلية حين تشكلها عاطفة سائدة، أو مجموعة من الأفكار والصور المترابطة أثارتها عاطفة سائدة، أو حين تتحول فيها الكثرة إلى الوحدة والتتالي إلى لحظة واحدة أو أخيرًا حينما يضفي عليها الشاعر من روحه حياة إنسانية وفكرية[19]"،فـ"العاطفة هي التي تستدعي لنا خواص الصورة الأدبية الصالحة للتعبير عنها ولإثارتها"[20]، ولغة التعبير عن العاطفة لابد أن تكون مجازية رمزية غير مباشرة، ويتحقق هذا عن طريق الصورة الفنيَّة التي تبعث الإحساس الأدبي.

وسائل تشكيل الصورة الفنيَّة:

إنَّ علم البيان في البلاغة العربية هو العلم الذي يدرس الصورة الفنيّة، لذلك تعددت مسمياتها منها الصورة البلاغية والصور البيانية والصور الأدبية والصور الشعرية والصور المجازية ، وكلها دراسة للُّغة المجازية التي تشكلها أركان علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، في سياق موحٍ ومعبرٍ عن التجربة الشعورية التي ينقله المبدع في العمل الأدبي.

التشبيه: يُعدُّ من أقدم فنون البيان، و الأساس الذي تقوم عليه الصورة الفنيَّة، وبه يُقاس إبداع الشاعر وإجادته الفنيَّة، لأنه يستدعي في الذهن حضور طرفين لعقد التشابه بينهما، فيتفقا في وجه يبرز العلاقة الخفية بينهما ، ويختلفا في وجوه كثيرة تميز أحدهما عن الآخر.

تؤدي الصور التشبيهيَّة مع وظيفتها الجمالية دورًا بارزًا في نقل التجربة الشعورية، فـ" التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك، وما ابتُدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان محسوبة بذاتها كما تراها، وإنما ابتُدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفسٍ إلى نفسٍ، وبقوة الشعور وتيقظه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربًا مؤثرًا، وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه لأنه يزيد الحياة حياة ،كما تزيد المرآة النور نورًا"[21].

ومن بلاغة الصورة في التشبيه أنه تَظهر لنا ما لا تدركه الحواس إلى محسوس، فالبليغ من التشبيه يظهر لنا الخفي واضحًا جليًا ويجعل المتشابهين كالشيء الواحد، وتتحقق المبالغة في رسم الصورة إذا كان مقلوبًا وذلك بالادعاء أن وجه الشبه في المشبّه أقوى منه في المشبّه به،

الاستعارة: تُعدُّ الاستعارة من أهم وسائل رسم الصورة الفنيَّة ؛ لأنها تعتمد على الخيال أكثر من التشبيه حيث تُقيم علاقات غير مألوفة بين أشياء

(19) محمد مصطفى بدوي، نوابغ الفكر الغربي (كولردج) الطبعة الثانية دار المعارف،ص168

(20) أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة ،1994م،243

(21) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث ،الطبعة السادسة 2005م، نهضة مصر، ص421

متباعدة في الواقع ،وتجعل طرفي التشبيه شيئًا واحدًا، فتأخذ من أوصاف هذا وتخلعها على ذاك، "وليس في حِلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها، والناس مختلفون فيها"[22]،وفائدة الاستعارة كما يراها إمام البلاغة أنها تمثيل حسيّ للمعاني ونقلها من خبايا الشعور إلى حيز الوجود، فتخلع عليها من أوصاف المحسوس وتُلبسها ألوانًا من الحُلي فتبدو بصورة تعشقه النفوس، وتطرب لها الأسماع يقول: "فإنك ترى بها الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخُرس مُبينة، والمعاني الخفية بادية جليَّة، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جُسمت حتى تراها العيون، وإن شئت لطُفت الأوصاف الجسمانية؛ حتى تعود روحانية لا تنالها إلاَّ الظنون، وتعطيك المعاني بالكثير من اللفظ، حتى تخرج من الصدَفة الواحدة عِدّة من الدُّرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعًا من الثمر"[23].

الكناية: يعتمد التصوير الشعري على الرمز و الإيحاء، فالشاعر أحيانًا لا يصرّح بما يريد، وإنما يومئ إليه بإشارة دالة يفهمها المتلقي، من خلال علاقة المجاورة بين ما أخفى وما صرَّح به.

فالصفة إذا لم تأتك مصرّحًا بذكرها، مكشوفًا عن وجهها، ولكن مدلولاً عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها، وكان لها من الفضل والمزية والحُسن والرونق، ما يملأ الطّرْف، ودقائق تُعجز الوصف، إذا لم تُلقي الكلام إلى السامع صريحًا ،وإنما عن طريق الكناية والرمز والإشارة[24].

المجاز: إن الصورة الفنيّة تعبيرًا مجازيًا عن التجربة الذاتية التي يعيشها المبدع، فيحلّق بخياله بعيدًا عن الواقع متكئ على المجاز كوسيلة من وسائل رسم الصورة وتشكيلها، "فهو أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعًا في القلوب والأسماع، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن مُحالاً محضًا فهو مجاز"[25].

فاللغة الشعرية لغة مجازية، فالشاعر يتجاوز التعبير المباشر ويضع الكلمات في تركيب جديد ويقيم علاقات بينها داخل السياق الفني للنص الشعري، ويكسبها خصوصية وتأثير في التعبير حتى تحقق غاية الإبداع الأدبي بلغة فنيَّة خاصة تسمو فوق اللغة العامة.

(22) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد،دار الجيل الطبعة الخامسة 1981م.ج 1ص268

(23) عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة،ص43

(24) يُنظر: عبدالقاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ص306

(25) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ج 1 ص266

المبحث الثاني

دور الصورة في تحقيق الوحدة الفنيَّة بين نقائض جرير والفرزدق:

تُعدُّ ظاهرة التكرار سمة أسلوبية بارزة في فن النقائض، أضاف لها إيقاعًا فنيًّا خاصًا ميّزها، فالموضوع في النقيضتين لابد أن يتكرّر فخرًا وهجاءً، ونظرًا لطول النقائض يستنفد الشاعر كل الألفاظ ويعيد تكرارها، وقد يكرّر الشاعر كثيرًا من ألفاظ خصمه عندما يريد نقضها، ويعيد توظيف المعاني ويردها معنى معنى ويعيد صياغتها لصالحه، وكذلك البحر العروضي فهو الشكل الموسيقي الرابط بين النقيضتين، فلابد للشاعر الثاني أثناء رده على الأول أن يلتزم ويكرر البحر والروي الذي اختاره الأول.

وهناك نوع آخر من التكرار في النقائض هو تكرار الصورة الفنيّة، فعندما يرسم الشاعر الأول صورة فنيّة يؤكد بها فكرته، يأتي الشاعر الثاني ويعيد توظيف هذه الصورة في خدمة فكرته، فأحيانًا يستخدم الصورة نفسها تشبيه أو استعارة أو كناية ، وأحيانًا يعيد تشكيلها فينقلها من صورة إلى أخرى، مستخدمًا الألفاظ نفسها التي وظفها الشاعر الأول في صورته، وهذا ما لاحظناه بعد استقراء نقائض جرير والفرزدق.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في هذه النقيضة التي بدأها الفرزدق مفتخرًا بقوله:

إنَّ الذي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنى لَنَا بيتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ و أَطولُ"[26]"

فالفرزدق في هذا البيت يفتخر بنسبه وأصالته معتمدًا التعبير المجازي، فقدّم هذا الفخر من خلال الكناية، فالبيت هنا ليس البناء على حقيقته، وإنما قصد به النسب الرفيع الذي بلغ في شهرته عنان السماء ، فأخذ جرير هذه الصورة في مناقضته له، فكررها له "يسلط الضوء على نقطة حسّاسة في العبارة، يُعنى بها أكثر من عنايته بسواها"[27]، واستخرج منها عدة صور أولها الكناية حين قلب الفخر لصالحه مكررًا الألفاظ نفسها فصنع صورة فخرية مقابلة لصورة خصمه بقوله:

إنَّ الذي سَمكَ السَّمَاءَ بَنى لَنَا بيتًا عَلاكَ فَمَا لَهُ مِن مَنْقَلِ[28]

والكناية الثانية التي نقض بها بيت الفرزدق السابق، فهذه الصورة جعلت البناء وكأنه حسيًا وعلى حقيقته، فتوسّع جرير في عرض مساوئ هذا البناء الذي يُفاخر به الفرزدق، فجعله جرير دنس وخبيث بفعل أجداد الفرزدق بقوله:

أَخْزَى الذي سَمَكَ السَّماءَ مُجَاشِعًا وبنى بِنَاءَكَ في الحَضِيضِ الأَسْفَلِ
بَيْتًا يُحَمّمُ قَيْنَكُم بِفِنَائِهِ دَنِسًا مَقَاعِدُهُ خَبِيْثُ المَدْخَلِ
ولقدْ بَنَيْتَ أَخَسُ بيتٍ يُبْتَنَى فَهَدَمْتُ بَيتَكُمُ بِمِثْلِي يَذْبُلِ[29]

(26) ديوان الفرزدق، شرحه: عمر فاروق الطبَّاع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت لبنان، الطبعة الأولى1997م ،ص548

(27) نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، مكتبة النهضة ، الطبعة الأولى 1962م ، ص242

(28) ديوان جرير، شرحه: عمر فاروق الطبَّاع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت لبنان، الطبعة الأولى1997م، ص368

(29) ديوان جرير ص367

وفي هذا البيت يأتي الفرزدق بكناية عن بأس قومه وعزتهم، وإذلالهم للملوك يقول :

وَمُعَصّبٍ بالتَّاجِ يَخْفِقُ فَوقَهُ خِرقُ المُلُوكِ لَهُ خَميسٌ جَحْفلُ
مَلِكٌ نَسُوقُ لهُ رِمَاحَ أكُفُّنَا منهُ نَعَـلٌ صُدُورَهُـنَّ ونُنْهـلُ[30]

أعاد جرير صياغة هذه الكناية و نقلها ببراعته إلى التشبيه، فاختلاف العاطفة من الفخر إلى الهجاء أدّى إلى اختلاف الصورة الشعرية، من الكناية إلى التشبيه في قوله :

ولَقَدْ تَرَكتُ مُجَاشِعًا وكأنهُم فقْعٌ بِمَدْرَجةِ الخَمِيسِ الجَحْفَلِ[31]

فهدم جرير فخر الفرزدق حين شبّه مجاشع في الذل والهوان، بفقع الكمأة البيضاء على الأرض لأنه يوطأ وتأكله الطير.

ويرسم الفرزدق صورة رائعة للفخر حيث جعل لباسهم في حال السلم والرخاء كأنها حلل الملوك، وفي حال الحرب يتسربلون بالرماح والدروع، وهذه كناية عن العزة والشجاعة والبأس،

حُللُ المُلُوكِ لِباسُنا في أهْلِنَا والسَّابغاتِ إلى الوغَى نتَسَرْبَلُ[32]

يرد جرير هذه الصورة التي رسمها الفرزدق بهذا التشبيه، فيطفئ جذوة هذا الفخر ويذكّره بحادثة الزبير يقول:

لا تَذكُرُوا حُلَلَ المُلُوكِ فإنَّكُم بعْدَ الزُّبيرِ كَحائِضٍ لمْ تُغْسَلِ[33]

وقد يُولّد الشاعر من الصورة الواحدة عدة صور، ويبقى يدور في فلكها مستنبطًا منها صورًا جديدة كما فعل جرير بصورة الفرزدق هذه التي بناها على التشبيه في شطري البيت، ففي الشطر الأول شبّه عقول قومه في الثبات والرزانة بالجبال الراسية التي لا تتزحزح، وفي الشطر الثاني شبّه قومه بالجن في سرعة الغضب، فينقلب ذلك الهدوء والثبات إلى غضب شديد إذا تعدّى أحد عليهم، وهذا دليل الإباء والعزة يقول:

أحلامُنا تَزِنُ الجِبَالَ رَزَانَةً وتَخَالُنَا جِنًّا إذَا مَا نَجْهَلُ[34]

يكرر جرير هذه الصورة التشبيهية، وينقل الفخر لنفسه، مستخدمًا الألفاظ نفسها وإن كانت نغمة الفخر هنا أقوى لأن جهلهم فاق جهل الجاهلين يقول:

أحْلامُنا تَزِنُ الجِبَالَ رَزَانةً ويَفُوقُ جَاهِلُنَا فِعَالَ الجُهّلِ[35]

واعتمد جرير على صورة الفرزدق السابقة، و استنبط منها صورة أخرى في الهجاء يقول:

أبْلِغْ بَنِي وقْبَانَ أنَّ حُلُومَهُمْ خَفَّتْ فمَا يَزِنُونَ حَبَةَ خَرْدَلِ

(30) ديوان الفرزدق ص549
(31) ديوان جرير ص368
(32) ديوان الفرزدق ص550
(33) ديوان جرير ص367
(34) ديوان الفرزدق،ص550
(35) ديوان جرير،ص368

أزْرى بِحِلْمِكمُ الفِيَاشِ فأنتُمُ مِثْلُ الفَرَاشِ غَشِينَ نارَ المُصْطَلِي[36]

ففي الشطر الثاني من البيت الأول كناية عن التهور والسفاهة، فتلك العقول التي وزنها الفرزدق بالجبال، نفى جرير عنها هذا الوصف وجعلها لا تزن حبة خردل، وفي البيت الثاني شبّه تعرّض الشعراء له ومفاخرتهم عليه ونيله منهم بهحائه، بحال الفراش الذي تغريه النار فيقع فيها.

وعندما يفتخر الفرزدق أنه أخذ رواية الشعر عن أوس بن حجر، وأن هجاءه في قوته كالسم يقول:

ولقدْ وَرِثْتُ لآلِ أوسٍ مَنْطِقًا كالسُّمِّ خَالطَ جَانِبيهِ الحَنْظَلِ[37]

يستقي جرير من هذا التشبيه استعارة حيث شبّه هجاءه الشديد للشعراء بالسم الناقع يقول:

أعْدَدْتُ للشُّعَرَاءِ سُمًّا نَاقِعًا فَسَقَيتُ آخِرَهُمْ بِكأسِ الأولِ[38]

وعندما قال الفرزدق:

وَهَبَ القَصَائِدَ لِي النَّوَابِغُ إذْ مَضَوا وأبو يَزِيدَ وَ ذُو القُرُوْحِ وَ جَرْوَلُ[39]

فشبّه الفرزدق الموهبة الشعرية بالهدية التي أهداها له فحول الشعراء السابقين، وحذف المشبّه به على سبيل الاستعارة المكنية، فألهمت فكرة الهدية جرير وجعل هذه النقيضة هدية للفرزدق يقول:

أبْلِغْ هَدِيتِيَ الفَرَزْدَقَ إنَّهَا ثِقْلٌ يُزَادُ عَلَى حَسِيرٍ مُثْقَلِ[40]

وفي نقائض أخرى نجد للصور الفنيّة دورًا في تحقّيق الوحدة الفنيَّة بين النقيضتين، فعندما رثى جرير زوجه الفقيدة بقصيدته التي مطلعها:

لَولا الحَيَاءُ لَعَادَنِي اسْتِعْبَارُ وَ لَزُرْتُ قَبْرَكِ والحَبِيبُ يُزَارُ[41]

فنظم الفرزدق قصيدة تعمّد فيها أن يُفسد رثاء جرير وما يفيض به من لوعة وحزن، ويشمت بمصابه في زوجه، ويهجو الفقيدة ويهون من أمرها، ويسخر من بكاء جرير ويزدريه أمام الناس:

أعَرَفْتَ بيْنَ رُوَيَّتينِ وَحَنْبَلٍ دِمَنًا تَلُوحُ كَأنَّها الأسْطَارُ[42]

فيرد عليه جرير ويلحق الرد بالمرثية، وينقض أبيات الفرزدق ويهجوه، فعندما قال جرير:

صلّى الملائِكةُ الذينَ تُخِيّرُوا والصَّالحونَ عليهِ والأبرارُ

(36) المصدر السابق ص368

(37) ديوان الفرزدق ص552

(38) ديوان جرير ص366

(39) ديوان الفرزدق ص552

(40) ديوان جرير ص369

(41) ديوان جرير ص182

(42) ديوان الفرزدق ص368

وعَليكِ منْ صَلواتِ ربّكِ كُلَّمَا نَصِبَ الحَجِيجُ مُلَبِّدينَ وغَارُوا[43]

في هذه الأبيات جعل جرير الملائكة والصالحين يدعون لزوجه على سبيل المجاز، ودعا الله أن يستمر هذا الدعاء كلما توجه الحجيج لأداء مناسكهم، وفي هذا كناية عن صلاحها، لكن الفرزدق لم يهنأ حتى أفسد هذا الرثاء، وأن الحمير هم من يبكونها لا كما ذكر جرير، فأتى بهذه الصورة المركبة مكررًا ألفاظ خصمه لينقضها يقول:

قالَ المَلائِكَةُ الذِّينَ تُخِيّرُوا والمصْطَفُونَ لِدينهِ الأَخْيَارُ
أبْكَى الإلهُ على نَبِيثَةَ منَ بَكَى جَدّثًا يَنُوحُ على صَدَاهُ حِمَارُ[44]

وعندما قال جرير :

ولَقدْ نَظَرتُ وما تَمَتُّعُ نظْرةٍ في اللّحْدِ حَيثُ تَمكَّنَ المِحْفَارُ[45]

فعبَّر عن موت زوجه وحزنه لفقدها، بهذه الكناية، فيأتي الفرزدق ويفسد على جرير هذا الوقار في الرثاء، مكررًا الصورة والألفاظ نفسها مع نقض المعنى، وجعل نظرة الوداع هذه سوءة اقترفها جرير في حق زوجه :

ولقدْ هَمَمْتَ بِسَوءَةٍ وفَعَلْتها في اللّحْدِ حيْثُ تَمَكَّنَ المِحْفَارُ[46]

وعندما أثنى جرير على وفاء زوجه، وحفظها لحقه، ولم تفعل ما يبغضه، رسم هذه الكناية في قوله :

عَمِرتْ مُكَرَّمةَ المِسَاكِ وفَارَقتْ مَا مسَّهَا صَلَفٌ ولا إقْتَارُ
كانتْ مُكَرَّمَةَ العَشِيرِ ولمْ يَكُنْ يَخْشَى غَوَائِلُ أمِّ حَزْرَةَ جَارُ[47]

فيأتينا الفرزدق فيفسد هذه الصورة بصورة مقابلة، في كنايةٍ عن سوء أخلاق الفقيدة يقول:

كَانتْ مُنَافِقةَ الحَيَاةِ وموتُهَا خزْيٌ عَلانِيةٌ عليك وعَارُ[48]

وفي النقيضة التي بدأها الفرزدق وكانت في مصرع قتيبة بن مسلم ، نجد للصورة المكررة حضور كبير في الربط بين العملين ،يقول:

إذا جَشَأتْ نفسِي أقولُ لها أرْجعي وراءكِ واسْتحْي بيَاضَ اللَّهَازِمِ[49]

فينهى نفسه إذا همّت بسوء، ويدعوها للوقار وقد لاح المشيب، فكنّى عن زمن المشيب بقوله: (بياض اللهازم)، فيجيبه جرير وينكر عليه هذا التقى والوقار المصطنع، وأنه منتهك لحدود الله منذ صغره فلا يزجره المشيب، معتمدًا على الصورة التي رسمها الفرزدق وكرر الكناية في قوله:

(43) ديوان جرير ص183 ـ ص184
(44) ديوان الفرزدق ص371
(45) ديوان جرير 182
(46) ديوان الفرزدق ص 372
(47) ديوان جرير ص183
(48) ديوان الفرزدق ص371
(49) ديوان الفرزدق ص663

أَتَيْتَ حُدُودَ اللهِ مُذْ كُنْتَ يافِعٌ وشِبْتَ فَمَا ينهَاكَ شيبٌ اللَّهَازِمِ[50]

وفي البيت التالي رسم الفرزدق صورة لجرير تتسم بالسخرية، حيث شبهه بالكلب يلهث خلف قيس ليمدحها، ولكن هذا المديح جرّ عليها الشؤم، وحذف المشبه به وأتى بأحد لوازمه وهو النباح على سبيل الاستعارة، يقول:

نبحْتَ لِقيسٍ نَبْحةً لمْ تَدَعْ لَهَا أُنوفًا ومرَّتْ طَيْرُهَا بالأشَائِمِ[51]

فيأتي جرير ويهجو الفرزدق وقد وظّف حادثة جعثن أخته لرسم صورته، وإن توسَع بخياله الخصب في عرض هذه الحادثة بكناية عن هذا العار الذي لَحِق بهم، وقد وظّف كلا الشاعرين فكرة الطيرة والتشاؤم، فكانت هي موضع الربط بين الصورتين يقول:

أَتَمدحُ يَا ابْنَ القَيْنِ سَعْدًا وقدْ جَرَتْ لِجعْثِنَ فيهمْ طَيْرُهَا بالأشائِمِ[52]

وكذلك كان لتكرار الصورة دورًا في الربط بين هاتين النقيضتين، فعندما يفتخر الفرزدق بقومه في كناية عن عزهم ومكانتهم فهم السادة وندماء الملوك، بينما كليب لا مكانة لهم، ولا يلحقون بركب المجد، ولا يجالسون الملوك لذلهم ودنو منزلتهم يقول:

وإنَّا لَتَجْرِي الخَمْرُ بينَ سَرَاتِنا وبيْنَ أبي قَابُوسَ فَوقَ النَّمَارِقِ

كُلِيبٌ وَرَاءَ النَّاسِ تُرْمَى وجُوهُهَا عن المَجْدِ لا تَدْنُو لِبَابِ السُّرَادِقِ[53]

فيأتي جرير ويُبطل هذا الفخر، ويقلب المعنى، مكررًا الصورة ومعتمد على الكناية في تشكيلها في البيتين ، وأكد معنى الهجاء بالتشبيه البليغ في قوله أنتم كلاب النار، فيشبهه بالكلب الجبان الذي ينبح من وراء النار، فيجمع للفرزدق بهذه الصورة صفات عديدة في غاية القبح يقول:

عَرَفْتُمْ لِعَتَّابٍ عَلَيْكُمْ ورَهْطِهِ نِدَامَ المُلُوكِ وافْتِرَاشَ النَّمَارِقِ

وأنتُم كِلابُ النَّارِ تُرْمَى وُجُوهُكُمْ عنِ الخَيْرِ لا تَغشَوْنَ بَابَ السُّرَادِقِ[54]

ومما تقدمها الصورة عند دراسة النقائض، تبين أن هذه النقيضة ردّ على الأخرى من خلال تكرارها فتُحدث بذلك الربط الفني بينهما، ومثال ذلك قول جرير الذي ردّ على الفرزدق قصيدته:

لقدْ بُنيتْ يَومًا بُيُوتُ مُجَاشِعٍ عَلى الخُبْثِ حتَّى قَدْ أُصِلَّتْ قعُورُهَا[55]

من خلال هذه الصورة التي أتى بها جرير في هجاء مجاشع ، وأن نسبهم خبيث حتى أنتن، تبين أنها نقضًا لقول الفرزدق وتكرارًا لصورته، وأن لم يكن في قصيدة الفرزدق هجاء صريح لجرير:

(50) ديوان جرير ص453

(51) ديوان الفرزدق ص666

(52) ديوان جرير ص453

(53) ديوان الفرزدق ص458

(54) ديوان جرير ص 326

(55) ديوان جرير ص234

بَنَـى بَيْتَـــنَا بَاني السَّمَاءِ فَنَالَهَا وفي الأرضِ مِن بَحْرِي تَفِيضُ بُحُورُها[56]

وبمـا أنَّ للصـورة دلالـة تُؤديهـا داخـل السـياق، فأكّـدت المعاني التـي أراد الشـاعران المتناظـران إثباتهـا في هاتـين القصيدتـين، فبـدأ جريـر الهجـاء وأتـي بهـذه الصـورة المركبـة حيـث جعـل المخـازي تسـيل عـلى مجاشـع وكأنهـا مـاء وهـذا عـلى سـبيل الاسـتعارة، وهـم كالقـرارة التـي اسـتقرّ فيـه المـاء، فجمعـوا بذلـك كل سـوء، وفي البيـت كنايـة عـن قبـح صفاتهـم يقـول:

تَسِيلُ عليْهِمُ شُعَبُ المَخَازِي وقدْ كانُـوا لِسَوْأتِـــهـَـا قَرَارَا[57]

فأجابـه الفـرزدق وأخـذ الصـورة فشـعّب فيهـا ودار حـول المعنـى ،واسـتقى منهـا صـورًا متعـددة، "فالشـاعر الواحـد قـد يكلـف بترديـد معنـى مـن المعانـي، فـلا يـزال يبـدئ ويعيـد حتـى يضـع لـه صـورة شـعرية يصـل بهـا إلى مـا يريد"[58]،لذلـك نجـد الفـرزدق قـد وظّـف كلمـة المخـازي في سـياق الهجـاء حيـث جسّـدها في البيـت الأول وكأن جريـر جرَّهـا عـلى كليـب حـين لـم يدفـع عنهـم شر الهجـاء الـذي نالهـم منـه، وفيـه كنايـة وتعريـض بعجـز جريـر عـن رد الهجـاء، وفي البيـت الثانـي جعـل هـذه المخـازي شـيئًا ملازمًـا لهـم ، وكنّـى عـن غفلـة جريـر عـن مديحهـم ورد الهجـاء عنهم بالنـوم، فغطتهـم هـذه العيـوب وتجللـوا بـكل فعـل قبيـح وفي لفـظ جللهـا اسـتعارة أيضـا يقـول:

جَرَّ المُخْزِياتِ على كُلَيـــبٍ جَرِيْرٌ ثُمَّ مَا مَنَـــعَ الذِّمَارَا

سَتَعْلَمُ مَنْ تَناولُـــــهُ المَخَازِي إذا يَجْـــرِي ويَدّرعُ الغُبـَارَا

ونَامَ ابنُ المُرَاغَةِ عَنْ كُلَيبٍ فَجَلَّلَـــها المَخازِي والشّنارَا[59]

وفي هـذه المناقضـة التـي اشـتد فيهـا الهجـاء، وارتفعـت صيحـات الفخـر والتحـدي بـين الشـاعرين، نجـد للصـورة دورًا كبـيرًا في تحقيـق التناغـم والاتحـاد بـين النقيضتـين، يقـول الفـرزدق مفتخـرًا عـلى جريـر:

بنَا لَنَا الأعْلَى فَطالَتْ فُرُوعُـــهُ فَأعْيَاكَ واشْتَدَّتْ عَلَيـــــكَ أسَافِلُهُ

فلا هُو مُسْطِيعٌ أبُوكَ ارْتِقاءَهُ ولَا أنْتَ عَمَّا قدْ بنَى اللهُ عادِلُهُ[60]

فيجيبـه جريـر ويتحـداه، ويعيـد صياغـة هـذه الصـورة في شـكل تبـدو فيـه صـورة جديـــدة، يقول:

بَنَيْنَا بِنَاءً لَمْ تَنالُوا فُرُوعَـــهُ وهَـــــدَّمَ أعْلى مَـا بَنَيْتـــمْ أسافِلُـهْ

ومَا هَجَمَ الأقْيَانُ بيْتًا بِبَيْتِهِمْ ولا القَيْـــنُ عن دَارِ المَذَلَّـــــةِ نَاقِلُـهْ[61]

ففـي الأبيـات السـابقة رسـم الفـرزدق صـورة لنسـبه فجسَّـده عـلى أنـه بنـاء

(56) ديوان الفرزدق ص 366

(57) ديوان جرير ص242

(58) زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص78

(59) ديوان الفرزدق ص353 ـ ص354

(60) ديوان الفرزدق ص564

(61) ديوان جرير ص393

لا يمكـن لجريـر بلوغـه والنيـل منـه، فحـوَّل جريـر هـذه الصـورة لنفسـه، ووضـع بـإزاء معانـي الفـرزدق مـا يقابلهـا، وهـذه المقابلـة أسـلوب عـام في كل النقائـض، فيوحـي تكـرار الصـورة بـإصرار الشـاعر عـلى إذلال خصمـه وإعـلاء شـأنه، فأحدثـت الصـورة الوحـدة بـين النقيضتـين ، ويلتحـم جريـر والفـرزدق مـرة أخـرى ، فعندمـا قـال الفـرزدق هـذا البيـت حيـث شـبّه نفسـه بالبـدر الـذي يغطـي نـوره كل شيء، ولا يناله أحـد لعلـو منزلـه:

أنا البَدْرُ يُغْشِي طَرْفَ عَيْنِيكَ فالْتَمِسْ بِكَفَّيْكَ يا ابْنَ الكَلْبِ هلْ أنت نَائِلُهُ[62]

فيجيبـه جريـر بتشـبيه بليـغ مماثـل، ووظّـف صفـة القـين التـي عـيّر بهـا الفرزدق كثـيرًا في نقائضهما:

أنا البَدْرُ يُغْشِي طَرْفَ عَيْنِيكَ فالْتَمِسْ بِكَفَّيكَ يَا ابنَ القَيْنِ هلْ أنتَ نَائِلُهْ[63]

الخاتمـــة

كانـت هـذه الدراسـة محاولـة لإبـراز دور الصـورة في تحقيـق الوحـدة الفنيَّـة بـين نقائـض جريـر والفـرزدق، حـين تضافـرت الصـورة مـع العنـاصر البنائيـة الأخـرى، من تكـرار للألفـاظ والمعانـي والموضوعـات والـوزن العـروضي في تماسـك هـذا البنـاء الفنـي للنقائـض، فالاعتمـاد عـلى الصـورة في تحقيـق ذلـك، كان لـه قيمـة تعبيريـة بـارزة في هـذا الفـن، ونظـرًا لأهميـة الصـورة في النـص الشـعري؛ وقفنـا عـلى مكانـة الصـورة في العمـل الأدبـي بـين الـتراث والمعـاصرة، ثـم بيَّنَّـا دور الصـورة الفنيَّـة في تحقيـق الوحـدة الفنيَّـة بـين نقائـض جريـر والفـرزدق، فالنقائـض بطبيعتهـا مناظـرات أدبيـة تقـوم عـلى الجـدال وقـوة الحجـة، فقـد اقتضـت طبيعـة المناقضـة عـلى الشـاعر عنـد الـردِّ أن يعيـد معانـي خصمـه وصـوره حتـى يهدمهـا ويفسـدها، فيُفْحِـم خصمـه ويغلبـه ويبطـل ادعـاءه، وهـذا مـا لاحظنـاه في نقائـض جريـر والفـرزدق ، حيـث وظّـف الشـاعران الصـورة في خدمـة معانيهـم وتوكيدهـا، فنجـد الشـاعر عنـد ردِّه عـلى خصمه يسـتدعي تلـك الصـورة التـي رسـمها الخصـم فتثـير انفعالـه وتلهمـه ،ويسـتقي منهـا صـورًا جديـدة، تـؤدي وظيفـة جماليـة ودلالـة تعبيريـة في سـياق نصـه الشـعري، وقـد اسـتطاع جريـر والفـرزدق مـن خـلال توظيـف أدوات رسـم الصـورة مـن تشـبيه واسـتعارة وكنايـة ومجـاز، تحقيـق الربـط بـين كل نقيضتـين دارت بينهما، وبعـد تحليل الصـور الفنيَّـة تبـين أنَّ الكنايـة كانـت أكثـر الصـور حضـورًا في نقائضهـم؛ وذلـك لأن النقائـض تقـوم أساسًـا عـل الهجـاء، وهـذا يتطلـب التعريـض بالمهجـو وذكـر مسـاوئه في إشـارة دالـة وتلميـح عـن طريـق الكنايـة، فينـال الشـاعر مـن خصمـه دون أن يـدع لـه مأخـذ لينتقـم منـه، وحققـت هـذه الصـور الجزئيـة الربـط والوحـدة الفنيَّـة بـين كل نقيضتـين، وكوَّنـت صـورة كليـة مـن الفخـر والهجـاء في هـذه النقائـض .

(62) ديوان الفرزدق ص564

(63) ديوان جرير ص395

قائمـــة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

أ ـ الكتب:

1ـ ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة.

2ـ ـ أبـو الحسـن حـازم القرطاجنـي، منهـاج البلغـاء وسراج الأدبـاء، تحقيق/محمـد الحبيـب بـن الخوجـة، الـدار العربيـة للكتـاب تونـس، الطبعـة الثالثـة 2008م.

3ـ أبـو الحسـن عـلي بـن رشـيق القيروانـي، العمـدة في محاسـن الشـعر وآدابـه ونقـده، تحقيـق/ محمـد محيـي الديـن عبدالحميـد، دار الجيـل بـيروت ، الطبعـة الخامسـة 1981م.

4ـ أبـو عثمـان عمـرو بـن بحـر الجاحـظ، كتـاب الحيـوان، تحقيـق/ عبدالسـلام محمـد هـارون، مطبعـة مصطفـى البابي الحلبـي، الطبعـة الثانية 1385هـ ـ1965م.

5ـ أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق/محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية بيروت.

6ـ أبـو هـلال الحسـن بـن عبدالله العسـكري، كتـاب الصناعتـين، تحقيق/عـلي محمـد البجـاوي، ومحمـد أبـو الفضـل إبراهيـم، دار الفكـر العربـي.

7ـ عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، علق عليه/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة .

8ـ عبدالقاهـر الجرجانـي ،دلائـل الإعجـاز، علـق عليـه/ محمـود محمـد شـاكر، مطبعـة المدنـي، الطبعـة الثالثة،1413هـ،1992م.

9ـ محمد بن سلام الجُمحي، طبقات فحول الشعراء، شرحه/محمود محمد شاكر، دار المدني جدة.

ب ـ الدواوين:

1ـ ديـوان جريـر، شرحه/عمـر فـاروق الطَّبَّـاع، دار الأرقـم بـن أبـي الأرقـم، بـيروت لبنـان، الطبعـة الأولى1997م.

2ـ ـ ديـوان الفـرزدق، شرحه/عمـر فـاروق الطَّبَّـاع، دار الأرقـم بـن أبـي الأرقـم، بـيروت لبنـان، الطبعـة الأولى1997م

ثانـــــــيًا: المراجع

1ـ أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة،1994م.

2ـ أحمـد الشـايب، تاريـخ النقائـض في الشـعر العربـي، مكتبـة النهضـة المصريـة ،الطبعـة الثانيـة 1954م.

3ـ بـشرى مـوسى صالـح، الصـورة الشـعرية في النقـد العربـي الحديـث، النـاشر المركـز الثقـافي العربـي، الطبعـة الأولى 1994م.

4ـ جابـر عصفـور، الصـورة الفنيَـة في الـتراث النقـدي والبلاغـي عنـد العـرب، الطبعـة الثالثـة 1992م،النـاشر المركـز الثقـافي العربـي.

5ـ ـ زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

6 ـ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، الطبعة الحادية عشر.

7ـ عـلي البطـل ، الصـورة في الشـعر العربـي حتـى آخـر القـرن الثانـي الهجـري دراسـة في أصولهـا وتطورهـا، دار الأندلـس الطبعـة الثانيـة 1401هـ ـ 1981م.

8ـ محمد حسن عبدالله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف.

9ـ محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر ، الطبعة السادسة 2005م.

10ـ محمد مصطفى بدوي، نوابغ الفكر الغربي(كولردج) دار المعارف الطبعة الثانية.

11ـ نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى1962م.

ممارسة الخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الأطفال الموهوبين

إعـــــداد:
د. حسين الشارف عبدالله محمد
أستاذ مساعد بقسم علم الاجتماع- كلية العلوم والآداب توكرة/ جامعة بنغازي.
د. وائل صلاح ابريك الدمنهوري .
محاضر بقسم الخدمة الاجتماعية – كلية الآداب/ جامعة طبرق

الاستلام : 15/ 2/ 2023 القبول: 5/ 3/ 2023

المستخلص:

الأطفال الموهوبون أحد أهم الاهتمامات لكافة المجتمعات في عصرنا الحالي وعندما نتحدث عن الموهبة يجب علينا أن نركز في المقام الأول على مرحلة الطفولة باعتبارها هي أكثر المراحل العمرية التي تظهر فيها كافة دلالات المواهب وعلاماتها، ويجب أن تتضافر وتتعاون كافة المهن والتخصصات من أجل دعم ومساندة الأطفال الموهوبين باعتبارهم هم أجيال المستقبل وسواعد التنمية في أي مجتمع، وتعد الخدمة الاجتماعية إحدى المهن التي تولى اهتماماً بالموهوبين، ولهذا جاءت الدراسة الراهنة بعنوان ممارسة الخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الأطفال الموهوبين، وسعت الدراسة في ظل أهدافها إلى رصد الأدوار الخاصة بممارسة الخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الأطفال الموهوبين، كذلك الوقوف على طبيعة العمليات المهنية لممارسة الخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الأطفال الموهوبين ورصد المهارات المهنية كمتطلبات أساسية للممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الأطفال الموهوبين، وقد استعرض الباحث بعض الدراسات السابقة الأجنبية والعربية التي اهتمت بالموهوبين وكيفية تقديم أوجه الرعاية لهم باعتبارهم سواعد القوى البشرية المستقبلية في المجتمعات، وقد أكدت نتائج تلك الدراسات على أهمية الموهوبين وأهمية دور الخدمة الاجتماعية كإحدى المهن الإنسانية المتخصصة القادرة على دعم الأطفال الموهوبين ومساندتهم، كما استعرضت الدراسة إطاراً نظريا حول الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية وخصائص الأطفال الموهوبين وأهميتهم وحاجاتهم ومشكلاتهم واختتمت الدراسة بتصور مقترح حول أبعاد الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الأطفال الموهوبين وأيضا رؤية تصورية حول اكتشاف الأطفال الموهوبين واستدامة برامج رعايتهم.

الكلمات المفتاحية :
الممارسة – الخدمة الاجتماعية – الرعاية – الاطفال الموهوبين.

ABSTRACT:

Gifted people are one of the most important concerns of all societies in our current era. When we talk about talent, we must focus primarily on childhood, as it is the most age–stage in which all indications and signs of talent appear, and all professions and disciplines must come together and cooperate in order to support gifted children as they are They are the future generations and the levers of devel–opment in any society, and social work is one of the professions that pays attention to the gifted, and for this reason the current study was titled The Practice of Social Work in the field of caring for gifted children, As well as standing on the nature of professional processes for practice of social work in the field of caring for gifted children. in communities The results of these studies confirmed the importance of the gifted and the importance of the role of social work as one of the specialized humanitarian professions capable of supporting and assisting gifted children. The field of gifted children's care as well as a conceptual vision about the discovery of gifted children and the sustainability of their care programs .the practice of social work in the field of caring for gifted children and monitoring professional skills as basic requirements for the professional.

Key word:

practice– social work – Gifted Children– caring

مقدمة :

أدى الالتفات للأهمية البالغة لمفهوم "رأس المال البشري" في نهضة المجتمع لإعطاء أولوية للتنمية البشرية كماً وكيفاً وعمقاً، خاصة في ظل التقدم التكنولوجي الذي يقلل من قيمة الوظائف التي لا تحتاج لمهارات عالية، ويخلق وظائف جديدة ترتكز على المعرفة، وتعمل على تغيير الأهمية النسبية لعوامل الإنتاج، ولا شك أن الموهوبين، بما يتميزون به من طاقات بشرية فردية، يمثلون الثروة الحقيقية، والقوة الدافعة للتقدم، فعن طريقهم ازدهرت الحضارة الإنسانية، وبإيدهم صنعوا سعادة البشرية ورفاهيتها، وفي رعايتهم استثمار للمستقبل، فهم الأقل ندرة والأكثر قيمة في إحداث التغيير الإيجابي المنشود. ويُعد الموهوبين- في كثير من المجتمعات- ثروة مهملة وغير مستثمرة وذلك لعدم التعرف عليهم، والكشف عنهم في كثير من الأحيان بسبب عدم اهتمام البيئة المحيطة بمواهبهم، وبذلك قد يعيش الموهوبين طوال حياتهم دون أن تكشف قدراتهم أو تتاح لهم فرص المساهمة في تقدم مجتمعاتهم وذلك بتوظيف مواهبهم في مجالات منتجة، كما أن الموهوبين في أي مجتمع هم الثروة القومية، وهم الطاقة الدافعة نحو الحضارة والتقدم والبناء، فعن طريقهم بعد قدرة الله تعالى توصلت الإنسانية للمخترعات الحديثة التي نقلت الإنسان من أضواء الشموع إلى عصر الكهرباء، ومن عصر الانتقال بالدواب وعربات الخيل إلى عصر السيارة والقطار والطائرة، فقربت المسافات واندمجت المجتمعات وتلاقت الحضارات.[1]

ومن هنا شهد النصف الثاني من القرن العشرين اهتماماً خاصاً بين علماء النفس، والتربية، والاجتماع، والخدمة الاجتماعية بالموهوبين واعتبارهم من ذوي الاحتياجات الخاصة، لحاجتهم لبرامج تربية خاصة، لتهيئة طرق رعايتهم، وتنمية مواهبهم، وتقديم البرامج لمواجهة مشكلاتهم.[2]

وعلى عكس الاعتقاد السائد أن الموهوبين لا يحتاجون لاهتمام خاص، لأنهم قادرون ويستطيعون تدبر أمورهم وحل مشكلاتهم بأنفسهم، إلا أنهم وفقاً لصفاتهم الشخصية، والسلوكية، والانفعالية، والتعليمية، والاجتماعية قد يواجهون مشكلات تنجم عن امتلاكهم لتلك الصفات، وخصوصاً مع مجتمع الرفاق في المدرسة، أو مع أفراد أسرهم، وربما مع المجتمع المحيط، وهناك ضرورة ملحة للوقوف على أوضاعهم ومشكلاتهم، ثم التدخل لمن لهم صلة مباشرة بهم سواء أكانوا مرشدين تربويين أو معلمين أو الأهل، لمساعدتهم على مواجهة تلك المشكلات.[3]

(1) ميادة إبراهيم طالب، فلسفة تعريف الموهبة في التربية، مجلة الأستاذ بكلية التربية جامعة بغداد، (2013) ، العدد (205)، المجلد 2 ، ص269.

(2) إسماعيل إبراهيم بدر، المشكلات الانفعالية والسلوكية للطلاب الموهوبين منخفضي التحصيل الدراسي، المؤتمر العلمي العربي السادس، الجمعية المصرية لأصول التربية بالتعاون مع كلية التربية، جامعة بنها، مصر (2013) م2، ص25.

(3) - سعيد حسني العزة ، تربية الموهوبين والمتفوقين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، (2002) ، ص96.

أولا: مشكلة الدراسة :

إن مجال الموهبة والموهوبين يقع أمام تحديات كبيرة يجب أن تدركها جميع المؤسسات التي تعني برعاية الموهوبين وذلك لرعايتهم وتقديم كافة السبل من أجل الارتقاء بأدائهم وتجعل وضعهم في برامج رعاية الموهوبين أمراً ملائماً ومعقولاً وتكون البرامج فعالة بالنسبة للجميع، حيث أن الموهوبين لا يمكن إيجادهم عن طريق المصادفة فقط، وبما أن المصادفات لا تصنع المعجزات ومن هنا كان لابد من البحث عن الموهوبين بشكل دقيق وصادق ويجب البحث عنهم في الأماكن التي يتوقع وجودهم فيها كالمدارس والأندية (الرياضية والاجتماعية والثقافية) والقطاع الخاص أو العام " الحكومي".

وعند معرفة الموهوبين يكون من الواجب الحفاظ عليهم، وهنا تكمن الصعوبة الحقيقية لأن المحافظة عليهم هي أكبر دليل على نجاح برامج رعاية الموهوبين وهي المقياس الحقيقي لجودة العمل في هذا المجال.

ولا يمكن النجاح في هذا المجال إلا عن طريق تعاون جميع القطاعات، الخاص والمجتمع المدني والحكومات وتكاتف الكل من أجل الوصول إلى الهدف الأسمى المرجو من هذه الفئة وهو بناء الأمة والرقي بها. (4)

وتحرص مهنة الخدمة الاجتماعية كمهنة داخل المجتمع على تفعيل دورها نحو رعاية الموهبة والموهوبين وتؤكد العديد من الكتابات والدراسات العلمية على أن الخدمة الاجتماعية من أكثر المهن اهتماماً بالموهوبين و تحرص على تقديم كافة الخدمات والرعاية لكافة فئات المجتمع وخاصة فئة الموهوبين من خلال التركيز على البرامج الخاصة برعايتهم واكتشاف قدراتهم وإمكاناتهم واحتياجاتهم سواء المادية أو العينية من الشراكة المجتمعية بين كافة المنظمات الحكومية والأهلية والقطاع الخاص ومن خلال ما يقع على هذه المنظمات من مسئولية اجتماعية لتعبئة الموارد البشرية غير المستغلة ووسيلة الفهم والتفاعل المتبادل لجهود وموارد كل أطراف المجتمع. (5)

وفى السياق السابق تسعى الدراسة الراهنة الى البحث في موضوع فئة الأطفال الموهوبين وكيف العمل من أجل استثمارهم، حيث تحدد موضوع الدراسة فى " ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الأطفال الموهوبين "

ثانيا : أهمية الدراسة:

1. تمثل فئة الموهوبين أحد الموارد البشرية بالمجتمع، والتي تحتاج إلى توفير كافة أوجه الرعاية لاستثمارها وتنمية قدراتها للاستفادة منها كقوي بشرية منتجة وفاعلة في برامج التربية.
2. الاحساس بالمسئولية تجاه الموهوبين في ضوء الاهتمام العالمي بهم وأهمية

(4) فتحي عبد الرحمن جروان، أساليب الكشف عن الموهوبين ورعايتهم، دار الفكر للنشر ، ط2، عمان،(2008) ص58.

(5) عصام عبد الرازق فتح الباب ، الشراكة المجتمعية لرعاية الطلاب الموهوبين في ضوء الخدمة الاجتماعية، مجلة كلية الخدمة الاجتماعية، (2018) ، العدد 59، الجزء السابع، ص17.

رعايتهم اجتماعياً ونفسياً وثقافياً.

3. إلقاء الضوء على أهمية الدور الذي يمكن أن تقوم به مهنة الخدمة الاجتماعية في تفعيل برامج رعاية الموهوبين من أجل خلق المناخ الملائم وتوفير الامكانيات لتطوير مواهبهم واستثمارها.
4. ندرة الدراسات السابقة في حدود علم الباحث، والتي ربطت بين الخدمة الاجتماعية ورعاية الموهوبين، ولذا فربما تفيد الدراسة الراهنة المهتمين والباحثين في إثراء المعرفة العلمية وفتح مجال لإجراء المزيد من الدراسات.

ثالثاً : أهداف الدراسة .

الهدف العام: "التعرف على ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الاطفال الموهوبين".

الأهداف الفرعية:

1. **التعرف على دور الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الاطفال الموهوبين.**
2. **التعرف على عمليات ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الاطفال الموهوبين.**
3. **التعرف على أدوات ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الاطفال الموهوبين**
4. **التعرف على استراتيجيات ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الموهوبين.**
5. **التعرف على أساليب ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الاطفال الموهوبين.**
6. **التعرف على مهارات ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الاطقال الموهوبين.**
7. **التوصل الى تصور مقترح حول ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الاطفال الموهوبين.**

رابعاً: الدراسات السابقة:

1 -دراسة (عبد العزيز الشخص، 2015)

هدفت الدراسة إلى استعراض الأساليب المختلفة المستخدمة في التعرف على المتفوقين والموهوبين، والتوجهات العامة للبرامج المستخدمة في تنمية قدراتهم، وأبرز الاستراتيجيات المستخدمة في تقديم تلك البرامج، وصولاً إلى تصور لبرنامج يمكن استخدامه مع هؤلاء الأطفال في مجتمعنا العربي، وقد تمثلت مشكلة الدراسة بصورة عامة في محاولة الإجابة عن" ما أهم الأساليب المستخدمة بصورة عامة في التعرف على الأطفال المتفوقين والموهوبين؟، كذلك ما أبرز توجهات البرامج التربوية المستخدمة في رعاية المتفوقين والموهوبين؟، وما أهم الاستراتيجيات المستخدمة في تقديم البرامج التربوية للمتفوقين والموهوبين بما يساعد في تنمية قدراتهم؟، واخيرا ما أهم المعالم الأساسية للبرنامج التربوي المقترح لتنمية قدرات المتفوقين والموهوبين في المجتمع العربي؟

وقد تم الإجابة عن تلك الأسئلة من خلال استعراض المعالم الأساسية لأساليب التعرف على الأطفال المتفوقين عقلياً والموهوبين، وكذلك التوجهات العامة للبرامج التربوية المستخدمة في تنمية قدراتهم واستثمارها، بالإضافة إلى الاستراتيجيات المختلفة المستخدمة في تنفيذ تلك البرامج، وفي النهاية تم تقديم

برنامج مقترح لتنمية قدرات المتفوقين عقلياً والموهوبين في المجتمع العربي. [6]
2 - دراسة (عصام عبد الرازق فتح الباب، 2018)

هدفت الدراسة إلى إبراز دور مهنة الخدمة الاجتماعية في دعم وتعزيز وتبني وتحقيق الشراكة المجتمعية بين كل الأجهزة المجتمعية ممثلة في المؤسسات الحكومية والمدرسة والأسرة، وتنظيمات المجتمع المدني، والجمعيات الخيرية، والقطاع الخاص، ورجال الأعمال، والتي تعمل على استثمار وتوظيف العنصر البشري والقوة الذاتية للمجتمع في المقام الأول، وهي التنمية التي تقوم على الابتكار والابداع والتي تراعي الاعتبارات البيئية، وهي التي تتحقق في ظل توافر مناخ مشجع على حرية التفكير والحوار، وتوفر قدر معقول من الرعاية والأمان والثقة لدي من يراد منهم التكفير الابداعي، ولذا فإن الاهتمام بالطلبة الموهوبين والمتميزين يعد أحد المجالات الهامة التي تضعها الخدمة الاجتماعية كمهنة داخل المؤسسات التعليمية نصب أعينها، من خلال العناية بالمواهب، وخاصة فئة الموهوبين من الطلاب بتركيز البرامج الخاصة التي يشرف عليها الاخصائي الاجتماعي ، وإدارة المدرسة والأخصائي النفسي، ومجلس الآباء كفريق عمل واحد، بالتعاون مع المجتمع الخارجي كشراكة مجتمعية منظمة، ومقصودة بالتنسيق فيما بينهم والمتابعة والتنفيذ باعتبار أنها فئة تحوي الأجيال الصاعدة في المجتمع. [7]

3 - دراسة (Desen Yalim , et al , 2020)

إن الهدف الرئيسي من الدراسة هو التعريف بالمشاكل التي يواجهها الأطفال الموهوبين في المجال الاجتماعي العاطفي وبرامج التدخل الأكثر شيوعاً، وذلك من منطلق أن الدراسات التي أجريت في مجال الطلاب الموهوبين حصلت على اهتمام في الفترة الأخيرة، ولأن الدراسات التي تهتم بالاحتياجات العاطفية والاجتماعية لا تزال محدودة، وقد استمدت الدراسة نمط "دراسة الحالة" باعتباره أكثر ملائمة لطبيعة الدراسة حيث ينصب التركيز على تحديد الطفل الموهوب الذي يعاني من مشاكل في النمو الاجتماعي والعاطفي من خلال الملاحظات والمقابلات المختلفة، حيث طبقت الدراسة على حالة طفل ومعه ثلاثة بالغين هما والده ووالدته والمعلم الاستشاري للصف الخاص به، حيث تحديد المستوي العقلي للطفل وإجراء الاختبارات اللفظية له وتقدير درجة ذكائه. وتم دراسة الحالة والأوضاع الدراسية والأسرية اعتماداً علي أدوات دراسة الحالة "الملاحظات، المقابلات وجهاً لوجه، المواد السمعية والبصرية والوثائق والتقارير"، واستخدمت من قبل المستشار النفسي، وأظهرت النتائج أهمية تقديم التثقيف للأسرة والمعلمين حول حل المشكلات الاجتماعية والعاطفية وتقديم التدريب على المهارات الاجتماعية

(6) عبد العزيز السيد الشخص، أساليب التعرف على المتفوقين عقلياً والموهوبين ورعايتهم وتنمية قدراتهم الابتكارية "برنامج مقترح"، مجلة التربية الخاصة والتأهيل،(2015)، المجلد 2، العدد 8 ، الجزء الأول، يوليو، 2015، ص1.

(7) ، عصام عبد الرازق فتح الباب ، الشراكة المجتمعية لرعاية الطلاب الموهوبين في ضوء الخدمة الاجتماعية مرجع سابق، 2018، ص15.

وتحسين جودة العلاقات، وتحديد القضايا التي تواجه التواصل الاجتماعي مع الطفل الموهوب، وتؤكد الدراسة على أهمية التدخل المبكر في المشاكل التي تواجه الأطفال الموهوبين لدعم نموهم العاطفي والاجتماعي.[8]

4 - دراسة (Eid Abo Hamza, et al .2020)

تشير الدراسة إلى أنه يتم تعريف الطلاب الموهوبين في كثير من الأحيان كأفراد يظهرون أداء أكاديمياً أعلي من المتوسط مقارنة بأقرانهم في نفس الفئة العمرية، ولا يزال هناك بعض الخلاف حول ما يمكن أن نحدده حول مفهوم الفرد الموهوب، وفي إطار هذا قامت الدراسة بإجراء مراجعة منهجية للأدبيات الموجودة فيما يتعلق بالتعريفات المختلفة للموهبة والقضايا المختلفة المتعلقة بالموهبة، وقد أشارت النتائج إلى أن الموهبة ليست قاصرة على المجال المدرسي أو التفوق الدراسي فقط وانما الموهبة ترتبط بمجالات حياتية أخري، وأضافت أنه من خلال مراجعة الأدبيات التي اهتمت بالموهوبين إلى أن هناك عدة خصائص يتصف بها الموهبين وكذلك تعدد الأساليب التي يمكن أن تستخدم في اكتشاف الموهوبين، وأكدت الدراسة على أهمية التركيز بشكل أساسي على وضع تعريف متكامل للموهوبين، والسعي إلى تحسين آليات اكتشاف الموهوبين. [9]

5 - دراسة (علي يحي ناصف، 2020)

هدفت الدراسة إلى التعرف على دور الأخصائيين الاجتماعيين في استخدام الأنشطة الطلابية في خدمة الجماعة للتخفيف من حدة بعض مشكلات الطلبة الموهوبين، والتي تتمثل في المشكلات: "الذاتية، البيئة المدرسية، الأسرية، المجتمعية"، وتعتبر الدراسة وفقا لاهدافها دراسة تقويمية، اعتمدت على منهج المسح الاجتماعي بالعينة، واستخدمت الدراسة ادوات بحثية تمثلت فى استبيان مطبق على عينة من الأخصائيين الاجتماعيين وعددهم (890) أخصائي اجتماعي، والطلبة الموهوبين بالمعاهد الإعدادية الأزهرية بلغ عددهم (3129 طالب وطالبة)، والمقابلات الفردية والجماعية مع بعض السادة العاملين في مجال رعاية الطلبة الموهوبين بالمعاهد الإعدادية الأزهرية، واستخدمت المعالجات الإحصائية لتحليل البيانات، وأوضحت نتائج الدراسة أن الأخصائيون الاجتماعيون يمارسون دورهم في استخدام الأنشطة الطلابية للتخفيف من حدة مشكلات الطلبة الموهوبين بدرجة متوسطة، كما تواجههم العديد من المعوقات بدرجة مرتفعة. [10]

(8)Desen Yalim Yamen & Asli Bugay :A case study on social emotional problem in gifted children ,Elementary Education Educaiton can line :131 ,19 ,2020 ,pp1768-1780 .

(9) Eid AboHamza ,Enas Mohamed and Yasmen Elsantil :A systemic review based study of gifted and talented ,talent development & excellence ,Vol ,12 No2 .s ,2020 ,pp2888-2897 .

(10) علي يحي ناصف، تقويم دور الأنشطة الطلابية في خدمة الجماعة في التخفيف من حدة بعض مشكلات الطلبة الموهبين، مجلة كلية الخدمة الاجتماعية للدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الفيوم، 2020، العدد 19، الجزء الثاني، ص 302-183.

6 - دراسة (محمد الدمرداش أبو الفتوح، 2020)

وقد جاءت تلك الدراسة بعنوان، تصور مقترح لمنظمات المجتمع المدنى لتنمية قدرات الموهوبين فى المجتمع المصرى، وقد هدفت الى تحديد متطلبات احتياجات منظمات المجتمع المدني لتنمية قدرات الموهوبين، مع وضع تصور مقترح من منظور تنظيم المجتمع لتنمية قدرات الموهوبين بمنظمات المجتمع المدني، وتنتمى تلك الدراسة وفقا لطبيعة أهدافها إلى الدراست الوصفية التحليلية، واستخدمت وفقاً لذك منهج المسح الاجتماعي، أما أداة الدراسة فقد تمثلت في استمارة استبيان للأخصائيين الاجتماعيين والعاملين بالجمعية المصرية لرعاية الموهوبين والمتفوقين وعددهم (78) مفردة، وقد أوصت الدراسة على ضرورة توفير أخصائيين اجتماعيين بمنظمات المجتمع المدني متخصص في مجال الموهبة ينمي الثقة بالنفس لدي الموهوب، ويعزز تقديره لذاته، ويدربه على مواجهة التحديات الشخصية التي يواجهها ويساعده على التكيف مع نفسه ومع الآخرين. [11]

7 - دراسة (عبد الحميد عبد الله العرفج، 2021)

هدفت الدراسة إلى التعرف على واقع برنامج صفوف الموهوبين بمدارس إدارة الخدمات التعليمية بالمملكة العربية السعودية بينبع الصناعية كما يراها أولياء الأمور والطلاب، واستخدمت الدراسة المنهج الوصفي، حيث تكون مجتمع الدراسة من أولياء الأمور والطلاب خلال فترة إجراء الدراسة العام الدراسي 2017/ 2018م، وشملت عينة الدراسة (141) من أولياء الأمور و(228) طالباً، واعتمدت الدراسة أداة الاستبانة، وأظهرت الدراسة أن أولياء الأمور (موافقون بشدة) على أن البرنامج يعمل على تطوير وتنمية اهتمامات وقدرات الطلبة في العلوم والرياضيات. ويعمق فهم الطلبة للمعارف والمهارات الأساسية وأن أفراد عينة الدراسة من الطلاب موافقون بشدة على أن البرنامج يقدم أنشطة إثرائية تطويرية اختيارية وإجبارية لتنمية التفكير الابداعي والناقد لديهم، أوصت الدراسة بتطوير أنظمة القبول والإعلان عنها وكذلك تحفيز القائمين على برامج صوف الموهوبين بالهيئة، وطرح البحث مجموعة من التوصيات تمثلت فى ضرورة توفير الدورات التدريبية للأخصائيين الاجتماعيين لإكسابهم مهارات التعامل مع الموهوبين ذوي الاستثناءات المزدوجة، كذلك إقامة ندوات ثقافية لتنمية وعي الآباء والأمهات ومحاولة مساعدتهم على فهم كيفية التعامل مع أطفالهم الموهوبين وفقاً لمتطلباتهم واحتياجاتهم وأيضاً توعية الموهوبين بأهم المشكلات التي يمكن أن تواجههم وكيفية التعامل معها وحلها بالطرق العلمية السليمة، مع ضرورة المساهمة في وضع خطة تأهيلية لكل فرد موهوب ولديه إعاقة تتسم بالفردية وتساعده على رسم وتحديد مستقبل حياته المهنية الاجتماعية على ضوء قدراته. [12]

---

(11) محمد الدمرداش أبو الفتوح إبراهيم ، تصور مقترح لمنظمات المجتمع المدني لتنمية قدرات الموهوبين في المجتمع المصري، مجلة كلية الخدمة الاجتماعية للدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الفيوم، 2020، العدد 18، الجزء الأول، ص 170-135.

(12) - عبد الحميد عبد الله العرفج ، فصول الموهوبين: تصورات الطلاب وأولياء الأمور من برنامج الهيئة الملكية السعودية للجبيل وينبع، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، للعلوم الإنسانية والإدارية، جامعة الملك فيصل، 2021، مجلد 22، عدد خاص، ص 14-7.

8 – دراسة (Christine Somchez, et al., 2022)

سعت الدراسة إلى تسليط الضوء على موضوع الأبوة والأمومة للأطفال الموهوبين مع التركيز على احتياجاتهم الاجتماعية العاطفية الاستثنائية، حيث يعد موضوع تربية الموهوبين بين الموضوعات الحساسة والتي تؤثر على عملية اتخاذ القرارات الخاصة بتعليمهم وتنمية قدراتهم، وتشير الدراسة إلى أن المحددات المهمة للنمو الشخصي للأطفال الموهوبين هو الأبوة والأمومة ذات الارتباط القوي بأبنائهم وتوفر لهم الاستقلالية والتحفيز الذاتي كما يجب تحديد سلوكيات الآباء ومواقفهم تجاه الاحتياجات الاستثنائية للأطفال، وقد تم إجراء البحث من خلال مراجعة الكتابات والمنشورات المتعلقة بتربية الأطفال الموهوبين وكان الموضوع الرئيس هو "تربية الأطفال الموهوبين" و"الموهبة والأبوة والأمومة"، و"الاحتياجات الاجتماعية والعاطفية للموهوبين حيث تم مراجعة دراسات انجليزية نشرت بعد سنة 2000، والتي ركزت بشكل خاص على تربية الأطفال الموهوبين فيما يتعلق باحتياجاتهم الاستثنائية وأسفرت هذه المراجعات عن مجموعة (16) منشوراً استوفت معايير التضمين وقد استخدم البحث منهجية تحليل المحتوي، وقد تم تنظيم الدراسات المختارة ومن خلال هذه المراجعة الأولى للبحوث والدراسات الخاصة بالموهوبين أشارت النتائج إلى أن الطفل الموهوب يمتلك مجموعة من السمات الشخصية ومجالات الموهبة ويمكن أن تظهر هذه السمات بطريقة سلبية أو إيجابية، وأن أحد التحديات التي تواجه الطفل هي التعبير عن المظاهر الإيجابية و المظاهر السلبية لسمات الموهوبة وتشير النتائج أن الوالدين لديهم تأثير على نظرة الطفل للعالم والمهارات التي يكتسبها.[13]

خامساً : مفاهيم الدراسة:

مفهوم ممارسة الخدمة الاجتماعية:

باتت ممارسة الخدمة الاجتماعية جزءاً أصيلاً من برامج التعليم والإعداد العلمي والعملي الموجه لإعداد الممارسين المهنيين، ولذا تعد الممارسة رؤية لطبيعة الممارسة المهنية، والتي تؤكد على تحقيق العدالة الاجتماعية والتركيز على مواجهة المشكلات الاجتماعية وإشباع الحاجات الإنسانية، مما يجعل الأخصائي الاجتماعي يحاول أن ينتقي أو يختار من بين النظريات وأساليب التدخل معتمداً على منظور الأنساق الأيكولوجية وعملية حل المشكلة كموجهات له.[14]

تعتبر الممارسة اتجاهاً تفاعلياً يبتعد عن النمط التقليدي للخدمة الاجتماعية الذي يقسمها إلى طرق أساسية مثل خدمة الفرد وخدمة الجماعة وتنظيم المجتمع، وقد عرفت دائرة معارف الخدمة الاجتماعية الممارسة على أنها الإطار

(13) Christine Sanchez ,Emmanuelle Brigud ,Pascal Moliner and Nathalie Blance :The social representations of gifted children in childhood professional and the general adult population in Franc ,Fourmal for the education of the gifted ,vol ,45 no ,2022 ,2 pp179-199 .

(14) Pomela S .London :Generalist and Advanced Generation Practice of Social Work ,Encyclopedia of Social Work19 ,th Ed ,.Washington ,DC ,.N.A.S.W ,1995 ,.P102.

الـذي يوفـر للأخصائـي الاجتماعـي أساسـاً نظريـاً انتقائيـاً للممارسـة المهنيـة حيـث أن التغيـير البنـاء يتنـاول كل مسـتوى مـن مسـتويات الممارسـة (مـن الفـرد حتـى المجتمـع)، وتتمثـل المسـئولية الرئيسـية للممارسـة العامـة في توجيـه وتنميـة التغيـير المخطـط أو عمليـة حـل المشـكلة.[15]

وفي إطـار ذلـك تسـعى ممارسـة الخدمـة الاجتماعيـة إلى تحقيـق أهـداف علاجيـة والتـي تضمـن حـل المشـكلة لتقويـة أو اسـتعادة قـدرات الأفـراد والجماعـات والمجتمعـات عـلى الأداء الاجتماعـي، وأهـداف وقائيـة تضمـن التعـرف عـلى المناطـق الكامنـة والمحتملـة لمعوقـات الأداء الاجتماعـي، ومنـع ظهورهـا مسـتقبلاً أو التقليـل منهـا إلى أدنـى حـد ممكـن، وأهـداف تنمويـة لمسـاعدة الأفـراد والجماعـات والمجتمعـات عـلى تحقيـق الـذات وتدعيـم أدائهـم الوظيفـي.[16]

وانطلاقـاً مـن هنـا فـإن اتجـاه الممارسـة يتضمـن النظـر إلى الموقـف الإشـكالي للعميـل اعتمـاداً عـلى مفهـوم أن العميـل يعيـش في بيئـة، والممارسـة قـادرة عـلى التدخـل لتعديـل البيئـة لصالـح العميـل والعمـل مـع مسـتويات عديـدة ومتنوعـة ولهـا عـدد مـن الأدوار، وتتطلـب الممارسـة العامـة في الخدمـة الاجتماعيـة إعـداد الأخصائـي الاجتماعـي بحيـث يكـون قـادراً ومؤهـلاً عـلى تقديـم الخدمـات. [17]

ولذلـك نجـد أن الممارسـة المهنيـة للخدمـة الاجتماعيـة تعتمـد عـلى انتقـاء المداخـل أو النمـاذج المهنيـة المتاحـة أمـام الأخصائيـين الاجتماعيـين واسـتخدامها في الممارسـة المهنية مع نسق الهدف بما يتناسب مع نسق العميل ونسق المشكلة. [18]

ويتعامـل مدخـل الممارسـة مـع كل مـن الاهتمامـات الخاصـة والمشـكلات العامـة، وتعتمـد الممارسـة العامـة عـلى قيـم الخدمـة الاجتماعيـة وميثاقهـا الأخلاقـي في سـعيها لدعـم التنـوع والعدالـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة، مـع التركيـز عـلى النـاس المعرضـين للخطـر .Populations at Risk[19]

وهـذا يتفـق تمامـاً مـع منظـور الجمعيـة الأمريكيـة للمختصـين الاجتماعيـين NASW الـذي يؤكـد أن المهمـة الأولى لمهنـة الخدمـة الاجتماعيـة تتمثـل في تعزيـز الرفاهية الاجتماعيـة والمسـاعدة عـلى إشـباع الاحتياجـات الإنسـانية الأساسـية لـكل النـاس، مـع الاهتمـام بصفـة خاصـة باحتياجـات النـاس وتمكينهـم، وبخاصـة الضعفـاء والمظلومـون، وأولئـك الذيـن يعانـون مـن الفقـر، وتاريخيـاً تميـزت الخدمـة الاجتماعيـة

(15) Kirst –Ashman ,Hull ,G :.Understanding Generalist Practice6 th ed) Belmont ,Brooks/Cole ,2011 , (P.6.

(16)أحمـد محمـد السـنهوري، "مداخـل ونظريـات ونمـاذج الممارسـة المعـاصرة للخدمـة الاجتماعيـة مـن منظـور الممارسـة العامـة"، دار النهضـة العربيـة، القاهـرة ، (1998)، ص ص351–350.

(17) Elizabeth March and Et al :.The General Method of Social Work Practice ,Mc Mohan's Generalist Perspective ,Boston ,Align and Bacon ,2002 ,P.61.

(18) – جمـال شـحاتة حبيـب، الممارسـة العامـة مـن منظـور حديـث في الخدمـة الاجتماعيـة، المكتـب الجامعـي الحديـث، الاسـكندرية، (2008) ، ص27.

(19) Jack L Stokes :Southeast Missouri State University ,2003 ,http//:cstlhhs.semo.edu/stokes /SW308/index.htm8:20 ,7/3/2013:pm) GMT. (

بأنها المهنة التي اهتمت بالإنسان في سياق بيئته الاجتماعية ورفاهيته في المجتمع. ويتمثل الاهتمام الأساسي للمهنة في التركيز على العوامل والقوى البيئية التي تخلق المشكلات المعيشية وتسهم في علاجها. إن نشأة مهنة الخدمة الاجتماعية تدلل على ارتباطها في الأساس بجذور قوية بنظام من القيم الإنسانية، تلك المنظومة القيمية التي تبناها الأخصائيون الاجتماعيون عبر التاريخ المهني في سعيهم لتحقيق الأغراض الفريدة التالية:

الخدمات، العدالة الاجتماعية ، كرامة وقيمة الإنسان، وأهمية العلاقات الإنسانية والنزاهة والكفاءة. (20)

ويقصد بممارسة الخدمة الاجتماعية في الدراسة الراهنة: تلك الممارسة التي تعتمد على الأساس المعرفي، والمهاري، والقيمي لمهنة الخدمة الاجتماعية و تقوم الممارسة على عملية الانتقاء من بين النظريات المختلفة التى من شأنها تحقيق خدمات رعاية الاطفال الموهوبين حيث تقوم الممارسة على مجموعة من الجهود المهنية التي تستهدف رعاية الاطفال الموهوبين كما تتضمن الممارسة العامة الأدوار المهنية والعمليات والأدوات والاستراتيجيات والأساليب المهنية التي تستخدم من أجل رعاية الاطفال الموهوبين.

مفهوم الطفولة :

الطفل في اللغة هو المولود حتى البلوغ، والطفولة هي مرحلة من الميلاد إلى البلوغ.(21)

ويشير قاموس اكسفورد Oxford إلى الطفل على أنه الإنسان حديث الولادة سواء كان ذكراً أو أنثى، كما يشير إلى الطفولة على أنها الوقت الذي يكون فيه الفرد طفلاً ويعيش طفولة سعيدة.(22)

كما يشير قاموس لونجمان Longman: إلى الطفل على أنه الشخص صغير السن منذ وقت ولادته حتى بلوغه سن الرابعة عشر أو الخامسة عشر وهو الابن أو الابنة في أي مرحلة سنية، كما يعرف الطفولة على أنها المرحلة الزمنية التي تمر بالشخص عندما يكون طفلاً.(23)

وينطوي مفهوم الطفل في علم النفس على معنيين معنى عام ويطلق على الأفراد من سن الولادة وحتى النضج الجنسي، ومعنى خاص ويطلق على الأعمار فوق سن المهد وحتى المراهقة.(24)

وتعرف الطفولة من وجهة نظر علماء الاجتماع على أنها: هي تلك الفترة المبكرة من الحياة الإنسانية التي يعتمد فيها الفرد على والديه اعتماداً كلياً

(20)James J ,.Kelly et al :Social Workers Inspire Community Action ,Annual Report ,2009-2010 National Association of Social Workers ,Washington ,DC.2010 ,.

(21) إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوجيز، د. ن، الجزء الأول، الطبعة الثانية، ص392.

(22) Shirley burridge :Oxford Basic English Dictionary ,Oxford University Press ,1989 ,p.(39).

(23) Della Summer and etc :Longman dictionary of contemporary English) The complete Guide to written and spoken English ,(Third edition ,British national corpus ,1995 ,p.220.

(24) إبراهيم مذكور وآخرون، معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، (1975) ، ص 369.

فيما يحفظ حياته، ففيها يتعلم ويتمرن للفترة التي تليها وهي ليست مهمة في حد ذاتها بل هي مرحلة يعبر عليها الطفل حتى النضج الفسيولوجي والعقلي والنفسي والاجتماعي والخلقي والروحي والتي تتشكل خلالها حياة الإنسان ككائن اجتماعي.[25]

كما يعرف الطفل وفقاً للمادة الأولى من مشروع اتفاقية الأمم المتحدة على أنه هو كل إنسان لم يتجاوز الثانية عشرة ما لم يبلغ سن الرشد قبل ذلك بموجب القانون المنطبق عليه، وأما الطفولة فتعرف على أنها مرحلة لا يتحمل فيها الإنسان مسئوليات الحياة معتمداً على الأبوين وذوي القربى في إشباع حاجاته العضوية وعلى المدرسة في الرعاية للحياة وتمتد زمنياً من الميلاد وحتى قرب نهاية العقد الثاني من العمر وهي المرحلة الأولى لتكوين ونمو الشخصية وهي مرحلة للضبط والسيطرة والتوجيه التربوي.[26]

ويقصد بالطفولة بالدراسة الراهنة بأنها: هي تلك المرحلة العمرية المحصورة مابين(سنتين الى اثنى عشر سنة) والتى يمكن خلالها أن يكتسب الطفل العديد من المهارات وتتطور هذة المهارات عبر مراحل النضج الفسيولوجى والعقلى والنفسى والاجتماعى .

مفهوم الموهبة: في المعجم الوسيط تعني الموهبة: الاستعداد الفطري لدى المرء للبراعة في فن أو نحو، ويقال لمن امتلك موهبة ما موهوب. [27]

وأما قاموس المورد فيعرف "الموهبة" بمعنى القدرة، وجاء في التهنئة في المولود قول الحسن البصري: "بورك لك في الموهوب، وشكرت لله الواهب، وبلغ أشده، ورزقت بره ، فالواهب هو الله تعالى، وهي من صفاته عز وجل، والموهوب هو الولد. [28]

أما بالنسبة لتعريف الموهبة اصطلاحاً، فقد اختلف في مفهوم الموهوب، فقد أطلقه عدد من الباحثين على الأفراد المبتكرين ذوي القدرات الابتكارية العالية، واستعمل آخرين المفهوم في بحوثهم على أنه تفوق في القدرات مثل القدرات الموسيقية والرياضية والفنية واللغوية...الخ، ويرى آخرون أنه مصطلح أشمل وأوسع، فالموهوب هو كل ذي موهبة سواء كانت ذكاء ممتازاً أم قدرة ابتكارية عالية أي استعداد قدرة خاصة متميزة ، وهناك من يرى أن مصطلح الموهبة يستخدم لوصف أولئك الأطفال الذين لديهم قدرات واستعدادات خاصة تؤهلهم للتميز في مجال أو أكثر من المجالات الأكاديمية، أو الأدبية، أو الفنية، أو الاجتماعية أو التكنولوجية، وتؤهل الطفل ليكون ضمن أفضل مستوى من الأداء في تلك المجالات. [29]

(25) حسين عبد الحميد أحمد رشوان ، الطفل (دراسة في علم الاجتماع النفسي)، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، (1992) ، ص2.

(26) إلهامي عبد العزيز، المثابرة لدى الأطفال في ضوء بعض المتغيرات الاجتماعية مؤتمر الأطفال وآفاق القرن الحادي والعشرين، القاهرة ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، (1993)، ص 208.

(27) ابن منظور: لسان العرب، القاهرة: دار المعارف، د.ت، ص4929.

(28) محمد بن أبي بكر، تحفة المولود في أحكام المولود، الأردن، دار الإسراء للنشر، (2005)، ص18.

(29) – عبد المطلب القريطي، الموهوب والمتفوقون: سماتهم واكتشافهم ورعايتهم، القاهرة، دار الفكر العربي، (2005) ، ص42.

وفي الصدد نفسه، هناك من يرى أن الموهبة قصد بها في بادئ الأمر الاستعداد أو المقدرات الخاصة التي تمكن التلميذ من التفوق في مجالات أو عدة نشاطات غير أكاديمية، كالفنون أو القيادة الاجتماعية، والموسيقى والشعر، والتمثيل، والمهارات الميكانيكية.(30)

والموهوب هو ذلك التلميذ الذي يظهر أداء متميز مقارنة مع المجموعات العمرية التي ينتمي إليها في واحدة أو أكثر من الأبعاد الآتية: (31)

1. القدرة العقلية العالية التي تزيد فيها نسبة الذكاء عن انحرافين معياريين موجبين عن المتوسط.
2. القدرة الإبداعية العالية في أي مجال من مجالات الحياة.
3. القدرة على التحصيل الأكاديمي المرتفع التي تزيد عن المتوسط العادي.
4. القدرة على القيام بمهارات متميزة أو مواهب تميزهم عن أقرانهم العاديين، مثل: المهارات الفنية واللغوية والاجتماعية.
5. الأصالة الابتكارية الانفعالية والطلاقة والمرونة في التفكير.

كما أن الموهوبين هم الذين توجد لديهم استعدادات وقدرات غير عادية، أو أداء متميز عن بقية أقرانهم في مجال أو أكثر من المجالات التي يقدرها المجتمع، وبخاصة في مجالات التفوق العقلي والتفكير الابتكاري، والتحصيل العلمي، والمهارات والقدرات الخاصة، ويحتاجون إلى رعاية تعليمية خاصة بهم لا تتوافر لهم بشكل متكامل في برامج الدراسة العادية.(32)

وتُعرف الموهبة بأنها: "كشف للقدرات العالية والمستوى العالي في الإبداع والقدرة على التعبير عن الجديد غير التقليدية وطرح الأفكار المبتكرة لحل المشكلات التي تواجه الأفراد، كما تشير الموهبة إلى المستويات العليا أو المرتفعة لحب الاستطلاع والأضواء والانطلاق".(33)

ويقصد بالموهبة في الدراسة الراهنة بأنها قدرات وامكانيات ناتجة عن الاستعداد والقدرة لدى الطفل تمنحه التميز في المجالات الحياتية أو الاكاديمية بحيث يصبح متميزا من حيث الاداء.

سادساً: الإطار النظري :

أولاً: الممارسة العامة في الخدمة الاجتماعية.

تحتل الممارسة في الخدمة الاجتماعية أهمية وذلك لأنها تمثل "إطار للعمل يتضمن تقدير كلاً من الأخصائي الاجتماعي والعميل للموقف لتحديد النسق

(30) عبد العزيز السيد الشخص، أساليب التعرف على المتفوقين عقلياً والموهوبين ورعايتهم وتنمية قدراتهم الابتكارية ، مرجع سابق، ص4.

(31) موسى نجيب، الطفل الموهوب، الأردن، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، (2010) ، ص40.

(32) مسفر سعيد محمد الزهراني، استراتيجيات الكشف عن الموهوبين والمبدعين ورعايتهم بين الأصالة والمعاصرة، مكة المكرمة، دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع، (2007) ، ص230.

(33) أحمد الزعبي، التربية الخاصة للموهوبين والمعوقين وسبل رعايتهم وإرشادهم، الأردن، دار زهران للنشر والتوزيع، (2002) ، ص11.

الـذي يجـب أن يوجـه إليـه الاهتمـام وتركيـز الجهـود لتحقيـق التغـير المطلـوب فيـه، حيـث ينصـب تركيـز الاهتمـام عـلى الفـرد والأسرة والجماعـة الصغـيرة والمنظمـات والمجتمعـات.[34]

والممارسـة العامـة تعـد نظريـة حديثـة الاسـتخدام في الخدمـة الاجتماعيـة وتعتمـد عـلى توظيـف الأخصائـي الاجتماعـي لـكل النظريـات المهنيـة في الممارسـة لصالـح العميـل، وهـي بذلـك تعتمـد عـلى النظـرة المرنـة والمتسـعة والمفتوحـة مـن أجـل عمليـة المسـاعدة المعتمـدة عـلى الفـرد فقـط أو المجتمـع المحـلي فقـط، بـل إنهـا تنظـر إلى الإنسـان في جميـع صـورة النسـقية، وذلـك فهـي تتعامـل عـلى مسـتوى الأفـراد والأسر (الوحـدات الصغـرى) أو عـلى مسـتوى الجماعـات (الوحدات المتوسـطة) أو على مسـتوى الجماعـات الكـبرى (الوحـدات الكـبرى).[35]

كمـا تعـرف بأنهـا قـدرة الأخصائيـين الاجتماعيـين عـلى العمـل مـع مختلف الأنسـاق منهـا الأفـراد والأسر والجماعـات الصغـيرة والمنظمـات والمجتمعـات مسـتخدمين إطـاراً نظريـاً فعـالاً يتيـح لهـم الفرصـة لاختيـار مـا يتناسـب مـن أسـاليب واسـتراتيجيات للتدخـل مـع المشـكلات ومسـتويات هـذه الأنسـاق. [36]

ويقـوم الأسـاس النظـري للممارسـة عـلى فكـرة أساسـية مؤداهـا أن الكائـن الإنسـاني يحـاول بشـكل مسـتمر إشـباع احتياجاتـه وتنميـة خبراتـه ومهاراتـه وتحقيـق التـوازن مـن خـلال التفاعـل مـع المجتمـع بأنسـاقه المختلفـة، هـذا المفهـوم قائـم عـلى حقيقـة أساسـية مؤداهـا أن الإنسـان يعتـبر جـزءًا أساسـياً مـن البيئـة التي يعيـش فيهـا، ويتفاعـل معهـا باسـتمرار وتؤثـر فيـه ويتأثـر بهـا. وحيـث أن الإنسـان لا يعيـش بمفـرده في هـذا الكـون فإنـه يتعامـل مـع الأفـراد والجماعـات الموجـودة في المجتمـع مـن خـلال مجموعـة مـن العلاقـات الأساسـية التـي تتسـم بالتعقيد والتشـعب والتداخـل، وهنـاك افـتراض آخـر أسـاسي يتلخـص في أنـه نظـراً لتعـدد وتشـابك العوامل المرتبطـة بمشـكلة مـا فإنـه لا يمكـن لنظريـة واحـدة أو لنمـوذج عمـلي واحـد أن يقـدم تفسـيرات كاملـة للسـلوك الإنسـاني وطبيعـة المشـكلات والعوامـل التـي تؤثـر فيهـا، إن المبـدأ الـذي تقـوم عليـه فكـرة الممارسـة العامـة هـو الاعتمـاد عـلى المنظـور الانتقائـي في التدخـل المهنـي.[37]

(34) عبـد المجيـد طـاش نيـازي، مشـعل صقـر السـنيمائي، الخدمـة الاجتماعيـة، مكتبـة الملـك فهـد الوطنيـة، الريـاض، المملكـة العربيـة السـعودية، (2011) ، ص22.

(35) عبد الناصر عوض أحمد، نظريات مختارة في خدمة الفرد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2011، ص12.

(36) حسـن مصطفـى عبـد المعطـي، الاضطرابـات النفسـية في الطفولـة والمراهقـة الأسـباب والتشـخيص والعـلاج، دار القاهـرة للطباعـة والنـشر، القاهـرة، (2001)، ص2.

(37) هشـام سـيد عبـد المجيـد وآخـرون، "المدخـل إلى الممارسـة العامـة في الخدمـة الاجتماعيـة"، مركـز نـشر وتوزيـع الكتـاب الجامعـي، جامعـة حلـوان،(2011) ، ص ص26-25.

أهداف الممارسة في الخدمة الاجتماعية: [38]

1 - مساعدة الناس لزيادة كفاءتهم وقدرتهم على حل المشاكل أو التكيف معها خلال مساعدتهم على اختيار أفضل البدائل لمواجهة تلك المشكلات.

2 - مساعدة الناس في الحصول على الموارد المتاحة وتوجيههم إلى الاستفادة من المؤسسات التي تقدم الخدمات التي يحتاجون إليها.

3 - زيادة استفادة الناس من المؤسسات وزيادة تجاوب تلك المؤسسات معهم.

4 - تسهيل التفاعلات بين الأنساق المختلفة في البيئة الاجتماعية.

5 - التأثير في التفاعلات بين المؤسسات المجتمعية من خلال القيام بأنشطة تنسيقية.

6 - التأثير على السياسات الاجتماعية حيث أن من أهداف الممارسة العامة النهوض بالسياسات والتشريعات التي ترفع من مستوى البيئة الاجتماعية والمساهمة في حل مشاكل الأفراد والأسر والجماعات والمجتمعات بل السعي إلى معرفة واكتشاف الأسباب المجتمعية لتلك المشاكل وتدعيم الجهود التي تحسن من البيئة ارتباطاً بالأهداف الوقائية.

7 - التدخل بفاعلية لصالح السكان الأكثر تعرضاً للخطر.

ويمكن أن تشير هنا إلى أن الإطار النظري للممارسة في الخدمة الاجتماعية يتكون من القاعدة العلمية والمعرفية المكونة من النظريات الأساسية والمداخل العلمية التي يتعلمها ويتدرب عليها الممارس العام أثناء مرحلة الإعداد المهني.

وفي هذا الإطار يشير "سليمان وزملاؤه" إلى أن الإطار النظري للممارسة العامة يتسع ليشمل ما يأتي:

1. النظريات والمداخل الأساسية التي تشكل القاعدة العلمية لمفهوم الممارسة العامة.
2. نموذج النسق الأيكولوجي ومفاهيمه وارتباطه بممارسات الخدمة الاجتماعية.
3. نظرية الأنساق والمنظور البيئي ومدى مساهمتها في تحليل وفهم الأنساق الاجتماعية.
4. نظرية الفرد في المجتمع ونظرية الأزمة ومفاهيمها الأساسية.
5. مفهوم القوى ومفهوم التمكين والنظرة الحديثة لممارسة الخدمة الاجتماعية.

وتقسم نظريات الممارسة في الخدمة الاجتماعية إلى نوعين من النظريات:

القسم الأول: نظريات ومداخل أساسية:

تشكل هذه النظريات الإطار النظري التطبيقي للتدخل المهني في الممارسة العامة من حيث تحديد أنساق العملاء وطبيعة المشكلات التي يتعامل معها "الممارس العام"، وتفسير السلوك الإنساني والعلاقات بين الأشخاص والجماعات، وبين الجماعات مع بعضها، والعلاقة بين الإنسان وبيئته، وطبيعة التفاعل

(38) ماهر أبو المعاطي علي، "مداخل الممارسة العامة للخدمة الاجتماعية للتعامل مع المشكلات والظواهر الاجتماعية"، ورقة عمل في المؤتمر العلمي الثالث عشر، كلية الخدمة الاجتماعية، جامعة حلوان، 2002، ص ص26 - 28.

المستمر بينهما، ونجد أن أهم هذه النظريات تتمثل في: النظرية العامة للأنساق System Theory ونظرية الأنساق البيئية Ecological System Theory والنموذج النسقي الأيكولوجي Ecological Prospective System. ، ومنظور تمكين العميل Em-powerment Prospective

القسم الثاني : نظريات تهتم بالتدخل والتأثير:

على الرغم من قدرة النظريات السابقة على وصف وتفسير السلوك الإنساني إلا أنها لا توفر الأساليب الفنية والخطوات الضرورية لحل مشكلات الناس وإشباع حاجاتهم؛ لذا كان من الضروري الاستفادة من النظريات والاتجاهات التي توفر للممارسين الأساليب الفنية الضرورية والإجراءات والخطوات العملية للتعامل بفاعلية مع المشكلات المتنوعة للعملاء، ومن هذه النظريات والاتجاهات نجد: النظرية السلوكية والعلاج الإدراكي والمعرفي والعلاج بالواقع والعلاج الأسري والعلاج الجمعي ونظريات العمل الاجتماعي وغيرها من نظريات ومداخل التدخل المهني الأخرى.

أنساق التعامل في إطار الممارسة العامة: هناك أربعة أنساق أساسية وهي: (39)

1 - نسق محدث التغيير: هم الأخصائيون الاجتماعيون والهيئات التي يعملون بها وذلك لمساعدة العملاء على إشباع حاجاتهم وتحقيق أهدافهم.

2 - نسق العميل: يضم الأفراد والأسر والجماعات التي تسعى لطلب المساعدة وتشترك في العمل مع نسق محدث التغيير.

3 - نسق الهدف: هم الأشخاص الذين يحاول نسق محدث التغيير تغييرهم لكي يحقق أهدافه، فقد يكون هو نفسه نسق العميل، وقد لا يكون هو العميل.

5 - نسق العميل: الأشخاص الذين يعمل معهم نسق محدث التغيير على تحقيق أهدافه.

أدوار الممارس في الخدمة الاجتماعية :

1 - دور الممارس كممكن: يعني دور الممكن مساعدة نسق العميل لاكتشاف المصادر والقوى التي بداخلهم وتدعيمها وذلك لإحداث التغيير المنشود، وفي هذا الدور يمد الأخصائي الاجتماعي نسق العميل بالدعم اللازم من أجل اتخاذ الإجراءات المطلوبة لتحقيق الأهداف، ويقوم الممارس العام بمساعدة نسق العميل على تحديد حاجاته ومشكلاته وتنمية مهاراته للتعامل معها بشكل أكثر فعالية لمساعدة نفسه. (40)

2 - دور الممارس كمعلم: التعليم عملية تربوية أخلاقية معرفية مهارية قد يمارسها الممارس العام مع بعض العملاء ومفتقدي أو قليلي المعرفة والخبرة والمهارة بأساليب التربية والتعامل مع الأبناء والآباء أو أصحاب المشاكل أو الاحتياجات الخاصة، ويعد دور المعلم من الأدوار المهمة جداً في المجتمعات النامية والمتخلفة

(39) Malcolm Payne" :Modern Social Work Theory4 ,"th Edition ,Palgrave Macmillan ,1997 ,P.141.

(40) جمال شحاتة حبيب، "الممارسة العامة للخدمة الاجتماعية"، الفارس، القاهرة، 2012، ص120.

نظـراً لانخفـاض مسـتوى المعرفـة والثقافـة والوعـي لـدى العمـاء. [41]

3 - دور الممـارس كمسـهل: وهـذا الـدور يعنـي مسـاعدة نسـق العميـل عـلى تغطيـة وحشـد قدراتـه وطاقاتـه ومنحـه الفـرص ليقـوم بعمـل ناجـح واتخـاذ القـرارات المناسـبة وتعريفـه مصـادر الخدمـات وكيفيـة الحصـول عليهـا، أي أن الممـارس العـام يقـوم بتيسـير التغيـير لجميـع أنسـاق التعامـل معـاً ومسـاعدتهم لاسـتخدام مواهبهـم وبالمثـل المـوارد الأخـرى لإحـداث تغيـير إيجابـي,[42]

4 - دور الممـارس كوسـيط: هـو الـذي يقـوم بتوصيـل الخدمـات للعمـلاء وربـط العملاء بهـا، إن الأخصائـي دائمـاً يعمـل كحلقـة وصـل بـين وحـدة العمـل ومصـدر الخدمـة، بمعنـى أن يحـرك النـاس نحـو الخدمـات القائمـين مسـتخدماً في ذلـك معارفـه ومهاراتـه واتصالاتـه.[43]

5 - دور الممـارس كمرشـد: في هـذا الـدور يقـوم الممـارس العـام بتقديـم التوجيـه والإرشـاد للعمـلاء ليسـاعدهم في التغيـير المخطـط أو عمليـة حـل المشـكلة وتزويدهـم بالمعلومـات التـي تمكنهـم مـن التوصـل إلى مصـادر الخدمـات. إن الأخصائـي هنـا يسـتخدم مهاراتـه لمسـاعدة طالبـي الاستشـارة عـلى مواجهـة مشـكلة حاليـة يعانـون منهـا ومسـاعدتهم عـلى التفكـير بانتظـام وموضوعيـة لمواجهـة المشـكلات وزيـادة قدرتهـم عـلى انتقـاء أنسـب الحلـول لهـا مسـتخدماً في ذلـك أحـدث معـارف الخدمـة الاجتماعيـة لمسـاعدة أنسـاق العمـلاء عـلى تحقيـق أهدافهـم.[44]

6 - دور الممـارس كمعالـج: يعنـي دور المعالـج مسـاعدة نسـق العميـل عـلى إحـداث تغيـيرات في أنفسـهم أو في علاقاتهـم مـع الجماعـات أو النـاس الذيـن يرتبطـون معهم بعلاقـات أوليـة هامـة، وفي هـذا الـدور يكـون نسـق العميـل هـو نسـق الهـدف المـراد تغيـيره .

7 - دور الممـارس كمخطـط: يقصـد بـه مجموعـة الأنشـطة التـي يقـوم بهـا الأخصائـي الاجتماعـي لمسـاعدة نسـق العميـل عـلى تحقيـق الأهـداف مـن خـلال تحديـد الأولويـات للمهـام والمسـئوليات بنـاءً عـلى دراسـة الواقـع لتحديـد المشـكلات والإمكانيـات والمـوارد المتاحـة ووضـع خطـة لمواجهـة الموقـف.

8 - دور الممـارس كمطالـب: يعنـي هـذا الـدور أن الأخصائـي الاجتماعـي يصبـح نائبـاً عـن العميـل في الدفـاع عـن مصالحـه ومناقشـة قضاياه عندمـا يكـون ذلـك مطلوبـاً لتحقيـق الأهـداف، والجهـود، هنـا توجـه نحـو ضمـان المنافـع والعوائـد للعميـل بطريقـة شرعيـة.

9 - دور الممـارس: كمنسـق: يعنـي هـذا الـدور قيـام الأخصائـي الاجتماعـي بتوجيـه

(41) عبد الناصر عوض، نظريات مختارة في خدمة الفرد، مرجع سابق، ص20.

(42) جمال شحاتة حبيب، المرجع السابق، ص122.

(43) عبـد العزيـز فهمـي النوحـي، الممارسـة العامـة في الخدمـة الاجتماعيـة، عمليـة حـل المشـكلة ضمـن إطـار نسـق أيكولوجـي، ط6، سلسـلة نحـو رعايـة اجتماعيـة متطـورة، الكتـاب الثالـث، القاهـرة، (2007)، ص ص282-281.

(44) ماهـر أبـو المعاطـي عـلي، "الممارسـة العامـة في الخدمـة الاجتماعيـة: أسـس نظريـة- نمـاذج تطبيقيـة"، ط1، القاهـرة، بـدون دار نـشر، 2003، ص307.

الجهود المتنوعة المبذولة من الأجهزة والأفراد لتحقيق أهداف التدخل المهني، وذلك لتحقيق أكبر قدر ممكن من التعاون بين تلك الجهود وتجنب الازدواج والتضارب لرفع كفاءة الخدمات المقدمة للعملاء.[45]

10 - دور الممارس كمنسق: يطلق عليه البعض المسعف حيث يقوم بتحديد الفئات المستهدفة والمهمشة والمعرضة للخطر ويبين مواقف الأزمات أو الكوارث أو الصدمات الموجودة بالمجتمع ويعمل على مساعدة الأفراد أو الجماعات بالخدمات السريعة في حالة الأزمات والطوارئ أو قد يقوم بدور إرشادي لبيان كيفية الاستفادة من الخدمات المتاحة الحكومية والأهلية.[46]

وبعد أن يقوم الممارس العام في الخدمة الاجتماعية بالاتصال بالعميل وتحديد وحدة العمل (فرد- أسرة- جماعة- مؤسسة- مجتمع)، وتحديد الأنساق الرئيسية التي سيعمل معها في إطار هذه المشكلة، فإنه بالطبع يكون قد حدد المشكلة بجوانبها وأبعادها المختلفة، وحدد مناطق القوة والضعف في كل نسق من الأنساق المرتبطة بالعميل والمشكلة في ضوء ذلك يتحدد مدى قابلية المشكلة للتدخل من جانب الأخصائي الاجتماعي، فإن على الأخصائي أن يتبع عدة خطوات أو عمليات للتدخل المهني بالممارسة العامة وهي كالآتي: (التقدير - التخطيط - التدخل المهني- التقييم - الإنهاء والمتابعة).

وفيما يلي سوف نوضح هذه العمليات:

1 - التقدير: هو أول عمليات الممارسة العامة الذي يحتوي على التحليل والمناقشة للبيانات والمعلومات المرتبطة بالأنساق المختلفة (فرد- جماعة- مؤسسة- مجتمع) الخاصة بالعميل والمشكلة ويسعى التقدير لفهم أعمق وأوضح وأكبر للأنساق، للعمل مع المشكلة تمهيداً للتخطيط للتدخل المهني للتخفيف من حدة كل أو بعض جوانب المشكلة .ولهذا فإن التقدير يهدف إلى (فهم وحدات العمل المرتبطة بالمشكلة- تحديد صياغة دقيقة للمشكلة - اختيار النظريات والأساليب العلمية الأكثر مناسبة للتعامل مع المشكلة). كما يعني التقدير عملية إكساب البيانات المتوافرة عن وحدة العمل في الموقف، معنى مهني يمكن من خلاله تحديد إجراءات التدخل التنفيذية، مما يؤدي لإحداث التغيير اللازم في الاتجاه المرغوب.[47]

2 - التخطيط: التخطيط عملية مواءمة وموازنة بين الموارد والاحتياجات في إطار زمني محدد فهو يجيب عن السؤال ما المتطلبات المادية والمالية والبشرية لتحقيق أهداف العمل لمساعدة العميل، والتخطيط خطوة بيئية تتوسط عمليتي التقدير والتدخل المهني فنحن نخطط في ضوء ما تتوافر لدينا من معلومات" تقدير" من أجل أن يساعد العميل على تخطي موقفه الإشكالي

(45) جمال شحاتة حبيب، المرجع السابق، ص123.

(46) عبد الناصر عوض، نظريات مختارة في خدمة الفرد ، مرجع سابق، ص18.

(47) عبد العزيز فهمي النوحي، المرجع السابق، ص213.

"تدخل" ويتضمن التخطيط بدائل مختلفة لاحتمالات متنوعة لتحقيق الأهداف في إطار تحديد الاستراتيجيات وأساليب العمل مع الأنساق المختلفة في ضوء المهام المحددة والوقت والمناخ. ويشير جونسون إلى أن التخطيط يتضمن ثلاث عمليات هي:" تحديد الأهداف الرئيسية والفرعية -تحديد وحدات وأنساق العمل – تحديد الاستراتيجيات والأساليب اللازمة للعمل.(48)

كما أن عملية التخطيط تستهدف مراجعة وتحليل المعلومات والحقائق التي تم الحصول عليها خلال عملية التقدير عن طريق تنظيمها وتبويبها وفقاً لنوع المشكلة ودرجة صعوبتها وتأثيرها على العميل والأنساق الأخرى المرتبطة بها.(49)

3 – التدخل المهني: هو العملية الثالثة بعد التقدير والتخطيط ويشمل وضع البرامج المحددة للمساعدة في ضوء النظرية العلمية المستخدمة والأهداف المحددة والاستراتيجيات المختارة ويعتمد التدخل على برنامج محدد الخطوات والمهام والزمن لكل عناصر المشكلة وأنساق التعامل. وتتبلور عملية التدخل في العمل على تحقيق الأهداف التي تم التوصل إليها في مرحلة التخطيط واختيار الأساليب والأنشطة التي تعمل على تحقيق هذه الأهداف.

4 – التقييم: هو العملية الرابعة للممارسة العامة وهي عملية مستمرة مع كل مراحل وخطوات برنامج التدخل المهني، ويتم في التقييم معرفة الإيجابيات والسلبيات المرتبطة بالتنفيذ المرحلي والكلي للتدخل المهني. والتقييم ليس عملية خطية رأسية ذات بداية ونهاية ولكنه عملية دائرية دينامية متواصلة ويحدث التقييم بعد كل عملية لمعرفة ما تحقق وما يجب السعي لتحقيقه. كما إن تقييم التدخل المهني هو أحد الخطوات الهامة في الممارسة العامة، فالجهود التي يجب أن يقوم بها الأخصائي يجب أن تكون قابلة للقياس وقابلة للمحاسبة فكل هدف من أهداف التدخل المهني يجب تقييمه، كما أن من الأهمية التعرف على إلى أي مدى حققت جهود التدخل المهني أهدافها لأن ذلك يمكننا من اتخاذ القرارات بشأن استمرار جهود التدخل المهني أو إنهائها أو تطوير أهداف جديدة للتدخل المهني.(50)

5 – الإنهاء والمتابعة: هي المرحلة الأخيرة من عمليات الممارسة العامة، ويتم بعد أن يحقق برنامج التدخل المهني أهدافه أو يفشل في تحقيق تقديمه مرة أخرى، فيقف مثلاً عند نقطة محددة لا يحدث بعدها تحسن، ويتم التخطيط لعملية الإنهاء عندما يدرك الممارس العام أن احتياجات العميل تحققت وأهدافه أنجزت ومعوقاته وضغوطه أو أزيلت ويجب على الممارس العام أن يمهد للإنهاء منذ اللحظة الأولى عند اتصال العميل بالمؤسسة وأن يباعد بين الجلسات والمقابلات في المرحلة الأخيرة من تنفيذ البرنامج وبعد أن ينهي الممارس العام تنفيذ

(48) عبد الناصر عوض، المرجع السابق، ص57.

(49) هشام سيد عبد المجيد وآخرون، المدخل إلى الممارسة العامة في الخدمة الاجتماعية مرجع سابق، ص116.

(50) جمال شحاتة حبيب، المرجع السابق، ص91.

خطة العمل مع الحالة فعليه التأكد من ثبات واستمرارية التغييرات الإيجابية الحادثة في نسق العميل وذلك من خلال عملية المتابعة لمعرفة كيف استطاع النسق المحافظة على ما تحقق من فوائد وإيجابيات.[51]

ثانياً: الموهبة :-

من الملاحظ أنه تم استخدام هذا المصطلح في الستينات من هذا القرن الماضي ليدل على أن الموهوبين هم أصحاب المواهب وهم من تفوقوا في قدرة أو أكثر من القدرات الخاصة وكان يميل البعض لاعتبارها أنها لا تتعلق بالمجالات الأكاديمية بل تتعلق بالفنون والألعاب والرياضة والمجالات الحرفية المختلفة والمهارات الميكانيكية والقيادة الاجتماعية في أي مجال من المجالات البعيدة الصلة عن الذكاء، إلى أن جاء لانج وايكبوم (1932) واعتبر المواهب قدرات خاصة، ذات أصل تكويني لا ترتبط بذكاء الفرد أيضاً، بل أن بعضها قد يوجد عند المتخلفين عقلياً، وقد اعتبرها موروثة، وقد استشهد على ذلك بأن بعض الأسر ترث موهبة الغناء والموسيقي، وهكذا فقد استخدم مفهوم الموهبة، ليدل على مستوي أداء مرتفع يصل إليه الفرد في مجال ما لا يرتبط بالذكاء، وإنها لعوامل الوراثة، الأمر الذي جعل البعض لا يقبل بهذا المفهوم عن الموهبة، وأراد أن يشير إلى مجال التفوق العقلي.

ولذلك أن مفهوم الموهوب يعاني من الإبهام والغموض الذي يصل إلى حد الخلط والتشويش، حيث إن مفهوم الموهبة ارتبط عند البعض بمفهوم التفوق والإبداع والنبوغ والذكاء، وارتبط عند البعض الثاني بمفهوم العبقرية، وارتبط عند البعض الثالث بمفهوم العلو والامتياز، وقد يرجع ذلك إلى اختلاف الاتجاهات النظرية والخبرات العملية التي ينطلق منها هؤلاء الباحثين في تحديد مجالات التفوق التي يعدونها أكثر أهمية في تحديد الموهبة، وعلى الرغم من هذا التنوع، إلا أن هناك اتفاقاً بين الجميع على ضرورة توفير الرعاية الخاصة والمناسبة لهذه الفئة والتي قد لا تفي بها البرامج والمناهج العامة.[52]

خصائص الأطفال الموهوبين:-

يشير بعض الكتاب الى خصائص الموهوبين والتفوقين على النحو التالي:

الخصائص الجسمية وتشمل: تكوين جسمي أفضل من المتوسط، وبلوغ مبكر، وصحة جسمية أفضل من المتوسط، وخلو من الإعاقات.

الخصائص العقلية وتشمل: قدرة عقلية عامة عالية، وقدرة على الاستدلال والتعميم وحل المشكلات وتفهم المعاني والتفكير المنطقي، وإدراك الاستدلال والتعميم وحل المشكلات وتفهم المعاني والتفكير المنطقي، وإدراك العلاقات بين عناصر الموقف، وتكوين علاقات جديدة، وسرعة التعلم، وسرعة الفهم، والتفوق الدراسي (التميز في التحصيل الدراسي)، وتركيز الانتباه وطول فترته، ودقة

(51) عبد الناصر سيد عوض: مرجع سابق، ص ص61-60.

(52) سهام على طه، أمينة محمد عثمان، الأطفال الموهوبون، دار النشر الدولي، ط1، السودان، (2019)، ص 14-13.

الملاحظة، وقوة الذاكرة، وخصوبة الخيال، والثراء اللغوي، والتفكير العلمي، وقدرة ابتكاريه في مجال الموهبة الخاصة، وارتفاع مستوي الدافعية للإنجاز والتفوق، وزيادة حب الاستطلاع، وتعدد الميول والهوايات، وميل خاص إلى القراءة والبحث والتعلم الذاتي.

الخصائص الانفعالية وتشمل: التفاؤل والمرح، القدرة على نقد الذات والثقة في النفس، والمثابرة وقوة الإرادة، والثبات الانفعالي، والتوافق الانفعالي، والذكاء الانفعالي، وأقل تعرضاً للمشكلات.

الخصائص الاجتماعية وتشمل: الحساسية الاجتماعية، والتعاون، وتقبل الاقتراحات والنقد، والمسايرة ومجاراة الآخرين، والقدرة على تحمل المسؤولية الاجتماعية، والذكاء الاجتماعي، والقدرة على القيادة، والتوافق الاجتماعي، وتفضيل الرفاق الأكبر سناً، وارتفاع مستوي الطموح والقدرة على الوصول إلى مركز مرموق.

الخصائص الشخصية العامة وتشمل: مفهوم ذات موجب، ومركز تحكم داخلي، وروح المخاطرة، والاستغراق في الأداء.

الخصائص السلبية للمتفوقين وتشمل: التململ والشغب ومضايقة المحيطين، والإهمال في الكتابة وسوء الخط، واللامبالاة بالأعمال الصفية، وكثرة النقد للآخرين والتعالي عليهم. (53)

فئات الموهوبين (54)

أ - الموهوبون عقلياً: هم الطلاب الذين يتميزون بالنمو العقلي السريع، حيث يفوق عمرهم العقلي عمرهم الزمني، فيصبح الطالب متقدماً على أقرانه من حيث القدرة على التعلم، وإدراك العلاقات وفهم المواقف، وإدراك الأمور، والتفوق الدراسي، ويعد الطالب الذي تزيد نسبة ذكائه عن 130 من الموهوبين عقلياً.

ب - الموهوبون أكاديمياً: يتميز هؤلاء الطلاب بنبوغ وتميز في أحد المجالات الأكاديمية مثل الرياضيات أو العلوم أو اللغات، ويتميزون بقدرة عالية على الاستيعاب والحفظ وسرعة التعلم، ويظهرون اهتماماً واضحاً بإحدى المواد الأكاديمية أو أكثر، ويتمتعون عادة بذكاء فوق المتوسط، ولديهم دافعية عالية على الإنجاز، وتسيطر عليهم الرغبة في الحفظ والاستظهار.

ج - الموهوبون فنياً: هؤلاء الطلاب لديهم استعدادات فطرية للتفوق والنبوغ في أحد المجالات الفنية (رسم- نحت- تلوين- تشكيل المعادن)، أو الموسيقية (كالأداء الموسيقى- التأليف الموسيقى- والتلحين الموسيقى)، أو الأدبية (الشعر- الزجل- كتابة القصة) ولا يكفي الاستعداد الفطري وحده لجعل الشخص موهوباً بل

(53) سمير عبد الكريم، وأحمد عبد الحليم، الحاجات الأساسية للطلبة المتفوقين والموهوبين في المراكز الريادية في محافظة البلقاء وعلاقتها ببعض المتغيرات، مجلة العلوم التربوية، العدد الثاني، ج1، 2014، ص ص 199-198

(54) مجدب عزيز إبراهيم، "منظومة تعليم الموهوبين في عصر التميز والإبداع... إلى أين؟"، المؤتمر العلمي ا لخامس، تربية الموهوبين والمتفوقين المدخل إلى عصر التميز والإبداع، المنعقد في الفترة من 14- 15 ديسمبر 2002، كلية التربية، جامعة أسيوط، 2002، ص149.

لابد من توافر الظروف البيئية المناسبة والتعليم والتدريب والممارسة التي تنمي هذه المواهب والقدرات.

د- الموهوبون في القيادة: هم الذين لديهم استعدادات فطرية تجعلهم ألفين للناس ومألوفين منهم، ويدفع ذلك كلاً منهم إلى بذل مزيد من الجهد في علاج مشاكل الجماعة وتحمل مسئولياتها، أي يتوافر لديهم الاستعداد الفطري لقيادة جماعة والعمل على حل مشاكلها.

هـ - الموهوبون رياضيا: يتميز هؤلاء الطلاب بالرشاقة والقوة العضلية والقدرة على الاحتمال البدني وخفة الحركة والتآزر العضلي والإحساس بالحركة، وهناك الموهوبون في كرة القدم، السلة، التنس ، الكاراتيه، وكمال الأجسام، الفروسية، وغيرها.

و- الطلاب المبدعون والمبتكرون: هم الطلاب الذين لديهم استعدادات خاصة للإبداع والابتكار والاختراع والتوصل إلى ما هو جديد من أفكار وحلول لما تعرض عليهم من مشكلات.

حاجات الموهوبين:

الموهوبون فئة خاصة تستحق الرعاية، والرعاية التي يحتاجها الطلبة الموهوبون أكبر من مجرد المساعدة على تنمية قدراتهم العقلية والمعرفية، بل تتجاوز إلى توفير خدمات إرشادية واجتماعية ونفسية، وهذه تعد الأساس للنمو الذهني الإيجابي لاستثمار طاقاتهم وقدراتهم لمصالحهم الفردية والمجتمعية بشكل فعال ومن حاجات الموهوبون ما يلي:

أ - الحاجات النفسية: هي المتطلبات اللازمة لإشباع الجانب الوجداني والنفسي لدي الفرد، والموهوبين فئة لديها العديد من الحاجات النفسية، ومنها ما يلي: الحاجة إلى الاعتراف بمواهبهم وقدراتهم، الحاجة إلى الاستبصار الذاتي باستعداداتهم والوعي بها وإدراكها، الحاجة إلى الاستقلالية والحرية في التعبير، الحاجة إلى تأكيد الذات، الحاجة إلى الفهم المبني على التعاطف والتقبل غير المشروط من الآخرين، الحاجة إلى احترام أسئلتهم وأفكارهم، الحاجة إلى المزيد من تقدير الآخرين .

ب- الحاجات الاجتماعية: هي المتطلبات الاجتماعية، ومنها الحاجة إلى تكوين علاقات اجتماعية وصداقات والتعاون والاندماج والتفاعل مع الآخرين، ومن الحاجات الاجتماعية للموهوبين: الحاجة إلى اكتساب المهارات التوافقية وكيفية التعامل مع الضغوط، الحاجة إلى تكوين علاقات اجتماعية مثمرة، الحاجة إلى مواجهة المشكلات الدراسية والصعوبات الانفعالية، الحاجة إلى الاندماج الاجتماعي.

ج - الحاجات التربوية: هي المتطلبات التربوية مثل الحاجة إلى التفكير والتجريب والاكتشاف، وكلها حاجات تحتاج إلى الإشباع، ومنها ما يلي: الحاجة إلي مهارات التعلم الذاتي واستثمار مصادر التعلم والمعرفة، الجاجة إلى المزيد من التعمق

المعـرفي في مجـال الموهبـة والتفـوق، الحاجـة إلى الاسـتطلاع والاكتشـاف والتجريـب، الحاجـة إلى مناهـج تعليميـة وأنشـطة تربويـة تتحـدي اسـتعداداتهم، وأسـلوبهم الخـاص في التفكـير والتعلـم، الحاجـة إلي اكتسـاب مهـارات البحـث العلمـي، وفحـص الأفـكار، والبحـث عـن الحلـول واقـتراح الفـروض واختبارهـا. الحاجـة إلى برنامـج دراسي خـاص، الحاجـة إلى الأبنيـة المعرفيـة التـي تجعلهـم يصلـون إلى درجـة الإتقـان، الحاجـة إلى مهـارات الحصـول عـلى المعرفـة.(55)

أهمية رعاية الأطفال الموهوبين

تتمثل أهمية رعاية الأطفال الموهوبين في :

1 - تحقيـق مبـدأ تكافـؤ الفـرص التعليميـة: ويقصـد بذلـك إتاحـة الفرصـة الملائمـة لـكل طفـل لكـي يتعلـم في حـدود مـا تسـمح بـه قدراتـه واسـتعداداته، مـن هنـا فـإن النظـر إلى جميـع الاطفـال الموهوبـين عـلى أنهـم متسـاوون وغيرهـم في المعايـير والتوقعـات مفهـوم خاطـئ لديمقراطيـة التعليـم، لأنـه يـؤدي إلى إهـدار وتدنـي المواهـب، كمـا أن اعتقـاد المعلمـين أن الاطفـال الموهوبـين عباقـرة ولا يحتاجـون للـشرح أو المسـاعدة اعتقـاد خاطـئ.

2 - الرعايـة الخاصـة للموهوبـين هـي السـبيل لتنميـة المجتمـع وتطويـره: حيـث أن الأطفـال الموهوبـين في حاجـة إلى الرعايـة الخاصـة، ومـن حقهـم أن يحصلـوا عـلى فـرص متكافئـة مثلهـم في ذلـك مثـل الأطفـال ذوي الاحتياجـات الخاصـة، في المؤسسـات التربويـة، لذلـك ينبغـي توفـير الفـرص المناسـبة لمسـاعدتهم عـلى الوصـول إلى أقـصى مـا تسـمح قدراتهـم، كمـا أن الموهوبـين لهـم دور في تحقيق بعض الإسـهامات الاجتماعيـة مـن حيـث الاهتمـام بالموهوبـين ، وإذا لـم يتـم الاهتمـام بالفائقـين الموهوبـين في مراحـل التعليـم، فسـوف نفقـد البـلاد فـرص الاسـتفادة مـن إمكاناتهـم في المسـتقبل، وعليـه فـإن توفـير العنايـة الخاصـة بهـم يمكـن الدولـة من الاعتمـاد عليهـم في مواجهـة التحديـات التـي تفرضهـا طبيعـة العـصر في المجـالات العلميـة والتكنولوجيـة والاقتصاديـة والعسـكرية.

3 - الرعايـة الخاصـة ضرورة للنمـو المتـوازن للموهـوب: حيـث إن فئـة الموهوبـين تتميـز عـن غيرهـم مـن العاديـين في النضـج المبكـر في جميـع جوانـب الشـخصية، إلا أنـه يوجـد مـن بينهـم مـن لديهـم إمكانـات عقليـة كامنـة ولكنهـم لا يحاولـون أو لا يتمكنـوا مـن تحقيقهـا بسـبب مـا يعانونـه مـن الضغـوط المحيطـة والتـي تؤثـر عـلى مسـتوى إنجازهـم، بالإضافـة إلى مـا يواجهونـه مـن مشـكلات عـدة في جوانـب مختلفـة قـد تكـون مـع الزمـلاء كـرد فعـل عـلى تفوقهـم، الأمـر الـذي يخلـق لهـم متاعـب تتعلـق بنموهـم الانفعـالي.(56)

(55) عـادل عبـد اللـه محمـد ، رعايـة الطـلاب الموهوبـين بدولـة الكويـت في ضـوء خبرتـي سـنغافورة وفنلنـدا، مجلـة العلـوم التربويـة، كليـة التربيـة بالغردقـة، جامعـة جنـوب الـوادي، مـصر، (2019) ، ص 408 - 409.

(56) مبـارك ربيـع، واقـع رعايـة الموهوبـين في المدرسـة العربيـة. المؤتمـر السـادس لـوزارة التربيـة والتعليـم في البـلاد العربيـة، الريـاض، 1- 3 مـارس 2008، ص239.

مشكلات الأطفال الموهوبين:[57]

أشار العديد من علماء النفس والمختصين في مجال تربية الموهوبين إلى أن هناك العديد من المشكلات التي تواجه الأطفال الموهوبين، ومن هذه المشكلات ما يلي:

1 - مشكلات مرتبطة بالأسرة: تعد الأسرة المؤسسة الأولي لتنشئة الطفل ويكتسب عن طريقها أول خبراته التربوية، ويتعلم منها قواعد السلوك الاجتماعي والقيم، وهي المصدر الأساسي لإشباع حاجاته المختلفة، وتلعب الأسرة دوراً مؤثراً في حياة الموهوب وتعزيز مواهبه وقدراته وإشباع حاجاته المتنوعة، ومن أساليب المعاملة الوالدية اللاسوية التي تسبب مشكلات في التوافق والصحة النفسية وضعف مفهوم الذات لدي الموهوب ما يلي:

أ-يعد أسلوب الإهمال واللامبالاة من أخطر المشكلات التي قد يواجهها الطفل الموهوب في بيئته الأسرية.

ب- قد يلجأ الوالدان إلى أسلوب التسلط والتشدد في تنشئة ابنهما الموهوب، فنجدهما يظهران صرامة شديدة في معاملته ويلزمانه بطاعتهما والخضوع لأوامرهما دون مناقشة، ويرفضان رغبته في الاستكشاف والبحث ولا يتيحان له الفرصة لكي يعبر عن آرائه وأفكاره بحرية.

2 - مشكلات الموهوب في المدرسة العادية: قد تكون البيئة المدرسية مصدر العديد من المشكلات التي تواجه نمو المواهب، وتقف أمام طاقات الطالب الموهوب وقدراته، حيث يعاني الموهوب من الضغوط المستمرة التي تمارس عليه في المدرسة، فعليه مسايرة الخبرات التعليمية والبرامج التقليدية التي تقدم إليه من خلال عملية التعليم، مما يؤثر علي ما يمتلكه من قدرات واستعدادات عقلية مرتفعة، وما يتميز به من سرعة التعلم وحب الاستطلاع والشغف بالمعرفة والرغبة في فهم العالم من حوله، ولا يمكنه أن ينسجم مع البرامج التعليمية التي تقدم للطلبة العاديين. لذلك يعاني الطالب الموهوب من الضجر والملل ومن وجوده في الصف العادي.

3 - مشكلات الموهوب مع أقرانه: من أهم المشكلات التي يواجهها الطالب الموهوب صعوبة تكوين علاقات اجتماعية مع أقرانه، ويحذر علماء النفس والتربويين من الأثر السلبي للأقران على الموهوب، والذي قد يلجأ إلى التضحية بمواهبه وقدراته ويميل إلى الإنجاز الأقل بأقل ما ستمح به قدراته ليحظي بقبولهم له ويتجنب رفضهم وابتعادهم عنه، فيظهر التناقض بين طاقاته وإمكاناته ومستوي الأداء الفعلي واضحاً، وغالباً ما يعاني الأطفال الموهوبون من عدم ارتياح الآخرين لهم عند التعامل معهم بسبب حركتهم الدءوبة وتساؤلاتهم المستمرة وفضولهم الزائد.

(57) عادل عبد الله محمد، المرجع السابق، ص 410-409.

سابعاً : منهجية الدراسة

1 – منهج الدراسة :

تأتي هذه الدراسة ضمن الدراسات الوصفية التحليلية للتعرف على ممارسة الخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الأطفال الموهوبين . واعتمدت الدراسة في جمع المعلومات والحقائق على المراجع المتعلقة بموضوع الدراسة .

2 – أداة الدراسة:

الأداة هي الوسيلة المستخدمة في جمع البيانات أو تصنيفها وجدولتها لذلك اعتمدت الدراسة على

العمل المكتبي كأداة للدراسة والمتمثلة في الكتب العلمية والدراسات والبحوث السابقة، كما اعتمدت الدراسة على الدوريات والمجلات العلمية.

3 – استنتاجات الدراسة:

توصلت الدراسة إلى وضع تصور مقترح لممارسة الخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الموهوبين عن طريق ما تم تحليله من خلال أدبيات الدراسة :

ثامناً: تصور مقترح لممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الموهوبين:-

يبنى التصور المقترح على انساق الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية لإحداث التغيير:-

وهى تتمثل فى مايلى:-

1. **نسق محدث التغيير: هم الممارسون المهنيون (الأخصائيون الاجتماعيون والهيئات التي يعملون بها) وذلك لمساعدة الاطفال الموهوبين على إشباع حاجاتهم وتحقيق أهدافهم.**
2. **نسق العميل: يضم الأفراد والأسر والجماعات التي تسعى لطلب المساعدة وتشترك في العمل مع نسق محدث التغيير.**
3. **نسق الهدف: هم الأشخاص الذين يحاول نسق محدث التغيير تغييرهم لكي يحقق أهدافه، فقد يكون هو نفسه نسق العميل، وقد لا يكون هو العميل بمعنى (الأطفال الموهوبين أو من يحيط بهم من أفراد مؤثرين فى موقفهم الاشكالى).**
4. **نسق العميل: الأطفال الموهوبين الذين يعمل معهم نسق محدث التغيير على تحقيق أهدافه.**

وهنا طرح تصور لأبعاد الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الموهوبين:-

اولاً: أدوار ممارس الخدمة الاجتماعية في مجال رعاية الموهوبين:

1. **مساعدة الاطفال الموهوبين على اكشاف مصادر القوى بداخلهم وتدعيمهم.**
2. **تشجيع الأطفال الموهوبين على اتخاذ القرارات نحو التغيير الإيجابي.**
3. **مساعدة الاطفال الموهوبين على تحديد حاجاتهم ومشكلاتهم.**
4. **تنمية مهارات الاطفال الموهوبين للتعامل مع مشكلاتهم بشكل أكثر فاعلية.**

5. العمل على تنمية الجوانب الاخلاقية فى شخصية الاطفال الموهوبين .
6. محاولة اكساب الاطفال الموهوبين بعض المعارف الصحيحة لتعديل أفكارهم.
7. الحرص على الاطفال الموهوبين خبرات متنوعة في الحياة.
8. تحفيز الاطفال الموهوبين نحو التغيير الفعلى الايجابى .
9. الحرص على توصيل الخدمات المتنوعة للأطفال الموهوبين.
10. الحرص على تعديل علاقات الاطفال الموهوبين بأقرانهم.

ثانيا : عمليات ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الاطفال الموهوبين

1. تحليل البيانات والمعلومات المرتبطة بالاطفال الموهوبين لدراسة المواقف الاشكالية.
2. السعي نحو فهم أعمق لمواقف الاطفال الموهوبين.
3. العمل على الموائمة بين الموارد والاحتياجات في إطار زمنى محدد.
4. تحديد الاستراتيجيات وأساليب العمل مع الأطفال الموهوبين.
5. وضع برامج العمل المحددة لمساعدة الأطفال الموهوبين.
6. اختيار الأساليب والأنشطة التى تعمل على تحقيق الأهداف التي تخدم الأطفال الموهوبين.
7. التأكد من ثبات واستمرارية التغييرات الايجابية المكتسبة.
8. القياس والمحاسبة لجهود الممارسة المهنية مع الأطفال الموهوبين.

ثالثا: أدوات ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الموهوبين:

1. المقابلات المهنية بأنواعها عند العمل مع الاطفال الموهوبين.
2. الملاحظة العلمية في العمل مع الأطفال الموهوبين.
3. الجلسات العلاجية والارشادية فى الممارسة المهنية مع الأطفال الموهوبين.
4. اقامة الندوات حول الموضوعات التي تهم الأطفال الموهوبين.
5. المقاييس والاختبارات في دراسة الأطفال الموهوبين.
6. الجلسات العلاجية والارشادية فى الممارسة المهنية مع الأطفال الموهوبين
7. الاجتماعات الدورية فى العمل مع الأطفال الموهوبين.
8. المعلومات الخاصة بكل حالة فى ملف خاص.

رابعا: استراتيجيات ممارسة الخدمة الاجتماعية المستخدمة فى مجال رعاية الاطفال الموهوبين

1. استراتيجية التوضيح والاقناع لتوضيح الافكار السلبية.
2. تمكين الأطفال الموهوبين من أجل مواجهة ما يعترضهم من مشكلات.
3. استراتيجية التمكين لدعم مشاركة الأطفال الموهوبين فى الحياة الاجتماعية واكتشاف قدراتهم وامكانياتهم.
4. استراتيجية تغيير السلوك في تعديل سلوك الأطفال الموهوبين غير المرغوب مع المحيطين واكسابهم المهارات الحياتية.
5. استخدام استراتيجية البناء المعرفى لتزويد الأطفال الموهوبين ببعض المعارف لتعديل بعض الافكار والمعتقدات الخاطئة لديهم عن أنفسهم وعن المحيطين بهم.
6. استراتيجية الضبط الانفعالى للتعامل مع ردود الافعال الانفاعلية المصاحبة للموقف الإشكالي الخاص بالأطفال الموهوبين.

خامسا: الاساليب المهنية لممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الموهوبين

1. أساليب التخفيف من حدة الضغوط النفسية.
2. أسلوب تقليل حدة المشاعر السلبية للأطفال الموهوبين كالقلق والاحباط والتشاؤم.
3. استخدام الأساليب المعرفية لمساعدة الأطفال الموهوبين كلا وفقا لوضعه الاجتماعي.
4. أسلوب تغيير الأفكار الخاطئة للاندماج فى المجتمع.
5. أساليب بناء الاتصالات لدعم علاقة الاطفال الموهوبين مع غيرهم سواء بالمؤسسات التعليمية او غيرها.
6. أساليب النمذجة السلوكية والقدوة الحسنة لتقديم نماذج واقعية كتجارب النجاح.
7. استخدم التدعيم الإيجابي للأطفال الموهوبين من خلال الثناء والمكافأة لتثبيت السلوك الايجابى.

سادسا: مهارات ممارسة الخدمة الاجتماعية فى مجال رعاية الاطفال الموهوبين

1. استخدام مهارة تقدير الموقف لاختيار الاتجاه العلاجى المناسب للموقف الإشكالي للأطفال الموهوبين.
2. استخدام مهارة الحصر والدراسة لجمع الحقائق حول المشكلة الخاصة بالأطفال الموهوبين لتحديد درجة حدتها
3. مهارة التسجيل باعتبارها من المهارات الهامة لتوثيق المعلومات والبيانات والحقائق عن المشاكل التي تواجه الأطفال الموهوبين.
4. مهارة التفسير فى تشخيص المشكلة وتحديد العوامل المختلفة المؤدية لمشكلة الاطفال الموهوبين
5. مهارة التفاعل والملاحظة المستمرة أثناء المقابلات الفردية.
6. مهارة وضع وتنفيذ خطة العلاج لمساعدة الاطفال الموهوبين.
7. استخدام مهارة التقويم والمتابعة.

يطرح الباحث بعض المقترحات التي تستهدف أهمية اكتشاف الموهوبين واستدامة برامج الرعاية لهم، وتتمثل تلك المقترحات في الآتي:

1. أهمية شمول الأسرة بالرعاية والدعم، فيجب تصميم برامج من شأنها رفع درجة وعي الأسرة فيما يتعلق باكتشاف الموهبة لدى أبنائها، وذلك عبر تضافر جهود مؤسسات المجتمع وخاصة وسائل الإعلام لما لها من دور هام في رفع درجات الوعي لدى الأسر.
2. أهمية وضع صياغة استراتيجية تنموية متكاملة موجهة إلى القطاع التعليمي، بحيث تعمل تلك الاستراتيجية على خلق منظومة تطبيقية ترابطية بين مؤسسات التعليم الأساسي، وإدراج مؤسسات رياض الأطفال في إطارها لأن هذه المراحل التعليمية تعتبر من أهم المراحل التي يمكن خلالها اكتشاف الأطفال الموهوبين.

3. طرح تصورات علمية فعلية للتطوير، وهي آليات التدريس وأساليبه، هنا نشير إلى الحاجة إلى تطوير أساليب وطرق التدريس ورفع درجة الدينامية التفاعلية بين المدرس والطالب لأن هذا في حد ذاته يثري العملية التعليمية للموهوبين.
4. بناء جسور التعاون بين المدرسة والأسرة في إطار التواصل الدائم، لأن كلاً منهما شريكاً في اكتشاف ورعاية الأطفال الموهوبين، ويجب العمل معاً من أجل استثمار تلك المواهب والحفاظ عليها.

قائمة المراجع :

أولاً : المراجع العربية:-

1. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوجيز، الجزء الأول، الطبعة الثانية، د . ن.
2. إبراهيم مذكور وآخرون، معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (1975) .
3. ابن منظور: لسان العرب، القاهرة: دار المعارف ، د.ن.
4. أحمد الزعبي، التربية الخاصة للموهوبين والمعوقين وسبل رعايتهم وإرشادهم، دار زهران للنشر والتوزيع، الأردن ، (2002).
5. أحمد محمد السنهوري، مداخل ونظريات ونماذج الممارسة المعاصرة للخدمة الاجتماعية من منظور الممارسة العامة ، دار النهضة العربية، القاهرة ، (1998).
6. إسماعيل إبراهيم بدر، المشكلات الانفعالية والسلوكية للطلاب الموهوبين منخفضي التحصيل الدراسي، المؤتمر العلمي العربي السادس، الجمعية المصرية لأصول التربية بالتعاون مع كلية التربية، جامعة بنها، مصر، م2 (2013).
7. إلهامي عبد العزيز، المثابرة لدى الأطفال في ضوء بعض المتغيرات الاجتماعية مؤتمر الأطفال وآفاق القرن الحادي والعشرين ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية،، القاهرة (1993).
8. جمال شحاتة حبيب، الممارسة العامة من منظور حديث في الخدمة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، (2008).
9. جمال شحاتة حبيب، "الممارسة العامة للخدمة الإجتماعية"، الفارس، القاهرة، (2012).
10. حسن مصطفى عبد المعطي، الاضطرابات النفسية في الطفولة والمراهقة الأسباب والتشخيص والعلاج ، دار القاهرة للطباعة والنشر، القاهرة، (2001).
11. حسين عبد الحميد أحمد رشوان ، الطفل (دراسة في علم الاجتماع النفسي)، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، (1992).
12. سعيد حسني العزة ، تربية الموهوبين والمتفوقين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، (2002).
13. سمير عبد الكريم، وأحمد عبد الحليم، الحاجات الأساسية للطلبة المتفوقين والموهوبين في المراكز الريادية في محافظة البلقاء وعلاقتها ببعض المتغيرات، مجلة العلوم التربوية، العدد الثاني، ج1، 2014.
14. سهام على طه، أمينة محمد عثمان، الأطفال الموهوبون، دار النشر الدولي، ط1، السودان، (2019).
15. عادل عبد الله محمد ، رعاية الطلاب الموهوبين بدولة الكويت في ضوء خبرتي سنغافورة وفنلندا، مجلة العلوم التربوية، كلية التربية بالغردقة، جامعة جنوب الوادي، مصر، (2019).
16. عصام عبد الرازق فتح الباب ، الشراكة المجتمعية لرعاية الطلاب الموهوبين في ضوء الخدمة الاجتماعية، مجلة كلية الخدمة الاجتماعية، ، العدد 59، الجزء السابع ، 2018 .
17. عبد العزيز السيد الشخص، أساليب التعرف على المتفوقين عقلياً والموهوبين ورعايتهم وتنمية قدراتهم الابتكارية "برنامج مقترح"، مجلة التربية الخاصة والتأهيل،(2015)، المجلد 2، العدد 8 ، الجزء الأول، يوليو، 2015.
18. علي يحي يحي ناصف، تقويم دور الأنشطة الطلابية في خدمة الجماعة في التخفيف من حدة بعض مشكلات الطلبة الموهبين، مجلة كلية الخدمة الاجتماعية للدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الفيوم، العدد 19، الجزء الثاني، 2020.
19. عبد الحميد عبد الله العرفج ، فصول الموهوبين: تصورات الطلاب وأولياء الأمور من برنامج الهيئة الملكية السعودية للجبيل وينبع، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، للعلوم الإنسانية

والإدارية، جامعة الملك فيصل، مجلد 22، عدد خاص،2021.
20. عبد المطلب القريطي، الموهوب والمتفوقون: سماتهم واكتشافهم ورعايتهم، دار الفكر العربي، القاهرة، (2005).
21. عبد المجيد طاش نيازي، مشعل صقر السنيمائي، الخدمة الاجتماعية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة العربية السعودية، (2011).
22. عبد العزيز فهمي النوحي، الممارسة العامة في الخدمة الاجتماعية، عملية حل المشكلة ضمن إطار نسق أيكولوجي، ط6، سلسلة نحو رعاية اجتماعية متطورة، الكتاب الثالث، القاهرة، (2007).
23. عبد الناصر عوض أحمد، نظريات مختارة في خدمة الفرد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (2011).
24. فتحي عبد الرحمن جروان، أساليب الكشف عن الموهوبين ورعايتهم، دار الفكر للنشر ، ط2، عمان، (2008).
25. ماهر أبو المعاطي علي، "مداخل الممارسة العامة للخدمة الاجتماعية للتعامل مع المشكلات والظواهر الاجتماعية"، ورقة عمل في المؤتمر العلمي الثالث عشر، كلية الخدمة الاجتماعية، جامعة حلوان، 2002.
26. ماهر أبو المعاطي علي، "الممارسة العامة في الخدمة الاجتماعية: أسس نظرية- نماذج تطبيقية"، ط1، بدون دار نشر، القاهرة ، (2003).
27. مبارك ربيع، واقع رعاية الموهوبين في المدرسة العربية. المؤتمر السادس لوزارة التربية والتعليم في البلاد العربية، الرياض، -1 3 مارس 2008.
28. مجدب عزيز إبراهيم، "منظومة تعليم الموهوبين في عصر التميز والإبداع... إلى أين؟"، المؤتمر العلمي ا لخامس، تربية الموهوبين والمتفوقين المدخل إلى عصر التميز والإبداع، المنعقد في الفترة من 14 – 15 ديسمبر 2002، كلية التربية، جامعة أسيوط، 2002.
29. محمد الدمرداش أبو الفتوح إبراهيم ، تصور مقترح لمنظمات المجتمع المدني لتنمية قدرات الموهوبين في المجتمع المصري، مجلة كلية الخدمة الاجتماعية للدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الفيوم، العدد 18، الجزء الأول ، 2020.
30. محمد بن أبي بكر، تحفة المولود في أحكام المولود ، دار الإسراء للنشر، الأردن ، (2005).
31. مسفر سعيد محمد الزهراني، استراتيجيات الكشف عن الموهوبين والمبدعين ورعايتهم بين الأصالة والمعاصرة ، دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع، ، مكة المكرمة ، (2007).
32. ميادة إبراهيم طالب، فلسفة تعريف الموهبة في التربية، مجلة الأستاذ بكلية التربية جامعة بغداد ، المجلد 2 ، العدد (205)، العراق ، 2013 .
33. هشام سيد عبد المجيد وآخرون، "المدخل إلى الممارسة العامة في الخدمة الاجتماعية"، مركز نشر وتوزيع الكتاب الجامعي، جامعة حلوان،(2011).

ثانياً: المراجع الأجنبية :-

34- Christine Sanchez, Emmanuelle Brigud, Pascal Moliner and Nathalie Blance: The social representations of gifted children in childhood professional and the general adult population in Franc, Fourmal for the education of the gifted, vol 45, no 2, 2022.

35- Della Summer and etc: Longman dictionary of contemporary English (The complete Guide to written and spoken English), Third edition, British national corpus, 1995.

36- Desen Yalim Yamen & Asli Bugay: A case study on social emotional problem in gifted children, Elementary Education Educaiton can line, 2020, 19, 131.

37- Eid AboHamza, Enas Mohamed and Yasmen Elsantil: A systemic review based study of gifted and talented, talent development & excellence, Vol 12, No. 2s, 2020.

38- Elizabeth March and Et al.: The General Method of Social Work Practice, Mc Mohan's Generalist Perspective, Boston, Align and Bacon, 2002.
39-Jack L Stokes: Southeast Missouri State University, 2003, http://cstlhhs.semo.edu/stokes/SW308/index.htm:7/3/2013, 8:20pm (GMT) .
40- James J., Kelly et al: Social Workers Inspire Community Action, Annual Report 2009-2010, National Association of Social Workers, Washington, DC., 2010.
41- Malcolm Payne: "Modern Social Work Theory", 4th Edition, Palgrave Macmillan, 1997.
42- Kirst- Ashman, Hull, G.: Understanding Generalist Practice 6th ed (Belmont, Brooks/Cole) , 2011,
43- Pomela S. London: Generalist and Advanced Generation Practice of Social Work, Encyclopedia of Social Work, 19th Ed., Washington, DC., N.A.S.W., 1995.
44- Shirley burridge: Oxford Basic English Dictionary, Oxford University Press, 1989.

امتلاك مهارات تقرير المصير وعلاقتها بالتفكير المستقبلي لدى معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم .

إعداد:

د. ريم عبدالله الكناني
أستاذ مشارك، قسم الإرشاد النفسي والأسري، كلية العلوم التربوية /جامعة عجلون الوطنية
الأردن

د. صالح عليان درادكة
أستاذ مساعد، قسم الإرشاد النفسي والأسري، كلية العلوم التربوية / جامعة عجلون الوطنية
الأردن

الاستلام : 25/ 1/ 2023 القبول : 18/ 2/ 2023

المستخلص:

هدفت الدراسة الحالية التعرُّف إلى مستوى امتلاك مهارات تقرير المصير وعلاقتها بالتفكير المستقبلي لدى معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم، استخدمت الدراسة المنهج الوصفي الارتباطي، ولتحقيق أهداف الدراسة والإجابة عن تساؤلاتها تم تطوير مقياسي (مهارات تقرير المصير، مهارات التفكير المستقبلي)، وبعد التحقق من خصائصها السيكومترية، تم توزيعها على عينة مكونة من (90) معلماً ومعلمة للطلبة ذوي صعوبات تعلم في مديريات التربية والتعليم التابعة لمحافظة اربد تم اختيارهم بطريقة متيسرة، أشارت نتائج الدراسة إلى: أن مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير جاء متوسطاً، كما أن مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات التفكير المستقبلي جاء متوسطاً، كما أشارت النتائج إلى وجود علاقة طردية ودالة إحصائياً بين مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير وامتلاكهم لمهارات التفكير المستقبلي، وفي ضوء نتائج الدراسة قدمت عددا من التوصيات من أبرزها تأهيل معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم وإعدادهم وتعريفهم بمهارات تقرير المصير ومهارات التفكير المستقبلي من خلال الدروات وورش العمل لما له من أهمية في تطوير قدراتهم.

اَلْكَلِمَاتُ اَلْمِفْتَاحِيَّةُ : تقرير المصير، تفكير مستقبلي، معلمي الطلبة ذوي صعوبات تعلم.

Abstract:

The current study aimed to identify the level of self-determination skills and its relationship to future thinking among teachers of students with learning disabilities. The study used the descriptive correlational method. In order to achieve the objectives of the study and answer its questions, two scales (self-determination, future thinking skills) were developed. After checking its psychometric properties, it was distributed to a sample of (90) male and female teachers for students with learning disabilities in the Education Directorates of Irbid Governorate, who were chosen in an accessible way. The results of the study indicated that the level of knowledge of teachers of students with learning disabilities about self-determination was medium. The level of possession of future thinking skills by teachers of students with learning disabilities is medium. The results indicated that there is a positive and statistically significant relationship between the level of knowledge of teachers of students with learning disabilities about self-determination and their possession of future thinking skills, in light of the results of the study, a set of recommendations were presented, the most prominent of which is the need to pay attention to holding training courses regarding self-determination and future thinking.

Keywords: self-determination, Future Thinking, Teacher of Students with Learning Disabilities.

مقدمة :

يعد المعلم هو المحرك الأساسي في إدارة وتنسيق العملية التعليمية للطلبة العاديين، وأقرانهم غير العاديين، إذ لا يمكن تجاهل دوره فهو حجر الزاوية، وهو الذي يقوم على تخطيط الدروس لجميع طلابه، سواء كان الطالب العادي، أو طالب صعوبات التعلم، فدوره يرتكز على مدى كفاءته في إنجاز الخطة المرسومة في المنهج، فمعرفة المعلمين بطلابهم هي الأساس الذي يحكم العلاقة بين كل من المعلم والطالب، فالمعلم الذي لديه خلفية معرفية مناسبة، ودراية كافية بطلبة صعوبات التعلم، حتما ستسانده في إكمال دوره بالعملية التربوية، فالمعلم إذا ما تفهم طبيعة هؤلاء الطلاب، وخصائصهم، وأنماطهم، فحتما سيكون معلما متمكنا قادرا على العمل وسط الميدان التربوي باقتدار، وبمنهجية علمية يستطيع من خلالها القضاء على أغلب المعوقات التي تواجهه أثناء العمل مع هذه الفئة(زاير، 2015).

ويشهد العالم حاليا اهتماما ملحوظا بالمستقبل، وما يتصل به من دراسات تربوية، واقتصادية، وسياسية، وثقافية، وتقنية، وبيئية، وحضارية، كما ويشهد العالم حاليا كما هائلا من التحديات على مختلف الأصعدة، والتي يتعرض لها البشر بشكل يومي، مما يتطلب تنشيط قدرات المتعلمين التصورية، والإبداعية، لمواجهة تلك التحديات مستقبلا، وذلك من خلال مساعدتهم على التفكير بالمستقبل بشكل أفضل (أبو صفية، 2010).

ويعتبر التفكير المستقبلي أحد أنماط التفكير الذي يتطلب معالجة المعلومات التي سبق تعلمها من أجل استشراف آفاق المستقبل، وهذا يتطلب مساعدة الطلاب على فهم المشكلات، والقضايا المعاصرة، وإكسابهم القدرة على معالجتها، وتحليلها، والتعامل معها بما يضمن العبور لمستقبل آمن (smith, 2008).

وقد بدأت المؤسسات التربوية في مضاعفة جهودها للبحث عن كيفية إكساب المعلمين، والمتعلمين مهارات التفكير بشكل عام، والتفكير المستقبلي بشكل خاص، وتنمية قدراتهم العقلية للبحث، والاطلاع، وتحديد المشكلات، وحلها. الأمر الذي استدعى إحداث تعديلات على المناهج، وطرق التدريس، وإعداد المعلم، واستحداث مقررات جديدة تتلاءم، وتتماشى مع التقدم الهائل في شتى مناحي الحياة (عقل وأبو موسى، 2019).

إن التوجه نحو المستقبل يُعد مفهوما إيجابيا بينما يُعد قلق المستقبل مفهوما سلبيا، لذلك ربط علماء النفس طريقة التفكير بشكل وثيق بنوعية القرارات المستقبلية والعوامل النفسية المؤثرة عليها؛ ويحتاج معلمو الطلبة ذوو صعوبات التعلم إلى الاستقلالية، والقدرة على تحمل المسؤولية، واتخاذ القرارات المناسبة، لذا لا بد لهم من امتلاك المهارات التي تمكنهم من الانتقال إلى المرحلة القادمة بثقة ويسر، ولا يتسنى لهم ذلك إلا بامتلاك مهارات تقرير المصير التي تمثل القدرة على اتخاذ القرارات بحيث يكون هو الرقيب الأول على مجريات

حياتـه الخاصـة، وهـذا يتأتـى بامتـلاك الفـرد مزيجـا مـن السـلوكيات والقيـم التـي تسـمح لـه بتحقيـق رغباتـه في الطريـق التـي يختارهـا، والمشـاركة بمسـؤولية ونشـاط في حياتـه الخاصـة، والشـعور بالحريـة، وتوفـر الفـرص المناسـبة لتحمـل المخاطـر ومجابهتها(غريـب، 2014).

وأشـار Jones and Hensley (2012) إلى أن تقريـر المصـير يسـتدل عليـه مـن مجموعـة الاعمـال التـي يقـوم بهـا الشـخص، ليتخـذ قـرارا أو يحـدد اختيـارا واعيـا دون تأثـير خارجـي، ويحـدد نقـاط القـوة والضعـف لديـه ويضبـط سـلوكه وانفعالاتـه، ممـا يجعلـه مسـتقلا في سـلوكه، ومنظمـا ذاتيـا، ولديـه قـدرا مـن التمكـين النفـسي الـذي يدفعـه للتفاعـل مـع المجتمـع، ويسـاعده عـلى تحقيـق ذاتـه.

ومـن هنـا تـبرز أهميـة أن يتـصرف معلمـو الطلبـة ذوو صعوبـات التعلـم حسـب قراراتهـم، والخـبرات التـي يمـرون بهـا، كمـا يجـب أن يطـوروا مفهومـا إيجابيـا عـن ذواتهـم الاجتماعيـة والأكاديميـة، وهـي مـن الخصائـص الأساسـية لنظريـة تقريـر المصـير، حيـث يعـد تقييـم الفـرد لذاتـه واختيـار السـلوكيات المناسـبة وفقـا لتقييمـه المسـبق، وتنظيـم الـذات متطلبـات أساسـية لدعـم مفهـوم التفكـير المسـتقبلي، وهـي في نفـس الوقـت مـن دعائـم تقريـر المصـير، وهـو مـا أكـده Deci, and Ryan(2018) في اشـارتهما إلى ارتبـاط تقريـر المصـير بالمسـتويات المرتفعـة مـن الدافعيـة الداخليـة، ونوعيـة التفكـير.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها :

يتطلـب التفكـير في المسـتقبل الفهـم، والراحـة مـع عـدم اليقـين، ويتطلـب تقريـر المصـير التعلـم مـن المـاضي، واستكشـاف الحـاضر، والتفكـير في المسـتقبل، وتطويـر حلـول قابلـة للتكيـف، ومرنـة، ويشـمل التفكـير المسـتقبلي القـدرة عـلى مناقشـة كيـف أثـر النـاس في المـاضي عـلى خيـارات اليـوم، وكيـف سـيؤثر الأفـراد الآن عـلى خيـارات الأشـخاص في المسـتقبل(Robinson, 2011)، ويمكـن للمعلم اسـتخدام التفكير المسـتقبلي في الصـف الـدراسي عـن طريـق البـدء في إشراك الطالـب بالنتائـج المتنوعـة المرتبطـة بالخيـارات التـي يتخذونهـا، ويمكـن للمعلمـين دفـع الطالـب إلى الانخـراط فيمـا وراء إجابـات الاختيـار الأول، وهنـاك طريقـة أخـرى هـي السـيناريوهات، والتـي تمثـل أداة يمكـن للمعلمـين تنفيذهـا لمسـاعدة الطالـب عـلى التفكـير في كيفيـة تطـور المسـتقبل، وللسـيناريوهات أشـكالا متعـددة مثـل: البصريـة، والسـمعية، والتجسـيدية، والحركيـة، واللفظيـة، الأمـر الـذي يتطلـب مـن المعلمـين إعـادة النظـر في كثـير مـن ممارسـاتهم الاعتياديـة، وطـرق تفكيرهـم (Warren,2014).

إذ أشـارت دراسـات كل مـن: (الفايـز، 2021؛ نهابـة وعبـود، 2021؛ الحويطـي، 2018؛ Min and Hsin 2016)، إلى ضرورة امتـلاك المعلمـين لمهـارات التفكـير المسـتقبلي، وضمنـت في التوصيـات التـي قدمتهـا العمـل عـلى إعـداد البرامـج، والـدورات التـي تعزيـز مهـارات التفكـير المسـتقبلي لديهـم. في حـين أشـارت توصيـات دراسـة كل مـن (الشـهري وشـقدار ،2022؛ الحمـادي وربابعـة ،2020؛ الشرعـة ومهيـدات ،2018) إلى

ضرورة تنمية مهارات تقرير المصير لدى الأفراد.

وانسجاما مع ما تقدم فقد جاءت هذه الدراسة بغرض الوقوف على مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير وعلاقتها بالتفكير المستقبلي. من خلال الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

هل توجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha \leq 0.05$) بين متوسطات درجات استجابة معلمي الطلبة ذوي صعوبات على مقياس مهارات تقرير المصير ومتوسطات درجات استجابتهم على مقياس مهارات التفكير المستقبلي؟

ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة الفرعية الآتية:

- السؤال الأول: ما مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير؟
- السؤال الثاني: ما مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات التفكير المستقبلي؟
- السؤال الثالث: هل توجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha \leq 0.05$) بين متوسطات درجات استجابة معلمي الطلبة ذوي صعوبات على مقياس مهارات تقرير المصير ومتوسطات درجات استجابتهم على مقياس مهارات التفكير المستقبلي؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة الحالية إلى:

- التعرف إلى مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير ا لمصير .
- التعرف إلى مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات التفكير المستقبلي.
- الكشف عن وجود علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات استجابة معلمي الطلبة ذوي صعوبات على مقياس مهارات تقرير المصير ومتوسطات درجات استجابتهم على مقياس مهارات التفكير المستقبلي.

أهمية الدراسة :

تنبثق أهمية الدراسة من النقاط الآتية :

أولاً: الأهمية النظرية :

- تسهم الدراسة في إضافة بحث علمي إلى مكتبة البحوث العربية في مجال مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير، وعلاقتها بامتلاكهم لمهارات التفكير المستقبلي.
- إضافة معلومات إثرائية حديثة إلى المعرفة الإنسانية، والمكتبات العربية، وتوفير إطار نظري يسلط الضوء على مهارات تقرير المصير، ومهارات التفكير المستقبلي.

- مساعدة المعلمين بشكل عام، ومعلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم بشكل خاص على فهم أدوارهم المهنية المستقبلية، ومعرفة المهارات التي يجب عليهم اتقانها، وبالتالي تعزز لديهم مفهومي التطوير، والتقييم الذاتي.

ثَانِيًا: الأَهمية التطبيقية

- توفر الدراسة الحالية أداة لقياس مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير، وأداة لقياس مهارات التفكير المستقبلي، مما يسهم في تحسين وعي أصحاب القرار لهذه المهارات، وأهميتها فيما يسند للمعلم من أدوار، ومهام.
- الاستفادة من نتائج الدراسة، وتوصياتها في إعداد برامج التطوير المهني للمعلمين.
- مساعدة القائمين على برامج صعوبات التعلم على تقييم أداء معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم بناء على مستوى امتلاكهم لمهارات تقرير المصير، وامتلاكهم لمهارات التفكير المستقبلي، والذي ينعكس على طلبتهم.

هـ. حدود ومحددات الدراسة:

الحدود الزمانية: تم تطبيق الدراسة الحالية خلال الفصل الدراسي الأول 2022/2023.

الحدود المكانية: تم تطبيق الدراسة الحالية في المدارس الحكومية التابعة لمحافظة إربد.

الحدود البشرية: تم تطبيق الدراسة الحالية على معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم.

الحدود الموضوعية: تمثلت في تعرف مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير، وامتلاكهم لمهارات التفكير المستقبلي.

محددات الدراسة: حددت نتائج الدراسة بدرجة دقة، وموضوعية، وشفافية استجابة معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم عن فقرات أداتا الدراسة، ومدى تمثيل العينة، ولا يمكن تعميمها إلا على المجتمع الذي سحبت منه العينة، وما يماثلها من مجتمعات.

و. مصطلحات الدراسة

تقرير المصير: مزيج من المعتقدات، والمعارف، والمهارات التي تمكن الشخص من تحديد أهدافه، وتوجيه سلوكه، وفهم نقاط القوة والضعف لديه، ما يجعله قادرا على السيطرة على حياته، والنجاح في مرحلة الرشد (Field &,1994, p160) Hoffiman).

اجرائيا: بالدرجة التي حصل عليها معلمي الطلبة ذوي صعوبات التَّعَلُّمُ من خلال استجابتهم على مقياس تقرير المصير المعد لهذا الغرض والمكون من ستة أبعاد هي: (تقبل المسئولية الشخصية، معرفة الذات، وضع الهدف وتقيمه، تنظيم الذات، التمكين النفسي، الاستقلالية).

مهـارات التفكـير المسـتقبلي: عرفهـا الدرابكـة (2018، ص،317) بأنهـا مجموعـة من المهـارات التـي تمكـن الفـرد مـن معالجـة توقعاتـه المسـتقبلية، والتنبـؤ بها بشـكل واعٍ وفعـال، ويتـم ذلـك عـبر التخطيـط، وتطويـر السـيناريو، والتفكـير الإيجابـي، وتقييـم المنظور للمسـتقبل.

وتعـرف إجرائيـا: بالدرجـة التـي حصـل عليهـا معلمـي الطلبـة ذوي صعوبـات التَّعَلُّمُ مـن خـلال اسـتجابتهم عـلى مقيـاس مهـارات التفكـير المسـتقبلي المعـد لهـذا الغـرض والمكـون مـن أربعـة أبعـاد وهـي(مهـارة التخطيـط المسـتقبلي، مهـارة حـل المشـكلات المسـتقبلية، مهـارة التخيـل المسـتقبلي، مهـارة التوقـع المسـتقبلي).

الدراسات السابقة:

يتضمـن هـذا الجـزء عرضـاً للدراسـات السـابقة المتعلقـة بمتغـيرات الدراسـة الحاليـة، وقـد تـم ترتيبهـا مـن الأحـدث إلى الأقـدم، وهـي كالآتـي:

هدفـت دراسـة الشـهري وشـقدار(2022) إلى التعـرف إلى واقـع معرفـة واسـتعداد المعلمـات بتطبيـق مهـارات تقريـر المصـير في برامـج التدخـل المبكـر مـن وجهـة نظرهنّ بمدينـة جـدة. وتكونـت عينـة الدراسـة مـن (117) مـن معلمـات التربيـة الخاصـة العامـلات في برامـج التدخـل المبكـر في مراكـز التربيـة الخاصـة وريـاض الأطفـال والتعليـم العـام، واسـتخدمت المنهـج الوصفـي المسـحي، ولتحقيـق أهـداف الدراسـة تـم تصميـم اسـتبانة "معرفـة واسـتعداد المعلمـات بتطبيـق مهـارات تقريـر المصـير في برامـج التدخـل المبكـر" لتكـون أداة رئيسـة لجمـع البيانـات والمعلومـات مكونـة مـن (20) عبـارة موزعـة عـلى خمسـة محـاور، وأظهـرت نتائـج الدراسـة أن واقـع معرفـة المعلمـات بمهـارات تقريـر المصـير في برامـج التدخـل المبكـر جـاءت متفاوتـة في المهـارات الخمسـة المبحوثـة. كذلـك أشـارت النتائـج بأنـه لا يوجـد فـروق ذات دلالـة إحصائيـة فيمـا يتعلـق باسـتعداد المعلمـات بتطبيـق مهـارات تقريـر المصـير تبعًـا لمتغـير المؤهـل العلمـي في المهـارة الأولى والثالثـة والرابعـة والخامسـة وإجمـالي المهـارات. بينمـا توجـد فـروق ذات دلالـة إحصائيـة فيمـا يتعلـق باسـتعداد المعلمـات بتطبيـق مهـارات تقريـر المصـير في المهـارة الثانيـة القـدرة عـلى الاختيـار المناسـب، كمـا وأوصـت الدراسـة عـلى تزويـد المعلمـات بالتدريـب الـلازم عـلى تطبيـق مهـارات تقريـر المصـير في برامـج التدخـل المبكـر.

وهدفـت دراسـة الفايـز (2021) إلى التعـرف عـلى درجـة امتـلاك معلمـات العلـوم الشرعيـة في المرحلـة المتوسـطة لمهـارات التفكـير المسـتقبلي، في مدينـة الريـاض، ومعرفة أثـر الخـبرة، والمؤهـل العلمـي في درجـة امتلاكهـن لتلـك المهـارات، ومـن ثـم إعـداد تصور مقـترح لتطويـر مهـارات التفكـير المسـتقبلي لـدى معلمـات العلـوم الشرعيـة اللاتـي يظهـر لديهـن ضعـف فيهـا. ولتحقيـق هـدف الدراسـة تـم اتبـاع المنهـج الوصفـي، كما تـم إعـداد اختبـار، يشـتمل عـلى مهـارات التفكـير المسـتقبلي التاليـة: التوقـع، والتصور، وحـل المشـكلات المسـتقبلية، والتنبـؤ، وتطبيقـه عـلى عينـة مكونـة مـن (51) معلمـة، تـم اختيارهـن عشـوائيًا، وتوصلـت نتائجهـا إلى أن المتوسـط العـام لدرجـة امتلاكهـن

لمهارات التفكير المستقبلي بلغ (37.43)، وهي نسبة متدنية، وبلغ متوسط مهارة حل المشكلات المستقبلية (12.71)، ويليها في المرتبة الثانية مهارة التنبؤ بمتوسط قيمته (6.12)، أما المرتبة الثالثة، فاحتلتها مهارة التصور بمتوسط قدره (9.33)، وأخيرًا مهارة التوقع بمتوسط قيمته (9.27)، كما أظهرت نتائجها عدم وجود أثر لكل من: الخبرة، والمؤهل العلمي في درجة امتلاكهن لمهارات التفكير المستقبلي.

وهدفت دراسة نهابة وعبود (2021) إلى معرفة درجة امتلاك طلبة الكلية التربوية المفتوحة في العراق لمهارات التفكير المستقبلي، ويعتمد البحث على المنهج الوصفي المسحي. وقد طورت الدراسة مقياساً للتفكير المستقبلي تكون من (23) فقرة توزعت على اربع مهارات رئيسة هي: مهارة التخطيط المستقبلي، مهارة حل المشكلات المستقبلية، مهارة التخيل المستقبلي، ومهارة التوقع المستقبلي، وتتكون عينة البحث من (144) طالباً وطالبةً أُختيروا بطريقة العينة العشوائية الطبقية، أظهرت النتائج: إن درجة امتلاك طلبة الكلية التربوية المفتوحة لمهارات التفكير المستقبلي عالية في مهارتي (التخطيط المستقبلي، وحل المشكلات المستقبلية) ومتوسطة لمهارتي: (مهارة التخيل المستقبلي، والتوقع المستقبلي)، وبينت النتائج عدم وجود دالة إحصائيا في متغيري الجنس والاختصاص، ووجود فرق ذي دالة إحصائيا في متغير سنوات الخدمة لصالح الذين يملكون خدمة في التدريس أكثر من عشرة سنوات.

وهدفت دراسة الحمادي والربابعة (2020) إلى قياس مدى امتلاك الطلبة ذوي صعوبات التعلم في المرحلة المتوسطة لمهارات تقرير المصير، وتكونت صنة الدراسة (61) طالبا، تم تقسيمهم إلى (31)طالبة من ذوات صعوبات تعلم، و (30) طالبة من العاديين في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، واستخدمت الوصفي التحليلي، واستخدمت الاستبانة كأداة قياس، وأظهرت نتائج الدراسة أن امتلاك الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير جاء بدرجة متوسطة، وجاءت الفقرة أعتني بنظافتي الشخصية بدرجة متوسطة بمحور الاستقلالية، بينم أظهرت النتائج أن امتلاك الطلبة العاديين لمهارات تقرير المصير جاءت بدرجة عالية.

وهدفت دراسة الشرعة ومهيدات (2018) إلى التعرف على مستوى معرفة معلمي التربية الخاصة لمهارات تقرير المصير في تعليم الطلبة ذوي الإعاقة في مؤسسات التربية الخاصة في الأردن ومراكزها. تكونت عينة الدراسة من(50) معلما ومعلمة ولتحقيق أهداف الدراسة تم تطوير استبانة لقياس مهارات تقرير المصير ، استخدم المنهج الوصفي التحليلي، أشارت النتائج إلى أن مستوى معرفة معلمي التربية الخاصة لمهارات تقرير المصير جاء متوسطا، وأن هناك فروق ذات دلالة احصائية بين متغير الخبرة لصالح الخبرة أكثر من (10) سنوات على الأداة ككل.

وهدفت دراسة الحويطي (2018) إلى معرفة درجة امتلاك طلاب كلية التربية

والآداب بجامعة تبوك لمهارات التفكير المستقبلي، اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي المسحي، وتم تطوير مقياس لمهارات التفكير المستقبلي. تكونت عينة الدراسة من (193) طالب وطالبة، اختيروا بطريقة العينة الطبقية العشوائية. وقد أظهرت نتائج الدراسة أن طلاب كلية التربية والآداب يمتلكون وبدرجة عالية مهارات التفكير المستقبلي بشكل عام، وجاءت درجة امتلاكهم لكل من مهارتي (التخطيط المستقبلي حل المشكلات المستقبلية) بدرجة عالية. بينما جاءت درجة امتلاكهم لكل من (مهارة التخيل المستقبلي التوقع المستقبلي) متوسطة. كما بينت النتائج عدم وجود فروق دالة إحصائيا في درجة امتلاك طلاب كلية التربية والآداب لمهارات التفكير المستقبلي بشكل عام وعند جميع المهارات الرئيسية تعزى لمتغير الجنس، بينما توجد فروق دالة إحصائيا في درجة امتلاكهم لمهارات التفكير المستقبلي بشكل عام وعند مهارتي (حل المشكلات المستقبلية، والتخيل المستقبلي) تبعاً لمتغير المستوى الدراسي ولصالح طلاب مرحلة الماجستير مقارنة مع كل من (طلاب البكالوريوس وطلاب الدبلوم التربوي). كما توجد فروق دالة إحصائيا في درجة امتلاك طلاب كلية التربية والآداب لمهارات التفكير المستقبلي عند مهارة التخيل المستقبلي فقط تبعاً لمتغير عدد سنوات الخبرة ولصالح الأفراد من ذوي الخبرة المتوسطة والعالية مقارنة بأفراد الدراسة ممن لم يمارسوا مهنة التدريس (طالب بدون خبرة).

وهدفت دراسة Min and Hsin (2016) إلى دراسة تأثير مناهج التفكير المستقبلية على تنمية التفكير المستقبلي والأبداع لطلاب المدارس الثانوية، استخدم المنهج الوصفي التحليلي والارتباطي، طبقت استبانة على الطلاب الذين تم اختيارهم للمشاركة وعددهم (640) طالبا، أظهرت النتائج أن 80% من العينة أظهروا أفكار خلاقة أبعد عن الواقع في ورقة الاستجابة، وأن لديهم ثقة في قدراتهم الإبداعية، كما اظهر 80% من العينة شعورهم بالإيجابية نحو المستقبل وأن المناهج حسنت من قدراتهم على التنبؤ المستقبلي، وتحسين مستوى تفكيرهم المستقبلي.

الطريقة والاجراءات:

تناولت الباحثة في هذا الفصل الإجراءات المنهجية التي قامت باتباعها، والتي تشمل وصف مجتَمع الدراسة، وعينتها، بيان المنهج المتبع، وبيان خطوات بناء أداءه الدراسة، وطرق التحقق من صدقها، وثباتها، والأساليب الإحصائية التي استخدمت في معالجة وتحليل البيانات، وفيما يلي تفصيل لتلك الإجراءات.

منهج الدراسة:

تم استخدام المنهج الوصفي الارتباطي لمناسبته لطبيعة هذه الدراسة.

مجتمع الدراسة:

تكون مجتمع الدراسة الحالية من جميع معلمي ومعلمات الطلبة ذوي صعوبات التعلم والبالغ عددهم (146) معلماً ومعلمة في مديريات التربية والتعليم التابعة لمحافظة اربد.

عينة الدراسة :

تـم اختيـار عينـه الدراسـة بطريقـه متيـسرة مـن مجتمـع الدراسـة وعددهـم (90) معلمـاً ومعلمـة ممـن اسـتجاب منهـم عـلى أداة الدراسـة بشـكل موضوعـي وقابـل للتحليـل الاحصائـي. والجـدول (1) يوضـح توزيـع عينـة الدراسـة:

جدول(1): توزيع عينة الدراسة

المديرية	العدد
الكورة	14
الوسطية	13
بني كنانة	9
الاغوار الشمالية	8
بني عبيد	10
المزار الشمالي	7
الرمثا	14
اربد الأولى	15
المجموع	90

أدوات الدراسة:

مقياس مهارات تقرير المصير:

قامـت الباحثـة بمراجعـة الدراسـات السـابقة التـي تعرضـت لمفهـوم وأبعـاد مهـارات تقريـر المصـير (الشـهري وشـقدار،2022؛ الحمـادي وربابعـة ،2020؛ الشرعـة ومهيـدات ،2018) وتـم وضـع تصـور لتطويـر مقيـاس تقريـر المصـير، وتـم التحقـق مـن الخصائـص السـيكومترية للمقيـاس مـن خـلال إيجـاد دلالات الصـدق والثبـات لـه.

الصـدق الظاهـري: تَـم التأكـد مـن صـدق أداة الدراسـة وذلـك بعرضهـا عـلى (10) محكمـين مـن ذوي الخـبرة، والاختصـاص، والتـي اشـتَملت عـلى الصياغـة اللغويـة، والأخطـاء المطبعيـة، وانتَمـاء الفقـرة للمجـال، وملاءمـة الفقـرات، بالإضافـة إلى اقـتراح أي تعديـلات لتحسـين أداة الدراسـة وبنـاء عـلى إجمـاع مـا يزيـد عـلى (80%) مـن مجموعـة المحكمـين أصبحـت اداة الدراسـة تحتـوي عـلى مقيـاس مهـارات تقريـر المصـير بصورتـه النهائيـة مكـون مـن (25) فقـرة موزعـة عـلى (5) أبعـاد هـي: معرفة الـذات (5 فقـرات)، وضـع الهـدف وتقيمـه (5 فقـرات)، تنظيـم الـذات (5 فقـرات)، التمكـين النفـسي (5 فقـرات)، الاسـتقلالية (5 فقـرات).

صـدق البنـاء: تَـم تطبيـق اداة الدراسـة عـلى عينـة اسـتطلاعية مـن مجتمـع الدراسـة، وخـارج عينـة الدراسـة، والبالـغ عددهـم (15) معلمـا ومعلمـة، وتَـم حسـاب معامـلات ارتبـاط بـين كل فقـرة مـع الدرجـة الكليـة للبعـد الـذي تنتَمـي إليـه الفقـرة. كمـا تَـم حسـاب معامـلات الارتبـاط بـين كل فقـرة مـع الدرجـة الكليـة لمقيـاس مهـارات تقريـر المصـير والجـدول (2) يبـين ذلـك.

الجدول (2): معاملات ارتباط بيرسون بين الفقرات
والابعاد والمقياس ككل لمقياس مهارات تقرير المصير

رقم الفقرة	تقبل المسئولية الشخصية		معرفة الذات		وضع الهدف وتقيمه	
	معامل الارتباط مع		معامل الارتباط مع		معامل الارتباط مع	
	البُعد	المقياس ككل	البُعد	المقياس ككل	البُعد	المقياس ككل
1	.794**	.704**	.806 **	.773**	.456**	.243**
2	.877**	.762**	.820**	.794**	.795**	.697**
3	.827**	.580**	.741**	.612**	.800**	.810**
4	.808**	.552**	.811**	.743**	.837**	.796**
5	.816**	.589**	.728**	.615**	.854**	.752**
رقم الفقرة	تنظيم الذات		التمكين النفسي		الاستقلالية	
	معامل الارتباط مع		معامل الارتباط مع		معامل الارتباط مع	
	البُعد	المقياس ككل	البُعد	المقياس ككل	البُعد	المقياس ككل
1	.849**	.818**	.875**	.838**	.865**	.844**
2	.800**	.762**	.770**	.715**	.859**	.768**
3	.846**	.802**	.890**	.831**	.860**	.751**
4	.845**	.815**	.801**	.717**	.850**	.763**
5	.726**	.657**	.846**	.808**	.848**	.768**

*دالة إحصائيا عند مستوى الدلالة (0.05).

**دالة إحصائيا عند مستوى الدلالة (0.01).

يتبين من الجدول (2) أن معاملات الارتباط بين الفقرات والابعاد والمقياس ككل لمقياس التفكير مهارات تقرير المصير جميعها قيم دالة إحصائيا.

ثبات أداة الدراسة : تم قياس الثبات الداخلي للاستبانة من خلال معامل (كرونباخ الفا) (Cronbach Alpha)، والجدول (3) يبين هذه المعاملات.

الجدول (3): معامل الثبات بطريقة ألفا كرونباخ لمقياس مهارات تقرير المصير

البُعد/المقياس	الثبات بطريقة ألفا كرونباخ	عدد الفقرات
معرفة الذات	.836	5
وضع الهدف وتقيمه	.803	5
تنظيم الذات	.870	5
التمكين النفسي	.893	5
الاستقلالية	.908	5

يتبين من الجداول اعلاه ان جميع مجالات الاستبانة تتمتع بنسبة مقبولة لأجراء الدراسة حيث ان معامل كرونباخ ألفا بين (1) و (0)، وبوجه عام إذا كانت ألفا أقل من (0.4) فإن الثبات ذات قيمة منخفضة،

وتعد الفقرات ذات ثبات متوسط، إذ بلغت قيمته بين(0.7-0.4)، في حين يعد الثبات مرتفعاً إذا بلغت قيمته أعلى من(0.7).

مقياس التفكير المستقبلي:

قامت الباحثة بمراجعة الدراسات السابقة التي تعرضت لمفهوم ومعايير وأهداف التفكير المستقبلي كدراسة(الفايز، 2021؛ نهابة وعبود، 2021؛ الحويطي، 2018؛ Min and Hsin 2016)، وتكون المقياس من (28) فقرة تقيس أربعة أبعاد للتفكير المستقبلي هي كالاتي: (مهارة التخطيط المستقبلي، مهارة حل المشكلات المستقبلية، مهارة التخيل المستقبلي، مهارة التوقع المستقبلي).

تم التحقق من صدق مقياس التفكير المستقبلي باستخدام طريقتي الصدق الظاهري (المحتوى)، وصدق البناء الداخلي، "ويقصد بصدق المقياس (Instrument Validity) إلى أي درجة يقيس المقياس الغرض المصمم من أجله، وعليه يمكن تعريف صدق أداة جمع البيانات إلى أي درجة توفر الأداة بيانات ذات علاقة بمشكلة الدراسة من مجتمع الدراسة، أي أن الصدق يقصد به أن المقياس يقيس ما وضع لقياسه، أي يقيس السمة أو الظاهرة التي وضع لقياسها ولا يقيس غيرها، وتم التحقق من صدق المقياس بالطرق الآتية":

الصدق الظاهري (صدق المحكمين) لمقياس التفكير المستقبلي: تم عرض المقياس في صورته الأولية على مجموعة من المحكمين من ذوي الاختصاص في مجال صعوبات التعلم والبالغ عددهم (10) محكمين من حيث صحة الفقرات لغويًا ومدى ملائمتها لقياس ما وضعت له حيث أظهر المحكمون نسبة توافق زادت عن (80%) على صحة وملائمة الفقرات، ومن حيث الصياغة اللغوية: الوضوح، والسلامة اللغوية، والحاجة للتعديل، وضوح المعنى، ومدى انتماء الفقرة في المقياس والبُعد، إبداء أية معلومات أو تعديلات يرونها مناسبة، وبناءً على اقتراحاتهم، تمّ إجراء تعديلات لغوية في بعض الفقرات بدون حذف أو إضافة.

صدق البناء الداخلي لمقياس التفكير المستقبلي: تم التأكد من صدق البناء من خلال توزيع مقياس التفكير المستقبلي على عينة استطلاعية عددها (15) معلما ومعلمة من مجتمع الدراسة وخارج العينة، ومن ثم حساب معاملات الارتباط بين كل فقرة من الفقرات مع البُعد، وارتباط الفقرات مع المقياس ككل، والجدول (4) يوضح ذلك.

الجدول (4): معاملات الارتباط بين كل عبارة من عبارات مقياس التفكير المستقبلي والبُعد الذي تنتمي إليه والدرجة الكلية للمقياس

التخطيط المستقبلي			حل المشكلات المستقبلية			التخيل المستقبلي			التوقع المستقبلي		
معامل الارتباط			معامل الارتباط			معامل الارتباط			معامل الارتباط		
الرقم	البُعد ككل	المقياس ككل	الرقم	البُعد ككل	المقياس ككل	الرقم	البُعد ككل	المقياس ككل	الرقم	البُعد ككل	المقياس ككل
1	0.64**	0.40**	1	0.60**	0.42**	1	0.79**	0.75**	1	0.81**	0.78**
2	0.67**	0.63**	2	0.86**	0.77**	2	0.76**	0.78**	2	0.63**	0.53**
3	0.59**	0.53**	3	0.82**	0.84**	3	0.86**	0.85**	3	0.75**	0.79**
4	0.60**	0.36**	4	0.93**	0.95**	4	0.92**	0.82**	4	0.74**	0.81**
5	0.70**	0.49**	5	0.74**	0.80**	5	0.72**	0.73**	5	0.71**	0.49**
6	0.45**	0.33**	6	0.86**	0.80**	6	0.58**	0.48**	6	0.72**	0.73**
7	0.72**	0.64**	7	0.83**	0.70**	7	0.56**	0.47**	7	0.55**	0.45**

*دالة إحصائياً عند مستوى الدلالة ($0.05 \geq \alpha$).

**دالة إحصائياً عند مستوى الدلالة ($0.01 \geq \alpha$).

أظهرت النتائج الموضحة في الجدول (4) ما يلي:

1. **أن معاملات الارتباط بين عبارات بُعد التخطيط المستقبلي والبُعد ككل تراوحت ما بين (0.72-0.45)، كما أن معاملات الارتباط بين العبارات والدرجة الكلية للمقياس تراوحت ما بين (0.64-0.33) وجميعها قيم دالة إحصائياً.**
2. **أن معاملات الارتباط بين عبارات بُعد حل المشكلات المستقبلية والبُعد ككل تراوحت ما بين (0.93-0.60)، كما أن معاملات الارتباط بين العبارات والدرجة الكلية للمقياس تراوحت ما بين (0.95-0.42) وجميعها قيم دالة إحصائياً.**
3. **أن معاملات الارتباط بين عبارات بُعد التخيل المستقبلي والبُعد ككل تراوحت ما بين (0.92-0.56)، كما أن معاملات الارتباط بين العبارات والدرجة الكلية للمقياس تراوحت ما بين (0.85-0.47) وجميعها قيم دالة إحصائياً.**
4. **أن معاملات الارتباط بين عبارات بُعد التوقع المستقبلي والبُعد ككل تراوحت ما بين (0.81-0.55)، كما أن معاملات الارتباط بين العبارات والدرجة الكلية للمقياس تراوحت ما بين (0.81-0.45) وجميعها قيم دالة إحصائياً.**
5. **وتم استخراج معاملات الارتباط بين الأبعاد الفرعية لمقياس معايير التنمية المستدامة ببعضها البعض، الجدول (5) يوضح ذلك.**

جدول (5) : معاملات الارتباط بين الأبعاد الفرعية لمقياس التفكير المستقبلي ببعضها

البُعد	التخطيط المستقبلي	حل المشكلات المستقبلية	التخيل المستقبلي	التوقع المستقبلي
التخطيط المستقبلي	1			
حل المشكلات المستقبلية	0.55**	1		
التخيل المستقبلي	0.42**	0.77**	1	
التوقع المستقبلي	0.67**	0.84**	0.72**	1

*دالة إحصائياً عند مستوى الدلالة (0.05≥α).

**دالة إحصائياً عند مستوى الدلالة (0.01≥α).

يظهر من الجدول (5) أن معاملات الارتباط بين الأبعاد الفرعية لمقياس التفكير المستقبلي ببعضها تراوحت ما بين (0.84-0.42) وجميعها قيم دالة إحصائيا.

ثبات مقياس التفكير المستقبلي: تم التأكد من ثبات أداة الدراسة باستخدام طريقتين لحساب الثبات وهي:

الطريقة الأولى: ثبات الإعادة (Test Retest)

تم تطبيق المقياس على عينة استطلاعية السابق ذكرها من مجتمع الدراسة وخارج العينة الأساسية، حيث طلبت الباحثة منهن الإجابة عن فقرات مقياس التفكير المستقبلي، ثم أعيد تطبيقه عليهم بعد أسبوعين من التطبيق الأول، وتم حساب معامل ارتباط بيرسون يبين درجات العينة الاستطلاعية في التطبيقين، وعلى الأبعاد الأربع للمقياس، ويوضح الجدول (8-3) نتائج الثبات بطريقة الإعادة.

الطريقة الثانية: طريقة ألفا كرونباخ.

لقد تمّ حساب ثبات أداة عن طريق معادلة ألفا كرونباخ (Cronbach Alpha) وذلك على درجات التطبيق الأول للعينة الاستطلاعية، والجدول (6) يوضح النتائج.

جدول (6): معامل الثبات بطريقتي الإعادة وألفا كرونباخ لمقياس التفكير المستقبلي

البُعد	عدد الفقرات	الثبات بطريقة الإعادة	الثبات بطريقة ألفا كرونباخ
التخطيط المستقبلي	7	0.711**	0.709
حل المشكلات المستقبلية	7	0.907**	0.897
التخيل المستقبلي	7	0.770**	0.867
التوقع المستقبلي	7	0.761**	0.914
المقياس ككل	28	0.929**	

**دالة إحصائياً عند مستوى الدلالة (0.01≥α).

يظهر من الجدول (6) أن معاملات ثبات الإعادة بيرسون لمقياس التفكير المستقبلي وأبعاده الفرعية تراوحت ما بين (0.907-0.711) وبلغ قيمة ثبات الإعادة بطريقة بيرسون للمقياس ككل (0.929) واعتبرت هذه القيم ملائمة لغايات هذه الدراسة، كما أن معاملات الثبات بطريقة كرونباخ ألفا (-0.709

0.914)، وهي قيم مرتفعة ومقبولة إحصائياً حيث أشارت الدراسات إلى أن معاملات الثبات التي تكون (0.70) فما فوق هي معاملات جيدة.

متغيرات الدراسة:

تحتوي الدراسة الحالية على المتغيرات التصنيفية الاتية:

- المتغير المستقل: تقرير المصير
- المتغير التابع: مهارات التفكير المستقبلي.

المعالجة الإحصائية:

بعد تفريغ إجابات أفراد عينة الدراسة، وترميزها، وإدخال باستخدام برنامج الرزم الإحصائية للعلوم الاجتَماعية (SPSS)، وذلك باستخدام المعالجات الإحصائية الاتية :

للإجابة عن السؤالين الأول، والثاني: المتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية، وذلك بهدف تعرف مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير ومستوى مهارات التفكير المستقبلي .

للإجابة عن السؤال الثالث: استخراج مصفوفة معاملات الارتباط بيرسون (Pearson Correlation) ما بين أبعاد مقياسي مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير ومستوى مهارات التفكير المستقبلي.

خطوات إجراء الدراسة :

- قامت الباحثة في البداية بتحديد مشكلة الدراسة، وأهميتها، وأهدافها، ومتغيراتها.
- تَم تطوير المقياسين، وتحكيمها، وتوزيعها على أفراد العينة الاستطلاعية.
- تم مخاطبة الجهات المعنية لتسهيل مهمة الباحثة.
- تَم تطبيق أدوات الدراسة على العينة، وتوضيح الإجابة عن الأداة، وجمع البيانات المتعلقة بذلك.
- تم جمع الأداة، وتدقيقها للتأكد من صلاحيتها للتحليل الإحصائي.
- تم تفريغ استجابات أفراد العينة، ثم ترميزها، وإدخال البيانات باستعمال الحاسب الإلكتروني، ومعالجة البيانات باستعمال برنامج الحزمة الإحصائية (SPSS).
- تم تقديم عدد من التوصيات في ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسة الحالية.

النتائج والتوصيات

يتضمن هذا الفصل عرضاً لنتائج الدراسة التي هدفت إلى تعرف امتلاك مهارات تقرير المصير وعلاقتها بالتفكير المستقبلي لدى معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم، وذلك وفقاً لما تناولته من أسئلة:

النتائج المتعلقة بالسؤال الأول: ما مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات تقرير المصير؟

للإجابة عن هذا السؤال تم حساب المتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية لمهارات تقرير المصير لدى معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم ، والجدول (7) يوضح ذلك.

الجدول (7): المتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية لمهارات تقرير المصير لدى معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم

الرتبة	الرقم	البُعد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المستوى
1	3	تنظيم الذات	3.35	.724	متوسط
2	4	التمكين النفسي	3.32	.754	متوسط
3	1	معرفة الذات	3.25	.713	متوسط
4	2	وضع الهدف وتقيمه	3.22	.667	متوسط
5	5	الاستقلالية	3.21	.732	متوسط
مقياس مهارات تقرير المصير			3.27	.658	متوسط

يتبين من الجدول (7) أن مستوى مهارات تقرير المصير لدى معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم جاء متوسطا؛ إذ بلغ المتوسط الحسابي لمقياس مهارات تقرير المصير (3.27) بمستوى التقييم، كما يظهر الجدول أن المتوسطات الحسابية للأبعاد الفرعية لمقياس مهارات تقرير المصير تراوحت ما بين (3.35-3.21) بمستوى متوسط لجميع الأبعاد؛ إذ جاء بالمرتبة الأولى بعد تنظيم الذات بمتوسط حسابي (3.35)، وجاء بالمرتبة الاخيرة بعد الاستقلالية بمتوسط حسابي (3.21). وتعزو الباحثة هذه النتيجة إلى ما يتعرض له معلمو الطلبة ذوي صعوبات التعلم من ضغوطات ومهام كبيرة متعلقة ببيئة العمل، إضافة إلى طبيعة وسمات الطلبة ذوي صعوبات التعلم والتي تستهلك جزءا كبيرا من وقت المعلم وفكره مما لا يتيح له المجال لاتخاذ القرارات المناسبة المتعلقة بما يصبو له مستقبلا، كما قد تعزى هذه النتيجة إلى نقص أو غياب الدورات المتخصصة في مجال تطوير مهارات تقرير المصير الوجهة نحو معلمو الطلبة ذوي صعوبات التعلم سواء أثناء الخدمة أو قبلها مما ينعكس سلبا على امتلاكهم لتلك المهارات ، وإذا ما راجعنا يوميات المعلم نجدها لا تخلو من الروتين اليومي وبعيده كل البعد عن أية محاولات تطويره. واتفقت نتيجة الدراسة الحالية مع نتيجة دراسة الشهري وشقدار(2022) في حاجة المعلم لدورات لتطوير مهارات تقرير المصير لديه، كما اتفقت مع نتيجة دراسة الشرعة ومهيدات (2018) بدرجة امتلاك معلمي التربية لمهارات تقرير المصير جاء متوسطا.

النتائج المتعلقة بالسؤال الثاني: ما مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات التفكير المستقبلي ؟ للإجابة عن هذا السؤال تم استخراج المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لإجابات أفراد العينة عن مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات التفكير المستقبلي ، والجدول (8) يوضح ذلك.

جدول (8): المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لإجابات أفراد العينة عن مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات التفكير المستقبلي من وجهة نظرهم مرتبة تنازليا حسب المتوسط الحسابي

الرتبة	الرقم	أبعاد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة تقييم
1	1	التخطيط المستقبلي	3.74	0.54	مرتفعة
2	2	حل المشكلات المستقبلية	3.54	0.70	متوسطة
3	3	التخيل المستقبلي	3.49	0.67	متوسطة
4	4	التوقع المستقبلي	3.33	0.50	متوسطة
التفكير المستقبلي ككل			3.52	0.52	متوسطة

يوضح الجدول (8) أن مستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات التفكير المستقبلي جاء متوسطاً؛ إذ أن المتوسط الحسابي بلغ (3.52) بدرجة تقييم متوسطة، كما يوضح الجدول (5-4) أن المتوسطات الحسابية لأبعاد المتعلقة بمستوى امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات التفكير المستقبلي تراوحت ما بين (3.33 3.74-)؛ وجاء ترتيب الأبعاد الفرعية على النحو الآتي: حصل بُعد التخطيط المستقبلي على المرتبة الأولى بمتوسط حسابي (3.74) ودرجة تقييم مرتفعة، وحصل على المرتبة الثانية بُعد حل المشكلات المستقبلية بمتوسط حسابي (3.54) ودرجة تقييم متوسطة، جاء في المرتبة الثالثة بُعد التخيل المستقبلي بمتوسط حسابي (3.49) ودرجة تقييم متوسطة، وأخيراً جاء في المرتبة الرابعة بُعد التوقع المستقبلي بمتوسط حسابي (3.33) ودرجة تقييم متوسطة، ويمكن تفسير هذه النتيجة من خلال أهمية المستقبل كمكون رئيسي لسلوك الشخص؛ إذ أن بناء أهداف شخصية بعيدة المدى، والعمل على تحقيقها تعتبر من أبرز صفات الشخصيات الناجحة، وبفعل ما يتعرض له معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم من ضغوط مهنية واجتماعية ولكثرة الأعباء الملقاة على عاتقه قد تجده مشغول معظم الوقت في إعداد الوسائل التعليمية ومتابعة طلابه والتواصل مع الأسر والتحضير للدروس، مما لا يجد لديه الوقت الكافي للاسترخاء والتفكير بشكل معمق بالمستقبل، واختلفت هذه النتيجة مع دراسة الفايز (2021) التي أظهرت أن مستوى التفكير المستقبلي جاء منخفضاً، كما أنها اختلفت مع دراسة نهابة وعبود (2021) و دراسة الحويطي (2018) التي أظهرت أن مستوى التفكير المستقبلي جاء مرتفعاً.

النتائج المتعلقة السؤال الثالث: هل توجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha \leq 0.05$) بين متوسطات درجات استجابة معلمي الطلبة ذوي صعوبات على مقياس مهارات تقرير المصير ومتوسطات درجات استجابتهم

على مقياس مهارات التفكير المستقبلي؟

تمت الإجابة عن هذا السؤال من خلال استخراج معاملات الارتباط بطريقة بيرسون (Pearson Correlation) بين الأبعاد الفرعية لمقياس(تقرير المصير) والمقياس ككل والأبعاد الفرعية لمقياس (مهارات التفكير المستقبلي) وذلك على النحو الآتي:

جدول (9): معاملات الارتباط بطريقة بيرسون (Pearson Correlation) بين الأبعاد الفرعية لمقياس(معايير التنمية المستدامة) والمقياس ككل والأبعاد الفرعية لمقياس (مهارات التفكير المستقبلي)

	الأبعاد		مهارات التفكير المستقبلي				
			التخطيط المستقبلي	حل المشكلات المستقبلية	التخيل المستقبلي	التوقع المستقبلي	المقياس ككل
مهارات تقرير المصير	معرفة الذات	معامل الارتباط	0.69	0.78	0.73	0.73	0.85
		الدلالة الإحصائية	0.00	0.00	0.00	0.00	0.00
	وضع الهدف وتقيمه	معامل الارتباط	0.71	0.75	0.77	0.74	0.86
		الدلالة الإحصائية	0.00	0.00	0.00	0.00	0.00
	تنظيم الذات	معامل الارتباط	0.54	0.61	0.67	0.68	0.72
		الدلالة الإحصائية	0.00	0.00	0.00	0.00	0.00
	التمكين النفسي	معامل الارتباط	0.56	0.66	0.71	0.55	4020.
		الدلالة الإحصائية	0.00	0.00	0.00	0.00	0000.
	لاستقلالية	معامل الارتباط	0.73	0.81	0.65	0.59	3630.
		الدلالة الإحصائية	0.00	0.00	0.00	0.00	0000.
	المقياس ككل	معامل الارتباط	0.74	0.82	0.82	0.81	0.92
		الدلالة الإحصائية	0.00	0.00	0.00	0.00	0.00

يظهر من الجدول (9) أن جميع معاملات الارتباط بين الأبعاد الفرعية لمقياس(تقرير المصير) والمقياس ككل والأبعاد الفرعية لمقياس (مهارات التفكير المستقبلي) كانت موجبة ودالة إحصائياً، مما يدل على وجود علاقة طردية وهامة إحصائياً بين متوسطات درجات استجابة معلمي الطلبة ذوي صعوبات على مقياس مهارات تقرير المصير ومتوسطات درجات استجابتهم على مقياس مهارات التفكير المستقبلي.

ويمكن تفسير هذه النتيجة بأن امتلاك معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم لمهارات التفكير المستقبلي يعزز لديهم السعي لتقرير المصير مما يساهم في التغلب على حالة الإحباط والقلق أو الانسحاب، ويجعلهم قادرين على إتباع التعليمات التدريسية وتنظيم العمل داخل المدرسة مما يؤثر على بيئة التعلم لديهم، وأن

المعلمين لديهم أهداف نحو المستقبل ويوجهون أنفسهم بالنسبة لاختيار القرارات المستقبلية المناسبة من وجهة نظرهم الأمر الذي يرفع من مستويات مهارات التفكير المستقبلي. وترى الباحثة أن امتلاك مهارات تقرير المصير يساهم في جعل المعلمين أكثر قدرة على وضع خطط يسيرون عليها ويحددون المستقبل بجهودهم وعملهم ويرسمون الخطط المناسبة للوصول لأهدافهم ويكون طموحهم مرتفع وقادرين علي مواجهة الظروف الصعبة وتكون نظرتهم للحياة متفائلة. واتفقت نتيجة الدراسة الحالية مع نتيجة دراسة كل من الشهري وشقدار(2022) في حاجة المعلم لدورات لتطوير مهارات تقرير المصير لديه، كما اتفقت مع نتيجة دراسة الشرعة ومهيدات (2018) بدرجة امتلاك معلمي التربية لمهارات تقرير المصير جاء متوسطا. ومع دراسة الفايز (2021) التي أظهرت أن مستوى التفكير المستقبلي جاء منخفضا، في حين لا توجد دراسات تعرضت لكلا المتغيرين معا. وهذا ما يميز الدراسة الحالية.

التوصيات

بناء على ما سبق توصى الدراسة بما يأتي:

1. تأهيل معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم وإعدادهم وتعريفهم بمهارات تقرير المصير ومهارات التفكير المستقبلي من خلال الدروات وورش العمل لما له من أهمية في تطوير قدراتهم.
2. التركيز من خلال أصحاب القرار على التعليم من أجل تعزيز مهارات تقرير المصير وامتلاك مهارات التفكير المستقبلي وإدارج ذلك في المناهج.
3. إجراء دراسات تتناول أهمية إدخال مهارات تقرير المصير في السياسات التعليمية لكافة المراحل الدراسية وقياس أثرها على المجتمع والبيئة والاقتصاد.
4. إجراء دراسات تجريبية تساهم في إكساب معلمي الطلبة ذوي صعوبات التعلم مهارات التفكير المستقبلي.

قائمة المراجع:

أبـو صفيـة، لينـا عـلي (2010). فاعليـة برنامـج تدريبـي مسـتند إلى حـل المشـكلات المسـتقبلية في تنميـة التفكـير المسـتقبلي لـدى طـلاب المرحلـة الثانويـة. رسـالة دكتـوراه غـير منشـورة، كليـة العلـوم التربويـة، الجامعـة الأردنيـة.

الحمـادي، سـارة وربابعـة، أحمـد (2020). مـدى امتـلاك الطلبـة ذوي صعوبـات التعلـم في المرحلـة المتوسـطة لمهـارات تقريـر المصـير. مجلـة جامعـة فلسـطين للأبحـاث والدراسـات، 9(4)، 174-144.

الحويطـي، عـواد بـن حمـاد (2018). درجـة امتـلاك طـلاب كليـة التربيـة والآداب بجامعـة تبـوك لمهـارات التفكـير المسـتقبلي. مجلـة البحـث العلمـي في التربيـة، 1(19)، 148-123.

الدرابكـة، محمـد مفـضي (2018). مهـارات التفكـير المسـتقبلي لـدى الطلبـة الموهوبـين وغـير الموهوبـين- دراسـة مقارنـة. مجلـة جامعـة القـدس المفتوحـة للدراسـات التربويـة والنفسـية، 8(23)،67-58.

زايـر، سـعد (2015). تطبيقـات تربويـة مقترحـة وفـق أبعـاد التنميـة المسـتدامة، بغـداد: دار الأمـير للطباعـة والنـشر

الشرعـة، فيصـل ومهيـدات، محمـد (2018) مسـتوى معرفـة معلمـي التربيـة الخاصـة لمهـارات تقريـر المصـير في تعليـم الطلبـة ذوي الإعاقـة في مؤسسـات التربيـة الخاصـة في الأردن ومراكزهـا. مجلـة العلـوم التربويـة والنفسـية. 19(2)،166-143.

الشـهري، أسـماء وشـقدار، عفـت(2022). واقـع معرفـة واسـتعداد المعلمـات بتطبيـق مهـارات تقريـر المصـير في برامـج التدخـل المبكـر مـن وجهـة نظرهـنّ بمدينـة جـدة. المجلـة العربيـة للعلـوم التربويـة والنفسـية، 6(27)، 78-43.

عقـل، مجـدي سـعيد وأبـو مـوسى، ايمـان (2019). فاعلية بيئـة تعليميـة الكترونيـة توظف اسـتراتيجيات التعلـم النشـط في تنميـة مهـارات التفكـير المسـتقبلي في التكنولوجيـا لـدى طالبـات الصـف السـابع. مجلـة الجامعـة الإسـلامية للدراسـات التربويـة والنفسـية، 27(6)، 34-1.

غريـب، ريـم (2014). فاعليـة برنامـج تدريبـي في تحسـين مهـارات تقريـر المصـير لـدى الطلبـة ذوي صعوبـات التعلـم. رسـالة دكتـوراه غـير منشـورة، كليـة العلـوم التربويـة، الجامعـة الأردنيـة.

الفايـز، أسـماء سـليمان (2021). درجـة امتـلاك معلمـات العلـوم الشرعيـة في المرحلـة المتوسـطة لمهـارات التفكـير المسـتقبلي دراسـة تقويميـة. مجلـة الفنـون والأدب وعلـوم الإنسـانيات والاجتمـاع، 5(73)، 45-73.

نهابـة، أحمـد صالـح وعبـود، أحمـد حمـزة (2021). درجـة امتـلاك طلبـة الكليـة التربويـة المفتوحـة في العـراق لمهـارات التفكـير المسـتقبلي. مجلـة جامعـة بابـل للعلـوم الإنسـانية، 29(2)، 18-1.

Deci, E., & Ryan, R. (2018). The "what" and "why" of goal pursuits: Human needs and the self-determination of behavior. Psychological Inquiry, 11(5), 227-242

Field, S. & Hoffman, A. (1994). Development of a model for self-determination. Career Development for Exceptional Individuals, 17 (2), 159 – 169.

Jones, J., Hensley, L. (2012). Taking a closer look at the impact of classroom placement: students share their perspective from inside special education classrooms. Educational Research Quarterly, 35(3), 33- 51

Min, T. Hsin, T, (2016). The effect of further thinking curriculum on further thinking and creativity. Journal of Modern Education,6(3),176-183.

Robinson, J (2011). Envisioning Sustainability: Recent approaches for Sustainability research. Technological Forecasting & Social Change, 78, 756-768

Smith, W. (2008). Impact of the use of a training program based on the model of creative problem

solving Barnes Bucktooth in the development of awareness of the issues to in the state of Georgia. Educational Psychologist, 64(3), 23–36

Warren, A. (2018): " Sustainability Education framework for Teachers: Developing Sustainability Literacy through futures, values, systems, and strategic thinking", Journal of Sustainability Education, 6(4), 1–14.

مساهمة الهيئة التدريسية بجامعة طبرق تجاه تطوير التعليم الجامعي في ضوء استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية والإعلام الإلكتروني.

إعداد:
د. خالد سعيد اسبيته احميـــــدة.
أستاذ مشارك بقسم العلاقات العامة بكلية الإعلام جامعة بنغازي.
أ. خالد شحاته رزق الله مفتاح.
محاضر بقسم المكتبات والمعلومات والتوثيق بكلية الآداب جامعة طبرق.

الاستلام : 25/ 1/ 2023 القبول : 28/ 2/ 2023

المستخلص:

تهـدف هـذه الدراسـة التعـرف عـلى مسـاهمة الهيئـة التدريسـية بجامعـة طـبرق تجـاه تطويـر التعليـم الجامعـي في ضـوء اسـتخدام مصـادر المعلومـات الإلكترونيـة والإعـلام الإلكترونـي وإيجـاد الفـروق ذات الدلالـة الإحصائيـة لمعـدل اسـتخدامهم لهـا، واتجاهـات هـذا الاسـتخدام في تطويـر التعليـم الجامعـي، وأثـره عـلى تطويـر تعليمهـم الجامعـي. وطبقـت الدراسـة عـلى عينـة عشـوائية تطبيقيـة يمثلهـا (272) مفـردة، واختـير الاسـتبيان المغلـق كأداة رئيسـية لجمـع بياناتهـا، والمنهـج الوصفـي التحليـلي نتائجهـا، ومـن أهـم نتائجهـا: توجـد فـروق ذات دلالـة بـين متوسـط اسـتخدام أفـراد العينـة لمصـادر المعلومـات الإلكترونيـة والوسـط الفـرضي للمقيـاس لصالـح متوسـط العينـة، وارتبـاط طـردي ذو قـوة متوسـطة إلى حـد مـا بـين اسـتخدام الأسـاتذة لمصـادر المعلومـات الإلكترونيـة واتجاههـم لتطويـر تعليمهـم الجامعـي، كمـا يظهـر وجـود أثـر في اتجـاه الأسـاتذة لتطويـر التعليـم الجامعـي ناتـج عـن معـدل هـذا الاسـتخدام بنسـبة 40% تقريبـاً. وتـوصي: بـان تعمـل جامعـة طـبرق عـلى تجهيـز بنيـة تحتيـة تقنيـة قويـة مـن خـلال توفـير المعامـل وشـبكات الانترنـت وكل مـا يسـتجد مـن تقنيـات حديثـة في مجـال تقنيـات مصـادر المعلومـات الإلكترونيـة، وأن تهتـم بشـكل كبـير بإنشـاء وتطويـر المواقـع التعليميـة التـي تسـاعد الكـوادر الجامعيـة في إنجـاز أعمالهـا بكفـاءة.

الكلمات المفتاحية: المصادر الإلكترونية، التعليم الجامعي، جامعة طبرق.

Abstract of the study:

This study aims to identify the contribution of the teaching staff at the University of Tobruk towards the development of their university education in the light of the use of electronic information sources and electronic media, and to find statistically significant differences in the rate of their use of them, and the trends of this use in the development of their university education, and its impact on the development of their university education.The study was applied to a random applied sample represented by (272) individuals, and the closed-ended questionnaire was chosen as the main tool for collecting its data, and the descriptive analytical approach results, and among the most important results: There are significant differences between the average use of electronic information sources by the respondents and the hypothetical mean of the scale in favor of the sample average, and a direct correlation It has a fairly moderate strength between the use of electronic information resources by professors and their attitude to develop their university education. It also shows that there is an effect on the professors' attitude to develop university education resulting from the rate of this use by approximately 40%.It recommends: that the University of Tobruk work on preparing a strong technical infrastructure by providing laboratories, internet networks, and all new technologies in the field of electronic information source technologies, and that it pays great attention to creating and developing educational sites that help university cadres in completing their work efficiently.

مقدمة الدراسة :

تعتبر العملية التعليمية هي القاعدة الأساسية التي يبنى عليها التعليم الجامعي ويبدأ تأسيسهُ بفتح الأقسام العلمية بكليات الجامعة وفقاً لمقترحات تخضع لمقاييس ومعايير الجودة الوطنية والعالمية التي تتطلب وجود الهيئة التدريسية المؤهلة والمتخصصة لترسم الخطط وتضع السياسات العلمية والتعليمية والتدريبية والتثقيفية لتلك الأقسام، ويقع على عاتقهم تدريس المقررات العلمية النظرية والعملية وفقاً لمجال تخصصهم وتحديد مفرداتها الدراسية التي يقاس من خلالها الوعاء الزمني لعدد ساعاتها ووحداتها المطلوب تدريسها من ثم إعداد عناصر موضوعاتها في شكل محاضرات يتم تدريسها في مختلف المراحل الدراسية بأقسامهم على مدار أيام الأسبوع في كل فصل أو سنة دراسية، ويؤخذ بملاحظاتهم وآرائهم ومقترحاتهم عند إعداد الدليل العلمي لأقسامهم بما يتضمنه من رؤية ورسالة علمية وأهداف ونشاطات وخدمات تستفيد منها جامعتهم ومجتمعاتهم المحلية، ولهم دور كبير بمساهمتهم العلمية الفعالة بإنتاجهم العلمي والفكري من محاضرات وتقارير وأوراق عمل وبحوث علمية يشاركون بها في ورش العمل والندوات والمؤتمرات العلمية التي تعنى بمجال تخصصهم في ظل أقسامهم العلمية التي يمثلونها.

كل هذه العملية التعليمية في ظل التعليم الجامعي بجميع عناصرها تعتمد في أساسها على المعلومات كعامل رئيسي يوثر فيها وتتأثر به هيأتها التدريسية من هنا برزت أهمية استخدامهم للمصادر الإلكترونية عبر الإنترنت كمحرك فاعل في تعليمهم الجامعي، ومورد أساسي يدعمهم بالمعلومات في أسرع وقت وأقل جهد وتكلفة بعديد الموضوعات في مختلف التخصصات بأشكالها النصية والصورية والصوتية والفيديو من تقارير وكتب ورسائل وأطروحات وأعمال مؤتمرات ومجلات ودوريات إلكترونية تنعكس استخداماتها تجاه تطوير تعليمهم الجامعي بأقسام كليات الجامعية. وتم تقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول الأول الإطار العام والدراسات السابقة: ويتضمن مشكلة الدراسة وأهميتها وأهدافها وتساؤلاتها وفرضياتها ومصطلحاتها وحدودها والدراسات السابقة. والثاني الإطار المعرفي: ويتناول نبذة عن جامعة طبرق ومفهوم مصادر المعلومات الإلكترونية، وأهميتها، ومميزاتها في التعليم الجامعي، وأنواعها، ومنافذ الوصول إليه، وأدوات وآليات البحث عنها، ومعايير اختيارها، ومساهمتها في تطوير التعليم الجامعي وصولاً لمعوقات استخدامها. والثالث الإطار التطبيقي: ويشمل عينة الدراسة وأداتها ومنهجها وأساليبها الإحصائية ونتائجها وتوصياتها.

1/ الفصل الأول: الإطار العام والدراسات السابقة.

1-1 مشكلة الدراسة : تسعى جامعة طبرق جاهدةً حث هيأتها التدريسية على تطوير تعليمهم الجامعي في جميع كلياتها من خلال العملية التعليمية بأقسامها، وتطبيق التعليم الإلكتروني بكلياتها وهذا يتطلب استخدام التقنيات التعليمية

الحديثة بمختلف أشكالها وأنواعها من أجهزة، ومعدات وأدوات، ووسائل توظف فيها مصادر المعلومات الإلكترونية لما لها من أهمية ومميزات تنعكس فوائدها على تطوير التعليم الجامعي بكلياتها. من هنا تبلورت فكرة هذه الدراسة في اختيار مصادر المعلومات الإلكترونية موضوعاً لها، ودراسة مساهمتها في العملية التعليمية لدى هيأتها التدريسية باستخدامهم لها، تجاه تطوير تعليمهم الجامعي في ضوء استخدامها، وصولا للمعوقات التي تواجههم عند توظيفها بقاعات ومعامل كلياتهم بجامعة طبرق وتتمثل أسباب اختيار هذا الموضوع للدراسة فيما يلي:

1. التعمق في دراسة وفهم مصادر المعلومات الإلكترونية ودراسة اتجاهاتها نحو تطوير التعليم الجامعي بكليات جامعة طبرق.
2. إصدار إدارة الجامعة قرارات عديدة تشجع على استخدامها في التعليم الجامعي.
3. أنشأت الجامعة عديد المواقع الالكترونية لمستودعاتها الرقمية ومجلاتها العلمية التي تم ربطها بالبريد الإلكتروني لهيأتها التدريسية لتعزيز إنتاجها العلمي ومصادر معلوماتها الإلكترونية.
4. الانتشار الواسع لاستخدامها من هيئة التدريس بكليات الجامعة في إنتاجهم العلمي المنشور عبر تلك المواقع.
5. دعمت الجامعة عبر مواقعها النشر الإلكتروني لأعمال مؤتمراتها بأقسام كلياتها.
6. سعي الجامعة الدؤوب للتعريف بإنتاجها العلمي، ومصادرها الإلكترونية المنشورة عبر مواقعها للوصول إلى مراتب متقدمة في التصنيف الوطني والعالمي.

1 – 2 أهمية الدراسة :

1 – التعريف بمصادر المعلومات الإلكترونية، وأهميتها في تطوير التعليم الجامعي بكليات جامعة طبرق.
2 – توضيح آليات البحث عن المصادر الإلكترونية وتوظيف مزاياها في التعليم الجامعي.
3 – إيجاد الحلول للمعوقات التي تواجهها هيئة التدريس في استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية في تعليمهم الجامعي بأقسام كليات جامعة طبرق.
4 – تقديم توصيات من شأنها تطور التعليم الجامعي في الجامعة باستخدام المصادر الإلكترونية لتجديد المناهج الدراسية وتطويرها.

1 – 3 أهداف الدراسة:

1 – معرفة تقنيات المعلومات والاتصالات التي يستخدمها هيئة التدريس بجامعة طبرق للحصول على المصادر الإلكترونية، ومعرفتهم بآليات البحث عنها عبر الإنترنت.
2 – التعرف على المصادر الإلكترونية التي يستخدمها عينة الدراسة في الحصول على المعلومات، ومستوى استخدامهم لها في تعليمهم الجامعي.
3 – قياس مستوى مساهمة الهيئة التدريسية في تطوير تعليمهم الجامعي في ضوء استخدامهم للمصادر الإلكترونية.
4 – التعرف على المعوقات التي تواجهها عينة الدراسة في استخدامهم للمصادر

الإلكترونيــة في تعليمهــم الجامعــي بكليــات جامعــة طــبرق.

1 – 4 تساؤلات الدراسة :

1 – مــا هــي تقنيــات المعلومــات والاتصــالات التــي يســتخدمها عينــة الدراســة للحصــول عــلى المصــادر الإلكترونيــة، وكيفيــة وصولهــم إليهــا عــبر الإنترنــت؟.

2 – مــا المصــادر الإلكترونيــة التــي تســتخدمها العينــة في الحصــول عــلى المعلومــات، ومــا مســتوى اســتخدامهم لهــا في تعليمهــم الجامعــي؟.

3 – مــا مــدى مســاهمة هيئــة التدريــس في تطويــر تعليمهــم الجامعــي في ضــوء اســتخدامهم للمصــادر الإلكترونيــة بجامعــة طــبرق؟.

4 – مــا المعوقــات التــي تواجههــا عينــة الدراســة في اســتخدامهم للمصــادر الإلكترونيــة في تعليمهــم الجامعــي بكليــات جامعــة طــبرق؟.

1 – 5 فرضيات الدراسة :

1 – لا توجــد فــروق ذات دلالــة إحصائيــة في معــدل اســتخدام الهيئــة التدريســية لمصــادر المعلومــات الإلكترونيــة بحســب الوســط الفــرضي للمقيــاس المســتخدم.

2 – لا توجــد فــروق ذات دلالــة إحصائيــة في اتجــاه العينــة لتطويــر التعليــم الجامعــي باســتخدام المصــادر الإلكترونيــة بحســب الوســط الفــرضي للمقيــاس المســتخدم.

3 – لا يوجــد أثــر ذو دلالــة إحصائيــة لمعــدل اســتخدام الهيئــة التدريســية للمصــادر الإلكترونيــة عــلى تطويــر تعليمهــم الجامعــي بأقســام وكليــات جامعــة طــبرق.

1-6 مصطلحات الدراسة: نحدد مصطلحات الدراسة في التعاريف الإجرائية الآتية:

– مصــادر المعلومــات الإلكترونيــة: نقصــد بهــا الملفــات المعلوماتيــة التــي تحتــوي عــلى معلومــات بصيــغ نصيــة وصوريــة وصوتيــة وفيديــو في عديــد الموضوعــات مــن مختلــف المجــالات بأشــكال متنوعــة، موجــودة في مواقــع إلكترونيــة خاصــة وعامــة عــبر الإنترنــت، ويتــم البحــث عنهــا وتجميعهــا بالكلمــات المفتاحيــة، والموضوعــات، والعناويــن، والمنطــق البوليــني، باســتخدام أجهــزة الحواســيب والهواتــف الذكيــة والايباد والســبورة التفاعليــة وملحقاتهــا مــن أدوات التخزيــن كالــسي دي، وذاكرتــي الفــلاش والهــارد دســك، وتتــاح وتعــرض للمســتفيدين بطريقتــين التزامنيــة وغــير التزامنيــة.

– تطويــر التعليــم الجامعــي: يقصــد بهــذا المفهــوم في إطــار هــذه الدراســة الحاليــة هــو مســتوى قــدرة الهيئــة التدريســية عــلى اســتخدام مصــادر المعلومــات الإلكترونيــة مــن حيــث معرفتهــم بهــا، ومهــارات اســتخدامها، وفاعليــة هــذا الاســتخدام وتوظيــف كل ذلــك في إنجــاز الواجبــات التعليميــة والبحثيــة التــي تطلــب منهــم في إطــار التعليــم الجامعــي وبحســب الدليــل الــذي يضعــه مركــز ضمــان الجــودة للبرامــج التعليميــة في مؤسســات التعليــم العــالي. وهــذا المفهــوم يتمثــل إجرائيــاً في الفقــرات التــي يتضمنهــا مقيــاس الدراســة.

– اســتخدام المصــادر الإلكترونيــة: يتمثــل المفهــوم الإجرائــي لمصطلــح الاســتخدام في الفقــرات التــي تــم وضعهــا في مقيــاس الدراســة حيــث ينحــصر هــذا المفهــوم في حجــم

استخدام الهيئة التدريسية للمصادر الإلكترونية حسب أنواعها وتقنيات الوصول إليها وآليات البحث عنها وأدوات حفظها وتخزينها واسترجاعها ومعالجتها ووسائل إتاحتها للمستفيدين.

1 – 7 حدود الدراسة :

– الحدود الموضوعية: تتمثل الحدود الموضوعية للدراسة في مساهمة الهيئة التدريسية نحو تطوير التعليم الجامعي في ضوء استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية والإعلام الإلكتروني.

– الحدود المكانية: تمثلها أقسام كليات جامعة طبرق.

– الحدود الزمنية: تنحصر الفترة الزمنية للدراسة في العام الجامعي 2021/ 2022.

1 – 8 الدراسات السابقة :

دراسة الجاك[1] تهف هذه الدراسة إلى معرفة مدى استفادة طلاب الدراسات العليا بكلية التربية حنتوب بجامعة الجزيرة عند توظيفهم لمصادر المعلومات الإلكترونية في البحث العلمي، ومميزات استخدامها فيه، والمعوقات التي تواجههم عند استخدامها، وطبقت الدراسة على عينة عشوائية يمثلها 77 طالب وطالبة، واستخدمت الاستبيان المغلق كأداة لجمع بياناتها، والمنهج الوصفي التحليلي لتحليل نتائجها، ومعامل ألف كرونباخ لثبات صلاحيتها وصدقها، والجداول التكرارية والنسب المئوية والوسيط ومربع كاي كأساليب إحصائية، وتحليل بياناتها بتلك المقاييس باستخدام برنامج الجزم الإحصائيةSPSS. ومن أهم نتائجها: استفادة طلاب الدراسات العليا بدرجة عالية من مصادر المعلومات الإلكترونية في البحث العلمي خاصة البحوث والأوراق العلمية والكتب الإلكترونية والمكتبات الإلكترونية، واستفادتهم من مميزات استخدامهم لها في البحث العلمي، وتمثلت معوقاتها في انقطاع الانترنت أثناء البحث وعدم ثقة بعض أفرادها في المصادر الإلكترونية كمصدر للمعلومات وإن بعض المواقع تحتاج لرسوم اشتراك. وتوصي الباحثة بتعريف طلاب الدراسات العليا بالمصادر الإلكترونية وتدريبهم على كيفية التعامل مع بيئتها الرقمية في عمليات البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت وفي قواعد بياناتها الإلكترونية، وإنشاء مكتبات إلكترونية مع تفعيل شبكة الإنترنت وتحسين خدماتها إلى جانب المكتبات التقليدية.

دراسة محمد[2] تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على واقع إفادة الأكاديميين بجامعة الإمام محمد بن سعود من مصادر المعلومات الإلكترونية التي تتيحها الجامعة وقياس اتجاهاتهم وسبل وصولهم إليها، وركزت على

(1) تماضر بشير الجاك/ استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية في البحث العلمي من وجهة نظر طلاب الدراسات العليا بجامعة الجزيرة كلية التربية-حنتوب. - جامعة السودان للعلوم والتكونولوجيا،(فبراير, 2020)، ص ص 23، -27 :28،47 http://repository.sustech.edu/jspui/bitstream/123456789/25894/1/

(2) مها أحمد محمد "مصادر المعلومات الإلكترونية: دراسة لإتجاهات الأكاديميين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض نحو إفادتهم من تلك المصادر".- مجلة الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات.- مج 16، ع34،(يوليو 2010)، ص ص7-1 ،54 ،83 ،85، 88-87 : https://:1ef-b8010bad/Publications/my.arid.portal .

الأكاديميين نظراً لتعدد احتياجاتهم البحثية المتعلقة بإعداد الدراسات العلمية والرسائل الجامعية وسعت للتعرف على استخدامهم لها بالجامعة ومدى تلبيتها لاحتياجاتهم العلمية ومعرفة المشكلات التي تواجههم عند استخدامها، واعتمدت على العينة العشوائية الطبقية التي يمثلها 248 عضو هيئة تدريس بالجامعة، واستعانت بالاستبيان كأداة رئيسية لجمع البيانات، واستخدمت منهجين لتحليل بياناتها الأول المسحي التحليلي والثاني الوصفي، وخلصت نتائجها إلى إن الدوريات الإلكترونية هي المصدر المفضل لدى عينتها وجاءت نسبتهم بي 35.5%، ولتنوع المصادر الإلكترونية جاءت قواعد المعلومات المباشرة في المقام الأول يليها البحث في مواقع الإنترنت ثم شبكة الأقراص المدمجة، وإن الاشتراك من خلال الشبكات المحلية، الإقليمية، الدولية احتلت المرتبة الأولى في الحصول على المصادر الإلكترونية تليها الاشتراك من خلال وسطاء المعلومات، وإن أعلى تأثير لاستخدامهم المصادر الإلكترونية أنعكس على تطوير قدراتهم في البحوث العلمية بنسبة 37.8%، وإن16.9%من عينتها جاءت إفادتهم منها في العملية التعليمية من خلال اكتساب المهارات التدريسية وتقل في إعداد المحاضرات بنسبة 13.0%، والبحث عن الإنتاج الفكري جاءه في المرتبة الرابعة. وتوصي الباحثة بتدريب أعضاء هيئة التدريس على كيفية البحث والاسترجاع عبر الإنترنت وقواعد المعلومات الإلكترونية، وإعداد أدلة لمواقع المعلومات المتخصصة للجامعة على شبكة الإنترنت وتعريف مجتمع الدراسة بها، وإدخال الإنترنت في جميع كليات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

دراسة محمد[3] تهتم هذه الدراسة بالتعرف على مدى استخدام طلاب الدراسات العليا لمصادر المعلومات التقليدية والإلكترونية بجامعة النيلين في بحوثهم ومعرفة المشكل والصعوبات التي تحول دون استخدامهم لها، وطبقت الدراسة على عينة مكونة من 100 باحث من طلاب الدراسات العليا بالجامعة، واعتمدت على الملاحظة المباشرة والمقابلات الشخصية والاستبيان كأدوات لجمع البيانات عن عينتها واستخدمت المنهج الوصفي لدراسة الحالة والمنهج الإحصائي في تحليل البيانات. وأظهرت نتائج الدراسة أن عينتها لا زالوا يعتمدون على مصادر المعلومات التقليدية، وإن الإنترنت أكثر المصادر الإلكترونية استخداماً، وأن أكثر الصعوبات التي تواجههم أثناء استخدامهم للمصادر الإلكترونية هي عدم الخبرة وعدم إتقان لغات أجنبية خاصة اللغة الإنجليزية.

دراسة الختمي[4] تناولت هذه الدراسة مدى استخدام أعضاء هيئة التدريس

(3) غادة طه محمد"استخدام طلاب الدراسات العليا لمصدر المعلومات التقليدي والإلكترونية بجامعة النيلين".- مجلة الدراسات العليا.- مج 10، ع12،(2014)، ص ص136-137،148: http://repository.neelain.sd.edu:8080/xmlui/handle/bitstream.

(4) مسفرة بنت دخيل الله الختمي"مدى استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية دراسة حالة لأعضاء هيئة التدريس بكلية علوم الحاسب والمعلومات في جامعة محمد بن سعود الاسلامية بمدينة الرياض".- مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية.- مج16، ع1، (يونيو 2010)، ص ص115،128-129: https://sa.gov.kfnl/Ar/mediacenter .

في كلية علوم الحاسب والمعلومات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض لمصادر المعلومات الإلكترونية، للتعرف على استخدامهم لها، وما مدى سعة هذا الاستخدام، واللغة التي يستخدمونها، والمصادر الإلكترونية الأكثر استخداماً من طرفهم. وقد كشفت نتائجها أن جميع أعضاء هيئة التدريس يستخدمون مصادر المعلومات الإلكترونية وأن سرعة الوصول إلى المعلومات والحداثة هي أبرز دواعي استخدامهم لها.

دراسة حبه، عثمان، هندي[5] تهدف الدراسة إلى التعرف على أنماط إفادة الباحثين من الكتاب الإلكتروني في كليات العلوم الاجتماعية والإنسانية بجامعة دمياط، واعتمدت الدراسة على عينة عشوائية تضم 220 مفردة، والاستبيان الإلكتروني كأداة لجمع بياناتها، ومنهج البحث الميداني ذو الطبيعة الوصفية التحليلية لتحليل بياناتها، والتكرارات والنسب المئوية كأساليب إحصائية لتحليل نتائجها باستخدام برنامج التحليل الإحصائيSPSS ، وتوصلت الدراسة إلى إن 95% من الباحثين يستخدمون الكتب الإلكترونية، و63% منهم يستخدمونها وفق الحاجة، و98% يستخدمونها من منازلهم، و76% يستخدمونها لغرض البحث العلمي، و60% لغرض التدريس، وبلغت نسبة الباحثين الذين لا يستخدمونها 5%، وتبين إن 33% لا يستخدمونها بسبب صعوبة قراءتها من شاشة الحاسوب، وأشار 25% من عينتها إلى عدم علمهم بوجود مثل هذه الكتب في الجامعة. ووجهت الدراسة العديد من التوصيات من أهمها: ضرورة نشر المعرفة بالكتب الإلكترونية بين الباحثين لزيادة وعيهم بهذه الكتب، وتنظيم الدورات التدريبية التي تساعدهم على استخدامها، وتوفير البنية الأساسية والدعم الفني للباحثين للتغلب على المشاكل التي تواجههم عند استخدامها.

دراسة عبدالغفور[6] تهدف هذه الدراسة الى التعريف بالكتاب الإلكتروني كأحد مصادر المعلومات الإلكترونية المهمة في المكتبات الجامعية ومراكز المعلومات، وتسلط الضوء على أهم مميزاته، وأهميته في التعليم الجامعي، وأشكال تصميمه وأجهزة قراءاته، كما تهدف إلى التعرف على واقع استخدامه من قبل أعضاء هيئة التدريس في معهد الإدارة الرصافة في دعم العملية التعليمية للكشف عن أسباب ودوافع استخدامه، بالإضافة الى تحديد المشاكل والصعوبات التي تحول دون استخدامه. وطبقت الدراسة على عينة طبقية تناسبية مكونة من 85 عضو هيئة تدريس، واعتمد الباحث على الاستبيان كأداة رئيسية لجمع البيانات، والمنهج المسحي لتحليل نتائج دراسته، وتوصل لأهم النتائج التالية:

(5) يارا مدحت حبه، اسماعيل رجب عثمان، و عبدالله هندي هندي"أنماط إفادة أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم بكليات العلوم الاجتماعية والإنسانية بجامعة دمياط من الكتاب الإلكتروني".- المجلة العلمية لكلية الاداب.- مج1،ع10،(2021)، ص ص 1،3-5 :https: article/eg.ekb.journals.artdau/ .

(6) وصال صبحي عبدالغفور"استخدام الكتاب الإلكتروني في العملية التعليمية: دراسة مسحية لأعضاء هيئة التدريس في معهد الإدارة/ الرصافة للعام الدراسي 2014/2013.- مجلة كلية التربية.- مج21، ع8، (30يونيو/حزيران 2015) ص ص830-829،809-808،805:https:// /net.iasj/iasj/download/79c0c63b7e65a2b2.

أن أهم استخدام الكتاب الإلكتروني بلغ 92% وهو احتوائه على وسائط متعددة (كالرسوم، والصور، ولقطات الفيديو، والمؤثرات الصوتية)، وأقل نسبة بلغت 71 % وهي لإمكانياته في التحكم وضبط النص، أن الاستفادة من إمكانية التصفح لبعض الكتب الإلكترونية أثناء المحاضرة يضفي عليها عنصر التشويق والابتعاد عن روتين الحفظ والتلقين الذي شكل أعلى نسبة بلغت 89 % ، وأهم دوافع لاستخدام الكتاب الإلكتروني بلغت نسبة 92% وذلك لاختصاره الوقت والجهد في البحث عن المعلومات.

9-1 التعليق على الدراسات السابقة :

تناولت الخمس الدراسات الثلاثة الأولى موضوع مصادر المعلومات الإلكترونية من عدت جوانب تتمثل في واقع الاستفادة منها، ومميزات استخدامها، ومعوقاتها، ودوافع هذا الاستخدام، وأساليب استخدامها، وتقنياتها المستخدمة، وطبقت على عينات عشوائية من طلاب الدراسات العليا، ودراسة الختمي على عينة من أعضاء هيئة التدريس للتعرف على استخدامهم لها، وسعة هذا الاستخدام ولغته، والمصادر الأكثر استخداماً. وآخر دراستان تناولتا الكتاب الإلكتروني كأحد أنواع المصادر الإلكترونية والتعريف بأنماطه، وإفادته في البحث العلمي، وتناول عبدالغفور الكتاب الإلكتروني في أهميته ومميزاته في التعليم الجامعي موضحاً دوافع استخدامه في العملية التعليمية لدى عينة طبقية تناسبية من أعضاء هيئة التدريس بمعهد الإدارة الرصافة. في حين أخذت هذه الدراسة منحى آخر يتمثل في مساهمة الهيئة التدريسية بجامعة طبرق تجاه تطوير تعليمهم الجامعي في ضوء استخدامهم لمصادر المعلومات الإلكترونية والإعلام الإلكتروني لإيجاد الفروق ذات الدلالة الإحصائية لمعدل استخدامهم لها، واتجاهات هذا الاستخدام في تطوير تعليمهم الجامعي، وأثره على تطوير تعليمهم الجامعي بأقسام كليات جامعة طبرق.

2/ الفصل الثاني: الإطار المعرفي للدراسة :

قبل أن نتناول في هذا الإطار المعرفي مصادر المعلومات الإلكترونية فإنه من الضرورة بمكان أن نقدم نبذة بسيطة عن جامعة طبرق حفاظاً على الترتيب الشكلي للتنسيق بين أهداف الدراسة ومحاور استبيانها في هذا الإطار.

2-1 نبذة عن جامعة طبرق:[7] هي إحدى الجامعات الأساسية التابعة لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي وتضم خمسة عشر كلية في مباني متفرقة تتمثل في كلية الآداب، والتربية، والتربية البدنية، والتربية بئر الأشهب، والحقوق، والآثار والسياحة، والعلوم، والهندسة، والاقتصاد، والموارد الطبيعية، والتقنية الطبية، والطب البشري، وطب الأسنان، والصيدلة والتمريض وإجمالي الأقسام العلمية في تلك الكليات 70 قسماً، يدرس فيها 502 عضو هيئة تدريس من حملة الماجستير

(7) خالد شحاته رزق الله، و مجدي عيسى سليمان"واقع تطبيق التعليم الإلكتروني وتحدياتهبجامعة طبرق".- مجلة جامعة طبرق للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع7، (يوليو 2021)، ص11: https://ly.edu.tu.jshs/content-wp/up-loads.

والدكتوراه في تخصصات مختلفة من القارين والمغتربين، وتسعى الجامعة للوصول إلى التراتيب الأولى في تصنيف الجامعات الليبية رغم قلة إمكانياتها المالية والبشرية والمادية والتقنية.

2-2 مفهوم مصادر المعلومات الإلكترونية: تسمى أيضاً بالمصادر المحوسبة أو الرقمية، وقد ظهرت هذه الأوعية الحديثة في ظل التطورات التقنية في مجالات المعلومات وتكنولوجيا النشر الإلكتروني ووسائل الاتصالات. ويعرفها متولي[8] بأنها المصادر المتاحة على شبكة الإنترنت من مقالات الدوريات، المقالات والدراسات التي تنشر ذاتياً، أو التي يتم الحصول عليها من خلال جماعات النقاش أو قوائم البريد الرقمي، أومن خلال محركات البحث المختلفة، وغيرها من المواد المنشورة على الويب أو الجوفر أو ملفات FTP والتي يمكن للباحث الاعتماد عليها في كتابة الأبحاث العلمية.

2-3 أهمية استخدام المصادر الإلكترونية في التعليم الجامعي: تتمثل أهمية استخدام هيئة التدريس للمصادر الإلكترونية في تعليمهم الجامعي لأن موضوعاتها تسهم في تطوير العملية التعليمية بأقسام كلياتهم، وتعرض لهم المعلومات من خلال وسائط متعددة، وتتيح لهم معلومات حديثة في موضوعات بمجال تخصصهم، وتمنحهم قدر واسع من المعلومات بالتفاعل المباشر عبر قواعد وبنوك المعلومات، وتوفر لهم بدائل في البحث عنها على الخط المباشر والأقراص المدمجة، وتعرف بإنتاجهم العلمي المنشور عبر المواقع الإلكترونية لموضوعاتها المتخصصة، وتعزز من قدراتهم في عمليات استكشافها، وتقوي مهاراتهم في البحث عن موضوعاتها، ويوجهون طلابهم نحو استخدامها في مشاريع تخرجهم.

2-4 مميزات استخدام المصادر الإلكترونية في التعليم الجامعي: من أهم مميزات استخدام هيئة التدريس للمصادر الإلكترونية في تعليمهم الجامعي نوجزها فيما يلي: تغطيتها لموضوعات عامة ومتخصصة بمجال اهتمامات هيئة التدريس بالجامعة، وحداثة معلوماتها في موضوعات تخصصهم، وتنوع مصادرها بصيغ مختلفة، وسرعة وصولهم إليها في أي وقت ومن أي مكان، وبإمكانهم اقتنائها وتخزينها واسترجاعها عبر أجهزتهم وأدوات حفظها، وصغر حجمها وسهولة تنقلهم بها وتحميلها، ومعالجة معلوماتها بالحذف والإضافة والتعديل، وإمكانية بثها وإتاحتها لطلابهم بالطريقتين المتزامنة وغير المتزامنة.

2-5 أنواع مصادر المعلومات الإلكترونية: هناك عديد التقسيمات لمصادر المعلومات الإلكترونية من أحدثها تقسيم عبدالحليم[9] الذي قسمها إلى أربع أنواع تتمثل في:

أولاً: التقسيم وفقاً للشكل المادي الذي تتوافر من خلالهِ المصادر وهي: أقراص الفيديو الرقميةDVD، والأقراص الصلبةHard Disk HD، والأقراص المكتنزة

(8) النقيب متولي/ مهارات البحث عن المعلومات وإعداد البحوث في البيئة الرقمية.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2008، صص186-185.

(9) عماد ممدوح عبدالحليم/ علم المكتبات والمعلومات: الأسس والاتجاهات الحديثة. .- الدمام: مكتبة دار المتنبي، 2018، ص ص140-139.

بأنواعهـا CD-ROM ، ووسـائط الملتيميديـا Multimedia، والأقـراص المرنـة Floppy Disk، والكتـب والدوريـات الإلكترونيـة E-book@E-Periodicals، وقواعـد البيانـات عـلى الخـط المبـاشر On Line Data Base، ومكتبـة الوسـائط المتعـددة Multimedia Library، والمكتبـة الرقميـة Digital Library، والمكتبـة الإلكترونيـة Hybrid Library، والمكتبـة الافتراضيـة Virtual Library، وذاكـرة الفـلاش Flash Disk.

ثانياً: التقسيم حسب التغطية والمعالجة الموضوعية وهي تنقسم إلى:

- مصـادر إلكترونيـة عامـة: تغطـي مختلـف الموضوعـات بشـكل عـام دون التحيـز لتخصـص أو موضـوع معـين، وهـي ذات توجهـات إعلاميـة وسياسـية لعامـة النـاس بغـض النظـر عـن تخصصاتهـم ومسـتوياتهم العلميـة والثقافيـة ومنهـا:

مصـادر الأخبـار والسياسـة (إعلامية) وهـي تتنـاول موضوعـات السـاعة والأخبـار المحليـة وتغطـي موضوعـات كثـيرة بأسـلوب مفهـوم لـكل النـاس، وتسـتقي هـذه المصـادر معلوماتهـا مـن الصحـف والمجـلات العامـة ومـن أشـهرها بنـك معلومـات نيويـورك تايمـز المعـروف باسـم The Information Bank.

, مصـادر المعلومـات التلفزيونيـة: وهـي مـن الأنـواع الحديثـة لمصـادر المعلومـات الإلكترونيـة المتميـزة بطبيعـة معلوماتهـا التـي تقدمهـا فهـي تجيـب عـن طلبـات وتلبـي احتياجـات النـاس الاعتياديـين لأنهـا تخـص الحيـاة اليوميـة والمعيشـية لهـم ممـا جعلهـا وليـدة المجتمـع المعلوماتـي الجديـد التـي تسـد إحـدى ثغـرات خدمـات المعلومـات في المكتبـات التـي تركـز غالبـاً عـلى خدمـات المعلومـات للباحثـين وتعـرف عـادة ببنـوك المعلومـات التلفزيونيـة كالفيديوتكـس والفيديوتكـس المتفاعـل ومـن أشـهرها مـا يعـرف بنظـام (Prestol و Ceefax) في بريطانيـا و (Teletell) في فرنسـا و(Teletext) في اليابـان والتيلتكسـت أو النـص المتلفـز (Teletext) وهـو غـير متفاعـل ولا تزيـد خدمتـه عـلى 100 صفحـة.

- مصـادر إلكترونيـة تخصصيـة عامـة: تغطـي موضوعـاً متخصصـاً بشـكل عـام مـن دون التعمـق في تفاصيلـهِ الدقيقـة.

- مصـادر إلكترونيـة متخصصـة: تعالـج موضوعـاً متخصصـاً بعمـق ودقـة متناهيـة بـدءًا مـن العـام ثـم الأكثـر خصوصيـة.

ثالثـاً: التقسـيم حسـب الجهـات المنتجـة: وهـي مصـادر معلومـات إلكترونيـة تجاريـة تنتجهـا المؤسسـات والـشركات التجاريـة حيـث تسـعى إلى تحقيـق أربـاح مـن إنتاجهـا، كمـا توجـد مصـادر أخـرى تنتجهـا مؤسسـات غـير ربحيـة كالجامعـات والمنظمـات التعليميـة.

رابعـاً: التقسـيم وفقـاً لنـوع المعلومـات: وهـي المصـادر الإلكترونيـة التـي تتوافـر عـبر الاتصـال المبـاشر أو الأقـراص المكتنـزة أو مـن خـلال الإنترنـت أو قواعـد البيانـات المحليـة أو العالميـة وتختلـف أنمـاط المعلومـات والبيانـات التـي تغطيهـا هـذه المصـادر الإلكترونيـة فمنهـا المصـادر الإلكترونيـة الببليوغرافيـة، ومصـادر النـص الكامـل، وقواعـد البيانـات.

2 – 6 منافذ الوصول إلى المصادر الإلكترونية: يستطيع أعضاء هيئة التدريس التعامل مع مصادر المعلومات الإلكترونية والحصول عليها عبر واحدة أو أكثر من المنافذ التالية التي حددها كلاً من قنديلجي والسامرائي[10] وهي تتمثل فيما يلي:

1. **الاتصال بقواعد البيانات عن طريق الاتصال المباشر (Online) ويعرف أيضاً بالاشتراك المباشر.**
2. **شراء حق الإفادة من الخط المباشر من خلال أحد مراكز الخدمة على الخط.**
3. **الاشتراك من خلال الشبكات المحلية والإقليمية والدولية.**
4. **الاشتراك من خلال وسطاء المعلومات أو تجار المعلومات (Information Brokers).**
5. **الاشتراك في شبكات تعاونية خاصة لتقاسم المصادر المعرفة باسم (Resource sharing networks).**
6. **من خلال شبكة الإنترنت.**
7. **اقتناء الأقراص الليزرية المكتنزة (شراء/أستراك).**

2 – 7 أدوات وآليات البحث عن المصادر الإلكترونية عبر الإنترنت: قبل أن نتطرق في هذه الدراسة إلى معرفة محركات البحث وأدلتها الموضوعية، وآليات عملها وأشهرها، فيجب علينا أن نتعرف على متصفحات الإنترنت أولاً لأنها المنفذ الأساسي في عملية الدخول لأي محرك بحث عبر الشبكة حيث يتم اختيار المحركات من خلال هذه المتصفحات ويعرفها القزعة والنعيمي[11] بأنه برنامج يعرض المعلومات الموجودة في الانترنت ويمكن من خلالهُ البحث عن أية معلومات ودخول أي موقع على الانترنت، ويعتبر عبدالعزيز[12] المتصفح Mozilla Firefox من أفضل المتصفحات لأنهُ مجاني وصغير الحجم، ويعتمد في تشغيلهُ على محرك صمم خصيصاً من أجله، ويوفر السرعة العالية، ويفتح أكثر من موقع وبرامجهُ مفتوحة المصدر تسمح بإدخال الأدوات والتحسينات وتثبيتها بداخلهِ والشكل التالي يبين أشهر المتصفحات عبر الشبكة.

شكل رقم (01) أشهر أنواع المتصفحات عبر شبكة الإنترنت

(10) عامر قنديلجي، و إيمان السامرائي/ قواعد وشبكات المعلومات المحوسبة في المكتبات ومراكز المعلومات.-عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص69.

(11) أمين شوكت القزعة، و غادة محمد النعيمي/ تكنولوجيا الإنترنت.- عمان: دار البداية، 2008، ص21.

(12) رامي عبدالعزيز/ أفكار وأسرار الإنترنت.- الاسكندرية: ايجيبت بوكس لنشر وتوزيع الكتب العالمية، 2009، ص ص10-7.

وتضم شبكة الإنترنت عدداً ضخماً من قواعد البيانات الببليوغرافية والنصية والرقمية التي يتطلب الرجوع إليها الاستعانة بأدوات بحث مختلفة فكثيرة هي المعلومات المتاحة بأشكال مختلفة على الشبكة ويعد إيجاد تلك المعلومات أصعب كثيراً من استخدامها، لذا تعتبر محركات البحث وأدلتها من أهم الأساليب التي يلجأ إليها المستخدمين للبحث عن مصادر المعلومات الإلكترونية والتعرف على مواقعها عبر الشبكة، ويعرفها رياض[13] بأنها موقع ويب مصمم للمساعدة في الحصول على معلومات مخزنة على شبكة الإنترنت وهو يوفر واجهة استخدام رسومية تمكن المستخدمين من كتابة الكلمات المعبرة عن المعلومات التي يبحثون عنها ويقوم محرك البحث بمطابقة كلمات المستخدم مع المستندات الموجودة لديه ثم يعرض على المستخدم عناوين المواقع التي تحتوي على الكلمات الأكثر تشابهاً التي كتبها مرتبة حسب درجة تشابهها. ويميز عبدالفتاح[14] محركات البحث بشمولية التغطية للمتاح من معلومات على الشبكة إلى حد كبير مقارنة بغيرها من الأساليب وحداثتها حيث يتم إدراج المواقع الحديثة فيها بصورة أسرع من غيرها، وسهولة البحث فيها واستخدامها كما تمنح محركات البحث تحديد الموضوعات بشكل أكثر تخصيصاً من خلال ربط مصطلحات البحث ببعضها، وبالإمكان البحث في هذه المحركات حسب الموضوع أو الكلمة المفتاحية أو المنطق البولينى، ومن أشهر محركات البحث: Google وYahoo وAltaVista وAyna وتؤدي محركات البحث وظائفها بوصفها برامج أو نظم لإدارة قواعد البيانات وذلك بالتفاعل بين الأجزاء الثلاثة المكونة لها التي يمثلها بن مفلح[15] في:

أ/ الزاحف أو العنكبوت:Crawler Or Spider وهو يمثل البرنامج الذي يتجول بين صفحات الويب المرتبطة بها على فترات منتظمة لغرض جمع بيانات تلك الصفحات .

ب/ الفهرس أو الكشاف:Catalog Or Index وهي تمثل القائمة التي يتم بناؤها من ناتج زيارات الزواحف أو العناكب لصفحات الويب، حيث تضم المصطلحات التي وردت في تلك الصفحات، وبذلك فإنها تُعد بمثابة مكنز آلي يتم تحديثه مع كل زيارة للزواحف أو العناكب لمواقع الويب .

ج/ برنامج محرك البحث: Search Engine Softwareيتولى هذا البرنامج مهمة البحث في الكشافات ومطابقة المصطلحات المحددة في استراتيجية البحث بمصطلحات التكشيف المخزنة في الكشاف، ويقوم هذا البرنامج بوضع الصفحات في شكل طبقي.

(13)-خالد محمد رياض"دور محركات البحث في نشر الوثائق على الإنترنت". النشر الإلكتروني وتأثيره على مجتمع المكتبات والمعلومات: أبحاث ودراسات المؤتمر العلمي الثاني لمركز بحوث نظم وخدمات المعلومات بالتعاون مع قسم المكتبات والوثائق والمعلومات بكلية الآداب، جامعة القاهرة، 26-25 أكتوبر 1999. .- القاهرة: المكتبة الأكاديمية،2001،ص ص 321-320: https://:net.emarefa.search/ar/detail/BIM

(14)خالد عبدالفتاح."محركات البحث في الشبكة العنكبوتية".- مجلة المعلوماتية، ع15، (يوليو2004)، ص ص49-46.

(15) فاتن سعيد بن مفلح/ أساسيات نظم استرجاع المعلومات الإلكترونية.- الرياض: مكتبة الملك فهد، 2006، ص ص220-291.

وهنـاك العديـد مـن المشـاكل التـي قـد يتعـرض لهـا المسـتفيدون أثنـاء عمليـة بحثهـم عـن المصـادر الإلكترونيـة داخـل محـركات البحـث والتـي تتطلـب العلـم بهـا ومراعاتهـا عنـد القيـام بعمليـة البحـث يذكرهـا شـعبان[16] في المشـاكل التاليـة: -

يهمل التاء المربوطة فيكتبونها هاء.

- يهمل الكثيرون الهمزة على الألف وأحياناً يكتبونها في غير موضعها.
- يجـب عـدم تجاهـل السـوابق واللواحـق مثـل أل التعريـف، وواو العطـف، والضمائـر المتصلة .
- ينبغي التنبيه إلى مدارس كتابة الهمزة مثل شؤون، شئون ومسؤول، مسئول.
- ينبغـي عـلى الباحـث اسـتخدام مترادفـات مختلفـة مـن أجـل البحـث المسـتقصي مثـلاً بنـك ومـصرف ومؤسسـة ماليـة.
- ينبغـي تجريـب الكلمـات التـي يكتبهـا البعـض بالرسـم العثمانـي، ويكتبهـا البعـض الآخـر بالخـط الحديـث مثـل مائـة، مئـة وداوود، داود.

الياء تكتب في الوثائق المصرية بدون نقطتين فعلى الباحث الوعي بذلك.

2-8 معايـير اختيـار مصـادر المعلومـات الإلكترونيـة: في ضـوء طبيعـة المصـادر الإلكترونيـة التـي تظهـر بأشـكال مختلفـة، ومواقعهـا المتاحـة مبـاشرة عـلى شـبكات المعلومـات فإنهـا تحتـاج إلى أسـس ومعايـير خاصـة في عمليـة اختيارهـا ومـن بـين هـذه الأسـس حددهـا عبدالحليـم (عبدالحليـم، 2018، الصفحـات ،146-145). [17] **فيمـا يـلي:**

1. المسـؤولية والشـمولية والدقـة والحداثـة والحياديـة: وهـي ذات الأسـس المتبعـة في اختيـار مصـادر المعلومـات الورقيـة.

2. الإتاحـة: ويعنـي ذلـك مـدى إمكانيـة الوصـول إليهـا والبحـث فيهـا بسـهولة ويـسر، أم أنهـا بحاجـة إلى برمجيـات معينـة أو توفـر أدوات بحـث معينـة.

3. المراجعة: هل توجد آلية لمراجعة المعلومات وتقييمها ونقدها.

4. الوقت أو السرعة: هل استخدام المصادر يتم بسرعة أم أنه بحاجة إلى الوقت.

5. أسـلوب الدخـول: هـل الدخـول للمواقـع الإلكترونيـة والبحـث فيهـا يتـم مجانـاً أم مقابـل اشـتراك محـدد.

6. اسـتمرارية الموقـع: أي هـل الموقـع يسـتمر أم أنـه يحـذف بعـد انتهـاء الموضـوع الـذي أقيـم مـن أجلـه، وهـل يتغـير عنوانـه.

7. الناحيـة القانونيـة للمـادة الإلكترونيـة: خاصـة في المقـالات الرسـمية حيـث لا يتـم اعتمادهـا كوثيقـة رسـمية حتـى ولـو ظهـر فيهـا الخاتـم والتوقيـع لأنهـا أشـبه بالاستنسـاخ.

(16) عـلي شـعبان/ الإنترنـت في خطـوات: مـع أكثـر مـن 600 موقـع مـصري عـلى الإنترنـت.- القاهـرة: أطلـس للنـشر والإنتـاج الإعلامي، 2004،ص23.

(17) عمـاد ممـدوح عبدالحليـم/ علـم المكتبـات والمعلومـات: الأسـس والاتجاهـات الحديثـة.- الدمـام: مكتبـة دار المتنبـي، 2018، ص ص146-145.

2-9 مساهمة المصادر الإلكترونية في تطوير التعليم الجامعي:

1. المساهمة: يقصد بها في هذه الدراسة مزايا مصادر المعلومات الإلكترونية وفوائدها التي تنعكس عمليات استخدمها على تطوير التعليم الجامعي بأقسام كليات جامعة طبرق.

2. التطوير: نعرفه إجرائياً بأنه كل المتغيرات الحديثة والمستحدثة الناتجة عن استخدام الهيئة التدريسية للمصادر الإلكترونية وتوظيف معلوماتها في تطوير العملية التعليمية بكل عناصرها، وكافة أنشطتها العلمية والتعليمية والتثقيفية والتدريبية.

3. العملية التعليمية: نعرفها إجرائياً بأنها مفردات المناهج الدراسية، ومقررات الأقسام العلمية بجميع عناصرها الموضوعية، لأشكالها النظرية والعملية، وساعاتها التدريسية ووحداتها القياسية، والنشاطات العلمية والتعليمية والتثقيفية والتدريبية للأقسام العلمية بكليات جامعة طبرق من ورش عمل ومحاضرات وندوات ومؤتمرات، وإنتاج علمي وفكري لهيأتها التدريسية التي تسهم به في تطوير تعليمها الجامعي وتعتمد على المعلومات كمورد رئيسي لها، ومصادرها الإلكترونية عنصراً فعالاً فيها. كل المفاهيم الإجرائية السابقة في حال ارتبطت مع بعضها بعناصر العملية التعليمية في عمليات التوظيف وإجراءات مهارات الاستخدام من طرف هيئة التدريس بجامعة طبرق في تعليمهم الجامعي باستخدامهم للمصادر الإلكترونية ستنعكس فوائدها على تطوير العملية التعليمية في تعليمهم الجامعي بجميع أقسام كلياتهم بالشكل الايجابي وهذا ما نسعى إلى الوصول إليه لتحقيق أهداف الدراسة.

2-10 معوقات استخدام المصادر الإلكترونية في التعليم الجامعي:

المعوقات: يقصد بهذا المفهوم في ظل هذه الدراسة هي الصعوبات التقنية والفنية التي ترتبط بالوعي المعلوماتي في كيفية استخدام التقنيات التعليمية وقلة المعرفة بأنواع المصادر الإلكترونية ومهارات البحث عنها وعمليات تجميعها وتخزينها وتحميلها ومعالجتها وتصميمها ومونتاجها والمهارات التفاعلية في كيفية الاشتراك بمواقعها وقواعد معلوماتها المباشرة والتفاعل مع الطلاب لإتاحتها داخل قاعاتهم الدراسية وعبر بريدهم الإلكتروني. وهي تتمثل في النقاط التالية:

1. عدم القدرة على استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات للحصول على المصادر الإلكترونية، وكيفية توظيفها في تطوير التعليم الجامعي.

2. قلة المعرفة الكافية بمواقع المصادر الإلكترونية بمجال التخصص، وبكيفية الاشتراك في مواقعها الإلكترونية المتخصصة.

3. الافتقار الى مهارات البحث عن موضوعاتها بمواقعها الإلكترونية، وعمليات تجميع معلوماتها وتخزينها ومعالجتها.

4. عدم القدرة على المونتاج المرئي والمسموع لمعلوماتها الصوتية والفيديو.

5. قلة المعرفة باستخدام طرق عرض وتقديم معلوماتها أثناء شرح المحاضرات

بقاعات الكليات، وإتاحة معلوماتها للطلاب عبر بريدهم الإلكتروني.

6. عدم تجاوب الطلاب مع محاولات تطوير طرق التعليم باستخدام المصادر الإلكترونية، وإن قاعات ومعامل الكلية غير مجهزة بالتقنيات التعليمية لعرضها وتقديم معلوماتها.
7. أغلب المصادر الإلكترونية منشور باللغة الإنجليزية.
8. ضعف تغطية الإنترنت وانقطاعها بشكل مستمر.

3/ الفصل الثالث: الإطار التطبيقي للدراسة:

3-1 عينة الدراسة: اعتمدت الدراسة على العينة العشوائية التطبيقية التي يمثلها (272) مفرده من أعضاء هيئة التدريس ممن يستخدمون مصادر المعلومات الإلكترونية في تعليمهم الجامعي بكليات جامعة طبرق من أصل (468) عضو حسب إحصائية العام الدراسي 2021/ 2022. ويقصد بأعضاء هيئة التدريس في ضوء هذه الدراسة هم حملة الماجستير والدكتوراه في مجالات علمية متخصصة يقومون بتطبيق التعليم الجامعي وتطوير عمليته التعليمية من خلال إنتاجهم العلمي الذي يرقون به إلى درجات وظيفية وصفات علمية تبدأ من محاضر مساعد، ومحاضر، وأستاذ مساعد، وأستاذ مشارك، وأستاذ ولكل درجه علمية مدة زمنية مقرونة بعدد من بحوثهم العلمية في مجال التخصص، وتنشر عبر أعمال مؤتمراتهم والمجلات العلمية الإلكترونية والمستودعات الرقمية والمنصات التعليمية لمواقع جامعاتهم للوصل بها لأولى المراتب في التصنيف الوطني والعالمي ولها دور هام في تطوير التعليم الجامعي بجامعتهم.

3-2 أدوات جمع البيانات: اختير الاستبيان المغلق كأداة رئيسية في هذه الدراسة لجمع البيانات عن عينتها من أعضاء هيئة التدريس بكليات جامعة طبرق ممن يستخدمون المصادر الإلكترونية في تعليمهم الجامعي.

3-3 منهج الدراسة: استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي الذي يهدف إلى وصف وتحليل البيانات التي تتوافر عن طريق تطبيق استبيان الدراسة، وهو يعد أداة تلاءم موضوعها لأنه يقوم بدراسة الظاهرة كما هي في الواقع وجمع المعلومات حولها وتحليلها وتصنيفها ثم الوصول إلى نتائجها.

3-4 الأساليب الإحصائية للدراسة: تم استخدام بعض أساليب الإحصاء الوصفي في هذه الدراسة، مثل: (التكرارات والنسب المئوية والمتوسطات الحسابية والوزن النسبي والارتباط) كما استخدمت الدراسة اختبار (T) لعينة واحدة لدراسة الفروق بين متوسطات متغيرات الرئيسية للدراسة والوسط الفرضي.

3-5 تحليل نتائج الدراسة: مناقشة النتائج المتعلقة بأسئلة الاستبيان:

أولاً: البيانات العامة لعينة الدراسة:

جدول رقم 1 توزيع أفراد العينة بحسب المتغيرات الديموغرافية

المتغير	الفئة	التكرار	النسبة	المتغير	الفئة	التكرار	النسبة
النوع	ذكور	106	54.4	المجال العلمي	علوم إنسانية	125	64.1
	إناث	89	45.6		علوم تطبيقية	70	35.9
العمر	33 =>	7	3.6	المؤهل	ماجستير	105	53.8
	34 – 49	128	65.6		دكتوراة	90	46.2
	50+	60	30.8	الدرجة العلمية	مساعد محاضر	54	27.7
سنوات العمل	0 <= 1	2	1.0		محاضر	73	37.4
	2 – 18	143	73.3		أستاذ مساعد	29	14.9
	19+	50	25.6		أستاذ مشارك	28	14.4
					بروفيسور	11	5.6

يظهر الجدول رقم 1 المتغيرات الديموغرافية التي تمت دراستها في الدراسة، وهي المتغيرات التي نعتقد أنها ذات أهمية في التعرف على مواصفات وخصائص عينة الدراسة بالإضافة إلى أهميتها في إجراء بعض المقارنات وتفسير النتائج التي تم التوصل إليها إذا تطلب الأمر، ويمكن تسجيل بعض الملاحظات الخاصة بالخصائص الديموغرافية للعينة في النقاط التالية:

1. إن أعلى نسبة مشاركة في الدراسة هم من الذكور.
2. تتركز أعلى نسبة من أعضاء هيئة التدريس المشاركين في هذه الدراسة في الفئة العمرية من 34 – 49 وهذا يعطي انطباع بأنها الشريحة الأكثر اهتماما باستخدام مصادر المعلومات الإلكترونية.
3. أن أغلب أفراد العينة كانوا ممن قضوا سنوات في العمل تتراوح من 2 – 18 سنة، ويجب التنويه هنا بأن هذه السنوات لا تعكس بالضرورة الخبرة العملية.
4. إن تفوق عدد مستخدمي مصادر المعلومات الإلكترونية من العلوم الإنسانية عنه في العلوم التطبيقية، وهذا قد يشير إلى وجود ميل أكثر من غيرهم لهذا الاستخدام، ولكن يجب التذكير أيضاً بأن عدد أعضاء هيئة التدريس في العلوم الإنسانية أكثر منه في العلوم التطبيقية في جامعة طبرق مما قد ينعكس على حجم مشاركتهم.
5. إن أعلى نسبة مشاركة في الدراسة هم ممن يحملون درجة محاضر وربما يرجع ذلك إلى تفوق عدد مشاركات الأساتذة الذين يحملون شهادة ماجستير في الدراسة عن الذين يحملون شهادة الدكتوراه.

ثانياً: أنواع تقنيات المعلومات والاتصالات التي تستخدمها العينة للحصول على

المصـادر الإلكترونيـة، وكيفيـة بحثهـم عنهـا عـبر الإنترنـت:

جدول رقم 2 يوضح تقنيات المعلومات والاتصالات التي تجيد العينة استخدامها والمنافذ التى تفضلها للوصول إلى المصادر الإلكترونية

المتغير	الفئة	التكرار	النسبة
تقنيات المعلومات والاتصالات	الهاتف المحمول	80	46.5
	الكمبيوتر	55	32.0
	الأيباد	29	16.9
	السبورة التفاعلية	8	4.7
	المجموع	172	100
منافذ الوصول الى المصادر الإلكترونية	شبكة الإنترنت	124	72.1
	الاتصال المباشر بقواعد البيانات	17	9.9
	شبكات محلية، إقليمية، دولية	12	7.0
	اقتناء الأقراص	12	7.0
	الشبكات التعاونية الخاصة	4	2.3
	وسطاء المعلومات	3	1.7
	المجموع	172	100

يعـرض الجـدول رقـم 2 موضوعـين أساسـين يرتبطـان ارتباطـاً وثيقـاً بتقنيـات المعلومـات والاتصـالات، حيـث يتنـاول: أولاً: التقنيـات التـي يجيـد اسـتخدمها أفـراد العينـة، ومـن الملاحـظ أنهـم يتقنـون اسـتخدام التقنيـات ذات طابـع الاسـتخدام الفـردي حيـث تحصلـت عـلى أعـلى نسـب اسـتخدام وفي المقابـل فـإن إجادتهـم لاسـتخدام التقنيـة الجماعيـة تنخفـض بشـكل كبـير إذ تحصلـت السـبورة التفاعليـة عـلى أقـل نسـبة مـن حيـث الاسـتخدام مـن قبـل أفـراد العينـة. ثانيـاً: فـإن الجـدول يظهـر المنافـذ التـي يفضـل أفـراد العينـة اسـتخدامها للوصـول إلى المعلومـات ومـن اللافـت للنظـر أن الانترنـت يحظـى بنسـبة عاليـة جـداً في التفضيـل مقارنـة بالمنافـذ الأخـرى والتـي تكـون تقريبـاً متقاربـة إلى حـد مـا في نسـبتها المئويـة، ونسـتخلص مـن ذلـك أن أفـراد العينـة يجيـدون اسـتخدام التقنيـات ذات الطابـع الفـردي ممـا يشـير إلى أنهـم يسـتخدمون تقنياتهـم الخاصـة في الوصـول لمصـادر المعلومـات الإلكترونيـة وهـي تقنيـات يمكـن أن يوفرونهـا بشـكل شـخصي وبمبـادرة فرديـة ويقـل اعتمادهـم عـلى مؤسسـتهم التعليميـة في ذلـك، في حـين أنهـم لا يجيـدون اسـتخدام السـبورة التفاعليـة لأنهـم لا يهتمـون باقتنائهـا كتقنيـة شـخصية إذ أن هـذه تعـد وضيفـة المؤسسـة التعليميـة بالإضافـة إلى أن طبيعـة هـذه الوسـيلة تفـرض توافرهـا في مؤسسـة للاسـتخدام الجماعـي، كمـا نسـتخلص أيضـاً أن أفـراد العينـة يسـتخدمون الانترنـت كمنفـذ مهـم للوصـول الى المصـادر الإلكترونيـة وقـد يرجـع ذلـك إلى سـهولة اقتنائـه

واستخدامه ورخص ثمنه وسرعة استخدامه.

جدول رقم 3 يوضح محركات البحث والأدلة الموضوعية وآليات البحث التي تفضل العينة استخدامها للوصول إلى الموضوعات بمصادرها الإلكترونية عبر الإنترنت

المتغير	الفئة	التكرار	النسبة
محركات البحث والأدلة الموضوعية التي تستخدمها العينة للبحث عن الموضوعات بمصادرها الإلكترونية بالإنترنت	Google	135	78.5
	Yahoo	22	12.8
	Bing	7	4.1
	Google Sckler	6	3.5
	AltaVista	1	.6
	Pubmed Resentd gate	1	.6
	مجموع	172	100
آليات البحث التي تفضل العينة استخدامها للوصول إلى الموضوعات بمصادرها الإلكترونية عبر الإنترنت	البحث بالموضوع	58	33.7
	بالعنوان	44	25.6
	بالكلمات المفتاحية	38	22.1
	بالمؤلف	31	18.0
	بالمنطق البوليني	1	.6
	مجموع	172	100

يشير الجدول رقم 3 إلى ميل كبير لدى أفراد العينة لاستخدام محرك البحث Google للبحث عن الموضوعات التي يرغبون الحصول عليها من المصادر الإلكترونية عبر الإنترنت، أما بالنسبة لآليات البحث التي تستخدمها أفراد العينة في الوصول للموضوعات المطلوبة فإنهم يركزون على البحث بالموضوع كآلية للبحث وهي تحظى بأعلى نسبة تليها البحث بالعنوان ثم بالكلمات المفتاحية والمؤلف.

ونستخلص من الجدول وجود تباعد كبير بين نسبة استخدام أفراد العينة لمحرك البحث Google وبين أقرب نسبة لاستخدامهم لمحركات البحث الأخرى من حيث الاستخدام، وهذا الفارق يظهر أهمية محرك البحث Google بالنسبة لأفراد العينة كما قد يشير في المقابل إلى حاجة أفراد العينة إلى المزيد من تدريب في مجال استخدام محركات البحث والأدلة الموضوعية الأخرى.

جدول رقم 4 يوضح أدوات الحفظ والتخزين والوسائل التي تستخدمها العينة لتوصيل وإتاحة المصادر الإلكترونية للطلاب

المتغير	الفئة	التكرار	النسبة
أدوات الحفظ والتخزين التي تستخدمها العينة بالطريقة غير المتزامنة لتوصيل المصادر الإلكترونية للطلاب	الهارد دسك	82	47.7
	الإيميل	70	40.7
	الأقراص الليزرية	19	11.0
	الفلاش Drive	1	6.
	مجموع	172	100
الوسائل التي تفضل العينة استخدمها لإتاحة المصادر الإلكترونية للطلاب عبر الإنترنت	حساباتهم الإلكترونية	138	80.2
	المستودعات الرقمية للجامعة	25	14.5
	المنصات التعليمية	8	4.7
	القنوات التلفزيونية	1	6.
	مجموع	172	100

يتبين من الجدول رقم 4 أن أكثر أداتين تستخدمهما أفراد العينة لتخزين وحفظ المعلومات بالطريقة غير المتزامنة هما الهارد دسك وتليها الإيميل، وربما يكون لذلك علاقة بحجم المعلومات التي يودون حفظها وتخزينها بالإضافة إلى حداثة هاتين الأداتين والأمان التي توفرانه مقارنة بالأداتين الأخريين اللتان تحصلتا على نسب أقل في الاستخدام من قبل أفراد العينة، كما نلاحظ بوضوح اعتماد أفراد العينة على وسيلتهم الشخصية في إتاحة المصادر الإلكترونية للطلاب وهي حساباتهم الإلكترونية، ومن هذا نستنتج أن المؤسسة التعليمية لا توفر أو أنها لا تهيئ المناخ لاستخدام الوسائل الأخرى التي تتسم بالاستخدام الجماعي وتتطلب توفيرها من المؤسسة، لذا نجد انخفاض كبير في تفضيل أفراد العينة لاستخدام هذه الوسائل والذي قد يكون بسبب تقصير المؤسسة التعليمية في توفيرها وليس لعدم تفضيلهم لها.

جدول رقم 5 يوضح المواقع التي تستخدمها العينة في التعليم الجامعي للحصول على الموضوعات من المصادر الإلكترونية

المواقع التي يستخدمها أفراد العينة	التكرار	النسبة
المواقع التعليمية.edu	68	39.5
مواقع خدمات الشبكات. Net	49	28.5
مواقع نشر المعلومات.nf	31	18.0
المواقع الحكومية.gov	12	7.0
المواقع الخاصة. Org	7	4.1
المواقع التجارية. com/biz	5	2.9
مجموع	172	100

يظهر الجدول رقم 5 بشكل جلي المواقع الأكثر استخداما من أفراد العينة في الحصول على المعلومات من المصادر الإلكترونية لتوظيفها في التعليم الجامعي، حيث تظهر بيانات الجدول أن أعلى نسب استخدام هي التي تحظى بها المواقع التعليمية تليها مواقع خدمات الشبكات ثم مواقع نشر المعلومات، كما نلاحظ أيضاً تدني ملحوظ في استخدام أفراد العينة لباقي المواقع التي تم طرحها عليهم في استبانة الدراسة، وربما يرجع هذا التدني إلى أن هذه المواقع ترتبط بأعمال ومهام ذات أهداف غير تعليمية لأنها ترتبط بأعمال حكومية رسمية أو بمواقع خاصة وتجارية وهي مواقع يندر أن يلجأ إليها الأساتذة الجامعيين للحصول على معلومات تستخدم أو توظف في المجالات التعليمية.

ثالثا: معدل استخدام المصادر الإلكترونية، ومعدل استخدام العينة في تعليمهم الجامعي:

الجدول رقم 6 يظهر دلالة اختبار One-Sample T-Test بين المتوسطين الحسابيين لمتغيري الدراسة والوسط الفرضي

متغيري الدراسة	القيم	قيمة T	درجة الحرية	قيمة الدلالة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
معدل استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية	172	2.911	171	.004	2.0749	33753.
معدل استخدام الأساتذة لمصادر المعلومات الإلكترونية في تطوير التعليم الجامعي	172	-13.996	171	.000	1.5592	41305.
الوسط الفرضي للمقياس = 2 / مستوى المعنوية 0.05						

يعرض الجدول رقم 6 بيانات كل متغير من متغيري الدراسة على حده، حيث بالإمكان أن نلاحظ بوضوح وبحسب قيمة الدلالة لمتغير معدل استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية وجود فارق بين متوسط استخدام أفراد العينة لهذه المصادر والوسط الفرضي للمقياس لصالح متوسط العينة كما هو مبين بالجدول، وفي المقابل لم يكون هذا الفارق لصالح عينة الدراسة بالنسبة لمتغير معدل استخدام المصادر الإلكترونية في تطوير التعليم الجامعي من قبل الأساتذة إذ ينخفض معدل استخدامهم بمقدار نصف درجة تقريباً عن الوسط الفرضي كما يظهر المتوسط الحسابي، ومن نتائج هذا الجدول يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1. وجود ارتفاع معقول في استخدام الأساتذة لمصادر المعلومات الإلكترونية وهذا يعد شيئاً ايجابياً بغض النظر عن المسئول عن توفير هذه المصادر وجعلها متاحة لهم (عن طريق الجامعة أو بمجهود شخصي).
2. إن حجم التطور في استخدام الأساتذة للمصادر الإلكترونية لا ينسجم كثيراً مع معدل استخدامهم لها في تطوير التعليم الجامعي، فبالنظر إلى معدل استخدامهم للمصادر الإلكترونية في التطوير نجد أن هناك تقدم في مستوى هذا الاستخدام ولكنه ينخفض قليلاً عن المستوى المأمول، وقد يفسر

هـذا الانخفـاض بـأن توظيـف تكنولوجيـا التعليـم وتوفـير مصـادر للمعلومـات الإلكترونيـة يحتـاج إلى عمـل مؤسـسي ومسـاندة مـن تنظيـم إداري يمتلـك مقومات لا يمكـن أن يوفرهـا الأسـتاذ بشـكل منفـرد ولا يمكنـه أن يقـوم بهـذه المهمـة دون تعـاون مؤسسـته التعليمـة في توفيرهـا.

رابعاً: تأثير معدل استخدام المصادر الإلكترونية في تطوير التعليم الجامعي:

جـدول رقـم 7 يوضـح حسـاب حجـم تأثـير معـدل اسـتخدام المصـادر الإلكترونيـة في تطويـر التعليـم الجامعـي باسـتخدام معادلـة الانحـدار الخطي البسـيط

المتغيران	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة الارتباط	دلالة الارتباط	دلالة ANOVA	معلمتي الانحدار B
ثقافة الاتصال الرقمي	1.5592	.41305	.326	.000	.000	.732
أداء الأستاذ الجامعي	2.0749	.33753				.399
معادلة الانحدار الخطي البسيط = .399 + .732*						

*. كلمـا زاد معـدل اسـتخدام المصـادر الإلكترونيـة بمقـدار .732 كلمـا حـدث تأثـير في اتجـاه الأسـاتذة لتطويـر التعليـم الجامعـي بمقـدار 40 % تقريبـاً.

بالرغـم مـن انخفـاض معـدل اسـتخدام الأسـاتذة لمصـادر المعلومـات الإلكترونيـة في تطويـر التعليـم الجامعـي عـن المعـدل المطلـوب (الوسـط الفـرضي) إلا أننـا ننـوه إلى وجـود تطويـر عـلى كل حـال ولكنـه لا يرتقـي إلى المعـدل المأمـول كمـا ذكرنـا سـابقاً، حيـث يظهـر الجـدول رقـم 7 وجـود ارتبـاط طـردي ذو قـوة متوسـطة إلى حـد مـا بـين اسـتخدامهم لمصـادر المعلومـات الإلكترونيـة واتجاههـم لتطويـر التعليـم الجامعـي، كمـا تظهـر ذلـك قيـم الدلالـة لهـذا الارتبـاط، وبالنظـر إلى قيمـة تحليـل التبايـن الأحـادي (ANOVA) نجـد أنهـا دالـة عنـد مسـتوى معنويـة 0.05 وبذلـك يمكـن الإشـارة إلى وجـود أثـر للمتغـير الأول عـلى المتغـير الثانـي يتمثـل في الآتـي: أنـه كلمـا اسـتخدم الأسـاتذة مصـادر المعلومـات الإلكترونيـة بمقـدار 732. فـإن ذلـك سـيؤثر في قدرتهـم عـلى التعليـم الجامعـي بنسـبة 399. تقريبـاً.

خامساً: معوقات استخدام لمصادر المعلومات الإلكترونية:

جدول رقم 8 يوضح معوقات عينة الدراسة استخدام لمصادر الإلكترونية في تعليمهم الجامعي:

المعوقات التي تواجه أفراد العينة عند استخدامهم للمصادر الإلكترونية في تعليمهم الجامعي بجامعة طبرق	الدرجة			المتوسط الحسابي	الأهمية النسبية
	موافق	موافق إلى حد ما	غير موافق		
لا أجيد استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات للحصول على المصادر الإلكترونية	22	50	100	2.45	82%
لا امتلاك القدرة على توظيفها في تطوير التعليم الجامعي بمجال تخصصي	20	57	95	2.44	% 81
لا امتلك المعرفة الكافية بمواقعها الإلكترونية بمجال تخصصي	30	57	85	2.32	% 77
لا أمتلك القدرة بكيفية الاشتراك في مواقعها الإلكترونية المتخصصة	37	68	67	2.17	% 72
لا أجيد مهارات البحث عن موضوعاتها بمواقعها الإلكترونية	30	46	96	2.38	% 79
لا أجيد عمليات تجميع المعلومات وتخزينها ومعالجتها من مصادرها الإلكترونية	22	52	98	2.44	% 81
لا أجيد المونتاج المرئي والمسموع لمعلوماتها الصوتية والفيديو	54	65	53	1.99	% 66
لا أجيد استخدام طرق عرض وتقديم معلوماتها أثناء شرح المحاضرات بقاعات الجامعة	33	42	97	2.37	% 79
لا أمتلك القدرة على إتاحة معلوماتها للطلاب عبر بريدهم الإلكتروني	32	58	82	2.29	% 76
قاعات ومعامل الكلية غير مجهزة بالتقنيات التعليمية لعرضها وتقديم معلوماتها	103	38	31	1.58	% 53
أغلب المصادر الإلكترونية منشور باللغة الإنجليزية	60	59	53	1.96	% 65
لا يتجاوب الطلاب مع محاولاتي لتطوير طرق التعليم باستخدام المصادر الإلكترونية	57	70	45	1.93	% 64
ضعف تغطية الإنترنت وانقطاعها بشكل مستمر	107	48	17	1.48	% 49

يظهر الجدول رقم 8 المعوقات التي تواجه أعضاء هيئة التدريس عند استخدامهم لمصادر المعلومات الإلكترونية، ويتضح من المتوسطات الحسابية للمعوقات وكذلك الأهمية النسبية لكل فقرة أن أهم المعوقات التي تواجههم تتمثل في المعوقات التالية:

1. عدم إجادة استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات للحصول على المصادر الإلكترونية.
2. عدم القدرة على توظيفها في تطوير التعليم الجامعي بمجال تخصصي.
3. عدم إجادة عمليات تجميع المعلومات وتخزينها ومعالجتها من مصادرها الإلكترونية.
4. عدم إجادة مهارات البحث عن موضوعاتها بمواقعها الإلكترونية.
5. عدم إجادة استخدام طرق عرض وتقديم معلوماتها أثناء شرح المحاضرات بقاعات الجامعة.
6. ونلاحظ أن القاسم المشترك بين أهم المعوقات التي تواجه أعضاء هيئة التدريس بجامعة طبرق هو ضعف مهاراتهم في استخدام التقنية، حيث أنهم يعانون من نقص واضح في هذه المهارات بشكل عام وقد يرتبط هذا الضعف بعدم وجود برامج تدريبية تؤهلهم لاستخدام هذه التقنيات خاصة في الوصول لمصادر المعلومات الإلكترونية، وفي المقابل يمكن أن نلاحظ بوضوح أن باقي المعوقات – والتي تمثل أهمية نسبية أقل من غيرها – ترتبط بأمور قد تكون خارجة عن إرادتهم أو لها علاقة بالجامعة التي كان من الواجب أن تعمل على توفيرها، مثل:
7. ضعف تغطية الانترنت وانقطاعها بشكل مستمر.
8. قاعات ومعامل الكلية غير مجهزة بالتقنيات التعليمية لعرضها وتقديم معلوماتها.
9. عدم تتجاوب الطلاب مع محاولات الأساتذة لتطوير طرق التعليم باستخدام المصادر الإلكترونية.
10. أغلب المصادر الإلكترونية منشور باللغة الإنجليزية.

3 – 6 نتائج الدراسة:

1. كانت أعلى نسبة مشاركة في الدراسة من الذكور وممن يقعون في الفئة العمرية من 34 – 49، وأن أغلبهم ممن قضوا سنوات في العمل تتراوح من 2 – 18 سنة، ممن يحملون درجة محاضر.
2. تفوق عدد مستخدمي مصادر المعلومات الإلكترونية من العلوم الإنسانية عنه في العلوم التطبيقية.
3. يتقن الأساتذة استخدام التقنيات ذات طابع الفردي في حين كان استخدامهم للتقنية الجماعية تنخفض بشكل كبير.
4. يحظى الإنترنت بنسبة عالية جداً كمنفذ مهم للوصول إلى مصادر المعلومات الإلكترونية مقارنة بالمنافذ الأخرى.
5. لدى أفراد العينة ميل كبير لاستخدام محرك البحث Google للبحث عن المعلومات للموضوعات التي يرغبون الحصول عليها من المصادر الإلكترونية

عبر الإنترنت، كما أنهم يركزون على استخدام البحث بالموضوع كآلية للبحث تليها البحث بالعنوان ثم بالكلمات المفتاحية والمؤلف.

6. يتبين من الجدول رقم 4 أن أكثر أداتين تستخدمهما أفراد العينة لتخزين وحفظ المعلومات بالطريقة غير المتزامنة هما الهارد دسك وتليها الإيميل، كما أنهم يعتمدون على وسيلتهم الشخصية في إتاحة المصادر الإلكترونية للطلاب وهي حساباتهم الإلكترونية.
7. من أهم المواقع التي يستخدمها الأساتذة هي المواقع التعليمية تليها مواقع خدمات الشبكات ثم مواقع نشر المعلومات.
8. توجد فروق ذات دلالة بين متوسط استخدام أفراد العينة لمصادر المعلومات الإلكترونية والوسط الفرضي للمقياس لصالح متوسط العينة، وفي المقابل كانت الفروق لصالح الوسط الفرضي بالنسبة لمعدل استخدام المصادر الإلكترونية في تطوير التعليم الجامعي.
9. يوجد ارتباط طردي ذو قوة متوسطة إلى حد ما بين استخدام الأساتذة لمصادر المعلومات الإلكترونية واتجاههم لتطوير التعليم الجامعي، كما يظهر وجود أثر في اتجاه الأساتذة لتطوير التعليم الجامعي ناتج عن معدل هذا الاستخدام بنسبة 40% تقريباً.

3-7 توصيات الدراسة:

1. بما أن أغلب المشاركين في الدراسة يمثلون الشريحة العمرية المتوسطة والتي تعمل في الجامعة مدة لا تتجاوز 18 سنة فإن الأمر يتطلب وضع برامج تدريبية تتناسب مع هذه الخصائص وأن تركز بشكل كبير على تدريب الأجيال الأقل عمراً لإحداث تحولات في مجال استخدام تقنيات المعلومات الإلكترونية من خلال الاستفادة من الدماء الجديدة سواء في مجال التدريس أو العمل الوظيفي.
2. حيث أن استخدام أعضاء هيئة التدريس في العلوم الإنسانية أكبر منه في العلوم الطبيعية فإن الأمر يتطلب من إدارة الجامعة دراسة هذا الفارق والتعرف على أسبابه وتقديم المعالجات العلمية له خاصة أن مجال العلوم الطبيعية يحتاج بشكل أكبر إلى التعامل مع هذه المصادر الإلكترونية.
3. التركيز على تعليم وتدريب الكوادر الجامعية ليس فقط على إتقان الاستخدام الفردي للتقنية بل لا بد من أن يكون الإتقان الجماعي لهذه التقنيات هو السمة الأكثر شيوعاً.
4. العمل على تجهيز بنية تحتية تقنية قوية من خلال توفير المعامل وشبكات الانترنت وكل ما يستجد من تقنيات حديثة في مجال تقنيات مصادر المعلومات الإلكترونية.
5. ضرورة أن تهتم الجامعة بشكل كبير بإنشاء وتطوير المواقع التعليمية التي

تساعد الكوادر الجامعية في إنجاز أعمالها بكفاءة.

6. أن تنشأ جامعة طبرق مواقع إلكترونية لمستودعاتها الرقمية ومنصاتها التعليمية ومجلاتها الإلكترونية المحكمة، ويتم ربطها بالبريد الإلكتروني لهيأتها التدريسية لتعزيز إنتاجها العلمي ومصادر معلوماتها الإلكترونية.
7. أن تدعم الجامعة عبر مواقعها النشر الإلكتروني لأعمال مؤتمراتها بأقسام كلياتها.
8. أن تربط الجامعة إنتاجها العلمي، ومصادرها الإلكترونية المنشورة إلكترونياً بمواقع المجلات العلمية العربية والعالمية للوصول إلى مراتب متقدمة في التصنيف الوطني، والعربي، والعالمي.
9. يجب أن تعمل الجامعة على وضع البرامج التدريبية التي تركز على تطوير مهارات استخدام التقنيات الحديثة لكوادرها التدريسية والوظيفية.
10. من الضروري أن تعمل الجامعة على النهوض بالبنية التحتية التكنولوجية ومواكبة التطورات المتزايدة في مجال تقنيات مصادر المعلومات الإلكترونية.

قائمة المصادر:

1. النقيب متولي. (2008). مهارات البحث عن المعلومات وإعداد البحوث في البيئة الرقمية.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2008، ص303.
2. أمين شوكت القزعة، و غادة محمد النعيمي. (2008). تكنولوجيا الإنترنت.- عمان: دار البداية، 2008، ص242.
3. تماضر بشير الجاك. (فبراير, 2020). استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية في البحث العلمي من وجهة نظر طلاب الدراسات العليا بجامعة الجزيرة كلية التربية-حنتوب. - جامعة السودان للعلوم والتكونولوجيا، ص51: http://repository.sustech.edu/jspui/bit-stream/123456789/25894/1 .
4. خالد شحاته رزق الله، و مجدي عيسى سليمان. (2021). "واقع تطبيق التعليم الإلكتروني وتحدياتهبجامعة طبرق".- مجلة جامعة طبرق للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع7، (يوليو 2021)، ص ص 31-1: https://jshs.tu.edu.ly/wp-content/uploads.
5. خالد عبدالفتاح. (يوليو, 2004). "محركات البحث في الشبكة العنكبوتية".- مجلة المعلوماتية، ع15، (يوليو2004)، ص ص58-1.
6. خالد محمد رياض. (2001). "دور محركات البحث في نشر الوثائق على الإنترنت". النشر الإلكتروني وتأثيره على مجتمع المكتبات والمعلومات: أبحاث ودراسات المؤتمر العلمي الثاني لمركز بحوث نظم وخدمات المعلومات بالتعاون مع قسم المكتبات والوثائق والمعلومات بكلية الآداب، جامعة القاهرة، 26-25 أكتوبر 1999. .- القاهرة: المكتبة الأكاديمية،2001،ص ص -317 124: https://search.emarefa.net/ar/detail/BIM
7. رامي عبدالعزيز. (2009). أفكار وأسرار الإنترنت.- الاسكندرية: ايجيبت بوكس لنشر وتوزيع الكتب العالمية، 2009، ص 154.
8. عامر قنديلجي، و إيمان السامرائي. (2000). قواعد وشبكات المعلومات المحوسبة في المكتبات ومراكز المعلومات.-عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص323.
9. علي شعبان. (2004). الإنترنت في خطوات: مع أكثر من 600 موقع مصري على الإنترنت.- القاهرة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2004،ص 77.
10. عماد ممدوح عبدالحليم. (،2018). علم المكتبات والمعلومات: الأسس والاتجاهات الحديثة.- الدمام: مكتبة دار المتنبي، 2018، ص390.
11. غادة طه محمد. (2014). "استخدام طلاب الدراسات العليا لمصدر المعلومات التقليدي والإلكترونية بجامعة النيلين".- مجلة الدراسات العليا.- مج 10، ع12،(2014)، ص ص -134 150: http://repository.neelain.edu.sd:8080/xmlui/bitstream/handle.
12. فاتن سعيد بن مفلح. (2006). أساسيات نظم استرجاع المعلومات الإلكترونية.- الرياض: مكتبة الملك فهد، 2006، ص295.
13. مسفرة بنت دخيل الله الخثمي. (2010). "مدى استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية دراسة حالة لأعضاء هيئة التدريس بكلية علوم الحاسب والمعلومات في جامعة محمد بن سعود الاسلامية بمدينة الرياض".- مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية.- مج16، ع1، (يونيو 2010)، ص ص -114 132: https://kfnl.gov.sa/Ar/mediacenter .
14. مها أحمد محمد. (2010). "مصادر المعلومات الإلكترونية: دراسة لإتجاهات الأكاديميين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض نحو إفادتهم من تلك المصادر".- مجلة الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات.- مج 16، ع34،(يوليو 2010)، ص ص46-1: https:// portal.arid.my/Publications/b8010bad-1ef .

15. هنـاء خلـف اللـه فضـل. (2015). مصـادر المعلومـات الإلكترونيـة ودورهـا في خدمـة البحـث العلمـي: دراسـة حالـة المكتبـة الإلكترونيـة جامعـة النيلـين.- جامعـة الجزيـرة - كليـة التربيـة الحصاحيصـا، 2015، (رسـالة ماجسـتير)، ص ص71-1: http://repo.uofg.edu.sd/bitstream/handle/
16. وصـال صبحـي عبدالغفـور. (2015). "اسـتخدام الكتـاب الإلكترونـي في العمليـة التعليميـة: دراسـة مسـحية لأعضـاء هيئـة التدريـس في معهـد الإدارة/ الرصافـة للعـام الـدراسي 2013/2014.- مجلـة كليـة التربيـة.- مـج21، ع8، (30يونيو/حزيـران 2015) ص ص -805 836: https://iasj.net/iasj/download/79c0c63b7e65a2b2.
17. يـارا مدحـت حبـه، اسـماعيل رجـب عثمـان، و عبداللـه هنـدي هنـدي. (2021). أنمـاط إفـادة أعضـاء هيئـة التدريـس ومعاونيهـم بكليـات العلـوم الاجتماعيـة والإنسـانية بجامعـة دميـاط مـن الكتـاب الإلكترونـي..- المجلـة العلميـة لكليـة الاداب.- مـج1،ع10،(2021)، ص ص 47-1:https://artdau.journals.ekb.eg/article .

طرق البحث النوعي في نظرية الترجمة

للباحث : دومينيك جلين فير [1]
ترجمة :
د. الحسين سليم أحمد محسن
أستاذ مشارك بقسم اللغة الإنجليزية- كلية الآداب/ الجامعة الأسمرية الإسلامية

الاستلام : 5. 2. 2023 القبول : 7 .3. 2023

المستخلص

يحلل هذا البحث الأساليب المنهجية Methodological approaches المختلفة التي اعتمدتها المقالات النظرية المنشورة في مجلات دراسات الترجمة Translation Studies. ولحساب مجموعة وجهات النظر، فقد تمت دراسة مجموعة صغيرة من البحوث في ثلاث مجلات مدرجة في كل من فهرس تومسون و رويترز للعلوم الاجتماعية (SSCI Thomson and Reuters Social Sciences Citation Index) و فهرس الإدراجات للآداب والإنسانيات (A&HCI The Arts and Humanities Citation Index). يناقش البحث كيفية اكتساب الأساليب المستخدمة للصرامة Rigour من خلال إضفاء الطابع الرسمي. وهو يبدأ بتعريف نظرية الترجمة Translation Theory قبل تحديد مجموعة من البحوث المراد دراستها. ثم ينتقل إلى وصف ومناقشة أربع منهجيات Methodologies لتقديم توصيات لإجراء بحوث مستقبلية في مجال نظرية الترجمة.

الكلمات الدالة: ترجمة، نظرية، منهجيات، دراسة حالة.

Abstract

This article analyses different methodological approaches adopted by theoretical articles published in translation studies journals. To account for the range of perspectives, a small corpus comprising articles from three journals listed in both the Thomson and Reuters Social Sciences Citation Index (SSCI) and the Arts and Humanities Citation Index (A&HCI) was studied. The article discusses how the methods used could gain in rigor from being formalized. It begins by defining translation theory before outlining a corpus of articles to be studied. It then moves onto describing and discussing four methodologies to provide recommendations for conducting future research in translation theory.

Keywords translation, theory, methodologies, case study, examples

(1) دومينيك جلين Glynn Dominic مؤلف مراسل، بقسم علم اللغة والترجمة، جامعة مدينة هونج كونج، يونج كين مان المدينة الأكاديمي، 83 جادة تات شس، كولوون Kowloon، هونج كونج الإدارية الخاصة، الصين. البريد الإلكتروني: dsglynn@cityu.edu.hk.

مقدمة المترجم Translator's Word:

هـذا البحـث تـم نـشره تحـت عنـوان Qualitative Research Methods in Translation Theory للباحـث دومينيـك جلـين Dominic Glynn ، مـن أسـاتذة قسـم علـم اللغـة والترجمـة بجامعـة مدينـة هونـج كونـج، الصـين City University of Hong Kong وقـد تـم نـشره لأول مـرة عـلى الإنترنـت بتاريـخ 2021.08.18، وتـم نـشره بالعـدد رقـم 3 (2)، السـنة 11، الصـادر بتاريـخ 2021.07.01.

الباحـث المراسـل: دومينيـك جلـين، قسـم اللغويـات والترجمـة، جامعـة مدينـة هونـج كونـج، مبنـى يونـغ كـين مـان الأكاديمـي، 83. شـارع تـات شي كولـون Kowloon، هونـج كونـج، الصـين.

أقـدم للمهتمـين بالترجمـة ومـا يتعلـق بهـا هـذه الترجمـة لهـذا الموضـوع المهـم المتعلـق بنظريـة الترجمـة، لعلـه يقـدم لهـم نافـذة عـلى هـذا الجانـب مـن الموضوعـات. وقـد تـم إدراج بعـض المصطلحـات بالإنجليزيـة في موقعهـا المناسـب وهـو مـا قـد يفيـد المهتمـين والدارسـين.

تمـت ترجمـة الملخـص Abstract الأصـلي بالإنجليزيـة مـع ترجمتـه إلى العربيـة. كمـا أضيفـت بعـض الهوامـش السـفلية للـضرورة. بالنسـبة لقائمـة المراجـع References فقـد تـم وضعهـا كمـا هـي في الأصـل.

(2) https//:journals.sagepub.com/doi10.1177/21582440211040795/
https//:doi.org10.1177/21582440211040795/
https//:creativecommons.org/licenses/by/4.0/

المقدمة Introduction

كيف يكون التفكير في تخصص علمي discipline ما؟ عندما ظهرت دراسات الترجمة كمجال منفصل للبحث العلمي، اعتمد جيمس هولمز James Holmes 1988)) [3]، في بحث مهم، على مايكل مالكاي 1969) Michael Mulkay، ص 136)[4] ليقول إن العلم يتقدم من خلال كشف "مجالات جديدة للجهل ignorance". ومضى في تقديم خريطة مبدئية للبحث لهذا المجال الناشئ، وقسمها إلى فرعين، أحدهما "نظري" والآخر "تطبيقي". بالنسبة لهولمز، فبينما بنى الأول مفاهيم نظرية لتصور ظواهر phenomena الترجمة، اهتم الآخر بتحسين ممارسات الترجمة من خلال وضع مبادئ لتقييم جودة المخرجات. كما أن التعيينات mapping الحديثة للمجال، مثل التي أجراها لوك فان دورسلير Luc van Doors-laer 2007) [5]، تقسم أيضًا البحث وفقًا لمقدار ميله نحو الجانب العملي، أو حسب ما إذا كان يعالج مشكلات متعلقة بالمفاهيم. في كل حالة، هناك تركيز على "النظرية theory" من ناحية، ومن ناحية أخرى، هناك تركيز على "الممارسة / التطبيق practice". إن الفجوة المتصورة بين النظرية والممارسة تجعل من الشائع بين المترجمين المحترفين اعتبار النظرية غامضة (تشيسترمان Chesterman و فاجنر Wagner، 2002؛[6] بوليزوتي [7]Polizzotti، 2018).

في الواقع، لا يوجد شيء مثل "نظرية الترجمة Translation Theory" في حد ذاتها، ولكن هناك نظريات مختلفة للترجمة قد توفر "مجموعة أو مجموعاتٍ منظمة من المبادئ والإجراءات" لإنتاج "ترجمات جيدة" (يوجين و نايدا Eugene & Nida، 2006، ص 7 [8])، أو التي تصف المناهج المعيارية لترجمة الكلام (توري Toury، 2012[9]). وفي حين يركز البعض على الإجراءات المحددة المتعلقة باسترجاع النص بلغة مختلفة (مثل: فرانكو أكسيلا Franco Aixelá، 1996 [10]؛ فينوتي Venuti ، 1995 [11])، فإن آخرين يعتبرون دور النصوص المترجمة ضمن أنظمة عالمية للتبادل

(3) Holmes ,J .(1988) .Translated !Papers on literary translation and translation studies2) nd ed .(.Rodopi.

(4) Mulkay ,M .(1969) .Cultural growth in science .In B .Barnes) Ed ,(.Sociology of science :Selected readings)pp .(141–126 .Penguin Books.

(5) van Doorslaer ,L .(2007) .Risking conceptual maps .Target.233–217 ,(2)19 ,

(6) Chesterman ,A & ,.Wagner ,E .(2002) .Can theory help translators ?A dialogue between the ivory tower and the wordface .Routledge

(7) Polizzotti ,M .(2018) .Sympathy for the traitor .A translation manifesto .MIT Press.

(8) Jin ,D & ,.Nida ,E .A .(2006) .On translation :An expanded edition .City University of Hong Kong Press

(9) Toury ,G .(2012) .Descriptive translation studies—And beyond) Rev .ed .(.John Benjamins.

(10) Franco Aixelá ,J .(1996) .Culture-specific items in translation .In R .Alvarez Rodriguez & M .C .Àfrica Vidal) Eds ,(.Translation ,power ,subversion) pp .(78–52 .Multilingual Matters.

(11) Venuti ,L .(1995) .The translator's invisibility .Routledge.

الثقافي (على سبيل المثال، جلين2021 ، Glynn [12]؛ هيلبرون [13]1999 ،Heilbron). إن وصف كيفية صياغة النظريات أمرٌ أساسيٌ لتحديد نطاق الخيارات الخطابية discourse المتاحة في مجال معين. في حين أن هناك منشورات تسلط الضوء على موضوعات رئيسة (زانيتين وآخرون [14]2015 ،.Zanettin et al) ومنهجيات البحث (سالدانها و أوبريان [15]2013 ،Saldanha & O'Brien) في دراسات الترجمة، كان هناك تحليل بسيط للفرع النظري للمجال على وجه الخصوص.

يسعى البحث التالي إلى معالجة الفجوة المعرفية، أولاً، من خلال تصنيف مجموعة الأساليب المستخدمة، وثانيًا، من خلال تحديد توصيات منهجية لإجراء بحوث نظرية مستقبلية في مجال نظرية الترجمة. تقع دراسات الترجمة على "واجهة" التخصصات الأخرى (دوراتي وزملاؤه 2006 ،.Duarte et al [16])، بما في ذلك الدراسات الأدبية والثقافية والتاريخ وعلم الاجتماع. وبالتالي، فبالإضافة إلى التحدث إلى العلماء المهتمين بالترجمة، فإن البحث يهدف إلى التعليق بعمومية أكثر على الكيفية التي تستخدم بها العلوم الإنسانية والاجتماعية الطرق النوعية qualitative methods "للتفكير" وبالتأكيد في مجال "التنظير".

الطريقة Method

تقدم هذه الدراسة "مراجعةً منهجيةً" (انظر: فيشر وزملاءه ،.Fisher et al 2020 [17]) للمقالات النظرية المنشورة في مجلات دراسات الترجمة Core translation studies الأساسية، مع التركيز على الطرق النوعية التي تستخدمها لبناء المفاهيم ومناقشتها. وعلى نحو متعمد، فإن المراجعة تقتصر على ثلاث مجلات للأسباب المذكورة أدناه.

المحتوى Corpus

تنشر (وجهات نظر - دراسات في نظرية والتطبيقات، ودراسات الترجمة،

(12) Glynn ,D .(2021) .Outline of a theory of non-translation .Across Languages and Cultures.13–1 ,(1)21 , http//:dx.doi.org10.1556/084.2021.00001/

(13) Heilbron ,J .(1999) .Towards a sociology of translation .Book translation as a cultural world-system. European Journal of Social Theory.444–429 ,(4)2 ,

(14) Zanettin ,F ,.Saldanha ,G & ,.Harding ,S-.A .(2015) .Sketching landscapes in translation studies :A bibliographic study .Perspectives .182–161 ,(2)23 ,https//:doi.org/10.1080/0907676x2015.1010551.

(15) Zanettin ,F ,.Saldanha ,G & ,.Harding ,S-.A .(2015) .Sketching landscapes in translation studies :A bibliographic study .Perspectives .182–161 ,(2)23 ,https//:doi.org76 10.1080/09076/x.2015.1010551.

(16) Duarte ,J .F ,.Assis ,R & ,.Seruya ,T) .Eds .(2006). .Translation studies at the interface of disciplines. John Benjamins.

(17) Fisher ,C .R ,.Thompson ,C .D & ,.Brookes ,R .H .(2020) .Gender differences in the Australian undergraduate STEM student experience :A systematic review .Higher Education Research & Development .1168–1155 ,(6)39 ,https//:doi.org10.1080/0729/4360.2020.1721441.

والمترجم) "بحثًا أصيلا ومبتكرًا حول مجموعة متنوعة من القضايا المتعلقة بالترجمة والترجمة الفورية كأفعال تواصل بين الثقافات.". هناك مجلات أخرى لدراسات الترجمة (ميتا Meta، و بابل (Babel، ودراسات الترجمة التحريرية والفورية Translation and Interpreting Studies، على وجه الخصوص التي تحتوي على مناقشات نظرية؛ وهناك أيضًا مقالات لم يتم نشرها في مجلات دراسات الترجمة التي تقوم بذلك. ومع ذلك، فإن المجلات المختارة لهذه المراجعة ذات أهمية خاصة، حيث تجمع بين مناهج العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية.

في الواقع، إن تعددية هذه المجالات التخصصية تفسر سبب ظهورها في كل من مؤشر اقتباس تومسون و رويترز للعلوم الاجتماعية (SSCI) ومؤشر اقتباس الآداب والعلوم الإنسانية (A & HCI). علاوة على ذلك، فإن الثلاثة جميعها لديها نفس الناشر، تايلور وفرانسيس Taylor & Francis، مما يشير إلى مستوى معين من التجانس فيما يتعلق بعملياتها الإدارية وطرق المراجعة والنشر لديها، بما في ذلك حقيقة مفادها أنها تنشر الأبحاث باللغة الإنجليزية فقط (على عكس بابل Babel، على سبيل المثال). والأهم من ذلك، هو أن المواقع الإلكترونية للمجلات تشترك في نفس وظيفة البحث، مما يعني أنه يمكن جمع النتائج بنفس الطريقة.

معايير إدراج البحث واستبعاده Search Inclusion and Exclusion

حيث أن المجلات قيد الدراسة تنشر بحثًا ليس بالضرورة أن يكون مؤسساً نظريًا، فقد تم إجراء بحث عن الكلمة الدالة "نظرية Theory" لتحديد مقالات مناسبة. تم استخدام الوظيفة المخصصة على المواقع الإلكترونية الخاصة بالمجلات للحصول على النتائج. تم تضييق استعمالها بعد التصفح الدقيق للاحتفاظ بالبحوث التي تضمنت عناوينها كلمة "نظرية Theory"، وصيغة الاسم المشتقة من الفعل Gerund، المكون من الفعل مضافا إليه الحروف الدالة على الاستمرار في الفعل في الإنجليزية -ing، بالرسم الأمريكي "تنظير theorizing"، إضافة إلى الرسم البريطاني theorizing)، والصفة "نظري theoretic". في حين هناك بحوث أخرى قد تغطي أيضًا أساسا نظريا theoretical ground، فإن تلك البحوث التي تحتوي على إشارة مرجعية واضحة في عنوانها تشير بوضوح إلى ارتباطها بنظرية الترجمة Translation Theory. تم الاحتفاظ بالبحوث فقط في الاختيار النهائي، بينما تم استبعاد بحوث المراجعة، وكذلك الإعلانات والردود والافتتاحيات. علاوة على ذلك، تم استبعاد بحث يحلل البرنامج التلفزيوني (نظرية الانفجار الكبير The Big Bang Theory)، لكنها لم تكن معنية بنظرية الترجمة على وجه التحديد.

النتائج Findings

بتاريخ 9 يوليو 2021، أسفر البحث عن كلمة "نظرية theory" عن 721 نتيجة بمجلة (وجهات نظر Perspectives)، و 471 نتيجة بمجلة (المترجم The

Translator)، و 363 نتيجة بمجلة (دراسات الترجمة Translation Studies). بعد تطبيق معايير الاستبعاد والإدراج exclusion and inclusion، كانت المجاميع الخاصة بكل مجلة كما يلي: 16 (وجهات نظر)، و 14 (المترجم)، و 8 (دراسات الترجمة). الغالبية العظمى من 38 بحثاً التي تم اختيارها، تحتوي على الكلمة الدالة "نظرية theory" (أو نظريات theories) في عناوينها (33)، بينما تضمنت مقالة واحدة كلمة "نظري theoretic"، وأربعة بها كلمة "تنظير theorising أو theoriz-ing" حسب الرسم الأبجدي البريطاني أو الأمريكي، على التوالي.

تصنيف النتائج Classification of Results

تم تصنيف البحوث المختارة إلى فئات مختلفة حسب الطرق التي تم استخدامها لمناقشة النظرية. وفي حين تولد بعض البحوث مفاهيم نظرية أو وجهات نظر جديدة، (مثل: شان[18]2002 ، Chan؛ جلين و هادلي[19]2021 ، Glynn & Hadley)، بحوث أخرى تستورد نظريات من تخصصات أخرى (على سبيل المثال؛ آلوس2016 ، Alós [20]؛ آتاردو2002 ، Attardo [21] ؛ بوزيلين[22]2005 ، Buzelin) أو من دراسات الترجمة غير ناطقة بالإنجليزية non-Anglophone (مثل؛ يو Yu، 2007 [23]).

ما يزال آخرون يقدمون حالات دراسية لاختبار تطبيق النظريات على سياقات جديدة (مثل ؛ هُو Hu، 2004 [24]). ونتيجة لذلك، تم تبني تقسيم الأنواع Typology التالي للتصنيفات: "جيل generation"، و "استيراد importation" وكلاهما من الخارج ومن مجالات تخصصية فرعية discipline، و "تطبيق application" على حالات دراسية. فيما يلي، يعرض الجدول رقم (1) النتائج المعطاة، مع شرح تسمية كل فئة معينة، بينما تتم مناقشة الأمثلة التوضيحية للبحوث المتوافقة مع كل نوع.

(18) Chan ,T-.H .(2002) .Translating bilinguality .The Translator .72–49 ,(1)8 ,https//:doi.org10.1080/13556509.2002.10799116/

(19) Glynn ,D & ,.Hadley ,J .(2021) .Theorising) un(performability and) un(translatability .Perspectives, .32–20 ,(1)29https//:doi.org10.1080/0907676/X2020.1713827.

(20) Alós ,J .(2016) .Discourse relation recognition in translation :A relevance-theory perspective .Perspectives .217–201 ,(2)24 ,https//:doi.org10.1080/0907676/X2015.1042391.

(21) Attardo ,S .(2002) .Translation and humour .The Translator .194–173 ,(2)8 ,https//:doi.org/1080/13556509.2002.10799131 .10

(22) Buzelin ,H .(2005) .Unexpected allies .The Translator .218–193 ,(2)11 ,https//:doi.org10.1080/13556509.2005.10799198/

(23) Yu ,C .(2007) .On Qian Zhongshu's theory of sublimity .Perspectives .229–214 ,(3)14 ,https//:doi.org10.1080/09076760708669039/

(24) Hu ,K-.t .(2004) .Postcolonial translation theory :A case study .Perspectives .302–286 ,(4)12 ,https//:doi.org10.1080/0907676/X2004.9961508.

مناهج مناقشة النظرية Approaches for Discussing the Theory
يلخص الجدول رقم 1 استخدام ثلاث طرق مختلفة في العينة.

الجدول رقم (1) – الطرق المستعملة في نظرية الترجمة

الفئات	المنظور	المترجم	دراسات الترجمة	المجموع
النوع	3	4	2	9
استيراد (من خارج التخصص)	3	5	3	11
استيراد (من داخل التخصص)	4	2	2	8
التطبيق	6	3	1	10
المجموع	16	14	8	38

تشمل العينة تسع بحوث تولد نظريات جديدة، و 11 بحثا تستورد نظريات من خارج التخصص، وثمانية من داخل التخصص، و 10 تطبيقات لنظريات على حالات دراسية. وكما هو متوقع، فإن كثيرا من البحوث إما أن تستورد نظريات (وقد فعلت ذلك 19 منها، إذا تم احتساب ما تم استيراده من خارج التخصص وداخله معًا)، أو أن تقدم حالات دراسية بدلاً من توليد نظريات جديدة. ومع ذلك، فقد تم تطوير نظريات في مجال دراسات الترجمة، مع بعض التركيز على الجوانب اللغوية بينما تركز أخرى على العناصر الثقافية. توليد نظريات جديدة هو محور القسم التالي.

التوليد Generation

ضمن المدونة Corpus، تدعم عدة بحوث نماذج نظرية جديدة. تلك التي تحتوي على كلمة "تنظير" برسميها البريطاني والأمريكي (theorising أو theoriz-ing) في عنوانها تفعل ذلك صراحة explicitly. وهكذا، فإن جلين و هادلي (Glynn and Hadley، 2021، ص 22 [25]) يقدمان "أول تنظير منهجي لإمكانية قابلية الأداء (أو عدمه) (un)performability" من خلال توضيحها عبر مفهوم "عدم القابلية للترجمة untranslatability"، الذي اكتسب اهتماما كبيرا خلال السنوات الأخيرة في دراسات الترجمة.

تتناول بحوثهم تخصصًا منطقيًا cogent (دراسات الأداء performance studies) لإضافة تعريف لـ "عدم القابلية للترجمة untranslatability" وبناء فهم نظري للترجمة لأجل المرحلة. في مقال آخر، يطور ليو تاك-هونج شان Leo Tak-Hung Chan (2002)[26] نظرية لشرح كيف يمكن ترجمة نصوص ثنائية اللغة bilingual

(25) Glynn ,D & ,.Hadley ,J .(2021) .Theorising) un(performability and) un(translatability .Perspectives, .32–20 ,(1)29https//:doi.org10.1080/0907676/X2020.1713827.

(26) Chan ,T-.H .(2002) .Translating bilinguality .The Translator .72–49 ,(1)8 ,https//:doi.org.10/1080/13556509.2002.10799116

ومتعددة اللغات multilingual. يستخدم شان Chan (2002، ص 52) [27] أمثلة تاريخية عن كيفية استرجاع rendering النصوص الفرنسية والروسية التي استخدمها تولستوي في رواية (الحرب والسلام Peace and War)، باللغة الصينية Chinese، قبل تحديد الاستراتيجيات المختلفة لترجمة نصوص أخرى متعددة اللغات، من الترجمة الحرفية literal translation (ص 63) إلى الترجمة ثنائية اللغة dou-ble-voiced language (ص 64).

ومثال ثالث عن مقال يطور نظرية جديدة، هو مقال سوزان لاوشير Su-zanne Lauscher (2000)[28] بعنوان "تقييم جودة الترجمة: أين يمكن أن تتقابل النظرية بالتطبيق". تتطلع لاوشير إلى سد الفجوة بين التطبيق والنظرية في مجال تقييم الجودة. تبدأ لاوشير[29] (2000، ص ص 158-151) بمراجعة الأطر الحالية لتقييم أعمال الترجمة، كالتكافؤ equivalence والأساليب الوظيفية functional ap-proaches. ثم تمضي في اقتراح إطارها النظري الخاص، الذي يعتمد على تحليل حالة الترجمة، والظروف التي تم فيها التكليف بترجمة معينة.

صنف هولمز Holmes (1988)[30]، ص ص 76-73) نظريات الترجمة إلى أنواع مختلفة: "نظريات عامة general theories"، تحاول وضع قوانين لجميع أصناف الترجمة، و "نظريات جزئية partial theories" تفسر أنواعًا محددة من الترجمة. قد يتم تقييد النوع الأخير من حيث "الوسط" medium (الإنسان أو الآلة hu-man or machine)، أو "المجال" (الثنائي اللغويlanguage pairings)، أو "الرتبة" rank (كلمة أو نص)، أو "نوع النص" text type (إعلامي أو أدبي informative or liter-ary)، أو "الوقت" Time (معاصر أو قديم contemporary or ancient)، أو "المشكلة" (التكافؤ أو الخصوصية الثقافية equivalence or cultural specificity). في الحالات المذكورة أعلاه، تقدم المقالات نظريات جزئية. في حقيقة الأمر، فإن المقالة، تتعلق بالترجمة لأجل الأداء translating for performance، في حين أن شان Chan ينظّر في ترجمة نوع معين من النص الأدبي.

ومع ذلك، فَهُما، في كلتا الحالتين، يقدمان مجموعة من الأمثلة المرتبطة بمواقف مختلفة. وذلك لأن المفاهيم النظرية الجديدة يُقصد بها أن تكون قابلة للتطبيق على سياقات مختلفة، إن لم تكن كلها، ضمن قيود أنواع النص (الدرامي dramatic ومتعدد اللغات multilingual، على التوالي). ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن الأساس المنطقي لاختيار الأمثلة لا يتم توضيحه دائمًا، باستثناء

(27) Chan ,T-.H .(2002) .Translating bilinguality .The Translator .72–49 ,(1)8 ,https//:doi.org/10.1080/13556509.2002.10799116

(28) Lauscher ,S .(2000) .Translation quality assessment .The Translator .168–149 ,(2)6 ,https//:doi.org1/0.1080/13556509.2000.10799063

(29) Lauscher ,S .(2000) .Translation quality assessment .The Translator .168–149 ,(2)6 ,https//:doi.org1/0.1080/13556509.2000.10799063

(30) Holmes ,J .(1988) .Translated !Papers on literary translation and translation studies2) nd ed .(.Rodopi.

أنهـا تعمـل عـلى توضيـح الحُجَّـة. تتبنـى لاوشـير Lauscher نهجًـا مختلفًـا إلى حـد مـا. بعـد مراجعـة مناهـج تقييـم جـودة الترجمـة translation quality assessment، تقـدم حالـة دراسـية، تمـت فيهـا صياغـة موقـف نظـري جديـد. عـلى هـذا النحـو، يختلـف هـذا بشـكل كبـير عـن اسـتخدام حـالات دراسـية لأجـل تطبيـق قـراءة نظريـة، أو لاختبـار نظريـة، كمـا هـو موضـح في قسـم "التطبيـق".

الاستـــــــيراد Importation

بالإضافـة إلى إنشـاء مجموعاتهـا الخاصـة مـن النظريـات والمنهجيـات، فـإن التخصصـات الأكاديميـة academic disciplines "تسـتعير borrow" أو تدمـج incorporate مفاهيـم نظريـة مـن مجـالات أخـرى للمعرفـة. يصـف إدوارد سـعيد Edward Said (1983) [31] العمليـة، التـي تنتقـل بهـا نظريـة مـا، مـن حيـث الرحلـة التـي تخضـع خلالهـا لتغـيرات متعـددة وإعـادة تفسـير وتطـورات. هـذا صحيـح فيمـا يتعلـق بدراسـات الترجمـة، التـي سـعت إلى "اسـتيراد" نظريـات نشـأت في تخصصـات أخـرى لاستكشـاف كيـف يمكـن أن تكـون متصلـة بوصـف ممارسـات الترجمـة translation practices. كمـا أن النظـام الـدولي international discipline لدراسـات الترجمـة، والـذي مـن أجلـه تعتـبر الإنجليزيـة هـي اللغـة الرئيسـة للمنشـورات العلميـة scientific publications، يسـتورد نظريـات مطـورة developed theories في سـياقات غـير ناطقـة بالإنجليزيـة non-Anglophone contexts. وعـلى هـذا النحـو، مـن الممكـن تصنيـف "الاقـتراض" أو "الاسـتيراد" للنظريـات في فئتـين فرعيتـين: واحـدة تشـمل تلـك المسـتوردة مـن خـارج التخصـص، والأخـرى تشـمل تلـك التـي تـم تطويرهـا داخـل التخصـص.

9.1 الاستيراد من خارج التخصص Importation from Outside the Discipline

في السـنوات الأخـيرة، كان هنـاك "تحـول اجتماعـي sociological turn" في دراسـات الترجمـة. لقـد نظـر العديـد مـن العلمـاء إلى الأسـاليب والنظريـات التـي تـم تطويرهـا في علـم الاجتمـاع sociology لتعزيـز مناهـج دراسـة الترجمـة approaches to studying translation كعمليـة. لذلـك ليـس مـن المسـتغرب أن تتضمـن كثـيرٌ مـن المقـالات داخـل المجموعـة corpus نظريـات من العلوم الاجتماعيـة social sciences. على سـبيل المثال، قام جين-مـارك جوانفيـك Jean-Marc Gouanvic (2005) [32] بتقييـم قابليـة تطبيـق المفاهيم النظريـة لبيـير بورديـو Pierre Bourdieu لكل من "المجـال field" و "رأس المـال capital" و "الخـداع illusion" لتحليـل الترجمـات. كان جوانفيـك Gouanvic مـن بـين الأوائـل الذيـن تطلعـوا إلى علـم الاجتمـاع لتقديـم دراسـات الترجمـة مـع فهـم الترجمـة كظاهرة اجتماعيـة social phenomenon. وقـد أعطـى هـذا وزنـا أكـبر للفهـم الحـالي للترجمـة

(31) Said ,E .W .(1983) .The word ,the text ,the critic .Harvard University Press.

(32) Gouanvic ,J-.M .(2005) .A Bourdieusian theory of translation ,or the coincidence of practical instances .The Translator .166–147 ,(2)11 ,https//:doi.org.10.1080/13556509/2005.10799196

لكونها محكومة بالسلوك المعياري (تشيسترمان Chesterman، 1997)[33]. وركز الاهتمام بشكل خاص على ما فعله المترجمون، وهو ما أدى بدوره إلى تطوير مجموعة فرعية من دراسات الترجمة والتي أطلق عليها أندرو تشيسترمان An-drew Chesterman) 2017)[34] "دراسات المترجم translator studies".

تطبق مقالات أخرى في المجموعة corpus ، أيضًا، نظريات من العلوم الاجتماعية لشرح الترجمة. في الواقع، من الجدير بالملاحظة أنه بينما تميل دراسات الحالة case studies إلى استخدام النظريات الأدبية لتحليل موضوعاتها البحثية، فإن تلك المقالات الموجودة في المجموعة التي تطبق النظريات على سياقات جديدة تتجه على نحو كبير predominantly إلى العلوم الاجتماعية social sciences. وقد يكون هذا بسبب التحول في التخصص بعيدًا عن الأدب المقارن إلى فهم أوسع للترجمة لا يتعلق بالضرورة بالأعمال الأدبية.

ومع ذلك، فإن الاستثناء الملحوظ هو مقالة باناجيوتيس ساكيلاريو2015) Panagiotis Sakellariou)[35] حول "تخصيص مفهوم التناص intertextuality لأغراض نظرية الترجمة intertextuali-ty for translation-theoretic purposes". يصف ساكيلاريو (2015، ص 35)[36] على وجه التحديد آليات "تخصيص مفهوم أساسي من تخصص مختلف". وهو يعتبر كيف أن "التناص"، الذي وضع نظريته لأول مرة مجموعة نظرية الأدب the Tel Quel literary theory group في فرنسا، "يبدو دائمًا متشابكًا مع مفهوم معين للنصية" (ص 40). من بين جميع مقالات المجموعة، فإن مقالة ساكيلاريو Sakellariou هي التي تتناول التفاصيل الكبرى حول كيفية تكيف النظريات مع الإعدادات الجديدة.

على العكس من ساكيلاريو Sakellariou، يتطلع جونجانج سانج Zhonggang Sang (2011)[37] إلى العلوم الاجتماعية لتكييف نظرية النشاط لتحسين أصول التدريس في الترجمة. يجادل سانغ Sang بأن تلك النظرية يمكنها توفير أساس قوي لتعزيز تدريس الترجمة بشكل أفضل. تقدم المقالة (سانج Sang، 2011، ص

(33) Chesterman ,A .(1997) .Memes of translation :The spread of ideas in translation theory .John Benjamins.

(34) Chesterman ,A .(2017) .The name and nature of translator studies .Hermes—Jour-nal of Language and Communication in Business .22–13 ,(42)22 ,https//:doi.org/10.7146/hjlcb.v22i42.96844

(35) Sakellariou ,P .(2015) .The appropriation of the concept of inter textuality for transla-tion-theoretic purposes .Translation Studies .47–35 ,(1)8 ,https//:doi.org.10.1080/14781700/2014.943677

(36) Sakellariou ,P .(2015) .The appropriation of the concept of inter textuality for transla-tion-theoretic purposes .Translation Studies .47–35 ,(1)8 ,https//:doi.org.10.1080/14781700/2014.943677

(37) Sang ,Z .(2011) .An activity theory approach to translation for a pedagogical purpose .Perspectives, .306–291 ,(4)19https//:doi.org10.1080/0907676/X2011.590591.

ص 295-292) [38] عرضا مفصلا لنظرية النشاط قبل مناقشة تطبيقها لتأطير ممارسة الترجمة. يُنظر إلى الترجمة على أنها نظام من قواعد هرمية (ص 300) تحكم عمليات صنع القرار المتعلقة بتبني إجراءات محددة. وحيث أن التركيز ينصب على تدريس الترجمة، فإن المقالة تسلط الضوء على الطرق التي يمكن للطلاب من خلالها تعلم أن الترجمة جزء من عملية أكبر تشمل نشاطات أكثر من إعادة كتابة نص بلغة أخرى ولكنها تتضمن مناقشات مع المفوضين -com missioners وتقييم الجودة، وهكذا.

تتضمن مقالات أخرى في المجموعة والتي تستورد نظريات من العلوم الاجتماعية استخدام سيرجي تيولينيف 2009) Sergey Tyulenev) [39] لنظرية نيكلاس لومان Niklas Luhmann الاجتماعية. يؤسس تيولينيف 2009) Tyulenev، ص 150) [40] ثلاثة نماذج paradigms يمكن أن تصف الترجمة. ثم يسلط الضوء على الأبحاث الموجودة في التخصص الذي يتبعه، مثل عملية وضع مفاهيم للترجمة conceptualization of translation، مما يجعل لومان يؤطر هذا البحث. وكما فعل سانغ، يوضح تيولينيف كيف لنظرية مستوردة أن تغير فهم الترجمة، أو بشكل أكثر تحديدًا في حالته، لأبحاث الترجمة.

تم تقديم متغير طفيف حول الموضوع بواسطة هيلين بوزلين Hélène Buzelin 2005)) [41]، التي بدلًا من أن تثبت كيف يمكن لنظرية خارجية أن تفيد دراسات الترجمة، تؤكد كيف يمكن للتخصص نفسه أن يساهم في إعادة النظر في تلك النظرية. تجادل بوزلين بأن أعمال بيير بورديو Pierre Bourdieu وبرونو لاتور Bruno Latour، والتي تعتبر متناقضة antinomic في علم الاجتماع sociology، يمكن التوفيق بينها في دراسات الترجمة. في الواقع، تجادل 2005) Buzelin، ص 214) [42] بأن نظرية شبكة الممثلين لاتور Latour's actor network theory يمكن أن تساعد في تحديد عمليات الترجمة بالاقتران مع تحليل بورديو للبيئة الاجتماعية-social en vironment للترجمة. هذا يسمح بعد ذلك بإعادة تقييم عدم التوافق -non-com patibility المفترض للنماذج النظرية theoretical models.

(38) Sang ,Z .(2011) .An activity theory approach to translation for a pedagogical purpose .Perspectives, .306–291 ,(4)19https//:doi.org10.1080/0907676/X2011.590591.

(39) Tyulenev ,S .(2009) .Why) not (Luhmann ?On the applicability of social systems the-ory to translation studies .Translation Studies .162–147 ,(2)2 ,https//:doi.org/10.1080/ .14781700902937706

(40) Tyulenev ,S .(2009) .Why) not (Luhmann ?On the applicability of social systems theo-ry to translation studies .Translation Studies .162–147 ,(2)2 ,https//:doi.org10.1080/14781/ 700902937706.

(41) Buzelin ,H .(2005) .Unexpected allies .The Translator .218–193 ,(2)11 ,https//:doi.org.10/ .1080/13556509.2005.10799198

(42) Buzelin ,H .(2005) .Unexpected allies .The Translator .218–193 ,(2)11 ,https//:doi.org.10/ .1080/13556509.2005.10799198

يذهب جيريمي موندای 2004) Jeremy Munday) [43]، وكذلك في المجموعة corpus، إلى أبعد من ذلك. فبدلاً من استيراد نظرية من تخصص آخر لشرح الترجمة، فإنه يقوم بتصدير نظرية الترجمةtranslation theory للتعليق على التسويق والإعلان marketing and advertising . في الوقت الذي نُشر فيه المقال، كان هناك القليل من البحوث التي تناولت الإعلان والترجمة advertising and translation، بالنظر إلى أنه في الدراسات التسويقية marketing studies لم يتم إيلاء اهتمام كبير لـ "ترجمة نسخة مكتوبة" (موندای 2004 ،Munday، ص 200) [44]. يحلل موندای (ص 204) أهمية النظريات الشهيرة في دراسات الترجمة، مثل فكرة يوجين نيدا Eugene Nida عن التكافؤ الديناميكي dynamic equivalence، والتي تشرح كيفية تقديم الرسالة message بطريقة مفهومة من قبل الجمهور المستهدف target audience، لوصف تطور حملات الإعلان advertising campaigns التي تستخدم مراجع محلية لجذب الأسواق المستهدفة target markets.

الاستيراد من داخل التخصص Importation from Within the Discipline

داخل المجموعة Corpus، تتناول العديد من المقالات، سواء التي تدرس كيف تمت ترجمة هذه النظريات والمفاهيم الشهيرة إلى السياقات غير الناطقة بالإنجليزية، أو النظريات الحالية المعروفة في بيئة ثقافية معينة ولكنها غير معروفة نسبيًا في دراسات الترجمة الإنجليزية. يقوم كل مِنْ لي شين Li Xin 2010))[45] و ماسييج ليتوين 2021) Maciej Litwin)[46] و يانجشينج جو -Yang sheng Guo 2009) [47]. يرسم لي شين تطور نظرية الترجمة المعروفة في سياق غير مألوف، ويحلل استقبال مفاهيم يوجين نيدا Nidaللتكافؤ في الصين. من خلال تقديم استقبال نيدا في الصين من منظور تاريخي، يستطيع لي مناقشة النظرية بشيء من التفصيل وإبراز كيف تحداها العلماء الصينيون. يستكشف ماسييج ليتوين Maciej Litwin مفهوم "energija" (الطاقة) كما تم الكشف عنه في تعليق جانوسويسك Januszowsk لترجمته اللاتينية - البولندية لـ (باسل بيساريون) Basil Bessarion. من ناحية أخرى، يعلق يانجشنج جو 2009) Yangsheng Guo) على الكيفية التي تؤدي بها الاختلافات الدلالية بين مصطلح جينجي "zhengzhi"

(43) Munday ,J .(2004) .Advertising :Some challenges to translation theory .The Translator.219–199 ,(2)10 , https//:doi.org.10.1080/13556509.2004.10799177/

(44) Munday ,J .(2004) .Advertising :Some challenges to translation theory .The Translator.219–199 ,(2)10 , https//:doi.org.10.1080/13556509.2004.10799177/

(45) Li ,X .(2010) .E.A .Nida's translation theory in China .(2000–1980) Perspectives.295–287 ,(4)18 , https//:doi.org10.1080/0907676/X.2010.490302.

(46) Litwin ,M .(2021) .An" energy "of translation theory .Translation Studies .83–66 ,(1)14 ,https//:doi.org.0.1080/14781700.2020.1826353/

(47) Guo ,Y .(2009) .Theorizing the politics of translation in a global era .The Translator.259–239 ,(2)15 , https//:doi.org.10.1080/13556509.2009.10799280/

في اللغة الصينية و Politics في اللغة الإنجليزية[48] إلى فهم مختلف لما قد تعنيه سياسة الترجمة. والغرض من ذلك هو التأكيد على كيفية اكتساب المصطلحات معنى جديدًا عندما تهاجر.

مثال آخر على هذا النوع من النهج هو تعليق يو شينجفا Yu Chengfa 2007)) [49] على نظرية كيان جونجشو Qian Zhongshu للترجمة. يجادل يو Yu 2007)، ص 214) [50] بأن عمل كيان Qian مشهود له في الصين، ومع ذلك، فإن المقالة تقدم نظرياته لجمهور لا يتحدث الصينية. للقيام بذلك، يقارن يو Yu المفاهيم التي ناقشها كْيان Qian بالنظريات الأكثر دراية بقراء دراسات الترجمة الإنجليزية. وعلى سبيل المثال، فإنه (Yu، ص ص 216 - 217) يسلط الضوء على كيفية وصف كيان Qian لاتجاهين محتملين في الترجمة: "أَوْرَبَة Europeanisation " (المترجم: أي إضفاء النمط الأوروبي) أو "تأنيب sinization". الافتراض الأساسي هو أن النصوص ستُترجم من المصادر الأوروبية بدلاً من اللغات الآسيوية الأخرى، مثلاً. ومع ذلك، يربط يو Yu هذه المفاهيم بمفاهيم الاغتراب والتدجين foreigni- zation and domestication، والتي يتم فهمها بشكل عام بحسب رؤية لورانس فينوتي 1995) Lawrence Venuti) [51] عن اختفاء المترجم The Translator's Invis- ibility.

ثم ينتقل بعد ذلك للنظر في فكرتين أخريين تم استكشافهما في عمل Qian: التحريف Yu (misrepresentation، ص 217 - 220) و "وظيفة function" الترجمة (ص 221 - 222). وهذه الأخيرة على وجه الخصوص فكرة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمدرسة الترجمة الوظيفية functionalist school of transla- tion في السبعينيات (انظر، على سبيل المثال: رايس و فيرمر ، Reiss & Vermeer 2013)[52]، ولكن المثير للاهتمام، أنَّ يو Yu لا يقدم إشارة أو تلميحًا مباشرًا إلى هذه المدرسة. ولا تتعلق مناقشة التحريف بالمناقشات الأخرى لتقييم جودة الترجمةquality assessment . لذلك يوضح يو، في تعليقه، كيفية ارتباط نظرية تشيان تشينغشو في الترجمة بالآخرين المعروفين بشكل أفضل في دراسات الترجمة الإنجليزيةanglophone translation studies ، بالرغم من أنه كان بإمكانه التعمق أكثر في المقارنات. كما أنه يقدم مجموعة جديدة من المفاهيم التي يمكن أن يستخدمها المنظرون أو محللو الترجمة غير الناطقين بالصينية non-Chinese.

(48). المصطلحان zhengzhi في الصينية و Politics في الإنجليزية يعنيان: السياسة. (المترجم)

(49) Yu ,C .(2007) .On Qian Zhongshu's theory of sublimity .Perspectives .229–214 ,(3)14 ,https//:doi. org.10.1080/09076760708669039/

(50) Yu ,C .(2007) .On Qian Zhongshu's theory of sublimity .Perspectives .229–214 ,(3)14 ,https//:doi. org.10.1080/09076760708669039/

(51) Venuti ,L .(1995) .The translator's invisibility .Routledge.

(52) Reiss ,K & ,.Vermeer ,H .J .(2013) .Towards a general theory of translational action :Skopos theory ex- plained .St .Jerome Publishing.

يتبنى زايكسي تان (Zaixi Tan 2009)[53] منظورًا perspective مختلفًا من خلال لفت انتباه القراء readership إلى مناقشة "الطابع الصيني Chinese-ness" لنظريات الترجمة في الصين. توفر مثل هذه النقاشات debates، لقراء دراسات الترجمة الناطقة بالإنجليزية، منظورًا مختلفًا حول مفهوم نظريات الترجمة العرقية ethnocentric translation theories. على هذا النحو، يستكشف المقال كيف ينظر المرء إلى تقاليد traditions سياق معين مقابل تقاليد الآخرين (تان Tan، 2009، ص 287)[54]. يعد تحليل الخطاب حول الترجمة أمرًا أساسيًا لفهم ممارستها. كما هو الحال في التخصصات الأخرى، كالاتصال communi-cation، على سبيل المثال، يعد تحليل السياق أمرًا أساسيًا لفهم الممارسة في حد ذاتها.

توضح المقالات الموجودة في المجموعة أن هناك "استيراد importation" للنظريات من التخصصات الأخرى لتطوير وتوسيع الجهاز النظري لدراسات الترجمة the theoretical apparatus of translation studies. هناك أيضًا "تصدير exportation" للنظريات التي تم تطويرها داخل التخصص إلى مجالات أخرى من البحث inquiry. يمكن القول أنه من أجل قياس تأثير impact دراسات الترجمة على التخصصات الأخرى بشكل أفضل، سيكون من الضروري النظر في المقالات المنشورة في المجلات الرائدة في هذه التخصصات التي تستفيد من نظريات الترجمة. إن الاهتمام in-terest بتطبيق النظريات على السياقات الجديدة هو تسليط الضوء على كيفية تطوير فهم جديد لمفهوم ما أو كيفية قراءتها بأنفسهم بشكل مختلف من خلال منظور تخصص آخر. بهذه الطريقة، هناك الكثير من القواسم المشتركة مع طريقة "التطبيق" application" method"، التي تدرس النظريات المتعلقة بحالات معينة.

التطبيق

وفقًا لبحث نشره شبنم سوسام سراجيفا Şebnem Susam-Saraje-va، 2009، ص 37) [55]، فإن دراسة الحالة هي واحدة من أكثر طرق البحث شيوعًا في دراسات الترجمة (يتضح هذا في العينة)، والطريقة الوحيدة الأكثر شيوعًا التي يستخدمها طلاب الدكتوراه doctoral students في أبحاثهم. يُنظر إلى "الحالة case" من منظور دراسات الترجمة على أنها تعني "وحدة ترجمة

(53) Tan ,Z .(2009) .The" Chineseness "vs" non-Chineseness "of Chinese translation theo-ry :An ethnoconvergent perspective .The Translator .304–283 ,(2)15 ,https//:doi.org/10.1080/ .13556509.2009.10799282

(54) Tan ,Z .(2009) .The" Chineseness "vs" non-Chineseness "of Chinese translation theo-ry :An ethnoconvergent perspective .The Translator .304–283 ,(2)15 ,https//:doi.org/10.1080/ .13556509.2009.10799282

(55) Susam-Sarajeva ,ş .(2009) .The case study research method in translation studies .The Interpreter and Translator Trainer.56–37 ,(1)3 ,

unit of translation أو تفسير نشاط ذي صلة، أو منتج، أو شخص، وما إلى ذلك في الحياة الواقعية، والتي لا يمكن دراستها أو فهمها إلا في السياق الذي يتم تضمينها فيه "(سوسام سراجيفا، 2009، ص 40) [56]. يشير "السياق context" في الترجمة إلى "الثقافة الهدف target culture" التي يُترجم إليها "النص المصدر source text". هناك العديد من نظريات الترجمة (هيلبرون Heilbron، 1999 [57]؛ ليفيفر Lefevere، 1992 [58]) التي تشرح بمصطلحات عامة كيفية اختيار الأعمال لتتم ترجمتها. على أي حال، فإن كل "سياق" مختلف والمبادئ العامة ذات صلة إلى حد ما لشرح كيفية إنجاز الترجمة.

ضمن مجموعة المواد corpus، تستخدم العديد من المقالات طريقة دراسة الحالة study method لتطبيق نظرية على سياق جديد. على سبيل المثال، يفحص هو كونج - تسي Hu Kung-Tze's 2004) [59] ترجمة الأعمال التقليدية الصينية للمترجم الألماني في أوائل القرن العشرين ريتشارد فيلهلم Richard Wilhelm في "نظرية الترجمة بعد الاستعمار Post-colonial translation theory : دراسة حالة". هو Hu 2004، ص 286) [60] يشرع في تقييم ما أطلق عليه المؤلف "إعادة ترجمة re-translations" فيلهلمWilhelm ، بما في ذلك كونفوشيوس Confucius ولاوزي (داو دي جينغ Laozi (Dao de Jing). وللقيام بذلك، يستخدم هُو Hu نظرية آندريه ليفيفر André Lefevere 1992) [61] للترجمة كعملية إعادة كتابة. يصنف هُو ترجمات فيلهلم على أنها "إعادة ترجمة" لأنها ليست الترجمات الألمانية الأولى لهذه الأعمال. ليس مستغربا أن يشير Hu إلى عمل ليفيفر Lefevere لأنه مرجع في دراسات الترجمة (انظر، على سبيل المثال: شانج Chang ، 2015 [62]). ومع ذلك، فإن الغريب بعض الشيء هو حقيقة أن ليفيفر Lefevere لا يُنظر إليه عمومًا على أنه مُنظِّر لمرحلة ما بعد الاستعمار postcolonial theorist، على الرغم من أن عمله يدرس كيفية اعتبار الترجمة ممارسة متأصلة ثقافيًا-translation is a cul turally embedded practice . ربما كان العنوان الأكثر ملاءمة، وإن كان أقل حدة،

(56)Susam-Sarajeva ,Ş .(2009) .The case study research method in translation studies .The Interpreter and Translator Trainer.56–37 ,(1)3 ,

(57) Heilbron ,J .(1999) .Towards a sociology of translation .Book translation as a cultural world-system. European Journal of Social Theory.444–429 ,(4)2 ,

(58) Lefevere ,A .(1992) .Translation ,rewriting ,and the manipulation of literary fame .Routledge.

(59) Hu ,K-.t .(2004) .Postcolonial translation theory :A case study .Perspectives .302–286 ,(4)12 ,https//: doi.org10.1080/0907676/X. 2004.9961508.

(60) Hu ,K-.t .(2004) .Postcolonial translation theory :A case study .Perspectives .302–286 ,(4)12 ,https//: doi.org10.1080/0907676/X.2004.9961508.

(61) Lefevere ,A .(1992) .Translation ,rewriting ,and the manipulation of literary fame .Routledge.

(62) Chang ,N .F .(2015) .Does" translation "reflect a narrower concept than" fanyi "?On the impact of Western theories on China and the concern about Eurocentrism .Translation and Interpreting Studies,(2)10 , .242–223

هـو "الترجمـة والدراسـات الثقافيـة: دراسـة حالـة". كمـا هـو الحـال، يشـير العنـوان إلى تفسـير فضفـاض لـ "مـا بعـد الاسـتعمار"، عـلى الرغـم مـن أن هُـو Hu (2004) 288-290 [63]) يناقـش تاريـخ اسـتعمار الصـينChina's colonization مـن قبـل القـوى الأوروبيـة European powers. وتجـدر الإشـارة، مـع ذلـك، إلى أن المقـال نُـشر في مجلـة Perspectives منـذ أكثـر مـن 15 عامًـا، عندمـا لـم تكـن المجلـة تتمتـع بنفـس المكانـة stature التـي تتمتـع بهـا اليـوم.

مقـال آخـر، كتبـه زاو هـوان (Zhao Huan 2021)[64]، يتبنـى أيضًـا منهجيـة دراسـة الحالـة لدراسـة نقـل نظريـة معينـة إلى الصـين في عشرينيـات القـرن المـاضي. كمـا أنهـا تسـتخدم عدسـة مـا بعـد الاسـتعمار the postcolonial lens، لمسـاءلة إدوارد سـعيد. في حـين أنـه يفعـل ذلـك، بمزيـد مـن التمييـزdiscernment أكثـر ممـا فعلـه المقـال الـذي كتبـه هُـو Hu، إلا أن زاو Zhao لا يعتمـد كثـيرًا عـلى سـعيد لأن النظريـة توفـر فقـط إطـارًا عامًـا. والمثـال الثالـث لمنهجيـة دراسـة الحالـة مـن الكتـاب هـو دراسـة كاثريـن باتشـلور (Katherine Batchelor's 2015) [65] "دراسـة للتكـرار في كتـاب أحمـادو كوروما Amadou Kourouma [66] (إن اللـه لا ينـسى Allah n'est pas obligé). تفحـص باتشـلور النـص وترجماتـه إلى الإنجليزيـة والألمانيـة مـن خـلال عدسـة نظريـة الصدمـة trauma theory. وهـي تقـدم هـذه النظريـة (2015، ص 193-194) [67]، مسـلطة الضوء عـلى حقيقـة أنهـا تتبـع فهـم جوديـث هيرمـان (Judith Herman 1992/2001)[68] للصدمـة التـي تنشـأ في حـدث معـين بـدلاً مـن اسـتجابة الضحيـة victim لهـذا الحـدث. ثـم اعتـبرت "طبيعـة الأحـداث المسـرودة نفسـها وطـرح السـرد كشـهادة testimony" (ص 194)، قبـل تحليـل اسـتراتيجيات التكـرار في الروايـة كطريقـة لترجمـة الصدمـة إلى مخطـط سردي narrative schemata ص 196 - 198). وكمـا هـو الحـال مـع هيـو Hu، فـإن قيمـة دراسـتها مسـتمدة مـن المكانـة والاعـتراف بموضوعهـا. إن كوروما Kourouma ليسـت مرجعيـة معروفـة عالميًـا مثـل لاوزي Laozi و كونفشـيوس -Confu

(63) Hu ,K-.t .(2004) .Postcolonial translation theory :A case study .Perspectives .302–286 ,(4)12 ,https//: doi.org10.1080/0907676/X.2004.9961508.

(64) Zhao ,H .(2021) .Interpreting for Tagore in1920 s China :A study from the perspective of Said's traveling theory .Perspectives .468–454 ,29 ,https//:doi.org10.1080/0907676/X. .2021.1872661

(65) Batchelor ,K .(2015) .Orality ,trauma theory and interlingual translation :A study of repetition in Ahmadou Kourouma's Allah n'est pas obligé .Translation Studies .208–191 ,(2)8 ,https//:doi.org10.1080/1/ .4781700.2014.1001777

(66) أحمادو كوروما (أمادو كوروما) Kourouma Amadou مؤلف من ساحل العاج. (المترجم)

(67) Batchelor ,K .(2015) .Orality ,trauma theory and interlingual translation :A study of repetition in Ahmadou Kourouma's Allah n'est pas obligé .Translation Studies .208–191 ,(2)8 ,https//:doi.org10.1080/1/ .4781700.2014.1001777

(68)Herman ,J .L .(2001) .Trauma and recovery :The aftermath of violence—From domestic abuse to political terror .Pandora) .Original work published.(1992

cius، ولكنها مع ذلك تحظى بمكانة كبيرة في الدراسات الفرانكوفونية Franco-phone studies المعاصرة. تبعًا لسلالة أبحاث الأدب المقارن comparative literature research، تستخدم كلتا المقالتين نظريات محددة لإلقاء ضوء جديد على دراسات الحالة الخاصة بهما. وبذلك، فهي تختبر قابلية تطبيق النظريات على السياقات الجديدة، حيث تقدم كل "حالة" مجموعة مختلفة من الأسئلة.

المناقشة

كل تخصص discipline له ميزاته وطرقه الخاصة لبناء مفاهيم نظرية جديدة واستجواب المفاهيم notions المطورة في التخصصات الأخرى. في ما سبق، تقدم المناهج-ap proaches مجموعةً من المزايا والعيوب. على سبيل المثال، يعتبر نهج دراسة الحالة مفيدًا لأنه يوفر تحليلًا مفصلاً للغاية لحالة أو مثال أو سياق معين. وبالتالي يمكن أن يؤدي إلى فهم أكثر تفصيلاً لموضوع معين من الدراسة. ومع ذلك، وكما أكد مارك بوليزوتي Mark Poli-zotti 2018) [69] المناهض للنظرية، فإن كل حالة فريدة من نوعها، والدروس المستفادة من تحليل مجموعة معينة من الظروف circumstances قد لا تكون قابلة للتحويل إلى الآخرين. المشكلة الأخرى هي أنه، كما جادلت سوسام - ساراييفا 2009) Susam-Sarajeva، ص 41) [70]، نادرًا ما تُدرس دراسات الحالة كحالات بل كأمثلة لتوضيح أو تمثيل قاعدة عامة general rule. هذا مصدر قلق concern أكبر من المشكلة الأولى. في الواقع، حقيقة أن الدروس المستفادة lessons learned من بيئة setting ما لا تنتقل بالضرورة إلى سياق مختلف لا تبطل أسباب إجراء البحث في المقام الأول. ومع ذلك، يجب تجنب استخدام دراسات الحالة تحت ذرائع كاذبة false pretenses. يُقترح أن تحدد كل مقالة تستخدم نهج دراسة الحالة أسبابها للقيام بذلك بشكل صريح.

تقدم طريقة "الاستيراد importation" ميزة اختبار قابلية تطبيق applicability النظريات على بيئات environments مختلفة. نتيجة لذلك، يتم إثراء التخصص من خلال وجهات النظر التي تم تطويرها في مجالات البحث المقنعة cogent fields of enquiry. كنظام دراسي، تعتبر دراسات الترجمة في وضع جيد للتفكير reflect-ing في عملية التخصيص - أو الترجمة - التي تنطوي عليها عندما تنتقل النظرية من تخصص إلى آخر. في الواقع، فإن التفكير في التغييرات في كيفية فهم النظرية وتطبيقها في سياقها "الأصلي / المصدر" وفي سياقها "الهدف" يسعى إلى ما يهدف discipline أن يحققه. ومع ذلك، تستفيد التخصصات الأخرى أيضًا من استيراد أو استعارة borrowing نظريات أخرى من سياقات مختلفة. في الواقع، يجب تشجيع الإخصاب fertilization متعدد التخصصات بنشاط لتطوير طرق جديدة متعددة التخصصات للبحث.

النهج الأكثر إشكالية هو ذلك الذي يستخدم "أمثلة في السياق" لبناء

(69) Polizzotti ,M .(2018) .Sympathy for the traitor .A translation manifesto .MIT Press.

(70) Susam-Sarajeva ,Ş .(2009) .The case study research method in translation studies .The Interpreter and Translator Trainer.56–37 ,(1)3 ,

نظريــة عامــة. المســألة الرئيســية تتعلــق بطريقــة اختيــار الأمثلــة. يعتمــد المنظــرون في الغالــب عــلى معرفتهــم الخاصــة بالترجمــة في ســياقات تاريخيــة historical contexts مختلفــة وفي جميــع أنحــاء العالــم. يعمــل انتشــار الأمثلــة كوســيلة لتوضيــح الصلاحيــة validity العامــة لنظرياتهــم، ومــع ذلــك، يُقــترح أن الأســاس المنطقــي rationale لاختيار الأمثلــة، بخــلاف حقيقــة أنهــا توضــح الظاهــرة التــي يفكــرون فيهــا، قــد تــم توضيحه في المقــالات. في الواقــع، قــد تكــون هنــاك أمثلــة أخــرى توضــح الحجــج المضــادة coun- ter arguments. بالتأكيــد، يمكــن اســتخدام دراســات الحالــة التفصيليــة detailed case studies في مقــالات المتابعــة لاختبــار مــدى ملاءمــةpertinence نظريــات ومفاهيــم معينــة في ســياقات محــددة. إن تقديــم معلومــات مفصلــة حــول عمليــة اختيــار-selec tion الأمثلــة سيســاعد فقــط هــذه المقــالات في اكتســاب الدقــة. هــذه التوصيــة ليســت خاصــة بدراســات الترجمــة وتنطبــق عــلى أبحــاث العلــوم الإنســانية بشــكل عــام، والتــي غالبًــا لا تحــدد بوضــوح إطارهــا المنهجــي methodological framework، أو ربمــا لا تكــون واضحــة مثــل العديــد مــن المشــاريع projects في العلــوم الاجتماعيــة.

الاستنـــــتاج

قدمــت هــذه المقالــة نظــرة عامــة عــلى طــرق البحــث المختلفــة في دراســات الترجمــة translation studies مــع التركيــز بشــكل خــاص عــلى تلــك التــي تتعامــل مــع النظريــة theory. لقــد أظهــر الباحــث كيــف أن هنــاك حركــة "داخليــة inward" لاســتيراد نظريات مــن تخصصــات أخــرى. هنــاك أيضًــا حركــة "خارجيــة outward" لتصديــر النظريــات إلى تخصصــات أخــرى. بينمــا تعمــل الأولى عــلى إثــراء enrich دراســات الترجمــة كمجــال للتحقيــق area of inquiry، توضــح الأخــيرة أن المجــال discipline قــد بلــغ بالفعــل ســن الرشــد ويمكنــه التحــدث إلى الآخريــن، ويقــدم نمــاذج مطــورة لفهــم الممارســة appre- hend practice. وقــد ســلط الضــوء عــلى كيفيــة وجــود مناهــج منهجيــة متباينــة di- verging methodological approaches تشــمل اســتخدام دراســات الحالــة ومجموعــة مــن الأمثلــة لبنــاء نظريــة عامــة. وقــد اقــترح أن هنــاك حاجــة لمزيــد مــن التوضيــح explanation لكيفيــة الحصــول عــلى الأمثلــة لدعــم المطالبــات claims. ومــن المأمــول أن تكــون هنــاك في المســتقبل اســتطلاعات surveys أخــرى للطــرق النوعيــة qualita- tive methods في نظريــة الترجمــة مأخــوذة مــن مجموعــات ذات بيانــات أكثــر التــي ســتضيف إلى النقــاش حــول إضفــاء الطابــع الرســمي عــلى أســاليب البحــث داخــل التخصــص. بشــكل عــام، تأمــل هــذه الدراســة أن تكــون رائــدةً لمزيــد مــن البحــث في الأســاليب المنهجيــة methodological approaches في بنــاء النظريــات عــبر العلــوم الإنســانية والاجتماعيــة humanities and social sciences.

References المراجـــع

1. Alós, J. (2016). Discourse relation recognition in translation: A relevance–theory perspective. Perspectives, 24(2), 201–217. https://doi.org/10.1080/0907676X.2015.1042391.
2. Attardo, S. (2002). Translation and humour. The Translator, 8(2), 173–194. https://doi.org/10.1080/13556509.2002.10799131.
3. Batchelor, K. (2015). Orality, trauma theory and interlingual translation: A study of repetition in Ahmadou Kourouma's Allah n'est pas obligé. Translation Studies, 8(2), 191–208. https://doi.org/10.1080/14781700.2014.1001777.
4. Buzelin, H. (2005). Unexpected allies. The Translator, 11(2), 193–218. https://doi.org/10.1080/13556509.2005.10799198.
5. Chan, T.–H. (2002). Translating bilinguality. The Translator, 8(1), 49–72. https://doi.org/10.1080/13556509.2002.10799116.
6. Chang, N. F. (2015). Does "translation" reflect a narrower concept than "fanyi?" On the impact of Western theories on China and the concern about Eurocentrism. Translation and Interpreting Studies, 10(2), 223–242.
7. Chesterman, A. (1997). Memes of translation: The spread of ideas in translation theory. John Benjamins.
8. Chesterman, A. (2017). The name and nature of translator studies. Hermes—Journal of Language and Communication in Business, 22(42), 13–22. https://doi.org/10.7146/hjlcb.v22i42.96844.
9. Chesterman, A., Wagner, E. (2002). Can theory help translators? A dialogue between the ivory tower and the wordface. Routledge.
10. Duarte, J. F., Assis, R., Seruya, T. (Eds.). (2006). Translation studies at the interface of disciplines. John Benjamins.
11. Fisher, C. R., Thompson, C. D., Brookes, R. H. (2020). Gender differences in the Australian undergraduate STEM student experience: A systematic review. Higher Education Research & Development, 39(6), 1155–1168. https://doi.org/10.1080/07294360.2020.1721441.
12. Franco Aixelá, J . (1996). Culture–specific items in translation. In Alvarez Rodriguez, R., Àfrica Vidal, M. C. (Eds.), Translation, power, subversion (pp. 52–78). Multilingual Matters.
13. Glynn, D. (2021). Outline of a theory of non–translation. Across Languages and Cultures, 21(1), 1–13. http://dx.doi.org/10.1556/084.2021.00001.
14. Glynn, D. & Hadley, J. (2021). Theorising (un)performability and (un)translatability. Perspectives, 29(1), 20–32. https://doi.org/10.1080/0907676X.2020.1713827.
15. Gouanvic, J.–M. (2005). A Bourdieusian theory of translation, or the coincidence of practical instances. The Translator, 11(2), 147–166. https://doi.org/10.1080/13556509.2005.10799196.
16. Guo, Y. (2009). Theorizing the politics of translation in a global era. The Translator, 15(2), 239–259. https://doi.org/10.1080/13556509.2009.10799280.

17. Heilbron, J. (1999). Towards a sociology of translation. Book translation as a cultural world-system. European Journal of Social Theory, 2(4), 429–444.
18. Herman, J. L. (2001). Trauma and recovery: The aftermath of violence—From domestic abuse to political terror. Pandora. (Original work published 1992.)
19. Holmes, J. (1988). Translated! Papers on literary translation and translation studies (2nd ed.). Rodopi.
20. Hu, K.-t. (2004). Postcolonial translation theory: A case study. Perspectives, 12(4), 286–302. https://doi.org/10.1080/0907676X.2004.9961508
21. Jin, D. & Nida, E. A. (2006). On translation: An expanded edition. City University of Hong Kong Press.
22. Lauscher, S. (2000). Translation quality assessment. The Translator, 6(2), 149–168. https://doi.org/10.1080/13556509.2000.10799063.
23. Lefevere, A. (1992). Translation, rewriting, and the manipulation of literary fame. Routledge.
24. Li, X. (2010). E.A. Nida's translation theory in China (1980–2000). Perspectives, 18(4), 287–295. https://doi.org/10.1080/0907676X.2010.490302.
25. Litwin, M. (2021). An "energy" of translation theory. Translation Studies, 14(1), 66–83. https://doi.org/0.1080/14781700.2020.1826353.
26. Mulkay, M. (1969). Cultural growth in science. In Barnes, B. (Ed.), Sociology of science: Selected readings (pp. 126–141). Penguin Books.
27. Munday, J. (2004). Advertising: Some challenges to translation theory. The Translator, 10(2), 199–219. https://doi.org/10.1080/13556509.2004.10799177.
28. Polizzotti, M. (2018). Sympathy for the traitor. A translation manifesto. MIT Press. Reiss, K., Vermeer, H. J. (2013). Towards a general theory of translational action: Skopos theory explained. St. Jerome Publishing.
29. Said, E. W. (1983). The word, the text, the critic. Harvard University Press.
30. Sakellariou, P. (2015). The appropriation of the concept of intertextuality for translation-theoretic purposes. Translation Studies, 8(1), 35–47. https://doi.org/10.1080/14781700.2014.943677.
31. Saldanha, G., O'Brien, S. (2013). Research methodologies in translation studies. St. Jerome Publishing.
32. Sang, Z. (2011). An activity theory approach to translation for a pedagogical purpose. Perspectives, 19(4), 291–306. https://doi.org/10.1080/0907676X.2011.590591.
33. Susam-Sarajeva, Ş. (2009). The case study research method in translation studies. The Interpreter and Translator Trainer, 3(1), 37–56.
34. Tan, Z. (2009). The "Chineseness" vs "non-Chineseness" of Chinese translation theory: An ethnoconvergent perspective. The Translator, 15(2), 283–304. https://doi.org/10.1080/13556509.2009.10799282.
35. Toury, G. (2012). Descriptive translation studies—And beyond (Rev. ed.). John Benjamins.

36. Tyulenev, S. (2009). Why (not) Luhmann? On the applicability of social systems theory to translation studies. Translation Studies, 2(2), 147–162. https://doi.org/10.1080/14781700902937706.
37. van Doorslaer, L. (2007). Risking conceptual maps. Target, 19(2), 217–233.
38. Venuti, L. (1995). The translator's invisibility. Routledge.
39. Yu, C. (2007). On Qian Zhongshu's theory of sublimity. Perspectives, 14(3), 214–229. https://doi.org/10.1080/09076760708669039.
40. Zanettin, F., Saldanha, G., Harding, S.-A. (2015). Sketching landscapes in translation studies: A bibliographic study. Perspectives, 23(2), 161–182. https://doi.org/10.1080/09076 76x.2015.1010551.
41. Zhao, H. (2021). Interpreting for Tagore in 1920s China: A study from the perspective of Said's traveling theory. Perspectives, 29, 454–468. https://doi.org/10.1080/090767 6X.2021.1872661.

مؤشرات مستوى المعيشة في ليبيا خلال العصور الإسلامية (خلال القرنين الرابع والخامس الهجري) قراءة في كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين

إعداد:
د. حسين حسن مصطفى امقاوي
قسم التاريخ كلية الآداب/ جامعة طبرق

الاستلام : 14/ 12/ 2022 القبول : 14/ 2/ 2023

المستخلص:

تهتم الدراسة بتحليل أهم مؤشرات مستوى معيشة الاقاليم الممثلة للقطر الليبي(طرابلس برقة فزان) خلال العصر الاسلامي من خلال ما دونه الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين زاروا أو نقلوا مباشرة عن شهود العيان الذين عاشوا داخل هذه الاقاليم. إن تحديد أهم مؤشرات مستوى المعيشة لتقديم تصور حول أحوال الناس وخاصة العامة منهم يتطلب جمع كل ما كتب عن هذه المجتمعات من خلال كتاب الجغرافيين والرحالة دونما أهمال باقي المصادر المختلفة ؛لأجل الوصول لوصف أهم هذه المؤشرات و الاطلاع على أهم المؤثرات بها سلباً وايجاباً.

research in Arabic: The study is concerned with analyzing the most important indicators of the standard of living of the regions represented by the Libyan country (Tripoli, Barqah, Fezzan) during the Islamic era, through the Muslim geographers and travelers who visited or quoted directly from eyewitnesses who lived within these regions.

Determining the most important indicators of the standard of living, presenting a perception about the conditions of people, especially the general public, requires collecting all that was written about these societies through the book of geographers and travelers, without the most important of the rest of the various sources;

الكلمات المفتاحية : المغرب، برقة، طرابلس، فزان.

المقدمة

دأب الدارسون في مجال الدراسات التاريخية على الاعتماد عند جمع مادة دراساتهم على المصادر الأولية، وأمهات الكتب سواء كانت المصادر التاريخية أو الجغرافية أو اللغوية وغيرها من مصادر المعلومات الاولية، غير أن منطقة الدراسة ليبيا (برقة وطرابلس وفزان) تأثرت سلباً بالعديد من العوامل التي كانت معرقلة لجمع البيانات الخاصة بمنطقة الدراسة، فلماذا لم تكن منطقة الدارسة محل اهتمام من أصحاب الكتابات التاريخية أو ما في نحوها؟ وهل أخذ الدارسون في الاعتبار العوامل المؤثرة في الكتابات التاريخية؟ خاصة عند دراسة التاريخ المتخصص "الاقتصادي مثلاً".

عند التصدي لهذا العينة من الدراسات يجد الباحث نفسه أمام تساؤلات محورية وهي ما أهم العوامل المؤثرة في كتابة تاريخ برقة وطرابلس في فترة الدراسة (العصور الاسلامية) وما مدى تأثر كتابة تاريخ مناطق الدراسة ليبيا (برقة وطرابلس وفزان) بهذه العوامل؟ وكيف لنا التصدي للقضايا الاقتصادية أو الاجتماعية، وغيرها من القضايا الواجب دراستها أو مجاراة الدراسات التاريخية في الاقطار التى لا تعاني من أثر العوامل المؤثرة في الكتابات التاريخية؟

إن محاولة الإجابة على هذه الأسئلة والعمل على تطبيق الإجابات عنها، هي أحد القضايا المجتمعية الهامة وتمثل أهم فرضية لبحثنا هذا إذا ما قدمنا دراستنا في إطار سوسيولوجي (نظرية دمج العلوم عند دراسة الظاهرة التاريخية) ففرضية البحث أو تساؤله يمثلها هذا التساؤل: كيف يمكن أن نستخلص نمط مستويات المعيشة لمجتمع الدراسة ومؤشراته من خلال كم المعلومات المتوافرة لدينا من المصادر المحددة الدراسة؟ وما أهم العوامل المؤثرة في هذه المعلومات؟

إن مجرد المحاولة على الإجابة على هذه التساؤلات تعد مساهمة في دعم وإبراز الرؤيا المنهجية غير التقليدية لدراسة التاريخ لا سيما الاقتصادي؛ لأجل المساهمة في فهم العديد من القضايا المجتمعية المعاصرة.

عندما رسمنا عنوان البحث وجدنا أنفسنا أمام مجموعة من المعلومات ذات طابع تقليدي مرصوصة في طيات الكتب، تتحدث عن أنواع من المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية لكل بلد، وكذلك معلومات عن الحركة التجارية والصناعات المحلية وطرق التجارة وموارد الخراج، سواءً كانت داخلية أو خارجية ونشاطاً لبعض الاسواق وغيرها، ومن خلال هذه المعلومات يحاول الباحث تقديم عملٍ يحاول فيه أن يعكس الضوء على جانبين أساسيين.

الجانب الأول التركيز على إبراز أهم المؤشرات الدالة على نوعية مستوى المعيشة لأفراد المجتمع إيجاباً خلال هذه الحقبة من خلال كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين خلال العصور الاسلامية (القرنين الرابع والخامس الهجري)، فقد مثلت هذه الكتابات تقارير مهمة يمكن أن تساعدنا في فهم بعضٍ من جوانب حياة المجتمع في فترة الدراسة.

الجانب الثاني تتمثل في أن هذا الطرح محاولة من الباحث في أن يطوع هذا الكم - وأن كان يوصف بالندرة أحياناً - من المعلومات من خلال الاعتماد على نظرية السوسيولوجيا (نظرية دمج العلوم) والتركيز على تاريخ المهمشين وهم طبقة العامة، لأجل الإفادة من هذا الكم من المعلومات بغية الوصول لهدف الدراسة.

لا شك في أن دراسة التاريخ الاقتصادي للأمم و الشعوب من أهم المسائل الفاعلة في حلحلة العديد من القضايا المجتمعية المعاصرة، فمن خلال دراسة تاريخ الظواهر والأحداث، خاصة في ظل توافر مقومات نجاح دراستها أو محاولة تعويضها من خلال منهج يتناسب ودراسة الظاهرة لا سيما إذا ما توافر الحد الأدنى من المعلومات، حتماً ستكون الدراسة ذات فوائد جمة.

ففي هذه الدراسة نحاول أن نتصور الوضع الاقتصادي خلال حقبة محددة زمنياً و جغرافياً من خلال محاولة تقديم بعض من ملامح حياة المجتمع الاقتصادية من حيث النمط المعيشي وأهم العوامل التى ساهمت في رسم هذا النمط.

لقد توافرت لدينا مجموعة من المعلومات عن إقليم برقة وطرابلس وفزان تتحدث عن العديد من الظواهر الاقتصادية، كما أن الموقع الجغرافي لهذه الاقاليم ميزها بالعديد من المزايا منها المناخ المعتدل ومرور العديد من طرق المواصلات الهامة بها، الأمر الذي أثر في حياة السكان بهذه الأقاليم تأثيرا إيجابيا في نمائها الاقتصادي، كما كان للعامل السياسي دور مهم في تسريع هذا النماء، فقد ميز الاستقرار السياسي خلال فترة الدراسة حياة الاقليم، وبات من أهم سمات مجتمع الدراسة، تحت ظل نظام سياسي متحكم في كل تفاصيل المجتمع.

ستعتمد هذه الدراسة على المنهج التحليلي بعد سرد البيانات الواردة، ومقارنتها تحت طائلة نظرية السوسيولوجيا "نظرية دمج العلوم "، لأجل تذليل الصعاب المعرقلة للوصول لهدف الدراسة المشار إليه آنفاً، وأهمها قلة المعلومات وتفرقها بين طيات الكتب، مستعينين بعدد من الدراسات السابقة أهمها دراسة الدكتور عصام منصور بعنوان مستوى المعيشة في القيروان خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة وعدد من الدراسات الدالة على مؤشرات مستوى المعيشة.

أولاً: العوامل المؤثرة في مستوى المعيشة.

لاشك أن المستوى المعيشي لأي مجتمع يتأثر سلباً وإيجاباً بالعوامل المحيطة بهذا المجتمع فالعامل الاقتصادي يتأثر ويؤثر بكل العوامل سواء الاجتماعية أو الدينية وغيرها من العوامل بشكل عام.

وإذا ما حاولنا أن نستعرض المستوى المعيشي لإقليم برقة وطرابلس وفزان، وأهم مؤشراته، من خلال كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين خلال العصور الإسلامية نجد أنفسنا أمام ضرورة ملحة وهي الإشارة لهذه العوامل، فما أهم ملامحها؟

تعد الحالة السياسية من أهم العوامل المساعدة على الرخاء الاقتصادي والاجتماعي، فاذا ما استعرضنا الحالة السياسية في برقة وطرابلس وفزان، في الفترة التي سبقت انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر أو بعيدها على حد سواء، نجدها فترة استقرار نسبي فكانت السلطة المركزية متعافية مما انعكس على إقليم برقة وطرابلس وفزان بنوع من الرخاء كما باقي اقاليم الدولة، إذا ما استثنينا بعض السنوات التي تقل فيه كميات الأمطار أو ظهور بعض الأوبئة والأمراض[1]

وبعد ذلك حدثت هجرة القبائل العربية إلى المغرب الأدنى وانتشرت ما بين برقة وافريقية، وهو حدث غير الخارطة السياسية والاجتماعية والثقافية في المنطقة وبالتالي في مستوى المعيشة لدي السكان [2]

فإذا ما اعتبرنا أن هذا الحدث حدٌّ فاصل بين نمطين مختلفين لمستوي المعيشة لمجتمع الدراسة (برقة وطرابلس وفزان) في تلك الفترة فكيف وصف لنا الرحالة والجغرافيين الإسلاميين الحالة المعيشية لهذه البلاد خلال فترة الدراسة؟

يذكر ابن حوقل[3] الذى عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى وكذلك البكري[4] فيما بعد تقارير توضح مدى الرخاء الذي كانت عليه مدن هذه الأقاليم من خلال حركة التجارة النشطة ولطابع التجارة الذى كانت عليه هذه المدن خاصة من خلال نشاط عمل الموانئ والاسواق وحركة القوافل وتبادل الصادرات والواردات.

فعن طرابلس يقول ابن حوقل عنها: (...خصبة صالحة لقيام الأسواق...) أما برقة المدينة فيصفها بأنها (... متوسطة ليست بالكبيرة ولا الصغيرة وأموالها جمة...)

هذا الوصف لابد وأن يكون ناتجا عن نشاط تجاري وزراعي مميز، كما تحدث عن مدينة إجدابيا، فيقول بأنها ذات طابع تجارى نشط ومنظم تحكمها سياسة مالية محكمة يشرف عليها عامل المدينة، فيحدد ضرائبها المفروضة على البضائع كلا حسب كمها ونوعها الأمر الذى نتج عنه رخاء في الأسعار.

أما في سرت[5] فإنه يصف لنا نظامها الدقيق في جبي الضرائب الذي يعتبر

(1) المقريزي، الاتعاظ الحنفاء،ج2 (ت جمال الدين الشيال)،لجنة جمع التراث، مصر، القاهرة، 1996،ص ص 234 ـــ237.

(2) نفسه ص 243.

(3) محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم: رحالة، من علماء البلدان. كان تاجرا. رحل من بغداد سنة 331 هـ ودخل المغرب وصقلّيّة، وجاب بلاد الأندلس وغيرها. ويقال: كان عينا للفاطميين له (المسالك والممالك - ط) خير الدين بن محمود الزركلي، كتاب الاعلام، دار العلم الملايين، بيروت ـط15،ج،12ص 321 ،2002م.

(4) أبو عبيد البكري هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري، نسبه عربي يرجع إلى قبيلة بكر بن وائل أكبر قبائل ربيعة في جزيرة العرب،، جغرافي وموسوعي واديب ونباتي عربي أندلسي. ولد في ولبة قرب اشبيلية حوالي عام 1030م وتوفي في قرطبة عام 1094م اشتهر في القرن الحادي عشر الميلادي، وهو أول الجغرافيين المسلمين في الأندلس. قيل إن ملوك الأندلس كانوا يتهادون كتبه، الزركلي ، المصدر السابق، ص 322.

(5) نفسه، ص ، ص 252 ـــ 255.

مـوردا مهمـا مـن مواردهـا؛ حيـث يـشرف عـلى إتمـام هـذه العمليـة صاحـب الصـلاة وخاصـة عـلى تجـارة العبـور، فكانـت لـكل بضاعـة ضريبـة معينـة تتحـدد بنـوع وكـم البضاعـة [6] هـذا جـل مـا كتبـه ابـن حوقـل فمـاذا كتـب البكـري عـن أحـوال هـذه المـدن؟

يقـول البكـري عـن اجدابيـا: (... حافلـة الأسـواق يقصـد إليهـا التجـار...)[7] خاصـة مـن الجنـوب بـل إنـه يعطـي إشـارات أكثـر دقـة عـلى نوعية مسـتوى المعيشـة لسـكان هـذه المدينـة فيصـف أهلهـا بأنهـم أهـل يسـار وأن أسـعارها رخيصـة[8].

أمـا في برقـة المدينـة فـإن البكـري ويؤيـده في بعـض مـا كتـب الرحالـة العبـدري[9] فيتكلـم عـن أهـم صادراتهـا وهـي اللحـوم خاصـة إلى مـصر، وكذلـك الصـوف والعسـل والقطـران، وهـو مـا يعطـي إشـارات واضحـة عـلى مـدى الاكتفـاء الذاتـي لإقليـم برقـة مـن هـذه السـلع وبالتـالي رخـص أسـعارها محليـاً، وهـو مـا ينطبـق عـلى مدينـة سرت حيـث يشـير البكـري أن اللحـوم مـن أهـم صادراتهـا إلي مـصر، وهـو أمـر قـد يكـون مشـابهاً لمـا هـو عليـه في طرابلـس، فقـد وصـف طرابلـس بأنهـا كثـيرة الخـيرات تعتمد بشـكل ملحـوظ عـلى تجـارة الملـح، كمـا يـزرع فيهـا الشـعير والقمـح بكميـات كبـيرة خاصـة في سـفح سـوف الجـين مـن نواحـي طرابلـس [10].

هـذه عينـة مـن التقاريـر عـن بعـضٍ مـن مـدن السـاحل، فمـاذا كُتـب مـن تقاريـر عـن مـدن جبـل نفوسـة والداخـل؟

يذكـر البكـري بعضـاً مـن المعلومـات عـن هـذه المـدن، والتـي يمكـن لنـا مـن خلالهـا اسـتنباط بعـض الأحـكام والبيانـات، فـإن غالـب سـكان هـذه المـدن تعتمـد عـلى تجـارة العبـور " القوافـل " وتعمـر بهـا بعـض الأسـواق كمـا هـو حـال مـدن شروس وجـادو وتيريـو تامرمـا، كمـا تعـد زويلـة مـن أهـم المحطـات التجاريـة في الداخـل إضافـة إلى ودان وأوجلـة [11].

مـن خـلال هـذه التقاريـر يمكـن لنـا أن نسـتخلص المعادلـة التاليـة وهـي (أمـن = اسـتقرار= تجـارة وزراعـة = مسـتوى معيـشي مميـز) السـؤال الآن هـو كيـف يمكـن لنـا أن نميـز أو نسـتنبط أهـم ملامـح المسـتوى المعيـشي لأفـراد مجتمـع الدراسـة؟ ومـا أهـم اشـكال (مـؤشرات) هـذا المسـتوى؟

وكمـا يمكـن للباحـث أن يتعـرف عـلى بعـض ملامـح هـذا المسـتوى، بعـد أن نذكـر أهـم تعريفـات مصطلـح المعيشـة لغـة واصطلاحـاً فـ(المعيشـة: هـي المطعـم والمشرب ومـا تقـوم بـه الحيـاة، وبالمفهـوم الحديـث هـي المسـتوى الاقتصـادي الـذي يعيشـه

(6) للمصدر السابق، ص 256 ـ 260.

(7) 4البكري: أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز ، المغرب في ذكر بلاد المغرب، بغداد، (بدون تاريخ) ص 333.

(8) نفسه، ص 335.

(9) نفسه، ص 336

(10) نفسـه، ص336؛ العبـدري: (محمـد بـن محمـد عـلي بـن احمدبـن سـعود 700هـ / 1300م)، رحلـة العبـدري، الرباط،(تحقيـق محمـد الفـاسي)، (بـدون تاريـخ) ص ص156 ـ 158.

(11) البكري :المصدر السابق، ص 337.

فـرد أو جماعـة مـن حيـث المسـكن والطعـام والملابـس وخدمـات الدولـة والصحـة العامـة، ولتحديـد مسـتوى المعيشـة بدقـة في أي مجتمـع قديمـاً أو حديثـاً يسـتلزم الأمر الوقـوف عـلى عـدة مقاييـس اقتصاديـة تتمثـل في مسـتوى الأسـعار، وقيمـة الدخـل الإجمـالي، والدخـل الفـردي، والقـدرة الشرائيـة، ودرجـة الغنـى ودرجـة الفقـر)[12] هكـذا جـاء هـذا الـشرح الـوافي في تقديرنـا، فقـد اسـتعان الباحـث بعـدد مـن المصـادر والمراجـع المختصـة للوصـول لهـذا الـشرح [13].

مـن خـلال مـا سـبق يمكـن لنـا التعـرف عـلى مـدى تأثـر أفـراد المجتمـع بالمنـح والرواتـب الحكوميـة مثـلاً (الهبـات التـي كان يصرفهـا الخلفـاء في أوقـات الاحتفـالات) فمـا هـو وقـع هـذه المنـح اقتصاديـاً مسـتبعدين آثارهـا وتأثيرهـا السـياسي، كذلـك سـنحاول أن نعـرض لبعـض الأسـعار ونوعيـة المسـكن والملبـس؛ لأجـل التعـرف أكثـر عـلى المسـتوى المعيـشي الـذي كان عليـه سـكان برقـة وطرابلـس في فـترة الدراسـة .

ثانياً: نماذج من مؤشرات " ملامح " المستوى المعيشي:

1) المنـح الماليـة: يمكـن اعتبـار المنـح الماليـة، أو الرواتـب المقدمـة مـن الدولـة مـؤشراً يمكـن للباحـث مـن خلالـه في التعـرف عـلى نوعيـة المعيشـة التـي كان عليهـا السـكان في برقـة وطرابلـس في فـترة الدراسـة، فمقـدار بعـض الرواتـب يعطـي تصـوراً لمسـتوى المعيشـة إذا مـا تعرفنـا عـلى مقـدار الراتـب، أو المنحـة وأسـعار بعـض السـلع، فالقاضي يتقـاضي "15" دينـارا سـنوياً، ويقـرض الطالـب حتـى "1000" دينـار سـنوياً في نفـس الفـترة، أمـا أهـم المنـح المقدمـة مـن الدولـة في فـترة الدراسـة فهـي منحـة الختـان التـي منحتهـا الدولـة للمواطنـين ترغيبـاً لهـم في تأصيـل هـذا الفعـل (الختـان) فـكان يعطـي لـكل طفـل كسـوة حسـنة ومبلغـاً مـن المـال مـا بـين (50 ـ 200 درهـم)

مـن خـلال مـا ورد تبـين للباحـث مـدى إسـهام سياسـة الدولـة الماليـة في الرفـع مـن مسـتوى أفـراد المجتمـع؛ الأمـر الـذي سـاهم في اسـتقرار المجتمـع وتمريـر جـل مقاصـد الدولـة في خلـق مجتمـع مسـتقر يقبـل العديـد مـن التوجهـات الفكريـة الدولـة أنـذاك [14].

2) الخدمـات العامـة : اورد لنـا اليعقوبـي[15] معلومـات مهمـة ذات طابـع اقتصـادي

(12) عصـام منصـور صالـح عبـد المـولى : مسـتوى المعيشـة في القـيروان خـلال القرنـين الثانـي والثالـث للهجـرة، جامعـة بنغـازي ، مجلـة العلـوم والدراسـات الإنسـانية – المـرج، مجلـة علميـة الكترونيـة محكمـة العـدد 17 ، 2016م ص 2.

(13) ابـن منظـور، أبـو الفضـل جمـال، ت: 177 هـ، لسـان العـرب، بـيروت، دار صـادر، 7511، ج 6، ص 127؛محمـد عاطف غيـث، قامـوس علـم الاجتمـاع، الإسـكندرية، دار المعرفـة الجامعيـة، 7551، ص 011،محمـد عجميـة وإيمـان عطيـة، التنميـة الاقتصاديـة دراسـة نظريـة تطبيقيـة، الإسـكندرية، لا.ت، ص 61،عصـام منصـور مرجـع سـابق، ص 2.

(14) التجانـي، رحلـة التيجانـي، تونـس 2001م،ص169؛ سـيرة الاسـتاذ جـوذر، تصنيـف ابـي منصـور العزيـز الجـذري، تقديـم محمـد كامـل حسـين، محمـد عبـدا لهـادى شـعيرة، وتونـس، 1988 ص 235، رسـالة افتتـاح الدعـوة، تحقيـق وداد القـاضي، ط1، دار الثقافـة، بـيروت، لبنـان، 1970م. ص 221،عـارف تامـر، المعـز لديـن الـه الفاطمـي، دار الآفـاق الجديـدة، بـيروت، 1982،ص168.

(15) اليعقوبـي: (أحمـد بـن ابـي يعقـوب بـن واضـح، ت 284هـ/897م)، كتـاب البلـدان ملحـق لابـن رسـته، ليـدن (بـدون تاريخ)ص198.

تبين لنا بشكل جلي مدى الخدمات التي تقدمها الدولة ؛ لأجل تحسين و رفع الإنتاج سواء الزراعي أو التجاري الأمر الذي انكس إيجاباً على مستوى معيشة السكان، فقد عني الخلفاء والامراء بحفر الآبار والبرك، وحرصوا على أن يجتمع السكان حول هذه النقاط والتي أصبحت فيما بعد مراكز سكانية ساهمت فيما بعد في تكوين مراكز حضارية مهمة، وهي خدمات تسهم في رفع المستوى المعيشي للسكان، يضاف إلى تلك التسهيلات المقدمة من الدولة لغرض تطوير شامل في مجالات الحياة ولا سيما الاقتصادية بروز اهتمام الدولة ببناء وتطوير العديد من الموانئ البحرية التجارية وعمرة المساجد والمساكن [16]. وبشكل عام كانت مناطق الدراسة تعيش حالة من الرخاء الاقتصادي ذا طابع نشط حافلة الاسواق بأنواع المحاصيل الزراعية. إن تغلب هذه الاستدلالات كانت في زمن الدولتين العباسية والفاطمية، أما في زمن دولة الموحدين فكانت مناطق الدراسة أكثر رخاءً، نتيجة السياسة المالية المحكمة حسب ما جاء عند العديد من المؤرخين كابن أبي زرع[17] والمراكشي في المعجب [18] زمن كلٍ من الأميرين يوسف بن عبد المؤمن والمنصور أمراء الدولة الموحدية، ففي عهديهما عم الرخاء الازدهار منطقة الدراسة وانتشرت الأعراس والأرزاق وعم الأمن والرخاء [19].

3) الأسعار: طالعتنا العديد من المصادر عن حجم الأسعار المتداولة ومنها يمكن لنا أن نتحصل على مؤشر مهم من مؤشرات مستوى المعيشة آنذاك والتي قد تمدنا بخلق تصور يسهم في جمع الاستدلالات المطلوبة المحاولة رسم مستوى معيشي الفترة الدراسة. فقد أمدنا المراكشي [20] بمعلومات مهمة عن أسعار العديد من السلع والتي بدون شك تساعدنا على تصور مستوى معيشي للمجتمع خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، فالشعير باعتباره من السلع الاستراتيجية على سبيل المثال، المد بدرهم في أوقات الرخاء وبدرهمين في أوقات الأزمات هذه في النصف الأول من القرن المشار إليه، أما في النصف الثاني من نفس القرن وصل وزن الاثني عشر مدا (80 أوقية) بدرهمين والقمح الخمس عشر مدا بدرهم ورطل الدقيق بدرهم (الرطل = 504جرام) ستون أوقية للحم بدرهم (16 اوقية = رطل) تعطينا الأسعار نمط غير مستقر وانطباعا عاما

(16) التيجاني :المصدر السابق، ص 235 ـ 240.

(17) ابو الحسن علي بن محمود بن ابي زرع :الانيس المطرب،(بدون تاريخ) ص 98.

(18) المراكشي : عبدالواحد علي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963م،ص 37.

(19) ابن غ القاضي النعمان: (بن محمد بن حيون ت363 هـ/973م) أبوحنيفة النعمان بن محمد بن منصور، المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وآخرون، المطبعة الرسمية، تونس، 1987م ص ص36 ـ38؛ رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، ط1، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1970م.، ص89.،الجوذرى: (أبي علي منصور العزيز، ت منتصف القرن الرابع الهجري) ، سيرة الأستاذ جوذر، كلية الآداب، عين شمس (بدون تاريخ). لبون: (أبو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون، التذكار، (ت، الطاهر الزاوي) مكتبة النور، طرابلس، 1967.،ص 45.

(20) 38. المراكشي،(عبدالواحد علي 647هـ / 1249م) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963م،ص 78.

على وضع اقتصادي متأرجح ؛ قد يعزى إلى تقلبات سياسية أثرت على المستوى المعيشي للأفراد تارة سلباً و تارة إيجاباً [21].

4) المسكن: إذا أردنا أن نستشف المستوى المعيشي للسكان من خلال نوعية السكن التي يسكنونها ؛ فقد نجد أنفسنا أمام فرضية وهي الابتعاد عن نوعية مساكن الخاصة ومحاولة إلقاء الضوء على مساكن العامة.

كان الاعتماد على الامكانيات المحلية سوء في الطابع العام أو في المواد المستخدمة، فكانت المواد المستخدمة من الحجارة والطين دون رسم معماري يحدد الطالع العام للمساكن مستخدمين القش المخلوط من الطين، كما سكن الأهالي الأخصاص المصنوعة من سعف النخيل، كذلك سكن أهالي الجبال الكهوف المنحوتة في الجبال، أما البدو فقد سكنوا الخيام المصنوعة من وبر وشعر وصوف حيواناتهم، ذلك لاعتمادها على امكانيات محدودة محلية كما أسلفناً سابقاً[22]

5) الملابس : لم يخرج هذا المؤشر عن باقي المؤشرات السابقة في بيان مستوى معيشة العامة في فترة الدراسة، فقد كانت المواد المحلية دور فاصل في صناعة الملابس مثل الصوف والكتان بل أن الحرير دخل في صناعة بعض الملابس المستخدمة و بمجيء الاندلسيون ظهر الطابع الاندلسي في بعض الملابس [23].

6) الطعام: كما في المسكن والملبس كذلك في المأكل كانت للبيئة دور كبير في تحديد نوعيته وبالتالي يمكن لنا أن نخلص المستوى المعيشي لعينة الدراسة فما أهم المأكولات في فترة الدراسة؟ الخبز المصنوع من دقيق الشعير أو القمح يعد من أهم هذه الأصناف عند العامة خاصة مع التمر واللبن، ويعتبر القديد "الحم المجفف " من أهم الأطعمة التي عرفها السكان، ويعتبر الدقيق معيارا مهما لقياس أحوال الناس المعيشية؛ فالناس يتدرجون من مستعملي دقيق القمح إلى دقيق القمح المخلوط بالشعير، إلى دقيق الشعير الصافي وهكذا كان الطعام متأثرا بالبيئة بشكل فاعل وكما في الملبس تأثر الطعام بقدوم الأندلسيين فعرف الأهالي بعضاً من أطعمتهم [24].

تعليق عام من خلال العرض السابق نخلص إلى أن عينة الدراسة عرفوا نوعاً من الاكتفاء الذاتي وهو ما يعطي انطباع بمحدودية هذه الامكانيات وبالتالي أثرت في رسم مستوى المعيشة.

نتائج البحث :

ـ خلال ما تم عرضه من مؤشرات مستوى المعيشة في منطقة الدراسة، يتأكد لنا أن إرادة الدولة ـ سياستها ـ المتوافرة على امكانيات اقتصادية وسياسية قادرة على خلق مستوى معيشي يضمن لها تنفيذ سياستها الضامنة لبقائها في السلطة

(21) نفسه،ص 79.

(22) البكري : المصدر السابق،ص6.

(23) :نفسة المصدر والصفحة

(24) العبدري : المصدر السايق ص 342.

أطـول فـترة ممكنـة؛ مـن خـلال تسـخير امكانياتهـا الاقتصاديـة عـلى شـكل منـح تحفيزيـة ورواتـب مجزيـة وهدايـا تـصرف في جُـل المناسـبات ورعايـة بعـض المناسـبات التـي تعـبر عـن معتقداتهـا و ثوابتهـا الدينيـة و السياسـية. وهـو أمـر يمكـن الاعتمـاد عليـه لأن يكـون نموذجـا للتعاطـي مـع الكثـير مـن القضايـا المعـاصرة لاسـيما قضيـة بنـاء الهويـة الوطنيـة.

ـ عنـد خوضنـا لغمـار هـذه الدارسـات كان علينـا أن نعتمـد في دراسـتنا عـلى نظريـة دمـج العلـوم (السوسـيولوجيا) لإتمـام تحليـل البيانـات بعـد تجميعهـا مـن كتـب الجغرافيـين و الرحالـة للوصـول إلى القـراءة المطلوبـة الشـارحة لفرضيـة البحـث ؛ فمـن أجـل أن نفهـم نصـوص روايـات الجغرافيـين والرحالـة علينـا بفهـم تاريـخ وجغرافيـة منطقـة الدراسـة والاطـلاع عـلى علـوم النحـو والـصرف والعلـوم الشرعيـة إلى غـير ذلـك مـن العلـوم والدراسـات.

ـ إلى جانـب نظريـة دمـج العلـوم لـم نغفـل باقـي المناهـج كالمنهـج التحليـلي والاسـتقرائي وهـي مـن أهـم العوامـل المسـاعدة للاقـتراب مـن أهـداف الدراسـة.

ـ مـن خـلال تسـخير هـذه البيانـات اتضـح لنـا عوامـل رسـم بعـض مـن ملامـح المسـتوى المجتمـع الدراسـة مـن خـلال التعـرف عـلى مـدى تأثـر أفـراد المجتمـع بالمنـح والرواتـب الحكوميـة مثـلاً (الهبـات التـي كان يصرفهـا الخلفـاء في أوقـات الاحتفـالات) وأضحـى جليـا فهـم وقعهـا الاقتصـادي والسـياسي وكيـف سـاهم هـذا الواقـع في إطالة عمـر الدولـة مـن خـلال تأصيـل العديـد مـن الثوابـت الدينيـة والثقافيـة الداعمـة لفلسـفة الدولـة مـن خـلال إغـداق الأمـوال. كل ذلـك تبـين لنـا مـن خـلال عرضنـا لبعـض الأسـعار ونوعيـة المسـكن والملبـس وغيرهـا، ودور السـلطة في دعـم رعاياهـا ترغيبـا، ومنعهـا عـن مخالفيهـا ترهيبـاً لقيـادة مجتمـع الدراسـة. وهكـذا اتضـح لنـا دور الاقتصـاد في تحقيـق مكاسـب سياسـية الصالـح السـلطة الحاكمـة في حـال تـم تسـخير هـذه الامكانيـات التسـخير الجيـد وإلا سـتكون النتائـج عكسـية عـلى السـلطة الحاكمـة خاصـة إذا تعلـق الأمـر بـصراع مذهبـي عقائـدي.

قائمة المصادر والمراجع :

قائمة المصادر

1. ابن حوقل :محمد بن ابي القاسم الموصلي ،صورة الأرض، مطبعة دار الحياة، بيروت، (بدون تاريخ).
2. ابن منظور، أبو الفضل جمال، ت: 177 ه، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 7511، ج 6، ص 127.
3. أبو حنيفه النعمان بن محمد بن منصور، المجالس و المسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وآخرون، المطبعة الرسمية، تونس، 1987م.
4. البكري: أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز ، المغرب في ذكر بلاد المغرب.
5. بن ابي زرع ابو الحسن على بن محمود: الانيس المطرب، ليد،(بدون تاريخ).
6. التجاني : ابو محمد بن محمد عبدالله، (رحلة التيجاني، تونس 2001م.
7. الجوذرى: (أبي على منصور العزيز، ت منتصف القرن الرابع الهجري) ، سيرة الأستاذ جوذر، كلية الآداب، عين شمس (بدون تاريخ).
8. خير الدين بن محمود الزركلي، كتاب الاعلام، دار العلم الملايين،بيروت،2002م.
9. العبدري: محمد بن محمد علي بن احمدبن سعود (700هـ / 1300م)، رحلة العبدري، الرباط،(تحقيق محمد الفاسي)، (بدون تاريخ).
10. القاضي النعمان: بن محمد بن حيون (ت363 هـ/973م) رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، ط1، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1970م.
11. لبون: (أبو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون، التذكار، (ت، الطاهر الزاوي) مكتبة النور، طرابلس، 1967.
12. المراكشي : عبدالواحد علي 647(هـ / 1249م) ،المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963م
13. المقريزي، الاتعاظ الحنفاء،ج2 (ت جمال الدين الشيال)،لجنة جمع التراث، مصر، القاهرة، 1996.
14. اليعقوبي: أحمد بن ابي يعقوب بن واضح (ت 284هـ/897م)، كتاب البلدان ملحق لابن رسته، ليدن (بدون تاريخ).

قائمة المراجع :

1. عارف تامر، المعز لدين اله الفاطمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982.
2. سيرة الاستاذ جوذر، تصنيف ابي منصور العزيز الجوذري، تقديم محمد كامل حسين، محمد عبدا لهادى شعيرة، تونس، 1988 م.
3. عصام منصور صالح عبد المولى : مستوى المعيشة في القيروان خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، جامعة بنغازي مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج، مجلة علمية الكترونية محكمة العدد 17 ن 2016م.
4. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 7551.
5. محمد عجمية وإيمان عطية، التنمية الاقتصادية دراسة نظرية تطبيقية،ا لإسكندرية (لا.ت).

السياسة الخارجية الصينية تجاه أفريقيا
(القرن الأفريقي نموذجاً)

د. محمد إدريس عبدالعزيز إدريس
أستاذ مساعد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية
قسم العلوم السياسية/ جامعة طبرق

الاستلام : 12/ 1/ 2023 القبول : 16/ 2/ 2023

المستخلص :

بعد عقود من التركيز على التعاون الاقتصادي مع أفريقيا بما يخدم المصالح الصينية، والتي اعتمدت فيها الصين على استخدام القوى الناعمة لتحقيق أهدافها في السياسة الخارجية تجاه منطقة القرن الأفريقي، يبدو أن بيكين قد اختارت التدخل سياسياً وعسكرياً لحماية مصالحها الاقتصادية. وتحاول هذه الدراسة معرفة الاستراتيجية الصينية تجاه منطقة القرن الأفريقي، وما هي الأهداف المراد تحقيقها في هذه المنطقة، ولماذا جنحت الصين للتدخل سياسياً وعسكرياً في منطقة القرن الأفريقي بعد أن كانت تعلن سياسة اللا تدخل في الشؤون السياسية والأمنية في هذه المنطقة، ومعرفة التحديات التي تواجهها الصين في تحقيقها أهدافها في علاقتها مع منطقة القرن الأفريقي، كما حاولت هذه الدراسة وضع تصور لمستقبل العلاقات الصينية مع القرن الأفريقي وهل ستكون الصين القوى الدولية الحاكمة في أفريقيا.

الكلمات المفتاحية: القوى الناعمة، الشرق الأفريقي، سلسلة اللؤلؤ، الحزام والطريق، إقليم التيغراي

Abstract

After decades of focusing on Economic Cooperation with Africa to serve Chinese interests, in which China relied on the use of soft power to achieve its goals in foreign policy towards the Horn of Africa, it seems that Beijing has chosen to intervene politically and militarily to protect its economic interests.

This study attempts to know the Chinese strategy towards the Horn of Africa, and what are the objectives to be achieved in this region, and why China has deviated to intervene politically and militarily in the Horn of Africa after it had declared a policy of non-interference in political and security affairs in this region, and to know the challenges that China faces in this region. achieving its objectives in its relationship with the Horn of Africa.

This study also attempted to imagine the future of Chinese relations with the Horn of Africa and whether China would be the ruling international power in Africa.

Key words:

Soft Powers, East Africa, Chain of Pearls, Belt and Road, Tigray Region

مقدمة :

إن تنامي قوة الصين كقوى اقتصادية صاعدة لاسيما، بعد التغيرات التي حدثت في النظام الدولي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي قد أهلتها إلى تعاظم دورها السياسي والعسكري لاسيما تجاه القارة الأفريقية، لقد أصبحت الصين أقل اهتماماً بالاعتبارات الأيدولوجية، وأكثر براغماتية قائمة على تحقيق المصالح الصينية في المقام الأول، ومن هذا المنطلق قامت الصين بإعادة صياغة سياستها الخارجية تجاه القارة الأفريقية لاسيما منطقة القرن الأفريقي باعتبارها ذات أهمية كبيرة لتحقيق مبادرة الصين "حزام واحد، طريق واحد"، ومبادرة "سلسلة اللؤلؤ"، أيضاً تعتبر منطقة القرن الأفريقي البوابة التي تشهد مرور التجارة الصينية من البر الصيني باتجاه أوروبا. لقد اعتمدت الصين في سياستها الخارجية تجاه القرن الأفريقي على مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية، تجنباً لحدوث صدام بينها وبين القوى المهيمنة من جهة، ومنعاً لإثارة المشاكل الداخلية تجاه مشاريعها الاستثمارية الكبرى في هذه المنطقة، إلا أن الصين في الفترة الأخيرة قد بدأت في التدخل في الشأن السياسي والأمني، ودليل ذلك القاعدة البحرية الصينية في جيبوتي، وتدخلها في الصراع القائم في أثيوبيا بدعمها الحكومة الأثيوبية ضد إقليم التيغراي.

المشكلة البحثية:

إلى أي مدى نجحت "القوة الناعمة" التي تستخدمها الصين في سياستها الخارجية تجاه منطقة القرن الأفريقي في تحقيق أهدافها الاقتصادية والسياسية والأمنية، وهل ستصبح الصين إحدى القوى الدولية الرئيسية الفاعلة في هذه المنطقة، وهل ستنجح الصين في التدخل في الشؤون السياسية والأمنية في دول القرن الأفريقي لحماية مصالحها الاقتصادية والسياسية؟

التساؤلات :

1. ما الاستراتيجية الصينية تجاه أفريقيا؟
2. ما أهمية القرن الأفريقي في السياسة الخارجية الصينية؟
3. ما التحديات التي تواجهها الصين في منطقة القرن الأفريقي؟
4. ما مستقبل العلاقات الصينية مع دول القرن الأفريقي؟

أهداف الدراسة:

تُعد الصين واحدة من أهم القوى الفاعلة في العالم في مرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ويلاحظ أن هناك تطوراً واضحاً في العلاقات الصينية الأفريقية على كافة الأصعدة والمستويات، وتهدف هذه الدراسة إلى معرفة الاستراتيجية التي تعمل بها الصين تجاه منطقة القرن الأفريقي لتحقيق مصالحها سواءً الاقتصادية أو السياسية والأمنية، والتحديات التي تواجهها في تنفيذ هذه الاستراتيجية ونجاحها.

أهمية الدراسة:

1. مساهمتها في توضيح طبيعة وأهداف السياسة الخارجية الصينية تجاه القرن الأفريقي.
2. سعيها للتعريف بالتوجهات الجديدة للسياسة الخارجية الصينية تجاه أفريقيا في ظل النظام الدولي العالمي أحادي القطبية.
3. يمكن تطبيق مناهج البحث العلمي المتداولة في مجال العلاقات الدولية والسياسة الخارجية على هذه الدراسة.

المنهج المستخدم:

1. منهج تحليل النظم وسيطبق هذا المنهج على النحو التالي: (إن التغير في البيئة الدولية والداخلية قد أثر على النظام السياسي الصيني في أغلبية توجهاته).
2. المنهج الواقعي: ويركز هذا المنهج على دعامتين رئيسيتين هما:
   أ. المصلحة الوطنية.
   ب. القوة القومية.

وسيطبق هذا المنهج على النحو التالي: (إن الصين تتحرك في سلوكها الخارجي بدافع تحقيق مصلحتها الوطنية).

تقسيم الدراسة:

للبحث في السياسة الخارجية الصينية تجاه منطقة القرن الأفريقي تقسم الدراسة إلى أربعة مطالب أساسية:

المطلب الأول : الاستراتيجية الصينية تجاه أفريقيا.

المطلب الثاني : القرن الأفريقي وأهميته في السياسة الخارجية الصينية.

المطلب الثالث: التحديات السياسية والأمنية التي تواجهها الصين في منطقة القرن الأفريقي.

المطلب الرابع رؤية مستقبلية للعلاقات الصينية مع دول القرن الأفريقي.

المطلب الأول

الاستراتيجية الصينية تجاه أفريقيا

بعد عقود طويلة اعتمدت الصين فيها على مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول حلفائها عبر العالم، كسياسة خارجية ترسم معالم علاقاتها الخارجية، وخاصة في أفريقيا، تجنباً لحدوث صدام بينها وبين القوى المهيمنة من جهة، ومنعاً لإثارة التوترات الداخلية ضد مشاريعها الاقتصادية في أفريقيا وصوناً لحضورها المتنامي من جهة ثانية، إلا أن الصين جنحت أخيراً إلى تجربة الانغماس في الشأن السياسي، عبر بوابة تعزيز الحوار ورعاية المفاوضات، لتكفيك معضلات أفريقيا الأمنية والسياسية، إدراكاً منها أن الوقت قد حان للعب دور سياسي أكبر في أفريقيا بشكل عام، وفي منطقة القرن الأفريقي تحديداً لملء الفراغ الذي أحدثه التراجع الغربي في المشرق الأفريقي، وذلك عبر توظيف اقتصادها القوي وتحالفاتها العريقة مع دول المنطقة[1]. وتعتمد الصين في التغلغل في أفريقيا على التغيير الناعم طبقاً

(1) دوافع اقتصادية وأغراض سياسية.. لماذا تعزز الصين نفوذها في القرن الأفريقي؟

لاستراتيجية صاغها المفكر الهندي "برهما تشيلاني"، وهي ما تعرف باستراتيجية (تقطيع شرائح السجق)، والتي تقوم على أن التحركات الصينية خفيفة وبطيئة ولا تشكل استفزازاً، إلا أن مجموع هذه التحركات يصنع تغيراً استراتيجياً على الأرض، وهو ما طبق في أفريقيا استناداً إلى حقيقة جلية أنها لم تقم باحتلال أي دولة أفريقية بعكس الدول الغربية التي تنظر إلى أفريقيا على أنها أرضاً محتلة، ووجودها في أفريقيا يستهدف سلب ثرواتهم وهو ما يزيد من احترام النخب الأفريقية للنظام السياسي الصيني، ولا شك أن هذه السياسة تدفع الصين لتحقيق نفوذ اقتصادي وعسكري عالمي أكبر من نفوذها الحالي[2].

ومن ناحية أخرى، فإن التعامل الصيني الذي لا يرتبط نشاطه الاقتصادي بإجراءات صندوق النقد الدولي أو الدفع باتجاه الشروط السياسية وما يتعلق منها بضرورة التحول الديمقراطي ومكافحة الفساد أو قضايا حقوق الإنسان، وغير ذلك من القضايا التي تعدها كثير من تلك الدول تدخلاً مباشراً في صميم شؤونها الداخلية، أمر يعتبره المراقبون نمطاً أكثر قبولاً عند كثير من الأنظمة الأفريقية[3].

ولعل الدافع الأكبر الذي يدفع الصين إلى الارتحال إلى أدغال أفريقيا خصوصاً في شرقها هو الدافع الاقتصادي الذي بموجبه أصبحت بيكين شريكاً اقتصادياً ولاعباً قوياً من حيث الاستثمارات والمشاريع، حيث بدت الصين من خلال ما قدمته من نموذج جديد في التعامل مع دول القارة شريكاً مقبولاً لدى الحكومات الأفريقية، لأسباب أهمها: كون الصين لا تحاول التدخل في الشؤون الداخلية للدول ولا تربط مساعداتها بشروط سياسية أو اقتصادية أو أخلاقية[4].

ومن أهم الخطوات التي اتخذتها الصين في أكتوبر عام 2000م، أنها بادرت إلى إنشاء منتدى التعاون الصيني-الأفريقي (FOCAC) لتعزيز العلاقات التجارية والاستثمارية بين الصين والبلدان الأفريقية في القطاعين العمومي والخاص، وقد أصبح مؤخراً يضم في عضويته أكثر من (45) دولة أفريقية، وهو ما أسهم في ترسيخ التغلغل الصيني في أفريقيا، ووضع العلاقات الاقتصادية الصينية- الأفريقية في مسار سريع، حيث نمت التجارة الثنائية بين الصين وأفريقيا من 10.6 مليارات دولار في عام 2000م إلى 160 مليار دولار عام 2011م[5]. وفي عام 2012م صادق المنتدى الخامس للتعاون الأفريقي الصيني في بكين على خطة عمل للفترة ما بين 2013-2015م، تقضي بحصول الدول الأفريقية على قروض ميسرة من الصين بـ 20 مليار من الدولارات لتطوير البنى التحتية، الزراعية والصناعية، وقد تقرر كذلك

politic/reality/midan/net.aljazeera.WWW

(2) سارة ممدوح حسن، الاستراتيجية الصينية في أفريقيا: دراسة حالة أثيوبيا، المركز الديمقراطي العربي، 18 أكتوبر 2017م.. https://democraticac.de/?p=so159.

(3) أبعاد الاهتمام الصيني بشرق أفريقيا: الفرص والعقبات.
https://nte.aljazeera.studies/node/en/4126

(4) أبعاد الاهتمام الصيني بشرق أفريقيا: الفرص والعقبات، المرجع السابق.

(5) الشيخ، باي الحبيب، الاستثمارات الصينية بأفريقيا: كيف نجحت الصين في كسب القارة الأفريقية؟، 29 أبريل 2014م
https://nte.aljazeera.studies/node/en/3691.

أن تساعد الصين الدول الأفريقية على تحقيق التنمية الذاتية والمستدامة، إضافة إلى تدريب الصين لـ 30 ألف كادر من الدول الأفريقية في مختلف المجالات، مع فتح الباب لتوفير 18 ألف منحة دراسية للطلاب الأفارقة، حيث تبني الصين رؤيتها على أساس أن " الغزو الثقافي " هو البديل المضمون ليرى الأفارقة الوجه الحقيقي للصين صاحبة الحضارة العريقة وليست القوة الاقتصادية التي جاءت لاستنزاف موارد القارة، حيث بدأت بكين منذ 2009م مشروعاً ضخماً للمنح الدراسية وصل بمقتضاه عدد الطلبة الأفارقة في الجامعات الصينية حوالي 12 ألف طالب يدرسون على نفقة الصين[6].

إن الحضور المتنامي للصين في أفريقيا يعكس أولوياتها من الناحية الاقتصادية والسياسية، ومن الواضح أن الأمر يتعلق أولاً بضمان التفوق التجاري والتنمية الاقتصادية للصين، ويتطلب هذا التطور داخلياً وخارجياً تأمين المواد الأولية الاستراتيجية، وثانياً من الناحية السياسية، رغم أن القارة الأفريقية ذات أهمية صغيرة بالنسبة لأجندة السياسة الخارجية للصين، إلا أنها تلعب دوراً داعماً إلى حدٍ كبير في استراتيجيتها الكبرى، وبدلاً من النظر إلى أفريقيا باعتبارها "غاية" أو "أولوية"، ينظر إليها باعتبارها "تكتيكاً" أو جزءاً من الأساس التي تُبنى عليه طموحات الصين الاستراتيجية الأوسع نطاقاً[7].

إن الصين تنهج استراتيجية الفعل غير المباشر والمتدرج، ويمكن اعتبار انخراطها في القارة الأفريقية "تكتيكاً" من بين تكتيكات أخرى، لم يكن الغرض منها فقط الاستجابة لحاجياتها الاقتصادية المباشرة المتزايدة، بل أيضاً لتعبيد الطريق بهدف الوصول سريعاً إلى قمة السياسة الدولية، وزناً اقتصادياً وسياسياً ونفوذاً تجارياً وجيوستراتيجياً[8].

المطلب الثاني

القرن الأفريقي وأهميته في السياسة الخارجية الصينية

تعتبر منطقة القرن الأفريقي ذات أهمية متزايدة بالنسبة لاستراتيجيات القوى العظمى والصاعدة في النظام الدولي وعلى رأسها بطبيعة الحال الصين، فبالنسبة لسياسة الصين العالمية كما هي الحال بالنسبة للولايات المتحدة والدول الأوروبية وروسيا يتطلب موقع القرن الأفريقي الحيوي منع وجود مراكز القوى التحالفات المعادية التي يتم تشكيلها ضد الصين في المستقبل، أما بالنسبة للمصالح الاقتصادية المتعددة، فقد ظلت عاملاً محدداً للسياسة الخارجية الصينية، وإن بقي الهدف الاستراتيجي الرئيسي متمثلاً في احتواء نفوذ القوى المهيمنة أو الراغبة في الهيمنة بما في ذلك روسيا، وعليه فإن هدف حماية

(6) الاستثمارات الصينية بأفريقيا: كيف نجحت الصين في كسب القارة الأفريقية؟، المرجع السابق.

(7) مصطفى جالي، الصين في أفريقيا: تحقيق غايات القارة أم البحث عن المصالح الاستراتيجية؟ 12 سبتمبر 2021م. https://:nte.aljazeera.studies/article/ar/5085.

(8) الصين في أفريقيا: تحقيق غايات القارة أم البحث عن المصالح الاستراتيجية؟ ،المرجع السابق.

مصالح الدولة الوطنية، كما هي الحال بالنسبة للقوى الغربية، يُعد المحدد الرئيسي لسياسة الصين الخارجية في منطقة القرن الأفريقي[9]. وتأتي أهمية القرن الأفريقي أيضاً، أنه يقع على طريق الشحن الرئيسي لنقل النفط من الخليج العربي إلى أوروبا والولايات المتحدة، وتعتبر واحدة من أكثر المناطق أهمية من الناحية الاستراتيجية في العالم، إذ أنها مليئة بالأنهار والبحيرات والغابات والثروات الحيوانية، ولديها رواسب غنية غير مستغلة من الموارد الطبيعية، بما في ذلك الذهب والنفط والغاز الطبيعي وما إلى ذلك[10].

وتعتبر منطقة القرن الأفريقي، البوابة التي تشهد مرور التجارة الصينية من البر الصيني باتجاه أوروبا، ويُعد ذلك هو سبب وجود قاعدة عسكرية صينية في جيبوتي تمثل نقطة الارتكاز للقوات البحرية الصينية لتأمين تجارتها التي تمر بالمنطقة[11]. حيث أنشأت الصين قاعدة بحرية لدعم القوات البحرية لجيش التحرير الشعبي الصيني في جيبوتي وذلك في أغسطس 2017م، وتشمل هذه القاعدة على ثكنات عسكرية ومناطق ممهدة وثمانية مواقع مخصصة للطائرات الهيلوكوبتر ولها طائرات دون طيار ومنشآت بحرية، وقد استمر التوسع بهذه الطريقة منذ تأسيسها من خلال إنشاء رصيف بحري بمساحة (450م) يمكنه استيعاب الأساطيل البحرية بما في ذلك السفن الحربية الضخمة[12]، وتتمثل المهمة الأساسية المعلنة للقاعدة في حماية التجارة الصينية في خليج عدن، جنباً إلى جنب مع جمع المعلومات الاستخبارية والدعم اللوجستي وعمليات مكافحة الإرهاب، ويمثل ذلك أيضاً زيادة كبيرة في قدرات الصين على إظهار القوة، وربما يكون الأهم بالنسبة للصينيين هو التأثير الذي يصاحب مثل هذه القاعدة، كجزء من تحسين العلاقات الصينية الجيبوتية، حيث قدمت الصين 40% من التمويل للبنية التحتية، وأقرضت جيبوتي مليار دولار لمشاريع استثمارية، من المحتمل أن تكون مثل هذه المشاركة مؤشراً على الأشياء القادمة، حيث تكون جيبوتي جزء من مبادرة الحزام والطريق الصينية الأكبر حجماً، والتي يتركز الكثير منها على دول شرق أفريقيا[13].

ووفقاً لورقة السياسة الدفاعية للصين التي صدرت في مايو عام 2015م،

(9) حمدي عبد الرحمن، استراتيجيات التمدد: أبعاد "أمننة" الوجود الصيني في القرن الأفريقي، 12 يوليو 2022.
https://www.shorouknews.com/mobile/view.aspx?date=23072022&id=cdb69-15bf-348s-4135-9a6b-dc

(10) محمد البتاكوشي، أبعاد محاولات التمدد الصيني في القرن الأفريقي.
https://www.paris-almarjie.com/19538.

(11) أبعاد محاولات التمدد الصيني في القرن الأفريقي.، المرجع السابق.

(12) محمود زكريا، القواعد العسكرية في جيبوتي: الواقع والأسباب، مركز فاروس.
https://www.pharostudies.com/?p=5636.

(13) Ck Majryan ,Hess .Counterbalancing Chinese in the Influence of Horn Africa: A Strategy for Security and Stability ,USAF ,Nov .18 .2021
WWW.Airuniversity.af.edu/JIPA/Display/Article/2847035.

فـإن القـوات المسـلحة سـتعمل عـلى خلـق وضـع اسـتراتيجي ملائـم مـع التركيـز عـلى اسـتخدام القـوات والوسـائل العسـكرية، وتتوافـق هـذه الصيغـة مـع مبـادرة الصـين "سلسـلة اللؤلـؤ" و "حـزام واحـد، طريـق واحـد"(١٤)*)، وحسـب مـا يـراه المراقبـون، فـإن قاعـدة الصـين في جيبوتـي ستسـاعد عـلى تحقيـق الهـدف الأخـير حيـث تمـر صـادرات صينيـة يوميـاً مـن خليـج عـدن وقنـاة السـويس إلى أوروبـا تبلـغ قيمتهـا مليـار دولار[15]. وحرصـت الصـين عـلى تعزيـز العلاقـات مـع إريتريـا، واتخاذهـا إحـدى المحطـات الهامـة لمبـادرة "الحـزام والطريـق" بغـرض الاسـتفادة مـن مينائـي "مصـوع وعصـب"، وأنشـأت طريقـاً بطـول (134) كيلومـتراً لتطويـر البنيـة التحتيـة الإرتيريـة، كمـا تقـدم لهـا مسـاعدات ماليـة متنوعـة[16]. ويمكـن القـول إن إخفـاق الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في التعامـل مـع أزمـات الصومـال قـد مّثـل فرصـة أمـام الصـين للاضطـلاع بـدور نشـط في الصومـال، فالصـين لا تعتمـد في علاقاتهـا مـع الصومـال عـلى مبـدأ المشروطيـة السياسـية، وهـي حريصـة كذلـك عـلى دعـم الأجهـزة الأمنيـة الصوماليـة، وهـو مـا يُمثـل فرصـة سـانحة لتنامـي الـدور الصينـي الـذي يحظـى بقبـول الأطـراف السياسـية الصوماليـة، وهـو مـا يعنـي أن نفـوذ الولايـات المتحـدة الأمريكيـة سيشـهد تراجعـاً نسـبياً في مقديشـيو[17].

كمـا تسـعى الصـين لكسـب ود الحكومـة الصوماليـة بغـرض إجهـاض محـاولات "أرض الصومـال" لتوثيـق علاقاتهـا بتايـوان، فالعلاقـات المتنامية بـين جمهوريـة "أرض الصومـال" التـي أعلنـت اسـتقلالها عـن جمهوريـة الصومـال بشـكل مُنفـرد، وتايـوان التـي تعدهـا الصـين جـزءاً مـن أراضيهـا قـد أثـارت تحفـظ كل مـن الصـين والصومـال[18].

ومـن جميـع البلـدان الواقـع في مرمـى الصـين، تـبرز أهميـة أثيوبيـا كدولـة تتمتـع بإمكانيـات سياسـية واقتصاديـة هائلـة، ولديهـا ثانـي أكـبر عـدد مـن السـكان في أفريقيـا وهـي مسـتقرة سياسـياً نسـبياً، ممـا يجعلهـا مـن وجهـة نظـر بكـين أنهـا تصلـح بـأن تكـون نـواة لمبـادرة الحـزام والطريـق. ومـع تزايـد الترابـط الاقتصـادي بين الصـين ودول القـرن الأفريقـي، توسـع تعريـف الصـين لمصالـح الأمـن القومـي، لذلـك أصبحـت مهتمـة بتأمـين الشـحنات البحريـة عـلى طـول خطـوط الاتصـال البحريـة الرئيسـية التـي تربـط دول القـرن الأفريقـي بالموانـئ البحريـة الصينيـة، ضـد هجمـات

(14)*) تهـدف مبـادرة "سلسـلة اللؤلـؤ" إلى إنشـاء خـط مـن الموانـئ البحريـة بطـول المحيـط الهنـدي لتأمـين الممـرات البحريـة التـي عـادة مـا تمـر بهـا السـفن التجاريـة الصينيـة، وتهـدف مبـادرة "حـزام واحـد، طريـق واحـد" إلى إنشـاء شـبكة طـرق بريـة وبحريـة تجاريـة تربـط الصـين مـع الـشرق الأوسـط وأوروبـا.

(15) أبعاد الاهتمام الصيني بشرق أفريقيا: الفرص والعقبات.
https://www.aljazeera.studies/node/en/nte.4126

(16) أبعاد محاولات التمدد الصيني في القرن الأفريقي، مرجع سبق ذكره.

(17) أسماء عادل، الحضور الصيني في الصومال: الدوافع والمآلات، أبريل 2023.
https://www.ecss.com.eg/marsad/68769.

(18) الحضور الصيني في الصومال: الدوافع والمآلات، المرجع السابق.

القراصنة المتزايدة منذ الألفية الجديدة، علاوة على ذلك، بجانب النزاعات العنيفة في عدد من البلدان الأفريقية منها بطبيعة الحال (الصراع الأثيوبي بين الحكومة المركزية وإقليم التيجراي) ، وفي سبيل حفاظ الصين على مصالحها الاقتصادية ولتعزيز صورتها كقوة عظمى مسئولة سارعت الصين في بناء قدراتها البحرية في إطار التحديث الهائل لقواتها المسلحة[19].

المطلب الثالث

التحديات السياسية والأمنية التي تواجهها الصين في منطقة القرن الأفريقي

السياسات الخارجية الصينية في القرن الأفريقي مبنية على عدة مصالح سواء اقتصادية سياسية أمنية، وذلك للأهمية التي يكتسبها، إلا أنها التقت بالعديد من التحديات سواء كانت داخلية أو خارجية، ويمكن ذكر أهم هذه التحديات على النحو التالي:

أولاً: تحديات تتعلق بالثقافة واللغة والدين، حيث يفرض هذا على الصينيين اللذين يعملون في أفريقيا سواء كانوا دبلوماسيين أو أطباء أو رجال أعمال أو تقنيين أن يتعلموا اللغات السائدة في الدول الأفريقية وذلك لزيادة فاعلية هذه السياسات واندماجها مع الواقع الأفريقي[20].

ثانياً: تراجع الدور الأمريكي في منطقة القرن الأفريقي ليس كما يتصوره البعض أنه يمثل مصلحة "للقطب الصيني الصاعد" . حيث إن الفراغ الأمني والسياسي الناتج عن هذا التراجع الأمريكي، سيفرض مزيداً من الأعباء على السياسة الصينية لتأمين مصالحها الحيوية المتعاظمة حول العالم[21].

وبالرغم من تراجع دور الولايات المتحدة الأمريكية عالمياً، إلا أنها بقيت تمتلك القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية التي تمكنها حتى الآن من البقاء على عرش القوى الدولية، لكن تنامي الصعود الاقتصادي والتكنولوجي الكبير للصين والقوة العسكرية لروسيا، وتسارع تنميتها، أدخل النظام الدولي بتأرجح في توازن القوى، وبات يشكل المرحلة الفاصلة بين تحول النظام الدولي، ويعتقد أن مستقبل الدبلوماسية الصينية مرهون بشكل النظام الدولي[22].

ثالثاً: تواجه الصين معضلة صعبة وهي صعوبة مواصلة سياستها اللاتدخلية، والتي يعتمد عليها جانب مهم من تصاعد مكانتها الاقتصادية العالمية، في حال

(19) أميرة محمد عبد الحليم، السياسات الصينية الجديدة في أفريقيا، 2020/1/26.
https://com.pharostudies/?p=3574.

(20) أمنية محسن عمر الزيات، السياسة الخارجية الصينية تجاه أفريقيا (1991-2015)، المركز الديمقراطي العربي، 19 أغسطس2016.
https://de.democraticac/?p=35916

(21) مالك عوني، السياقات الغالبة: الصعود الصيني إلى "اللاقطبية"، السياسة الدولية، 2017/01/16.
https://www.siyassa.org.eg/News/11996.aspx

(22) عمر جمال شاور، تعزيز الصين لنفوذها عالمياً من خلال الدبلوماسية الناعمة 2013-2020، المركز الديمقراطي العربي، 13 نوفمبر 2021
https://de.democraticac/?p=78460

تبنيها أي نزعة لإحداث تحول قطبي عالمي النطاق، ذلك أن مثل هذا التحول سيحفز العديد من عمليات المراجعة والصراع، عبر العديد من أقاليم العالم، التي تعد ذات أهمية حيوية لمصالح الصين الاقتصادية، بل والاستراتيجية مثلما تشهد منطقة القرن الأفريقي في اللحظة الراهنة، وإذا كانت مكانة الصين الاقتصادية والعالمية تعززت بفضل سياسة اللاتدخل والحيدة تلك، فإن اللاتدخل الصيني في حد ذاته لا يضمن تسوية وحل الصراعات التي تهدد المصالح الصينية [23].

رابعاً: الصين تحاول إقامة علاقات مع معظم الدول الأفريقية ومنها بطبيعة الحال دول القرن الأفريقي، وذلك لتحقيق الاستفادة من تلك العلاقات وهو ما يضع الصين أمام معضلة التعامل مع أطراف متصارعة، ومثال ذلك الحالة القائمة بين أثيوبيا وارتيريا اللتين ترتبط بهما الصين بعلاقات وثيقة على الرغم من العداء القائم بينهم، إذ دارت حرب بينهم بسبب الصراع الحدودي على مثلث "بادمي" ومازال الصراع بينهما قائماً، فكل هذا واستمرار النزاع بين البلدين يمثل تهديداً لاستمرار علاقتهما المشتركة مع الصين [24].

خامساً: تتعرض الصين لانتقادات من جماعات المصالح داخل الدول الأفريقية، وبالطبع منها دول القرن الأفريقي، حيث ترفض هذه الجماعات إغراق الأسواق الأفريقية بالبضائع الصينية زهيدة الثمن مما يؤدي للإضرار بمصالحهم، كما يؤدي لتهديد الصناعات المحلية في هذه الدول، وتحويلها من دول تعتمد على الخارج بدلاً من دول تعتمد على الذات[25]. كما يتم الاعتراض من قبل السكان المحليين على أي خطط للتوسع الصناعي على حساب أراضيهم، والمطالبة بتوزيع عادل لعوائد التنمية، لاسيما عندما يكون من المتوقع اكتشاف معادن في هذه المناطق، وهذا بطبيعة الحال يؤثر تأثيراً سلبياً على المشروعات الصينية في دول القرن الأفريقي.

سادساً: تشكل الصراعات في منطقة القرن الأفريقي تحدي للاستراتيجية الصينية في منطقة القرن الأفريقي، حيث إن الدول الأفريقية تتكون من عدة قوميات نتاج تقسيم الحدود التي وضعتها الدول الاستعمارية الأوروبية، مما أدى إلى نشوء العديد من الصراعات داخل هذه الدول، والتي تؤثر تأثيراً مباشراً على المصالح الاقتصادية الصينية، ولعل إثيوبيا خير دليل على ذلك، فمن المعلوم أن إثيوبيا عاشت الفترة الأخيرة أحداثاً دامية وفوضى عارمة هزت النظام الأثيوبي، وهذا الأمر لو تكرر من شأنه أن يعوق المشاريع والشركات الصينية فيها، خصوصاً إن عمليات اختطاف الرعايا والمواطنين الصينيين أو مهاجمة المصالح والمواقع والمنشآت الصينية تكررت في بعض بؤر التوتر، كان أخطرها في إقليم "أوغاين"

(23) السياقات الغالبة: الصعود الصيني إلى "اللاقطبية"، السياسة الدولية، مرجع سبق ذكره.

(24) أسماء حجازي، العلاقات الصينية-الأثيوبية: الفرص والتحديات، المركز الديمقراطي العربي، 1 أبريل 2018. https://democrtica.de/?p=53396.

(25) السياسة الخارجية الصينية تجاه أفريقيا، مرجع سبق ذكره.

عام 2002م عندما سقط 9 صينيين قتلى، وتم اختطاف مجموعة أخرى مماثلة في "كردفان" عام 2007م، وحادثة ثالثة في أكتوبر 2007 اختطف فيها 9 صينيين سقط 4 منهم قتلى [26].

المطلب الرابع

رؤية مستقبلية للعلاقات الصينية مع دول القرن الأفريقي

من الواضح وجود تغير وتبدل مهم في أدوار القوى الدولية في القرن الأفريقي، فبينما يتراجع النفوذ الأمريكي الذي ينشغل بالمواجهة مع روسيا في أوكرانيا، تقوم الصين بتمديد نفوذها وممارسة دور أمني في المنطقة طبقاً للمبعوث الصيني الخاص إلى القرن الأفريقي، فإن بكين تريد أن تقوم بدور أكبر "ليس فقط في ا لتجارة والاستثمارات ولكن أيضاً في مجال السلام والتنمية والأمن"، يُعكس ذلك تحولاً واضحاً في الاستراتيجية الصينية التي كانت تركز على استغلال الفرص التجارية في إثيوبيا وجيبوتي وغيرهما في دول المنطقة، ومن المرجح أن تنتقل الصين قريباً إلى مرحلة جديدة تستخدم فيها جيشها تحت ستار العمليات الأمنية أو الشراكات من أجل التأثير على الحكومات وفقاً لمصالحها على طول سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي من السودان إلى كينيا [27].

تعد الصين أقوى شريك اقتصادي مع دول القرن الأفريقي، وذلك وفق معطيات الأرقام والإحصاءات حول التبادل التجاري بين المنطقة وبيكين، وهو ما قد يدفعها إلى الانخراط في التجربة السياسية واستثمار نفوذها الاقتصادي في توسيع مناحي نفوذها أمنياً وسياسياً، وانتشار أساطيلها البحرية قبالة السواحل الصومالية وخليج عدن والبحر الأحمر، عبر آليات التعاون الثنائي مع دول القرن الأفريقي، تحديداً جيبوتي وارتيريا والصومال، ومحاولاتها مستقبلاً لإيجاد حلول للأزمات الداخلية والإقليمية مثل تلك العالقة بين أثيوبيا ومصر والسودان حول سد النهضة، وهو انتقال صيني نوعي من ريع الاقتصاد إلى دروب السياسة، وهي الخطوات الصينية الحثيثة في الإقليم على نية الصين الاستفادة من انشغال القوى الدولية التقليدية (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي) لتعزيز حضورها الأفريقي[28]. لقد عينت الصين في مطلع هذا العام 2022م، السفير "شيويه بينج" مبعوثاً خاصاً للرئيس الصيني في القرن الأفريقي، قام هذا المبعوث فور تعيينه بزيارات لكل دول الإقليم، بحيث زار الصومال وجيبوتي وارتيريا وإثيوبيا والسودان وكينيا، بالإضافة إلى زيارة كل من دولتي أوغندا وجنوب السودان، ومن خلال هذه الزيارات تبين أن الصين توسع فضاء هذا الإقليم بإضافة أوغندا وجنوب السودان،

(26) أبعاد الاهتمام الصيني بشرق أفريقيا: الفرص والعقبات، جزيرة نت، مرجع سبق ذكره.

(27) أبعاد "أمننة" الوجود الصيني في القرن الأفريقي، مرجع سبق ذكره.

(28) الشافعي أبتدون، الوجود الصيني في القرن الأفريقي، 16 مايو 2022.
https://rc-chinaasia.org.

وتصنع منه وحدة إقليمية كبيرة يمكن تسميتها القرن الأفريقي "الأكبر" [29]. ومن الواضح أن الصين لن تجد عناءً كبيراً في زيادة حجم حضورها ذي الأوجه المتعددة في منطقة القرن الأفريقي، لأن الحكومات والأنظمة الأفريقية تنظر إلى الصين نظرة مغايرة لنظرتها إلى الدول الغربية بصفة عامة، لأن صحائف تاريخها خلية من السوابق الاستعمارية، ولهذا فإن هذا المشروع الصيني سيجد القبول، رسمياً وشعبياً، وخصوصاً أن الحضور الصيني في أفريقيا ينظر إليه بمقدار من الترحاب والقبول، ولاسيما بعد النمط الذي اعتمدته الصين في علاقاتها الأفريقية، والذي يحقق استجابة معقولة لمطالب الحكومات الأفريقية وحاجاتها، والذي كان عنوانه التعاون غير المشروط بشروط سياسية [30]. ويشير السعي وراء بنية تحتية تجارية واسعة النطاق إلى نية استراتيجية، كما أن توسيع الوجود العسكري الصيني عبر أفريقيا في أعقاب مبادرة الحزام والطريق ليس غير متوقع. لقد أنتج التداخل الماهر لبكين بين القوة الاقتصادية الناعمة والقوة الصارمة تعايشاً بين العدد المتزايد من الشركات التجارية الصينية في جميع أنحاء أفريقيا وانتشار الترتيبات الأمنية الصينية الجديدة عبر القارة، بينما لعب الاقتصاد الدور القيادي في مجمع التنمية الاقتصادية، هذا ويبدو أن الديناميكيات تدخل مرحلة جديدة [31]. نظراً لضعف التمويل اللازم من الدول الغربية والمؤسسات المالية الدولية، لجأت دول القرن الأفريقي إلى الاقتراض من الصين كممول بديل، ومع ذلك؛ على المستوى المحلي بدأت الشعوب وكذلك بعض الحكومات والهيئات الحكومية الدولية في دق ناقوس الخطر بشأن المخاطر المحتملة من ممارسة الأعمال التجارية مع الصين، على سبيل المثال، أظهرت دراسة أجريت في جيبوتي أن السكان المحليين لديهم نظرة إيجابية عالية للصين، ولكنهم كانوا قلقين بشأن كيفية قيام أمتهم بتسديد قروضهم، حتى وسائل الإعلام التي تسيطر عليها الدولة نشرت مقالات انتقاد الصين لمحاولتها "استعمار البلدان الأصغر بالديون، فيما وصفوه بـ "النموذج السريلانكي" ، يتعلق هذا الأخير بصفقة ميناء "هامبانتونا" لعام 2017م، والتي تمت بين الصين وسريلانكا، ومنحت شركة "China Merchant Port" الصينية إيجار لمدة 99 عاماً للميناء الذي ساعدوا في تمويله، على الرغم من أن الصين دفعت لسريلانكا 1.1 مليار دولار أمريكي للميناء، وأبرمت الحكومة الصفقة لخدمة الديون الأخرى المستحقة، إلا أنها أصبحت مجرد صورة لما يراه الكثيرون، مخاطر التعامل مع الصين واحتمال فقدان السيادة[32].

ورغم تعرض الصين لانتقادات متزايدة في الآونة الأخيرة من بعض الأطراف

(29) محمد حسب الرسول، الصين والقرن الأفريقي "الأكبر" https://www.almayadeen.net

(30) الصين والقرن الأفريقي "الأكبر"، المرجع السابق.

(31)Michael Ton Chum ,Chines New Military Base in Africa :what Means for Europe and America.
https://www.eucfn.eu/article/chines-new-military-base-in-africa-and-europe-for-means-it-what-americ

(32) Baldridge Hunter ,Djibouti in China: A Uncertain Future.
https://www.crisesobservatory.es/china-djibouti-in-uncertain-future/

الأفريقية، بسبب اعتمادها على العمالة الصينية والمساهمة بنسبة ضئيلة في تشغيل العمالة المحلية الأفريقية، وإغراق السوق الأفريقية بالسلع الرخيصة التي تمثل خطراً على المنتجين المحليين، والممارسات التجارية غير القانونية لانتزاع النفط الخام وقطع ونقل الأخشاب وغير ذلك، إلا أن البديل الصيني أعطى القارة الأفريقية شكلاً جديداً على المستوى الدولي، وأدى إلى زيادة الاهتمام الأمريكي والغربي بها، ومن ثم زيادة التنافس الدولي داخلها، أي أنه بالمعنى الاقتصادي البسيط رفع قيمة القارة وأعلى من شأنها، وبدأ يدفع بها بعيداً عن التهميش الاقتصادي لتصبح أكثر مركزية في النظام الاقتصادي العالمي وفي السياسات العالمية[33]. لقد استطاعت الصين التفوق على الولايات المتحدة الأمريكية وأن تحل محلها وتصبح الشريك التجاري الدولي الأول للقارة الأفريقية، وذلك اعتباراً من عام 2009م، وفي ظل الحرص الشديد من جانب الصين على زيادة تجارتها مع القارة الأفريقية، فمن المتوقع أن تظل تحظى بمنزلة الشريك التجاري الدولي الأول للقارة الأفريقية لفترة مقبلة، وبينما يعاني الميزان التجاري الأمريكي من عجز مستمر مع القارة الأفريقية، حيث تستورد الولايات المتحدة من القارة ما يعادل ثلاثة أضعاف الصادرات الأمريكية إليها، إلا أن الميزان التجاري الصيني مع القارة الأفريقية ظل إلى حد كبير متوازناً وتأرجح بين العجز والفائض وفي كلتا الحالتين بهامش صغير[34].

إن مستقبل العلاقات الصينية - الأفريقية آخذ بالصعود بعد التغيرات الاستراتيجية في كل من الصين والدول الأفريقية، كذلك عدم وجود معوقات لهذه العلاقات بين الطرفين لعدم وجود تجارب تاريخية سيئة تعوق هذه العلاقات، لاسيما في عالم يقوم على المصالح المتبادلة[35].

إن نموذج الصين الاقتصادي اليوم يمثل نموذجاً ناجحاً بكل مقاييس الاقتصاد والسياسة، إذ الانفتاح السياسي والاقتصادي على جميع دول العالم ولاسيما دول القارة الأفريقية، جعل من قادة وشعوب هذه الدول تنظر بعين الارتياح من السياسة الصينية القائمة على المصالح المتبادلة ولعمق الاستثمارات المفيدة لتلك الدول[36].فأفينت

خاتمة

تتحرك الصين في أفريقيا بأريحية كبيرة، وذلك عبر تبني الدبلوماسية الناعمة في سياستها الخارجية تجاه منطقة القرن الأفريقي، فالقفزة الكبيرة في حجم الاستثمار والتبادل التجاري بين منطقة القرن الأفريقي والصين، وتعاظم قوات

(33) سامي السيد أحمد محمد، التنافس الأمريكي الصيني في أفريقيا بعد انتهاء الحرب الباردة- السودان دراسة حالة، المركز العراقي- الأفريقي للدراسات الاستراتيجية، بغداد، العراق، الطبعة الأولى، دار الاتحاد للطباعة، 2016،ص 381.

(34) التنافس الأمريكي الصيني في أفريقيا بعد انتهاء الحرب الباردة- السودان دراسة حالة، المرجع السابق، ص661.

(35) حارث قحطان عبد الله، مؤشرات الاستهلاك الصيني من النفط، مجلة الدراسات الأفريقية وحوض النيل، فصلية دولية علمية محكمة، تصدر عن المركز الديمقراطي العربي- برلين، المجلد الأول، العدد الأول، مارس 2018، ص 180.

(36) المرجع السابق، ص 180.

حفظ السلام الصينية في أفريقيا، والتنسيق في القضايا السياسية والأمنية، قد يؤدي إلى تطويق تحركات القوى الإقليمية والغربية في المنطقة، وهو ما من شأنه أن يسهل عملية هيمنة الصين على السوق والساحة الأفريقية.

ويمكن اعتبار أن الاستراتيجية الصينية في أفريقيا والتي تعتمد على الفعل غير المباشر والمتدرج والبطيء تكتيكاً يهدف إلى تعبيد الطريق أمام الصين للوصول إلى قمة السياسة الدولية، ويكون للصين وزناً اقتصادياً وسياسياً ونفوذاً تجارياً كبيراً، ويفهم من ذلك أن الصين تحاول العبور إلى قمة السياسة الدولية من خلال بوابة أفريقيا. يبدو أن طريق الصين تجاه التغلغل والسيطرة على القارة الأفريقية معبد وسهل، ولكن في الحقيقة يجب أن لا نهمل التحديات التي توجهها الصين في تعاملها مع القارة الأفريقية سوءاً تحديات تتعلق بمصالح الدول الكبرى في القارة أو الأوضاع الداخلية والصراعات داخل كل دول أفريقية، أو بين الدول الأفريقية مع بعضها البعض، وهذه معضلة صعبة بالنسبة للسياسة الخارجية الصينية تجاه أفريقيا، وهي سياسة اللاتدخل في الصراعات الأفريقية، حيث أن سياسة اللا تدخل والحيادية قد لا تضمن تسوية وحل الصراعات التي تهدد المصالح الصينية، ولذلك اضطرت الصين إلى التدخل السياسي في عمليات المفاوضات والتسوية في كثير من الصراعات الأفريقية سوءاً داخلية أو دولية، كما قامت الصين بالتدخل العسكري وهو عبارة عن دعم قدمتها الصين لجهة على حساب جهة، مثل تدخلها في الحرب الأثيوبية حيث قامت بدعم حكومة "أبي أحمد" ضد "جبهة تحرير التيجراي".

لا يمكن إنكار أن العلاقات الصينية- الأفريقية آخذ بالصعود بعد التغيرات الاستراتيجية في كل من الصين وأفريقيا، وعدم وجود تجارب سيئة تعوق العلاقات لاسيما في عالم يقوم على المصالح المتبادلة. ولكن مع ذلك يمكن الزعم بأن الصين لن تستطيع الاستمرار في سياستها اللا تدخلية في الصراعات الأفريقية، وذلك للحفاظ على مصالحها السياسية والاقتصادية، وهذا يعني أنها لابد أن تتدخل لو لزم الأمر مع طرف ضد طرف آخر، وهذا ما سوف تستغلها القوى الدولية الأخرى في دعم الطرف المعترض على التدخل الصيني، وهذا من شأنه ضرب المصالح الصينية في أفريقيا، وأيضاً التأثير بالسلب على العلاقات الصينية الأفريقية.

قائمة المراجع:

أولاً: المراجع العربية:

1. أبعاد الاهتمام الصيني بشرق أفريقيا: الفرص والعقبات.
https://studies.aljazeera.nte/en/node/4126
2. أسماء حجازي، العلاقات الصينية-الأثيوبية: الفرص والتحديات، المركز الديمقراطي العربي، 1 أبريل 2018.
https://democrtica.de/?p=53396.
3. أسماء عادل، الحضور الصيني في الصومال: الدوافع والمآلات، أبريل 2023.
https://marsad.ecss.com.eg/68769.
4. أمنية محسن عمر الزيات، السياسة الخارجية الصينية تجاه أفريقيا (1991-2015)، المركز الديمقراطي العربي، 19 أغسطس2016.
https://democraticac.de/?p=35916
5. أميرة محمد عبد الحليم، السياسات الصينية الجديدة في أفريقيا، 26/1/2020.
https://pharostudies.com/?p=3574.
6. حارث قحطان عبد الله، مؤشرات الاستهلاك الصيني من النفط، مجلة الدراسات الأفريقية وحوض النيل، فصلية دولية علمية محكمة، تصدر عن المركز الديمقراطي العربي- برلين، المجلد الأول، العدد الأول، مارس 2018.
7. دوافع اقتصادية وأغراض سياسية.. لماذا تعزز الصين نفوذها في القرن الأفريقي؟
WWW.aljazeera.net/midan/reality/politic
8. سارة ممدوح حسن، الاستراتيجية الصينية في أفريقيا: دراسة حالة أثيوبيا، المركز الديمقراطي العربي، 18 أكتوبر 2017م..
https://democraticac.de/?p=so159.
9. سامي السيد أحمد محمد، التنافس الأمريكي الصيني في أفريقيا بعد انتهاء الحرب الباردة- السودان دراسة حالة، المركز العراقي- الأفريقي للدراسات الاستراتيجية، بغداد، العراق، الطبعة الأولى، دار الاتحاد للطباعة، 2016،ص 381.
10. الشافعي أبتدون، الوجود الصيني في القرن الأفريقي، 16 مايو 2022.
https://chinaasia-rc.org.
11. الشيخ، باي الحبيب، الاستثمارات الصينية بأفريقيا: كيف نجحت الصين في كسب القارة الأفريقية؟، 29 أبريل 2014م
https://studies.aljazeera.nte/en/node/3691.
12. عمر جمال شاور، تعزيز الصين لنفوذها عالمياً من خلال الدبلوماسية الناعمة 2013-2020، المركز الديمقراطي العربي، 13 نوفمبر 2021
https://democraticac.de/?p=78460
13. مالك عوني، السياقات الغالبة: الصعود الصيني إلى "اللاقطبية"، السياسة الدولية، 16/01/2017.
https://www.siyassa.org.eg/News/11996.aspx
14. محمد البتاكوشي، أبعاد محاولات التمدد الصيني في القرن الأفريقي.
https://www.almarjie-paris.com/19538.
15. محمد حسب الرسول، الصين والقرن الأفريقي "الأكبر"
https://www.almayadeen.net
16. محمود زكريا، القواعد العسكرية في جيبوتي: الواقع والأسباب، مركز فاروس.
https://pharostudies.com/?p=5636.

17. مصطفى جالي، الصين في أفريقيا: تحقيق غايات القارة أم البحث عن المصالح الاستراتيجية؟ 12 سبتمبر 2021م.
https://studies.aljazeera.nte/ar/article/5085.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Hunter Baldridge, China in Djibouti: A Future Uncertain.
https://crisesobservatory.es/china-in-djibouti-future-uncertain/
2. Majryan Ck. Hess, Counterbalancing Chinese Influence in the Horn of Africa: A Strategy for Security and Stability, USAF, Nov. 18. 2021
WWW. Airuniversity.af.edu/JIPA/Display/Article/2847035
3. Michael Ton Chum, Chines New Military Base in Africa: what Means for Europe and America.
https://ecfn.eu/article/chines-new-military-base-in-africa-what-it-means-for-europe-and-americ

النشاط التجاري الروماني عبر الصحراء الليبية
(27 ق.م284- م)

إعداد: د. محمد عمران محمد الأربد
أستاذ مساعد بقسم التاريخ- كلية الآداب/ جامعة بني وليد

الاستلام: 12/ 12/ 2022 القبول : 1/ 2/ 2023

المستخلص :

مثلت الأراضي الليبية قديماً جسراً مهماً من طرق القوافل التجارية الصحراوية نظراً لوقوعها عند نهاية أقصر الطرق البرية المتجهة جنوباً إلى دواخل القارة الأفريقية، الأمر الذي ساهم في ازدهار تجارة الصحراء من خلال القبائل الليبية التي تواجدت في هذه المنطقة وانتشرت في أرجائها منذ القدم، خاصةً وأن هذه القبائل صارت بعد سقوط نوميديا بيد الرومان تتطلع إلى مدينة عاصمة قبيلة الجرمنت – والذين امتهنوا التجارة على نطاق واسع في قلب الصحراء الليبية، والتي أضحت من أهم المحطات التجارية التي تلتقي عندها طرق القوافل القادمة من الشمال أو من أواسط أفريقيا، حيث أصبحت تلك المدينة تمثل النموذج المثالي الجديد في إدارة العمليات التجارية عبر الصحراء، وتبادل مختلف السلع والبضائع خاصةً مع الجانب الروماني.

كلمات مفتاحية: القبائل، القوافل، التجارة، الطرق، السلع .

Summary:

The Libyan lands were previously an important bridge of the desert trade caravan routes due to its location at the end of the shortest land route heading south to the interior of the African continent, which contributed to the prosperity of the desert trade through the Libyan tribes that were present in this region and spread throughout it since ancient times, especially since these After the fall of Numidia in the hands of the Romans, the tribes became looking forward to the city of the capital of the Garamant tribe – who traded on a large scale in the heart of the Libyan desert, which became one of the most important commercial stations at which the caravan routes coming from the north or from central Africa met, as that city became a model The new ideal in the management of commercial operations across the desert, and the exchange of various goods and merchandise, especially with the Romanian side.

Keywords: tribes, caravans, trade, roads, commodities.

مقدمة :

كان للموقع الجغرافي المميز الذي تمتعت به الأراضي الليبية منذ القدم دوراً كبيراً في السيطرة على طرق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى في العصور القديمة، ولا سيما ما يربط منها بين البحر الأبيض المتوسط في الشمال، وأواسط القارة الأفريقية جنوباً، بالإضافة إلى احتواء تلك الأراضي المترامية الأطراف على أهم طرق التجارة التي تربط بين وادي النيل في مصر شرقاً، ومناطق غرب القارة الأفريقية بصفةٍ عامة، وبالتالي كان لقبائل الصحراء الليبية دوراً بارزاً في المساهمة في التعامل التجاري منذ فترات موغلة في القدم مع المناطق المجاورة، وكذلك مع الشعوب الوافدة، كما أن الصحراء الكبرى لم تكن عائقاً بين ساحل البحر المتوسط ودواخل القارة الأفريقية، بل كانت حلقة وصل بينهما عن طريق استخدام القوافل التجارية، حيث ساهمت الواحات المنتشرة في أرجائها بدور كبير في الحركة التجارية عبرها، فقد كانت تحتوي على محطات استراحة للتجار والمسافرين يتزودون من خلالها بالماء والغذاء، هذا إلى جانب اعتدال المناخ واستقراره في معظم أشهر العام، بالإضافة إلى نميز الليبيون بصفةٍ عامة بالقوة والصحة الجسدية، وكذلك الصبر والقدرة على تحمل المشاق والأعباء، والسير لمسافات طويلة في الصحراء، فضلاً عن المعرفة الجغرافية بطبيعة أرضهم، والانفتاح على حضارات الآخرين، والتواصل معهم متى كانت الظروف مواتية لذلك، الأمر الذي أدى إلى توافر كل المقومات الضرورية واللازمة لنجاح العملية التجارية عبر الصحراء.

أدركت روما -وخاصةً في عصرها الإمبراطوري- أهمية التجارة الخارجية من خلال الصحراء الليبية، وما يمكن أن تحققه من عائدات اقتصادية مهمة تدعم إيرادات الخزينة العامة للدولة، والتي كانت منهكة في ذلك الوقت بسبب الثورات والحروب الداخلية والخارجية، لذلك سارع الساسة الرومان - ومنذ البدايات الأولى لدخول المنطقة تحت سيطرتهم - إلى التواصل مع رجال القبائل الليبية التي كانت تقطن تلك الصحراء، لإتمام عمليات الربط التجاري مع هذه القبائل، من أجل تبادل مختلف السلع والبضائع من خلالها، وبهدف تحقيق النفع والفائدة لكلا الطرفين المحلي والروماني، كل ذلك أدى بطبيعة الحال إلى نشاط التجارة الرومانية عبر الصحراء الليبية وازدهارها بفضل رجال المال والتجار، وبإشراف السلطة المركزية في العاصمة روما.

أولاً - الأهمية التجارية للصحراء الليبية:

احتوت الأراضي الليبية قديماً على شبكة مهمة من طرق القوافل التجارية الصحراوية نظراً لوقوعها عند نهاية أقصر الطرق البرية المتجهة جنوباً إلى دواخل القارة الأفريقية، الأمر الذي ساهم في ازدهار تجارة الصحراء من خلال القبائل الليبية التي تواجدت في هذه المنطقة وانتشرت في أرجائها منذ القدم، خاصةً

وأن هـذه القبائـل صـارت بعـد سـقوط نوميديـا Numedia[1] بيـد الرومـان تتطلـع إلى مدينـة جرمـه Garama عاصمـة قبيلـة الجرمنـت – والذيـن امتهنـوا التجـارة عـلى نطاق واسـع[2] – في قلـب الصحـراء الليبيـة، والتـي أضحـت مـن أهـم المحطـات التجاريـة التـي تلتقـي عندهـا طـرق القوافـل القادمـة مـن الشـمال أو مـن أواسـط أفريقيـا، حيـث أصبحـت تلـك المدينـة تمثـل النمـوذج المثـالي الجديـد في إدارة العمليـات التجاريـة عـبر الصحـراء، وتبـادل مختلـف السـلع والبضائـع خاصـةً مـع الجانـب الرومانـي[3].

وفي هـذا الإطـار أظهـرت الرسـوم المنقوشـة عـلى الصخـور في جبـال أكاكـوس Acacus الواقعـة جنـوب فـزان قوافـل يحرسـها أصحابهـا، كمـا أن نصـوص العـصر التاريخـي في مـصر القديمـة أشـارت إلى أن أحـد تجـار أسـوان اسـتخدم ليبيـين ليقطـع الصحـراء بقافلـة مكونـة مـن ثلاثمائـة حمـار، وكذلـك أشـارت مصـادر عـصر الأسرات الفرعونيـة إلى غنائـم حصـل عليهـا ملوكهـا بعـد انتصارهـم عـلى بعـض القبائـل الليبيـة، تمثلـت في جلـود حيوانـات مفترسـة يرجـح أنـه تـم الحصـول عليهـا بواسـطة التجـارة مـع سـكان الدواخـل والأدغـال الأفريقيـة فيمـا وراء الصحـراء خـلال تلـك المرحلـة، وهـذا يعنـي أن الليبيـين قـد عملـوا بالتجـارة الصحراويـة منـذ عصـور مـا قبـل التاريـخ مـع شـعوب العالـم القديـم[4].

واسـتناداً إلى مـا سـبق فـإن مـن بـين دوافـع الاحتـلال الرومانـي لأراضي شـمال أفريقيـا بصفـةٍ عامـة وأراضي ليبيـا القديمـة بصفـةٍ خاصـة، كانـت الأهميـة التجاريـة لهـذه المنطقـة، حيـث أن النشـاط التجـاري عـبر الصحـراء الليبيـة يعتـبر مـن أهـم العوامـل التـي شـجعت الرومـان عـلى ضـم هـذه المنطقـة لحظـيرة الإمبراطوريـة الرومانيـة[5] "فعـلى الرغـم مـن أن الجـدب لـم يصـب إيطاليـا لكـن رومـا كانـت تفضـل اسـتغلال أفريقيـا ومـصر تجاريـاً، وهـو مـا جعـل حيـاة الشـعب الرومانـي رهنـاً بالسـفن"[6].

و مـع بدايـة العـصر الإمبراطـوري الأول 27) Haut Empire ق.م – 284 م) بـادر

(1)كان الرومـان قـد قامـوا بتأسـيس أول ولايـة لهـم في أفريقيـا عـام 146 ق.م بعـد انتصارهـم عـلى القرطاجيـين في الحـرب البونيـة الثالثـة III war Punic عرفـت باسـم ولايـة أفريقيـا Africa Provincia، بحيـث شـملت الأراضي المحيطـة بالعاصمـة قرطـاج، وبعـد انتصـار يوليـوس قيـصر Ceasar Julius في الحـرب الأهليـة بأفريقيـا ضـد أنصـار بومبـي Pompei– Ganaius us عـام 46 ق.م، أعلـن نوميديـا ولايـة رومانيـة جديـدة باسـم ولايـة أفريقيـا الجديـدة Nova Africa؛ للمزيـد ينظـر: Pliny :History Natural ,trans by: Jones .H.W ,Loeb Classical Library ,London, 1955. V. III. 25;VIII. 25.

(2) هـيرودوت: الكتـاب الرابـع، ترجمـة: محمـد المـبروك الذويـب، منشـورات جامعـة قاريونـس، دار الكتـب الوطنيـة، بنغـازي، 2002، ف 183. ص 125.

(3) محمـد عبـد اللطيـف البرغوتـي: التاريـخ الليبـي القديـم، مـن أقـدم العصـور حتـى الفتـح الإسـلامي،ج1، منشـورات الجامعـة الليبيـة، دار صـادر، بـيروت، 1971، ص 231.

(4) Oric Bates :The Eastern Libyan ,Frank Cass and Co ,Limited ,New impression 2 ,ed ,London, ,1970 p.104

(5) روسـتوفتزف: تاريـخ الإمبراطوريـة الرومانيـة الاجتماعـي والاقتصـادي، ج1، تـر: زكـي عـلي، مكتبـة النهضـة المصريـة، القاهـرة، 1957، ص 387.

(6) Tacitus :The Annals ,Trans by :Jackson .J ,Loeb Classical Library ,London ,1962 ,XII ,XLIII.

الرومـان إلى تطويـر التجـارة مـع المناطـق الداخليـة لليبيـا، وعملوا عـلى تشـجيع التجارة الصحراويـة أو تجـارة القوافـل، كمـا أقامـوا علاقـات اقتصاديـة مـع قبائـل الصحـراء الليبيـة التـي تمـر الطـرق التجاريـة عـبر أراضيهـا وعـلى رأسـها قبيلـة الجرمنـت، وازدادت عمليـات التبـادل التجـاري مـع تلـك المناطـق خاصـةً بعـد انتشـار السـلام والاسـتقرار عـلى طـول تلـك الطـرق منـذ بدايـات ذلـك العـصر، الأمـر الـذي سـاعد عـلى ازديـاد الطلـب عـلى السـلع الصحراويـة التـي كانـت تأتـي بهـا تلـك القوافـل، كمـا اهتمـوا بتوسـيع مرافـئ المـدن الليبيـة عـلى سـاحل البحـر الأبيـض المتوسـط، والتـي امتـازت بقربهـا مـن أسـواق وموانـئ أوروبـا وبخاصـة الموانـئ الرومانيـة، حيـث قامـوا برصـف تلـك المرافـئ وتوسـعتها، وتحسـينها، وربطهـا بشـوارع المـدن، كمـا أنشـئوا أسـواقاً تجاريـة لتلـك المـدن وأرسـلوا عـدة حمـلات باتجـاه الصحـراء الليبيـة كان الهـدف التجـاري مـن أهـم أهدافهـا[7].

ثانياً - الحملات الرومانية نحو الصحراء الليبية:

كان مـن أهـم الحمـلات الرومانيـة التـي أرسـلها الرومـان نحـو الصحـراء الليبيـة حملـة كورنيليـوس بالبـوس Cornelius Balbus سـنة 19 ق.م، خـلال فـترة حكـم الإمبراطـور أغسـطس 27) Augustus ق.م – 14م)، ثـم أرسـلت حملـة أخـرى بقيـادة فاليريـوس فسـتوس Valerius Festus بدايـة حكـم الإمبراطـور فاسبسـيان Faspsian 79 – 69)م)، وبعدهـا انطلقـت حملـة بقيـادة حاكـم ولايـة أفريقيـا في ذلـك الوقـت ويدعـى سـوليوس فلاكـوس Suellius Flaccus خـلال حكـم الإمبراطـور دوميتيـان 96 – 81) Domitianم)، وأخـيراً جـاءت حملـة يوليـوس ماتيرينـوس Julius Materenus عـام 100م خـلال حكـم الإمبراطـور تراجـان 117 – 98) Trajan م) لتكـون أخـر تلـك الحمـلات التـي هدفـت جميعهـا إلى بسـط النفـوذ الرومانـي عـلى الصحـراء الليبيـة، وتحقيـق الفائـدة التجاريـة مـن خـلال تأمـين طـرق القوافـل والإشراف عـلى تسـييرها وإدارة شـؤونها بالتعـاون مـع بعـض القبائـل الليبيـة وخاصـة قبيلـة الجرمنـت[8].

ثالثاً - أهم طرق التجارة الصحراوية :

ينبغـي في هـذا الإطـار أن نشـير وباختصـار إلى أهـم الطـرق التجارية عـبر الصحراء، سـواءً تلـك التـي وجـدت قبـل السـيطرة الرومانيـة أو الإغريقيـة عـلى المنطقـة – حيـث كان رجـال القبائـل الليبيـة والذيـن اسـتقروا بهـا وتنقلـوا عـبر أرجائهـا الواسـعة وكانـوا أكثـر خـبرة بمسـالكها ودروبهـا قـد اسـتخدموا أفضـل وأسـهل الطـرق للربـط بـين مناطقهـم والتواصـل فيمـا بينهـم[9]– أو التـي أنشـأها الرومـان بعـد بسـط سـلطانهم عـلى المنطقـة، فقـد كانـت أهـم طـرق القوافـل تمتـد مـن الجنـوب حيـث السـلع والمـواد الخـام الأوليـة إلى سـاحل المتوسـط حيـث الموانـئ المعـدة لتصديـر تلـك

(7) Pliny :Nat .His ,V.34 .5.

(8) محمد عبد اللطيف البرغوتي: المرجع السابق، ص 258 – 259.

(9) محمـد عـلي عيـسى: التواصـل الثقـافي بـين ضفتـي الصحـراء الكـبرى في أفريقيـا، دار الوليـد للنـشر والتوزيـع، طرابلـس، 2004، ص 17- 18.

المـواد إلى الموانـئ الرومانية[10]،فبالإضافـة إلى الطـرق التجاريـة التـي وجـدت في المنطقـة منـذ العصريـن الفينيقـي والنوميـدي أنشـأ الرومـان طرقـاً عسـكرية كانـت لهـا فائـدة تجاريـة بجانـب مهامهـا الأمنيـة، كمـا أن الرومـان قامـوا بتحسـين بعضـاً مـن طـرق القوافـل الموجـودة مـن قبـل وعملـوا عـلى تطويرهـا إلى طـرق كـبرى خدمـةً للعمليتـين الأمنيـة والتجاريـة عـلى حـدٍ سـواء،[11].

وتكمـن أهميـة هـذه الطـرق في افتقـار المنطقـة الصحراويـة إلى سـبل المواصـلات النهريـة الصالحـة للملاحـة، غـير أن العوامـل الطبيعيـة مثـل الأمطـار الغزيـرة كانـت أحيانـاً تلحـق أضراراً بالغـة بتلـك الطـرق، وقـد تميـزت معظـم طـرق القوافـل التجارية بوجـود آبـار تقـع عـلى امتدادهـا، ممـا يتيـح للمسـافرين والـدواب التـزود بميـاه الـشرب التـي يحتاجـون إليهـا، والتـي تكـون كمياتهـا بحسـب سرعـة وحمولـة تلـك القوافـل مـن البضائـع[12].

هـذا وتتميـز الطـرق الصحراويـة الرومانيـة الطويلـة بأنهـا تتكـون مـن طبقـات كثـيرة ومتراصـة مـع بعضهـا وكان العـرض الأدنـى لهـا في أغلـب الأحيـان يبلـغ مترين وسـبع وثلاثـين سـنتيمتراً، غـير أنـه لـم يعثـر حتـى الآن عـلى أي شيء يـدل عـلى أن الطـرقً الرومانيـة في ليبيـا كانـت مرصوفـة بالحجـارة، الأمـر الـذي يرجـح أنهـا كانـت طرقـاً ترابيـة، وكانـت تلـك الطـرق تشـق الهضـاب والمرتفعـات[13].

أشـار بلينـي إلى طريـق يبـدأ مـن الـسرت الصغـير (خليـج قابـس في تونـس الحاليـة) ثـم يمـر عـبر صحـراء واسـعة وصـولاً إلى بـلاد الجرمنـت، وطريـق أخـر يبـدأ غـرب الـسرت الكبـير Greates Syrtes (خليـج سرت) ويمتـد جنوبـاً حتـى يصـل جبـال تاسـيلي والحجـار مـاراً بمدينـة سـيدامة (غدامـس حاليـاً)، ويصـف مـن خلالـه إقليـم فـزان ومدنـه[14].

ومـن أهـم طـرق التجـارة الصحراويـة طريـق أويـا Wiyat (طرابلـس)– مـزده – فـزان، ويعـد مـن الطـرق المركزيـة الرابطـة بـين السـاحل الليبـي ومنطقـة فـزان، حيـث تقـع النقطـة الرئيسـة للسـيطرة الأمنيـة عـلى هـذا الطريـق في حصـن القريـات الغربيـة، لكـن معظـم آثـار هـذا الطريـق فقـدت في السـهل الرمـلي الموجـود في منطقـة سـهل الجفـارة، كمـا يوجـد المعلـم الميـلي عـلى بعـد سـبع وخمسـين كيلـو مـتراً مـن أويـا، ويرجـع إلى زمـن الإمبراطـور كاركالا 217 – 211) Caracalla م)، وهنـاك معالـم ميليـة أخـرى عنـد كل محطـة ميليـة طـوال الطريـق حتـى منطقـة مـزده، ومـن هنـاك أصبـح طريـق قوافـل ليبـي وليـس رومانـي حتـى يصـل إلى منطقـة فـزان، ولـم توجـد

(10) Oric Bates :op .cit ,p.102

(11)شـارل أنـدري جوليـان: تاريـخ أفريقيـا الشـمالية، ج1، ترجمـة: محمـد مـزالي والبشـير بـن سـلامة، الـدار التونسـية للنـشر، تونـس، 1985، ص 156.

(12) Salama .P :Les Vois de L'Afrique du nord ,Algiers ,1951 ,p.85 .

(13) Godchild .R .g :The Roman Roads of Libya and Their Milestones ,Libya in history ,University Libiana ,1968 ,p.7

(14)Pliny :Nat .Hist ,V.5.34.

أي علامات أخرى جنوب مزده كي يتم تتبع هذا الطريق الذي كانت من أشهر محطاته التجارية سوبوتو (قصر الداوون) والشرشارة[15].

ولعل هذا الطريق يتفرع بعد وصوله إلى منطقة مزده ليصل إلى مدينة قرزة Gerasa وينتهي عند مدينة جرمة في الجنوب، وربما يكون هذا الطريق هو الطريق الذي استخدمه القائد الروماني فاليريوس فستوس أثناء حملته نحو الصحراء الليبية عام 70م، حيث عرف هذا الطريق أحياناً بطريق رأس الحمادة أو رأس الصخرة[16].

ومن أشهر طرق الصحراء التجارية كذلك الطريق الذي يمتد من مدينة صبراتة Sbrtan في غرب ليبيا على ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى واحة غدامس في الجنوب، والذي يتجه بعدها إلى منطقة إدري عن طريق صحراء أوباري ومنها إلى مدينة جرمه عاصمة قبيلة الجرمنت[17].

ومن بين الطرق التجارية أيضاً طريق الساحل الممتد من قرطاج ماراً بالمدن الثلاث (صبراتة – أويا – لبدة الكبرى Lepcis Magna) في اتجاه صحراء السرت الكبير، حيث يربط هذا الطريق العديد من المحطات والمدن الواقعة عليه، وقد أدرك الرومان مدى أهمية هذا الطريق الساحلي من خلال إنشاء محطات للطرق، وكذلك القلاع والموانئ المحصنة. كما أنشأ الرومان أيضاً زمن الإمبراطور تبيريوس 37 – 14) Tiberius م) طريق استراتيجي آخر ماراً بمدن جبل نفوسه: نالوت وجادو وأورو (العوينية)، ثم هضبة ترهونة ويدخل مدينة لبدة الكبرى من البوابة الجنوبية. وهناك طريق أخر ينحني من الجبل الغربي ويربط مدينتي لبدة الكبرى وأويا ماراً جنوب الطريق الساحلي[18].

أما الطريق الذي يمتد من لبدة ويتجه جنوباً ماراً عبر قرزه وصولاً إلى وادي زازمت Zazamt ثم إلى بيراكوم Beracum (براك الحالية) ثم إلى فزان ومنها إلى وادي الآجال وجرمه، فربما يكون هو الطريق الذي سلكته حملة القائد الروماني بالبوس أثناء عودتها من الصحراء عام 19 ق.م[19].

هذا وهناك طريقٌ أخر يمتد من ثينتوس Tentheus (الزنتان) متجهاً نحو الصحراء حيث توجد على هذا الطريق قلعتين رومانيتين مهمتهما توفير الحماية والراحة للقوافل المارة خلاله، وأول معلم ميلي لهذا الطريق يسجل بخمسة وعشرين كيلو متراً وجد في محطة ميلية على مقربة من قصر وامس

(15) Godchild .R . G :op .cit ,p.160

(16) Elmayer ,A.F :Tripolitania and Roman Empire 47) B.C 235-A.D ,(Markas Jihad AL Lipyan Studies Center ,Tripoli ,1997 ,p.203-204

(17) محمد سليمان أيوب: جرمه في عصر ازدهارها من 100 – 450م، مجلة ليبيا في التاريخ، الجامعة الليبية، كلية الآداب، دار صادر، بيروت، 1968، ص 182- 183؛ علي حامد: التجارة والأسواق في طرابلس عبر التاريخ، مجلة تراث الشعب، العدد الرابع، طرابلس، 1991، ص 115.

(18) Broghton :The Romanization of Africa Procounsularis ,Oxford ,19929 ,p(4).90

(19) محمد سليمان أيوب: المرجع السابق، ص 182.

جنوب غريان، ثم يتفرع من منطقة مزده ليتجه بعد ذلك إلى وسط وادي سوف الجين بحيث يمر على منطقتي اشميخ وتينيناي، ويعود هذا الطريق إلى زمن الإمبراطور كاركالا والإمبراطور ماكسيمونس 238 – 235) Maxemouns م) [20]ثم يتفرع منه طريق آخر ليربط بين القريات الغربية ومنطقة بوين Boin أو جولايا Gholaia (أبونجيم الحالية) عبر وادي زمزم، ويستمر بعد ذلك حتى يصل إلى بلاد الجرمنت، ومن الملاحظ هنا أن كثيراً من تلك الطرق كانت تلتقي في حصن أبونجيم سواءً المتفرعة من الحمادة الحمراء أم المتفرعة من حصن القريات الغربية، أو التي تربط الحصن بالمدن الساحلية عبر الأودية الزراعية، كما يصل هذا الحصن طريق يمتد نحو الجنوب الشرقي حيث وجد حصن آخر بالقرب من منطقة زلة بالجفرة يعتقد أنه أقيم لحراسة هذا الطريق من قطاع الطرق واللصوص[21].

وكذلك هناك طريقٌ آخر يمتد من مدينة أويا مروراً ببرغن عبر جبال السوداء ثم يتجه إلى صحراء أوباري حتى يصل إلى مدينة جرمه، بالإضافة إلى وجود طريق يبدأ من ثكاباي Thacabai ثم إلى صبراته ومنها إلى غدامس وصولاً إلى مدينة رابسة Rapsa (غات الحالية)[22].

وخلال حكم الإمبراطور تيبيريوس أيضاً وفي عام 14م تحديداً قام الرومان بإنشاء طريق يربط مدينة لبدة مع مدينة قابس Kabas في تونس الحالية، وبواسطة هذا الطريق تمكنت السلطات الرومانية من فرض السيطرة على نطاق واسع من أراضي القبائل الليبية ليحد ذلك من عمليات ارتحالها وحاجتها الدائمة إلى المراعي الموسمية، وتجسد ذلك بشكل خاص عند قبيلة الموسولامي Mosu-lame حيث حولت أجزاء كبيرة من أراضي هذه القبيلة إلى أراضي عامة بعد أن استحوذ الرومان على تلك الأراضي، مما أدى إلى هجرة الأهالي نحو المناطق الجبلية والصحراوية القاحلة[23].

أما من جهة الشرق فهناك طريق صحراوي آخر يأتي من مناطق مصر العليا ويمر بواحة سيوة حيث معبد الإله آمون، ليعبر صحراء مصر الغربية حتى يصل إلى مدينة قورينيCyrene[24](شحات الحالية) شمالًا على ساحل البحر

(20) Merighi Antoine :La Tripolitania Antica ,Airoldi,A ,Editor ,Verdenia ,1940 ,p.200

(21) Law .R .C :North Africa in The Hellenistic And Roman Periods 323 ,B.C to 305 A.D ,Cambridge Ancient History ,vol ,2 .edited by :Fage .J .D ,First Published ,London ,1978,p;194

مصطفى كمال عبد العليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، 1966، ص 93.

(22) عبد الحفيظ فضيل الميار: الحضارة الفينيقية في ليبيا، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2001، ص 187.

(23) Broghton .T .R .S :op .cit ,p.89-92

(24) كان إقليم قورينائية Cyrenaica قد آل إلى الرومان بموجب وصية الملك البطلمي بطليموس أبيون Abion الذي تنازل عن الإقليم لصالح روما عام 96 ق.م، لتدخل المنطقة في حوزة الدولة الرومانية منذ ذلك التاريخ؛
Livius .T :history Roman ,Trans by :Bettenson .H ,Books Penguin ,L C L , London , 1976 ,LXX,43.

الأبيض المتوسط، ثم يتجه بعدها نحو الجنوب الغربي مخترقاً الصحراء الليبية حتى يصل إلى مدينة جرمة[25].

كما أن هناك مجموعة أخرى من الطرق التجارية الصحراوية التي أقيمت لغرض تسهيل الاتصال الداخلي بين المناطق الليبية المختلفة، حيث امتدت تلك الطرق على ضفاف الأودية وربطت المستوطنات الزراعية في الدواخل مع المراكز الرئيسة على الساحل ومنها :

- الطريق التجاري الممتد على طول وادي شظاف الذي يمر بين مستوطنة قرزة ووادي سوف الجين وصولاً إلى وادي بني وليد .
- طريق داخلي يربط بين حصن القريات الغربية والذي يشكل حلقة وصل بين حصن غدامس غرباً وحصن جولايا شرقاً، كما أن حصن القريات الغربية كان يشرف على مجموعة من طرق القوافل التجارية المهمة المتجهة شمالاً نحو الساحل وجنوباً نحو الصحراء[26].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى الطرق التجارية الصحراوية التي تربط المناطق الداخلية من ليبيا بأواسط القارة الأفريقية، والتي تنطلق من مدينتي غدامس وجرمه إلى دواخل القارة الأفريقية، حيث شكلت تلك الطرق أهمية بالغة في جلب السلع التجارية من بلدان أواسط أفريقيا، كما أولتها السلطات الرومانية خلال العصر الإمبراطوري الأول جانباً كبيراً من الأهمية، والدليل على ذلك هو قيام السلطات الرومانية بإرسال الحملات المتجهة نحو الصحراء الليبية باتجاه الجنوب، والتي ربما كان بعضها قد وصل إلى بلاد السودان[27].

ومن أشهر طرق القوافل التجارية التي تربط مدينة جرمه بأواسط أفريقيا ما يلي :

- طريق يبدأ من جرمه ومنها إلى زويله Zuella ثم إلى إندي Endai وصولاً إلى مورو Moro في بلاد السودان _طريق أخر يبدأ من جرمه ثم إلى القطرون Gatroon حتى يصل إلى تشاد Chad.
- طريق من جرمه ويتجه إلى قصر مارا Mara ثم إلى شربه Shuruba وكوار Kuar على نهر النيجر[28].

رابعاً – آثار التجارة الصحراوية على الجانبين الليبي والروماني:

نشطت الحركة التجارية عبر الصحراء وظلت القوافل تحمل إلى أواسط أفريقيا البضائع القادمة من موانئ البحر الأبيض المتوسط مثل الخزفيات والزجاج والملابس والأدوات الحديدية والحجارة الكريمة والحلي، بالإضافة إلى الملح الذي كان سلعة محتكرة من طرف قبيلة الجرمنت، حيث يتوافر بكميات كبيرة

(25) محمد سليمان أيوب: المرجع السابق، ص 188.

(26) Elmayer .A .F :op .cit ,p.144

(27) عمار محجوبي: تاريخ أفريقيا العام، العصر الروماني+، مج 2، حضارات أفريقيا القديمة، اليونسكو، باريس، ص 502.

(28) ليلى عبد القادر الغناي: دور الإبل في الحياة التجارية في شمال أفريقيا خلال العصر الروماني، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، القاهرة، 2015، ص 54.

في بلادهم والذي كانوا يستبدلونه بالذهب مع بلدان أواسط أفريقيا، أما السلع التي يعودون بها من الدواخل الأفريقية فقد كانت الحيوانات المفترسة وجلود الحيوانات والعاج والأخشاب وخاصة الأبنوس والعبيد والذهب الذي كان يأتي من بلاد النوبة، وكذلك الفضة من النيجر[29].

وبذلك أصبح لطرق القوافل التجارية العابرة للصحراء بصفة عامة تأثير قوي على النشاط التجاري وازدهاره بين الجانبين الليبي والروماني، فخلال عصر الأسرة الفلافية (69 – 96 م) توسعت شبكة الطرق الصحراوية واستمر تطورها حتى بداية عصر الأسرة السيفيرية (193 – 284م) عندما امتدت الطرق جنوباً لتربط بين المدن الشمالية على ساحل البحر الأبيض المتوسط والحصون الحدودية الجنوبية، حيث أن الأباطرة السفيريين على وجه التحديد أولوا اهتماماً كبيراً بالإقليم وذلك بالحفاظ على ازدهار وأمن وسلامة طرق القوافل التجارية وتشجيع الزراعة – التي تعتبر رافداً مهماً للعمل التجاري – والتركيز على ضرورة استقرار الأوضاع الأمنية بالمنطقة، حيث نشأت الحصون الكبرى والصغرى التي تم اتخاذها مقراً للجنود الرومان الذين يتولون مراقبة الطرق التجارية والإشراف على عمليات التأمين[30].

لقد وفرت تجارة الصحراء التي ازدهرت في المنطقة فرص عمل كثيرة ومختلفة لكثير من أبناء القبائل الليبية، منها على سبيل المثال الحمالين والعسس الذين نشطوا في المراكز التجارية الواقعة على طرق القوافل الصحراوية، حيث يتلقى الحمالون أجراً مقابل تحميل السلع، كما امتهن بعضاً من أفراد تلك القبائل مهنة المؤجرين لحيواناتهم لنقل تلك السلع والبضائع المختلفة، أي أن ذلك ساعد في تحسين أوضاعهم المعيشية[31]، وفي هذا الإطار كان أبناء قبيلة النسامونيس Nasamonees يتعرضون للسفن التجارية وينقلون البضائع الواردة منها على ظهور الثيران أو في العربات التي تجرها الخيول[32].

بالإضافة إلى أن بعضاً من القبائل الليبية سكنت قصور المزارع المحصنة واستغلتها كمستودعات لتخزين الحبوب والمواد الغذائية، وتولت عمليات توزيعها على القوافل، كما أنه ومع اتساع نطاق التجارة عبر القوافل وعجز الرومان عن مد نفوذهم إلى كل مناطق الصحراء الليبية بصفةٍ عامة، احتاجت السلطات الرومانية إلى تأمين تلك التجارة، حيث كانت هناك طائفة من الليبيين لا تلتزم بالطاعة لملك القبيلة ولا تهتم بإقامة العدالة، وكان أفرادها يعيشون على السلب والنهب ويشنون هجمات مفاجئة غير متوقعة من مراكزهم عبر الصحراء، ثم ينسحبون سريعاً من حيث أتوا، وكانوا يغطون أجسادهم بجلود الماعز، ولم

(29) محمد عبد اللطيف البرغوتي: المرجع السابق، ص 230.

(30) Elmayer .A .F :op .cit ,p.231

(31) ليلى عبد القادر الغناي: المرجع السابق، ص 139.

(32) Oric Bates :op .cit ,p.105

تكن لهم مدن أو قرى بل كانوا يقيمون أبراجاً بجوار منابع المياه، ويحفظون أسلابهم بها، وكانوا يتسلحون بثلاث رماح وقطع من الحجر يضعونها في حقائب من الجلد، ولم يستعملوا السيوف ولم يلبسوا الخوذات، إذ كانوا يستهدفون التفوق في السرعة والانقضاض، وكانوا قساة في معاملة أعدائهم حيث يقومون بذبحهم في كثيرٍ من الأحيان [33]، لذلك لم يجد الرومان أمامهم إلا الاستفادة من قدرات السكان المحليين الذين امتازوا بالخبرة الواسعة في فنون القتال وأساليب الحماية، والمعرفة بالطرق والمسالك والدراية الكاملة بأمور الملاحة الصحراوية والاهتداء بالنجوم ليلاً فتولت القبائل الليبية التي تمر بأراضيها طرق القوافل عمليات التأمين وتأسيس نظام لحماية تلك الطرق من اللصوص والمجرمين بإشراف السلطات الرومانية، وكانت تتحصل مقابل ذلك على جزء من البضائع والسلع التجارية التي تحملها القوافل[34].

وبذلك يسود الاعتقاد بأن هذا التفاعل الحضاري الذي حدث خلال فترات السلم والاستقرار بين القبائل الليبية من ناحية وبين السلطات الرومانية خلال العصر الإمبراطوري الأول من ناحية أخرى، والذي تمثل في العمل على تدعيم الحركة التجارية بينهما عبر الصحراء وصولاً إلى تحقيق الفائدة المشتركة للجميع، يدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن القبائل الليبية خلال تلك الفترة وفي كثيرٍ من الأحيان لم تكن منعزلة أو منغلقة على نفسها _ كما أراد أن يصور البعض – فتعاملت بإيجابية وندية مع الآخرين حتى وأن كانوا من المحتلين الرومان الذين بادروا إلى التواصل مع أفراد تلك القبائل لتحقيق المنفعة المتبادلة معهم، وهذا ما ساهم بطبيعة الحال في ازدهار الحركة التجارية خلال ذلك العصر.

كما يمكن القول أن التجارة الصحراوية عبر طرق القوافل في ليبيا خلال العصر الروماني لم تنجح وتزدهر إلا بتعاون وتضافر مختلف القبائل الليبية التي كانت تقطن الصحراء فيما بينها في هذا الإطار، وذلك من خلال عمليات الحماية والتامين إضافةً إلى المبادلات التجارية التي كانت تتم عبر مناطق سيطرة تلك القبائل بإشراف السلطات الرومانية، ومن خلال الأسواق التي كانت تعقد في أيام محددة بالقرب من المدن والتجمعات السكنية، وبالتالي انعكس ذلك بإيجابية على الحركة التجارية بين قبائل الصحراء الليبية والدولة الرومانية خلال الفترة الإمبراطورية الأولى[35].

كما أن طرق القوافل التجارية التي تمر بمختلف أرجاء الصحراء الليبية خلقت نوعاً من الترابط الثقافي والاجتماعي والاقتصادي بين القبائل الليبية التي تقطن تلك المناطق، حيث سهلت عملية تواصلها مع بعضها البعض بدرجة

(33) Diodorus Siculus :History) Historia ,(Trans by :Russel .M .G ,Book III ,Loeb Classical Library ,London.49 ,

(34) روستوفتزف: المرجع السابق، ص 350.

(35) Salama .P :op .cit ,p.92

أكبر من ذي قبل، فالتجارة تؤدي إلى تبادل الأفكار والمعارف وفوق كل شي المعرفة الجغرافية، بالإضافة إلى أن الأسواق التجارية التي سبقت الإشارة إليها قد أتاحت فرص التقاء أفراد تلك القبائل بين الحين والآخر عند انعقادها، ومن خلال تلك اللقاءات كان يحدث بطبيعة الحال التواصل والتمازج على مختلف الأصعدة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وكذلك تبادل الرؤى والأفكار، لأن الحراك الاقتصادي والمجتمعي في مجال جغرافي محدد يتم وينشأ بالتدريج في مجاله القائم على الانسجام والتكامل، ويكون تكيف المجتمع في بيئته الطبيعية راسخاً بقدر ما يحسن الانتفاع به، حيث يتعرف تدريجياً على ما تختزنه من مصادر ثروة فيجتهد ليتعدى حدود الاكتفاء إلى الرخاء[36] .

وعن طريق الترابط الاجتماعي الذي كان يحصل بين أفراد القبائل الليبية خلال تلك المرحلة من خلال الطرق وخاصةً القاطنين بالصحراء، نتج عنه بمرور الزمن فرض رجال تلك القبائل سيادتهم على مناطقهم التي يعيشون بها [37]ما نتج عنه تفوق عسكري واستراتيجي في معظم الأراضي المتاحة لهم، بفضل التحالفات التي عقدت فيما بينهم، كما ساعد ذلك على إرساء صلة الروابط الاجتماعية بين قبائل باعدت بينها مسافات طويلة عبر الصحراء، وما كان يتم الاتصال فيما بينها لولا وجود تلك الطرق، بالإضافة إلى ذلك ساهمت طرق القوافل في انتشار بعض العقائد الدينية بين القبائل الليبية كعبادة الإله أمون Amon – الإله المرشد والحارس لطرق الصحراء والمسافرين – الذي انتشرت عبادته عن طريق المحطات التجارية عبر واحات الصحراء الليبية، وهي وسيلة الاتصال والتبادل الثقافي والاجتماعي والتجاري على حدٍ سواء[38]، ولعل هذا ما خلق تشابهاً بين الليبيين بوجهٍ عام في جميع المظاهر[39].

بالإضافة إلى أن تجارة الصحراء سهلت المبادلات بين القطاعات المختلفة والأقاليم والأرياف والمدن، وساهمت في ظهور أسواق ريفية بها، كما حدثت منافع تبادل تجاري بين القبائل المستقرة التي تمارس الزراعة والقبائل الرعوية المتنقلة، لأن حاجة كل منهما للأخر كانت تفرض التعايش السلمي بينهما، حيث تبادلوا الصوف والجلود واللحم مقابل الحبوب والمنتجات الزراعية، فضلاً عن استخدام الرحل كعمال موسميين في عمليات الحرث والحصاد، كما أن القبائل الرحل كانت تحصل من المستقرين على حقوق المرور والانتفاع إما مجاناً أو مقابل ضريبة عينية تؤديها لهم، ولا تربط هذه الاتفاقيات بين الرعاة وبين المزارعين فحسب، بل إن قبيلتين مثلاً من قبائل الرعاة تسكن إحداهما بالسهل

(36) عقون محمد العربي: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 12.

(37) سترابو: جغرافية سترابو، الكتاب السابع عشر، وصف ليبيا ومصر، ترجمة: محمد المبروك الذويب، دار الكتب الوطنية، بنغازي ، 2002، ف7، 120.

(38) ليلى عبد القادر الغناي: المرجع السابق، ص 146.

(39) سترابو: المصدر السابق، ف7، ص 99.

والأخرى بالجبل، أو إحداهما بالتل والأخرى بالسهل يكون من صالحهما معاً الاستغلال المشترك لأراضيهما، سواءً في فصل الشتاء أو في فصل الصيف، وكذلك فإن قبائل ضعيفة مثلاً من قبائل السهول يمكن أن تحرز على الانتفاع أثناء الصيف بأراضي تملكها قبائل تسكن التل تنتقل للانتجاع في أمكنة أفضل في أشهر معينة من السنة[40].

أما فيما يتعلق بالجانب الروماني فإن ازدهار حركة التجارة الصحراوية بالمنطقة كانت له تداعياته الايجابية التي تجسدت في تعافي الاقتصاد الروماني، وتنامي إيرادات الخزانة الإمبراطورية، وتوافر المؤن وكذلك السلع المختلفة، بعد أن أنهكت الحروب الأهلية Civil wars [41]الطويلة التي شهدتها الدولة الرومانية أواخر العصر الجمهوري ذلك الاقتصاد، وبذلك أصبح نجاح الحركة التجارية وازدهارها في أفريقيا يعتمد بالدرجة الأساس على استمرار المبادلات التجارية عبر القوافل، ونقل البضائع من موانئ الإقليم عن طريق السفن التجارية إلى كامل موانئ الإمبراطورية[42].

استمرت الحركة التجارية مزدهرة وناجحة عبر طرق القوافل الصحراوية بأراضي القبائل الليبية طيلة العصر الإمبراطوري الأول، إلى أن شهدت الإمبراطورية الرومانية أواخر ذلك العصر أوضاعاً مضطربة وفوضى عارمة نتيجةً لتعرضها لمحنة سياسية واقتصادية إبان القرن الثالث للميلاد، والتي بدأت بوادرها تظهر واضحةً وجلية للعيان بعد حادثة اغتيال الإمبراطور سيفيروس الاسكندر Alex-ander Severus (222 – 235 م)، والتي أدت إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية وتراجع الأعمال التجارية وانتشار قطاع الطرق واللصوص في الصحراء، الأمر الذي أدى إلى كساد الحركة التجارية، ليس في الصحراء الليبية فحسب، بل في كامل الولايات التابعة للإمبراطورية، لكن ومع بلوغ المرحلة الإمبراطورية الثانية التي بدأت باعتلاء الإمبراطور ديوقلديانوس Diocletianus (285 – 305 م) العرش الروماني، حدثت تطورات اقتصادية مهمة من خلال الإصلاحات الجديدة التي شهدتها الدولة الرومانية في كامل ولاياتها، وعلى مختلف الأصعدة، حيث كان من أولويات العملية الإصلاحية إعادة تنظيم التجارة الخارجية عبر الصحراء الأفريقية، وتشجيع الحركة التجارية مع القبائل الليبية القاطنة بها، وتحسين طرق القوافل الأمر الذي أدى إلى ازدهار حركة المبادلات التجارية مع تلك القبائل، وإعادة إحيائها

(40) إصطيفان اكصيل: تاريخ شمال أفريقيا القديم، ج5، الممالك الأهلية نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ترجمة: محمد التازي مسعود، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007، ص 71.

(41) أدى الصراع الاجتماعي الذي حدث بين طبقات المجتمع الروماني بسبب مطالبات العامة الملحة للحصول على الحقوق السياسية التي كانت تحتكرها الطبقة الارستقراطية إلى حدوث صدامات مسلحة بن الجانبين لرفض السناتو الروماني Senato تلك المطالبات في كثير من الأحيان، ومع بروز قادة روما العظام تطور ذك الصراع إلى حروب أهلية استخدم فيها الجيش الذي تحول ولاؤه إلى قادته بدلاً من ولائه للجمهورية، الأمر الذي أنهك الاقتصاد الروماني والخزانة العامة للدولة؛

Appianus: Roman history, trans by Horace white .edited .W .H .D ,L C L ,London ,1964 ,III ,I.11.

(42) Scullard .H .H :A history of Rome ,from 133 B.C to 68 A.D ,Oxford ,1981 ,p.456

مـرةً أخـرى بعـد أن شـهدت ركـوداً واضحـاً، وتراجعـاً في عمليـات التجـارة خـلال فـترة الفـوضى والانحـلال التـي تميـزت بهـا السـنوات الأخـيرة مـن العـصر الإمبراطـوري الأول.[43]

خاتمة :

مـن خـلال دراسـة هـذا الموضـوع والخـوض في تفاصيلـه المختلفـة، ومـن خـلال البحـث والاسـتقصاء التـي اشـتمل عليهـا يمكـن الوصـول إلى مجموعـة مـن النتائـج التـي نلخصهـا في النقـاط التاليـة:

-تميـزت أراضي ليبيـا القديمـة بصفـةٍ عامـة بموقـع جغـرافي مميـز يـشرف عـلى أهـم وأسـهل طـرق التجـارة الصحراويـة التـي ربطـت أرجـاء المنطقـة يبعضهـا البعض منـذ العصـور القديمـة، حيـث مارسـت القبائـل الليبيـة مهنـة التجـارة منـذ عصـور مـا قبـل التاريـخ مـع الأقـوام والشـعوب المجـاورة لهـا، واسـتمرت تلـك الأهميـة التجاريـة قائمـة حتـى بعـد السـيطرة الرومانيـة والتـي كان مـن بـين دوافعهـا العامـل الاقتصـادي ولا سـيما التجـاري.

-يبـدو أن مـا جعـل الرومـان يبـادرون إلى تجشـم مشـاق وعنـاء الاهتمـام بتجـارة القوافـل مـع القبائـل الليبيـة عـبر الصحـراء، أن رومـا ومنـذ حكـم أغسـطس، وفي أعقـاب الحـروب الأهليـة التـي أرهقـت اقتصادهـا، كانـت في حاجـة ماسـة إلى مصـادر جديـدة للمـؤن لتموين مدنهـا المزدحمـة بالسـكان، ولتطعـم الآلاف المؤلفـة مـن الجماهـير الايطاليـة التـي أخـذت تهجـر الأريـاف وتتكـدس في العاصمـة رومـا لتتغـذى وتشـاهد السـيرك عـلى حسـاب الخزانـة العامـة للإمبراطوريـة، ولهـذا فـإن الرومـان وجهـوا أنظارهـم لاسـتغلال المنطقـة بسـواحلها وصحاريهـا في محاولـة للاسـتفادة مـن مواردهـا الاقتصاديـة، فقامـوا بإرسـال الحمـلات العسـكرية لاستكشـاف الطـرق وبسـط السـيطرة عليهـا.

-أدرك الرومـان أن بسـط السـيادة التامـة والنفـوذ عـلى طـرق التجـارة الصحراويـة لـن يتحقـق إلا بالاعتمـاد عـلى أهـل المنطقـة مـن القبائـل الليبيـة، فعملـوا عـلى التواصـل معهـا والاسـتفادة مـن خبراتهـا في مجـالات الحمايـة والتأمـين، كمـا أنشـئوا الحصـون ومراكـز المراقبـة التـي مكنتهـم مـن الإشراف عـلى الحركـة التجاريـة بتلـك الطـرق، ويبـدو كذلـك أن الفريقـين الرومانـي والليبـي قـد اقتنـع بعـد التجربـة أنـه لا يسـتطيع قهـر الفريـق الثانـي، وأنـه في نفـس الوقـت لا يسـتغني عنـه، فالقبائـل الليبيـة لـم يكـن في مقدورهـا أن تسـتغني عـن الموانـئ الرومانيـة عـلى السـاحل ، لأنـه كان المتنفـس الطبيعـي لنشـاطها التجـاري، وحلقـة الوصـل بينهـا وبـين موانـئ البحـر الأبيـض المتوسـط، وفي المقابـل فـإن الرومـان لـم يكـن في مقدورهـم أن يسـتغنوا عـن سـلع أفريقيـا التـي لـم تكـن قوافلهـم التجاريـة قـادرة عـلى الوصـول إليهـا إلا عـن طريـق القبائـل الليبيـة وتحـت حراسـتها، وخاصـةً قبيلـة الجرمنـت التـي حظيـت

(43) سـيد أحمـد عـلي النـاصري: تاريـخ الإمبراطوريـة الرومانيـة السـياسي والحضـاري، ط2، دار النهضـة العربيـة، القاهـرة، 1991، ص 413 ؛ عاصـم أحمـد حسـين: دراسـات في تاريـخ الإمبراطوريـة الرومانيـة، ط2، مطبعـة العمرانيـة، القاهـرة، (د . ت)، ص 128.

باحترام القبائل الليبية وتعاونها معها في تدعيم العمل التجاري عبر الصحراء.

-يتبين كذلك من خلال البحث في هذا الموضوع أن القبائل الليبية تفاعلت بإيجابية وندية مع الحضارة الرومانية الوافدة في المجال التجاري، حيث أثرت فيها وتأثرت بها من خلال التعامل والمبادلات التجارية عبر قوافل الصحراء، وهذا يدل على أن تلك القبائل كان لها نصيب وافر في مجال الإسهام الحضاري في الجانب التجاري، ولم تنغلق على نفسها، خاصةً وأن الجانب الروماني كان يمثل واحدة من أعظم الحضارات الإنسانية قوة وازدهاراً في ذلك الوقت، وهذا ما أسهم بشكلٍ فعال في تطوير حركة المبادلات التجارية بين الجانبين، ونجاحها إلى حدٍ كبير.

- ازدهرت الحركة التجارية عبر الصحراء الليبية بشكلٍ واضح وملحوظ خلال القرن الأول للميلاد، وأخذ تبادل السلع التجارية يزداد بصورةً تدريجية، الأمر الذي أدى إلى تحقيق نوعاً من الرخاء الاقتصادي انعكست آثاره الايجابية على الجانبين المحلي والروماني، حيث تجلى ذلك تحديداً في مدينة جرمة عاصمة قبيلة الجرمنت في الجنوب الليبي ومركز العمليات التجارية به، فقد بدأ فيها البناء ذو الحجر المربع المنحوت في الظهور لأول مرة، وكذلك برزت أناقة العمل المعماري وفنون القطع المبينة في إنتاج وتصفيف الحجارة إلى درجة واضحة ومناقضة للجدران الحجرية الجافة الخشنة والطوب الطيني المستخدم سابقاً، فضلاً عن ازدهار وتطور مبانيها منشآتها المعمارية.

- وفرت الأعمال المصاحبة لحركة القوافل الصحراوية مثل التحميل والتأمين وغيرها لأبناء القبائل مصدراً مهماً للدخل ما كان ليحصلوا عليه لولا تلك القوافل، هذا فضلاً عن تحقيق الترابط بين القبائل المتباعدة عن بعضها جغرافياً وتسهيل عملية تواصلها مع بعضها في كافة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفيما يتعلق بالجانب الروماني فقد حققت المبادلات التجارية عبر الصحراء الليبية دخلاً مهماً للدولة الرومانية ورافداً مستمراً لدعم اقتصاد الإمبراطورية خلال تلك المرحلة من التاريخ.

- أدت المحنة التي تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الثالث الميلادي إلى تدهور الحركة التجارية، ليس في ليبيا فحسب بل في مختلف أرجاء الدولة نتيجة الفوضى السياسية التي ألمت بها، والتي أدت إلى تنازع مرير حول العرش الروماني وتدخل القادة العسكريين في تولية وعزل الأباطرة، كل ذلك ساهم في تراجع أعمال التجارة وتدني عمليات التصدير والاستيراد في كامل الولايات، كما تعرضت طرق الصحراء لغارات اللصوص وقطاع الطرق بسبب ضعف مراكز الحراسة والتامين، حيث استمر ذلك الوضع المتردي قائماً حتى نهاية العصر الإمبراطوري الأول، غير أنه مع بداية العصر الإمبراطوري الثاني باعتلاء الإمبراطور ديوقلديانوس العرش عام 285م، دخلت الدولة في طور أخر جديد له إصلاحاته الاقتصادية وتنظيماته التجارية الجديدة التي أرسى قواعدها ديوقلديانوس.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً – المصادر المعربة:

1 – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، الكتاب الرابع، ترجمة محمد المبروك الذويب، منشورات جامعة قاريونس، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2002.

2 – سترابو: جغرافية سترابو، الكتاب السابع عشر، وصف ليبيا ومصر، ترجمة: محمد المبروك الذويب، منشورات جامعة بنغازي، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2002.

ثانياً – المصادر الأجنبية:

1– Appianus: Roman history, Trans by: Horace white edited. W. H. D, L C L, London, 1964, III, I.11.

2 –Pliny: Natural History, Trans by: Jones. H , Loeb Classical Library, London, 1955.

3 – Diodorus Siculus: History (Historia), Trans by: Russel. M . G, Book III, Loeb Classical Library, London, 1953.

4 – Livius. T: Roman history, Trans by: Bettenson. H, Penguin Books, L C L , London, 1976, LXX,43.

4 – Tacitus: The Annals, Trans by: Jackson. J, Loeb Classical Library, London, 1962.

ثالثاً – المراجع العربية والمعربة:

1 – إصطيفان اكصيل: تاريخ شمال أفريقيا القديم، ج5، الممالك الأهلية نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ترجمة: محمد التازي مسعود، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007.

2 – روستوفتزف: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ج1، ترجمة: زكي علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1957.

3 – سيد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1991.

4 – شارل أندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، ج1، ترجمة: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985.

5 – عاصم أحمد حسين: دراسات في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ط2، مطبعة العمرانية، القاهرة، (د.ت).

6 – عبد الحفيظ فضيل الميار: الحضارة الفينيقية في ليبيا، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2001.

7 – عبد اللطيف محمد البرغوتي: التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، ج1، منشورات الجامعة الليبية، دار صادر، بيروت، 1971.

8 – عقون محمد العربي: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.

9 – علي حامد: التجارة والأسواق في طرابلس عبر التاريخ، مجلة تراث الشعب، العدد الرابع، طرابلس، 1991.

10 – عمار محجوبي: تاريخ أفريقيا العام، العصر الروماني، مج2، حضارات أفريقيا القديمة، اليونسكو، باريس، 1985.

11 – ليلى عبد القادر الغناي: دور الإبل في الحياة التجارية في شمال أفريقيا خلال العصر الروماني، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، 2015.

12 – محمد سليمان أيوب: جرمه في عصر ازدهارها من 100- 450م، مجلة ليبيا في التاريخ، الجامعة الليبية، كلية الآداب، دار صادر، بيروت، 1968.

13 – محمد علي عيسى: التواصل الثقافي بين ضفتي الصحراء الكبرى في أفريقيا، دار الوليد للنشر والتوزيع، طرابلس، 2004.

14 – مصطفـــى كمـــال عبـــد العليـــم: دراســـات في تاريـــخ ليبيـــا القديـــم، منشـــورات الجامعـــة الليبيـــة، بنغـــازي، 1966.

رابعاً – المراجع الأجنبية:

1 – Broghton. T. R. S: The Romanization of Africa Procounsularis, Oxford, 1929.
2 – Elmayer. A. F: Tripolitania and Roman Empire, (47 B.C – 235 A.D), Markas Jihad Al Libyan Studies Center, Tripoli, 1997.
3 – Godchild. R. G: The Roman Roads of Libya and their Milestones, Libya in history. University Libyian, 1968.
4 – Law. R. C: North Africa in The Hellenistic and Roman Periods, 323 B.C to 305 A.D, Cambridge History Ancient, vol. 2, edited by: Fage, J.D, First Published, London, 1978.
5 – Merighi Antoine: La Tripolitania Antica Airoldi, A, Editor, Verdenia, 1940.
6 – Oric Bates: The Eastern Libyan, Frank Cass and Co, Limited, New impression, 2ed, London, 1997.
7 – Salama. P: Les Vois Romaine de L'Afrique du Nord, Algiers, 1951.
8 – Scullard. H. H: A history of Rome, from 133 B.C to 68 A. D, Oxford, 1981.

التحليل المكاني للحوادث المرورية في مدينة طبرق للفترة من (2000 – 2021م) "دراسة في جغرافية المدن"

د. سعيد حامد محمد الداهية
قسم الجغرافيا- كلية التربية/ جامعة طبرق

الاستلام : 12/ 12/ 2022 القبول : 15/ 1/ 2023

المستخلص :

تعد حوادث الطرق وما يترتب عليها مأساة إنسانية، فضلاً عن التكلفة الباهضة التي يتحملها المجتمع من خسائر بشرية ومادية مباشرة وغير مباشرة جراء تكاليف العلاج الطبي والتأهيل وخسارة الأصول المادية، وقد زاد من خطورة المشكلة تنامي أعداد السكان والمركبات، فضلاً عن زيادة الحركة المتمثلة في التنقل بين مكان وآخر داخل المدن أو خارجها، سواء كان ذلك للأفراد أم للبضائع، وتعد ظاهرة زيادة أعداد الحوادث المرورية في مدينة طبرق وما ينتج عنها من أثار سلبية من المشكلات ذات الطبيعة الاجتماعية الإنسانية فهي من المشكلات المركبة، لتعدد المتغيرات والعوامل فيها، ولأن بؤرة هذه المشكلة هو الإنسان سواء كان قائماً بذاته أم ضمن مجموعة ينتمي إليها، إذ تتفاعل العوامل والمسببات في نسق معقد، ويهدف هذا البحث إلى معرفة الوضع الحالي لحوادث الطرق داخل مدينة طبرق، فضلاً عن دراسة الأسباب التي تؤدي إلى تفاقم هذه المشكلة مع التوزيع الجغرافي للحوادث المرورية ومن ثم الإجراءات التي تتبعها بلدية طبرق وقسم المرور بها للحد من هذه المشكلة الكبيرة التي يعاني منها معظم سكان المدينة، وكونها أداة لتقييم الإجراءات المتبعة لتحقيق السلامة المرورية، إذ تشهد بلدية طبرق جهوداً مكثفة ومتواصلة في سبيل تحقيق مزيد من السلامة والتقليل من الحوادث المرورية، إذ يبذل قسم المرور جهوداً كبيرة في إعداد شبكة من الطرق الحديثة والتي تضاهي الكثير من مثيلاتها في دول العالم المتقدم إذ شهدت السنوات الماضية إنشاء العديد من الطرق السريعة، فضلاً عن تحسين طرق النقل القديمة والتي تربط بين المدن الرئيسة في الشمال الشرقي الليبي، فضلاً عن التوسع في وضع الإشارات المرورية التي تنظم السير، والتوسع في عمليات التطوير المستمر للخدمات ووسائل السلامة المرورية على الطرق، وزيادة برامج التوعية ورفع مستوى الرقابة المرورية على الطرق، وتطوير خدمات الإسعافات الأولية. وعلى الرغم من هذه الجهود إلا أن معدل وقوع الحوادث المرورية في مدينة طبرق يعد مرتفعا وله دلالات خطيرة إذا ما قورن بالمعدلات العالمية على الرغم من صغر حجم السكان في بلدية طبرق والذي يقدر وفق بيانات مصلحة الإحصاء والتعداد يناير 2021 بحوالي (195088) نسمة، إلا أن عدد الحوادث البالغ (107) حادثاً مرورياً في ذات العام يعد مرتفعاً إذا ما قورن بالمناطق التي يتقارب عدد سكانها مع بلدية طبرق.

الكلمات المفتاحية: الحوادث المرورية -مشاكل الطرق – المركبات – تهور السائقين.

Abstract :

Spatial analysis of traffic accidents in the city of Tobruk for the period (2000 – 2021 AD) "A study in the geography of cities"

Road accidents and their consequences are a human tragedy, in addition to the exorbitant cost borne by society in terms of direct and indirect human and material losses because of the costs of medical treatment and rehabilitation and the loss of material assets. The growing number of population and vehicles, as well as the increase in movement represented by movement from one place to another, inside or outside cities, whether for people or goods, has exacerbated the seriousness of the problem, The phenomenon of increasing the number of traffic accidents in the city of Tobruk and the resulting negative effects are among the problems of a social and humanitarian nature, as they are complex problems, Because of the multiplicity of variables and factors in it, and because the focal point of this problem is the human being, whether on his own or within a group to which he belongs, When factors and causes interact in a complex pattern, This research aims to identify the current situation of road accidents within the city of Tobruk, In addition to studying the reasons that exacerbate this problem with the geographical distribution of traffic accidents, And then the procedures followed by the municipality of Tobruk and its traffic department to reduce this big problem that most of the city's residents suffer from, and being a tool for evaluating the procedures used to achieve traffic safety, Tobruk is witnessing great and continuous efforts in order to achieve more safety and reduce traffic accidents, As the Traffic Department exerts great efforts in preparing a network of modern roads, which are comparable to many of their counterparts in the countries of the developed world, as the past years witnessed the establishment of many highways, In addition to improving the old transportation routes that link the main cities in the northeastern Libyan, as well as expanding the placement of traffic signals that regulate traffic, Expansion of continuous development of services and means of traffic safety on the roads, Increasing awareness programs, raising the level of traffic control on roads, and developing first aid services. Despite these efforts, the rate of traffic accidents in the city of Tobruk is high and has serious implications when compared to international rates. Despite the small size of the population in the municipality of Tobruk, which is estimated, according to the data of the Department of Statistics and Census, January 2021, to be about (195088) people, However, the number of accidents amounting to (107) traffic accidents in the same year is considered high when compared to the areas whose population is close to the municipality of Tobruk.

Keywords: traffic accidents – road problems – vehicles – Reckless drivers.

المقدمة

تركز الأبحاث والدراسات التي أجريت عن الحوادث المرورية على أنها مشكلة من المشكلات المعقدة والقضايا الهامة التي حازت على اهتمام الدول وجذبت انتباه المختصين والمواطنين لما تخلفه من خسائر فادحة في الأرواح والأموال وما يترتب عليه من خسائر بشرية واقتصادية وأزمات نفسية وآثار اجتماعية سيئة تؤثر بشكل مباشر في استقرار الدولة وأمنها.

ونظرا لتدخل العديد من الأطراف في إحداثها سواء كان الطرف البشري والذي يتمثل في السائق أو المرتجل أو الراكب، أو الطرف الفني والذي يتمثل في الطرق والمركبات أياً كان نوعها، أو الطرف الخاص بالعوامل الطبيعية المتغيرة مثل حالة الطقس والليل والنهار، ويلعب كل طرف من هذه الأطراف دورا معينا في حدوث التصادم والذي يترتب عليه وقوع الحادث المروري.

ولتسليط الضوء على بعض الموضوعات التي تتناول هذه المشكلة بشكل من التوضيح والتحليل وسبل معالجتها، سيتم التعرض من خلال هذه الدراسة بالوصف والتحليل " دراسة تحليلية في جغرافية المدن، تحت عنوان "التحليل المكاني للحوادث المرورية في مدينة طبرق للفترة من (2021-2000م)".

مشكلة الدراسة: تم تحديد مشكلة الدراسة في التساؤلات الآتية:

1. ما أنواع الإصابات الناتجة عن الحوادث المرورية داخل المدينة وخارجها؟
2. هل تتباين التوزيعات المكانية والنسبية في أعداد الحوادث ومعدلات خطورتها وكيف؟
3. ما المواقع التي ترتفع فيها أعداد الحوادث المرورية داخل المدينة؟

أهمية الدراسة :

أن الاهتمام بدراسة الحوادث المرورية والوقوف على بيان خطورتها يرتبط أرتباطاً وثيقاً لقدر وقيمة النفس البشرية التى لايمكن تعويضها؛ ومن هنا جاءت أهمية موضوع الدراسة ومعرفة مسبباتها والعمل على وضع برامج وقائية للحد من مخاطرها، كما انها أضافة علمية إلى المكتبة الجغرافية الليبية.

أهداف الدراسة :

1 - الوقوف على حجم الحوادث المرورية في مدينة طبرق وتوزيعها الجغرافي.

2 -عرض توضيحي للأضرار البشرية والاقتصادية الناتجة عن الحوادث المرورية.

3 - الوصول إلى مقترحات وحلول للحد من الآثار الاجتماعية والاقتصادية للحوادث المرورية في منطقة الدراسة.

حدود منطقة الدراسة:

1 - الحدود المكانية: تناولت الدراسة الحدود المكانية لمدينة طبرق والموضحة في الآتي: -

- الموقع الفلكي: Astronomical location: تقع منطقة الدراسة (مدينة طبرق)، عند تقاطع خط طول (27" 58' 23°) شرقاً مع دائرة عرض (05" 04' 32°)، شمالاً. يعني هذا أن المدينة تقع ضمن مناخ البحر المتوسط بمميزاته الجغرافية،

وتعد منطقة الدراسة مركزاً إدارياً لإقليم البطنان الواقع شمالي شرق ليبيا وأكبر مركز حضري في شرق البلاد.

- الموقع الجغرافي: Geographical location: تقع مدينة طبرق على الشريط الساحلي في أقصى شمالي شرق ليبيا، وتعد مركزاً لإقليم البطنان، وتبلغ المساحة الكلية لإقليم البطنان (83860 كم2)، وهذه المساحة تشكل ما نسبته (4.75%)، من مساحة ليبيا. كما تبلغ مساحة مدينة طبرق (34.7 كم2)، وهذه المساحة تشكل ما نسبته (0.041%)، من مساحة البطنان شكل (1).

2 - الحدود الزمانية: تقتصر الدراسة على إحصائيات الحوادث المرورية الصادرة من مكتب مرور طبرق (مكتب الاحصاء المروري) خلال الفترة 2000 - 2021م.

شكل (1) موقع منطقة الدراسة بالنسبة للإقليم والدولة.

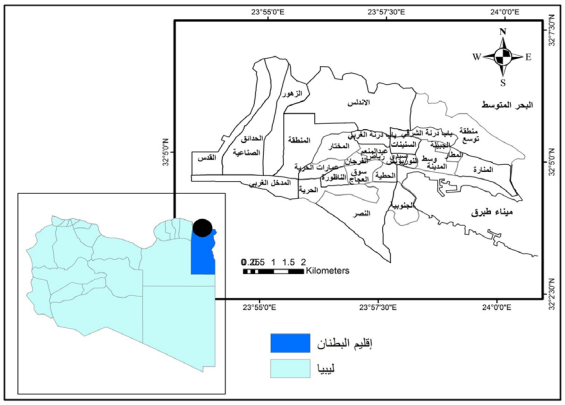

المصدر: إعداد الباحث باستخدام ARC Map 10.

المناهج المتبعة في الدراسة:

تعتمد الدراسات الجغرافية مناهج وأساليب تتحقق من خلالها أهدافها؛ لذلك ستعتمد هذه الدراسة منهجين منها:

1 -المنهج التاريخي: يستخدم هذا المنهج لتتبع مشكلة الدراسة تاريخياً، وذلك لفهم بعض الظواهر الجغرافية، لا سيما المتعلقة بالتطور السلبي للحوادث المرورية.

2 - المنهج الوصفي: وهو من الأساليب التحليلية المهمة؛ لذا سيتم الاعتماد عليه في وصف بعض ظواهر مشكلة الدراسة.

الدراسات السابقة:

ترجع أهمية الدراسات السابقة لأي بحث علمي في الاستفادة مما قدمته من معلومات ونتائج جديدة متميزة عن الظاهرة موضع الدراسة، وتجنب الأخطاء التي وقعت فيها، بالإضافة إلى معرفة أهم المراجع التي استعملت في هذه

الدراسات، والتي قد تفيد الباحث في موضوع دراسته؛ لذا تم الاطلاع على مجموعة من الدراسات السابقة ومنها:

- دراسة قام بها الباحث (عوض يوسف الحداد)، عام1989م، عن الاختلافات المكانية لحوادث الطرق في ليبيا، اعتمدت الدراسة على إحصائيات المرور في البلديات الليبية سنة 1983 والتي أظهرت انخفاض عدد الحوادث في ليبيا مقارنة بإحصائيات السبعينات وأوائل الثمانينيات، وعلى الرغم من ذلك لايزال معدل الحوادث مرتفعا مقارنة بمعدلات بعض الدول التي تفوق ليبيا في عدد السكان والمركبات، وأظهرت الدراسة ارتفاع نسبة الحوادث في بلديات طرابلس وبنغازي ذات الكثافة السكانية العالية، وارتفاع نسبة المصابين والقتلى في البلديات ذات الكثافة المنخفضة كمرزق وسوف الجين [1].

- دراسة أخرى قامت بها الباحثة (سالمة عبد الله الشاعري)، عام 2012م، عن العوامل الاجتماعية والآثار النفسية الناتجة من مشكلة حوادث المرور، حيث تعرض في أحد محاور الدراسة مفاهيم الحوادث المرورية وتصنيفها ومراحلها، ونظريات مفسرة لها، وعرضت وصفا تفصليا عن السلامة المرورية وخلصت إلى توصيات تحث على التوعية المجتمعية للحد من الخسائر البشرية والمادية الناجمة عن الحوادث المرورية معرجة في ذلك على أهمية دور أجهزة الإعلام في هذا الشأن[2].

- دراسة قام بها الباحث (حسين مسعود ابو مدينة)، عام2017م، عن حوادث الطرق في بلدية مصراته "دراسة في جغرافية النقل، وقد توصلت الدراسة لعدد من التوصيات منها: عدم التساهل مع مرتكبي الحوادث المرورية وتوفير العلامات والإشارات الضوئية على الطرق وتخطيط الطرق والاهتمام بالإحصاء المروري والتوعية المرورية عبر وسائل الإعلام المختلفة وإدخال الأنظمة المرورية وإرشاداتها على شكل موضوعات دراسية في الكتب الدراسية لمرحلتي التعليم الأساس والمتوسط [3].

سنعرض من خلال هذا البحث لدراسة وتحليل الحوادث المرورية في مدينة طبرق، وذلك من خلال محورين رئيسيين: حيث نتناول في المحور الأول: تعريف حادث المرور-أنواع الحوادث المرورية – تصنيف حوادث المرور، والمحور الثاني: يوضح بالتحليل حجم وخطورة الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة من عام 2000 – 2021م.

(1) عوض يوسف الحداد، الاختلافات المكانية لحوادث الطرق في ليبيا، ندوة مشكلات السير على الطرقات، التي نظمها معهد الانماء العربي، طرابلس، في يوم 1989.11.10.

(2) سالمة عبد الله الشاعري:" العوامل الاجتماعية والاثار النفسية الناتجة من مشكلة حوادث المرور " (بحث منشور)، مجلة فكر وابداع، الجزء الخامس والستين، مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012

(3) حسين مسعود ابومدينة، "حوادث الطرق في بلدية مصراته"، (بحث منشور)، المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراته، ليبيا، المجلد الاول، العدد السابع، 2017.

المحور الأول: تعريفات ومفاهيم وانواع ومسببات الحوادث المرورية

أولاً : تعريف حادث المرور:

يعرف الحادث المروري بأنه حدث عرضي يحدث من دون تخطيط مسبق من قبل سيارة (مركبة) واحدة أو أكثر مع سيارات (مركبات) أخرى أو مشاة أو حيوانات، أو أجسام على طريق عام أو خاص، وعادة ما ينتج عن الحادث تلفيات تتفاوت من طفيفة بالممتلكات والمركبات، إلى جسيمة تؤدي إلى الوفاة أو الإعاقة المستديمة (4).

بعض المفاهيم المرتبطة بالحوادث المرورية:

يمكن القول إن بعض عناصر الحادث المروري (السائق-السيارة – الطريق) وهي كالآتي:

1 – المستهدف للحوادث المرورية: هو ذلك الشخص الذي يقع له عدد من الحوادث المرورية بصفة دائمة أكثر من متوسط عدد الحوادث التي تقع للشخص العادي، وذلك لأسباب ذاتية (أي تتعلق بسمات الشخصية وليست لأسباب موضوعية) (5).

2 – مفهوم السائق: هو الذي يقود المركبة على الطريق والذي يعي مستوى المركبة وقدراتها وإمكانياتها، وهو الذي يستطيع أن يوفر لنفسه وللمركبة وللآخرين الأمن والسلامة(6).

3 – مفهوم السيارة (المركبة): هي مركبة تسير على الطريق بالاندفاع الذاتي وتستخدم عادة لنقل الركاب والبضائع على الطريق، أو لسحب عربات تنقل أشخاصاً أو بضائع، وينسحب هذا المعنى على السيارات المتصلة بخط كهربائي، ولا تسير على قضبان، ولكنه لا ينسحب على التراكتورات الزراعية. وتواجه المركبة العديد من المشكلات والتي من شأنها زيادة نسبة الوقوع في الحوادث، فهناك مشكلات تتصل بعيوب وأخطاء في التصميم، وأخرى تتصل بعدم توافر وسائل السلامة في المركبة، أو عدم وجود الأمان، أو عدم التأكد من سلامة المركبة(7).

4 – مفهوم حادث السيارة: يذكر دين C.Dean إن الحادثة المرورية تكون نتيجة لبناء تدريجي من العوامل التي قد تستغرق وقتا كبيراً، والتي تؤدي في النهاية لوقوع الحادثة، فالحادثة يرتكبها إنسان ويذهب ضحيتها إنسان آخر، وتقع في مكان له طبيعته، وزمان له خصوصيته، وتحت ظروف مناخية مثيرة(8).

---

(4) حوادث السيارات: أسبابها وآثارها على المجتمع. http://org.enwikipedia/wiki/brake

(5) سالم صنهات المطيري: "ديناميـة العلاقة بين العدوان والتوافق النفسي والاجتماعي وانعكاسها على الاستهداف لحوادث المرور لدى قائدي السيارات"، (رسالة ماجستير)، قسم علم النفس- كلية الآداب – جامعة عين شمس، القاهرة- مصر،1990،ص 12.

(6) سالم صنهات المطيري: "القدرة الحسية-الحركية والعقلية والخصائص الشخصية والسلوكية المتطلبة للقيادة الآمنة للمركبات، دراسة تجريبية مقارنة بين الجنسين بدولة الكويت، (رسالة دكتوراه)، قسم علم النفس-كلية الآداب – جامعة عين شمس، القاهرة-مصر،2001، ص21.

(7) سالم صنهات المطيري: "القدرات الحسية"، مرجع سابق، ص 16.

(8) Dean,C.The organization of road safety in Great Britain).in (H.C Foot & others,road safety and practical PRAGER,1981,p.4.

5 – مفهوم الطريق: عرف مؤتمر المرور الدولي الذي عقد في فينا سنة 1968 الطريق بأنه السطح الكامل لمكان المرور أو الشارع المفتوح لحركة السير العامة[9].
6 – مفهوم قانون المرور: هو مجموعة القواعد الموضوعية التي تهدف إلى تحقيق الأمن الفردي والاجتماعي من خلال تنظيم مرفق السير بالطرق العامة[10].
ثانياً : أنواع الحوادث المرورية:
تتمثل أنواع الحوادث المرورية في: – تصادم بين سيارات متقابلة (وجها لوجه) – تصادم على شكل زاوية (تصادم بين سيارات عند التقاطعات) – تصادم من الخلف (سيارات تسير في نفس الاتجاه) – تصادم جانبي-تصادم عند الدوران(الالتفاف)– صدم سيارة متوقفة – صدم جسم ثابت – حادث لسيارة واحدة (عادة انقلاب أو فقد السيطرة على السيارة) – دهس مشاة-صدم دراجة [11].

ثالثاً : تصنيف حوادث المرور:
يمكن تصنيف حوادث المرور بحسب نتائجها إلى:
1 – الحوادث المأساوية والخطيرة: والتي تكون نتيجتها فقدان الحياة، وهذه أخطر الحوادث، وأفجعها، فهي استنزاف لثروة الأمة البشرية، والتي هي أغلى ثرواتها، وقد يكون نتيجة هذا النوع من الحوادث فقدان بعض جوانب الحياة السوية بسبب ما يتعرض له البعض من تشوهات، تمنعهم من أداء دورهم الطبيعي كأفراد أسوياء، أضف إلى ذلك المعاناة النفسية التي يتعرض لها أقرباء ضحايا الحوادث، وما يكلف ذلك الفرد، والأسرة، والمتجمع ككل، من مآس، وخسائر، قد لا يتصورها كثير من الناس، لأنها لم تكن مشاهدة بصورة محسوسة وجلية.
2 – الحوادث المتوسطة ذات الصبغة الاقتصادية: وفيها تقتصر الخسائر على النواحي المادية، ويشمل ذلك السيارة وما تصطدم به، وتشكل هذه الخسائر أرقاماً خيالية في بلادنا وبلاد العالم المتقدم، فقد رصدت الإحصائية بتاريخ 17/ 02/ 2021 الأضرار المادية مقدرة قيمتها بـ 280 مليون دينار ليبي 62) مليون دولار أميركي)، فقد تضررت من جراء الحوادث 6641 مركبة.
3 – الحوادث البسيطة: هي التي لا ينتج عنها أضرار بشرية، ومادية بليغة ومتوسطة، وهذه الحوادث لا تدخل في إحصائيات شرطة المرور، إما لاتفاق الأطراف عليها، أو لأنها لم يبلغ عنها أصلا[12] .

(9) ماهر المقاول: المؤتمر الدولي للسلامة على الطريق، 2000، نقلا عن مصطفى سعيد محمد محمود.

(10) "الخصائص الاجتماعية النفسية المستهدفة لحوادث الطرق"،(رسالة ماجستير)، قسم العلوم الانسانية البيئية، معهد الدراسات والبحوث البيئية، جامعة عين شمس، القاهرة- مصر،2008،ص 19.

(11) حوادث السيارات: أسبابها وآثارها على المجتمع. مرجع سابق.

(12) أحمد محمد بوني: الجوانب النفسية لمشكلات حوادث المرور، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس- ليبيا، الطبعة الأولى، 1987، ص 9.

رابعاً: العوامل المسببة لحوادث المرور:

هناك مجموعة من العوامل والأسباب المسببة لحوادث المرور وهي:

1 – العوامل الخارجية: وتتمثل في العمل المتعب، السرعة، الطريق، شكلها ونوعها، الإضاءة ودرجة الحرارة، طبيعة الحمولة ومدى قانونيتها في سيارات النقل، نوعية فرامل السيارة، مجموعة القيادة والتوجيه، انفجار الإطارات، المرايا العاكسة(داخلية–خارجية)، طبيعة الإضاءة والأنوار بالمركبة[13] . وكذلك أثر العوامل المناخية على حوادث المرور.

2 – العوامل الديموغرافية : تمثلت في السن، الخبرة، الصحة، الجنس، ما بين ذكر وأنثى، الإبصار.

3 – العوامل النفسية: تتمثل في الذكاء والقدرات العقلية والحركية، الشخصية والجوانب الانفعالية، الأعراض السيكوسوماتية، تأثير النفس على الجسد (الشكاوى والآلام والأوجاع البدنية المتعلقة بأجهزة الجسم المختلفة)، الروح المعنوية والرضا عن العمل، القيم، المكانة السوسيومترية، القيادة[14] .

4 – عوامل قانونية: نحو عدم الاحترام والالتزام بالقواعد المرورية المعروفة مثل تخطي الإشارة الحمراء، الانشغال بالهاتف المحمول في أثناء القيادة، وعدم ربط حزام الأمان[15] . السكر وتناول المشروبات الروحية، تقصير رجل المرور في أداء عمله[16] .

المحور الثاني: الحوادث المرورية في مدينة طبرق

لكل حادث مرور سبب أو عدة أسباب أدت إلى وقوعه، وبما أن السبب يرتبط بالنتيجة، فإن تحديده يؤدي إلى تقدير درجة تورط الإنسان أو المركبة أو الطريق أو عوامل أخرى، في وقوع الحادث، وبالتالي تحميل إحدى هذه العناصر السبب الرئيس لوقوع الحادث، هو السبب الضروري والكافي في حد ذاته لوقوع الحادث، والذي بدونه لما حصل الحادث، ويعد انعدام الفرامل هو السبب الرئيس، ناهيك عن عدم احترام الإشارة الحمراء والقيادة تحت تأثير مشروبات كحولية، أو المخدرات.

جدول (1) مدى تعرض المركبة للحوادث.

المتغير	التكرار	النسبة المئوية
نعم	126	% 58.3
لا	84	% 38.8
لم يجب	6	% 2.9
المجموع	216	% 100

المصدر / أعداد الباحث.

(13) عباس عوض: حوادث العمل في ضوء علم النفس، دار المعارف، القاهرة- مصر،1971، ص 34.

(14) محمود السيد أبو الليل: دراسات تجريبية للقدرات النفسية الحركية في كتاب التحليل العاملي لذكاء وقدرات الإنسان، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، 1985، ص ص 460 – 485.

(15)https//:www.ar.wikipedia.org/wiki.2010/ (15) حوادث السيارات: الموسوعة الحرة ص 1.

(16) فاروق ابراهيم شريف: حوادث المرور أسبابها وكيفية الحد منها، مجلة الثقافة القانونية، العدد 121، ص 9.
https//:www.sotakhr.com/index.php?id.3389.28/12/2010=

تشير نتائج الاستبيان في الجدول (1) إلى أن أكثر من نصف المركبات (58.3 %) قد تعرضت إلى الحوادث المرورية داخل المدينة وهذه النسبة عالية جداً مقارنةً ببقية الدول الأخرى، وأن 75 % من هذه الحوادث حصلت داخل المدينة أي ضمن الشوارع الرئيسة في المدينة، أما الربع الباقي قد حصلت على الطرق الخارجية. وهناك إجماع على أسباب وقوع الحوادث كما في الجدول الآتي:

جدول (2) أسباب وقوع حوادث المركبات في طبرق لسنة 2021

م	التصنيف	التكرار	النسبة المئوية
1	السرعة الكبيرة	76	% 35.1
2	عدم التقيد بقواعد المرور	47	% 21.7
3	حركة السير	61	% 28.2
4	أسباب أخرى	32	% 15
	المجموع	216	% 100

المصدر / أعداد الباحث.

يتضح من الجدول (2) أن السرعة الكبيرة في قيادة السيارات العامل الرئيس الأول المسبب بحوادث المرور. وتشكل حوالي 35.1 % من جملة أسباب الحوادث المرورية، ويأتي بعدها عامل حركة السير بنسبة 28.2 % ثم عدم التقييد بقواعد المرور وبنسبة 21.7 % وتشكل الأسباب الأخرى نسبة 15 % وقد أجمعوا على أن الأسباب الأخرى تتمثل فيما يأتي: -

1 - وجود أعطال في السيارة.
2 - وجود الحيوانات على الطريق.
3 - عدم المبالاة في قيادة السيارة من قبل الطرف الأخر.
4 - عدم صلاحية الطرق.
5 - قيادة السيارات من قبل الشباب أو الأطفال دون السن المسموح بها قانوناً.
6 - عدم استقرار الحالة النفسية للسائق.
7 - بسبب إقفال الشوارع في المناسبات اجتماعية.

وبالاستفسار عن عدد الذين اقفلوا الشوارع لغرض المناسبات الاجتماعية أكد 62 % بنعم كما في الجدول رقم (3) وهذه النسبة العالية تؤكد على مساهمة المجتمع بطريقة غير مباشرة في كثرة الحوادث المرورية وازدحام الشوارع.

جدول(3) عدد مرات إغلاق الشوارع لممارسة نشطات اجتماعية في طبرق لسنة 2021

المتغير	التكرار	النسبة المئوية
نعم	155	% 62
لا	81	% 32.4
لم يجب	14	% 5.6
المجموع	250	% 100

المصدر / أعداد الباحث.

تحليل نتائج الحوادث المرورية في مدينة طبرق:

نوضح بالتفصيل تحليل بيانات الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة 2000 - 2021م وذلك بناء على إحصائيات أدارة مرور طبرق والنقاط السوداء لمواضع الحوادث شكل(2).

شكل (2) النقاط السوداء لمواضع الحوادث المرورية في مدينة طبرق.

المصدر: إعداد الباحث باستخدام GCS_WGS_1984 WKID:4326 AUTHORITY: EPSG

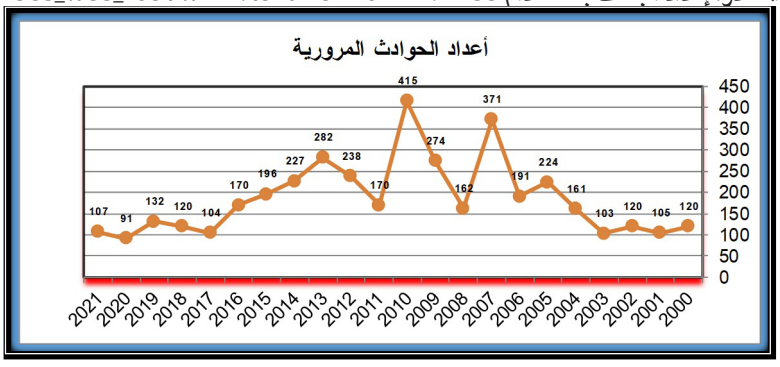

شكل (3) أعداد الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة 2021-2000م. المصدر: الملحق (1).

وضح الشكل (3) أعداد الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة من 2000-2021م والتي كان مجموعها (4083) حادثا وسجل عام 2010م أعلى معدل حوادث سنوي حيث بلغ (415) حادثا؛ في حين أدنى معدل حوادث سنوي كان عام 2020م بـ (91) حادث، ومن ثم بدأت في الارتفاع مع حلول العام 2021م حيث بلغت (107) حوادث مرورية.

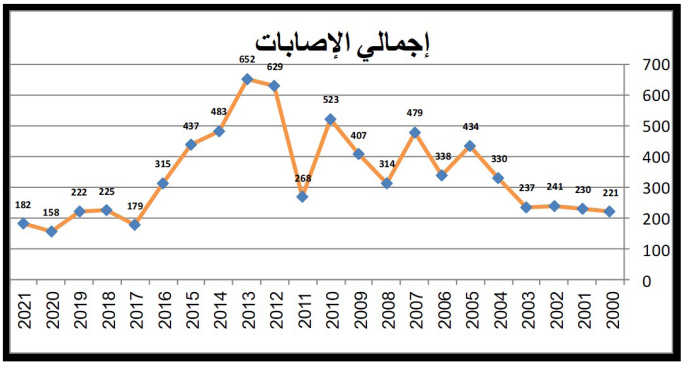

شكل (4) إجمالي الإصابات الناتجة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة 2000 – 2021م.

المصدر: الملحق (1).

الشكل (4) يوضح الإصابات الناتجة عن حوادث المرور خلال الفترة الموضحة أعلاه والتي كان مجموعها (7504) إصابات مرورية وسجلت أعلى إصابات في العام 2013م حيث بلغ (652) إصابة؛ في حين كانت أقل إصابات في عام 2020م حيث سجلت (158) إصابة؛ ثم بدأت في الارتفاع مع حلول العام 2021م حيث بلغت (182) إصابة.

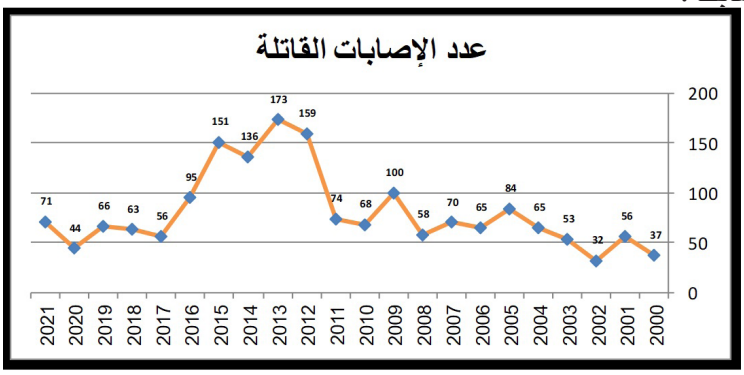

شكل (5) أعداد الاصابات القاتلة الناجمة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة 2000 – 2021م.

المصدر: الملحق (1).

يتبين من الشكل (5) الزيادة الكبيرة في الإصابات القاتلة الناجمة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة من 2000-2021م حيث بلغت حالات القتل (1776) قتيلا وسجل عام 2013م أعلى معدل سنوي لأعداد القتلى حيث بلغ (173) قتيلا؛ في حين أدنى معدل قتل كان عام 2002م بـ (32) قتيلا، ومن ثم بدأت في الارتفاع بحلول العام 2021م حيث بلغت (71) قتيلا.

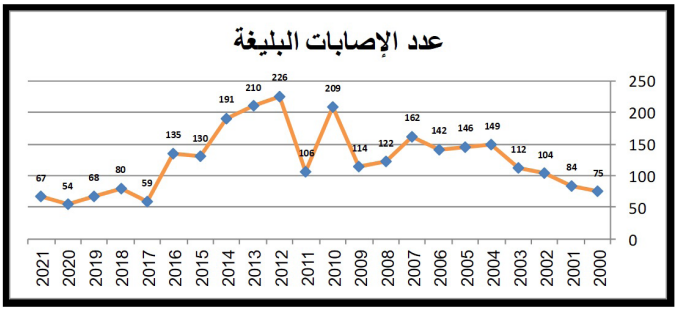

شكل (6) أعداد الإصابات البليغة الناجمة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة 2000 – 2021م.

المصدر: الملحق (1).

يتبين من الشكل (6) الزيادة الكبيرة في الإصابات البليغة الناجمة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة من 2000-2021م حيث بلغت حالات الإصابات البليغة (2745) أصابة بليغة وسجل عام 2012م أعلى معدل سنوي للإصابات البليغة حيث بلغ (226) إصابة بليغة؛ في حين أدنى معدل للإصابات البليغة كان عام 2020م بـ (54) أصابة بليغة، ومن ثم بدأت في الارتفاع بحلول العام 2021م حيث بلغت (67) إصابة بليغة.

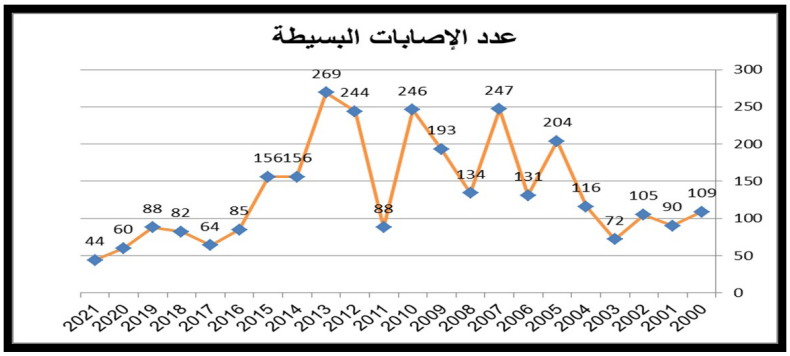

شكل (7) أعداد الإصابات البسيطة الناجمة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة 2000 – 2021م.

المصدر: الملحق (1).

يوضح الشكل (7) الزيادة الكبيرة في الإصابات البسيطة الناجمة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة من 2021-2000م حيث بلغت حالات الإصابات البسيطة (2983) إصابة بسيطة وسجل عام 2013م أعلى معدل سنوي للإصابات البسيطة حيث بلغ (269) إصابة بسيطة؛ في حين أدنى معدل للإصابات البسيطة كان عام 2021م بـــ (44) إصابة بسيطة.

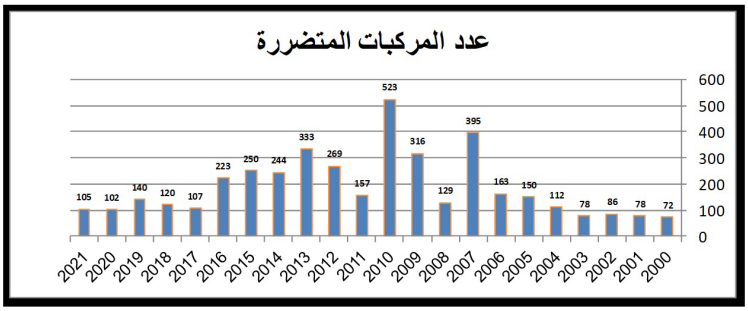

شكل (8) أعداد المركبات المتضررة الناتجة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة 2000 – 2021م.

المصدر: الملحق (1).

يوضح الشكل (8) أعداد المركبات المتضررة الناتجة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة من 2021-2000م والتي كان مجموعها (4152) مركبة وسجل عام 2010م أعلى معدل في عدد المركبات المتضررة حيث بلغ (523) مركبة، في حين أدنى معدل في عدد المركبات المتضررة كان عام 2000م بـــ (72) مركبة.

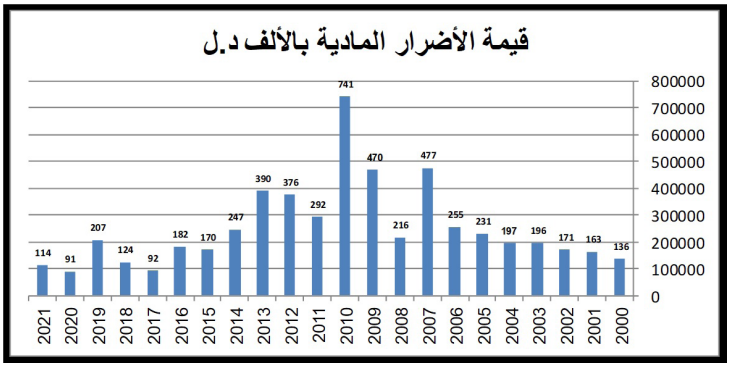

شكل (9) قيمة الأضرار المادية الناتجة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة 2000 – 2021م.

المصدر: الملحق (1).

يوضح الشكل (9) قيمة الأضرار المادية الناتجة عن الحوادث المرورية في مدينة طبرق خلال الفترة من 2000 – 2021م والتي كان مجموعها (5535420) د.ل

وسجل عام 2010م أعلى معدل في قيمة الأضرار المادية حيث بلغت (741090) د.ل؛ في حين أدنى معدل في قيمة الأضرار المادية كان عام 2000م بقيمة (90500) د.ل، ثم بدأت في الارتفاع بحلول العام 2021م حيث بلغت (114000) د.ل.

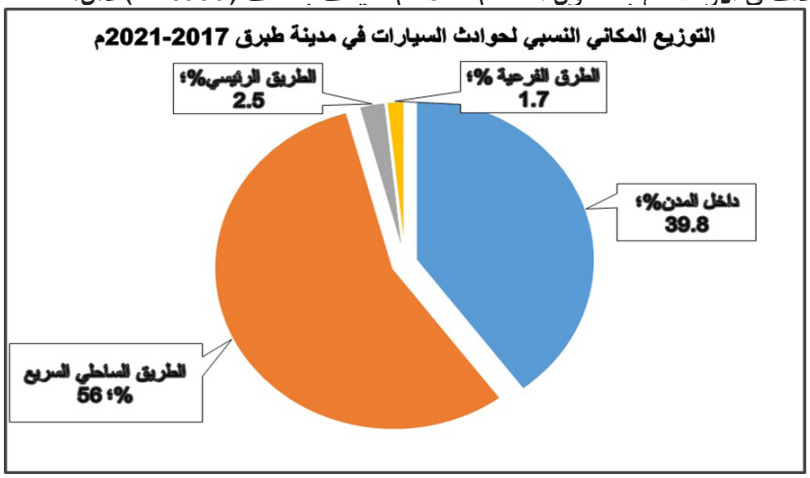

شكل (10) التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور في مدينة طبرق 2017 – 2021م. المصدر: الملحق (1).

الشكل (10) يوضح التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور في مدينة طبرق 2017 – 2021م حيث تبين أن ما نسبته (56 %) من الحوادث على الطريق الساحلي السريع، و نسبة (39.8 %) من الحوادث داخل المدينة، ونسبة (2.5 %) من الحوادث على الطريق الرئيس، أما في ما يخص نسبة حوادث السيارات على الطرق الفرعية كانت (1.7 %).

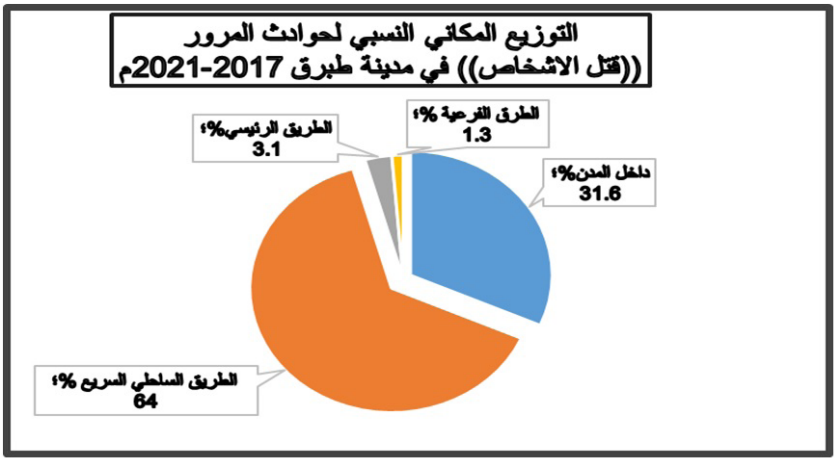

شكل (11) التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور (قتل الأشخاص) في مدينة طبرق 2017 – 2021م.
المصدر: الملحق (1).

يبين الشكل (11) التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور (قتل الأشخاص) في مدينة طبرق 2017 - 2021م حيث تبين أن ما نسبته (64 %) من حوادث قتل الأشخاص على الطريق الساحلي السريع، و نسبة (31.6 %) من حوادث قتل الأشخاص داخل المدينة، ونسبة (3.1 %) من حوادث قتل الأشخاص على الطريق الرئيس، أما في ما يخص نسبة حوادث قتل الأشخاص على الطرق الفرعية كانت (1.3 %).

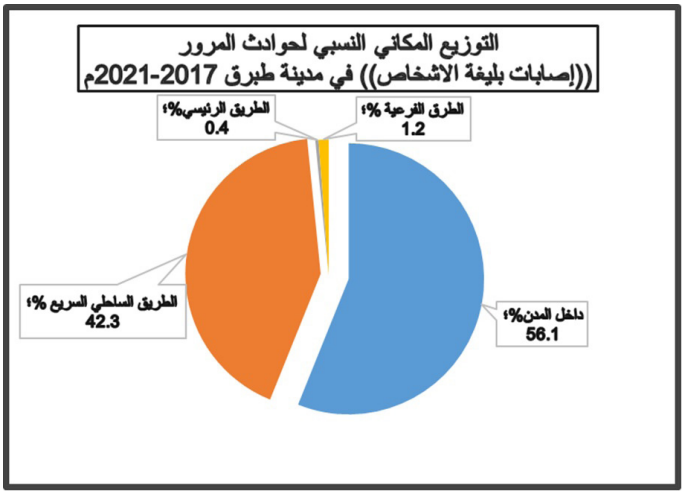

شكل (12) التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور (إصابات بليغة الأشخاص) في مدينة طبرق 2017 - 2021م.
المصدر: الملحق (1).

يوضح الشكل (12) التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور (إصابات بليغة الاشخاص) في مدينة طبرق 2017-2021م حيث تبين أن ما نسبته (56.1%) من الإصابات البليغة للأشخاص كانت داخل المدينة، ونسبة (42.3%) من حوادث الإصابات البليغة للأشخاص على الطريق الساحلي السريع، ونسبة (1.2%) من حوادث الإصابات البليغة للأشخاص على الطرق الفرعية، أما في ما يخص نسبة حوادث الإصابات البليغة للأشخاص على الطريق الرئيس كانت (0.4%).

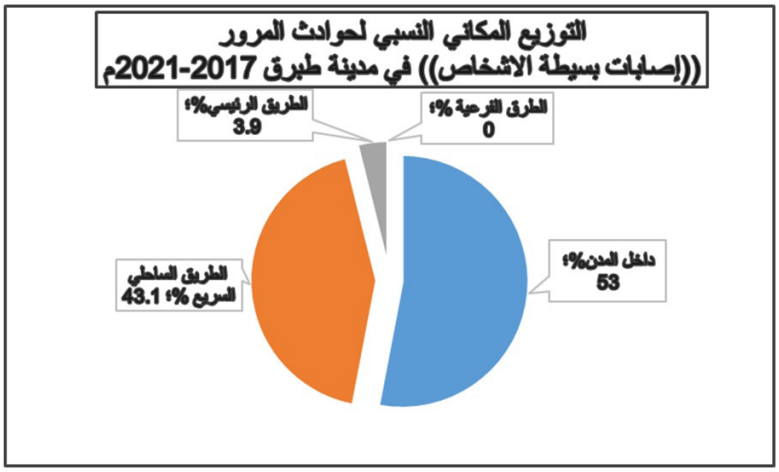

شكل (13) التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور (إصابات بسيطة الأشخاص) في مدينة طبرق 2017-2021م.

المصدر: الملحق (1).

الشكل (13) يبين التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور (إصابات بسيطة الاشخاص) في مدينة طبرق 2017-2021م حيث تبين أن ما نسبته (53%) من الإصابات البسيطة للأشخاص كانت داخل المدينة، ونسبة (43.1%) من حوادث الإصابات البسيطة للأشخاص على الطريق الساحلي السريع، ونسبة (3.9%) من حوادث الإصابات البسيطة للأشخاص على الطريق الرئيس، ولم تسجل أي نسب لحوادث الإصابات البسيطة للأشخاص على الطرق الفرعية.

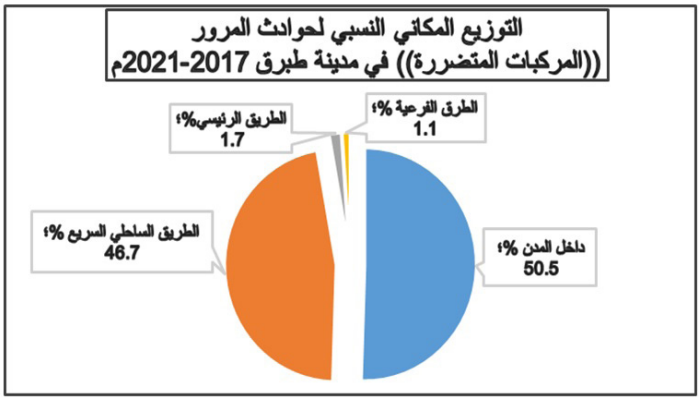

شكل (14) التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور (المركبات المتضررة) في مدينة طبرق 2017 – 2021م.

المصدر: الملحق (1).

يتبين من الشكل (14) التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور (المركبات المتضررة) في مدينة طبرق 2017 - 2021م حيث يوضح أن نسبة (50.5 %) من المركبات المتضررة كانت داخل المدينة، ونسبة (46.7 %) من حوادث المركبات المتضررة على الطريق الساحلي السريع، وما نسبة (1.7 %) من حوادث المركبات المتضررة على الطريق الرئيس، أما في ما يخص نسبة حوادث المركبات المتضررة على الطرق الفرعية كانت (1.1 %).

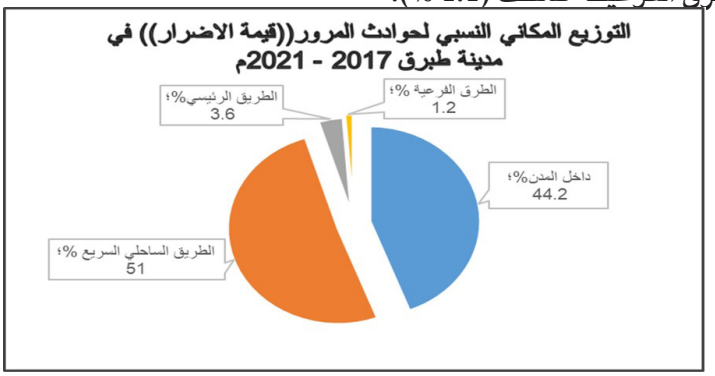

شكل (15) التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور (قيمة الأضرار) في مدينة طبرق 2017 - 2021م.

المصدر: الملحق (1).

يتبين من الشكل (15) التوزيع المكاني النسبي لحوادث المرور (قيمة الاضرار) في مدينة طبرق 2017 - 2021م حيث يوضح أن نسبة (51 %) من قيمة الأضرار كانت حواد الطريق الساحلي السريع، ونسبة (44.2 %) من قيمة الأضرار كانت حوادث داخل المدينة، وما نسبة (3.6 %) من قيمة الأضرار كانت على الطرق الفرعية، أما في ما يخص نسبة قيمة الأضرار على الطرق الفرعية كانت (1.2 %).

وبحساب معدل الخطورة للمصابين الجرحى والمتوفين لكل 10 أشخاص مشتركين في الحادث المروري اعتمدت المعادلات الآتية: -

* معدل الخطورة للمصابين (إصابات بسيطة بليغة وقاتلة) = عدد المصابين x10 / عدد الحوادث
* معدل الخطورة للمتوفين = عدد المتوفين x10 / عدد الحوادث
* معدل الخطورة للجرحى (إصابات بسيطة وبليغة) = عدد الجرحى x10 / عدد الحوادث
* [1] معدل الخطورة للمصابين (إصابات بسيطة بليغة وقاتلة) = 7504 18.38= 4083 /x10
* [2] معدل الخطورة للمتوفين = 1776 4.35= 4083 /x10
* [3] معدل الخطورة للجرحى (إصابات بسيطة وبليغة) = 5728 14.03= 4083 /x10

نخلص من المعادلتين السابقتين (للمتوفين والجرحى) إلى إن نسبة معدل الخطورة للمتوفين (4.35) في حين ارتفعت نسبة معدل الخطورة للجرحى (14.03) وهذا يظهر أن أغلب مسببي الحوادث غير منفردين حال وقوع الحادث المروري.

النتائج:

1. بلغ مجموع الحوادث المرورية (4083) في مدينة طبرق خلال الفترة 2021-2000م.
2. حوادث الإصابات القاتلة بلغت (1776) خلال فترة الدراسة بمعدل متوسط سنوي (85) حالة وفاة.
3. هناك تباين في الإصابات الناتجة عن الحوادث المرورية بين الإصابات القاتلة والإصابات البليغة والإصابات البسيطة حيث سجل عام 2013م أعلى إصابات قاتلة بلغت (173) حالة وفاة كما سجل في العام ذاته أعلى إصابات بسيطة (269) إصابة.
4. بلغت أعلى إصابات بليغة (226) إصابة في العام 2012م
5. سجلت أعلى عدد في المركبات المتضررة (523) مركبة في العام 2010م.
6. بلغ مجموع قيمة الأضرار الناتجة ع الحوادث المرورية في مدينة طبرق قيمة قدرها (5535420) د.ل وسجل العام 2010م أعلى قيمة أضرار حيث بلغت (741090) د.ل.
7. تبين أن ما نسبته (56 %) من الحوادث على الطريق الساحلي السريع.
8. خلصت الدراسة إلى أن حوادث المرور (قتل الأشخاص) في مدينة طبرق 2021-2017م بلغت ما نسبته (64 %) من حوادث قتل الأشخاص على الطريق الساحلي السريع.
9. ارتفعت قيمة معدل الخطورة للجرحى (14.03) عن مثيلتها للمتوفين(4.35) وهذا يعد هدرا في المورد البشري.
10. نظرا لحالة البلاد التي تمر بها منذ سنوات من الفوضى والتهاون في محاسبة المخالفين وخرق القوانين؛ أدى استخدام السرعة المفرطة في قيادة المركبات ولاسيما لدى فئة الشباب ما سبب وقوع الكثير من الحوادث المرورية.
11. أوضحت الدراسة عدم التزام أصحاب ورش اصلاح سيارات الحوادث بطلب إفادة من إدارة المرور بالسماح بإصلاح السيارة؛ الامر الذي أثر سلبا في احصائيات الحوادث الغير مبلغ عنها.
12. تم وضع مطبات صناعية انواع منها ما يستخدم للتنبيه ومنها ما يستخدم للحد من السرعة.

التوصيات:

1. لتحديد مواقع الحوادث المرورية يمكن استخدام أنظمة Global Positioning System من قبل رجال المرور في جمع بيانات الحوادث بدقة وتحديد المكان والخلل المسبب في الحادث.
2. تفعيل دور رجال المرور وتوزيعهم على مساحة الحركة المرورية داخل وخارج المدينة.
3. الاعتماد على التقنيات الحديثة في بناء قاعدة بيانات مكانية للحوادث المرورية.
4. وضع كاميرات مراقبة مرورية بشوارع المدينة مربوطة بغرفة عمليات الإدارة المرورية لوضع المعالجات الآنية للاختناق المروري أوقات الذروة.
5. العمل على التحليل المكاني والإحصائي للحوادث المرورية وتفسير الظاهرات الجغرافية ومدى ارتباطها في الحوادث المرورية.
6. معالجة المشكلات التخطيطية والهندسية للبؤر الساخنة للحوادث المرورية (Hot Spots) في المدنية والتي تعود بتصحيح بيئة الطريق.

7. تفعيل دور البرامج التوعوية بشكل مستمر بهدف تغيير أساليب القيادة الخاطئة لدى قائدي المركبات وخاصة فئة الشباب. \
8. تنبيهات لقائدي المركبات لتجنب الحوادث المرورية: -

- الالتزام بحدود السرعات المسموحة – استخدام حزام الأمان – القيادة بحرص في الظروف المناخية المتغيرة – إعطاء حقوق الأسبقية – ترك مسافة كافية مع المركبة التي أمامك – التركيز في أثناء القيادة وعدم الانشغال عن الطريق – استخدام إشارات التنبيه عند تغيير المسار.

الملحق (1) الحوادث المرورية في مدينة طبرق -2000حتى نهاية ديسمبر 2021م

العام	إصابات بسيطة	إصابات بليغة	إصابات قاتلة	إجمالي الإصابات	مجموع الحوادث	عدد المركبات المتضررة	قيمة الأضرار د.ل
2000	109	75	37	221	120	72	136000
2001	90	84	56	230	105	78	163000
2002	105	104	32	241	120	86	170500
2003	72	112	53	237	103	78	196000
2004	116	149	65	330	161	112	197200
2005	204	146	84	434	224	150	230550
2006	131	142	65	338	191	163	255350
2007	247	162	70	479	371	395	476780
2008	134	122	58	314	162	129	215770
2009	193	114	100	407	274	316	469530
2010	246	209	68	523	415	523	741090
2011	88	106	74	268	170	157	291700
2012	244	226	159	629	238	269	375800
2013	269	210	173	652	282	333	389750
2014	156	191	136	483	227	244	246750
2015	156	130	151	437	196	250	170100
2016	85	135	95	315	170	223	181550
2017	64	59	56	179	104	107	92200
2018	82	80	63	225	120	120	124300
2019	88	68	66	222	132	140	207000
2020	60	54	44	158	91	102	90500
2021	44	67	71	182	107	105	114000
الاجمالي	2983	2745	1776	7504	4083	4152	5535420

المصدر: أعداد الباحث اعتمادا على إحصائيات حوادث الطرق " لقاء أجراه الباحث بتاريخ 02/8/2022م مع المقدم / عبد الوهاب فرج بالحمد – رئيس قسم المرور والتراخيص طبرق.

يوضح الملحق (1) الحوادث المرورية في مدينة طبرق منذ العام 2000 وحتى نهاية عام 2021، حيث أظهر إحصائيات مفصلة عن الإصابات البسيطة والبليغة والقاتلة كما بينت أعداد الحوادث والمركبات المتضررة والقيم المالية لتلك الأضرار.

قائمة المصادر والمراجع

1. عوض يوسف الحداد، الاختلافات المكانية لحوادث الطرق في ليبيا، ندوة مشكلات السير على الطرقات، التي نظمها معهد النماء العربي، طرابلس، في يوم 1989.11.10.
2. سالمة عبد الله الشاعري:" العوامل الاجتماعية والاثار النفسية الناتجة من مشكلة حوادث المرور " (بحث منشور)، مجلة فكر وابداع، الجزء الخامس والستين، مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012.
3. حسين مسعود ابومدينة، "حوادث الطرق في بلدية مصراته"، (بحث منشور)، المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراته، ليبيا، المجلد الاول، العدد السابع، 2017.
4. حوادث السيارات: أسبابها وآثارها على المجتمع. http://enwikipedia.org/wiki/brake
5. سالم صنهات المطيري: "ديناميه العلاقة بين العدوان والتوافق النفسي والاجتماعي وانعكاسها على الاستهداف لحوادث المرور لدى قائدي السيارات"، (رسالة ماجستير)، قسم علم النفس-كلية الآداب – جامعة عين شمس، القاهرة-مصر،1990، ص 12.
6. سالم صنهات المطيري: "القدرة الحسية-الحركية والعقلية والخصائص الشخصية والسلوكية المتطلبة للقيادة الآمنة للمركبات، دراسة تجريبية مقارنة بين الجنسين بدولة الكويت، (رسالة دكتوراه)، قسم علم النفس-كلية الآداب – جامعة عين شمس، القاهرة-مصر،2001، ص21.
7. سالم صنهات المطيري: "القدرات الحسية"، مرجع سابق، ص 16.
8. Dean, C. The organization of road safety in Great Britain (in) H.C Foot & others, road safety and practical Prager, 1981, p.4.
9. ماهر المقاول:"المؤتمر الدولي للسلامة على الطريق،2000، نقلا عن مصطفى سعيد محمد محمود.
10. حوادث السيارات: أسبابها وآثارها على المجتمع. مرجع سابق.
11. أحمد محمد بوني: الجوانب النفسية لمشكلات حوادث المرور، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس-ليبيا، الطبعة الأولى، 1987، ص 9.
12. عباس عوض: حوادث العمل في ضوء علم النفس، دار المعارف، القاهرة-مصر،1971، ص 34.
13. محمود السيد أبو الليل: دراسات تجريبية للقدرات النفسية الحركية في كتاب التحليل العاملي لذكاء وقدرات الإنسان، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، 1985، ص ص 485-460.
14. حوادث السيارات: الموسوعة الحرة ص 1. https://www.ar.wikipedia.org/wiki/2010.
15. فاروق ابراهيم شريف:حوادث المرور أسبابها وكيفية الحد منها،مجلة الثقافة القانونية،العدد121، ص9.
16. https://www.sotakhr.com/index.php?id=3389.28/12/2010

حوض النوبة الجوفي ومعايير تقسيم مياهه بين دول الحوض
دراسة جغرافية مستقبلية

إعداد :
محمد أحمد الكف
كلية الآداب والعلوم- قصر خيار/ جامعة المرقب

الاستلام : 12/ 1/ 2023 القبول : 4/ 3/ 2023

المستخلص

تركز هذه الدراسة على حوض النوبة الجوفي، من الناحية المستقبلية في محاولة إلى ادخال الدراسات المستقبلية في الدراسات الجغرافية. ويعتبر هذا الحوض من أكبر الأحواض المكتشفة حديثا، والذي يقع في الجزء الشمالي الشرقي من القارة الافريقية. وتقع أربعة دول ضمن هذا الحوض وهي مصر وليبيا والسودان وتشاد. ونتيجة لوقوع هذا الحوض في مناطق جافة، تحتاج هذه الدول استغلال مياهه. ولأهمية الحوض نحاول في هذه الورقة التنبؤ بمستقبل الحوض من حيث طرق استغلال مياهه الاستغلال الأمثل تفاديا للصراع بين الدول المشتركة في الحوض، ووضع الطرق والمعايير الخاصة بتقسيم مياه هذا الحوض تقسيما عادلا يكفل للجميع حصته بعيدا عن الصراعات والمنازعات السياسية.

الكلمات المفتاحية: حوض الكفرة، نهر النيل، شمال تشاد، السودان، ليبيا ، حوض النوبة الجوفي

ABSTRACT

This study focuses on the Nubian Aquifer Basin in term of futurology. Trying to use futurology study in Geography. This basin is one of the largest aquifers currently discovered. It is located in the northeastern part of the continent of Africa. Four countries are located within this basin: Egypt, Libya, Sudan, and Chad. As a result of the area being located within the dry desert zone, these countries urgently need to exploit this basin. due to the important of the basin we are trying to predict the future of the basin, and the ways to exploit it optimally in order to avoid conflict between the countries participating in the basin, and to set the methods and criteria for dividing the waters of this basin in a just division.

المقدمة.

أصبح معروفا للكل بأن هناك كميات كبيرة من المياه الجوفية في الصحراء الكبرى، وهي عبارة عن مياه أحفوريه تكونت خلال العصر المطير في الشمال الأفريقي، خلال مئات الألاف من السنيين، وهذا ما أكدته الدراسات العلمية الحديثة، ومن بين هذه الأحواض حوض النوبة الجوفي، والذي تشترك فيه مصر وليبيا والسودان وتشاد. هذه الثروة المائية الجوفية والغير متجددة والقابلة للنفاد بحاجة إلى إدارة مائية جيدة واتفاقيات مشتركة بين الدول المشتركة في هذا الحوض ، من أجل المحافظة عليها واستغلالها الاستغلال الأمثل، وتفادي الصراع بين هذه الدول (وهذا ما نلاحظه من تصريحات البعض في الدولة المصرية من ضرورة السيطرة الكاملة على هذا الحوض النوبة وخصوصا تصريحات د.إيمان غنيم.[1] ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الجلوس ووضح المعايير التي تضمن لكل دولة حقها في استغلال هذه الثروة المائية. وإن الاستخدام الغير رشيد للمياه الجوفية قد يؤدي إلى استنزاف سريع لاحتياطات طبقات المياه الجوفية لهذا الحوض.

وإن تطور الوعي بأهمية الدراسات المستقبلية في الجغرافيا علميا ، يساهم في فهم للمشكلة الجغرافية وسبل تجاوز هذه المشكلات على أسس علمية ونظرية وليس في ضوء أحكام مسبقة. و الدراسات المستقبلية هي أن يتهيأ الفرد أو المجتمع لما سيأتي وأن يأخذ من القرارات ما يجعل مستقبله أفضل، ولا يتفاجأ بالأحداث المتسارعة بل يكون مستعد لها.

يناقش هذا البحث الوضع القائم لحوض النوبة وطرق استغلاله الحالية ومستقبل استغلاله الاستغلال الأمثل. ويستعرض الميزان المائي لدول الحوض، لمعرفة حاجة كل دولة من المياه وهذا ما يركز عليه البحث لمعرفة نصيب كل دولة من مياه الحوض. كما يضع المعايير الخاصة بتقسيم مياه هذا الحوض وهو اجتهاد منا نقبل فيه النقد البناء. كما يدرس التشريعات واللوائح التنظيمية وطرق مراقبتها. و يتناول التحديات الخاصة بمشاركة الأحواض الجوفية المشتركة مع دول الجوار.

1 – مشكلة الدراسة

يشترك حوض النوبة الجوفي بين العديد من الدول (مصر، ليبيا، السودان، وتشاد) وهذا قد يشكل إشكاليات بين هذه الدول ما لم يستغل الاستغلال الأمثل بينها، بحيث تتقاسم هذه الدول الحوض بشكل يكفل إعطاء كل ذي حق حقه، وفق معايير تتفق عليها هذه الدول. ويعتبر هذا الحوض من الأحواض الغير متجددة، ومياهه قابلة للنفاد وعليه وجب استغلاله الاستغلال الأمثل، وذلك عن طريق إدارة مائية مشتركة بين دول الحوض تضمن عدم هدر مياهه

(1) إيمان غنيم: باحثة امريكية من أصل مصري اكتشفت تهر الكفرة الجوفي باستخدام الصور الرادارية.

والمحافظة عليه قدر الإمكان. وتمكن مشكلة الدراسة في التساؤلات التالية:

1. ما هي المعايير الخاصة بتقسيم مياه حوض النوبة بين الدول المشتركة في الحوض؟
2. حوض النوبة حوض غير متجدد وقابل للنفاذ. فهل ستقوم الدول المشتركة بالحوض باستغلاله الاستغلال الأمثل دون هدرا لمياه؟
3. هل ستكون هناك مشاريع مشتركة بين هذه الدول من أجل استثمار هذا الحوض.
4. أليست عملية تنمية الجنوب الليبي مرتبطة باستغلال مياه الحوض؟ وخاصة أن موارده مرتبة بدول الجوار.

2 - الفرضيات.

1. إن وضع معايير خاصة بتقسيم مياه حوض النوبة بين الدول المشتركة به هو السبيل الوحيد لاستغلال مياه الحوض استغلالا عادلا في ما بينها.
2. إن دراسة الميزان المائي لدول الحوض يساعد في وضع المعايير الخاصة بتقسيم مياه الحوض.
3. الاستغلال الأمثل لهذا الحوض يطل عمر المياه الجوفية به ويعمل على النهوض بالمنطقة اقتصاديا واجتماعيا.

3 - أهمية الدراسة:

1. ابراز الوضع المائي الجوفي لدول حوض النوبة الجوفي ومستقبل استغلاله.
2. الكشف عن التحديات التي تواجها الدول المشتركة في الحوض في إدارة واستغلال المياه الجوفية.
3. توضح الخطط والحلول الخاصة بمشاركة المياه الجوفية مع الدول المجاورة والتي تشترك في نفس الأحواض المائية.
4. إدخال الدراسات الجغرافية في مجال الدراسات المستقبلية. وهذا يسهم في تطويرها وإخراجها من قالبها القديم.

4 - أهداف الدراسة:

1. التعريف بالدراسات المستقبلية في مجال الجغرافية من خلال هذه الدراسة.
2. وضع المعايير الخاصة بتقسيم المياه الجوفية بين هذه الدول في دراسة مستقبلية في حالة حدوث صراع بين هذه الدول.
3. الكشف عن الطرق العلمية الحديثة في استغلال حوض النوبة الجوفي.

5 - منهجية الدراسة: تعتبر هذه الدراسة من الدراسات المستقبلية، والتي تعتمد على محاولة التوقع المستقبلي للحدث، وهي منهجية حديثة تستخدم من أجل التنبؤ بحدوث مشكلة ومحاولة علاجها قبل حدوثها، كما استخدم المنهج التحليلي والمنهج الاستدلالي من أجل الربط بين الاشياء وعللها على أساس المنطق والتأمل الذهني. مع استخدام المنهج الوفي في وصف حوض النوبة والذي يتعدى وصف الظاهرة فقط إلى اكتشاف الحقائق وآثارها والعلاقات التي تتصل بها،

وتفسيرها والقوانين التي تحكمها في الدراسة، من أجل تحليل البيانات وربط الظواهر مع بعضها، والخروج بنتائج تساهم في فهم مشكلة البحث.

6 – الدراسات السابقة: يشار كثيرا إلى حوض النوبة الجوفي في المراجع العربية إشارة بسيطة، وجميعها تدرسه دراسة وصفية من حيث الموقع والحجم، ولم تمر على دراسة تشير إلى طرق استغلاله بين الدول، إلا بعض التقارير الأجنبية نشير إلى بعضها:

1. تقرير (Elena Quadri) بعنوان حوض النوية الجوفي وإمكانية التعاون بين الدول المشتركة في الحوض (2017). في هذا التقرير تكلم عن الحوض بشكل عام وعن الدول المشتركة فيه وعن بعض الطرق الخاصة بالتعاون المشترك بين دول الحوض، وهو اول من تكلم عن احتمالية قيام صراع بين دول الحوض ولم يتكلم عن الميزان المائي لكل دولة من أجل معرفة احتياجات هذه الدول من المياه.
2. تقرير (Gaglio) بعنوان حوض النوبة الجوفي والتعاون بين الدول المشتركة به(2017). وهي دراسة وصفية عن الحوض، ذكر فيه احصائيات عن الاحتياجات المائية لدول العالم ، وتكلم عن أهمية الحوض للدول المشتركة به، ولم يذكر عن المعايير الخاص بالتقسيم ودعاء إلى التعاون المشترك بين دول الحوض

7 – الصراع على المياه في دول العالم

ثمة تحديات كبرى تواجه الدول المختلفة تتمثل في صعوبة توفير إمدادات كافية من المياه ذات النوعية الجيدة لتلبية الاحتياجات المتزايدة للسكان. حيث تعد المياه مسألة حياة أو موت. حوالي 900 مليون شخص في العالم بدون مياه صالحة للشرب و 2 مليون شخص في العالم يموتون من شرب المياه الغير صالحة للشرب.[2] مما أدى ذلك إلى زيادة التوترات بين الدول بسبب نقص المياه والزيادة السكانية والتوسع العمراني الكبير الذي تشهده دول العالم خاصة الدول النامية. على المستوى الاستراتيجي، تؤثر خمس خصائص جيوسياسية رئيسية على الدفع لأن تصبح المياه مصدرًا للتنافس أو المواجهة الاستراتيجية بين الدول المتجاورة: تتمثل في درجة ندرة المياه في المنطقة، ومدى مشاركة إمدادات المياه بين أكثر من دولة أو منطقة، وعلاقات القوة النسبية الموجودة بين الدول التي تتقاسم المياه، و مدى توافر مصادر مياه بديلة وإمكانية الوصول إليها، و الدرجة أو المدى الذي تتماشى فيه الحدود الدولية لبلد معين مع أنظمة الأنهار المشتركة أو أنها تقع على طولها (حمدي عبد الرحمن، اتجاهات نزع الأمننة عن قضايا المياه في أفريقيا ، ص4). وتشهد القارة الأفريقية صراعات مختلفة على المياه وخاصة مياه الأنهار ولعل أحد الأمثلة هي الخلاف بين موريتانيا والسنغال حول سد

(2) World Health Organization & U.N .Children's Fund ,Drinking Water :Equity ,Safety and Sustainability17, .(2011)

مانانتالي على نهر السنغال، وحول بحيرة فكتوريا وحول نهر الزامبيزي في جنوب أفريقيا، والخلاف بين كينيا وأثيوبيا بعد ما قامت الأخيرة بإقامة سد حول نهر أومو. وكذلك الحال في الخلاف بين مصر وأثيوبيا بعد قيام أثيوبيا ببناء سد النهضة التي تقول مصر بأنه قد يؤثر على إمدادات نهر النيل على مصر.

8 – نبذة عامة عن حوض النوبة الجوفي.

يقع حوض النوبة الجوفي في الجزء الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، بين كل من مصر وليبيا والسودان وتشاد. وتقدر مساحة هذا الحوض بحوالي 2.2 مليون كم [3] حيث يشمل معظم أجزاء جمهورية مصر ويمتد خارج حدودها جنوبا حتي مرتفعات كردفان بجمهورية السودان وغربا حتي مرتفعات تيبستي ويمتد شمالا حتى سهول سرت بالدولة الليبية, ومرتفعات تشاد في الجنوب الغربي وسلسلة جبال البحر الأحمر شرقا. (خريطة رقم 1) ويقع الجزء الأكبر منه في جمهورية مصر العربية بنسبة 37.5 % من المساحة الكلية للحوض، بمساحة تقدر بحوالي 816.000 كيلومتر مربع وتأتي ليبيا في الترتيب الثاني بعد مصر بنسبة 34.7 %، بمساحة تقدر بحوالي 754.000 كيلومتر مربع تم تأتي السودان بنسبة 17.1 %، وبمساحة تقدر بحوالي 373.000 كيلو متر مربع وتشاد بنسبة 10.7 %. وبمساحة تقدر بحوالي 233.000 كيلومتر مربع. [4] ويقدر العلماء عمر هذا الحوض باستخدام تقنية الراد وكربون ما بين 100.000 إلى 1000.000 سنة، ومياه غير متجددة إلا بقدر ضئيل يتحصل عليها من مياه النيل.

(3) Gaglio :The Nubian Sandstone Aquifer :An Institutional Approach to Water , CWSL Scholarly Commons, .2017

(4) Elena Quadri, The Nubian Sandstone Aquifer System, A case of cooperation in the making.2017 ,

خريطة رقم (1) موقع حوض النوبة الجوفي

المصدر: من أعداد الباحث من واقع خريطة حوض النوبة الجوفي الصادرة عن وزارة الري المصرية.

شكل (1) مساحة كل دولة من المساحة الكلية للحوض

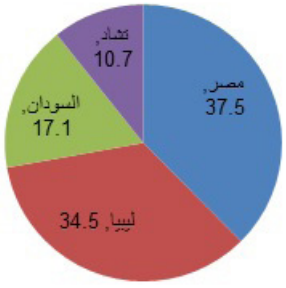

8 – 1 : الدول المشتركة في حوض النوية الجوفي.

مصر: يقع أغلب حوض النوبة الجوفي في الأراضي المصرية بنسبة 37.5% من المساحة الكلية، وتعتمد مصر على مياه النيل في احتياجاتها المائية بنسبة 93% ، و7% من المياه الجوفية ويلغ سكان مصر سنة 2019 إلى (98101011 نسمة). [5] و يتركز معظمهم حول حوض نهر النيل. وتتجه مصر إلى استخدام المياه الجوفية تعويضا عن مياه النيل التي تواجه فيه مشاكل مع جراتها في الحوض. ومن ثم أصبح الاعتماد على المياه الجوفية في تدبير الاحتياجات أمرا مولح. وتمثل المياه الجوفية حاليا المورد الثاني للمياه في مصر ،وهى تساهم بنحو 6.7 مليارات متر مكعب من إجمالي الموارد المتاحة ، وتبلغ أهميتها النسبية 8.8%من حجم موارد الدولة المائية .ولعل أهم الأقاليم الهيدرولوجية بجمهورية مصر العربية إقليم الساحل الشمالي الغربي، إقليم حوض وادى النيل, إقليم دلتا النيل, إقليم الصحراء الغربية, إقليم الصحراء الشرقية وإقليم شبه جزيرة سيناء. وتعمل مصر على استغلال حوض النوبة الجوفي وذلك بإقامة مشروع 1.5مليون فدان وهو مشروع زراعي يهدف إلى زراعة 1.5 مليون فدان من الأراضي الصحراوية في الاستثمار الزراعي والعمراني الأمثل, في حدود معاملات الأمان العالية التي تضمن استدامة الخزان الجوفي. في محافظات الوادي الجديد, مطروح , الإسماعلية, اسوان وقنا. وينقسم إلى ثلاثة مراحل. ويتضمن حفر آبار بأجمالي 5114 بئرا جوفيا ويعتمد المشروع بنسبة 89 % تقريبا على المياه الجوفية والنسبة الباقية على مياه النيل . [6] وفي اطار العمل على استدامة المياه الجوفية عملت وزارة الري المصرية على وضع أليه لتشغيل الآبار بحيث يتم ضخ كميات من المياه تسد حاجة المحاصيل دون زيادة أو نقصان. و تعد مصر من الدول الرائدة في البحث العلمي في مجال دراسة الخزانات الجوفية مقارنة بالدول المشتركة في حوض النوبة، ففي عام 1955 تم إنشاء الإدارة العامة لأبحاث المياه الجوفية, والتي كانت نواة لمعهد بحوث المياه الجوفية، والذي يقوم بدراسة وتقييم المياه الجوفية للخزانات المائية بمصر، وقد خرج هذا المعهد العديد من الخبرات في مجال دراسة المياه الجوفية، وقام بالعديد من الأبحاث بالتعاون مع الجامعات المصرية التي سامت في التعرف اكثر عن المياه الجوفية في مصر، مثل إنشاء شبكة رصد التغير في مناسيب المياه الجوفية. وإنشاء الشبكة القومية لمراقبة نوعية المياه، والعمل على إنشاء أطلس مصر الهيدرولوجي، كما يمتلك المعهد قاعدة بيانات ضخمة عن المياه الجوفية بالدولة.

(5) الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء ، مصر في أرقام.2017.

(6) نفس المرجع السابق

جدول رقم (1) الموارد المائية المتاحة حسب المصدر خلال عام 2013/ 2014

ت	البيان	الكمية (مليار متر مكعب)
1	مياه النيل	55.5
2	المياه الجوفية	6.7
3	تدوير مياه الصرف الزراعي	11.1
4	تدوير مياه الصرف الصحي	1.3
5	الأمطار	1.3
6	تحلية مياه البحر	0.1
	الإجمالي	76.0

المصدر: مصر في أرقام، الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء ، مارس 2015 ، صـ 175.

ليبيا : تقع 34.5 % من مساحة حوض النوبة في الأراضي الليبية وهي تأتي في الترتيب الثاني بعد مصر، وتعتمد ليبيا في حاجاتها المائية على المياه الجوفية بنسبة 98.78 % وذلك للاستخدام الزراعي والمنزلي والصناعي وليس هناك مصدر مائي بها غير المياه الجوفية، و أعلى معدل سقوط الأمطار بها يصل إلى 600ملم في السنة. في بعض المناطق الشمالية الشرقية في الجبل الأخضر بالتحديد، وباقي الجزء الشمالي فيتلقى حوالي 100 ملم في السنة في المتوسط، أما الجنوب فهو ذو مناخ صحراوي تندر فيه المياه. [7] وتعتبر ليبيا من أول الدول التي استغلت حوض النوبة الجوفي، وذلك بنقل المياه من الجنوب الليبي إلى الشمال حيث الكثافة السكانية العالية والأرضي الزراعية الخصبة مقارنة بأراضي الصحراوية في الجنوب الليبي ويعرف هذا المشروع باسم النهر الصناعي.

السودان : يقع 17.1 % من المساحة الكلية لحوض النوبة الجوفي في الأراضي السودانية، ومخزون المياه الجوفية بها يقدر بحوالي 15.200 مليار متر مكعب [8] تتوزع بين حوضين جوفيين رئيسيين هما الحوض النوبي الرسوبي في شمال غرب السودان وحوض تكوينات أم روابة في جنوب وسط السودان. أما تكوينات الصخور الصلبة والتي تتركز في الشرق وغرب الوسط وجنوب غرب البلاد فأنها تمثل حوضاً جوفياً فقيراً. يستغل السودان حاليا حوالي 2 مليار متر مكعب من المياه الجوفية لأغراض الري والاستخدامات المدنية. التغذية السنوية للمياه الجوفية تقدر بحوالي 4.5 مليار متر مكعب.

تشاد: رابع دولة من الدول المشتركة في حوض النوية الجوفي، بنسبة 10.7%. وتعتمد تشاد على المياه الجوفية لحوض النوبة في جزها الشمالي الجاف نادر

(7) شرف عبدالعزيز طريح ، جغرافية ليبيا، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية، 2008.

(8) شاكر محمود ، جغرافيا السودان، المكتب الإسلامي، 1981.

المطـر. أمـا الجـزء الجنوبـي فيتمتـع بكميـات مقبولـة مـن الأمطـار ومسـتفيدة مـن الأمطـار التـي تسـقط عـلى المناطـق الاسـتوائية حيـث تغـذي بحـيرة تشـاد بميـاه نهـر سـيلي. (9)

9 - الميزان المائي للدول المشاركة في حوض النوبة.

الميـزان المائـي هـو عمليـة الموازنـة والمقارنـة بـين إجمـالي حجـم المـوارد المائيـة المعـروض مـن الميـاه في فـترة زمنيـة معينـة، وبـين إجمـالي حجـم الاحتياجـات المائيـة اللازمـة لسـد حاجـة الدولـة مـن الميـاه خـلال نفـس الفـترة، وتشـمل الميـاه التقليديـة (الميـاه السـطحية – الامطـار – الينابيـع – والميـاه الجوفيـة) والمصـادر الغـير تقليديـة (تحليـة ميـاه البحـر والميـاه الجوفيـة المالحـة – والـصرف الصحـي والزراعـي) وتعـد دراسـة الميـزان المائـي للدولـة المشـتركة في حـوض النوبـة الجـوفي مهمـة لمعرفـة احتياجـات هـذه الـدول مـن الميـاه والحصـة المفـترض سـحبها مـن الميـاه مـن هـذا الحـوض.

9 - 1: الميزان المائي لجمهورية مصر العربية.

يعتـبر النيـل هبـة مـصر وهـو شريـان الحيـاة الرئيـسي، إذ تعتمـد مـصر عـلى مياهـه اعتمـادا يـكاد يكـون كليـا في الاسـتعمالات الزراعيـة والصناعيـة والمنزليـة بنسـبة تصـل إلى 95%. وتبلـغ حصـة مـصر مـن نهـر النيـل حـوالي 55 مليـار مـتر مكعـب سـنويا حسـب نصـوص اتفاقيـة الانتفـاع الكامـل بميـاه النيـل المبرمـة بـين مـصر والسـودان عـام 1959. و يـتراوح متوسـط معـدل سـقوط الأمطـار الشـتوية التي تسـقط عـلى الأجـزاء الشـمالية مـن مـصر بـين 130ملـم عنـد الإسـكندرية، و 75ملـم عنـد بورسـعيد، ويقـل كلمـا اتجـه جنوبـا ليصـل إلى نحـو 25مـم عنـد القاهـرة. (10) وهـى كميـات قليلـة لا يمكـن الاعتمـاد عليهـا كمـورد ثابـت للميـاه. أمـا مـصر في المياه الجوفيـة فهـي غنيـة بالعديـد مـن الخزانـات اشـهرها حـوض النوبـة الجـوفي والـذي يشـمل حـوض الحجـر الرمـلي النوبـي مناطـق الواحـات بالـوادي الجديـد، ومنطقـة شرق العوينـات، وحلايـب، وشـلاتين. ويقـدر المخـزون بهـذا الخـزان بعـشرات المليـارات مـن الأمتـار المكعبـة مـن الميـاه العذبـة. ونظـرا لأن هـذا الخـزان عميـق وغـير متجـدد، فـإن الكميـة التـي يمكـن اسـتغلالها تتوقـف عـلى تكاليـف رفـع الميـاه واسـتخدام الطاقـة وتكاليـف إنشـاء الآبـار العميقـة، بحيـث يمكـن الحصـول عـلى عائـد اقتصـادي يتناسـب مـع هـذه التكاليـف. ولـئن كانـت كميـات السـحب الحـالي تبلـغ في متوسـطها نحـو 0.57 مليـار م3، منهـا 0.48 مليـار بالصحـراء الغربيـة والباقـي بسـيناء، فـإن السـحب الاقتصـادي لا يـزال يتيـح كميـات أخـرى مـن الاسـتخدام، تبلـغ -حسـب تقديـرات وزارة المـوارد المائيـة والـري حتـى عـام -2017 نحـو 3.2 مليـار م3 سـنويا. وكذلـك الحـال بالميـاه الجوفيـة بالـوادي والدلتـا وهـي مصدرهـا الميـاه المتسربـة مـن النيـل وشـبكة الـري ومـن الأراضي الزراعيـة، وبلـغ المسـتخدم منهـا نحـو 4,8 مليـار

(9) الجوهرى يسرى ، شمال أفريقيا دراسة في الجغرافيا التاريخية والإقليمية، مؤسسة شباب الجامعة، 1968.

(10) فتحي محمد فريد ، في جغرافية مصر، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، 2000.

م3 سنويا، وهذا في حدود السحب الآمن للخزان الذى يبلغ نحو 7,5 مليار م3 . [11]

9 – 2 : الميزان المائي لجمهورية السودان.

تعتبر مياه الأمطار هي المصدر الأساسي للمياه السطحية في السودان حيث تسقط الامطار في السودان في فصل الصيف بمعدل (1000–500 ملم) سنويا في وسط السودان ومعدل 50ملم [12] في الشمال ذات الطابع الصحراوي وشبه الصحراوي أما المورد الثاني للمياه في السودان فهو نهر النيل بجميع فروعه النيل الأزرق –عطبرة ستيت الدندر بحر العرب والرهد وتقدر الكمية الاجمالية لنهر النيل ورافديه بحوالي 50 مليار متر مكعب. وتقع على النيل شمال الخرطوم شلالات النيل الستة وعليه بحيرات صناعية مثل بحيرة النوبة وغيرها من البحيرات الصناعية خلف السدود والخزانات. وتبلغ حصة السودان من مياه النيل بـ18.5 مليار متر مكعب في العام يستغل منها حاليا 12.2 مليار متر مكعب. أما المياه الجوفية في السودان فهي تشكل 50% من مساحة السودان. ويقدر مخزونها بنحو 15,200 مليار متر مكعب، إلي 39,755 مليار متر مكعب يأتي حوالي 28% منها من حوض النوبة و20% من حوض أم روابة في ولاية شمال كردفان تتوزع المياه الجوفية بين حوضين جوفيين رئيسيين همهما الحوض النوبي الرسوبي في شمال غرب السودان بـ 305 مليار متر مكعب و حوض أم روابة في جنوب وسط السودان ب 22مليار متر مكعب. ومن خلال تتبع السرد السابق نلاحظ أن جمهورية السودان ذات فائض مائي بسبب توفر الأمطار ومرور العديد من الأنهار بها. وإن حاجتها إلى مياه حوض النوبة الجوفي سيكون ضئيل، اما لم تقوم الحكومة باستثمار الشمال الغربي للسودان في مشاريع زراعية كبيرة.

9 – 3 : الميزان المائي لجمهورية تشاد:

تسود في تشاد الأحوال المناخية المائلة إلى الجفاف المرافقة لدرجات الحرارة العالية الغالبة على وسط البلاد وشماليها، والحارة الرطبة في جنوبيها. وبالمقابل تكون أمطار الأنحاء الشمالية قليلة جداً بل نادرة، لا يزيد معدلها السنوي على 10–20 ملم سنوياً، وفي الصحراء الشمالية من 5–2 ملم، تزداد باتجاه الجنوب الرطب، حيث تراوح المعدلات السنوية بين 800 – 1200 ملم تهطل بين مايو وأكتوبر. [13] وتتمثل الثروة المائية السطحية لتشاد بمياه نهري شاري ولوگون وروافدهما، ومياه بحيرة تشاد. ويأتي نهر شاري من جمهورية إفريقية الوسطى ويمر في جنوبي تشاد ويصب في بحيرتها بدلتا واسعة، ويبلغ طوله نحو 1200كم. أما نهر لوگون فيدخل البلاد ثم يسير مع الحدود التشادية ـ الكاميرونية حتى يرفد نهر شاري عن يساره، ويبلغ طوله نحو 960 كم، وترفد النهرين روافد

(11) مرجع سابق الذكر،مصر في ارقام ص 8 .

(12) مرجع سابق الذكر جغرافية السودان ص 9.

(13) شاكر محمود، جغرافيا تشاد ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى، 1972.

كثيرة مياهها دائمة. وفي البلاد أودية موسمية الجريان تجف مياهها في فصل الجفاف، وتنتهي مياهها في أحواض محلية مغلقة يجف ماء أغلبها، والبحيرة الوحيدة الدائمة هي بحيرة تشاد التي تتذبذب مساحتها بحسب ما يردها من مياه الأنهار والسيول ومقدار ما يتبخر من مائها بين سنة وأخرى. ورغم توفر المياه في جمهورية تشاد إلا انها تعاني من نقص حاد في الامدادات المائية حيث يبلغ نصيب الفرد من المياه إلى (999 متر مكعب في السنة). (إحصائيات البنك الدولي لسنة 2108) ويرجع ذلك إلى القصور في السياسات المائية للدولة والحاجة إلى التقنيات الحديثة في استغلال المياه وإلى الحروب الأهلية وعدم الاستقرار السياسي التي تمر بها الدولة.

9 - 4 : الميزان المائي للدولة الليبية.

ليبيا من أفقر الدول مائيا بين الدول المشتركة في حوض النوبة الجوفي، فليس بها أنهار دائمة الجريان، ومعدل سقوط الأمطار لا يتعدى 200ملم. وتتوزع الموارد المائية المتاحة في ليبيا بين 95بالمائة مياها جوفية، 2.30 % مياها سطحية و 0.90 % مياها محلاة 0.66 % مياه صرف. [14] ويعتمد % 95 من السكان في ليبيا على المياه الجوفية والتي تشكل المصدر الأساسي للمياه المستعملة في قطاعات وأنشطة مختلفة أهمها الزراعة والري والاستخدامات المنزلية والصناعية والاقتصادية والصحية، وتبلغ التغذية السنوية للمياه الجوفية في حدود 250 مليون متر مكعب، بينما يقدر الاستهلاك مليار متر مكعب.في السنة. [15] وتشير نفس الدراسة ذاتها إلى أن حصة الفرد من المياه المتجددة تعتبر من أقل دول العالم، وتوقعت أن حصة الفرد من المياه المتجددة ستنخفض من 80 مترا مكعبا لسنة 2005 ، إلى 40 مترا مكعبا في 2020 ، وقدرت الحد الأقصى من المياه الجوفية والسطحية بحوالي 4000 مليون متر مكعب في السنة، وبينت الدراسة أن نسبة المياه غير التقليدية، سواء كانت تحلية أو مياه صرف صحي معالجة، تقدر بحوالي 1000 مليون متر مكعب في السنة، مشيرة إلى أن نسبة المياه الجوفية غير المتجددة تقدر ب 3000 مليون متر مكعب، فيما تقدر نسبة المياه الجوفية المتجددة ب 650 مليون متر مكعب، فيما تبلغ نسبة المياه السطحية 170 مليون متر مكعب.

إلا أن مخزونها الجوفي من المياه الجوفية يعتبر كبير مقارنة بعدد سكانها ويمكن تلخيصها في التالي:

9 - 4 1- المخزون الجوفي الهائل من المياه في الصحراء الكبرى.

منذ قدوم الشركات الأجنبية إلى ليبيا من أجل البحث عن النفط في خمسينيات القرن الماضي ادركت هذه الشركات وجود ثروة هائلة من المياه الجوفية في ليبيا، وبعد ظهور تقنية الاستشعار عن بعد أكدت صور الأقمار الصناعية على

(14) المنظمة الليبية للسياسات المائية، سياسات إدارة المياه في ليبيا، أبريل 2017.

(15) وزارة التخطيط الليبية، الوضع المائي في ليبيا في عام 2025 ، مطلع العام 2010 .

توفرهـا بشـكل كبـير، ونتنـاول أحـدث هـذه البحـوث والتـي أبرزهـا:

9 - 4 - 1 - 1 :دراسة مركز المسح الجيولوجي البريطاني.

قـام مركـز المسـح الجيولوجـي البريطانـي وقسـم الجغرافيـا بكليـة لنـدن كولوج، بدراسـة تحـت عنـوان (Quantitative maps of groundwater in Africa) حيـث أكـدت هـذه الدراسـة في تقريرهـا النهائـي، أن المناطـق الصحراويـة الأكثـر جفافـا في أفريقيـا تضـم مخزونـات هائلـة مـن الميـاه الجوفيـة. وان أكـبر كميـات الميـاه الجوفيـة، توجـد في شـمال أفريقيـا ولا سـيما في ليبيـا والجزائـر ومـصر والسـودان، وأن مخزونـات الميـاه الجوفيـة في أنحـاء أفريقيـا، تعـادل مائـة مـرة مـا عـلى سـطحه. واعتمـدت الدراسـة عـلى عمليـة قيـاس كميـة الضـخ مـن الآبـار الجوفيـة في القـارة الأفريقية، مـع التركيز عـلى العوامـل الجيولوجيـة والجومورفولوجيـة وكميـة الأمطـار السـاقطة عـلى المنطقـة و المتمثلـة في مسـامية الصخـور وكميـة تشـبع الصخـور بالميـاه. وذكـرت الدراسـة أن اغلـب الأحـواض الجوفيـة مغلقـة وغـير متجـددة، وان كميـات الميـاه الموجـودة تعـود الى العصـور القديمـة، حيـث كانـت المنطقـة غزيـرة الأمطـار. وان كميـة المخـزون الجـوفي في هـذه المنطقـة تقـدر بحـولي بعمـق 75 مـتر. ويبـين الجـدول رقـم (2) أكـبر عـشر دول مـن الـدول الأفريقيـة ذات المخـزون الأعـلى في القـارة.

جدول رقم (2) كميات المياه الجوفية المقدرة في بعض الدول الأفريقية.

الدولة	تقديرات المياه بالكيلومتر مكعب	الدولة	تقديرات المياه بالكيلومتر مكعب
ليبيا	99500	الكونجو	38300
الجزائر	91900	النيجر	35800
السودان	63200	مالي	27100
مصر	55200	موريتانيا	23400
تشاد	46000	بتسوانا	17700

المصدر: محمد الكف، نهر الكفرة الجوفي، مجلة العلوم الانسانية قصر اخيار، 2016.

9 - 4 - 1 - 2 : نهـر الكفـرة الجـوفي: كشـف مؤخـرا عـن وجـود نهـر جـوفي مطمـور تحـت الرمـال في الجنـوب الشرقـي لليبيـا، بالقـرب مـن الحـدود المصريـة السـودانية، يبلـغ طولـه حـوالي 1900كيلومـتر، وتبلـغ مسـاحة حوضـه (236) الـف كيلومـتر مربع، ولنهـر الكفـرة دلتـا عملاقـة تقـدر مسـاحتها بحـوالي 34 ألـف كيلومـتر مربـع. [16] وينبـع هـذا النهـر مـن وسـط أفريقيـا، و بالتحديـد مـن بحـيرة تشـاد القديمـة، ويمـر بـشرق الأراضي الليبيـة حتـى خليـج سرت مكونـا العديـد مـن البحـيرات في منخفضـات جالـو وأوجلـة.

(16) محمد الكف، نهر الكفرة الجوفي، مجلة العلوم الانسانية قصر اخيار، 2016.

9 – 4 – 2 : – الأحواض الجوفية في ليبيا.

هنـاك العديـد مـن الأحـواض الجوفيـة في ليبيـا، أهمهـا حـوض سـهل جفـارة ،حـوض الجبـل الأخـضر، حـوض الحمـادة، حـوض السريـر، حـوض مـرزق وحـوض الكفـرة. وتعتـبر أحـواض سـهل جفـارة والجبـل الأخـضر والحمـادة مـن الأحـواض المتجـددة، بسـبب سـقوط كميـات مـن الأمطـار عـلى السـاحل الشـمالي مـن ليبيـا. يغطـى حوضـا الكفـرة والسرير مسـاحات شاسـعة مـن ليبيـا في شرقهـا وجنوبهـا الشرقـي ويمتـدان أيضـا خـارج الحـدود مـع دول هـي تشـاد والسـودان ومـصر. ويـتراوح عمـق الميـاه في الجـزء العلـوي للخـزان مـا بـين 50 إلى 150 مـتر في منطقـة الكفـرة، أمـا في الجـزء السـفلي تـتراوح أعماقهـا بـين 300 إلى 400 مـترا، وتصـل إلى 800 مـتر في الخزانـات الجوفيـة العميقـة. (17)

جدول رقم (3) الأحواض الجوفية في ليبيا

الأحواض	المساحة	كميات المياه المتاحة (مم3\سنة)	
		متجددة	غير متجددة
سهل جفارة	19800	300	50
الجبل الأخضر	126750	300	50
حوض الحمادة	208150	50	350
الكفرة	346300	--	1650
السرير	573500	--	1570
مرزق	430900	--	2500

المصدر: سياسات إدارة المياه في ليبيا، تقرير المنظمة الليبية للسياسات والاستراتيجيات أبريل 2017

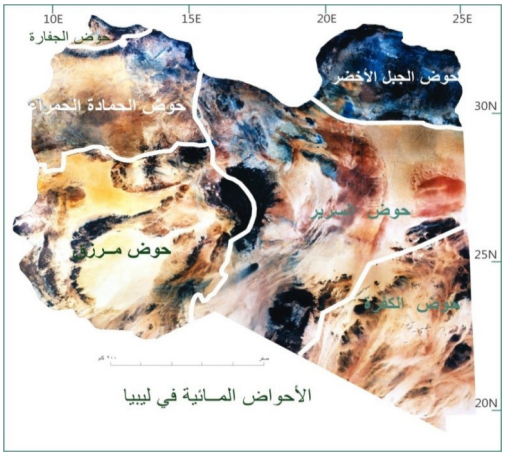

خريطة رقم (2) الأحواض الجوفية في ليبيا

المصدر: من إعداد الباحث من واقع خرائط مصلحة المياه الخاصة بالمياه الجوفية

(17) مرجع سابق الذكر، الوضع المائي في ليبيا في عام 2025، ص 12

حوض مرزق :

يعتبر حوض مرزق من أكبر الأحواض المائية الجوفية في شمال أفريقيا ويغطي مساحة تزيد علي 430900 كيلومتر مربع. [18] وينقسم الحوض إلى خزانين رئيسيين هما الخزان السفلي و يوجد هذا الخزان على كامل امتداد الحوض حيث ينتهي في الجنوب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي بظهور صخور القاع (ما قبل الكمبري) علي السطح ويحده جبل الحساونة في الشمال وأخدود هون في الشمال الشرقي. ويشهد هذا الخزان نسبة هبوط في مستوى المياه الجوفية تقدر بحوالي 0.46متر/السنة في وادي الشاطئ لاستغلال المياه في مشاريع أشكدة ومشروع الأريل. [19] أما عن الاستهلاك الحالي للمياه الجوفية في المنطقة الجنوبية فأغلب الاستهلاك المائي في المناطق الجنوبية في الزراعة والاستعمال المنزلي. ويتوزع هذا الاستهلاك حسب الاحواض الجوفية إلي التالي:

خزان فزان الجوفي: ويمكن تقسيم الخزان إلى ثلاثة مناطق إستهلاك. منطقة الشاطئ و تستهلك المشاريع الزراعية تقريبا 50 مليون م3 من المياه سنويا وتستهلك المزارع الخاصة تقريبا 270 مليون م3 سنويا تقريبا أما المياه المستغلة في الاستعمال المنزلي فيقدر بحولي 8 مليون م3 سنويا. وان أعلى نسبة هبوط سجلت خلال 10 سنوات هي 12.14 أي بمعدل سنوي يصل إلى حوالي 0.46 متر في السنة. أما المنطقة الثانية وهي سبها فيقدر كمية الاستهلاك في المزارع الخاصة بحولي 250 مليون متر3 سنويا، وتستهلك المشاريع الزراعية 26 مليون متر3 سنويا. أما الاستهلاك المنزلي فيقدر بحولي 22 مليون متر3 سنويا. أما معدل الهبوط السنوي بمنطقة سبها فيختلف من مكان إلى أخر فمدينة سبها وصول معدل الهبوط السنوي للمياه الجوفية إلى 1.02متر سنويا، ويعتبر هبوطا كبيرا، وفي بعض المناطق هناك هبوط بسيط فمعدل الهبوط السنوي من 0.45 متر سنة 1978 إلى 0.9 متر سنة 2005.

الحوض الجوفي الجديد بين الجزائر وليبيا وتونس . كشف مؤخرا عن وجود نحو 40ألف مليار متر مكعب من المياه العذبة في الصحراء الجزائرية وأن هناك بحرا كبيرا من المياه الجوفية بين الجزائر وتونس وليبيا لكن النصيب الأكبر منه يوجد في الجزائر حيث تقدر كمية المياه الجوفية في الجانب الجزائري بنحو 600 ألف كيلومتر مربع بينما نصيب ليبيا فيصل إلي نحو 250 الف كيلومتر مربع أما تونس فنصيبها يصل إلى نحو 80 ألف كيلومتر مربع. [20] وأن الجزائر بصدد الانتهاء من وضع دراسة اقتصادية من أجل الاستفادة من هذه المياه.

(18) مرجع سابق الذكر، الوضع المائي في ليبيا في عام 2025، ص 12

(19) مرجع سابق الذكر، الوضع المائي في ليبيا في عام 2025، ص 12

(20) منظمة الفاو، الموارد المائية في المنطقة العربية ،2017.

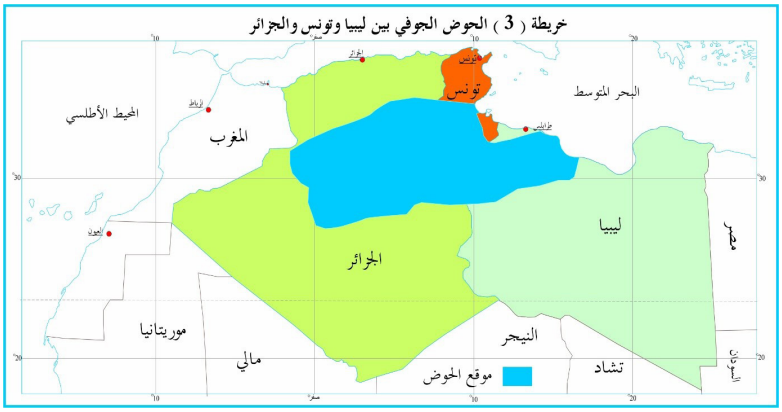

المصدر من إعداد الباحث استنادا إلى الخرائط الصادرة عن وزارة المياه الجزائرية 2016

10 – الاتفاقيات الخاصة باستغلال حوض النوبة الجوفي.

وقعت مصر والسودان وليبيا وتشاد، وثيقة عمل استراتيجي لإدارة أكبر مخزون جوفي في العالم من المياه الجوفية والاستفادة المثلى منه في مقر الوكالة الدولية للطاقة الذرية في فيينا. وفق الاتفاق تلتزم الدول الأربع برؤية مشتركة من الإدارة التعاونية مع الانخراط الكامل لما يعرف بالسلطة المشتركة وهي جهة أنشأتها تلك الدول لدراسة وتطوير خزان الحجر الرملي النوبي. والجدير بالذكر أن المشاركين في إعداد الاتفاق إلى جانب الوكالة الدولية للطاقة الذرية المشروع المشترك بين برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والصندوق الدولي للبيئة بالتعاون مع منظمة اليونسكو.

11 – استغلال المياه الجوفية في الصحراء الكبرى.

ليبيا– أول الدول التي بدأت في استغلال المياه الجوفية في الصحراء الكبرى هي ليبيا، وذلك بإقامة مشروع نقل المياه من الجنوب الليبي إلى الشمال ذات التربة الخصبة في سنة 1984 وعرف بمشروع النهر الصناعي ,وتقدر الكمية بحوالي 6.5 مليون متر مكعب . [21] حيث يستند المشروع على نقل المياه العذبة عبر أنابيب ضخمة تدفن في الأرض ، يبلغ قطر كل منها أربعة أمتار وبطول سبعة امتار لتكون نهرا صناعيا بطول أربعة آلاف كيلومتر، تمتد من الكفرة والسرير في الجنوب الشرقي وجبل الحساونة في الجنوب الغربي حتى يصل جميع المدن الساحلية في الشمال وتتجمع هذه المياه في خزانات تتسع بعضها إلى 16 مليون متر مكعب.

مصر من أكثر الدول التي تحاول استغلال المياه الجوفية في الصحراء الغربية لكونها تبحث عن بديل لمياه نهر النيل التي تتعرض حصتها من المياه فيه للتهديد من دول حوض نهر النهر وخاصة بعد بناء سد النهضة في أثيوبيا، ويمثل مشروع المليون ونصف المليون فدان أحد مشروعات التنمية الزراعية العملاقة التي بدأت مصر في تنفيذه، ويعتمد المشروع بنسبة 88.5% على المياه

(21) المنظمة الليبية للسياسات المائية، سياسات إدارة المياه في ليبيا، أبريل 2017.

الجوفية وبنسبة 11.5 % على مياه النيل، ويتضمن حفر آبار بأجمالي 5114 بئرا جوفيا، وقد تم تقسيم تنفيذ المشروع إلي ثلاث مراحل، وتتضمن المرحلة الأولى حفر 1315 بئرا في 6 محافظات والمرحلة الثانية تتضمن حفر 1950 بئرا. والمرحلة الثالثة تتضمن حفر 1894 بئرا. [22] ويعتمد هذا المشروع على المخزون الضخم من المياه الجوفية الموجودة في بحر الرمال العظيم في الصحراء الغربية لمصر، وأن هذا الخزان متجدد يستمد مياه يستمد مياه من النهر الجوفي الليبي الذى غطته الرمال قبل 18 مليون سنة وهذا النهر يمد بالمياه مدينة الكفرة الليبية التي تعتبر من أغنى وأشهر الواحات التي تعتمد على المياه الجوفية في جنوب شرق ليبيا. أما السودان وتشاد فلم تستغل الحوض الجوفي في مشاريع زراعية كبيرة وذلك لعدم الحاجة الكبيرة لمياه هذا الحوض فبهذه الدول انهار ومعدل سقوط الامطار بها كبير. كما أن استغلال مياه حوض النوبي الجوفي يحتاج إلى تقنية مكلفة في عملية استخراج المياه الجوفية. كما تعاني هتان الدولتان في الشمال من حروب أهلية عاقت عملية التنمية بها.

12 - المبادئ الأساسية لطرق اقتسام مياه حوض النوبة الجوفي.

قبل الخوض في عرض المعايير الخاصة بتقسيم المياه الجوفية لحوض النوبة نستعرض بعض المبادئ الاساسية لطرق اقتسام مياه حوض النوبة الجوفي والتي تم إعدادها من قبل الباحث ومستوحى من بعض الاتفاقيات الدولية حول اقتسام الانهار وتتمثل في النقاط التالية:

1. لكل الدول الحق في استغلال مياه الحوض الاستغلال الأمثل والمفيد. وهذا يعني عدم استبعاد أي دولة من هذه الدول من استغلال مياه الحوض، مهما كانت الحجج. مثل حرمان دولة ما من مياه الحوض لكونها تمتلك موارد مائية كبيرة مثل الأنهار والبحيرات.
2. لكل الدول المشتركة في الحوض الحق في استغلال مياه الحوض بالكمية التي تحتاجها في تنمية مناطقها. فجميع دول الحوض بحاجة إلى مياه في إقامة تنمية وخاصة في المناطق الصحراوية.
3. لكل الدول المشتركة في الحوض الحق في استغلال مياه الحوض ما لم يكن لغرض البيع خارج حدودها. وذلك بالقيام ببيع مياه الحوض، أو إقامة مشاريع استثمارية خارج حدود الدولة المستغلة للحوض.
4. لكل الدول المشتركة في الحوض الحق في استغلال مياه الحوض إلا في الأغراض التي تسبب تلوث مياه مثل إقامة مشاريع صناعية قد تسبب في تلوث مياه.
5. لكل دولة الحق في استغلال مياه الحوض ما لم يوثر هذا الاستغلال في الدولة المجاورة لها. ويتمثل في كميات السحب الكبيرة التي تؤثر في المخزون الجوفي بدون الاستغلال الأمثل والرشيد للمياه.

(22) الكف محمد ، نهر الكفرة الجوفي ،مجلة العلوم الانسانية، العدد الثاني ديسمبر 2016.

13 – المعايير الخاصة بتقسيم مياه الحوض بين الدول المشتركة فيه.

كما ذكرنا سابقا ليس هناك أي اتفاق حالي بين دول الحوض حول تقسيم مياه بل يوجد اتفاقيات مشتركة بين هذه الدول بعدم اهدار مياه الحوض وإنشاء لجنة مشتركة حول حوض النوبة الجوفي، وفي حالة تم الاتفاق على تقسيم هذا الحوض فيما بينها فما هي المعايير الخاصة بتقسيم هذا الحوض. نحاول هنا وضع بعض المعايير التي يجب الاهتمام بها وهي معايير قد تزيد أو تنقص(ونقصد هنا بالتخصيص كمية المياه المسموح استخراجها لكل دولة) نذكر منها:

التخصيص على حسب المساحة: ونقصد به مساحة الحوض في كل دولة، وفي هذا المعيار تخصص كمية المياه للدولة حسب مساحة الحوض التي يقع بها وهذا يعني بأن الدولة التي بها مساحة كبيرة من الحوض لها الحق في استغلال المساحة بالكامل فنجد مصر بمساحة 37.5% من المساحة الكلية للحوض ولها أكبر نصيب من مياه الحوض. ويعيب هذا التقسيم أن مصر لديها مصادر مائية أخرى وهو نهر النيل حيث تستخدم مصر 93% من حاجياتها المائية من نهر النيل. وتأتي ليبيا في المقام الثاني من حيث مساحة الحوض بنسبة 34.5 % من المساحة الكلية إلا أن موقع الحوض في مناطق قاحلة تكاد تنعدم فبها الحياه النباتية وخلوها من الكثافة السكانية تقلل فرص استغلال هذا الحوض، إلا عن طريق نقل مياه إلى المناطق ذات الكثافة السكانية العالية. وكذلك الحال بالنسبة لجمهورية تشاد والسودان.

التخصيص على حساب عدد السكان: كلما زاد عدد السكان في دولة ما كلما زادت الحاجة إلى كميات جديدة من المياه. وتعد مصر من الدول الأكثر سكانا في مجموعة الحوض وهي بحاجة دائمة إلى مصادر مائية جديدة. كما تعد ليبيا من أقل الدول سكانا، حيث لا يزيد عدد سكانها عن 6.5 مليون نسمة. ولكون منطقة الحوض خارج مناطق الكثافة السكانية فهو يقع في اشد بقاع الأرض جفافا، فتعمل هذه الدول على نقل مياه إلى المناطق ذات الكثافة السكانية العالية، كما هو الحال في ليبيا التي تنقل مياه الحوض الخاص إلى الشمال ذو الكثافة السكانية العالية والتربة الأكثر خصوبة. كذلك الحال بالنسبة لجمهورية تشاد التي يقع الحوض بها في الأجزاء الشمالية التي تكاد تكون خالية من السكان، ويعوز دولة تشاد الامكانيات المادية والتقنية لنقل هذ المياه إلي المناطق الخصبة في الجنوب.

التخصيص على الموارد المائية المتاحة للدولة: ويقصد به وجود موارد مائية غير المياه الجوفية للدولة، وتعد ليبيا الدولة الوحيدة التي ليس بها موارد مائية غير المياه الجوفية، فليس بها أنهار ولا معدل سقوط أمطار كبير. بعكس الدول الأخرى التي جميعا يمر بها أنهار ومعدلات سقوط الأمطار بها كبيرة. فنجد مصر بها نهر النيل بحصة سنوية تقدر بحوالي 55 مليون متر مكعب، والسودان التي يمر بها نهر النيل بجميع فروعه (النيل الأزرق والصوبات،...)

ومعدل سقوط أمطار يصل إلى 1000ملم سنويا. أما تشاد فهيا غنية بالأمطار في جزائها الجنوبي ويمر بها أكثر من نهر، أما الجزء الشمالي فهو جاف تماما. إن أهمية هذا المعيار في تحديد نسبة استغلال مياه حوض النوبة تعتبر من أهم المعايير لكون هذا المعيار يمس الأمن المائي لدولة ليبيا التي لا تملك أي مورد مائي غير المياه الجوفية ويجب أن يوضع في الاعتبار عند تقاسم مياه حوض النوبة.

التخصيص على حجم الاستثمارات: ونعنى بها حاجة الدولة إلى المياه من أجل استثمارها الاقتصادي، فنجد بعض الدول لها إمكانيات اقتصادية تمكنها من بناء العديد من المشاريع الزراعية والصناعية في مناطق الحوض مثل ليبيا ومصر نجد الدول الأخرى تفتقر إلى راس المال لإقامة مثل هذه المشاريع من تشاد والسودان.

التخصيص على حجم القدرات التقنية: ويقصد به قدرة الدولة التقنية على استغلال مياه الحوض فعمليات سحب المياه الجوفية تحتاج إلي تقنيات حديثة قد تصعب على بعض دول الحوض مثل تشاد، ولبعض الدول الأخرى القدرة على استراد هذه التقنيات من الدول المتقدمة مثل ليبيا، ومثال على ذلك قدرتها على نقل مياه الحوض من الجنوب إلي الشمال بالاستعانة بالشركات الاجنبية.

هذه هي المعايير الخاصة بتقسيم مياه الحوض، ونجد هنا صعوبة كبيرة في التقسيم على حسب هذه المعايير إلا انه يمكن الوصول إلى تقسيم عادل لو تم دراستها دراسة وافية تتيح لكل دولة استغلال هذا الحوض بشكل لا يؤثر على الدولة المجاورة لها. فلكل معيار من المعايير السابقة عيوب قد تحرم بعض الدول من استغلال مياه الحوض الموجدة بها، وفي نفس الوقت هناك ميزات في هذه المعايير تعطي الدول حقها في استغلال هذه المياه. وما على هذه الدول إلا الجلوس لغرض استغلال الحوض بما يكفل قيام تنمية شاملة لجميع دول الحوض .

النتائج:

1. إن الدول المشتركة في الحوض بحاجة ماسة لمياه حوض النوبة الجوفي لوقوعها في مناطق جافة وشبه الجافة. وهذا قد يتسبب في حدوث صراع إقليمي ما لم تعقد اتفاقية تحدد كميات السحب لكل دولة.
2. من خلال دراسة الميزان المائي لكل دولة فأن ليبيا هي الدولة الوحيدة في الحوض التي تعتمد على المياه الجوفية لعدم وجود انهار وكميات كافية من الأمطار.
3. إن تنمية الجنوب الليبي تعتمد كثيرا على المياه الجوفية المشتركة مع الدول المجاورة، ولن تكون هناك تنمية حقيقة بدون الوصول إلى اتفاقية تحدد كميات السحب للدولة الليبية.
4. من خلال دراسة احتياجات دول الحوض المائية تبين أن التعاون المشترك بين دول الحوض ممكن وسوف تتمر نتاجه على اقتصاديات دول الحوض.
5. لا تعاني مصر والسودان وتشاد من قلة المياه لوجود مصادر أخرى للمياه بها، وقد تستغل مياه حوض النوبة الجوفي في استثمار المناطق الصحراوية بها.

6. تعد تشاد والسودان من دول الحوض، الذي يعد استغلال حوض النوبة بها مكلف وبحاجة إلى تقنيات حفر واستخراج عالية قد ترهق الميزانية بها.
7. إن استغلال مياه حوض النوبة بحاجة إلى استثمارات مالية كبيرة، وذلك للتكلفة العالية لاستخراج المياه من الحوض، ومعظم دول الحوض تمر بأزمات اقتصادية عالية.
8. تشهد منطقة الحوض عدم استقرار سياسي نتج عنه حروب أهلية خاصة في شمال تشاد وجنوب ليبيا وشمال غرب السودان، مما قد يعيق عملية التمية الاقتصادية في دول الحوض.
9. قلة السكان في منطقة الحوض وخاصة الجنوب الليبي وشمال تشاد قد يكون عائق من عوائق التنمية في المنطقة.

التوصيات:

1. ضرورة وضع اتفاقية بين دول الحوض تكفل حق السحب بالكمية المناسبة لتنمية اقتصاداتها دون المساس بحق الغير.
2. وضع اتفاقيات عدم هدر المياه الجوفية واستخدامها حسب الحاجة، بحيث تستخدم في تنمية المشاريع الاقتصادية.
3. ضرورة اتباع سياسة السحب الأمن من المياه من مخزون حوض النوبة الجوفي من أجل إطالة استدامة المياه بالحوض.
4. المحافظة على مياه حوض النوبة الجوفي يجب أن تكون من أولويات الدول المشتركة في الحوض.
5. الاستغلال الأمثل لمياه هذا الحوض بما يكفل سد حاجة كل دولة من المياه وفقا لاتفاقيات توقع بين هذه الدول.
6. ضرورة العمل على تنمية الجنوب الليبي عن طريق استغلال موارده المائية في جميع المجالات الاقتصادية من النهوض به وتحسين الوضع الاجتماعي به.

الخاتمة

تعاني دول حوض النوبة الجوفي من عوامل طبيعية قاسية تتمثل في المناخ الصحراوي الجاف وعوامل بشرية تتمثل في الصراع السياسي داخل وخارج هذه الدول، مع مشاكل اقتصادية جمة، وتخلف حضاري ساهم في اندلاع حروب أهلية بين أبناء الوطن الواحد. من هنا جاءت الحاجة إلى حسن استغلال هذا الحوض من أجل تنمية مستدامة تساهم في مواجه العوائق الاقتصادية التي تمر بها الدول المشتركة في الحوض، وليتكون مياه هذا الحوض مياه سلام وليست مياه صراع، تساهم في ترسيخ السلام والتعاون المثمر بين الدول والشعوب المشتركة في هذا الحوض.

إن مياه هذا الحوض تعد ثروة اقتصادية هائلة قد تغير اقتصاديات هذه الدول إذ تم استغلالها الاستغلال الأمثل في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، وقد تكون مياه هذا الحوض خطرا على هذه الدول إذا تسببت في حروب إقليمية أو حروب أهلية ما ينتج عنها سواء الدمار، أو استغلال مياه هذا الحوض استغلالا غير رشيد مما قد يسبب في نضوب مياه الحوض لكونها غير

متجددة مما قد يؤدي إلى جفاف هذه المنطقة وهجرة سكانها منها وخاصة في الدول التي ليس لها موارد مائية إلا المياه الجوفية مثل ليبيا وشمال تشاد.

عليه فأن التعاون بين الدول المشتركة في الحوض من أجل استغلال مياه هو الحل الأمثل لحسن استغلاله مع بناء قاعدة بيانات علمية لدراسة هذا الحوض، وتشكيل لجان دائمة مهمتها مراقبة استغلال هذه المياه.

المراجع

أولا: المراجع العربية:

الكتب

- أندرو س. جودى، التغيرات البيئية "جغرافية الزمن الرابع"، (ترجمة محمد محمد عاشور) المجلس الأعلى للثقافة 1996
- جودة حسنين جودة، أبحاث في جيومورفولوجية الأراضي الليبية. منشورات الجامعة الليبية كلية الآداب، 1973.
- خيرالله خليل ، الصراع على المياه في الشرق الأوسط، المركز العربي للبحوث القانونية والقضائية، بيروت 2016.
- شرف عبدالعزيز طريح ، جغرافية ليبيا، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية، 2008.
- فتحي محمد فريد ، في جغرافية مصر، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، 2000.
- شاكر محمود ، جغرافيا السودان، المكتب الإسلامي، 1981.
- شاكر محمود، جغرافيا تشاد ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى، 1972.
- الجوهرى يسرى ، شمال أفريقيا دراسة في الجغرافيا التاريخية والإقليمية، مؤسسة شباب الجامعة، 1968.

المجلات والدوريات

- وزارة التخطيط الليبية، الوضع المائي في ليبيا في عام 2025 ، مطلع العام 2010 .
- منظمة الفاو، الموارد المائية في المنطقة العربية ،2017.
- بول تايلور وآخرون، إدارة المياه الجوفية في إطار الإدارة المتكاملة للموارد المائية، ترجمة صلاح مفتاح عبدالله، مركز الإدارة العامة والتطوير المؤسسي، جامعة بنغازي).
- حمدي عبدالرحمن ، اتجاهات نزع الأمننة عن قضايا المياه في أفريقيا، المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، 2020).
- المنظمة الليبية للسياسات المائية، سياسات إدارة المياه في ليبيا، أبريل 2017.
- صلاح مفتاح عبد الله، إدارة موارد المياه الجوفية في إطار الإدارة المتكاملة للموارد المائية، جامعة بنغازي، 2006.
- الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء ، مصر في أرقام.2017.
- الكف محمد ، نهر الكفرة الجوفي ،مجلة العلوم الانسانية، العدد الثاني ديسمبر 2016.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

- **A M MacDonald, H C Bonsor, B Ć O Dochartaigh and R G Taylor 2012 Quantitative maps of groundwater resources in Africa, British Geological Survey Online at stacks.iop.org/ ERL/7/024009**
- **A River in the Desert – Remote-sensing Photos locate ancient river in Arabian Peninsula, FindArticles.com, July 1993.**
- **Bonsor H C and MacDonald A M 2011 An initial estimate of depth to groundwater across Africa British Geological Survey Open**
- **Elena Quadri ,The Nubian Sandstone Aquifer System ,A case of cooperation in the making, ❋ 2017.**
- **Gaglio: The Nubian Sandstone Aquifer: An Institutional Approach to Water , CWSL Scholarly Commons, 2017.**
- **Ghoneim, E. and El-Baz, F., 2008. The Kufra Mega-Paleoriver System: Possible main source**

of the Great Sand Sea, eastern Sahara.

- Ghoneim, E., 2008. Optimum groundwater locations in the northern Unites Arab Emirates. International Journal of Remote Sensing, 29 (20): 5879–5906.
- International Journal of Remote sensing, 28(22), 5001–5018 (2007(
- World Health Organization & U.N. Children's Fund, Drinking Water: Equity, Safety and Sustainability,17 (2011).

حالات الطلاق في مدينة طبرق وضواحيها للفترة من 2009 - 2019م "تحليل جغرافي"

د. عبدالعزيز عبدالكريم بوحليقة
أستاذ مشارك- قسم الجغرافيا / كليّة الآداب
جامعة طبرق

الاستلام : 15/ 2/ 2023 القبول : 10/ 3/ 2023

المستخلص:

سعت هذه الورقة إلى معرفة حجم ظاهرة الطلاق في مدينة طبرق وضواحيها، وإظهار التباين المكاني والزماني لها، ولتحقيق هذا الهدف اعتمدت هذه الورقة على الاحصائيات والمنشورات الصادرة عن المحاكم الجزئية بإقليم الدراسة، إلى جانب المقابلات مع بعض المسؤولين ذات العلاقة بالظاهرة، كاستخدام المنهج التحليلي الوصفي، والمنهج التاريخي، ومستعينًا ببعض الأساليب العلمية المعدلات الإحصائية، والنسب المئوية، والمتوسط الحسابي، والتمثيل الكارتوجرافي اعتمادًا على تقنية نظم المعلومات الجغرافية، وصولًا إلى مجموعة نتائج لعل أهمها ارتفاع معدلات الطلاق في إقليم الدراسة مقارنته بحالات الطلاق في ليبيا فنجد أعلاها في سنتي 2009 ، 2013 م بمعدل 16% من مجموع المطلقين على مستوى الدولة الليبية، ويعود ذلك لأسباب ذاتية واقتصادية واجتماعية بإقليم الدراسة، وأوصت الدراسة بمجموعة توصيات منها نشر الوعي الثقافي حول ظاهرة الطلاق وما يترتب عليها من آثار سلبية تنعكس على المجتمع، وذلك من خلال إقامة الندوات ونشر المنشورات التي تنبه بخطورة هذه الظاهرة.

الكلمات المفتاحية: كيفية وقوع الطلاق، حجم الطلاق، توزيع حالات الطلاق.

Study summary

Spatial analysis of divorce cases in the city of Tobruk and its suburbs

For the period from 2009 – 2019 AD Study in geography

This paper sought to know the extent of the phenomenon of divorce in the city of Tobruk and its suburbs, and to show its spatial and temporal variation. Historical, and using some scientific methods such as statistical rates, percentages, arithmetic average, and cartographic representation based on GIS technology, arriving at a set of results, perhaps the most important of which is the high divorce rates in the study region compared to divorce cases in Libya, so we find the highest in the years 2009 and 2013 with a rate of 16% of the total number of divorced people at the level of the Libyan state, and this is due to personal, economic and social reasons in the study region. This phenomenon

key words

the size of divorce, the spatial distribution of divorce cases

يترتب على ظاهرة الطلاق العديد من الآثار السلبية التي يعاني منها السكان المطلقون ذكورا كانوا أو وإناثا، تنعكس على أوضاعهم الحياتية، وتظهر بصورة أزمات اقتصادية واجتماعية ونفسية، تجعلهم يشعرون بفشل تجربتهم في الزواج، يبتعدون عن المجتمع قد تصل حالتهم إلى مرحلة الانطواء، فتصبح نظرتهم تشاؤمية تظهر في تصرفاتهم مع الآخرين وبقية الأنظمة الاجتماعية.

تعرّض المجتمع الليبي بصورة عامة بأقاليمه المختلفة كغيره من المجتمعات لتغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية سريعة ولا سيما بعد العام 2011م نتيجة للنمو الحضري والاقتصادي والثقافي والتكنولوجي والتأثيرات السياسية والأمنية والانفتاح على العالم في السنوات الأخيرة لذلك انعكست هذه المتغيرات وأثرت بشكل كبير في المجتمع نتج عنها اختلال في منظومة الحياة الاجتماعية والقيمية التي كان يتمتع بها المجتمع الليبي في السابق لينحدر في مشكلات وسلبيات أدت إلى ضعف الروابط الأسرية وطفحت ظواهر كانت غير بارزة بصورة كبيرة إلا إنها نمت وسادت بشكل تركت نتائج سلبية على حياة المجتمع في الوقت الحاضر، وكان من بينها مشكلة الطلاق.

لوحظ في الآونة الأخيرة تزايد وتضاعف مشكلة الطلاق في مجتمعنا الليبي رافقه اهتمام علمي متواضع من قبل بعض الباحثين كأفراد، ولازالت هذه الظاهرة الخطيرة (الطلاق) تحتاج إلى مزيد من جهود في مجال البحث العلمي بغية الوقوف على أبعادها وفهم أسبابها وتوزيعها الزماني والمكاني ومن ثم وضع الحلول التي تحد وتخفف من حدتها.

تعد جغرافية السكان هي إحدى الفروع الحديثة للجغرافية البشرية، الذي انبثق في خمسينيات القرن المنصرم عندما ورد في خطاب تريوارتا أمام اتحاد الجغرافيين الأمريكيين وتناول في تعريفه لها أن مضمونها هو فهم التباينات الإقليمية في الغطاء السكاني للأرض، ويشمل دراسة العوامل المؤثرة في هذا الغطاء بهدف الوصول إلى هذا الفهم.

يصنف السكان حسب الحالة الزواجية إلى أربعة أصناف هي: سكان لم يسبق لهم الزواج، سكان متزوجون، سكان مطلقون، وسكان مترملون، وهذه الورقة تناولت بالدراسة إحدى الحالات الزواجية للسكان الليبيين، وهم السكان المطلقون، وذلك بهدف دراسة أوضاعهم في الإقليم المحدد للدراسة.

مشكلة الدراسة :

يُعد الطلاق ظاهرة عالمية، اجتماعية، ديمغرافية، بل هو قديم حديث يحدث بنسب مختلفة لدى جميع المجتمعات، لذا تتحدد مشكلة الدراسة في تزايد حالات الطلاق وتراكم أعدادها المُطلقة مما ترتب عليها أثار ديموغرافية

واجتماعية واقتصادية بمجتمع الدراسة المتمثل في مدينة طبرق وضواحيها، ومن هذا المنطلق تحاول الدراسة الإجابة على التساؤلات التالية:

1. ما حجم ظاهرة الطلاق المسجلة في المحاكم الجزئية بإقليم الدراسة؟
2. هل يوجد تباين زماني ومكاني لظاهرة الطلاق خلال الفترة الزمنية المحددة للدراسة؟
3. ما العوامل المؤثرة في زيادة حالات الطلاق بمدينة طبرق وضواحيها؟ وهل ثمة حلول تُحد من تزايد ظاهرة الطلاق وتخفف من أثارها؟

هدف الدراسة:

تسعى الدراسة إلى معرفة حجم ظاهرة الطلاق المسجلة بالمحاكم الجزئية في مدينة طبرق وضواحيها، وإماطة اللثام عن التباين الزماني والمكاني لهذه الظاهرة ، علاوة على تحديد العوامل المسببة لها وإمكانية وضع الحلول المناسبة لها.

أهمية الدراسة :

تنبع أهمية هذه الدراسة لكونها تسلط الضوء على ظاهرة سكانية تعاني منها جُل المجتمعات على مختلف أعرافها وأعراقها وأديانها، ويأتي ذلك من خلال الوقوف على حجم ظاهرة الطلاق، وإيضاح تباياتها الزمنية والمكانية، وتحديد العوامل المسببة لها، ووضع الحلول المناسبة التي تسهم في تخفيف وطأة هذه الظاهرة في مدينة طبرق وضواحيها، علاوة على أنها تنير الطريق أمام أصحاب القرارات في منطقة الدراسة لاتخاذ ما يلزم من إجراءات تجاه هذه ظاهرة.

الحدود المكانية والزمنية للدراسة :

تهتم هذه الورقة بدراسة حالات الطلاق الواقعة ضمن نطاق مدينة طبرق وضواحيها شاملة بلدية طبرق، وبلدية بئر الأشهب، وبلدية أمساعد، وكما يُبينها الشكل (1) يوضح موقع إقليم الدراسة إذ نجده يقع في شمال شرقي ليبيا في الجزء الشمالي من إقليم البطنان، وتتوزع ظاهرة الطلاق بإقليم الدراسة في ثلاث نطاقات وهي: نطاق محكمة طبرق الجزئية، والذي يمتد من عين الغزالة غرباً إلى باب الزيتون شرقًا، ونطاق محكمة كمبوت الجزئية يمتد من باب الزيتون غربًا إلى قصر الجدي شرقًا، أما نطاق محكمة أمساعد فيمتد من منطقة الخشيبات وأم ركبة غربًا إلى الحدود المصرية شرقا.

الشكل (1) موقع منطقة الدراسة في ليبيا

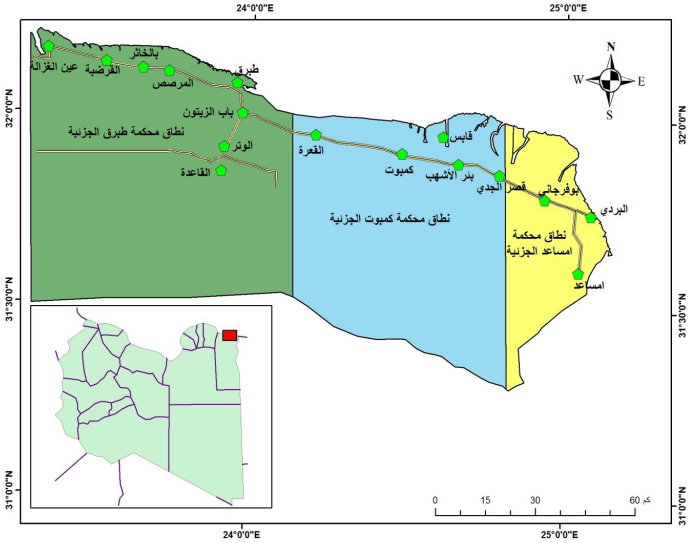

المصدر:

1 - من عمل الباحث بالاعتماد على مرئيات فضائية لإقليم الدراسة.

2 - تحديد المجال المكاني للحدود الإدارية لكل محكمة جزئية بناءً على بيانات من المحاكم الجزئية.

وفلكيا يمتد إقليم الدراسة من دائرة عرض 31 .17ˉ . °32 إلى دائرة عرض 32.13ˉ.°34 شمالًا وبهذا يكون امتداده الشمالي الجنوبي حوالى دائرتي عرضية ، ويمتد من خط طول °37.17.23 إلى خط طول 2. 9ˉ .°25 شرقاً وبهذا يكون امتداد إقليم الدراسة الشرقي الغربي في حدود خطي طول.

شملت الحدود الزمنية الفترة المُمتدة بين عامي 2009 م : 2019 م ومبرر اختيار هذه الفترة يرجع إلى ما شهدته تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية كان لها آثار واضحة على ظاهرة الطلاق سنأتي على ذكرها في مواضع لاحقة.

منهجية الدراسة:

اتبعت هذه الدراسة المنهج التاريخي لتتبع المراحل التاريخية التي مرت بها ظاهرة الطلاق بإقليم الدراسة خلال الفترة المُحددة للدراسة 2009 ـــــــ 2019م، والمنهج المقارن للمقارنة مابين السنوات المحددة للدراسة من جهة، وكذلك مقارنة حالات الطلاق بإقليم الدراسة بحالات الطلاق على مستوى الدولة من جهة أُخرى، والمنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على جمع البيانات وتصنيفها وتفسيرها للوصول إلى نتائج منطقية، حيث تمت معالجة البيانات من خلال معدلات الظاهرة المدروسة ونسبها المئوية، واظهار التباينات الزمنية

والمكانيــة لهــا، ووضــع مقترحــات تعالــج الظاهــرة وآثارهــا.

طريقة الدراسة:

اعتمــدت الدراســة عــلى بيانــات مصلحــة الأحــوال المدنيــة، وذلــك مــن خــلال ســجلات الطــلاق والــزواج المســجلة في مكاتــب الســجلات المدنيــة الــواردة إليهــا مــن المحاكــم الجزئيــة الواقعــة في نطــاق إقليــم الدراســة، وكذلــك الاطــلاع عــلى أرشــيف تلــك المحاكــم للتعــرف عــلى أســباب الطــلاق، والأحــكام الصــادرة وتحديــد الحقــوق والواجبــات للمتقدمــين لقضايــا الطــلاق، بالإضافــة إلى المقابــلات الشــخصية مــع بعــض القضــاة والمحامــين الذيــن يترافعــون في قضايــا الطــلاق بتلــك المحاكــم، وكذلــك الكتــب، والدوريــات، والمرئيــات الفضائيــة، كمــا اســتخدمت الدراســة تقنيــة نظــم المعلومــات الجغرافيــة لتحليــل البيانــات المكانيــة للوصــول إلى نتائــج منطقيــة ووضــع الحلــول المناســبة لهــا.

الدراسات السابقة:

تعــددت الدراســات النظريــة والميدانيــة، والكتابــات التــي تناولــت موضــوع الطلاق عــلى جميــع المســتويات المحــلي والإقليمــي والعالمــي مــن زوايــا وابعــاد مختلفــة، وتنوعت تبعــا لذلــك نتائجهــا وتوصياتهــا، وفيمــا يــلي اســتعراض لبعــض هذه الدراســات

دراســة أحمــد عبدالســلام [1] المعنونــة بظاهــرة الطــلاق في إقليــم الجبــل الأخــضر- ليبيــا: دراســة في الجغرافيــا الاجتماعيــة لمعدَّلاتهــا وتبايناتهــا المكانــي ومســبباتها، اعتمــدت الدراســة عــلى أســلوب التحليــل الوصفــي، وتوصلــت الدراســة إلى مجموعــة نتائــج منهــا أن إقليــم الجبــل الأخــضر شــهد تطــورًا كبــيرًا في حجــم ظاهــرة الطــلاق ومعدلاتهــا بــين عامــي 2000 – 2018 م، إلى جانــب أن الدراســة خلصــت إلى وجــود ثلاثــة عــشر ســببًا للطــلاق، أهمهــا العجــز الســكني.

دراســة محمــد ابراهيــم [2]، ســليمة عــلى حمــد الموســومة تحليــل معــدلات الطــلاق ونســب الســكان المطلقــين في الدولــة الليبيــة للفــترة 1973 – 2012 م دراســة في الجغرافيــا الاجتماعيــة: تناولــت الســكان المطلقــين مــن حيــث توزيعهــم غــلى أقاليــم الدولــة المختلفــة، كمــا تناولــت بالدراســة معــدَّلات الطــلاق ،والتــي تبّــين أنهــا تنخفــض مــن ســنة لأخــرى، وأوضحــت الدراســة أن نســبة الذكــور المطلقــون أقــل مــن نســبة الإنــاث المطلقــات.

جــاءت دراســة ســعد عكمــوش [3] تحــت عنــوان تحليــل جغــرافي لحــالات الطــلاق المســجلة في محافظــة البــصرة للمــدة 2003 – 2012 م التــي هدفــت إلى عــرض مشــكلة

(1) أحمــد عبدالســلام عبدالنبــي عبدالكريــم: ظاهــرة الطــلاق في إقليــم الجبــل الأخــضر- ليبيــا: دراســة في الجغرافيــا الاجتماعيــة لمعدلاتهــا وتباينهــا المكانــي ومســبباتها، مجلــة جامعــة الملــك عبدالعزيــز: الآداب والعلــوم الانســانية،2020م، ص 251 : 288.

(2) محمــد ابراهيــم الهمــالي، ســليمة عــلى حمــد: تحليــل معــدلات الطــلاق ونســب الســكان المطلقــين في الدولــة الليبيــة للفــترة مــن 1973 – 2012 دراســة في الجغرافيــا الاجتماعيــة، مؤتمــر الطــلاق في ليبيــا " الاســباب والحلــول " خــلال الفــترة 7 – 8 مــارس 2020، جامعــة بنغــازي، 2020.

(3) ســعد عكمــوش نجــم الصليخــي: تحليــل جغــرافي لحــالات الطــلاق المســجلة في محافظــة البــصرة للمــدة 2003 – 2012 م اطروحــة دكتــوراه غــير منشــورة، جامعــة البــصرة، 2015م.

الطلاق في محافظة البصرة ومناقشتها وفق المنهج الوصفي ،وخلصت الدراسة إلى أن العوامل الاجتماعية وما شهده المجتمع من تغير في بعض العادات والتقاليد كانت لها الدور الأكبر في ارتفاع حالات الطلاق.

أما دراسة فضيلة الشعوبي [4]، تحمل عنوان أسباب انتشار الطلاق في مدينة تقرت دراسة ميدانية على عينة من المطلقين والمطلقات في مدينة تقرت: هدفت الدراسة إلى التعرف على حالات الطلاق لدى سكان منطقة الدراسة بالاعتماد على بيانات محكمة المدينة، والدراسة الميدانية، واستخدمت المنهج الوصفي ،والتي كشفت من خلاله أن هناك تفاوتًا مكانيًا لمعدلات الطلاق أضف إلى ذلك ارتفاع عدد المطلقات مقارنة بعدد المطلقين، كما أكدت الدراسة على أن الخلافات العائلية تأتي في مقدمة أسباب الطلاق.

دراسة أيمن الشبول [5] تحمل عنوان: المتغيرات الاجتماعية والثقافية لظاهرة الطلاق (دراسة أنثروبولوجية في بلدة طرة) بوصف التحولات والمتغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وفي سبيل تحقيق هذا الهدف استخدم الباحث اسلوب الملاحظة وإجراء المقابلات مع المطلقين والمطلقات وتبيّن أن الخروج على مجموعة المعايير الاجتماعية والثقافية والاقتصادية السائدة في مجتمع الدراسة هي سبب زعزعة العلاقات بين الزوجين.

وأكدت دراسة[6] GOODE على أن الطلاق يحدث نتيجة الفروق بين الريف والحضر، والخلاف بين الأطفال وعمل المرأة، فضلا عن صلة القرابة وأثره في الحياة الأسرية.

بيّن [7] في دراسة أخرى أن ما تعانيه المرأة في المجتمع العربي من ظلم وعدم مساواة وفوارق من حيث العمر والتعليم لها دور في حدوث الطلاق.

أوضح [8] CAARLSإن الطلاق في بريطانيا يحصل في السنوات الأولى من الزواج، أي جراء ما يترتب على عقد الزواج المدني كان أم الكنيسي من التزامات ومسؤوليات.

،caalrs[9] إلى وجود تباين إقليمي في معدلات الطلاق، بسبب التحضر وما يحصل

(4) فضيلة الشعوبي: أسباب انتشار الطلاق في مدينة تقرت دراسة ميدانية على عينة من المطلقين والمطلقات بمدينة تقرت رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2013 م.

(5) أيمن الشبول: المتغيرات الاجتماعية والثقافية لظاهرة الطلاق (دراسة انثروبولوجية في بلدة طرة)، مجلة جامعة دمشق، المجلد 26 – العدد الثالث والرابع، 2010 م.

(6)7 GOODE ,WILLIAM J ,WOMEN IN DIVORCE ,COLUMBIA UNIVERSITY GREENWOOD PRESS CO-LUMBIA.1978,

(7)8Alvarez ,A WORLD CHANGES IN DIVORCE PATTERNS .NEW HAVEN ,YALE UNIVERSITY PRESS, 9 .1993Alvarez ,A .Live after love in an age divorce ,New York1981 ,

(8)Caarls ,K . H ;Valk ,H ,Regional Diffsion of Divorce In Turkey ,Regional Diffsion of Divorce In Turkey609 . .2018 ,636-

(9)Caarls ,K . H ;Valk ,H ,Regional Diffsion of Divorce In Turkey ,Regional Diffsion of Divorce In Turkey, . .636- 609 .2018

عليه الفرد من الناتج المحلي.

جاءت دراسة ظاهرة الطلاق في مدينة طبرق وضواحيها للفترة 2009 : 2019 دراسة في الجغرافيا مختلفة مكانيًا وزمانيًا عن الدراسات سالفة الذكر، كما تختلف في مراميها لدراسة هذه الظاهرة بإقليم الدراسة.

مفهوم الطلاق :

طلاقا فهما طالق وطليقة، وطلق يطلق طلاقا أي طلاق المرأة من زوجها انفصلت عنه وانحل الطلاق في اللغة "إخلاء السبيل ورفع القيد" سواء كان القيد حسيا أو معنويا وجاء بهذا المعنى فيقال أطلقت الأسير، أي خليته والطليق الأسير الذي أطلق أسارة وخلي سبيله، وطلق الرجل امرأته تطليقا وطلقت هي عقد الزواج بينهم [10]، والطلاق في اللغة أيضا يدل على التَخلية والإرسال والمفارقة، ولهذا يقال " ناقة طالق" أي مرسلة ترعي حيث شاءت[11].

والطلاق في الشرع رفع القيد الثابت بالزواج وحل رابطة الزواج وإنهاء العلاقة الزوجية[12]، ورفع قيد النكاح في الحال أو المآل بلفظ مخصوص سواء كان اللفظ المخصوص منطوقا أم مكتوبا أم مشارا به[13]، ورفع القيد بالحال يكون بالطلاق البائن، وبالمآل يكون بالطلاق الرجعي[14]، والطلاق ظاهرة اجتماعية عرفتها المجتمعات منذُ القدم وشرعتها الأديان المختلفة، وتؤثر فيها بشكل كبير وذلك من خلال النمو السكاني، لأن الطلاق يقصد به إنهاء الأسرة وتفكيكها.

أنواع الطلاق:

حدد الشرع أنواع الطلاق القانوني والشرعي وحالة وقوعه، بحيث يكون الطلاق بلفظ صريح أو بلفظ كناية غير صريح، وفي كلتا الحالتين حددت أنواع الطلاق على النحو التالي:

الطلاق الرجعي: الذي يستطيع فيه الزوج إعادة مطلقته إلى عصمته دون عقد أو مهر جديدين، بشرط أن يتم ذلك في أيام العدة والمحددة بثلاثة أشهر.

الطلاق البائن بينونة صغرى: وهو الطلاق الذي يحدث بين الزوجين وتنتهي معه العدة " المهلة التي حددها الشرع للعودة " فبعد انتهاء مدة العدة، أذا ما حدث توافق بين الزوجين على إعادة الحياة مرة أخرى، فإن ذلك يتم خلال عقد ومهر جديدين مع رضا الزوجة بذلك.

الطلاق البائن البينونة الكبرى: وهو الطلاق المكمل للثلاث، ويقصد به المطلقة التي طلقت على ثلاث مرات على فترات متباعدة، أو الطلاق قبل الدخول، أو

(10) جبران مسعود: معجم الرائد اللغوي، دار العلم للملايين، ط2 ، بيروت، 1997 م، 524.

(11) أبي الحسن أحمد أبن زكريا: معجم مقاييس اللغة، الجزء الثالث، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ص419، 420.

(12) بدران أبو العينين بدران: أحكام الزواج والطلاق في الإسلام، دار التأليف، القاهرة، 1961، ص213.

(13) أحمد فرج حسين: أحكام الأسرة في الاسلام (الطلاق وحقوق الأولاد ونفقات الأقارب)، دار الجامعة، بيروت، 1998 م، ص23.

(14) على خالد دبيس: انحلال عقد الزواج والأثار المترتبة عليه دراسة مقارنة في القانون والفقه الاسلامي، مجلة رسالة الحقوق، جامعة كربلاء، العدد الثاني، 2011 م، ص200

الطلاق القاضي، أو الطلاق باتفاق الزوجين مقابل شيء سواء كان مال أو غيرة، وهنا لا يستطيع الزوج إعادة زوجته إلى عصمته إلا بعد زواجها من أخر (المحلل) والدخول بها، وانتهاء علاقتها بزوجها الثاني أما بالطلاق أو الموت، ويكون بعقد ومهر جديدين، ورضا الزوجة، ويستثنى من هذه الحالة الطلاق قبل الدخول[15].

كيفية وقوع الطلاق:

يقع الطلاق في المحكمة بحضور الزوجة والزوج أو بحضور موكليهما، ويتم توثيقه في سجلات المحكمة؛ وذلك تحقيقًا لأمور شرعية وقانونية مثل حساب العدة، ومدة الحضانة، وتحديد حقوق ووجبات كل منهما، ويتم نطق حكم الطلاق بصور مختلفة منها:

طلاق باتفاق وفيه يتفق الزوجين أو أهل الزوجين أو موكليهما على الطلاق نظرًا لاستحالة استمرار العلاقة الزوجية بينهما.

طلاق غيبي ويتم فيه الطلاق بغياب أحد طرفي الحياة الزوجية لفترة طويلة لأي سبب من الأسباب، مما يجعل الطرف المتضرر من الغياب يطالب بالطلاق أمام المحكمة.

طلاق الإرادة المنفردة يقع الطلاق في هذه الحالة تحقيقًا لرغبة أحد طرفي العلاقة الزوجية في الطلاق وهو ما يعرف محليًا (بالزاهد).

طلاق الضرر يقع الطلاق في هذه الحالة عندما يرى أحد اطراف الحياة الزوجية أو من ينوب

عنه وقوع ضرر اذا ما استمرت العلاقة الزوجية.

طلاق الخلع يقع الطلاق في هذه الحالة نتيجة لمطالبة المرأة خلع زوجها أي المطالبة بالطلاق من زوجها نظرًا لوجود عوائق تعيق حياتها معه.

ومن خلال البحث في أرشيف المحاكم والرجوع إلى بعض حالات الطلاق التي وقعت في الفترة المحددة للبحث أتضح أن معظمها وقعت باتفاق طرفي الحياة الزوجية، أو باتفاق أهل الزوجة وأهل الزوج؛ ويرجع ذلك إلى أن مجتمع الدراسة مازال يتأثر بالعرف أكثر من اعتماده على قوانين واحكام المحاكم، ويقتصر عمل المحاكم الجزئية المختصة بقضايا الطلاق على صدور الحكم النهائي المتفق عليه وتوثيقه في سجلات المحاكم.

حجم ظاهرة الطلاق بإقليم الدراسة:

يقصد بحجم الظاهرة عدد حالات الطلاق التي سجلت في المحاكم الجزئية خلال الفترة المحددة للدراسة، ومقارنتها بحالات الطلاق المسجلة في احصائيات الدولة الليبية، حيث بيّن الجدول (1) ارتفاع معدل حالات الطلاق بإقليم الدراسة، فكان أعلى معدل لحالات الطلاق بإقليم الدراسة سنتي2009 م، 2013 م بنسبة 16% من مجموع حالات الطلاق في ليبيا، ويرجع ذلك لعدة اسباب منها ذاتية

(15) محمد ابراهيم الهمالي، سليمة على حمد: تحليل معدلات الطلاق ونسب السكان المطلقين في الدولة الليبية للفترة من 1973 – 2012 دراسة في الجغرافيا الاجتماعية، مؤتمر الطلاق في ليبيا " الاسباب والحلول " خلال الفترة 7 – 8 مارس، جامعة بنغازي، 2020م، ص6.

تتعلق بالزوج أو الزوجة كعدم الاهتمام بالحقوق الزوجية، وعدم تحمل المسؤولية، أو اقتصادية كالتقصير في تلبية احتياجات الأسرة، أو اجتماعية كتدخل الأهل في الحياة الزوجية سواء للابن أو الابنة، اما أقل معدل لحالات الطلاق بإقليم الدراسة كانت سنة 2017 م بنسبة 4.5% من مجموع حالات الطلاق في ليبيا، ويرجع ذلك إلى ارتفاع حالات الطلاق في ليبيا وانخفاضها بمدينة طبرق وضواحيها.

جدول (1) معدل حالات الطلاق بإقليم الدراسة

السنة	حالات الطلاق في ليبيا	حالات الطلاق في طبرق وضواحيها	معدل الطلاق بإقليم الدراسة %
2009	3691	588	16
2010	4371	586	13
2011	3137	472	15
2012	3235	379	12
2013	3200	524	16
2014	3500	513	15
2015	5372	572	10.6
2016	3743	464	12
2017	10852	486	4.5
1018	9425	544	5.7
2019	7476	424	5.6

المصدر :

1 - مصلحة الإحصاء والتعداد ليبيا، الكتيبات الإحصائية لسنوات 2012، 2014، 2015

2 - مصلحة الأحوال المدنية مكاتب السجلات المدنية بإقليم الدراسة

3 - المحاكم الجزئية بإقليم الدراسة

$$4 - \text{معدل الطلاق بإقليم الدراسة} = \frac{\text{عدد حالات الطلاق في منطقة معينة}}{\text{عدد حلات الطلاق بالدولة لنفس السنة}} \times 100 =$$

نسبة حالات الطلاق إلى عدد الأسر بإقليم الدراسة :

توضح نسبة حالات الطلاق إلى عدد الأسر حجم ظاهرة الطلاق بإقليم الدراسة، علاوة على أنها تكشف النقاب عن التباين فيما بين نطاق كل محكمة وأخرى داخل إقليم الدراسة، ووفق ما جاء بالشكل رقم (2) الذي يبيّن نسبة حالات الطلاق إلى عدد الأسر بإقليم الدراسة، حيث نجد أعلى نسبة جاءت في نطاق محكمة مدينة طبرق والتجمعات السكانية الواقعة ضمنها، التي بلغت 16 % من إجمالي عدد الأسر بهذا النظام، ويرجع ذلك إلى ارتفاع عدد السكان بهذا النطاق الذي يحوي أكبر مركز حضري على مستوى إقليم الدراسة متمثلًا في

مدينة طبرق، وأقل نسبة جاءت في نطاق محكمة كمبوت حيث بلغت حوالي 6% من إجمالي عدد الأسر بهذا الإقليم، ومرد ذلك إلى أنه منخفض الكثافة السكانية مقارنة بالنطاق سالف الذكر، علاوة عن قوة العلاقات الاجتماعية فيما بين الأسر لكونها تمثل مناطق شبه ريفية مازال العرف يلعب دورًا بارزًا في العلاقات الاجتماعية فيما بين الأسر سعيًا للمحافظة عليها.

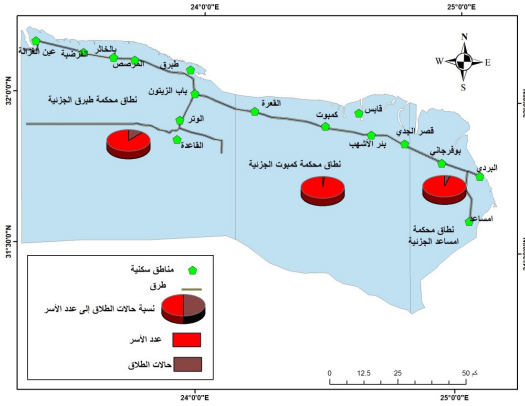

الشكل (2) نسبة حالات الطلاق إلى عدد الأسر بإقليم الدراسة

المصدر: عمل الباحث بالاعتماد على مرئية فضائية.
مصلحة الأحوال المدنية مكاتب السجلات المدنية بإقليم الدراسة

التوزيع الزمني لحالات الطلاق بإقليم الدراسة

دراسة التوزيع الزمني لأي ظاهرة جغرافية يعزز فهمها وتطورها من منظور تاريخي علاوة عن معرفة مدى تأثر الظاهرة بالزمن، والجدول رقم (2) يبيّن أن مجموع حالات الطلاق بإقليم الدراسة خلال الفترة المحددة بلغ 5552 حالة طلاق، تجدر الإشارة إلى أن حالة الطلاق الواحدة تقع بين الزوجة والزوج، لهذا يكون مجموع المطلقين في حدود 11104 مطلقة ومطلق، ويمثلون 6 % من سكان منطقة الدراسة البالغ عددهم حسب الاسقاطات السكانية 198120 نسمة، هذا ويلاحظ أن عدد المطلقين من الذكور يقل عن عدد الإناث المطلقات، نتيجة لأن المطلقين الذكور تُتاح لهم فرصة الزواج مرة أخرى أكثر مما تُتاح للمطلقات الإناث، جاءت أكثر حالات طلاق في سنة 2009 حيث وصل عدد حالات الطلاق حوالي 588 حالة طلاق، وأقل حالات طلاق كانت سنة 2012م والتي بلغت في حدود 379 حالة طلاق، ما يميز حالات الطلاق خلال هذه الفترة بإقليم الدراسة كونها تسير بوتيرة متقاربة بمتوسط 505 حالة سنويًا، وهذا يشير إلى أن الأسباب التي أدت إلى الطلاق قائمة ومستمرة بنفس التأثير دون وضع حلول لها تعمل على الحد من تزايد حالات الطلاق.

الجدول (2) التوزيع الزمني لحالات الطلاق بإقليم الدراسة

السنوات	عدد حالات الطلاق محكمة طبرق	عدد حالات الطلاق محكمة كمبوت	عدد حالات الطلاق محكمة امساعد	المجموع
2009	550	18	20	588
2010	548	15	23	586
2011	450	6	16	472
2012	322	26	31	379
2013	460	23	41	524
2014	450	25	38	513
2015	526	25	21	572
2016	422	23	19	464
2017	434	27	25	486
2018	488	30	26	544
2019	361	25	38	424
-	5011	243	298	5552

المصدر: سجلات محاكم طبرق وكمبوت وامساعد الجزئية

التوزيع المكاني لحالات الطلاق بإقليم الدراسة:

يعد التوزيع المكاني من أهم مرامي علم الجغرافيا، لكونه يعطي صورة واضحة عن أماكن وجوده الظاهرة قيد الدراسة، ومحددًا لمناطق تركزها وتشتتها، ومن ثم معرفة الأسباب التي أرست دعائم توزيعها، والشكل (3) التوزيع الجغرافي لحالات الطلاق في مدينة طبرق وضواحيها، يبيّن أن أكثر حالات الطلاق وقعت في نطاق محكمة طبرق الجزئية، حيث بلغت نسبة حالات الطلاق حوالي 91 % من مجموع حالات الطلاق بإقليم الدراسة، ومرد ذلك إلى تركز أغلب السكان في هذا النطاق، ويأتي نطاق المحكمة الجزئية امساعد في المرتبة الثانية بنسبة 5 % من مجموع حالات الطلاق بإقليم الدراسة، أما نطاق محكمة كمبوت الجزئية فهو أقل نسبة حيث بلغت 4 % من مجموع حالات الطلاق، ومما تقدم نجد ارتباط توزيع حالات الطلاق بتوزيع الكثافة السكانية.

أسباب الطلاق بإقليم الدراسة:

يعد التعرف على الأسباب المؤدية إلى الطلاق غاية في الأهمية، وذلك للحد منها بوضع الحلول المناسبة لها، ووفق البحث في ارشيف المحاكم الجزئية الواقعة في نطاق إقليم الدراسة واختيار عيّنة عشوائية لسنوات الدراسة تبيّن تعدد الأسباب المؤدية إلى الطلاق، وصنفت هذه الاسباب إلى أسباب

الشكل (3) التوزيع المكاني لحالات الطلاق بإقليم الدراسة

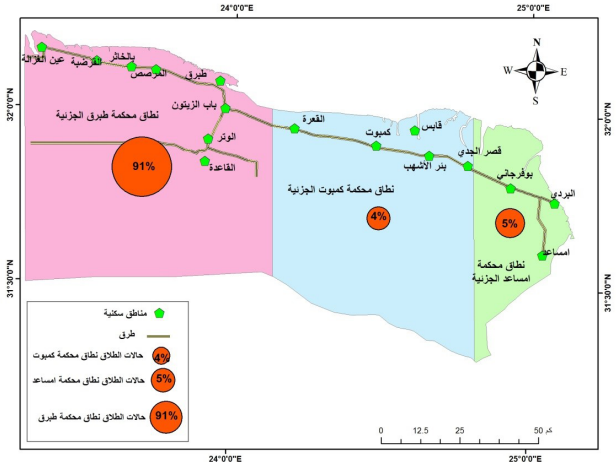

المصدر: عمل الباحث استناداً على بيانات الجدول (1)

ذاتية ترتبط بذات الزوجة أو الزوج، وأسباب اجتماعية تتعلق بتأثير العلاقات الاجتماعية على حياة الزوجين، وأسباب اقتصادية تبيّن أثر الظروف الاقتصادية على استمرار الحياة الزوجية، والجدير بالذكر أن الأسباب المؤدية إلى الطلاق بإقليم الدراسة اتفقت مع الاسباب التي حددتها دراسة ظاهرة الطلاق في إقليم الجبل الأخضر- ليبيا: دراسة في الجغرافيا الاجتماعية لمعدلاتها وتباياتها المكاني ومسبباتها، والدراسة الموسومة تحليل معدلات الطلاق ونسب السكان المطلقين في الدولة الليبية للفترة 1973 – 2012 م دراسة في الجغرافيا الاجتماعية؛ ويرجع ذلك إلى أن الأسرة الليبية تتعرض لنفس الظروف نتيجة لإتباع سياسات عشوائية أقرها مسؤولين غير أكفاء تسببت في عوز اقتصادي أثر بشكل أو بأخر على العلاقة الزوجية، ويمكن الحديث عن كل جانب من هذه الجوانب فيما يلي:

الأسباب الذاتية:

يقصد بها الصفات الشخصية التي يتصف بها أحد طرفي العلاقة الزوجية في معاملته مع شريكه، فيتجه البعض إلى اتباع اساليب غير مقبولة فتعكر صفاء حياتهم، وتغيّب المودة فيما بينهما وتؤثر على استقرار الأسرة، فينتهي مصيرها إلى الانفصال ومن هذه الاسباب مايلي:

1. غياب التفاهم في كثير من الأمور التي تخص حياتهم، والمعاملة السيئة وعدم الركون إلى التعامل بالمودة والرحمة والالتجاء إلى العنف.
2. الخيانة الزوجية وغياب الثقة بينهما.
3. ، وعدم الاكتراث بالحقوق الزوجية.
4. التباين في المستوى التعليمي والثقافي بين الزوجين.
5. التفاوت العقلي بين الزوجين نتيجة فارق كبير في العمر بين الزوج والزوجة.

6. عدم تحمل المسؤولية الكاملة في الحقوق والوجبات.
7. تناول المخدرات خاصة التي تؤثر على سلوك الفرد بشكل كبير.
8. قصور في الجوانب الصحية لأحد الزوجين خاصة التي تتعلق بالإنجاب.
9. سوء المعاشرة وإتباع أساليب غير أخلاقية تخدش الكرامة، ومخالفة للشرع والعادات والتقاليد لدى الزوجين.

أسباب اقتصادية:

تعد الأوضاع السياسية التي آلت إليها البلاد في السنوات الأخيرة، وما رفقها من تغيرات اقتصادية انعكست بدورها على الحياة الاقتصادية للأسرة فزادت من معاناتها فوقفت عائقًا أمام تحقيق حاجاتهم الأساسية، بسبب ارتفاع الأسعار في ضوء عدم قدرة الأسرة على مجاراتها، فكان مدعاة إلى إثارة المشاكل بين الزوجين تنتهي بهم في نهاية المطاف إلى الطلاق، ومن المسببات الاقتصادية التي أدت إلى الطلاق ما يلي:

عدم قدرة الزوج على الإنفاق على الأسرة :

يعد الزوج هو المكلف بالإنفاق على أسرته، ونتيجة للعوز الاقتصادي الذي لحق به بسبب السياسات الاقتصادية التي اتبعتها الدولة الليبية كارتفاع سعر الرسمي للدولار؛ الأمر الذي انعكس على أسعار السلع والعقار، كل هذه الأمور كان لها الأثر السلبي على العلاقة الزوجية والذي انتهى المطاف إلى الانفصال.

انتشار البطالة بين المتزوجين:

عدم الحصول على وظائف في الدولة، أو أعمال بالقطاع الخاص، أو منح قروض استثمارية زاد من معدلات البطالة في إقليم الدراسة مما ترتب علية معاناة الأسرة لإشباع حاجاته، فتعددت المشاكل فيما بين الزوجين أدى إلى اللجوء للطلاق.

مطالبة الزوجة بسكن مستقل:

عجز سياسة الإسكان في ليبيا بصفة عامة، وطبرق وضواحيها بصفة خاصة في مواكبة النمو السكاني السريع، والذي يتطلب توفير السكن الصحي اللائق للأسرة، جعل الزوج يقرر السكن مع الأهل، مما تسبب في تعدد المشاكل في بيت الأهل، الأمر الذي ترتب عليه مطالبة الزوجة بسكن مستقل، في مقابل عجز الزوج عن تلبية طلب الزوجة فينتهي الأمر بالطلاق.

عدم تكيّف الزوجة مع المستوى المعيشي للزوج:

في كثير من الأحيان يقع الزواج بين الزوجين مع وجود تباين في مستوى المعيشة فيما بينهما، وعلى وجه الخصوص عندما يكون المستوى المعيشي للزوجة قبل الزواج أفضل من حياتها بعد الزواج، الأمر الذي يؤدي إلى عدم تكيّف الزوجة مع الأوضاع الاقتصادية الجديدة، مما يترتب عليه إثارة المشاكل التي تؤدي في نهاية الأمر إلى الطلاق.

الأسباب الاجتماعية:

تعد البيئة الاجتماعية التي تعيش في كنفها الأسرة ذا تأثير كبير على حياتها

واستقرارها، وفي هذا المقام سنتحدث عن التأثيرات السلبية للمجتمع التي تطال الأسرة وتؤدي بها إلى الطلاق، ومن أهم هذه الاسباب ما يلي:

الزواج المبكر: في بعض الحالات يتم الزواج بين طرفي العلاقة الزوجية في سن مبكرة، فيغيب عنهما النضج في التفكير وتقدير المسؤوليات، ومن البديهي أن تعدد المشاكل فيما بينهما لتصل بهم إلى الانفصال.

زواج الزوج بزوجة ثانية: في غالب الاحيان ترفض الزوجة الأولى زواج زوجها بأخرى، فتثار بينهما المشاكل لتنتهي بطبيعة الحال بالطلاق.

تحيز الأهل للزوجة أو الزوج: تدخل الأهل في شؤون حياة الزوجين بشكل سلبي، والتحيز إلى جانب أحد أطراف الحياة الزوجية، وتأسيسًا على ذلك تثار المشاكل فيما بينهم ويتسبب في وقوع الطلاق.

كثرة انجاب البنات: يذهب بعض الأزواج إلى الطلاق نتيجة لتعدد انجاب البنات، فيذهب إلى الزواج بأخرى ظنًا منه في أن يرزق أولاد ذكور.

الاستعمال السيئ لوسائل التواصل الاجتماعي بأنواعها المختلفة: هناك من يستخدم تلك الوسائل بطرق مخالفة للشريعة والعرف، ومنافية للأخلاق، وخارجة على احترام الحياة الزوجية، سواء كان ذلك من خلال نشر المقالات المسيئة أو الصور الفاضحة، أو عرض المقاطع الإباحية، أو الاتصال بمحرم، ومن هذا المنطلق تنتهي الحياة الزوجية بالانفصال.

مخالفة الشروط المنصوص عليها في عقد الزواج: هناك بعض وكلاء الزوجات من يضع شروط عند كتابة عقد الزواج؛ كتحديد مبلغ مالي مؤخر لفترة زمنية محدودة، أو مسكن مستقل، أو الاستمرار في الدراسة في حال تكون الزوجة مازالت طالبة، أو العمل عندما تكون الزوجة تعمل، قد يتعذر عن الزوج الإيفاء بالشروط سالفة الذكر لأي سبب من الأسباب، في الوقت الذي تطالب فيه الزوجة أو وكيلها بالشروط المتفق عليها بعقد الزواج، فيثير فيما بينهما المشاكل التي سببًا في حدوث الطلاق.

النتائج والمقترحات:

أولًا النتائج: خلصت الورقة إلى مجموعة من النتائج منها ما يلي:

1. يقصد بالطلاق رفع القيد الثابت بالزواج وحل رابطة الزواج وإنهاء العلاقة الزوجية، أي يقصد بالطلاق إنهاء الأسرة وتفكيكها.
2. حددت الورقة ثلاثة أنواع من الطلاق وهي طلاق رجعي، والطلاق البائن بينونة صغرى، والطلاق البائن بينونة كبرى.
3. تعددت صور الطلاق في إطار إقليم الدراسة منها: طلاق باتفاق، وطلاق غيبي، وطلاق الإرادة المنفردة، وطلاق الضرر، وطلاق الخلع، ويعد الطلاق باتفاق هو أكثر صور الطلاق وقوعًا.
4. ارتفاع معدلات الطلاق داخل إقليم الدراسة مقارنته بحالات الطلاق في ليبيا فنجد أعلاها في سنتي 2009 ، 2013 م بمعدل 16% من مجموع المطلقين على

مستوى الدولة الليبية ،ويرجع ذلك لأسباب ذاتية واقتصادية واجتماعية، وأقلها كان سنة 2017 م بمعدلٍ 4.5% من مجموع المطلقين على مستوى الدولة الليبية.

5. بلغت إجمالي حالات الطلاق في إقليم الدراسة 5552 حالة طلاق أي حوالي 11104 مطلق ومطلقة، ويمثلون حوالي 6% من إجمالي عدد سكان الإقليم البالغ عددهم 198120 نسمة.
6. عدد المطلقين الذكور أقل من الإناث المطلقات ويعود ذلك لكون الذكور تتاح لهم فرصة الزواج من أخرى، أما الإناث فتكون فرصتهن في الزواج مرة أخرى ضئيلة.
7. تسير حالات الطلاق خلال الفترة الزمنية المحددة للدراسة بوتيرة متقاربة بمتوسط 505 حالة سنوية، فكانت أعلاها سنة 2009 م حيث بلغت حالات الطلاق 588 حالة طلاق، وأقلها كان سنة 2012 م البالغ عددها 379 حالة طلاق.
8. يُبيّن التوزيع المكاني أن أكثر حالات الطلاق وقعت في نطاق محكمة طبرق الجزئية، حيث بلغت نسبة حالات الطلاق حوالي 91 % من مجموع حالات الطلاق في إقليم الدراسة، ثم نطاق محكمة امساعد الجزئية ثم نطاق محكمة كمبوت الجزئية بنسب 5 % ، 4 % على التوالي.

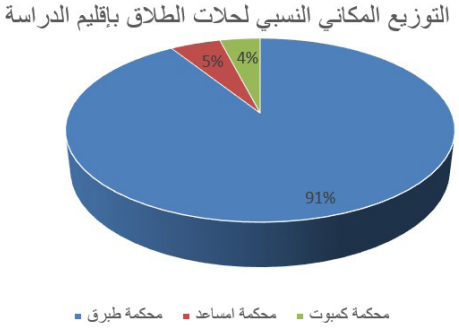

9. بيّنت الدراسة أن الأسباب المؤدية للطلاق أما أن تكون ذاتية، أو اجتماعية، أو اقتصادية.

ثانياً المقترحات :

تقترح الورقة مجموعة من المقترحات تراها ذات أهمية بناءً على النتائج التي توصلت إليها ومنها ما يلي:

1. نشر الوعي الثقافي حول ظاهرة الطلاق وما يترتب عليها من آثار سلبية تنعكس على المجتمع، وذلك من خلال إقامة الندوات ونشر المنشورات التي تنبه بخطورة هذه الظاهرة.
2. الاهتمام بشريحة المطلقين خاصة الإناث الحاضنات بتيسير متطلبات الحياة

لتخفيف المعاناة التي تواجهن.

3. على الدولة تحسين الأوضاع الاقتصادية خاصة بعد رفع سعر صرف العملة الصعبة الذي انعكس على الأسر الليبية وزاد من معاناتهم، وتسبب في انفصال العديد من الاسر.
4. على الدولة اتباع سياسة سكانية تواكب النمو السكاني الذي يشهده إقليم الدراسة، على أن يكون ذلك ببناء المساكن ومنح القروض الإسكانية.
5. يجب العمل بالقوانين التي تحدد سن الزواج للحد من ظاهرة الزواج المبكر الذي يغيب عليه تقدير المسؤوليات، وإدراك الحقوق والواجبات، والذي ينتهي في غالب الأحيان بالطلاق.
6. نشر الوعي الديني الذي يرشدنا للحد من الانحراف الأخلاقي كتناول المخدرات وخيانة الحياة الزوجية.
7. العمل على توعية المجتمع باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي بأساليب مُثلى تفيدنا في حياتنا العلمية والعملية.

المراجع

أولًا المراجع العربية:

1 – أبو الحسن أحمد أبن زكريا. (بدون تاريخ). معجم مقاييس اللغة (الإصدار ج 3). بيروت: دارالفكر.

2 – أحمد عبدالسلام عبدالنبي عبدالكريم. (13 9, 2020). ظاهرة الطلاق في إقليم الجبل الأخضر- ليبيا:دراسة في الجغرافيا الاجتماعية لمعدلاتها وتباينها المكاني ومسبباتها. مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الإنسانية.، الصفحات 251 – 288.

3 – أحمد فرج حسين. (1998). أحكام الأسرة في الإسلام (الطلاق وحقوق الأولاد ونفقات الأقارب). بيروت: دار الجامعة .

4 – الشعوبي فضيلة. (2013). أسباب انتشار الطلاق في مدينة تقرفت دراسة ميدانية على عينة من المطلقين والمطلقات بمدينة تقرفت رسالة ماجستير. ورقلة: جامعة قاصدي مرباح.

5 – أيمن الشبول. (2010). المتغيرات الاجتماعية والثقافية لظاهرة الطلاق (دراسة أنثروبولوجية في بلدة طرة). مجلة جامغة دمشق.

6 – بدران أبو العينين بدران. (1961). أحكام الزواج والطلاق في الإسلام. القاهرة: مطبعة دار التأليف.

7 – جبران مسعود. (1997). معجم الرائد اللغوي (المجلد 2). بيروت: دار العلم للملايين.

8 – سعد عكموش نجم الصليخي. (2015). تحليل جغرافي لحالات الطلاق المسجلة في محافظة البصرة للمدة 2003 – 2012 م اطروحة دكتوراه. البصرة: جامعة البصرة.

9 – على خالد دبيس. (2011). انحلال عقد الزواج والآثار المترتبة عليه دراسة مقارنة في القانون والفقة الاسلامي. مجلة رسالة الحقوق.

11 – فتحي محمد بوعيانة. (2000). جغرافية السكان أُسس وتطبيقات. الأسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

12 – محمد إبراهيم الهمالي، و سليمة على حمد. (2020). تحليل معدلات الطلاق ونسب السكان المطلقين في الدولة الليبية للفترة من 1973 – 2012 دراسة في الجغرافيا الأجتماعية. الطلاق في ليبيا " الأسباب والحلول " خلال الفترة 7 – 8 مارس 2020. بنغازي: جامعة بنغازي.

المراجع الأجنبية

1. Alvarez, A. (1981). Live after love in an age divorce. New york.
2. Caarls, K. .., & Valk, H. (2018). Regional Diffsion of Divorce In Turkey. European Journal Of Population, Vol.34, pp. 609 –636.
3. GOODE, W. J. (1978). WOMEN IN DIVORCE. COLUMBIA: COLUMBIA UNIVERSITY GREENWOOD PRESS.
4. GOODE, W. J. (1993). WORLD CHANGES IN DIVORCE PATTERNS. NEW HAVEN:. YALE UNIVERSITY PRESS.

المسؤولية التقصيرية للفريق الطبي
دراسة مقارنة في القانون المصري والليبي والفرنسي

إعداد:
د. نصر جاب الله التهامي
كلية القانون- جامعة طبرق

الاستلام : 12/ 2/ 2023 القبول : 15/ 3/ 2023

المستخلص:

(المسؤولية التقصيرية للفريق الطبي ، دراسة مقارنة في القانون الليبي والمصري والفرنسي) في مواجهة تطور وتشعب التخصصات الطبية وخاصة الجراحية مما تطلب فريقاً طبياً للقيام بالجراحات الطبية حيث تم في هذا البحث بيان ماهية الفريق الطبي، وذلك في مبحث وتم تقسيمه الى مطلب أول التعرف بالفريق الطبي وفي مطلب ثان نتكلم عن أعضاء الفريق الطبي حيث يكون الأعضاء كما يلي أولاً رئيس الفريق الطبي وهو الطبيب الجراح المسؤول عن الفريق ككل ثانياً المُعاونون بالفريق الطبي وهم مساعدا الطبيب الجراح، وطبيب التخدير، وطاقم التمريض، وفي المبحث الثاني من هذا البحث تناولنا أركان المسؤولية التقصيرية للفريق الطبي وذلك في مطلبين المطلب الأول خطأ الفريق الطبي الموجب للمسؤولية وبيان ماهية الخطأ الطبي، وصور خطأ الفرق الطبي المطلب الثاني تم فيه التكلم عن الضرر الطبي نتيجة الخطاء والعلاقة السببية ثم وصلت الخاتمة والتوصيات

Summary

Summary of the research (the tort liability of the medical team, a comparative study in Libyan, Egyptian and French law) in the face of the development and divergence of medical specialties, especially surgical ones, which required a medical team to perform medical surgeries. The first requirement is to get acquainted with the medical team, and in the second requirement, we talk about the members of the medical team, where the members are as follows: First, the head of the medical team, who is the surgeon responsible for the team as a whole. The second of this research dealt with the elements of the tortious responsibility of the medical team, and therefore in two demands.

The second requirement deals with the medical harm as a result of the error and the causal relationship, then the conclusion and recommendations are reached

مقدمة

ممـا لا شـك فيـه أن هـذا التقـدم العلمـي قـد أدى إلى تزايـد عـدد الأطباء وتـنـوع أعمالهـم؛ فالعمليـات الجراحيـة لـم تعـد تقتـصر عـلى الجـراح فقـط، بـل يشـترك معـه طبيـب التخديـر وطاقـم مـن المسـاعدين وتجـري العمليـة داخـل أروقـة المستشـفى "عـام أو خـاص" ، وقـد صاحـب ذلـك زيـادة في اسـتعمال الأجهـزة والأدوات الطبيـة، وقـد أدى هـذا بـدوره إلى زيـادة المخاطـر الناجمـة عـن الأعمـال الطبيـة، وكذلـك كثـرة الأخطـاء المرتكبـة مـن قبـل الأطبـاء؛ والتـي تـؤدي بالتـالي إلى إلحـاق الـضرر بالمـرضى".

فـلا يعـد الجـراح رجـل المعجـزة الـذي يقـوم بجميـع الأعمـال التـي تتطلبهـا منـه حالـة المريـض، بـل يتعـين عليـه الاسـتعانة بأطبـاء مـن مختلـف التخصصـات لمشـاركته في العمليـة الجراحيـة ومسـاعدته.[1]

وبذلـك أصبـح المريـض الواحـد يتلقـى العـلاج مـن مجموعـة مـن الأطبـاء، كمـا يسـاعد الطبيـب الواحـد مجموعـة مـن الزمـلاء يـؤدون جـزءا لا يتجـزأ مـن العـلاج الجراحـي، يتدخلـون بصفـة جماعيـة تعاونيـة فيمـا بينهـم، إمـا تدخـلًا متلازمـا في أن واحـد وإمـا تدخـلاً متعاقبـاً متتاليـاً.

إشكالية الدراسة.

كثـرة الأخطـاء الطبيـة التـي تقـع مـن الفريـق الطبـي، سـواء مـن رئيـس الفريق الجـراح أو معاونيـه؛ حيـث تقـوم روابـط متشـابكة بينهـم أثنـاء التدخـل الجراحـي تتطلـب تحديـد مسـؤولية تلـك الأطـراف المعنيـة.

منهج الدراسة.

اتبعـت في هـذه الدراسـة المنهـج التحليـلي في ضـوء القانـون المقـارن والاسـتنباطي، مـن خـلال عـرض النصـوص القانونيـة للقانـون الفرنـسي والمـصري رقـم 415 لسـنه 1954م في شـأن مزاولـة مهنـة الطـب، وقانـون المسـؤولية الطبيـة الليبـي 17 لسـنة 1986م، داعمًـا دراسـتي ببعـض الأحـكام القضائيـة التـي تخـص الموضـوع، مسـتنبطا بعـض الحلـول.

المبحث الأول

ماهية الفريق الطبي

نظـراً إلى تقـدم الطـب في الآونـة الاخـيرة، ووجـود تشـابك وتداخـل وترابـط بـين الأعمـال الطبيـة، حيـث إنهـا تتعلـق بجسـد واحـد، وفي مصلحـة شـخص واحـد وهـو المريـض، لاسـيما وأنـه حتـى الآن لـم يوجـد مـن هـو قـادر بمفـرده عـلى الإلمـام بجميع الأعمـال الطبيـة لذلـك فقـد أصبـح الطبيـب - وبالأخـص الجـراح - عاجـزا بمفـرده عـن الإلمـام بجميـع تفاصيـل العـلاج الـلازم الـذي تسـتوجبه الحالـة المرضيـة التـي يتـولى أمرهـا ويبـاشر معالجتهـا، وهـو مـا يعنـي بالـضرورة تقلـص العمـل الفـردي في المهنـة الطبيـة لعـدم قدرتـه عـلى إنجـاز المهـام الطبيـة وإتمـام العمـل الطبـي عـلى وجهـه

(1). أ/ أيـت مولـود ذهبيـة، المسـؤولية المدنيـة عـن أخطـاء الفريـق الطبـي، ماجسـتير جامعـة مولـود معمـرى، تيـزى وزو الجزائـر،2011 ص 8.

الأمثل، ومن ثم إفساح المجال للعمل الطبي الجماعي، متمثلا في صورة الفريق الطبي، خاصة في المجال الجراحي الأكثر شيوعا، والذي يستوجب اشتراك أكثر من طبيب، كل في مجال تخصصه؟[2] لذا نتولى بالدراسة والبحث إيضاح تعريف الفريق الطبي وأعضائه من خلال المطلبين الآتيين : المطلب الأول : مفهوم الفريق الطبي المطلب الثاني: أعضاء الفريق الطبي.

المطلب الأول

تعريف الفريق الطبي

وعلى الرغم من صراحة النصوص الواردة في التشريعات الصحية وإلمامها بالأعمال والمسميات الطبية كافة ، إلا أنها في مجملها لم تتعرض إلى تحديد دقيق لمصطلح الفريق الطبي، وهو الأمر الذي جعل الفقه القانوني يحاول وضع تعريف له.

ومصطلح الفريق الطبي هو مصطلح متداول في المجال الطبي، ولم يعرف إلا مؤخرا. وفي اللغة فإن كلمة (الفريق) تعني طائفة من الناس أكبر من الفرقة.[3] وعند إضافة كلمة (الطبي)، فإننا نصل" إلى معنى أقرب توضيحًا إلى الفريق الطبي، [4] بحيث يكون مجموعة من الأشخاص متخصصين في المجال الطبي".

كما يمكن تعريف الفريق الطبي من وجهة نظر البعض.[5] بتلك المجموعة من الأطباء الإخصائيين كل في مجال تخصصه، تعمل بالمشاركة مع الطبيب الجراح، يجتمعون لتركيز معارفهم الفنية الأداء خدمة مهنية موحدة، والقيام بجزء متخصص لا يتجزأ عن العمل الجراحي الرئيسي .

فالفريق الطبي ظاهرة وجدت نتيجة اشتراك مجموعة من الأطباء والمساعدين والممرضين: لإنجاز العملية الطبية نظرا إلى التطور الكبير الذي لحق بهذه المهنة .[6]

ويرى آخر"[7] أن الفريق الطبي يعد فريقا مهنياً يضم مجموعة مهنيين من الأطباء المتخصصين. يتجمعون لتركيز معارفهم الفنية، وإفراغ خبراتهم، وبيان وسائل التشخيص والعلاج: لأداء خدمة علاجية موحدة".

كما عبر رأي أخر عن الفريق الطبي بأنه "فريق مهني يضم مجموعة من الاختصاصيين من قطاع الصحة، يتجمعون لتركيز معارفهم الفنية، وكذلك وسائل التشخيص والعلاج لتحقيق التعاون بين الأطباء والمتخصصين. كما يعرفه

(2) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ١٣٢٩، ط 1، بدون مكان نشر، ص 382 .

(3) أ/ خالد علي المري، المسؤولية المدنية للفريق الطبي بين الشريعة الاسلامية والقانون الكويتي، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة الشرق الأوسط، الأردن، 2013 ص103.

(4) أ/ أيت مولود ذهبية، مرجع سابق ، ص80.

(5) أ/ خالد علي المري، المرجع السابق، ص3.

(6) د/ أيوب العبيدي، مرجع سابق، ص 37.

(7). د/ علاء الدين خميس العبيدو، المسؤولية الطبية عن فعل الغير، مرجع سابق، ص32.

رأي آخر بأنه" فريق من الأطباء المتخصصين الذين يقفون على قدم المساواة دون أن توجد بينهم أي رابطة تبعية. على حين أن هناك من يعرفهم بأنهم مجموعة من الأطباء يعملون تحت إشراف رئيسهم ".

رأي الباحث نعرف الفريق الطبي من وجهة نظرنا بأنه مجموعة من الأطباء والفنيين المتخصصين في المجال الطبي ذوي درجات مختلفة من المعرفة والخبرة والمهارة، يسعون جاهدين من أجل تقديم خدمة طبية متميزة للمريض، ويشتركون في الوصول لأهداف طبية مشتركة ومحددة.

المطلب الثاني

أعضاء الفريق الطبي

لا يمكن لأي شخص أن يتعرض لمهنة الطب دون أن تتوافر لديه المقومات القانونية لممارسة هذا العمل ، في المهنة الأكثر خطورة على حياة الإنسان وتمس بحقه في سلامة هذا الجسد وحمايته؛ ولذلك يجب في ممارسة مهنة الطب أن يكون على دراية كاملة بهذه المهنة بحيث يمكن أن يؤتمن على حياة الأفراد؛ ولذلك يجب أن يتوافر في ممارس مهنة الطب صفة المعالج، وهي الصفة التي بها يكون للطبيب حق قانوني في التعرض إلى جسد الإنسان .[8]

وبناء عليه فإن من يمارس العمل الطبي إما أن يكون طبيبا(جراح، تخدير،...) أو ممرضاً أو غير ذلك، ومن خلال هذا المطلب فإننا نوضح أعضاء الفريق الطبي على النحو الآتي :

أولا : رئيس الفريق الطبي الطبيب الجراح.

المألوف في العمل الجراحي أن الجراح هو سيد العملية، فهو مستقل لا يسأل عن خطئه، ويكفل مسؤولية الأخطاء التي تقع من المساهمين تحت إدارته في العملية. فالأصل أن كل طبيب مسؤول عن أي خطأ فني يحدث منه أثناء نشاطه الطبي ويتصل بأصول تخصصه واختصاصه، فقضى مثلا بأنه " على الجراح – أثناء الجراحة – الالتزام بوسائل الجراحة التقليدية .

ومن الثابت أن العمل الجراحي في جوهره من أعمال العلاج الأكثر مساسا بالسلامة البدنية للشخص؛ لأنه العمل الذي يحتوي بنسبة أكثر على احتمال وقوع المخاطر، كما أنه أكثر الأعمال التي تعرض الجراح للمسؤولية، وذلك على الرغم من أن أحكام الإدانة الناتجة من هذا العمل تفوق التخصصات الطبية الأخرى. فمن الممكن أن يتعرض الجراح المسؤولية القتل غير العمدي، كما لو تقاعس عن البحث بخصوص نزيف واضح) .[9]

وقضت محكمة استئناف بوردو في 29 نوفمبر سنة 1992م بمسؤولية الجراح

(8) د/ علاء الدين خميس العبيدو، المسؤولية الطبية عن فعل الغير، مرجع سابق، ص282

(9) د/ بسام المحتسب بالله، المسؤولية الطبية المدنية والجزائية، دار الإيمان – بيروت 1989 ص 179 .

رئيس الفريق الطبي عن أخطاء طبيب التخدير " لما يتمتع به من ثقة مريضه وفقا للعقد الذي يلزمه بأن يجعله يستفيد من كل مراحل العناية الدقيقة والمتفقة مع مقتضيات العلم وأخلاقياته، فإنه يكون مسؤولاً شخصيا عن أخطاء طبيب التخدير الذي يلجأ إليه دون رضا مريضه للقيام بالتزامه.

ثانيا : المعاونون بالفريق الطبي.

نظرا إلى خطورة العمل الطبي وما يتصف به من دقة متناهية، وخاصة العمل الجراحي؛ فإنه لابد من وجود معاونين ومساعدين للجراح يعتمد عليهم في تنفيذ العمل الطبي، وهم طبيب التخدير، والتمريض، ونعرض للمعاونين لرئيس الفريق على النحو الآتي :

1. طبيب التخدير: التخدير أحد العلوم الطبية المهمة في مجال الطب، واستعمل التخدير منذ زمن بعيد، وتعددت المكتشفات في التخدير ووسائل استخدامه، وله دور كبير في مجال العمليات الجراحية بشتى أنواعها، لأن المريض بدونه لا يستطيع أن يتحمل الآلام المصاحبة للعملية الجراحية .

ولا يخلو استعمال التخدير من الخطورة؛ لذلك يشرف على عملية التخدير طبيب متخصص في هذا المجال، ويكون مسؤولا عن كل خطاء يحصل للمريض من جراء التخدير، لذلك يجب على الطبيب أثناء مباشرة عملية التخدير أن يبذل العناية الفائقة واليقظة، وعلى طبيب التخدير قبل المباشرة بتخدير المريض تمهيدا لإجراء العملية الجراحية، أن يتأكد من أن صحة المريض تستطيع تحمل التخدير، وبخاصة مرضى القلب الذين ينبغي له أن يقوم بإعطائهم الكميات، والمقادير المناسبة لأجسامهم، والتأكد من خلو معدة المريض من الطعام قبل وضعه تحت تأثير المخدر)،[10] وكذلك إجراء الفحوصات الكاملة للتأكد من حرارة المريض .

وتطبيقا لذلك قضت محكمة استئناف باريس في حكم لها، بأن طبيب التخدير يخل بالتزاماته إذا لم يقم بفحص المريض قبل التخدير، وأن استعمال الطبيب لمادة الألفاثيزين زاد من مخاطر واحتمالات حدوث الوفاة بسبب حساسية المريض لهذا النوع"[11]

ولأهمية التخدير فقد أوكلت مباشرته إلى طبيب مختص، بحيث أصبحت نتائج التخدير مضمونة إلى حد ما، ومن المفترض أنه إذا حصل ضرر من التخدير فإن الخطأ هنا يكون من جانب طبيب التخدير، وما عليه إلا أن يثبت عدم صدور خطاء منه، أو أن هناك حادثة فجائية أو قوة قاهرة، أو خطأ المريض نفسه لنفي المسؤولية عنه .

ومن ثم فإن الإخصائي يضمن مسؤولية الأفعال التي هي من ضمن

(10).حكم محكمة استئناف باريس الفرنسية المدنية الأولى 11123 1992، مشار إليه لدى د/ باسم فاضل ، المسؤولية المدنية للطبيب في ضوء مستجدات مهنة الطب ،دار علام للإصدارات القانونية ، 2018، ص 175.

(11) محمد لبيب إبراهيم وآخرون: التثقيف الصحي: الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية، القاهرة: 1999، الطبعة الثالثة، ص 12- 15.

نطاق أعمال التخدير لذلك عليه الالتزام بإجراء الفحوصات قبل عملية التخدير ومراقبة الأجهزة الحيوية للمريض أثناء غيبوبته مثل: القلب، والأوعية الدموية، وعليه واجب إنعاش المريض من المخدر.

2 - هيئة التمريض.

يعد الممرض حلقة وصل بين الأطباء والمرضى، وذلك من خلال تنفيذه لخطة الطبيب، ومساعدة المرضى بتقديم شرح مبسط لتشخيص المرض وطرق العلاج، كما أنه يتابع الحالة الصحية للمريض ومعرفة تطوراته لإبلاغ الطبيب، وبذلك يساعد الطبيب على الوصول بالمريض إلى حالة صحية متحسنة في وقت سريع.

ولا يمكن للطبيب والممرضة أن يتجاهلا اللياقة والسياسة والحيل الأخرى في السلوك، فقد يكون عليهما أن يبذلا من المهارة في معاملة أقارب المريض قدر ما يبذله في علاج المريض نفسه، فكل هذا جزء من عمله. (12)

ويجب أن تكون شخصية كل من أعضاء الفريق الطبي شخصية متزنة، وألا تكون جادة أكثر مما يجب ولا هازلة أيضا، وأن يكون باش الوجه دائمًا يستجيب لمرضاه وأصعب جانب في عمل الممرضة هو دورها في استقبال مشاعر العدوان والعداء للعالم الخارجي التي يظهرها المرضى، ودون أن يصيبها بسبب ذلك انزعاج أو اكتئاب، ويرتبط بهذا الموضوع علاقة الممرضة بالطبيب؛ إذ يجب على الممرضة أن تحاول فهم التقارير التي يكتبها الطبيب عن حالة المريض، فطبيعة عملها تمكنها من أن تصبح أكثر قدرة على أن تفهم الصعوبات التي تصدر عن المريض ونحوها. ولكي يقوم الممرض بعمله على خير وجه، فهو يحتاج إلى أساس من العلوم الطبية والاجتماعية؛ لمساعدته في التعامل مع الأفراد أو المعوّقين، كما يتعامل مع الأطفال حديثي الولادة والأطفال والشباب وكبار السن؛ لذلك فعند إعداد العاملين من هيئة التمريض يجب الاهتمام بمتطلبات وواجبات الخدمات الصحية المتوافرة بالبلاد والتركيز على إعداد الممرض في معاهد ومدارس التمريض .

ومن أهم الأعمال التي يقوم بها التمريض المحافظة على الصحة والنهوض بها إلى أعلى مستوياتها، ووقاية الفرد والأسرة من المرض، ويشمل ذلك الأم مع الطفل، ورعاية المرضى، والمعوقين وتأهيلهم للعيش بعاهاتهم ورعاية المسنين .(13)

وقد ذهب بعض الفقهاء " يسانده القضاء في ذلك إلى القول بمسؤولية المختص (رئيس الفريق) عن فعل الممرض على أساس نظرية المتبوع العرضي، فالمتبوع الدائم هو من ثبتت له استمرارية السلطة في رقابة التابع والإشراف عليه، أما المتبوع العرضي فهو من ثبتت له سلطة الإشراف والرقابة على التابع جزئيا ولمدة محدودة .

وتطبيقا لما سبق، قضت محكمة النقض الفرنسية في حكم تشير حيثياته

(12) د/ أحمد شوقي، مسؤولية المتبوع باعتباره حارسا ، دار الفكر العربي، 1998، ص 44 .

(13) د/ محسن البيه، نظرة حديثة عن خطأ الطبيب الموجب للمسؤولية المدنية ، مكتبة الجلاء الجديدة ، المنصورة 1993، ص 69.

إلى أن رئيسة الممرضات في مستوصف قامت بحقن مريض من أجل تخديره، نشأ من ذلك شلل في ذراع المريض، فقضى على الطبيب المختص (رئيس الفريق الطبي) من قبل محكمة الاستئناف بمسؤوليته على أساس مسؤولية المتبوع، وصادقت محكمة النقض الحكم بقولها: "وبسبب رابطة التبعية الموجودة بين الجراح والممرضة، فإن المسؤولية عن أفعال هذه الأخيرة، التي تقع عادة على عاتق المستوصف، تكون في هذه الحالة محولة إلى عاتق الجراح، باعتباره متبوعا عرضيا.[14]

وفي حكم آخر قررت محكمة استئناف ليون الفرنسية بأنه :" أثناء التدخل الجراحي يكون الممرض في المستشفى الخاص خاضعا للجراح فيما يؤديه من معاونة، وفيما تقتضيه العناية اللازمة للمريض، ويكون تابعا لذلك الجراح إبان تلك الفترة، ذلك أن المعيار المنوط به التقرير في علاقة التبعية هو من يملك سلطة الإشراف والرقابة، ولهذا إذا كان الممرض يمارس فيما يؤديه عملا على إحدى آلات المستشفى، فإنه يعد معاونا للجراح الذي يباشر العلاج منذ اللحظة التي يوضع فيها المريض على المنضدة الخاصة بالعمليات، ويخضع فيها الممرض لأوامر وتعليمات ذلك الجراح .

المبحث الثاني

أركان المسؤولية التقصيرية للفريق الطبي

لا يمكن الحديث عن المسؤولية التقصيرية إلا إذا تطرق بنا الحديث عن أركان المسؤولية، والمسؤولية الطبية صورة من صور المسؤولية المدنية بشكل عام، فما هو مقرر لهذه الأخيرة ينطبق - بطبيعة الحال- على مسؤولية الطبيب، ولا تختلف المسؤولية الطبية من حيث أركانها عن المسؤولية بوجه عام . لذا نضطلع بالدراسة والبحث أركان المسؤولية التقصيرية للفريق الطبي من خلال مطلبين على النحو الآتي:

المطلب الأول

خطأ الفريق الطي الموجب المسؤولية

خط الفريق الطبي الموجب لمسؤولية الخطاء بوجه عام هو "انحراف في السلوك على نحو لا يرتكبه الشخص اليقظ لو أنه وجد في ذات الظروف الخارجية التي وجد فيها مرتكب الفعل "[15] ونظرا إلى أن الطبيب لا يتدخل في جسد المريض إلا بحسن نية وقصد سليم. لذا فإن الخطأ الصادر من الفريق الطبي لا يختلف عن الخطاء بوجه عام، لذا نعالج بالدراسة البحث خطأ الفريق الطبي الموجب لمسؤوليته من خلال فرعين :

الفرع الأول : ماهية الخطاء الطبي.

الفرع الثاني : صور خطاء الفريق الطبي.

(14) د/ وفاء حلمي أبو جميل، الخطأ الطبي، دار النهضة العربية، 1987، ص 38.

(15) د/ وفاء حلمي أبو جميل، الخطأ الطبي، دار النهضة العربية، 1987 ، ص 38.

الفرع الأول

ماهية الخطاء الطبي

1.تعريف الخطأ الطبي.

نظـرا إلى غيـاب وجـود تعريـف تشريعـي يحسـم الجـدل بـين أنصـار التشـدد وأنصـار المرونـة؛ لـذا نعـرض للتعاريـف الفقهيـة للخطـاء الطبـي .

عرفـه البعـض بأنـه " تقصـير في مسـلك الطبيـب لا يقـع مـن طبيـب يقـظ وجـد في نفـس الظـروف الخارجيـة التـي أحاطـت بالمسـؤول [16].

كذلـك يعـرف الخطـأ الطبـي بأنـه " الـذي ينجـم عـن عـدم قيـام الطبيـب بالتزاماتـه الخاصـة التـي تفرضهـا عليـه مهنتـه، والـذي يحـوي في طياتـه طبيعـة تلـك الالتزامـات للطبيـب، والتـي منشـؤها ذلـك الواجـب القانونـي بعـدم الإضرار بالغـير، بـل المرجـع فيهـا إلى القواعـد المهنيـة التـي تحددهـا وتبـين مداهـا.[17]

كذلـك يعـرف الخطـأ الطبـي بأنـه" كل مخالفـة أو خـروج مـن الطبيـب في سـلوكه عـن القواعـد، والأصـول الطبيـة التـي يقـضي بهـا العلـم أو المتعـارف عليهـا نظريـا وعمليـا وقـت تنفيـذ العمـل الطبـي، أو إخلالـه بواجبـات الحيطـة والحـذر واليقظـة التـي يفرضهـا القانـون متـى ترتـب عـلى فعلـه نتائـج جسـيمة، في حـين كان في قدرتـه واجبـا عليـه أن يتخـذ في تصرفـه اليقظـة والتبـصر حتـى لا يـضر بالمريـض[18]"

2. خطأ الفريق الطبي .

غالبـا مـا يجتمـع الفريـق الطبـي مـن أجـل إجـراء تدخـل جراحـي بقصـد إصلاح عاهـة، أو رتـق تمـزق أو عطـب إفـراغ صديـد أو سـائل مـرضي آخـر أو لاسـتئصال عضـو مريـض أو شـاذ.

وتنقسم الجراحات الطبية الحديثة إلى قسمين:

- الجراحـات الصغـرى: وهـي العمليـات البسـيطة التـي تجـرى عـادة تحـت التخدير الموضعـي، وتقتـصر عـلى الأعضـاء الظاهـرة كالجلـد والنسـيج الدهني.

- والجراحـات الكـبرى: وتشـمل مختلـف أنـواع الجراحـات التـي تجـرى عـلى الأعضـاء الحيويـة، وتجـرى عـادة تحـت التخديـر العـام أو التخديـر الجزئـي.

ويعـرف خطـأ الفريـق الطبـي بأنـه " فعـل يصـدر ممـن يمـارس العمـل الطبـي ويكـون غـير متفـق مـع الأصـول والمعطيـات العلميـة المسـتقرة والمعـاصرة أو الأعـراف الطبيـة في وقتهـا، سـواء كان فعـلًا إيجابيـا أو سـلبيًا، وهـو وثيـق الصلـة بشـخص من يمارسـه ويسـتحيل نسـبه إلى غـيره.[19]

(16). د/عـز الديـن الديناصـوري، عبدالحميـد الشـواربي، المسـؤولية المدنيـة في ضـوء الفقـه والقضـاء، شركـة الجـلال للطباعة، الإسـكندرية، 2012، ط4، 1912 ص 41 .

(17). د/ أسـامة عبـد اللـه قايـد، المسـؤولية الجنائيـة للأطبـاء، دارسـة مقارنـة، دار النهضـة العربيـة، القاهـرة، 1990، ص 224.

(18). د/ أنس عبد الغفار، المسؤولية المدنية في المجال الطبي، دار الكتب القانونية، 2010، ص119 .

(19). د/ أيوب العبيدي، مرجع سابق، ص 186 .

ويتجلى الخطأ الطبي في كل مرة لا يقوم فيها الطبيب بعمله بانتباه وحذر، ولا يراعي فيها الأصول العلمية المستقرة، مع الأخذ في الاعتبار ما يحدث من ظروف استثنائية كافة من حيث الزمان والمكان . [20]

الفرع الثاني

صور خطاء الفريق الطبي

يتحقق خطأ الفريق الطبي في ثلاثة أوقات ، ويمكن إيضاح ذلك على النحو الآتي:

أولا : الخطأ الطبي قبل العملية الجراحية.

1. امتناع الفريق الطبي عن معالجة المريض.

بداية العلاقة بين المريض والطبيب تكون بذهاب المريض إلي الطبيب أو دعوته إلي زيارته، وبعيدا عن المسؤولية القانونية فإن الضمير الإنساني يفرض على الطبيب ألا يرفض علاج المريض. ويكون الطبيب حرا في الذهاب للمريض مادام لم يوجد عقد يربط بين الطبيب والمريض، أو أن الطبيب يعمل في مستشفى حكومي وعرض عليه مريض أثناء وجوده بالعمل ؛ لذا فالطبيب الذي يعمل في مصلحة حكومية أو مستشفى عام ليس له أن يرفض علاج أحد المرضى الذين ينبغي له علاجهم، أي ممن يدخلون في نطاق اختصاصه. ونفس الحكم بالنسبة إلى الطبيب أو المستشفى الخاص الذي يتعاقد مع مؤسسة أو رب عمل معين على علاج العاملين، فرفض الطبيب العلاج هنا يثير مسؤوليته التعاقدية" [21]

2. عدم فحص المريض فحصاً طبياً شاملاً.

لابد أن يقوم الطبيب بفحص شامل للمريض قبل إجراء العملية حسب ما تستدعيه حالته وما تقتضيه الجراحة المقبلة، حيث يكون هذا الفحص للحالة العامة للمريض لمعرفة ما يترتب من نتائج جانبية على هذا التدخل الجراحي، مع الأخذ في الاعتبار مكان الفحص، أو العضو الذي سيكون محل الجراحة، وهذا ما يطلق عليه بالفحوص التمهيدية، وهي الفحوص الأولية التي يقوم بها كل من الطبيب الجراح والطبيب المخدر، ومن أمثلة الأخطاء في هذه المرحلة عدم قيام الطبيب الجراح بإجراء الفحوص البيولوجية اللازمة للمريض أو عدم التأكد من سلامة أعضائه الحيوية أو عدم قيامه بالاطلاع على ملف حول إليه من طبيب أخر لدراسته .[22]

(3) عدم تبصير المريض بحالته الصحية.

يتطلب من الجراح قبل إجراء العملية الجراحية أن يبصر المريض بالعمل الطبي وخطورته المتوقعة والاستثنائية، حتى يوازن المريض بين إجراء العملية من عدمه .

هذا وقد شهد القضاء الفرنسي تحولا مهما فيما يتعلق بمخاطر العمل

(20) د/ محمد حسنين منصور، المرجع السابق، ص31، 1937 .Civ. 18 Oct

(21) كريم عشوش، العقد الطبي، مرجع سابق، ص 184.

(22) د/ محمد منصور، المسؤولية الطبية، مرجع سابق، ص 75.

الطبي الذي يتعين على الطبيب إعلام المريض بها، فيما يتعلق بمخاطر العمل الطبي: حيث قضت المحكمة لسيدة خضعت لعملية جراحية بالعمود الفقري نتج عنها فقد إبصار العين اليسرى، ولم يكن الطبيب قد أحاط المريضة علما بإمكان تحقق هذا الخطر قبل إجراء العملية رفضت محكمة الاستئناف دعوى التعويض التي رفعتها المريضة استنادا إلى أن الخطر الذي تحقق نادر الحدوث ولم يكن على الطبيب، من ثم، التزام بإخباره به. غير أن محكمة النقض ألغت حكم الاستئناف وأصدرت حكمها فيما عدا حالة الاستعجال أو الاستحالة أو رفض المريض الإعلام، فإن الطبيب يكون ملزما بأن يقدم له معلومات أمينة واضحة وملائمة عن المخاطر الجسيمة الملازمة للفحوصات، والعلاج المقترح، ولا يعفى الطبيب من هذا الالتزام لمجرد كون هذه المخاطر لا تتحقق إلا بشكل استثنائي .

وإذا كانت محكمة النقض قد حددت بقضائها السابق نطاق التزام الطبيب بإعلام المريض بجميع المخاطر الجسيمة ولو كانت استثنائية الحدوث، ومثال ذلك أيضا ما فعل مجلس الدولة الفرنسي بحكمين صدرا عنه بتاريخ 5 – 1 – 2000م ، حيث قرر فيهما أن تحقق المخاطر بصفة استثنائية لا يعفى الطبيب من التزامه، وعلى ذلك تكون محكمة استئناف باريس الإدارية قد التزمت صحيح القانون بقضائها أن خطر الإصابة بالشلل الذي تنطوي عليه العملية الجراحية ..... ولو كان استثنائي الحدوث، إلا أنه بالنظر إلى جسامته كان من المتعين على الطبيب إعلام المريض به .

وقد ألزم القضاء الطبيب بإعلام الشخص المعنى مخاطر هذه الجراحات ولو كانت نادرة الحدوث، أي: حتى ولو كانت درجة احتمال تحققها ضئيلة.

ثانيا : الخطأ الطبي أثناء العملية الجراحية.

الخطأ الطبي الذي قد يرتكب في هذه الحالة إما أن يكون قد حدث أثناء عملية التخدير، أو عند التدخل الجراحي؛ إذ يتطلب التدخل الجراحي تخدير المريض أي وضع المريض تحت المخدّر حتى يستطيع تحمل آلام الجراحة، ويقوم بهذه العملية طبيب مختص، واستعمال هذه المادة يتطلب نوعاً من الحيطة والحذر والتأكد من قابلية المريض لتحمله، فقد حمل القضاء الطبيب المسؤولية حتى عن خطئه اليسير لقيامه بعملية التخدير على وجه السرعة دون اتخاذ الاحتياطات الطبية الكافية، لاسيما أنه لم تكن هناك ضرورة عاجلة تستلزم ذلك.[23]

وقد قضت محكمة باريس بإدانة طبيب أسنان عن جريمة قتل خطأ لإجرائه عملية جراحية لخلع أسنان المريض دون إجراء فحص عام أو إجراء أشعة، ولخطئه في تخدير المريض كاملًا دون الاستعانة بطبيب تخدير متخصص، وطبيب جراح في جراحة الفم لإجراء العملية التي تخرج عن تخصصه باعتباره طبيب أسنان، وليس جراح فم وأسنان، بالإضافة لعدم اتخاذه للاحتياطات

(23). د/ يوسف جمعة، المسؤولية الجنائية عن أخطاء الأطباء، المرجع السابق، ص 90.

الواجبة في مثل هذه العملية، مع سوء حالة المريض الصحية ودون توافر حالة الاستعجال، مما ترتب عليه سقوط جزء من سن المريض في القصبة الهوائية نشأ منه وفاته.[24]

أما عند التدخل الجراحي فإن مسؤولية الطبيب الجراح تتحقق إذا ثبت أنه لم يؤد عمله بالمهارة التي تقتضيها مهنته، وبالمستوى الذي ينتظره المريض منه، فالطبيب هنا ملزم بالحذر حيث يكون مسؤولاً عن كل إهمال أو تقصير يصدر منه لا يتماشى واليقظة التي تتطلبها قواعد المهنة، ويعد ترك الأجسام الغريبة داخل جسم المريض أكثر حالات الأخطاء التي تقع من الطبيب الجراح.

ثالثا : الخطأ الطبي بعد إجراء العملية الجراحية.

إن مهنة الطبيب الجراح وطبيب التخدير لا تنتهي بإجراء العملية الجراحية، بل يقع على عاتق كل منهما مراقبة المريض بعد إجراء العملية له، فعلى الطبيب المخدر ضمان إفاقة المريض إفاقة تامة من عملية التخدير؛ إذ يعد الطبيب مخطئًا إذا قام بالمغادرة بعد انتهاء العملية، دون التأكد من ذلك. كما يسأل الطبيب الجراح عن أخطائه إذا لم يتم معاينة المريض بعد إجراء الجراحة له أو لم يعين شخصا للقيام بذلك، وفي هذه الحالة يجب عليه التأكد بنفسه أن إجراءات العناية تامة وعلى أحسن ما يرام. وتطبيقا لذلك قضت محكمة النقض الفرنسية في أحد أحكامها بأن الطبيب المخدر يلتزم متابعة المريض حتى استفاقته من العملية، ويتأكد هذا الالتزام بصفة خاصة عندما يخشى احتمال وقوع خطر يصعب على غير المتخصص تداركه.[25]

وتؤكد أحكام القضاء أن طبيب التخدير الذي يتبع الأصول الفنية ويتخذ جميع الاحتياطات اللازمة التي يفرضها العلم لا يسأل عن الأضرار الناجمة عن التخدير ما دام أن إعطاء المخدر قد تم في الظروف العادية.

ونظرا إلى أهمية التخدير، ومخاطرة فإن المنشور الفرنسي الصادر في 30 أبريل 1974 يلزم إنشاء بطاقة تسمى بطاقة التخدير يدون فيها بكل دقة وقبل إجراء عملية التخدير، وأثناء سريانها الأدوية المستعملة والأفعال المنفذة وسلوك المريض حتى استرداد وعيه.

المطلب الثاني

الضرر الطبي نتيجة الخطأ وعلاقة السببية

يقصد بالضرر؛ وفقا للقواعد العامة " المساس بمصلحة مشروعة للمضرور، ويتحقق من خلال النيل أو المساس بوضع قائم أو الحرمان من ميزة سابقة، بحيث يصبح وضع المضرور أسوأ مما كان عليه قبل وقوع الخطاء، ولا يشترط أن يقع الاعتداء على حق للمضرور يحميه القانون فحسب، وإنما يكفي أن يقع

(24). قرار محكمة النقض الفرنسية 10/6/1980 أشار إليه د/ د محمد حسين منصور، المسؤولية الطبية، مرجع سابق، ص65-64.

(25). د/ سليمان مرقس، الوافي في شرح القانون المدني، مرجع سابق، ص132.

على مصلحة مشروعة للمضرور، ولو لم يكفلها القانون بدعوى خاصة مادام أن هذه المصلحة مشروعة.[26] ولا تقوم المسؤولية بمجرد وقوع الخطاء وحدوث الضرر، بل يجب أن تتوافر علاقة السببية بينهما، بمعنى أن ينشأ الضرر نتيجة الخطأ الذي ارتكبه المسؤول . لذا نعالج بالدراسة والبحث بيان الضرر الطبي وعلاقة السببية من خلال فرعين :

الفرع الاول : الضرر الطبي نتيجة الخطأ.

الفرع الثاني : علاقة السببية بين الخطأ الطبي والضرر.

الفرع الاول

الضرر الطبي نتيجة الخطأ

يكتسب الضرر أهمية بالغة لتحقيق المسؤولية بوجه عام والمسؤولية الطبية بوجه خاص، وهو أساس تعويض المضرور، سواء تحقق خطأ المسؤول أم لا. وينشأ حق المطالبة بالتعويض باللجوء إلى القضاء مهما كان نوع الضرر ودرجته ماديا كان أو معنويا، وحتى تفويت الفرصة التي تعد بمثابة ضرر محقق يستوجب التعويض.

أولا : تعريف الضرر الطبي.

عرف البعض الضرر الطبي بأنه " الأذى الذي يصيب المضرور في حق أو في مصلحة مشروعة، سواء انصب على حياته أو جسمه أو ماله أو عواطفه وشعوره [27].

والضرر المقصود هنا ليس هو الضرر الناجم عن عدم شفاء المريض أو عدم نجاح العملية، أو الجراحة في العلاج: لأن مجرد عدم شفاء المريض شفاء تاما أو جزئيا لا يكون في ذاته ركن الضرر: لأن الطبيب في عقد العلاج لا يلتزم شفاء المريض، إنما المطلوب منه بذل قصارى جهده في سبيل الشفاء، ولا مسؤولية عليه إذا بذل ما في وسعه ولم يتحقق الشفاء على يديه؛ لأن التزامه بالأصل هو التزام ببذل عناية لا بتحقيق نتيجة، فإذا أخفق الطبيب في الوصول اليها وكان ذلك بخطاء منه لا يسأل إلا عما سببه للمريض من خسائر مالية : كمصاريف العلاج وأثمان الأدوية وأجور المستشفيات، وما فات على المريض من كسب بسبب تعطيله عن عمله، وقد يحاسب على ما سببه له من الأم أثناء العلاج، ومن ثم فلا مسؤولية على الطبيب بسبب عدم نجاح العلاج المترتب على خطئه ما دامت حالة المريض لم تسؤ عما كانت عليه قبل العلاج.[28]

ثانيا : أنواع الضرر.

النوع الأول: الضرر المادي.

(26). د/ مصطفي مرعي، المسؤولية المدنية في القانون المصري، مكتبة عبد الله وهبة، الطبعة الثانية ص 103، د/ عباس علي محمد الحسيني، مسؤولية الصيدلي المدنية عن أخطائه المهنية دراسة مقارنة "دار الثقافة للنشر والتوزيع، الإصدار الأول، عمان 1999 صفحة، 61 .

(27). أ/ عطية عبد الله، مقال منشور في منتدى قانوني، في الاثنين 04 يوليو 2011 ص 1
http//:shabanavocat.yoo7.com/t347-topic

(28). د/ إبراهيم هشام شوملي، المسؤولية المدنية للطبيب، دار الكتب للنشر والتوزيع ،2001 ص71 .

عرفه البعض بأنه "الضرر الذي يحدث للمضرور خسارة مالية: لأنه يرد على حق مالي أو ينصب على جسم الإنسان [29] . وعرف بأنه " إخلال بمصلحة للمضرور ذات قيمة مالية، ويجب أن يكون هذا الإخلال محققا، ولا يكفي أن يكون محتملا يقع أو لا يقع [30]. (ذلك الضرر الذي ينقسم إلى ضرر جسدي متمثل بالأذى الذي يصيب جسم الإنسان كإزهاق روح أو إحداث عاهة دائمة أو مؤقتة، وإلى ضرر مالي يصيب مصالح المتضرر ذات قيمة مادية أو اقتصادية، كإصابة الجسم بعاهة تعطل قدرته على الكسب أو في نفقات العلاج).

وبشكل عام فإن الضرر المادي يعد تعديا على حق من حقوق الإنسان في سلامة نفسه وممتلكاته فينتقص منها أو يعطلها أو يتلفها أو يغتصبها أو يحول دون مالكها واستعمالها أو استثمارها). [31]

وينقسم الضرر المادي إلى :

1 – الضرر الذي يصيب الجسد. ويقصد به الضرر الذي يصيب جسم الإنسان، وهذا الأذى قد يقع على حق الإنسان في الحياة فيزهق روحه وقد يحدث عجز لدى المضرور.

أ- الضرر الجسدي المؤدي للوفاة: وهو الضرر الذي تترتب عنه وفاة المريض، ويعد أشد أنواع الضرر؛ لأنه يصيب الروح فهو بمثابة عدوان على حق الإنسان في الحياة، فقد يترتب على خطاء الطبيب وفاة المريض، وذلك كتأخر طبيب التخدير المشرف على حالة المريض وهو تحت التخدير أثناء التدخل الجراحي بعدم الإسراع والسعي لإفاقته وحصول موت خلايا المخ ومن ثم موت الدماغ" [32]

ب- أما بالنسبة إلى الضرر الجسدي غير المميت، (الضرر المؤدي للعجز): وهو تلك الإصابة اللاحقة بجسم الإنسان وما يترتب عنه من عجز جسماني كإتلاف عضو من أعضاء الجسم أو الانتقاص منه، وهو الضرر الذي يؤدي إلى تعطيل كلي أو جزئي لبعض وظائف الجسم، وذلك بإصابة المريض نتيجة خطاء الطبيب، أو بسبب سوء العلاج والعناية التي يتلقاها المريض بعاهة مستديمة "[33].

فلا يترتب عليه وفاة المريض كما لو أدي خطأ الطبيب إلى شلل المريض، فنتيجة هذا الخطاء لا يستطيع المريض الحركة، سواء تسبب بعجز دائم أو جزئي، أو فقدان حاسة البصر. وعلى كل حال فإنه يتمثل في الإصابة التي تلحق جسم المريض، فيترتب عليه عجز جسماني، كإتلاف عضو من أعضاء الجسم أو الإنقاص من فعاليته أو أن يسبب حرجا لدى المريض، أو أن يتسبب بعجز دائم أو تعطيل عن العمل لفترة زمنية معينة.[34]

(29). د/ عبد الرزاق السنهوري، الوسيط، ج 1 ، مصادر الالتزام ، دار الشروق، 2010 ص 771 .

(30). د/ مصطفى العوجي، المسؤولية المدنية ، منشورات الحلبي الحقوقية ، 1990،ص.165.

(31). د/ منصور عمر المعايطة، المسؤولية المدنية للأطباء، بدون مكان نشر ،2004. ص 59.

(32). د/ طلال عجاج، النظرية العامة للالتزام، مرجع سابق، ص 254.

(33). د/ علي عصام غصن، الخطأ الطبي، ط،2منشورات زين الحقوقية، لبنان،2010 ص180

(34). د/ عبد اللطيف الحسيني، المسؤولية المدنية عن الأخطاء المهنية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب العالمي، ط 1 ،1987 ، ص 139 .

2. الضرر الاقتصادي أو المالي: وتتجلى الصورة الثانية في الضرر الاقتصادي أو المالي الذي يلحق ذمة المريض المالية؛ كفقدان الدخل، ونفقات العلاج والدواء، والأجهزة الطبية المساعدة، وتفويت فرصة على المريض، ونفقات تجهيز، ودفن الميت...الخ.[35]

وهو" الخسارة التي تصيب الذمة المالية للشخص، ويشمل ما لحق المريض من خسارة مالية كمصاريف العلاج والأدوية والإقامة في المستشفى، ونفقات إصلاح الخطاء المرتكب من طرف الطبيب، بالإضافة إلى ما فات الشخص المضرور من كسب خلال تعطله عن العمل؛ بسبب العلاج وإصلاح الخطاء الطبي الذي تسبب في إضعاف القدرة على الكسب، أو انعدام هذه القدرة أصلا في حالة العجز، وهذا راجع إلى الإصابات البدنية الأمر الذي يستوجب تعويضه، كالأنداب، والحروق" .[36]

النوع الثاني: الضرر المعنوي.

ويقصد بالضرر المعنوي (الأدبي)، وهو الضرر الذي يصيب المريض في شعوره، وأحاسيسه نتيجة معاناة وآلام تنتج من مجرد المساس بسلامة جسم المريض أو إصابته أو عجزه نتيجة خطاء الطبيب أو الجراح، ويبدو كذلك في الآلام الجسمانية والنفسية التي يمكن أن يتعرض لها ويتمثل أيضا في ما قد ينشأ من تشوهات وعجز في وظائف الأعضاء).[37]

وعرف أيضا بأنه " الأذى الذي يصيب الإنسان (المريض) في عواطفه ومشاعره وأحاسيسه، فيسبب له آلاما نفسية أو أوجاعا جسمانية*)

الفرع الثاني

علاقة السببية بين الخطاء الطبي والضرر

استلزم المشرع الفرنسي التأكيد واليقين من أن الخطأ الطبي هو سبب الضرر النهائي الذي لحق بالمريض، وهو يؤدي بالضرورة إلى إعفاء الفريق الطبي من المسؤولية المدنية، علما بأن مسألة الخبرة الطبية في كثير من الأحيان لا تقدر على إثبات علاقة السببية اليقينية الثابتة بين الخطأ الطبي والضرر الذي يلحق المريض.

فإذا انعدمت الرابطة السببية انتفت المسؤولية لانعدام ركن من أركانها، والسببية هي الركن الثالث من أركان المسؤولية، وهي ركن مستقل عن ركن الخطاء، ويمكن نفيها بإثبات السبب الأجنبي، الأمر الذي يجعلنا نتطرق بالدراسة والبحث في هذا الفرع العلاقة السببية بين الخطاء الطبي والضرر على النحو الآتي :

(35). د/ محمد حسين منصور، مرجع سابق، ص168.

(36). د/ محمد حسين منصور، المسؤولية الطبية، مرجع سابق، ص 169.

(37). د/ أنور سلطان، المرجع السابق، ص 375.

أولا : مفهوم علاقة السببية

تعني رابطة السببية في معناها الخاص هو أن يكون الضرر نتيجة طبيعية لعدم قيام المدين بتنفيذ التزامه العقدي في المسؤولية العقدية، وأن يكون نتيجة مباشره للإخلال بواجبه القانوني في المسؤولية التقصيرية، ولا فرق بين النتيجة الطبيعية والنتيجة المباشرة من حيث المعني .[38]

القضاء المدني الفرنسي، يستلزم لقيام مسؤولية الفريق الطبي قيام علاقة سببية مباشرة وأكيدة بين خطاء الفريق الطبي والضرر الذي يلحق بالمريض جراء هذا الخطاء.

وتحتل علاقة السببية في نطاق المسؤولية الطبية -وفي نطاق المسؤولية المدنية عموما- أهمية كبيرة، فبغير توافرها بين الخطاء المنسوب إلى الطبيب والضرر الذي لحق بالمريض، تنتفي عن الأول كل مسؤولية.

ونشاط القاضي التقديري في هذا المجال يتحدد في مسألتين أولهما.. التحقق من وجود رابطة السببية بين الخطاء والضرر وثانيهما.. كون هذه السببية مولدة لضرر أي منتجة وكون هذا الضرر مباشرا.

ومن الصعب وضع تعرف بصورة مجردة لعلاقة السببية: حيث إنها تنتج دائما من اعتبارات واقعية، وفي مجال المسؤولية المدنية للطبيب والصيدلي، فلا يكفي لقيام مسؤولية الطبيب أن يخطئ الطبيب وأن يصاب المريض بضرر، بل يجب أن يكون الضرر نتيجة الخطاء، أي: يجب أن يكون هناك علاقة سببية بين خطاء الطبيب والضرر الذي حدث. ومعرفة النظريات التي تحدثت عن علاقة السببية، وكيف تنتفي وتنقطع العلاقة السببية؟ وما حالاتها؟.

والعلاقة السببية في المجال الطبي تعني وجود علاقة مباشرة ما بين الخطأ الذي ارتكبه الطبيب والضرر الذي أصاب المريض أو هي أن يكون الخطأ هو السبب الذي أدى إلى وقوع الضرر؛ ولذلك فإن ثبوت خطأ الطبيب الجراح أو أحد أعضاء فريقه الطبي ووقوع الضرر للمريض لا يكفي قيام المسؤولية المدنية للفريق الطبي، إنما يلزم وجود علاقة مباشرة ما بين الخطاء والضرر.[39]

ثانيا : رقابة محكمة النقض علي مدى توافر رابطة السببية .

جرت محكمة النقض علي نقض جميع الأحكام التي لم توضح توافر علاقة السببية كما جعلت لنفسها الحق في رقابة وتقدير هذه العلاقة، غير أنه يتعين التفرقة بين الوقائع المادية التي يستخلص منها الحكم ووجود علاقة سببية، وهذه مسألة تخضع للتقدير المطلق لقاضي الموضوع وبين تكييف ما إذا كانت هذه الأفعال نفسها كافية في القول بوجود علاقة سببية أو عدم وجودها فإنها مسألة قانونية تخضع لرقابة محكمة النقض فذهبت المحكمة

(38). د/ باسم فاضل، مسؤولية الطبيب مدنيا عن التزاماته في ضوء مستجدات مهنة الطب، مرجع سابق ص 2010.

(39). د/ خالد المري، مرجع سابق ص 92-73.

في أحكام عديدة،[40] إلا أنه متى أثبت المضرور الخطاء والضرر، وكان من شأن ذلك الخطاء أن يحدث هذا الضرر فإن القرينة على توافر علاقة السببية بينهما تكون لصالح المضرور، ويكون للمسؤول أن يقوم بنقض هذه القرينة بإثبات أن الضرر قد نشأ من سبب أجنبي لا يد له فيه.

حيث تقرر المحكمة أن " استخلاص علاقة السببية بين الخطاء والضرر من مسائل الواقع التي تستقل بها محكمة الموضوع ولا رقابة عليها في ذلك من محكمة النقض، إلا أن ذلك مشروط بأن تورد الأسباب السائغة المؤدية إلى ما انتهت إليه) [41]

وتقرر ذلك الحكم أيضا، حيث تقرر أن "المسؤولية التقصيرية لا تقوم وعلى ما جرى به قضاء محكمة النقض إلا بتوافر أركانها الثلاثة خطأ ثابت في جانب المسؤول إلي ضرر واقع في حق المضرور وعلاقة سببية تربط بينهما، بحيث يثبت أن هذا الضرر قد نشأ من ذلك الخطاء، وكان استخلاص الخطاء وعلاقة السببية بين الخطاء والضرر من مسائل الواقع التي تستقل محكمة الموضوع بتقديرها متى أقامت قضاءها علي أسباب سائغة) ".[42]

والمطالب بالتعويض على أساس المسؤولية يجب عليه أن يقدم الدليل على توافر رابطة السببية بين ما وقع له من ضرر وبين الفعل الذي يعزوه إلى المسؤول، على أساس أن يلتزم إثبات جميع أركان الحق الذي يطالب به.[43]

ومن هذه الأحكام قضي بأنه المقرر في قضاء هذه المحكمة أن استخلاص وقوع الفعل المكون للخطاء الموجب للمسؤولية واستخلاص علاقة السببية بين الخطاء والضرر هو مما يدخل في السلطة التقديرية المحكمة الموضوع ما دام هذا الاستخلاص سائغا ومستمدا من عناصر تؤدي إليه").[44]

الخاتمة

أولا : النتائج :

1. من الصعب على رئيس الفريق الطبي القيام بكل الأعمال: لذا فإن له الحق في تفويض الاختصاص، بحسب ما يتراءى له، كل في تخصصه .
2. نستنتج أن خطأ عضو من أعضاء الفريق الطبي يترتب عليه مسؤولية رئيس الفريق الطبي.
3. إذا وكل الطبيب عملا لأحد المساعدين من أعضاء هيئة التمريض، وكان هذا العمل مما يجب أن ينهض به بنفسه، فإن الطبيب يعد مخطئا، مثال ذلك

(40). نقض مدني - 28 / 11 / 1999 - س 19 - ص 220 .

(41). جلسة 28/12/1999 الطعن 544 لسنة 99 ق

(42). جلسة 29 / 10 / 2000م، الطعن رقم 4419 لسنة 74 ق 79-

(43). د/ جميل الشرقاوي، النظرية العامة للالتزام الكتاب الأول - مصادر الالتزام-، دار النهضة العربية، 1993، ص527.

(44). نقض مدني - الطعن رقم 31 – بتاريخ 1994/2/17 س 60 ق - مجموعة المبادئ القانونية - المستشار / أنور طلبه - ج 12 – المرجع السابق – ص 507 بند 12.

تكليف ممرضة بإجراء عملية تخدير لمريض تحضيرا لإجراء عملية جراحية، ومن باب أولى يعد الطبيب مخطئا إذا استعان بشخص لا يحمل المؤهلات العلمية أو غير حائز على رخصة مزاولة المهنة في عمل من الأعمال الفنية، فتكون المسؤولية هنا مسؤولية مشتركة بين الطبيب والتابع: حيث تقوم مسؤولية الأخير على أساس الممارسة غير المشروعة للعمل الطبي، وهنا يجوز للمضرور الرجوع بدعوى التعويض على الطبيب وحده، فهو مسؤول مسؤولية شخصية ومسؤولية عن فعل الغير في آن واحد.

4. ينسب الخطأ إلى الطبيب وحده دون التابع عندما يصدر الطبيب أمرا غير صحيح للتابع، فينفذه الأخير مسببا ضررا للمريض.
5. لم يعد الطبيب يتولى جميع شؤون المريض بنفسه، بل عادة ما يستعين بمساعدين من الأطباء أو هيئة التمريض للقيام ببعض هذه الأعمال، وهؤلاء إما أنهم يعملون لحساب الطبيب بصفة دائمة أو مؤقتة، وفي كل الأحوال فإن هؤلاء الأشخاص المستعان بهم يعدون تابعين للطبيب متى كانوا يعملون لحسابه وتحت رقابته وإشرافه، فيكون مسؤولاً عن أخطائهم مسؤولية تقصيرية عن فعل الغير.

ثانيا : التوصيات.

1. يوصي الباحث المشرع المصري بسن قانون للمسؤولية الطبية يتضمن تنظيم مسؤولية الفريق الطبي.
2. ضرورة استعانة المشرع بذوي الخبرة من الأطباء والذين من خلالهم يستطيع المشرع تقدير مدى الخطاء بالضبط في المجال الطبي: لتحديد المسؤوليات التي تقع على مرتكب هذا الخطاء: إذ إنه ما زالت هناك بعض القضايا العالقة التي يتهرب منها الطبيب وأعضاء طاقمه بسبب النواحي الفنية والتي ما زالت تحتاج إلى تشريع يكفل هذه النواحي كلها.
3. ضرورة تشديد الرقابة على أعضاء الطاقم الطبي؛ حيث إن الإهمال ما زال موجودا في المستشفيات العامة والخاصة على السواء، ويتسبب في ضياع آلاف الأرواح سنويا، سواء في مصر أو في ليبيا أو في كل دول العالم، ونوصي بأن تكون العقوبات رادعة وعاجلة حتى يرتدع كل من تسول له نفسه الاستهانة بأرواح البشر.
4. يوصي الباحث بضرورة تحديد أعضاء الفريق الطبي تحديدا دقيقا بحيث لا يستطيع الجاني التنصل من المسؤولية الواقعة عليه نتيجة الإهمال، وأن هذا التحديد يجب أن يشمل كل من يعمل في المستشفى، بما فيهم العاملون في مجال الأدوية، والأدوات الطبية جميعها، فكل هؤلاء يجب أن تشملهم المسؤولية في الضرر الواقع على المريض، في حالة ما إذا تورط أحدهم في ارتكاب أفعال تسبب أضرار للضحايا.
5. لابد للمشرعين المصري والليبي من سن تشريع قانوني متكامل ينظم

المسؤولية المدنية للفريق الطبي بشكل عام؛ لأن التشريع المصري يفتقر إلى تلك النصوص، ويجب أن تراعى في هذه التشريعات طبيعة الأعمال التي يقومون بها والمخاطر التي يتعرضون لها؛ حيث إن جميع ما يتعلق بتلك المسؤولية في المجال الطبي يخضع إلى القواعد العامة للمسؤولية المدنية.

6. يوصي الباحث بتكوين لجان مهنية من أهل الطب والقانون تساعد القضاء في أثناء نظر الدعاوى للوصول إلى أحكام عادلة . تحمي الأطباء وتحفظ حقوق المتضررين من خلال إعطاء رأيها وخبراتها في أثناء إجراء الأعمال الطبية، وتهدف أيضا لتحديد دور الطبيب والخطاء الحاصل منه والضرر الناتج وبيان دور الأطباء. كما يوصي الباحث بأن تنشأ دائرة يكون مهمتها تدوين الأخطاء الطبية بشكل تقني، وأيضا إلزام المؤسسات الطبية العامة والخاصة بالمستشفيات والعيادات بوضع لوحات تبين حقوق والتزامات كل من المريض والطبيب.
7. نوصى المشرعين المصري والليبي أن ينصا صراحة عند إصدارهما للقانون الأخذ بالمسؤولية بدون خطأ، لأن العمل الطبي من طبيعة خاصة ، يصعب إثباته الخطأ فيه ، مما يعرض حق المريض للضياع.
8. على المشرعين المصري والليبي إنشاء صندوق خاص على غرار ما قام به المشرع الفرنسي بموجب قانون 4 مارس 2002 لتعويض ضحايا الأضرار الطبية غير الناجمة عن الخطأ ذلك بفتح حساب بعنوان "صندوق تعويض ضحايا الحوادث الطبية".

قائمة المراجع

1. د/أسامة عبد الله قايد، المسؤولية الجنائية للأطباء، دارسة مقارنة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1990،
2. د/ أنس عبد الغفار، المسؤولية المدنية في المجال الطبي، دار الكتب القانونية، 2010م
3. د/ أنور يوسف حسين، ركن الخطأ في المسؤولية المدنية للطبيب، دراسة مقارنة، دار الفكر والقانون، المنصورة، مصر، 2014م
4. أ/ أيت مولود ذهبية، المسؤولية المدنية عن أخطاء الفريق الطبي، ماجستير جامعة مولود معمرى، تيزي وزو الجزائر، 2011 .
5. د/ أيوب العبيدي، المسؤولية المدنية للفريق الطبي، دار الجامعة الجديدة، 2019م المحتسب بالله، المسؤولية الطبية المدنية والجزائية، دار الإيمان- بيروت 1984.
6. أ/ خالد علي المري، المسؤولية المدنية للفريق الطبي بين الشريعة الاسلامية والقانون الكويتي، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة الشرق الأوسط، الأردن،2013 .
7. د/ رأفت حماد، أحكام العمليات الجراحية، دراسة مقارنة، دار النهضة العربية، مصر، 1986م.
8. د/ عباس علي محمد الحسيني، مسؤولية الصيدلي المدنية عن أخطائه المهنية، دراسة مقارنة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان 1999.
9. د/ مروك نصر الدين، الحماية الجنائية للحق في سلامة الجسم، دراسة مقارنة، بدون دار نشر، 2003.
10. د/ محمد سامي الشوا، الخطأ الطبي أمام القضاء الجنائي، دراسة مقارنة، دار النهضة العربية، مصر، 1993 م،
11. د/ محمد حسين منصور: المسؤولية المدنية لكل من الأطباء والجراحين وأطباء الأسنان والصيادلة، المستشفيات العامة والخاصة، الممرضين والممرضات، دار النهضة العربية، القاهرة: 1988
12. د/ مصطفي مرعي، المسؤولية المدنية في القانون المصري، مكتبة عبد الله وهبة، الطبعة الثانية.
13. د/ محسن البيه، نظرة حديثة عن خطأ الطبيب الموجب للمسؤولية المدنية ، مكتبة الجلاء الجديدة ، المنصورة 1993.
14. منير رياض حنا: النظرية العامة للمسؤولية الطبية في التشريعات المدنية ودعوى التعويض الناشئة عنها، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية: 2011
15. د/ مصطفي مرعي، المسؤولية المدنية في القانون المصري، مكتبة عبد الله وهبة، الطبعة الثانية.
16. د/وفاء حلمي أبو جميل، الخطأ الطبي، دار النهضة العربية، 1987.
17. د/ يوسف جمعة، المسؤولية الجنائية عن أخطاء الأطباء، دار النهضة العربية ،2001.

نظرية الظروف الطارئة وأثرها على إعادة التوازن المالي لعقد الأشغال العامة في ليبيا

إعداد : زياد عوض عبدالله حمد
محاضر مساعد ـ قسم القانون العام ـ كلية القانون ـ جامعة طبرق

الاستلام : 16/ 12/ 2022 القبول : 15/ 2/ 2023

المستخلص:

تعد نظرية الظروف الطارئة من أكثر الموضوعات المهمة في العقود الإدارية لذا فإن الهدف من الدراسة الوقوف الظروف على الاستثنائية، التي لم تكن متوقع حدوثها أثناء إبرام العقد ويترتب عليها اختلال التوازن المالي للعقد مما يلحق خسائر جسيمة، الأمر الذي يهدد بتوقف المتعاقد على تنفيذ التزاماته التعاقدية، مما يؤثر سلباً على سير المرفق العام بانتظام، واطراد ولتفادي هذا الأمر يتم العمل بنظرية الظروف الطارئة، والتي هي إحدى طرق إعادة التوازن المالي للعقد الإداري ويستطرق البحث لبيان ماهية نظرية الظروف الطارئة وأساسها القانوني، وكذلك أثر النظرية على عقد الأشغال العامة وذلك في ضوء ما نصت عليه لائحة العقود الإدارية في ليبيا رقم 563 سنة 2007.

Contingency theory considers as one of the most important subjects in administrative contracts.

So, the aim of this study is to focus on the exceptional circumstances that were not expected to happen during conclusion of the contract.

Consequently, A financial imbalance to the contract with huge losses and this leads to a threat by stopping the contractor to implement his contractural obligations.

This will affect negatively on functioning of the general facility systematically.

To avoid that, working with contingency theory which is one of the ways for restoring the financial balance to the administrative contract.

This research highlights specifically what contingency theory means and its legal basis. Also, the impact of the theory on public works contract according to the list of management contracts in Libya, No: 563,Year 2007.

الكلمات المفتاحية: عقد الأشغال العامة، التعويض المالي للمقاول، التوزان المالي للعقد، الظروف الاستثنائية.

يتعين على جهة الإدارة المحافظة على التوازن المالي للعقد إذا ما مال لغير المتعاقد معها لظرف طارئ، أو لصعوبة مادية واجهت تنفيذه لالتزامه، أو بسبب إجراء أصدراه الإدارة، ما دام ذلك لم يكن متوقعا من المتعاقد معها، وذلك ضماناً لاستمراره في الوفاء بالتزامه التعاقدي ومراعاة لاعتبارات منها العدالة المجردة، ولما يوجبه إعمال مبدأ حسن النية، المفترض توافره في تنفيذ العقود الإدارية، والذي يتناقض معه تخلي الإدارة عن مؤازرة المتعاقد معه بامتناعها عن إقالة عثرته تمكيناً له من الاستمرار في الوفاء بالتزامه التعاقدي، دون أن تلحق به خسارة فادحة لم يضعها في حساباته حال إقدامه على التعاقد مع الإدارة، ويعد عقد الأشغال العامة أحد الوسائل القانونية العامة للنشاط الإداري، ويرجع ذلك لتدخل الدولة الحديثة على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي للدولة، ممثلة في إداراتها المختلفة مركزية كانت أم إقليمية، وخاصة في ليبيا تبرم سنويا المئات من عقود الأشغال العامة وذلك من أجل تطوير وتحديث المرافق العامة.

إشكالية البحث.

يثير هذا البحث سؤلاً رئيسياً في مدى سلطة القاضي الإداري في مواجهة تطبيق نظرية الظروف الطارئة وبيان دور القاضي في الرقابة في إعادة التوزان المالي كيف يؤثر الظرف الطارئ في إعادة التوازن المالي لعقد الأشغال العامة؟ ويتفرع عن هذا السؤال العديد من التساؤلات وهي :

ماهية العقد الأشغال العامة وطرق إبرام العقد وأيضاً ماهية نظرية الظروف الطارئة وهل يؤثر الظرف الطارئ على إعادة التوازن المالي للعقد الأشغال العامة وأيضاً هل تلتزم الإدارة بتعويض المقاول المتضرر من الطرف الطارئ؟.

هدف البحث:

يهدف هذا البحث إلى ماهية الظروف الطارئة من حيث تأثيرها على العقد وبيان ماهية الشروط الواجب توافرها في تلك النظرية وأيضاً بيان سطلة القاضي في إعادة التوازن المالي للعقد الإداري.

أهمية البحث:

لا شك أن لموضوع نظرية الظروف الطارئة وأثرها على إعادة التوازن المالي لعقد الأشغال العامة، أهمية كبيرة من الناحيتين العلمية والعملية، فمن الناحية العلمية، فإن هذا المبدأ يعد من نتائج قواعد العدالة، التي تهدف إلى التخفيف من القوة الملزمة للعقد هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فالكل يعلم، لأن الأوضاع الاقتصادية المتقلبة التي يمر بها العالم، تحتاج إلى وسائل تساعد على المحافظة على التوازن المالي لعقد الأشغال العامة، الذي يتأثر بتلك التقلبات ومن أهم هذه الوسائل هي تطبيق نظرية الظروف الطارئة.

أسباب اختيار البحث.

يأتي اختيار الباحث لدراسة هذا الموضوع لما يكتسبه البحث من أهميه

بالغة في ليبيا، ونظراً لدور الدولة المتداخل في جميع المجالات إضافة إلى زيادة التعاقدات في شتى المجالات التي يتم إنشاؤها بماضي ذلك عقود الأشغال العامة كما تبدو واقعية في ندرة الدراسات القانونية المتخصصة في العقود الإدارية عامة، وأثر الظروف الطارئة على عقد الأشغال العامة بصفة خاصة.

منهجية البحث.

المناهج البحثية هي الطريقة المناسبة التي يختارها الباحث لمعالجة موضوع بحثية، فهو يمس جوهر موضوع بحثه، ولذلك كان من الضروري والملائم إتباع المنهج الوصفي والتحليلي، للوصول لمعالجة الإشكاليات والعقبات التي تواجه الإدارة والمتعاقدين معاً في عقد الأشغال العامة، أثناء تعويض المقاول المتضرر من وقوع الظروف الطارئة، والذي يقوم على أساس تحديد وخصائص المشكلة محل البحث ووصف ماهيتها وشروطها، ثم تحليل هذه المشكلة والتعرف على دوافعها وآثارها، وذلك للوصول لإعادة التوازن المالي لعقد الأشغال العامة.

خطة البحث وستكون كالتالي:

المبحث الأول: ماهية عقد الأشغال وخصائصه وطرق إبرام العقد.

المطلب الأول: تعريف عقد الأشغال العامة وخصائصه.

المطلب الثاني: طرق إبرام عقد الأشغال العامة.

المبحث الثاني: أثار الظرف الطارئ على عقد الأشغال العامة.

المطلب الأول: ماهية نظرية الظروف الطارئة وأساسها القانوني.

المطلب الثاني: شروط تطبيق نظرية الظروف الطارئة وأثارها في عقد الأشغال العامة.

المبحث الأول

ماهية عقد الأشغال وخصائصه وطرق إبرام العقد

يعد عقد الأشغال العامة من أهم العقود الإدارية وأقدمها من حيث النشأة، فقد نشأت النظرية العامة للعقود الإدارية التي شيدها مجلس الدولة الفرنسي بقصد تحقيق الأشغال العامة.[1]

وسوف نتناول في هذا المبحث تعريف عقد الأشغال العامة وخصائصه وطرق إبرام عقد الأشغال العامة وذلك على النحو الآتي:

المطلب الأول

تعريف عقد الأشغال العامة وخصائصه

نقوم بدارسة تعريف عقد الأشغال العامة من الناحية الفقهية والقضائية وكذلك خصائص عقد الأشغال العامة على نحو الآتي:

الفرع الأول

التعريف الفقهي والقضائي لعقد الأشغال العامة

أولاً: التعريف الفقهي.

هو عبارة عن اتفاق بين جهة الإدارة، وأحد الأفراد، أو الشركات بقصد

(1) د/ أنس جعفر،العقود الإدارية، دار النهضة العربية،القاهرة، سنة 2003، ص 61-60.

القيام ببناء عقارات، أو ترميمها، أو صيانتها لحساب شخص معنوي عام، بقصد تحقيق منفعة عامة، بمقابل يتفق عليه في العقد ووفقاً للشروط الواردة فيه.[2]

وقد عرف أيضاً على أنه (هو العقد الذي فيه تتفق الإدارة مع أحد المقاولين للقيام بإنشاء أو ترميم أو صيانة منشآت عقارية لحساب أحد الأشخاص المعنوية العامة تحقيقاً للمنفعة العامة).[3]

ثانياً : التعريف القضائي لعقد الأشغال العامة.

عرفت محكمة القضاء الإداري في مصر عقد الأشغال العامة (بأنه عقد مقاولة بين شخص من أشخاص القانون العام وفرد أو شركة بمقتضاه يتعهد المقاول بالقيام بعمل من أعمال البناء، أو الترميم، أو الصيانة في عقار لحساب هذا الشخص المعنوي العام، وتحقيقاً لمصلحة عامة مقابل ثمن يحدد في العقد.)[4]

أما في ليبيا فقد عرفت المحكمة العليا الليبية عقد الأشغال العامة بأنه (عقد مقاولة بين شخص من أشخاص القانون العام، فرد أو شركة، يتعهد المقاول بمقتضاه بالقيام بعمل من أعمال البناء، أو الترميم أو الصيانة في العقار لحساب هذا الشخص المعنوي العام وتحقيقاً للمصلحة العامة مقابل ثمن يحدد في العقد.[5]

الفرع الثاني

خصائص عقد الأشغال العامة

يتضح من خلال التعريف الفقهي والقضائي لعقد الأشغال العامة أنه لابد من توافر عناصر معينة في هذا العقد وهي : أن يكون موضوع الأشغال عقاراً، وكذلك يجب أن يكون تنفيذ الأشغال العامة تحقيقاً نفعاً عاماً. [6] ولذلك سوف نقوم بدراسة خصائص عقد الأشغال العامة في هذا الفرع على النحو الآتي :-

أولاً: يجب أن يكون محل الأشغال عقاراً.

ويشمل ذلك أعمال البناء والترميم والصيانة الواردة على العقار وكذلك بناء الجسور وتعبيد الطرق وما الى ذلك، وكذلك توسع مجلس الدولة الفرنسي في مفهوم الأشغال العامة، والكنس والرش في الطرق العامة ونقل المواد اللازمة لتنفيذ العمل من قبيل الأشغال العامة. [7]

وتخرج كذلك من نطاق الأشغال العامة العقود الواردة على منقول، مهما كانت ضخامتها فلم يعتبر القضاء الإداري في فرنسا من عقود والأشغال العامة الاتفاقيات التي يكون محلها

(2) د/مفتاح خليفة عبدالحميد،الأسس العامة للعقود الإدارية في ضوء لائحة العقود الإدارية الصادرة سنة 2007، دار الفضيل للنشر،ليبيا،ط1،2021،ص 40،41

(3) د/صلاح الدين فوزي،المبسوط في القانون الإداري،دار النهضة العربية،القاهرة،سنة 2012، ص704.

(4). حكم محكمة القضاء الإداري المصرية، طعن رقم 284، سنة 8 ق،جلسة 12-23 -1956، مجموعة السنة 11،ص 104.

(5). حكم المحكمة العليا الليبية، طعن إداري 24،سنة 7 ق، جلسة 26/1/1983، مجلة المحكمة العليا الليبية، سنة19،العدد4،ص36.

(6). د منصور محمد احمد، العقود الإدارية، مفهوم العقد الإداري وقواعد إبرامه، الجزء الأول، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، سنة 2000، ص 147.

(7) د مفتاح خليفة عبدالحميد،الأسس العامة لعقود الإدارية في ضوء لائحة العقود الإدارية الصادرة 2007،مرجع سابق ص 41

إعداد أو بناء أو ترميم سفينة أو حظيرة متحركة للطائرات. [8]
ثانياً: أن يتم العمل لحساب شخص معنوي عام.
يجب أن تتم الأعمال لحساب شخص عام، ليس من الضروري أن تكون الإدارة مالكة العقار الذي تتعلق به الأشغال العامة، وإنما المهم أن يتم العمل لحسابها ولو كان العقار مملوكاً لفرد من الأفراد.[9]
ثالثاً: أن يكون الغرض من الأشغال العامة تحقيق نفع عام.
يشترط أن يكون الغرض من الأشغال هو تحقيق مصلحة عامة، وسواء كان العقار مملوك للدولة ملكية عامة، أو ملكية خاصة، بل قد ترد الأشغال على عقارات مخصصة لمرافق عامة أو غير مخصصة لمرافق عامة كدور العبادة في فرنسا.[10]

المطلب الثاني

طرق إبرام عقد الأشغال العامة

نظمت لائحة العقود الإدارية في ليبيا طرق إبرام العقود الإدارية حيث نصت المادة رقم (8) (على أن يكون أبرام العقود الإدارية بإحدى الطرق الآتية المناقصة العامة والممارسة والتكليف المباشر والمزايدة).[11]
وسنتناول في هذا المطلب الإحكام الخاصة بكل هذه الطرق على النحو الآتي :-

الفرع الأول

المناقصة العامة

هي طريقة بمقتضاها تلتزم الإدارة باختيار أفضل من يتقدمون للتعاقد معها سواءً من الناحية المالية أو من ناحية الخدمة المطلوب أداؤها.[12]
والمناقصة العامة هي الطريقة العادية، والأصل العام في إبرام العقود الإدارية، حيث لا يحوز للإدارة اتباع طريقة غيرها إلا بناءً على نص قانوني يسمح لها بذلك.[13] وهذا ما أكدته نص مادة رقم (9) من لائحة العقود الإدارية في ليبيا حيث نصت على أن:
أ- تبرم عقود الأشغال العامة وعقود التوريد وغيرها من العقود الإدارية بصفة عامة بطريق المناقصة العامة، ولا يجوز العدول عن المناقصة العامة إلى طريق أخر من طرق التعاقد المشار اليها في المادة السابقة إلا لمقتضى يستند إلى أحكام هذه اللائحة.

(8) مفتاح خليفة عبدالحميد،الوجيز في القانون الإداري وفقاً للتشريعات السارية واحدث أحكام القضاء الإداري دار الفضيل،فضيل، بنغازي، ط1 سنة 2020، ص 383.

(9) د.محمد صلاح عبد البديع،الوسيط في القانون الإداري الجزء الثاني دار النهضة العربية القاهرة سنة 2004 ص 582.

(10) د. شريف يوسف خاطر، مبادئ القانون الإداري دراسة مقارنة دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 2009، ص 604

(11) المادة 8 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا رقم،563 سنة 2007، الصادرة بقرار من اللجنة الشعبية العامة سابقاً.

(12) د. سليمان محمد الطماوي،الأسس العامة للعقود الإدارية دراسة مقارنة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط6 سنة 2013، ص 239.

(13) مفتاح خليفة عبدالحميد، الأسس العامة للعقود الإدارية، مرجع سابق، ص74.

ب – استثناء مما جاء في الفقرة السابقة يجوز التعاقد بطريق المناقصة المحدودة أو الممارسة في الأحوال الاتية :

1. الأعمال والتوريدات المحتكر صنعها أو استيرادها أو التي لا توجد إلا لدى أشخاص أو شركات معينة.
2. الخدمات الاستشارية.
3. غير ذلك من الأحوال التي لا تسمح فيها طبيعة العقد، أو ظروف إبرامه، باتباع طريق المناقصة العامة ويجري تحديد هذه الأحوال بقرار مسبب من الجهة المختصة بإصدار قرار الترسية والإذن بالتعاقد.

ج – يشترط للمتعاقد في الأحوال المشار إليها في الفقرة السابقة بالنسبة للوحدات الإدارية الحصول على إذن بإجراء مناقصة محدودة أو ممارسة من الجهة الإدارية المختصة بإصدار قرار الترسية أو الإذن بالتعاقد وأن يدعى للتعاقد عدد كاف من أدوات التنفيذ لا يقل عن ثلاثة.

د- تبرم بطريق المزايدة العامة عقود الأشياء التي يستغنى عنها أو التي يتقرر بيعها وفقاً للقانون. (14)

أهم مبادئ المناقصة.

تقوم المناقصة على ثلاثة مبادئ رئيسية هي:

1) لإعلان عن المناقصة "العلانية".

نصت المادة (27) من لائحة العقود الإدارية في ليبيا على أنه يجب أن يتضمن الإعلان عن المناقصة البيانات الآتية:"

أ. ملخصًا وافيًا لموضوعها وشروطها.
ب. المدة التي يظل مقدم العطاء ملتزما خلالها بعطائه.
ج. الجهة التي تقدم إليها العطاءات.
د. قيمة التأمين الابتدائي للتقدم بالعرض.
ه. قيمة التأمين النهائي عند الترسية.
و. فئة التصنيف للمقاولين الذين يحق لهم التقدم بالعطاء.
ز. غير ذلك من البيانات التي ترى لجنة العطاءات أن تضيفها إلى الإعلان"(15)

أما فيما يتعلق بالمدة المحددة لتقديم العطاءات فقد نصت المادة (28) من لائحة العقود الإدارية في ليبيا على أن " تحدد المدة اللازمة لتقديم العطاءات تبعًا لأهمية موضوع المناقصة وطبيعته بحيث لا تقل عن ثلاثين يوميًا من تاريخ الإعلان لأول مرة، ويجوز بموافقة الجهة المختصة باعتماد محاضر الترسية تقصير هذه المدة إذا كان ثمة مقتضى لذلك." (16)

(14) المادة 9 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا الصادرة بقرار من اللجنة الشعبية سابقاً رقم 563، لسنة 2007.

(15) المادة رقم 27 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا، رقم 563 سنة 2007، الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

(16) المادة 28 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا، رقم 563 سنة 2007، الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

2) حرية المنافسة.

المناقصة طريقة للتعاقد تقوم على المنافسة حيث تسعى الإدارة بمقتضاها إلى الحصول على إداء معين بأقل مقابل تتحمله الإدارة بدون مساس بجودة الإداء ومواعيده وتلتزم الإدارة باختيار المتعاقد الذي يقدم أفضل عطاء من حيث الشروط المالية والفنية.[17]

وفي ليبيا نصت المادة (18) من لائحة العقود الإدارية على أنه "مع عدم الإخلال بأية إجراءات أخرى مقررة قانون يجوز حرمان المتعاقد بصورة دائمة أو مدة يحددها القرار بطريق مباشر أو غير مباشر وذلك في الحالات الآتية.

أ. أذا تأخر في تنفيذ عقد إداري بما يجاوز المدة المتفق عليها فيه دون مبررات تقبلها الجهة المتعاقدة.

ب. إذا وقع منه غش أو خطأ جسيم في إبرام أو تنفيذ العقد.

ج. إذا امتنع عن دفع التأمين النهائي أو امتنع عن توقيع العقد بعد اختياره للتعاقد.

د. إذا وقع منه احتيال في تعامله أو ثبت أنه قدم أو حاول تقديم رشوة بنفسه أو من خلال وسيط سواء بطريق مباشر أو غير مباشر إلى موظف له صلة بالتعاقد.". [18]

3) المساواة بين المتنافسين:

يقوم هذا المبدأ على أساس أن جميع المتقدمين بعطاءاتهم يكونون على قدم المساواة مع بقية المتنافسين وليس للإدارة أن تقيم إي تمييز غير مشروع بينهم.[19]

غير أن هذا المبدأ لا يؤخذ به في جميع الأحوال وهذا ما نصت عليه المادة (55) من لائحة العقود الإدارية في ليبيا فقرة (أ) جاء فيها " توصى لجنة العطاءات بإرساء المنافسة على صاحب أقل العطاءات سعراً من بين العطاءات التي لم يتقرر استبعادها وتمنح الأولوية في إرساء المناقصة عند توافر الكفاءة الفنية وتساوي الأسعار للعطاءات المقدمة من أدوات التنفيذ المشتركة مع الجانب الليبي".[20]

الفرع الثاني

الممارسة

وقد عرفت لائحة العقود الإدارية في ليبيا في المادة (8) فقرة (ج) الممارسة على أنه" وتقع بالاتصال المباشرة بجهات أو أشخاص متخصصين في مجال الأعمال أو الاصناف المطلوب التعاقد عليها من المقيدة اسماؤهم في السجلات المعدة لذلك بالجهة المختصة قانونا وممارستها للوصول إلى افضل الشروط والأسعار للتعاقد".[21]

(17) د. محمود عاطف البنا، العقود الإدارية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، سنة2007، ص 149.

(18) المادة 18 من لائحة العقود الادارية في ليبيا رقم 563 سنة 2007م الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

(19) د. مفتاح خليفة عبدالحميد، الوجيز في القانون الإداري، مرجع سابق، ص401.

(20) المادة 55 فقرة أ، من لائحة العقود الادارية في ليبيا رقم 563، سنة 2007، الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

(21) المادة 8 فقرة (ج) من لائحة العقود الإدارية في ليبيا، رقم 563، سنة 2007م الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

وقد نصت المادة (65) من لائحة العقود الإدارية في ليبيا على أنه " تجري الممارسة وفقًا لأحكام هذه اللائحة وتتخذ إجراءات الممارسة بإتباع أحدى الطريقتين الاتيتين:

1. عن طريق تقديم العروض وفقا للإجراءات التي تتبع بشأن المناقصة المحدودة.
2. الأعمال أو المواد موضوع الممارسة من بين المقيدة اسماؤهم بالسجلات المعدة لذلك في الجهة المشار إليها في المادة (15) من هذه اللائحة للحصول منها على عروضها كتابية للبث فيها.

تقوم لجنة العطاءات بدراسة العروض المقدمة ومفاوضة مقدميها للوصول إلى أفضل الأسعار والشروط للتعاقد واخطار جهة التعاقد بتوصياتها".[22]

الفرع الثالث

التكليف المباشر.

وقد عرفت نص المادة (8) من لائحة العقود الإدارية فقرة (د) التكليف المباشر على أنه" ويكون بإصدار أمر الشراء أو التكليف بالأعمال لأدوات التنفيذ من قبل المختص بتوقيع العقود في الجهات التي تسري عليها أحكام هذه اللائحة ".[23]

فقد نصت المادة 10 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا على حالات التعاقد بطريق التكليف المباشر.

يجوز التعاقد بطريق التكليف المباشر في الحالات الأتية.

1. الحالات التي تقتضي متطلبات الأمن الوطني أو حالة الطوارئ حسبما تقرره اللجنة الشعبية العامة.
2. التعاقد مع أحدى المنظمات الدولية أو الجهات الحكومية الأجنبية تنفيذًا لاتفاقيات نافذة.
3. الحالات التي لا يتقدم فيها أحد في المناقصات العامة أو المحدودة أو الممارسات وذلك بموافقة اللجنة الشعبية العامة المسبقة على ذلك وتضمن هذه الموافقة في التقرير المشار إليه في فقرة (ب) من المادة (68) من هذه اللائحة.
4. تنفيذ أعمال الصيانة العاجلة أو شراء مواد لازمة لحالة من الحالات الضرورة العاجلة.
5. المواد المحتكرة أو التي لا توجد إلا لدى شخص أو جهة بذاتها.
6. قطع الغيار عند الشراء من المصنع الأصلي أو وكيله المعتمد.
7. المشتريات العادية والأعمال العادية ومقولات النقل.
8. أعمال الصيانة والترميمات العادية.

الخدمات الاستشارية لحالة من حالات الضرورة العاجلة أو تلك التي لا تجاوز قيمتها مبلغ 100،000 مليون دينار.

(22) المادة 65 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا، رقم 563 سنة 2007 الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

(23) المادة 8 فقرة (د) من لائحة العقود الإدارية في ليبيا، رقم 563، سنة 2007 الصادر بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

يشترط للتعاقد بطريق التكليف المباشر في الحالات المنصوص عليها في البنود ((4، 5، 6)) من الفقرة السابقة أن يصدر الإذن من الجهة المختصة واعتماد أمين اللجنة الشعبية العامة في حالة تجاوز قيمة أي منها 2000،000 مليوني دينار، أما بالنسبة للحالات المنصوص عليها((7،8،9)) من ذات الفقرة فيشترط موافقة أمين اللجنة الشعبية للجهة المتعاقدة أو من في حكمه على التعاقد إذا لم تجاوز القيمة ٠100،000 مليون دينار وموافقة أمين اللجنة الشعبية العامة إذا تجاوزت القيمة ذلك وفي جميع الأحوال يجب توضيح الاسباب التي دعت إلى التعاقد عن طريق التكليف المباشر وأن يدون الموظف المسؤول على مستندات الصرف أن الاشياء الموردة والأعمال المنفذة مطابقة للشروط وأن أسعارها مناسبة".[24]

الفرع الرابع

المزايدة.

وقد عرفتها (المادة -8 فقرة هـ) من لائحة العقود الإدارية " وتجري لبيع الاشياء وتتم عن طريق تقديم عطاءات للشراء أو بطريق المناداة للوصول إلى أعلى الأسعار".[25]

وقد حددت (المادة 71) من لائحة العقود الإدارية طرق البيع عن طريق المزايدة العامة حيث قالت " تجري لجنة العطاءات المزايدة بطريق تقديم العروض في مظاريف مغلقة أو بطريق المناداة وإذا أجريت المزايدة بطريق تقديم العروض في مظاريف مغلقة، فتتم وفقا للإجراءات التي تتبع في المناقصات العامة بما لا يتعارض مع طبيعة المزايدات وأحكام هذا الباب، وفي جميع الأحوال تعطى فرصة للمتزايدين للمعاينة والكشف على الأصناف أو المواد المراد بيعها" [26]

المبحث الثاني

أثار الظرف الطارئ على عقد الأشغال العامة

تأخذ الظروف الطارئة التي تؤثر في تنفيذ العقد الإداري صورًا عديدة أهمها الظروف الاقتصادية مثل الأزمات الاقتصادية التي يترتب عليها ارتفاع الأجور والأسعار وقد تكون هذه الظروف طبيعية مثل الزلازل والبراكين وقد تكون ظروفاً إدارية مثل الإجراءات الإدارية التي تصدرها الإدارة المتعاقدة، وأيضًا قد تكون ظروف سياسية مثل إعلان الحرب.[27] وسوف نقوم بدراسة هذا المبحث على نحو الآتي:

المطلب الأول

ماهية نظرية الظروف الطارئة وأساسها القانوني

ومدى سطلة القاضي في تطبيق هذه النظرية

(24) المادة 10 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا رقم 563، سنة 2007، الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

(25) المادة 8 فقرة هـ من لائحة العقود الإدارية في ليبيا رقم،563 سنة 2007 الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

(26) المادة 71 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا رقم 563، سنة 2007 الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

(27) أ. مريم محمد ساسي، التوازن المالي للعقد الإداري في القانون الليبي والمقارن، رسالة ماجستير، كلية الحقوق جامعة الاسكندرية، سنة 2013، ص 125.

تعد نظرية الظروف الطارئة من الأسس التي تقوم عليها العقود على استبعاد وتطبيقها إذا توافرت شروطها، حيث الهدف من تطبيق هذه النظرية مساعدة المتعاقد مع الإدارة في الوفاء بالتزاماته التعاقدية الذي قد يمنعه الظرف الطارئ من تنفيذها.[28] ولذلك سوف نتناول في هذا المطلب المقصود بنظرية الظروف الطارئة وأساسها القانوني وسطلة القاضي الإداري في تطبيق هذه النظرية على النحو الاتي:

الفرع الأول

ماهية الظروف الطارئة

الظروف الطارئة هي عبارة عن أحداث غير عادية وغير متوقعة، ولا دخل لإرادة المتعاقدين فيها، ويكون من شأنها إن لم تجعل تنفيذ مستحيلًا وزيادة أعباء المتعاقد وقلب اقتصاديات العقد بشكل كبير، بزيادة تكلفة التنفيذ بما يخرج عن المألوف وبسبب المتعاقد خسارة غير عادية.[29]

ونظرية الظروف الطارئة أخذ بها المشرع الليبي فقد نصت (المادة 147) من قانون المدني الليبي على أنه " إذا طرأت حوادث استثنائية عامة لم يكن في الوسع توقعها، وترتب على حدوثها أن تنفيذ الالتزام التعاقدي وأن لم يصبح مستحيلًا صار مرهقًا للمدين بحيث يهدده بخسارة فادحة جاز للقاضي تبعًا للظروف وبعد الموازنة بين مهمة الطرفين أن يرد الالتزام إلى الحد المعقول ويقع باطلًا كل اتفاق يخالف ذلك"[30]

كما ورد النص على هذه النظرية في لائحة العقود الإدارية النافذة حيث نصت (المادة 105) على أنه " إذا طرأت ظروف استثنائية عامة لا يمكن دفعها ولم يكن في الوسع توقعها وكان من شأنها أن تجعل تنفيذ الالتزام مرهقًا يهدد المتعاقد بخسارة فادحة دون أن يصبح مستحيلًا كان للمتعاقد الحق في التعويض ويرد التوازن المالي إلى الحد المعقول، فإذا أستمر قيام الظروف ولم يرجح زوالها جاز أنهاء العقد بناًء على طلبه."[31]

كما أن نظرية الظروف الطارئة على النحو المعمول به في نطاق القضاء الإداري، هي من وضع مجلس الدولة الفرنسي، وقد صدر حكما شهيرا في 30 مارس 1916م في (قضية غاز بوردو).

(28) د. عبد العزيز عبدالمنعم خليفة، الأسس العامة للعقود الإدارية، دار محمود للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2015، ص158.

(29) د. عبد العزيز عبدالمنعم خليفة، تنفيذ العقد الاداري وتسوية منازعاته قضاء وتحكيما، منشأة المعارف للناشر، الاسكندرية، سنة 2014، ص188.

(30) المادة 148 من القانون المدني الليبي.

(31) المادة 105 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا، رقم 563، سنة 2007، الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقا.

وحاصل وقائع هذا النزاع أن إحدى الشركات كانت ملتزمة بتوريد الغاز لمدينة (بوردو)، وعقب نشوب الحرب العالمية الأولى ارتفعت أسعار الفحم، وهو المادة الرئيسية التي يستخرج منها الغاز إلى أكثر من ثلاث أمثالها.

فقد كان ثمن طن الفحم عند إبرام العقد سنة 1904م (23) فرنكا وارتفع سنة 1916م إلى أكثر من (73) فرنكا، بحيث أصبح تنفيذ الشركة لالتزامها مرهقا لدرجة لم يكن في الوسع توقعها. فلما رفع الأمر (2) إلى مجلس الدولة، قضى بأن يدفع للشركة تعويض على أثر تلك الظروف الطارئة على العقد بسبب تأثيرها على التزام الشركة في تولي إدارة المرفق العام حتى نهاية المدة المقررة في العقد.

هكذا نشأت نظرية الظروف الطارئة لمواجهة أزمة مؤقتة تطرأ أثناء تنفيذ العقد، فهي مخصصة لتدارك موقف خارج عن النطاق التعاقدي على نحو ما درج مجلس الدولة الفرنسي على التعبير عنه فهي ظروف غير تعاقدية تطرأ أثناء تنفيذ العقد.

غير أن الموقف غير التعاقدي لا يعني مجرد أزمة يتعرض لها المتعاقد، وإنما هو موقف غير عادل واستثنائي ينطوي على قلب اقتصاديات العقد.[32]

الفرع الثاني

الأساس القانوني لنظرية الظروف الطارئة

تشعبت الآراء حول الأساس القانوني الذي تقوم عليه نظرية الظروف الطارئة فكل منها ذهب إلى:

أولًا: فكرة التوازن المالي للعقد:

يرى البعض من الفقه أن أساس التعويض الذي يحصل عليه المتعاقد المضرور وفقًا لنظرية الظروف الطارئة هو فكرة التوازن المالي للعقد والتي تفرض ضرورة تحقيق التناسق بين الالتزامات التي يفرضها العقد الإداري على المتعاقد مع الإدارة وما ينتظره من ربح باعتبار أن العقد الإداري يؤلف نصوصه كلًا من مقتضاه قيام تلازم بين مصالح الطرفين[33].

ولقد انتقد الكثير من الفقهاء هذا الرأي لكون النظرية تشترط قلب اقتصاديات العقد وليس مجرد الإخلال بالتوازن المالي والتعويض بناًء على هذه

(32) حكم مجلس الدولة الفرنسي، جلسة 1916-3-30م في قضية بوردو، راجع : د. حمد محمد الشلماني، امتيازات السطلة العامة في العقد الإداري في التشريع الليبي، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، سنة 2007م، ص308-309.

(33) د. عبد العظيم عبدالسلام، أثر الظروف الطارئة والصعوبات المادية على تنفيذ العقد الإداري، دار الولاء للطبع والتوزيع، سنة 1990، ص 61.

النظريــة جزئــي ومؤقــت ولا يشــمل كل الأضرار التــي تصيــب المتعاقــد.[34]

ثانيا: فكرة النية المشتركة للطرفين.

يــرى البعــض الفقهــاء وعــلى رأســهم الفقيــه "بونــار" أن التعويــض الــذي يحكــم بــه في حالــة تطبيــق نظريــة الظــروف الطارئــة إنمــا يســتند إلى الإرادة المشــتركة لطــرفي العقــد باعتبــاره أمــرًا يتفــق مــع مــا انصرفــت إليــه نيــة الطرفــين ضمنيــا أثنــاء إبــرام العقــد.[35]

ثالثا: فكرة العدالة.

أعتمــد رأي بعــض الفقهــاء في تأســيس هــذه النظريــة عــلى فكــرة العدالة اســتهداء بمــا يقــول بــه فقهــاء القانــون الخــاص ومبنــى هــذا الــرأي أنــه ليــس مــن العدالــة في شيء أن يلــزم أحــد طــرفي العقــد بتنفيــذ التــزام أصبــح أشــد إرهاقًــا وأكثــر تكاليفــاً عــلى وجــه تجــاوز إلى حــد بعيــد مــا قــدره المتعاقديــن عنــد إبــرام العقــد.[36]

رابعًا: فكرة طبيعة العقد الإداري واتصاله بالمرفق العام.

يذهــب الــرأي الراجــح في فقــه القانــون العام إلى تأســيس نظريــة الظــروف الطارئة عــلى فكــرة طبيعــة العقــد الإداري وصلتــه بالمرفــق العــام وبمــا أن العقــد الإداري يتســم بخصائــص لا تصادفهــا في العقــود المدنيــة، مــن أبرزهــا حــق الإدارة في تعديلهــا، كمــا أنهــا تــبرم عــادة لمــدة طويلــة وبالأخــص حيــث كانــت عقــود الالتــزام هــي أكثــر العقود شــيوعا، ومــن شــأن امتدادهــا في الزمــان أنــه كثــيرا مــا تتغــير خلالهــا الظــروف التــي نشــأ فيهــا العقــد وتبــدو النصــوص العقديــة عاجــزة عــلى مواجهــة الظــروف الجديــدة بمــا يجعــل أســاس تنفيــذ العقــد مغايــرًا لذلــك الــذي نشــأ فيــه.[37]

ومــن خــلال مــا تقــدم يــرى الباحــث إن الأســاس القانونــي لنظريــة الظــروف الطارئــة يرجــع إلى الطبيعــة الذاتيــة للعقــود الإداريــة التــي في أساســها تقــوم عــلى فكرة العدالــة والمصلحــة العامــة والتــوازن بــين مصالــح الإدارة في تســيير مرافقهــا وهــدف المقــاول مــن إبــرام العقــد وهــو الربــح.

لذلــك عندمــا تواجــه المقــاول في عقــد الأشــغال العامــة ظروفــاً معينــاً يمكــن أن تــؤدي إلى التأثــير عــلى الهــدف الــذي أبــرم العقــد مــن أجلــه وهــو الربــح.

وهنــا يجــب عــلى جهــة الإدارة مــد يــد العــون للمقــاول وتســاعده جزئيــا بقيمــة التعويــض الــذي يفصــل بــه القضــاء.

الفرع الثالث

سلطة القاضي الإداري في مواجهة تطبيق نظرية الظروف الطارئة

(34) د. عــلي بــن عبدالكريــم الســلويلم، فكــرة تــوازن المــالي للعقــد الإداري، رســالة دكتــوراه، كليــة الحقــوق جامعــة عــين شــمس، ســنة 2007، ص 89.

(35) د. ابراهيم محمد علي، د. جمال عثمان جبريل، العقود الإدارية، مطبعة الأخوة الأشقاء، مصر، سنة 1996،ص690.

(36) د. عبد العظيم عبدالسلام، أثر الظروف الطارئة والصعوبات المادية على تنفيذ العقد الإداري، مرجع سابق، ص 96.

(37) د. مفتــاح خليفــة، د. حمــد الشــلماني، العقــود الإداريــة وأحــكام ابرامهــا، دار المطبوعــات الجامعيــة، الاســكندرية، ســنة 2008، ص 275.

قد سمحت الفرصة للمحكمة العليا في العديد من المناسبات لتطبيق هذه النظرية، ففي حكمها الصادر بتاريخ 1980/1/9 تقول المحكمة العليا " إذا حدث أثناء تنفيذ العقد الإداري إن طرأت ظروف أو أحداث لم تكن متوقعة عند إبرام العقد وإذا كان من شأن هذه الظروف أو الأحداث أنها لم تجعل تنفيذ العقد مستحيلاً بل أثقل عبئاً وأكثر كلفة مما قدره المتعاقدان التقدير المعقول وكانت الخسارة الناشئة عن ذلك تتجاوز الخسارة المألوفة العادية التي يتحملها أي متعاقد إلى خسارة استثنائية وغير عادية، جاز للقاضي تبعا للظروف بعد الموازنة بين مصلحة الطرفين أن يرد الالتزام المرهق إلى الحد المعقول. ولا يجوز للطرفين الاتفاق على ما يخالف ذلك، باعتبار أن نظرية الظروف الطارئة من الأمور المتعلقة بالنظام العام،لا فرق في ذلك بين العقود الإدارية وعقود القانون الخاص ويتعين على المحكمة التزام حكمها من تلقاء نفسها ودون حاجة إلى التمسك بها من جانب المدين (المتعاقد). وقيام الحرب يعتبر من قبيل الظروف الطارئة التي يترتب عليها أنه إذا أصبح تنفيذ الالتزام مرهقاً كان على الإدارة أن تساهم مع المتعاقد في تحمل النتائج المترتبة على ازدياد الأعباء الناشئة عن تلك الظروف ".[38]

المطلب الثاني

شروط تطبيق نظرية الظروف الطارئة وأثارها في عقد الأشغال العامة

يستلزم لتطبيق نظرية الظروف الطارئة أن تطرأ خلال مدة تنفيذ العقد الإداري، حوادث أو ظروف طبيعة أو اقتصادية أو من جهة إدارية غير الجهة المتعاقدة، أو من أي انسان اخر، لم تكن في حسبان المتعاقد وقت إبرام العقد ولا يملك دفعها بحيث يكون من شأنها أن تنزل به خسائر فادحة تختل معها اقتصاديات العقد اختلالًا جسيمًا.[39]

الفرع الأول

شروط تطبيق نظرية الظروف الطارئة

وفقًا لما استقر عليه قضاء مجلس الدولة فإن أعمال نظرية الظروف الطارئة في مجال تنفيذ العقود الإدارية يتطلب توافر الشروط الأتية:

أولًا: وقوع الظروف الطارئة خلال مدة تنفيذ العقد الإداري.

مناط التعويض الذي تتحمل به الإدارة مساهمة فيما لحق المتعاقد معهًا من ضرر أن يؤدي الظروف الطارئة إلى أحداث ذلك الضرر، ويتعين ألا يكون من شأنه وقوع ذلك الظرف جعل تنفيذ الالتزام مستحيلًا لأن ذلك يكون من شأنه فسخ العقد، حيث لا تكليف بمستحيل ومن ثم فيكفي لتطبيق النظرية أن يكون تنفيذ الالتزام في ظل قيام الظرف الطارئ ممكنًا ألا أن من شأنه تحميل المتعاقد

(38) طعن إداري رقم 31 لسنة 24 قضائية بتاريخ 9 / 1 / 80 19م.م.ع السنة السادسة عشر، العدد الثالث، ص16.

(39) د. عبد العزيز عبدالمنعم خليفة، تنفيذ العقد الاداري وتسوية منازعاته قضاء وتحكيما، مرجع سابق، ص 190.

مـع الإدارة بخسـائر فادحـة.[40]

ثانياً : أن يكون الظرف الطارئ مستقلاً عن إرادة المتعاقدين.

لا يسـتطيع المتعاقـد مـع الإدارة إثـارة نظريـة الظـروف الطارئـة الا إذا كان العنـصر الـذي أدى إلى انقـلاب في اقتصاديـات العقـد أجنبيـاً عنـه وخارجـاً عـن إرادتـه وهـذا معنـاه الا يكـون للمتعاقـد يـداً في أحـداث الظـرف الطـارئ سـواء عمـداً أو نتيجـة إهمـال منـه، أو أن يكـون المتعاقـد قـد قـصر في دفـع الخطـر ببـذل الجهـود اللازمـة لتوقـي الظـروف الطارئـة أو النتائـج المترتبـة عليـه [41]

أمـا إذا كان الظـرف الطـارئ مـن صنـع الإدارة المتعاقـدة مثـل قيامهـا بأشـغال عامـة ترتـب عليهـا أضرارًا للمتعاقـد معهـا، فإنهـا تسـأل عنهـا وفقـاً لنظريـة فعـل الأمـير وإذا أهمـل العقـد تنظيمهـا وإذا كان الظـرف الطـارئ نتيجـة خطـأ الإدارة أو إهمالهـا، فإنهـا تسـأل عنـه وفقـاً لنـوع الخطـأ، والـذي يـؤدي الى فسـخ العقـد وتعويـض المتعاقـد عنـه مثـل حالـة خـروج الإدارة المتعاقـدة عـلى القيـود الخاصـة بتعديـل العقـود الإداريـة كل هـذا وفقـاً لقواعـد المسـؤولية التعاقديـة مـع الإدارة. [42]

ثالثاً : أن يكون الظرف الطارئ غير متوقع ولا يمكن دفعه.

هـذا الـشرط يعتـبره الأسـتاذ الدكتـور سـليمان الطمـاوي جوهـر هـذه النظريـة وذلـك ان كل العقـد يحمـل في طياتـه بعـض المخاطـر، وكل متعاقـد حـذر يقـدر هـذا المخاطـر ويزنهـا عنـد ابـرام العقـد فـإذا قـصر في ذلـك فعليـه أن يتحمـل وزر تقصـيره، أمـا مـا يجـب أن يؤمـن المتعاقـد ضـده، فهـو الظـرف الـذي يفـوق كل تقديـر يمكـن أن يتوقعـه الطرفـان المتعاقـدان يتفـرع عـلى كـون الحـادث غـير متوقـع أنـه لا يمكـن دفعـه، ذلـك أن الحـادث الـذي لا يسـتطاع دفعـه يسـتوي في شـأنه أن يكـون متوقعـاً أو غـير متوقـع. [43]

رابعاً : أن يؤدي الظرف الطارئ إلى الإخلال بالتوازن المالي للعقد.

بالإضافـة الى مـا سـبق مـن شروط نجـد أن الفقـه والقضـاء في فرنسـا ومـصر تشـترطان لتطبيـق نظريـة الظـروف الطارئـة أن يـؤدي الظـرف الطـارئ إلى إلحـاق خسـائر فادحـة واسـتثنائية بالمتعاقـد مـع الإدارة تتجـاوز تلـك الخسـائر المعتـادة والمألوفـة في التعامـل وبحيـث تـؤدي هـذه الخسـائر الى قلـب اقتصاديـات العقـد رأسـاً عـلى عقـب بمـا يصبـح معـه قيـام المتعاقـد بتنفيـذ التزاماتـه التعاقديـة في ظـل وجـود هـذا الظـرف أمـراً مرهقـاً للغايـة بالنسـبة لـه، وان لـم يصبـح مسـتحيلاً، يسـتوي في ذلـك أن يكـون هـذا الظـرف الطـارئ نتيجـة لظـروف اقتصاديـة أو طبيعيـة أو إداريـة

(40) د. عبـد العزيـز عبدالمنعـم خليفـة، المسـؤولية التعاقديـة في تنفيـذ العقـود الإداريـة، منشـأة المعـارف للنـشر، الاسـكندرية، سـنة2011، ص 118- 119.

(41) د/احمد سلامة بدر،العقود الإدارية وعقد البوت T.O.B ، دار النهضة العربية،القاهرة سنة 2003، ص231.

(42) د/محمود عاطف النبأ،العقود الإدارية،مرجع سابق، ص304.

(43) د/مفتاح خليفه عبدالحميد،الأسس العامة للعقود الإدارية،مرجع سابق ص 201 – 202.

أو سياسيه طالما أدى في النهاية الى قلب اقتصاديات العقد[44]، وهذا ما أكدته نص (المادة 88) من لائحة العقود الإدارية الليبية النافذة على أنه (يستحق للمتعاقد المقابل المالي المتفق عليه وبالأسعار الواردة في العقد، ولا يستحق أية زيادة عن ذلك تنشأ عن ارتفعا أسعار السوق خلال مدة التنفيذ وذلك مراعاة عدم الإخلال بالحق في أي تعويض أو زيادة في المقابل يقررها العقد في حدود أحكام هذه اللائحة). [45]

مدى سطلة القاضي في الحكم بالتعويض دون الامتداد لتعديل العقد الاداري كونه غاية العقد الإداري حماية المصلحة العامة: يتولى القاضي رد الالتزام المرهق للمتعاقد الى الحد المعقول وذلك بتوزيع الاعباء المالية الناجمة عن الظروف الطارئة بين جهة الادارة والمتعاقد معها ويتمتع القاضي في هذا الشأن بسلطة تقديرية واسعة حيث بإمكانه ان بأخذ في الاعتبار عند توزيع الاعباء الجديدة الحالة المادية للمتعاقد، ومدى ما تم تنفيذه من العقد، غير ان الظروف الطارئة ليس من شأنها اعفاء المتعاقد مع الادارة من الاستمرار في تنفيذ العقد وذلك ضماناً لسير المرفق العام بانتظام واطراد. [46]

وهذا ما أشارت اليه المحكمة العليا في قرارها الصادر بتاريخ 2 / 4 / 80م حيث بعد أن أكدت على حق المتعاقد في حالة الظروف الطارئة في ان تساهم معه الادارة «بقدر معين حتى لا يتحمل وحده كل الغرم، فتعوضه عما يصيبه من أضرار حتى ولو لم يكن هناك خطأ من جانبها»، اشارت الى أن المتعاقد «لا يجوز له الامتناع عن تنفيذ العقد بحجة ان الادارة لم تجبه الى طلباته بالكامل لأن المتعاقد مع الادارة لا ينظر اليه باعتباره متعاقداً فحسب بل يتعين عليه ان يضع في الاعتبار صفته كمتعاون في تسيير المرافق العام وقاعدة سير المرافق العامة بانتظام واطراد تأبى ان يعطل المتعاقد اداء الخدمة ويتعين عليه لهذه الاعتبارات ان يستمر في التنفيذ مادام ذلك في استطاعته ثم يطالب جهة الادارة بالتعويض الذي يراه، فاذا امتنع عن التنفيذ كان لجهة الادارة ان تقوم بالتنفيذ على حسابه ولا يكون له الحق في التعويض عن الضرر الذي لحق به لأن الخطأ قد وقع بفعله» [47]

الفرع الثاني

أثار تطبيق نظرية الظروف الطارئة على عقد الأشغال العامة

تقع فكرة نظرية الظروف الطارئة في مركز وسط بين الحالة العادية

(44) د. منى حسين عبدالوهاب الفودري،اثر تطبيق نظرية الظروف الطارئة على تنفيذ العقد الإداري دراسة نظرية تطبيقيه بين مصر والكويت، رسالة دكتوراه،كلية الحقوق جامعة طنطا،سنة 2011،ص 158.

(45) المادة 88 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا الصادرة بقرار اللجنة الشعبية سابقاً رقم 563 سنة 2007.

(46) د. محمد عبدالله الحراري، أصول القانون الإداري الليبي، ج2، المركز القومي للبحوث والدراسات العلمية، ط4، طرابلس، سنة 2002م، ص 241 – 242.

(47) طعن إداري رقم 23، لسنة25 قضائية، بتاريخ 2 – 4 – 1980 م، م.م.ع. سنة السابع عشر، العدد الأول، ص24.

التي يتسنى للمتعاقد مع الإدارة الوفاء بالتزاماته التعاقدية من جهة، وبين حالة القوة القاهرة التي من شأنها اعفاء المتعاقد من التزاماته من جهة أخرى، ونظرية الظروف الطارئة بهذه المثابة، وعلى النحو الذي أرساه مجلس الدولة الفرنسي هي الحاكمة للآثار الناجمة عن النظرية،ومن ثم تترتب على توافر شروط تطبيق نظرية الظروف الطارئة الآثار التالية : [48]

أولاً : بقاء التزامات المتعاقد على حالها.

إن فكرة استمرار بقاء المتعاقد كما هي رغم وجود الظرف الطارئ هو أثر لفكرة المرفق العام، فالمتعاقد مع الإدارة يستهدف معاونتها في سبيل المصلحة العامة وهو ما يستوجب التزامه بالاستمرار في تنفيذ التزاماته العقدية متى كان ذلك في استطاعته، ولم يتحول الظرف الطارئ الى قوة قاهرة تحول دون التنفيذ.[49]

وهو ما أكدته فتوى الجمعية العمومية لقسمي الفتوى والتشريع بمجلس الدولة (إن التطبيق نظرية الظروف الطارئة على ما استقرت عليه شروط تطبيقها إفتاءً وقضاءً تفترض تحقيق خسارة فادحة تكون قد حاقت بالشركة على نحو تختل معها اقتصاديات العقد اختلالا جسيماً وليس مجرد تفويت فرصة الربح أو نقص الأرباح أو إلحاق بعض الخسائر العادية المألوفة في التعامل). [50]

ثانياً: التزام الإدارة بمعاونة المتعاقد معها:

نتيجة لالتزام المتعاقد مع الإدارة بالاستمرار في تنفيذ العقد رغم وجود الظرف الطارئ فإن على الإدارة هي الأخرى أن تلتزم تجاهه بتحمل جزء من الخسارة التي تعرض لها المتعاقد، بسبب الظروف الطارئة لمساعدته على تخطي هذه الظروف، ومن ثم استمراره في التنفيذ الذي يشكل في حد ذاته ضمانة لقيام المرفق العام بتقديم خدماته للجمهور بانتظام واطراد. [51]

فهدف نظرية الظروف الطارئة التي تقوم على فكرة العدالة المجردة هو الوصول الى المصلحة العامة وكفالة حسن السير للمرافق العامة بانتظام واطراد.[52]

وهو ما أكدته نص (المادة 105) من لائحة العقود الإدارية في ليبيا أنه (إذا طرأت ظروف استثنائية عامة لا يمكن دفعها ولم يكن في الوسع توقعها، وكان من شأنها أن تجعل تنفيذ الالتزام مرهقاً يهدد المتعاقد بخسارة فادحة دون أن يصبح مستحيلاً، كان للمتعاقد الحق في تعويض يرد التوازن المالي الى الحد المعقول فإذا استمر قيام هذه الظروف ولم يعد يرجى زوالها جاز انهاء العقد بناء على طلبه). [53]

(48) د/وهيب عياد سلامة،دروس في العقود الإدارية مع التعمق، دار النهضة العربية،القاهرة،، سنة 2011 ص 104.

(49) د. مطيع علي حمود جبريل،العقد الإداري بين التشريع والقضاء، دار النهضة العربية،القاهرة سنة 2006، ص 587.

(50) فتوى جمعية العمومية لقسمي الفتوى والتشريع بمجلس الدولة المصري،فتوى رقم 750 جلسة 2010-10-13 ملف رقم (47 -284-1) المبادئ الأساسية لجمعية العمومية واللجنة الثالثة الخاصة بالعقود، ص4.

(51) د/مال الله جعفر عبدالمالك الحمادي،حقوق وضمانات المتعاقد مع الإدارة والتحكيم في العقد الإداري،منشورات الحلبي الحقوقية،بيروت،لبنان،ط1،سنة 2014، ص737.

(52) د/صلاح الدين فوزي، المبسوط في القانون الإداري، مرجع سابق، ص 715.

(53) المادة 105 من لائحة العقود الإدارية في ليبيا الصادرة بقرار اللجنة الشعبية سابقاً، رقم 563، سنة 2007.

وإذا لم تستجب الجهة المتعاقدة مع وضوح النص، جاز للمتعاقد اللجوء للقضاء للحكم له بالتعويض على أساس توزيع الأعباء الجديدة التي خلقتها الظروف الطارئة بين الطرفين بشكل معقول.(54)

وكما أكدت المحكمة العليا الليبية في حكم لها بقولها (بأنه إذا حدث أثناء تنفيذ العقد الإداري وأن طرأت ظروف أو أحداث لم تكن متوقعه عند إبرام العقد، واذا كان من شأن هذه الظروف والأحداث أنها لم تجعل تنفيذ العقد مستحيلاً بأن اثقل عبئاً أو اكثر مما قدره المتعاقدان التقدير المعقول وكانت الخسارة الناشئة عن ذلك تتجاوز المألوفة العادية التي يتحملها أي متعاقد إلى خسارة استثنائية وغير عادية،جاز للقاضي تبعاً للظروف بعد الموازنة بين مصلحة الطرفين أن يرد الالتزام إلى الحد المعقول، ولا يجوز للطرفين الاتفاق على ما يخالف ذلك باعتبار أن نظرية الظروف الطارئة من الأمور المتعلقة بالنظام العام، لا فرق في ذلك بين العقود الإدارية وعقود القانون الخاص، ويتعين على المحكمة التزام حكمها من تلقاء نفسها ودون الحاجة إلى التمسك بها من جانب المدين " المتعاقد" وقيام الحرب يعد من قبيل الظروف الطارئة التي يترتب عليها أنه إذا أصبح تنفيذ الالتزام مرهقاً كان على الإدارة أن تساهم مع المتعاقد في تحمل النتائج المترتبة على ازدياد الأعباء الناشئة عن تلك الظروف)(55).

الفرع الثالث

الضوابط التي يتقيد بها القاضي للتحقيق التوازن المالي لعقد الاشغال العامة

يتعين على القاضي الإداري عند تقديره للتعويض المستحق للمتعاقد مع الإدارة أن يضع في اعتباره الأمور التالية:

1. تحديد بداية ونهاية الظرف الطارئ.

يكون كل من جهة الإدارة والمتعاقد معها في مركز خارج عن العقد المبرم بينهما عند مواجهة الظرف الطارئ – وهو ما يسمى بالفترة غير التعاقدية. حيث تبدأ هذه الفترة من التاريخ الذي تتجاوز فيه أعباء المتعاقد أقصى حدود الزيادة التي كان يمكن للأطراف المتعاقدة توقعها وقت إبرام العقد، وتنتهي بانتهاء الظرف الطارئ أو بتعديل شروط العقد بدفع التعويض أو بفسخ العقد إذا استمر الظرف الطارئ.

2. تقدير الخسارة التي لحقت بالمتعاقد جراء الظروف الطارئة.

ينبغي ألا يكون من شأن التعويض المستحق للمتعاقد مع الإدارة ربح له. تحقيق ربح له. حيث التعويض وفقاً لنظرية الظروف الطارئة لا يتناول ما فات المتعاقد من كسب، بل يقتصر على الخسارة التي لحقته جراء الظرف الطارئ، كما إنه لا يشمل الخسارة كلها، بل أن جزءاً منها يتحمله المتعاقد، والجزء الأكبر تتحمله جهة الإدارة،.

(54) د/خليفة صالح احواس، القانون الإداري الليبي الحديث، مكتبة طرابلس العلمية العالمية،ط2، سنة 2020، ص 264.

(55) حكم المحكمة العليا الليبية في الطعن الإداري رقم 31 لسنة 24 ق، جلسة 1-9 -1980، م،م،ع، السنة 16،العدد3 ص 16.

3. تقدير الأعباء الخارجية عن التعاقد (النفقات غير التعاقدية).

يتعين على القاضي أيضاً عند تقديره للتعويض المستحق للمتعاقد مع الإدارة، أن يضع في اعتباره الضوابط المتعلقة بتقدير الأعباء الخارجية عن التعاقد، مثل الأرباح التي حققها المتعاقد قبل قيام الظرف الطارئ، أو بعده، أو تلك التي حققها من مشروع آخر، أو تلك الخسائر التي تعرض لها قبل بداية الظرف الطارئ، أو تلك الخسائر الناتجة من إهمال المتعاقد وتقصيره، وغير ذلك من الضوابط سواء أكانت إيجابية أو سلبية في حق المتعاقد.

4. توزيع عبء الخسارة بين المتعاقد والإدارة.

رغم استقرار مجلس الدولة سواء في فرنسا أو في مصر على مبدأ توزيع الخسائر المترتبة على تحقق مشروع نظرية الظروف الطارئة، إلا أن قضائهما لا يجري على قاعدة موحدة وثابتة بشأن تحديد نسبة معينة يتحملها كل من جهة الإدارة والمتعاقد معها. (56)

الخاتمة

يتضح لنا من خلال هذا البحث الحق في إعادة التوازن المالي لعقد الأشغال العامة في ليبيا من خلال تطبيق نظرية الظروف الطارئة عدة نتائج وهي على النحو الآتي:

1. أن عقد الأشغال العامة والعقود الإدارية بصفة عامة تتميز عن العقود المدنية بطابع خاص أساسه احتياجات المرفق العام الذي استهدف العقد تسييره.
2. أن ما يميز عقد الأشغال العامة عن غيره من العقود الإدارية أنه يتعلق بعقار ويتم لحساب شخص عام يهدف تحقيق نفع عام.
3. يجب على المتعاقد الاستمرار في تنفيذ التزاماته المترتبة على العقد على الرغم من وجود الظرف الطارئ حتى يستفيد من نظرية الظروف الطارئة.
4. يقتصر حق المتعاقد مع جهة الإدارة في حالة الظروف الطارئة على الحكم له بالتعويض، كاستثناء على مبدا القوة اللازمة للعقد وأن التعويض أساسه العدالة لضمان التوازن المالي للعقد، ولا يملك القاضي الإداري سطلة تعديل العقد كما هو الحال بالنسبة للقاضي المدني الذي يملك بسلطة التعديل.

التوصيات.

1. ندعو المشرع الليبي أن يهتم بإصدار قانون ينظم أحكام العقود الإدارية بصفة عامة، باعتبارها اهم وسيلة تباشر بها الإدارة خطة التحول والإنماء الاجتماعي وليس كما هو معمول به الآن، فلو أمعنا النظر في لائحة العقود الإدارية الليبية النافذة لوجدناها قاصرة، والتحقق من شروط تطبيق نظرية الظروف الطارئة.
2. ندعو المشرع الليبي العمل على فك ارتباط دوائر القضاء الإداري بمحاكم الاستئناف

(56) د، مال الله جعفر عبدالملك الحمادي، حقوق وضمانات المتعاقد مع الغدارة والتحكيم في العقد الإداري، مرجع سابق، ص 739 – 742.

وإنشاء قضاء إداري مستقل متخصص ومؤهل لفض منازعات العقد الإداري.

3. إذا عزمت الإدارة على ممارسة حق التعديل، يجب يتقيد استعمال حقها مرتبطا بمبادئ استمرار سير المرافق العامة بانتظام واطراد، وبشرط أن لا يصل حد التعديل إلى فسخ العقد.
4. أذا منح المشرع جهة الإدارة امتيازات وسلطات تجاه متعاقد معه، فلابد من مقابل هذه الامتيازات المحافظة على التوازن المالي لعقد الأشغال العامة حتى لا تضرر المصلحة العامة التي هيا غاية المرافق العامة لابد التأكد قبل إبرام العقد من الظروف التي من الممكن أن تطرأ عليه وذلك لتفادي وقوع الظرف الطارئ الذي من الممكن ان يقع.
5. ضرورة سن التشريعات التي تنظم حالات الظروف الطارئة لحماية المرفق العام عند حدوث الظروف الطارئة.

المراجع

أولاً: الكتب القانونية.

1. د. إبراهيم محمد علي، د/ جمال عثمان جبريل، العقود الإدارية، مطبعة الاخوة الاشقاء، مصر، سنة 1996.
2. د. أحمد سلامة بدر، العقود الإدارية وعقد البوت B.O.T. دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 2003.
3. د. أنس جعفر، العقود الإدارية، دار النهضة، القاهرة، سنة 2003.
4. د. حليفة صالح أحواس، القانون الإداري الليبي الحديث، مكتبة طرابلس العالمية، ط2،سنة2020.
5. د. حمد محمد الشلماني، امتيازات السطلة العامة في العقد الإداري في التشريع الليبي، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، سنة 2007م.
6. د. سليمان محمد الطماوي، الأسس العامة للعقود الإدارية، دراسة مقارنة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط6، سنة 2013م.
7. د. شريف يوسف خاصر، مبادئ القانون الإداري دراسة مقارنة، دار النهضة العربية القاهرة، سنة 2009.
8. د. صلاح الدين فوزي المبسوط في القانون الإداري، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 2012 م.
9. د. عبدالعزيز عبدالمنعم خليفة، الأسس العامة للعقود الإدارية، دار محمود للنشر والتوزيع القاهرة، سنة 2015.
10. د. عبدالعزيز عبدالمنعم خليفة، المسؤولية التعاقدية في تنفيذ العقود الإدارية، منشاة المعارف للنشر، الاسكندرية، سنة 2011.
11. د. عبدالعزيز عبدالمنعم خليفة، تنفيذ العقد الإدارية وتسوية منازعاته قضاء وتحكيما، منشأة المعارف للنشر، سنة 2014.
12. د. محمد صلاح عبد البديع، الوسيط في القانون الإداري، الجزء الثاني، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 2004.
13. د. محمد عبدالله الحراري، أصول القانون الإداري الليبي، ج2، المركز القومي للبحوث والدراسات العلمية، ط4، طرابلس، سنة 2002م، ص 241 – 242.
14. د. محمود عاطف البنا، العقود الإدارية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، سنة 2007.
15. د. مفتاح خليفة، د/ حمد الشلماني، العقود الإدارية واحكام إبرمها، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، سنة، 2008.
16. د. مفتاح خليفة عبدالحميد، الأسس العامة للعقود الإدارية في ضوء لائحة العقود الإدارية الصادرة لسنة 2007، دار الفضيل للنشر، ليبيا، سنة 2012.
17. د. مفتاح خليفة عبدالحميد، الوجيز في القانون الإداري وفقاً للتشريعات السارية واحداث الأحكام القضاء الإداري، دار الفضيل للنشر، ليبيا، ط1، سنة 2020.
18. د. منصور محمد أحمد، العقود الإدارية مفهوم العقد الداري وقواعد أبرامة، الجزء الأول، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، سنة 2000.
19. د. وهيب عياد سلامة، دروس في العقود الإدارية مع التعفف، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 2011م.
20. د.مال الله جعفر عبدالمالك الحمادي، حقوق وضمانات المتعاقد مع الإدارية والتحكيم في العقد الإداري، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2014 م
21. عبدالعظيم عبدالسلام، أثر الظروف الطارئة والصعوبات المادية على تنفيذ العقد الإدارية، دار الولاء لطبع والتوزيع مصر، سنة 1990.

ثانيا: الرسائل العلمية.

1. أ. مريم محمد ساسي، التوازن المالي للعقد الإداري في القانون الليبي والمقارن، رسالة ماجستير، كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية، سنة 2016 م
2. د. علي بن عبدالكريم السلويلم، فكرة توازن المالي للعقد الإداري، رسالة دكتوراه، كلية الحقوق جماعة عين شمس، سنة 2007.

3. د. منى حسين عبدالوهاب الفودري، أثر تطبيق نظرية الظروف الطارئة على تنفيذ العقد الإداري، دراسة نظرية تطبيقية بين مصر والكويت، رسالة دكتوراه، كلية الحقوق، جامعة طنطا، سنة 2011.

ثالثاً: القوانين واللوائح.

1. القانون المدني الليبي.
2. لائحة العقود الإدارية في ليبيا رقم 563 لسنة 2007 الصادرة بقرار اللجنة الشعبية العامة سابقاً.

رابعاً: مجموعة الاحكام القضائية والفتاوي.

1. مجلة المحمة العليا الليبية لسنة 19 العدد 4.
2. مجلة المحمة العليا الليبية لسنة 16 العدد 3.
3. المبادئ الأساسية لجمعية العمومية واللجنة الثالثة الخاصة بالعقود.
4. مجموعة المبادئ القانونية التي قررتها محكمة القضاء الإداري المصري الصادرة عن المكتب الفني بمجلس الدولة السنة الحادية عشر.
5. طعن إداري رقم 31 لسنة 24 قضائية بتاريخ 9 / 1 / 80 19م.م.ع السنة السادسة عشر، العدد الثالث، ص16
6. طعن إداري رقم 23، لسنة25 قضائية، بتاريخ 2 – 4 – 1980 م، م.م.ع. سنة السابع عشر، العدد الأول.
7. حكم المحكمة العليا الليبية في الطعن الإداري رقم 31 لسنة 24 ق،جلسة 1-9 1980-، م،م،ع، السنة 16،العدد 3.

كفالة حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية في الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان العالمية والإقليمية (دراسة مقارنة)

إعداد:
د. جبريل عوض موسى جبريل
أستاذ مساعد/ كلية القانون – جامعة بنغازي

الاستلام : 12/ 1/ 2023 القبول : 13/ 2/ 2023

المستخلص:

إن المشاركة في الحياة السياسية حق من حقوق الإنسان الأساسية المعترف بها في العديد من المعاهدات الدولية لحقوق الإنسان بدءاً من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي ينص على المشاركة في الحكومة والانتخابات الحرة والحق في المشاركة في الحياة الثقافية للمجتمع والحق في التجمع السلمي وتكوين الجمعيات والحق في الانضمام إلى النقابات العمالية والحق في التعبير عن الرأي. كما أن المشاركة هي أيضًا مبدأ أساسي لحقوق الإنسان، وشرط أساسي للمواطنة الديمقراطية الفعالة لجميع أفراد المجتمع.

الكلمات المفتاحية: (الحقوق – تقييد – تعطيل - انتخابات – الحكومة).

Summary:

Participation in political life is a basic human right recognized in many international human rights treaties, starting with the Universal Declaration of Human Rights, which provides for participation in governance, free elections, the right to participate in the cultural life of society, the right to peaceful assembly and association, and the right to join trade unions and the right to express an opinion. Participation is also a fundamental principle of human rights, and a prerequisite for effective democratic citizenship for all members of society.

Key words: (Rights – Restriction – Disable – Elections – The government).

تقديم:

يمثل حق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية مصدر قلق للأنظمة الدكتاتورية التي ترفض إقامة الديمقراطية. ومن ثم، فهي تضع القيود على ممارسة الأفراد لذلك الحق، وتسعى إلى منع الأفراد من مشاركتهم في إدارة شؤون الحكم. وعلى الصعيد الدولي، اهتم المجتمع الدولي بحق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية وعنى بأهمية تمتع الأفراد بهذا الحق لما له من دور في إرساء قواعد الديمقراطية، لذا فقد ضمنته أغلب اتفاقيات حقوق الإنسان العالمية منها والإقليمية، وكفلت للأفراد حق المشاركة ومنعت جور الدول على ذلك الحق[1]. وبالنظر إلى أهمية كفالة حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية، كان ذلك دافعًا لاختيار هذا الموضوع وبحثه والذي سنقدمه من خلال النقاط التالية:

مشكلة البحث:

تعد مسألة مشاركة الأفراد في الحياة السياسية مسألة مهمة على الصعيد الدولي، فقد أصبحت المشاركة حقًا أساسيًا من حقوق الإنسان وضمنته العديد من الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان العالمية والإقليمية، الأمر الذي يلزم الدول الموقعة على تلك الاتفاقيات بإدراج هذا الحق في دساتيرها الوطنية والعمل بما يتفق وذلك الحق لضمان ممارسة الأفراد لحقهم في الحكم. ولكن وللحقيقة، إن بعض الاتفاقيات العالمية والإقليمية أجازت للدول الموقعة عليها أن تتحلل من التزاماتها بكفالة هذا الحق في الظروف الاستثنائية، وهو أمر خطير نظرًا لأهمية هذا الحق في مثل هذه الظروف، وما يستتبعه من ضرورة كفالة حق الترشيح والانتخاب والتزام الدول بإجراء انتخابات حرة ونزيهة تكفل للأفراد مباشرة شؤون البلاد عن طريق ممثلين يختارونهم بحرية. وهذه هي مشكلة البحث.

أهمية البحث :

يُعد حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية بمثابة المقياس الحقيقي للديمقراطية، فهو المعبر عن إرادة المواطنين ومدى شعورهم بممارسة حقوقهم السياسية، ودليل على مدى الحرية التي يتمتع بها الأفراد في المجتمع وقدرتهم على مشاركة الحكام في اتخاذ القرار سواء في الظروف العادية أو الاستثنائية.

أهداف البحث:

يمكن توضيح أهداف البحث من خلال النقاط التالية:

أ. بيان للجهود العالمية والأقليمية التي كفلت حق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية.

ب. بيان للقيود التنظيمية التي وردت في الاتفاقيات الدولية وإعلانات الحقوق التي كفلت للأفراد ذات الحق لمباشرته في أجواء تساعد على ذلك ووفقًا لظروف ومقتضيات الحال داخل الدولة.

(1) أ. إبراهيم منتصر عبد السلام: الضمانات الدولية والدستورية لحماية حق المواطن في المشاركة في إدارة شؤون بلاده. دار النهضة العربية، القاهرة. 2019. ص33.

منهج البحث :

المنهج هو الخطوات التي يسير عليها العقل الإنساني لاكتشاف الحقيقة أو إثباتها. لذلك اعتمد الباحث في دراسته لموضوع كفالة حق المشاركة في الحياة السياسية على المنهج التاريخي والمنهج الوصفي المقارن.

خطة البحث:

انطلاقًا من الأهداف السابق ذكرها، سنتناول موضوع كفالة حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية في الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان العالمية والإقليمية من خلال مطالبين، على النحو التالي:

المطلب الأول: الكفالة العالمية والإقليمية لحق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية.

المطلب الثاني: القيود العالمية والإقليمية على حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية.

المطلب الأول

الكفالة العالمية والإقليمية لحق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية

كفلت الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان العالمية والإقليمية حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية وإدارة شؤون بلادهم. وعليه، نقسم هذا المطلب إلى فرعين، على النحو التالي:

الفرع الأول: الكفالة العالمية لحق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية.

الفرع الثاني: الكفالة الإقليمية لحق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية.

الفرع الأول

الكفالة العالمية لحق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية

لا خلاف على أن ميثاق الأمم المتحدة[2] يُعد نقلة جوهرية في مجال الاعتراف بحقوق الإنسان الأساسية بعد أن مرت هذه الحقوق بصراعات عصفت بها وخلقت شعورًا لدى المجتمعات البشرية بأن هذا هو حكم الغاب وهو الحكم الذي سوف يسود.

ومن دراسة نصوص الميثاق نجد أن هناك تغيرات أحدثها وتطورات قدمها في مجال النهوض بحقوق الإنسان وحرياته الأساسية، وما حققه من نجاحات في تحويل الأفراد من مجرد رعايا يساقون من قبل السلطة الحاكمة على المجهول كالقطعان، إلى مواطنين لهم حقوق وحريات سياسية تكفل لهم الحق في المشاركة في الشؤون العامة لمجتمعاتهم، والاعتراف بالشخصية الدولية للأفراد لتحقيق الحماية الدولية لهم، وضمان حقوقهم الأساسية[3]. وقد أحدث تطور التنظيم الدولي في العصر الحالي تطورًا ملحوظًا في طبيعة النظم السياسية وجعلها أكثر ديمقراطية بما ينعكس على تعزيز حق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية وفي إدارة الشؤون العامة للدول.

(2) صدر ميثاق الأمم المتحدة بمدينة سان فرانسيسكو في يوم 26 يونيو 1945. راجع د. عبد الفتاح مراد: موسوعة حقوق الإنسان. شركة البهاء للبرمجيات والكمبيوتر والنشر الإلكتروني، الإسكندرية. بدون تاريخ نشر. ص741 وما بعدها.

(3) Lan Brownile ,Principles of public intemational law 4 ,edition ,clarendon Oxford university press ,U.S.A, 1990pp.553-561 .

وللوهلة الأولى، يبدو أن ظاهر نصوص الميثاق لا تتعلق بشكل مباشر بحق الأفراد في المشاركة في الشؤون العامة، إلا أن تحليل هذه النصوص وإدراك أبعادها الحقيقية المباشرة وغير المباشرة يؤكد وبدون شك على أن نية واضعوا الميثاق قد اتجهت لترسيخ الديمقراطية بما تعنيه من اعتراف للشعوب بحق تقرير مصيرها والمشاركة في رسم سياساتها وإدارة شؤونها، حيث ربطت ديباجة الميثاق بين إنقاذ الأجيال المقبلة من ويلات الحروب وبين التأكيد من جديد على ضرورة الإيمان بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء، والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية[4].

وليس هناك من شك في أن التأكيد على أهمية وجود أنظمة ديمقراطية في جميع الدول يعني بالضرورة الحرص على تأكيد حق كل فرد في المشاركة في الشؤون العامة لبلاده، والبعد الحقيقي لحق تقرير المصير الوارد في الميثاق بما يعنيه من حكم ديمقراطي وحق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية قد أصبح أكثر أهمية في الوقت الراهن، لأنه لم يعد هناك وجود حقيقي ظاهر للاستعمار الدولي بمعناه التقليدي، في الوقت الذي لا تزال الكثير من الشعوب تعاني من استعمار حكامها واستيلاء وظلم أنظمتها السياسية التي لا تعترف لمواطنيها بحقهم في المشاركة في الشؤون العامة لبلادهم[5].

وتأسيسًا على ما تقدم، سنتطرق لكفالة حق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون بلدانهم في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ثم في العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، على النحو التالي:

أولًا: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان[6]:

اهتم الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بحق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون بلدانهم وقد نصت صراحة على ذلك المادة (21) من الإعلان على أنه :(1 – لكل شخص حق المشاركة في إدارة الشؤون العامة لبلاده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون اختيارًا حرًا. 2 – ... 3 – إرادة الشعب هي مناط سلطة الحكم، ويجب أن تتجلى هذه الإرادة من خلال انتخابات نزيهة تجري دوريًا بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة بين الناخبين، وبالتصويت السري وبإجراء مكافئ من حيث ضمان حرية التصويت)[7].

ويتضح من النص مدى اهتمام واضعوا الإعلان بالحق في المشاركة في إدارة الشؤون العامة سواء بطريقة مباشرة أو عن طريق ممثلين يختارهم اختيارًا حرًا لكي يقوموا بممارسة ذلك الحق عنهم. وقد عبرت الجمعية العامة للأمم

(4) الفقرتان1،2 من ديباجة ميثاق الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. راجع د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص742.

(5) أ. إبراهيم منتصر عبد السلام: المرجع السابق. ص35.

(6) اعتمد ونشر على الملأ بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 217 ألف (د-3) المؤرخ في 10 ديسمبر 1948. راجع د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص764 وما بعدها.

(7) المادة (21) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. راجع. د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص766.

المتحدة عن المفهوم الواسع لحق الأفراد في المشاركة في الشؤون العامة باعتبارها أكثر المؤسسات الدولية قدرة على التعبير عن الرأي العام العالمي أو الإرادة العامة للجماعة الدولية من خلال الإعلان العالمي لحقوق الإنسان[8].

ومن النص السابق أيضًا، نجد أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أكد على أن إرادة الشعب هي مناط سلطة الحكم، وفيها اعتراف بأن الشعب هو مصدر السلطة، وأن هذه الإرادة يجب أن تترجم على أرض الواقع من خلال انتخابات نزيهة تجري بصفة دورية منتظمة عن طريق الاقتراع العام، وبالمساواة بين الناخبين وبالتصويت السري أو بأي شكل آخر يضمن حرية التصويت.

والملاحظ أن اعتراف الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لحق الأفراد في المشاركة في إدارة شؤون البلاد جاء مرنًا بالشكل الملائم لاستيعاب جميع أنظمة الحكم وكافة الأبعاد المرتبطة بحق الأفراد في المشاركة في إدارة الشؤون العامة لبلادهم[9].

ويُعد حق المشاركة في إدارة شؤون البلاد حقًا أساسيًا من حقوق الإنسان في كل بلد من بلدان العالم، وترتبط مسألة الديمقراطية بحزمة حقوق الإنسان وحرياته الأساسية برباط لا ينفصل، فالديمقراطية تعتبر شرطًا لاحترام وتأمين منظومة حقوق الإنسان الكلية، حيث لا يتصور الحديث عن حقوق الإنسان أو حرياته له في مجتمع استبدادي لا يكفل حق المشاركة، ولا يمكن التضحية بحقوق الإنسان على حساب البعض الآخر[10].

وقد أصبحت المشاركة السياسية للمواطنين في بلادهم هي القاسم المشترك بين جميع الدول الديمقراطية وإن اختلفت طرق وأشكال هذه المشاركة، ذلك لأن الحياة الديمقراطية السليمة ترتكز على اشتراك المواطنين في تحمل مسؤوليات التفكير والعمل من أجل مجتمعهم فالمشاركة السياسية هي السياج الأمين للديمقراطية[11]. وللمشاركة السياسية أثر إيجابي على مستوى الفرد والسياسة العامة للدولة، فعلى مستوى الفرد تشعره بأهميته وثقل لوزنه السياسي وتربي فيه روح الانتماء لوطنه وتحمل مسؤولياته تجاهه، أما على مستوى السياسة العامة للدولة، حيث يكون القرار السياسي تحقيقًا لديمقراطية المشاركة[12].

ويتضح لنا مما تقدم، قيمة اعتراف الإعلان بحق الأفراد في المشاركة في إدارة شؤون البلاد لاسيما وأن الإعلان هو حجر الأساس لمعظم إعلانات الحقوق التي صدرت بعده، سواء على المستويين العالمي أو الإقليمي وحتى تلك التي صدرت في

(8) Bernard K .Gordan ,The UN General Assembly ,Government & Politics 2 Edition ,random house ,Inc ,New York ,1971 ,p.565 .

(9) Thomas P .Bernstein and others ,Government & politics 2 ,Edition ,under the editorship of john C .walke &Alwx N .Dragnich .Random house ,New York ,1971 ,p.656 .

(10) د. محمد نور فرحات: القانون الدولي لحقوق الإنسان. بحث منشور ضمن كتاب، الدليل العربي لحقوق الإنسان. تحرير محسن عوض. إصدار المنظمة العربية لحقوق الإنسان. 2005. ص67.

(11) د. صلاح الدين فوزي: الأنظمة السياسية وتطبيقاتها المعاصرة. دار النهضة العربية، القاهرة . 1985. ص370.

(12) د. داوود عبد الرازق داوود: حق المشاركة السياسية. رسالة دكتوراه. كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية. 1993. ص659.

هيئة مواد دستورية صادرة عن السلطات المحلية لبعض الدول[13].

ثانيًا: العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية[14]:

أفرد العهد الدولي للحقوق السياسية اهتمامًا خاصًا عند كفالته للحقوق بصفة عامة، حيث تضمنت كفالته للحقوق السياسية في حق الأفراد في مشاركة الحكام في إدارة شؤون الدولة وما يتفرع عنه من حقوق وما يرتبط ويؤدي إليه، وذلك من خلال مختلف الوسائل الديمقراطية للمشاركة كالانتخابات والاستفتاءات العامة ومن خلال أحزاب سياسية تكفل حرية الممارسة الديمقراطية والمشاركة في الحكم. كما يتطلب ذلك أيضًا، الحق في حرية الرأي والتعبير والتجمع السلمي والعديد من الحقوق السياسية التي تصب في بوتقة الديمقراطية[15].

وعن الحق في المشاركة في الحياة السياسية جاء النص في المادة (25) من العهد الدولي على أنه:(يكون لكل مواطن، دون أي وجه من وجوه التمييز المذكورة في المادة (2) الحقوق التالية التي يجب أن تتاح له فرصة التمتع بها دون قيود غير معقولة:(أ- أن يشارك في إدارة الشؤون العامة، إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون في حرية ب- أن ينتخب ويُنتخب، في انتخابات نزيهة تجري دوريًا بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة بين الناخبين وبالتصويت السري، تضمن التعبير الحر عن إرادة الناخبين)[16].

وجاء هذا النص على غرار نص المادة (21) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مع اختلاف شكلي في الصياغة من حيث التقديم والتأخير وهو الشيء المغاير بين النصين تقريبًا، فقد استهلت المادة (25) من العهد الدولي بتمهيد لم يرد في المادة (21) من الإعلان العالمي ينطوي على تأكيد على المساواة بين جميع المواطنين ورفض التمييز بينهم في ممارسة هذا الحق الذي أقرته المادة (2) من العهد الدولي والتي أشير إليها في هذا التمهيد للنص على ذلك بشكل عام وتفصيلي يسري حكمه على جميع النصوص اللاحقة.

ويستفاد من المادة (25) من العهد الدولي ما هو مستنتج من المادة (21) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، حيث كفل العهد أيضًا حق الأفراد في المشاركة في إدارة الشؤون العامة سواء بأنفسهم أو عن طريق نواب عنهم، كما كفل لهم حق الانتخاب والترشيح في انتخابات تجري بصفة دورية بتصويت سري، ويحقق المساواة بين الناخبين حتى يمكن للأفراد التعبير الحر عن إرادتهم[17].

---

(13) J .G .Stark qc ,Introduction to international law 10 tenth edition ,Butteworths ,London .1989 ,p.364.

(14) اعتمد وعرض للتوقيع والتصديق والانضمام بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 2200 ألف (د-21) المؤرخ في 16 ديسمبر 1966 تاريخ بدء النفاذ: 23 مارس 1967، وفقاً لأحكام المادة 49. راجع د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص769 وما بعدها.

(15) ا. إبراهيم منتصر عبد السلام: المرجع السابق. ص39.

(16) المادة (25) من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية. راجع مؤلف د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص776.

(17) د. الشافعي محمد بشير: قانون حقوق الإنسان. مكتبة الجلاء الجديدة، المنصورة. 1998. ص219.

وتجدر الإشارة، إلى أن حق المشاركة لا يعني أن يترك أمر تحديد طريقة المشاركة سواء بالطريق المباشر أو غير المباشر للمواطنين أنفسهم، وإنما يخضع المواطنين في ذلك للنظام الدستوري للدولة والقانون السائد فيها وهو الذي ينظم إدارة شؤون البلاد بالطريق المباشر أو عن طريق نواب يختارهم بحرية[18].

الفرع الثاني

الكفالة الإقليمية لحق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية

نتناول في هذا الفرع الكفالة الإقليمية لحق المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد، ونتعرض فيه للاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان، والميثاق العربي لحقوق الإنسان، وذلك على النحو التالي:

أولًا: الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان :

أفردت الاتفاقية الأمريكية في بيانها لحق الأفراد في المشاركة في الشؤون العامة لبلادهم، نصًا خاصًا لكفالة هذا الحق تحت عنوان " حق المشاركة في الحكم ". حيث نصت المادة (23) من الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان على أنه:(1 - يتمتع كل مواطن بالحقوق والفرص التالية:(أ - أن يشارك في إدارة الشؤون العامة إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارون بحرية. ب- أن ينتخب ويُنتخب في انتخابات نزيهة تجرى دوريًا بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة بين الناخبين وبالتصويت السري، وتضمن التعبير الحر عن إرادة الناخبين...).

ووفقاً للمادة السابقة نجد أن الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان تكفل لكل مواطن الحق في أن يشارك في إدارة شؤون الدولة، كان ذلك بطريق مباشر أو عن طريق ممثلين عنه يختارهم بحرية. كذلك تكفل لكل مواطن في أن يتاح له الحق في انتخابات حرة نزيهة، يكون له فيها الحق أن ينتخب ويُنتخب على قدم المساواة بين جميع أفراد الوطن عن طريق الاقتراع السري الذي يضمن عدم تعرض إدارة الناخبين لثمة إكراه[19].

ثانيًا : الميثاق العربي لحقوق الإنسان[20]:

بعد تحديث مشروع الميثاق واعتماده في قمة تونس 2004 جاء الميثاق بشكل أكثر تقدميه وتطورًا لاسيما فيما يتعلق بالنص على حق كل فرد في المشاركة في الشؤون العامة، حيث ورد النص في المادة (24) [21] من الميثاق، على أنه:(لكل مواطن الحق في:(1 - ... 2 - المشاركة في إدارة الشؤون العامة إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارون بحرية. -3 ترشيح نفسه أو اختيار من يمثله بطريقة حرة ونزيهة وعلى قدم المساواة بين جميع المواطنين بحيث تضمن التعبير الحر عن إرادة المواطن...).

(18) ا. إبراهيم منتصر عبد السلام: المرجع السابق. ص43.

(19) راجع النص الكامل للاتفاقية د. محمود شريف بسيوني ومحمد السعيد الدقاق وعبد العظيم وزير: الوثائق العالمية والإقليمية. حقوق الإنسان. المجلد الأول. دار العلم للملايين، بيروت. 1988. ص343 وما بعدها.

(20) اعتمد من قبل القمة العربية السادسة عشرة التي استضافتها تونس 23 مايو 2004. راجع د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص443.

(21) المادة (24) من الميثاق العربي لحقوق الإنسان. راجع د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص448.

ومن النص يتضح أن الميثاق العربي لحقوق الإنسان كفل للمواطنين حق المشاركة في إدارة شؤون البلاد سواء كان ذلك بطريق مباشر أو عن طريق نواب عنه يختارهم لتمثيله في إدارة شؤون البلاد بدلًا منه، كما كفل لهم الحق في الترشيح والانتخاب، كما يكفل الميثاق أن تكون تلك الانتخابات حرة ونزيهة، وليس هناك ثمة ما يشوب العملية الانتخابية وما يضمن أيضًا المساواة بين جميع المواطنين دون تفرقة بينهم في الانتخابات[22].

المطلب الثاني

القيود العالمية والإقليمية على حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية

نتطرق من خلال هذا المطلب لبيان القيود العالمية والإقليمية على حق المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد المفروضة من خلال الاتفاقيات الدولية وإعلانات الحقوق التي كفلت للأفراد ذات الحق، والتي وضعت قيودًا تنظيمية لمباشرة ذلك الحق في أجواء تساعد على ذلك، ووفقًا لظروف ومقتضيات الحال داخل الدولة. وعليه، نقسم هذا المطلب إلى فرعين، على النحو التالي:

الفرع الأول: القيود العالمية والإقليمية على حق المشاركة في الظروف العادية.

الفرع الثاني: القيود العالمية والإقليمية على حق المشاركة في الظروف الاستثنائية.

الفرع الأول

القيود العالمية والإقليمية على حق المشاركة في الظروف العادية

بينا فيما سبق، أن الاتفاقيات الدولية وإعلانات حقوق الإنسان التي كفلت للأفراد الحق في المشاركة في الحياة السياسية لم تجعل هذا الحق طليقًا من ثمة قيود، وإنما وضعت بعض الضوابط التي تحد أحيانًا من ممارسة الأفراد لحقهم في المشاركة في الحياة السياسية، وسنتطرق لهذه القيود في الاتفاقيات الدولية وإعلانات حقوق الإنسان التي سبق تناولها، وذلك على النحو التالي:

أولًا: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

أطلق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الحقوق والحريات عند تنظيمه لها، ثم وضع قيدًا على ممارسة تلك الحقوق والحريات تمثل في المادة (29) منه، التي نصت على أنه:(1 – على كل فرد واجبات إزاء الجماعة التي فيها وحدها يمكن أن تنمو شخصيته النمو الحر الكامل. 2 – لا يخضع أي فرد، في ممارسة حقوقه وحرياته، إلا للقيود التي يقررها القانون مستهدفًا منها، حصرًا ضمان الاعتراف الواجب بحقوق وحريات الآخرين واحترامها، والوفاء بالعادل من مقتضيات الفضيلة والنظام العام ورفاه الجميع في مجتمع ديمقراطي. 3 – لا يجوز في أي حال أن تمارس هذه الحقوق على نحو يناقض مقاصد الأمم المتحدة ومبادئها)[23].

(22) ا. إبراهيم منتصر عبد السلام: المرجع السابق. ص59.

(23) راجع مؤلف د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص767 وما بعدها.

ومن صياغة المادة نجد أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يعترف بأن هناك واجبات على الأفراد تجاه المجتمع تتمثل في ضرورة احترام الحقوق والحريات الخاصة بالغير. ومن ثم، فإنه يجوز تقييد الحق في المشاركة في الحياة السياسية بقيود قانونية ينص عليها في القانون وفي مجتمع ديمقراطي وبشكل ضروري يحتمه حماية الأمن القومي للبلاد أو الصحة العامة أو الأخلاق العامة لمواطني الدولة أو حرياتهم الشخصية[24].

والجدير بالذكر، أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على الرغم من أنه أتاح وضع قيود على ممارسة الأفراد لحق المشاركة في الحياة السياسية، على نحو ما سبق ذكره، إلا أنه وبنص المادة (30) منه أكد على أنه ليس في هذا الإعلان أي نص يجوز تأويله على نحو يفيد انطواءه على تخويل أية دولة أو جماعة، أو أي فرد أي حق في القيام بأي نشاط أو بأي فعل يهدف إلى هدم أي من الحقوق والحريات المنصوص عليها فيه[25].

ومن ثم، فإن هذه المادة تتبرأ من أي نص قد يُفهم على أنه تقييد لحق الأفراد في ممارسة حقوقهم وحرياتهم الممنوحة لهم من قبل الإعلان.

ثانيًا: العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية:

لم يرد بالعهد الدولي نص مفاده وضع قيود على حق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد، وإنما ورد بالمادة (5) منه ما يفيد عدم إهدار هذه الحقوق، حيث نصت على أنه:(-1 ليس في هذا العهد أي حكم يجوز تأويله على نحو يفيد انطواءه على حق لأي دولة أو جماعة أو شخص بمباشرة أي نشاط أو القيام بأي عمل يهدف إلى إهدار أي من الحقوق أو الحريات المعترف بها في هذا العهد أو إلى فرض قيود عليها أوسع من تلك المنصوص عليها فيه. -2 لا يقبل فرض أي قيد أو أي تضييق على أي من حقوق الإنسان الأساسية المعترف أو النافذة في أي بلد تطبيقًا لقوانين أو اتفاقيات أو أنظمة أو أعراف بذريعة كون هذا العهد لا يعترف بها أو كون اعترافه بها في أضيق مدى)[26].

ومن النص السابقة نجد أن العهد الدولي يؤكد على عدم احتوائه على نص يفيد توافر الحق لأي فرد أو دولة القيام بأي عمل من شأنه إهدار الحقوق المنصوص عليها فيه، أو أن يفرض قيود أوسع من القيود الواردة فيه، بل النص ذاته أكد على عدم جواز فرض أي قيود على أي من الحقوق التي كفلها العهد استنادًا إلى قانون داخلي في أي دولة.

كذلك ورد بالمادة (46) من العهد الدولي ما نصه:(ليس في أحكام هذا العهد ما يجوز تأويله على نحو يفيد إخلاله بما في ميثاق الأمم المتحدة ودساتير

(24) د. عبد العزيز محمد سرحان: الإطار القانوني لحقوق الإنسان في القانون الدولي. دراسة مقارنة بالشريعة الإسلامية والدساتير العربية والاتفاقيات الدولية، وقرارات المنظمة الدولية، وأجهزة الرقابة الدولية على احترام حقوق الإنسان وأحكام المحاكم الوطنية (المصادر والحقوق). دار النهضة العربية، القاهرة. 1987. ص292.

(25) راجع مؤلف د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص768.

(26) المرجع السابق. ص771.

الوكالات المتخصصة من أحكام تحدد المسؤوليات الخاصة بكل من هيئات الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة بصدد المسائل التي يتناولها هذا العهد)[27].

ومن النص نجد أن العهد الدولي قد تبرأ من أي مادة فيه قد يتم تأويلها من البعض على أنها تفيد الإخلال بميثاق الأمم المتحدة ومما ورد به من حقوق وكذا الوكالات الدولية المتخصصة.

مما تقدم يتضح لنا، أن العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية لم يرد فيه ما يفيد بتقييد الحق في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد في الظروف العادية، وإنما على العكس من ذلك فإن العهد أورد نصوصًا مفادها تبرئته من أي مواد قد تُفهم بأنها تقيد بعض الحقوق فيه أكثر مما قيدها العهد.

ثالثًا: الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان:

لم يرد في الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان قيودًا خاصة على ممارسة الأفراد لحقهم في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون بلادهم، ومن ثم يظل هذا الحق في ظل الاتفاقية الأمريكية مطلقًا من كل قيد.

والجدير بالذكر، أن الاتفاقية الأمريكية أتاحت فقط للقانون أن ينظم ممارسة الحق في المشاركة في الشؤون العامة وحق الترشيح والانتخاب على أساس واحد فقط السن أو الجنسية أو المسكن أو اللغة أو الثقافة حيث جاء النص في الفقرة الثانية من المادة (23) من الاتفاقية على أنه:(1 - ... 2 - يمكن للقانون أن ينظم ممارسة الحقوق والفرص المذكورة في الفقرة السابقة، فقط على أساس السن والجنسية والمسكن واللغة والثقافة والأهلية المدنية والعقلية وقناعة القاضي المختص في دعوى جزائية). ومن ثم أجازت الفقرة السابقة للقانون أن ينظم فقط ممارسة الحقوق الواردة في الفقرة الأولى، على أن يكون ذلك التنظيم على أساس تحديد السن أو الجنسية أو المسكن أو اللغة أو الثقافة أو الأهلية المدنية والعقلية وقناعة القاضي المختص فقط، ولا يُعد ذلك قيدًا على ممارسة الأفراد لحقهم في المشاركة في الحكم.

وفي المادة (29) من الاتفاقية جاء النص على أنه:(لا يجوز تفسير أي نص من نصوص هذه الاتفاقية على أساس أنه:(-1 يسمح لدولة طرف أو جماعة أو فرد بوقف التمتع وممارسة الحقوق والحريات المعترف بها في هذه الاتفاقية أو تقييدها على حد أكبر مما هو منصوص عليه فيها. -2 يقيد التمتع وممارسة أي حق أو حرية معترف بها بموجب قوانين أية دولة طرف أو بموجب أية اتفاقية أخرى تكون تلك الدولة طرفًا فيها. -3 تستبعد الحقوق أو الضمانات الأخرى الملازمة للشخصية الإنسانية أو المستمدة من الديمقراطية التمثيلية بوصفها شكلًا من أشكال الحكم).

وعليه، فإن هذه المادة تمنع أن تفسر أي مادة من مواد الاتفاقية على

(27) المرجع السابق. ص782.

نحو يسمح بوجود ثمة قيود على الحقوق والحريات الممنوحة بالاتفاقية.

رابعًا: الميثاق العربي لحقوق الإنسان:

ورد النص في الفقرة السابعة من المادة (24) من الميثاق على أنه:(لا يجوز تقييد هذه الحقوق بأي قيود غير القيود المفروضة طبقًا للقانون والتي تقتضيها الضرورة في مجتمع يحترم الحريات وحقوق الإنسان لصيانة الأمن الوطني أو النظام العام أو السلامة العامة أو الصحة العامة أو الآداب العامة أو لحماية حقوق الغير وحرياتهم)[28].

ومن النص السابق يتضح أن الميثاق العربي يتطلب لتقييد الحق في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد، عدة شروط:-1 أن يتم النص على هذه القيود في القانون أو التشريع النافذ. -2 أن تكون القيود ضرورية في مجتمع يحترم الحريات وحقوق الإنسان. -3 أن تكون القيود ضرورية لصيانة الأمن الوطني أو النظام العام أو السلامة العامة أو الصحة العامة أو الآداب العامة أو لحماية حقوق الغير وحرياتهم. على أنه يجب مراعاة أنه عندما تفرض دولة طرف بعض القيود على ممارسة حق ما فلا يجوز أن تعرض هذه القيود الحق نفسه للخطر، بمعنى أنه ينبغي ألا تؤدي القيود إلى حظر ممارسته كليًة، كما ينبغي عدم التوسع في هذه القيود بتفسيرها على نحو ينتقص من الحقوق[29]. وكان الميثاق حريصًا على تأكيد ذلك المبدأ، حيث نص في المادة (43) منه على أنه:(لا يجوز تفسير هذا الميثاق أو تأويله على نحو ينتقص من الحقوق والحريات التي تحميها القوانين الداخلية للدول الأطراف أو القوانين المنصوص عليها في المواثيق الدولية والإقليمية لحقوق الإنسان التي صدقت عليها أو أقرتها بما فيها حقوق المرأة والطفل والأشخاص المنتمين إلى الأقليات)[30].

الفرع الثاني

القيود العالمية والإقليمية على حق المشاركة في الظروف الاستثنائية

عطلت الاتفاقيات العالمية والإقليمية حق المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد في الظروف الاستثنائية، إلا في بعض الاتفاقيات التي جعلت من الحق في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد من الحقوق التي لا يجوز تعطيلها حتى في الظروف الاستثنائية. وسنوضح ذلك على النحو التالي:

أولًا: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

جاء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بمثابة إقرار للحقوق والحريات التي ينبغي أن تستهدفها كافة الشعوب والأمم حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع إلى توطيد التزام هذه الحقوق والحريات واتخاذ إجراءات مطردة وطنية ودولية

(28) راجع مؤلف د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص448.

(29) د. وائل أحمد علام: الميثاق العربي لحقوق الإنسان. دراسة حول دور الميثاق في تعزيز حقوق الإنسان في جامعة الدول العربية. دار النهضة العربية، القاهرة. 2005. ص141.

(30) راجع مؤلف د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص452.

لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الأعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها[31].

ومن ثم، فإن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان جاء دون ثمة قيود على كافة الحقوق والحريات التي كفلها وبالتالي، فإن الإعلان لم يعرف الظروف الاستثنائية ولم يضع لها قواعد خاصة تجيز التحلل من أحكام الإعلان لما اشتمل عليه من حقوق وحريات.

ثانيًا: العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية:

مفهوم حالة الطوارئ في العهد الدولي تم تغييره في ضوء ما اقترح من لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في البداية، حيث تضمنت الصياغة في وقت الحرب أو الطوارئ العامة الأخرى[32]. وجرت مناقشات عدة حول هذا التعبير بعمق في اللجنة في دورات انعقادها التالية، وفي ضوء تلك المناقشات كانت الاختيارات الرئيسية للجنة على الوجه التالي:

أن الاستغناء عن إدراج لفظة (حرب) وارد بعد نشأة الأمم المتحدة التي من أغراضها منع الحرب، وأن الحرب أقصى درجة من درجات الطوارئ العامة. ومن ثم، فإن المادة الرابعة من العهد الدولي تنطبق عليها بالكامل، وجاءت الصياغة متفقة مع اقتراح المملكة المتحدة في شأن إدراج النص الخاص بشروط الاستثناء من تطبيق قواعد حماية حقوق الإنسان، وذلك لمنع الدول من الالتجاء إلى هذا النص لتخفف تعسفيًا التزاماتها باحترام حقوق الإنسان في زمن الحرب.

أن من قاموا بإعداد العهد وصياغته على هذا النحو فضلوا أن تكون الصياغة مرسلة وغير محددة مثل استخدام كلمة " الطوارئ العامة ". وبذلك، فإن هذه الكلمة تحيط بكافة المواقف بدلًا من حصر أنواع خاصة من الظروف[33].

ولما كانت الفقرة الثانية من المادة الرابعة من العهد على نحو صياغتها الحالية والتي لا تجيز حتى في حالات الطوارئ الاستثنائية، أن يتم مخالفة لأحكام المواد (6،7،8) (الفقرتين 1،2) (11،15،16،18)[34]. ومن ثم، فإن الحق في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد لم يُذكر ضمن المواد التي اشتملت عليها الفقرة الثانية من المادة الرابعة من العهد. ومن ثم، يمكن للدول في حالة الطوارئ الاستثنائية أن تتحلل من التزاماتها بكفالة الحق في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد، وهو أمر خطير نظرًا لأهمية الحق في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد وما يستتبعه من ضرورة كفالة حق الترشيح والانتخاب والتزام الدول بإجراء انتخابات دورية حرة ونزيهة تكفل للأفراد مباشرة شؤون البلاد عن طريق ممثلين يختارونهم بحرية.

(31) المرجع السابق. ص764.

(32) تقرير لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان المرفوع إلى المجلس الاقتصادي والاجتماعي في دورة انعقاده الثانية عام 1947.

(33) د. محمد عصام عبد المنعم إسماعيل: حقوق الإنسان في حالة الطوارئ. دراسة مقارنة . رسالة دكتوراه. كلية القانون جامعة عين شمس. 2012. ص51.

(34) راجع مؤلف د. عبد الفتاح مراد: المرجع السابق. ص770.

ثالثًا: الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان:

لم ترد الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان خالية من القيود في حالة الظروف الاستثنائية، إلا أنها استثنت الحق في المشاركة في الحكم من الحقوق التي يجوز تعطيلها أثناء الظروف الاستثنائية. حيث ورد النص في الفقرة الثانية من المادة 27 من الاتفاقية على أنه:(إن الفقرة السابقة لا تجيز تعليق أي من المواد التالية:(... المادة 23 " حق المشاركة في الحكم "، ...). ولما كانت المادة (23) من الاتفاقية الأمريكية هي التي تكفل حق المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد، ومن ثم لا يجوز تعطيلها حتى في حالات الضرورة أو حالة الطوارئ الأمر الذي يجعل الدول الأعضاء لا تستطيع أن تعلل بحالة الطوارئ أو الظروف الاستثنائية التي تمر بها حتى تعطل الحق في المشاركة في الحكم وإدارة شؤون البلاد، وهو أمر محمود ويعي بأهمية الحق وما يقوم به من دور في ترسيخ أطر الديمقراطية التي تستلزم مشاركة الأفراد في الحكم سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، وحسنًا فعل واضعو الاتفاقية باستثناء الحق في المشاركة من نطاق الحقوق التي يجوز تعطيلها بدعوى الظروف الاستثنائية.

رابعًا: الميثاق العربي لحقوق الإنسان:

أجازت المادة الرابعة من الميثاق العربي لحقوق الإنسان للدول الأعضاء تعطيل بعض الحقوق والحريات المعترف بها في الميثاق والتحلل من التزامات الدول الأعضاء، وذلك في حالة الظروف الاستثنائية. وحيث تناولت الفقرة الثانية من المادة الرابعة الحقوق التي لا يجوز تعطيلها أو التحلل من الالتزامات المقررة بشأنها في حالة الظروف التي أسمتها الطوارئ الاستثنائية، إلا أنها جاءت بقائمة طويلة من الحقوق والحريات التي لا تعطل، وقد خلت تلك القائمة من حق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد رغم أهميته الكبرى في تدعيم أطر الديمقراطية وقواعد الحكم الرشيد، إلا أن الميثاق العربي يرى أنه يجوز تعطيل حق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية.

وتجدر الإشارة، إلى أن العلة التي تعلل بها واضعو الميثاق أن الحقوق والحريات التي لا يجوز تعطيلها أو الانتقاص منها لم تشتمل على العديد من الحقوق والحريات الهامة، وأن تحديد هذه الحقوق لا يرجع إلى كونها أكثر أهمية من غيرها التي يجوز تعطيلها، وإنما يرجع تحديدها إلى طبيعة الظروف الاستثنائية التي تُملي على الدول إعلان حالة الطوارئ، حيث إن هذه الظروف قد يحدث معها أحيانًا حالات قتل خارج القانون وتعذيب واضطراب للنظام وتسود الفوضى، وفي هذه الظروف تكون هناك حاجة ضرورية للتأكيد على الحقوق التي تكون أكثر تعرضًا للانتهاك في هذه الظروف مثل التأكيد على الحق في الحياة ومنع التعذيب وحظر الرق وغيرها من الحقوق[35].

مما تقدم يتضح، أن الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان العالمية والإقليمية،

(35) د. وائل أحمد علام: المرجع السابق. ص145.

كفلت للأفراد حق المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد، كما أنها لم تجعل هذا الحق طليقًا من ثمة قيود، وإنما وضعت له ضوابط وقيود يُنص عليها في القانون، وذلك لتنظيم ممارسة هذا الحق سواء في الظروف العادية أو الاستثنائية، باستثناء العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية والميثاق العربي لحقوق الإنسان، حيث لم يجيزا للأفراد ممارسة هذا الحق في ظل الظروف الاستثنائية، بل نصا على تعطيل ممارسته بحجة أن هذه الظروف الاستثنائية قد يحدث معها اضطراب للنظام العام والأمن العام وبالتالي تسود الفوضى.

والحقيقة، نحن لا نتفق مع هذا التوجه في تعطيل أو الانتقاص من حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية وإدارة شؤون بلادهم في ظل الظروف الاستثنائية، لأن هذا الحق من الحقوق المهمة في تأكيد الحكم الديمقراطي وسيادة القانون والاندماج الاجتماعي والثقافي والتنمية الاقتصادية في المجتمع، ويمثل بصورتيه المباشرة وغير المباشرة في الحياة السياسية عنصرًا هامًا في تمكين الأفراد والجماعات، وأحد العناصر الأساسية للخطط القائمة على حقوق الإنسان التي تهدف إلى القضاء على التهميش والتمييز.

بل إن حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بحقوق الإنسان الأخرى، مثل الحق في التعبير عن الرأي، والحق في تكوين الأحزاب السياسية والحق في التجمع السلمي. ناهيك، على أن إرادة الشعب هي مناط سلطة الحكم، وفيها اعتراف بأن الشعب هو مصدر السلطة، وأن هذه الإرادة يجب أن تترجم على أرض الواقع من خلال انتخابات حرة ونزيهة تجرى بصفة دورية منتظمة عن طريق الاقتراع العام وبالمساواة بين الناخبين وبالتصويت السري أو بأي شكل آخر يضمن حرية التصويت.

وبالتالي، فإن تعطيل هذا الحق أو الانتقاص منه في الظروف الاستثنائية، هو تعطيل وانتقاص لحق الانتخاب، وتعطيل حق الانتخاب هو تعطيل لإرادة الشعب التي هي مناط سلطة الحكم. وكان من الأولى، عدم النص في اتفاقية عالمية أو إقليمية - مهمتها كفالة ممارسة حقوق الإنسان- على تعطيل ممارسة هذا الحق المهم في الظروف الاستثنائية، لكي لا يصبح ذريعة للنخبة السياسية الحاكمة والمسيطرة في الدول الموقعة على مثال هذه الاتفاقيات لتعطيل إرادة الشعب وبالتالي تعطيل حق الانتخاب بحجة الظروف الاستثنائية، والتي هي في الأساس من صنعها لبقائها في الحكم.

وخير دليل على قولنا هذا ما حصل في دول الربيع العربي، حيث أدى تعطيل حق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية من قبل النخب السياسية المسيطرة في تلك الدول بحجة الظروف الاستثنائية إلى تعطيل حق الانتخاب استنادًا إلى مثل هذه الاتفاقيات التي يجدون فيها مبتغاهم، وقد ترتب على ذلك دخول تلك الدول في فوضى عارمة.

وقولنا هذا لا يعني ترك حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية دون تنظيم، لأن هناك واجبات مفروضة على الأفراد تجاه المجتمع تتمثل في ضرورة احترام الحقوق الخاصة بالغير عند ممارستهم لحقوقهم. لذلك، يجب تدخل القانون لتنظيم هذا الحق كغيره من الحقوق سواءً في الظروف العادية أو الاستثنائية.

ولكن إذا كانت ممارسة الأفراد لحقوقهم لا تحول دون تدخل القانون، إلا أن هذا القانون يتعين عليه أن يراعي القواعد التي يتولى وضعها تنظيمًا لذلك الحق ألا تؤدي إلى تقييده، بحيث تنقض هذا الحق أو تنتقص منه.

كما يتعين لاتفاق هذا التنظيم مع الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان وأحكام الدساتير، أن تتوافر علاقة منطقية بين الأغراض المشروعة التي اعتنقها المشرع في موضوع محدد وفاءً بمصلحة عامة لها اعتبارها والوسائل التي اتخذها طريقًا لبلوغها, فلا تفصل النصوص القانونية التي نظم بها المشرع هذا الموضوع عن أهدافها, بل يتعين أن تُعد مدخلًا إليها. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد هو: كيف يمكن معرفة التفرقة بين تنظيم الحق وتقييده؟.

وفي مجال الإجابة على هذا السؤال يرى البعض أن صعوبة التفرقة بين التنظيم والتقييد، تكمن في أن التنظيم ما هو إلا نوع من أنواع التقييد ولكنه أخف الأنواع وطأة على الحقوق والحريات، فالتقييد يشمل التنظيم والانتقاص و المنع والإهدار، والذي يميز التنظيم وصور التقييد الأخرى هو أن التنظيم هو تحديد أفضل طريقة ممارسة لعدة وحدات أو نظائر متشابهة تعمل مع بعضها البعض من أجل تحقيق هدف واحد أي بين أشياء من جنس واحد، تعمل جميعها في اتجاه واحد، من أجل تحقيق غرض معين، أما الانتقاص أو المنع أو الإهدار فيرد على ذات الشيء الواحد فينتقص منه أو يهدره أو يمنعه من القيام بوظيفته.

وبتطبيق هذه الفكرة على حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية وفقاً للرأي السابق، ستكون النتيجة أن تنظيم الحق لا يكون إلا بين الأفراد الممارسين لهذا الحق، بحيث يسمح ممارسة الفرد لحقه بممارسة باقي أفراد الجماعة له بنفس القدر، أو بين ممارسة حق معين وممارسة حق أخرى مغاير له بحيث يسمح ممارسة الأول بممارسة الثاني بنفس القدر. ويكون المعيار القاضي في التفريق بين تنظيم الحق وتقييده هو معيار الضرر الذي يلحقه ممارسة حق ما على وجه معين، بممارسة حق مغاير له، أو الضرر الذي يلحقه ممارسة فرد لحقه بطريقة معينة، بممارسة باقي أفراد الجماعة لحقوقهم، وبذلك ترتب على ممارسة حق ما على وجه معين ضررًا بممارسة حق أخرى، أو بممارسة فرد آخر لنفس الحق، فإن منع المشرع ممارسة الحق على هذا الوجه أو هذه الطريقة يعد تنظيمًا للحق لا تقييدًا له، أما إذا كانت ممارسة حق ما على وجه معين لا يلحق أي ضرر بممارسة أي فرد لحقه ومع ذلك تدخل المشرع ومنع

ممارسة الحق على هذا الوجه، فإنه يصم التشريع المنظم للحق بالإخلال بمبدأ المشروعية لمخالفته الدستور[36].

وبالرغم من تسليمنا لوجهة النظر هذه من الناحية المنطقية، إلا أن الدولة في الواقع أو الحكومة وحدها هي التي تستطيع أن تحدد اتخاذ الإجراءات الملائمة لتقرير حجم ومدى الحقوق المقررة، وهذه الإجراءات القانونية والدستورية منها ما يمكن أن تحجب أو تقلل من الحقوق، فالقانون الذي يضع الحق هو الذي يشكل مصدر القوة له. ولذلك فإن الحقوق بضمنها حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية يجد مكانه وضمان تحقيقه في دولة القانون، وغير ذلك هو الفوضى، أما الدولة التي تتجاوز مضمون شرعيتها وقوانينها بصيغ القمع والمصادرة والاستبداد فهي الدولة المستبدة[37][38].

وفي هذا الصدد تقول المحكمة الدستورية العليا المصرية:(وحيث إن الدولة القانونية هي التي تتقيد في ممارستها لسلطاتها- أيًا كانت وظائفها أو غاياتها- بقواعد قانونية تعلو عليها, وتردها على أعقابها إن هي جاوزتها, فلا تتحلل منها، ذلك أن سلطاتها هذه – وأيًا كان القائمون عليها- لا تُعتبر امتيازًا شخصيًا لمن يتولونها, ولا هي من صنعهم, بل أسستها إرادة الجماهير في تجمعاتها على امتداد الوطن, وضبطتها بقواعد آمرة لا يجوز النزول عنها, ومن ثم تكون هذه القواعد قيدًا على كل أعمالها وتصرفاتها, فلا تأتيها إلا في الحدود التي رسمها الدستور, وبما يرعى مصالح مجتمعها"[39].

وعمليًا، ليس هناك من حدود لصورة الحق، وفي الوقت ذاته ليس هناك أيضًا من حدود تحول دون تنوع القيود واتساع تأثيرها حتى في الدولة القانونية. وذلك لأنه لا يمكن أن نفهم حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية من دون تلازمية القيد الذي يقف أمامه، وهذه الجدلية لم تتوقف يومًا عن التفاعل، إننا يمكن أن نجد العديد من الشواهد عبر التاريخ لدور الحكومة في تقييد وقمع الحقوق، بضمنها حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية من استخدام السيف لقطع اللسان أو الرقبة، إلى أساليب جديدة تتنوع وتتشكل في صياغات ربما أكثر تأثيرًا وفاعلية من تأثير السيف[40].

خلاصة القول, أن حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية وإدارة شؤون بلادهم في النظم الدستورية المعاصرة مازال محل خلاف بين الدولة كسلطة والفرد

(36) د. راغب جبريل خميس: الصراع بين حرية الفرد وسلطة الدولة. المكتب الجامعي الحديث، القاهرة. ط2. 2011. ص 396 وما بعدها.

(37) د. صباح ياسين: الإعلام حرية في انهيار. ط1. الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت. 2010. ص 44.

(38) الدولة المستبدة: هي الدولة التي تحكم دونما قانون أو قيود. ناثان براون: دساتير من ورق. ترجمة وتعليق د. محمد نور فرحات. إصدارات سطور الجديدة، القاهرة. 2010. ص180.

(39) حكم المحكمة الدستورية العليا في القضية رقم 6 لسنة 34 ق." منازعة تنفيذ", جلسة 15 يوليو 2012. المجموعة, الجزء (14) قاعدة رقم (3). ص 778.

(40) د. صباح ياسين: المرجع السابق. ص 38.

كإنسان، حيث دأبت تلك النظم في تنظيمها لهذا الحق إلى تقييده بقيود وصلت إلى حد التعطيل في الظروف الاستثنائية، متذرعة في ذلك بما نصت عليه اتفاقيات حقوق الإنسان العالمية والإقليمية، مما أدى إلى فقدان هذا الحق لواجبه المأمول منه المتمثل في تأكيد الحكم الديمقراطي وسيادة القانون والاندماج الاجتماعي والثقافي والتنمية الاقتصادية في المجتمع، وذلك من خلال مشاركة الأفراد في إدارة شؤون البلاد.

خاتمة الدراسة

مما تقدم يتضح لنا، أن حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد، يُعد بمثابة المقياس الحقيقي للديمقراطية فهو المعبر عن إرادة المواطنين، ومدى شعورهم بممارسة حقوقهم السياسية، ودليل على مدى الحرية التي يتمتع بها الأفراد في المجتمع وقدرتهم على مشاركة الحكام في اتخاذ القرار. ومن خلال بحث ودراسة هذا الموضوع، توصلنا إلى مجموعة من النتائج والتوصيات وهي على النحو التالي:

أولًا: النتائج:

1. إن إعلانات واتفاقيات حقوق الإنسان العالمية منها والإقليمية كفلت للأفراد حق المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون بلادهم.
2. إن إعلانات واتفاقيات حقوق الإنسان العالمية والإقليمية لم تضع ثمة قيود على حق الأفراد في المشاركة في الحياة السياسية وإدارة الشؤون العامة، إلا أن ذلك مشروطًا بأن يكون ذلك مطابقًا للقانون بمعنى أن يكون الحق في المشاركة مرتبط تنظيميًا بأحكام القانون. ومن الطبيعي أن يترك للقانون الداخلي لكل دولة تنظيم حق الأفراد في المشاركة في الشؤون العامة على أن يكون القانون في حدود التنظيم فقط ولا يتعداه إلى تقييد ذلك الحق أو تعطيله تمامًا.
3. إن العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية حدد الحقوق التي لا يجوز تعطيلها في حالة الطوارئ الاستثنائية، ولما لم يكن من بينها حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية ومن ثم يمكن للدول أن تتحلل من التزاماتها بكفالة هذا الحق، وهو أمر خطير نظرًا لأهمية حق مشاركة الأفراد في الحكم وإدارة شؤون البلاد وما يستتبعه من ضرورة كفالة حق الترشيح والانتخاب والتزام الدول بإجراء انتخابات دورية حرة ونزيهة تكفل للأفراد مباشرة شؤون البلاد عن طريق ممثلين يختارونهم بحرية.
4. لم ترد الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان خالية من القيود في حالة الظروف الاستثنائية، إلا أنها استثنت حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية من الحقوق التي يجوز تعطيلها أثناء الظروف الاستثنائية، وهو أمر محمود ويعي بأهمية الحق وما يقوم به من دور في ترسيخ أطر الديمقراطية التي تستلزم مشاركة الأفراد في الحكم سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، وحسنًا

فعل واضعو الاتفاقية باستثناء الحق في المشاركة من نطاق الحقوق التي يجوز تعطيلها بدعوى الظروف الاستثنائية.

5. أجازت المادة الرابعة من الميثاق العربي لحقوق الإنسان للدول الأعضاء تعطيل الحقوق بضمنها حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية المعترف بها في الميثاق والتحلل من التزامات الدول الأعضاء، وذلك في حالة الظروف الاستثنائية.

ثانيًا: التوصيات:

1. يجب أن تحذو الاتفاقيات والعهود والمواثيق الدولية حذو الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان بأن تستثني حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية من الحقوق التي يجوز تعطيلها أثناء الظروف الاستثنائية، وذلك بإضافة برتوكول يلحق بها يؤكد على ذلك، لأن مشاركة الأفراد في الحياة السياسية في بلادهم هي القاسم المشترك بين جميع الدول الديمقراطية وإن اختلفت طرق وأشكال هذه المشاركة، ذلك لأن الحياة الديمقراطية السليمة ترتكز على اشتراك المواطنين في تحمل مسؤوليات التفكير والعمل من أجل مجتمعهم خاصة في الظروف الاستثنائية، فالمشاركة السياسية هي السياج الأمين للديمقراطية. كما أن للمشاركة السياسية أثر إيجابي على مستوى الفرد والسياسة العامة للدولة، فعلى مستوى الفرد تشعره بأهميته وثقل لوزنه السياسي وتربي فيه روح الانتماء لوطنه وتحمل مسؤولياته تجاهه، أما على مستوى السياسة العامة للدولة، حيث يكون القرار السياسي تحقيقًا لديمقراطية المشاركة.
2. إن حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بحقوق الإنسان الأخرى، مثل الحق في التعبير عن الرأي، والحق في تكوين الأحزاب السياسية، والحق في التجمع السلمي، وبالتالي يجب أن تتبنى الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان الكثير من التفصيلات الخاصة لحمايته، بدلًا من الاكتفاء بالإشارة إلى كفالته فقط.
3. يجب على المشرع عند تنظيمه لحق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية عدم الإسراف في وضع الضوابط والقيود بحجة المحافظة على النظام العام والآداب العامة.

وعند تحقق ما أسلفنا يمكن القول، بأن كفالة حق مشاركة الأفراد في الحياة السياسية، هي كفالة واقعية في الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان، وليست كفالة على الورق، وبالتالي يصبح كل الأفراد في المجتمع لهم الحق في المشاركة في الحكم، وقادرون على قيادة التغيير المطلوب نحو حياة أفضل لهم ولوطنهم، أما غير ذلك فهو ضرب من الخيال.

وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد الله رب العالمين

المراجع

أولًا: باللغة العربية:

1 – الكتب:

أ. إبراهيم منتصر عبد السلام:

– الضمانات الدولية والدستورية لحماية حق المواطن في المشاركة في إدارة شؤون بلاده. دار النهضة العربية، القاهرة. 2019.

د. الشافعي محمد بشير:

– قانون حقوق الإنسان. مكتبة الجلاء الجديدة، المنصورة. 1998.

د. راغب جبريل خميس:

– الصراع بين حرية الفرد وسلطة الدولة. المكتب الجامعي الحديث، القاهرة. ط2. 2011.

د. صباح ياسين:

– الإعلام حرية في انهيار. ط1. الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت. 2010.

د. صلاح الدين فوزي:

– الأنظمة السياسية وتطبيقاتها المعاصرة. دار النهضة العربية، القاهرة . 1985.

د. عبد الفتاح مراد:

– موسوعة حقوق الإنسان. شركة البهاء للبرمجيات والكمبيوتر والنشر الإلكتروني، الإسكندرية. بدون تاريخ نشر.

د. عبد العزيز محمد سرحان:

– الإطار القانوني لحقوق الإنسان في القانون الدولي. دراسة مقارنة بالشريعة الإسلامية والدساتير العربية والاتفاقيات الدولية، وقرارات المنظمة الدولية، وأجهزة الرقابة الدولية على احترام حقوق الإنسان وأحكام المحاكم الوطنية (المصادر والحقوق). دار النهضة العربية، القاهرة. 1987.

د. محمود شريف بسيوني ومحمد السعيد الدقاق وعبد العظيم وزير:

– الوثائق العالمية والإقليمية. حقوق الإنسان. المجلد الأول. دار العلم للملايين، بيروت. 1988.

د. وائل أحمد علام:

– الميثاق العربي لحقوق الإنسان. دراسة حول دور الميثاق في تعزيز حقوق الإنسان في جامعة الدول العربية. دار النهضة العربية، القاهرة. 2005.

د. ناثان براون:

– دساتير من ورق. ترجمة وتعليق د. محمد نور فرحات. إصدارات سطور الجديدة، القاهرة. 2010.

2 – الرسائل العلمية:

د. داوود عبد الرازق داوود:

– حق المشاركة السياسية. رسالة دكتوراه. كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية. 1993.

د. محمد عصام عبد المنعم إسماعيل:

– حقوق الإنسان في حالة الطوارئ. دراسة مقارنة . رسالة دكتوراه. كلية القانون، جامعة عين شمس. 2012.

3 – البحوث والمقالات العلمية:

د. محمد نور فرحات:

– القانون الدولي لحقوق الإنسان. بحث منشور ضمن كتاب، الدليل العربي لحقوق الإنسان. تحرير محسن عوض. إصدار المنظمة العربية لحقوق الإنسان. 2005.

ثانيًا: باللغة الأجنبية:

1. **– Bernard K. Gordan, The UN General Assembly, Government & Politics 2 Edition, random house, Inc, New York, 1971, p. 565.**
2. **– J. G. Stark qc, Introduction to international law 10 tenth edition, Butteworths, London, 1989.**
3. **– Lan Brownile, Principles of public intemational law, 4 edition, clarendon Oxford university press, U.S.A, 1990. pp. 553–561.**
4. **– Thomas P. Bernstein and others, Government & politics, 2 Edition, under the editorship of john C. walke & Alwx N. Dragnich. Random house, New York, 1971.**